دُوسْتُويفسْكي

الأخوة كَرامازُوف

تَرجمة كاملة ومدقّقة



دار مكتبة الحياة





دوستويفسكي

الأخوة كارامازوف

ترجمة كاملة ومدققة

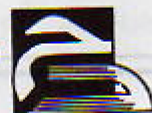
الجزء الثاني

ترجمة

ن. حاسبيني

تقديم ومراجعة

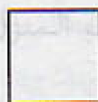
الدكتور محمد الصبّاح



دار مكتبة الحياة

للطباعة والنشر والتوزيع

الباب الثامن



ميتيا



كوزما سامسونوف

لم يعرف ديمتري شيئاً مما تم من أمر غروشينكا التي ابلغته سلامها قبل أن تغادر المدينة لتبدأ حياة جديدة، طالبة إليه أن يذكر إلى الأبد ساعة حب عرفها منها. وكان آنئذ شديد الاضطراب دائب الحركة. إنه يعيش خلال اليومين الأخيرين في حالة ذهنية لا يتصورها العقل، حتى أنه كاد أن يصاب بحمى الدماغ، كما قال هو نفسه فيما بعد. ولم يفلح اليوشا بالعثور عليه في صباح اليوم السابق، ولم يوافي ايفان إلى الإجتماع المحدد في الحانة في اليوم ذاته. وقد كتم امره أصحاب المنزل الذي كان يسكنه، فلم يبوحوا بحركاته تنفيذاً لأوامره.

ولم يهدأ لحظة خلال يومين، فكان يمضي مندفعاً في جميع الاتجاهات بدون تركيز أو راحة، «ويصارع القدر لكي يخلص نفسه»، كما صرّح هو نفسه فيما بعد، بل إنه غادر المدينة مسرعاً في إحدى الفترات لقضاء مهمة مستعجلة استغرقت بضع ساعات، على الرغم من أن ترك غروشينكا دون رقابته ولو لبرهة وجيزة، كان امراً رهيباً بالنسبة له. وقد ذكر كل هذا بتفصيل وافٍ فيما بعد، وثبتت صحته بالادلة المدعومة بالوثائق؛ وحسبي الآن أن أشير إلى أهم حوادث ذينك اليومين الرهيبين اللذين سبقا الكارثة الهائلة التي سقطت عليه فجأة.

صحيح أن غروشينكا احبته في الحقيقة لمدة ساعة واحدة، حباً صادقاً مخلصاً، لكنها كانت في بعض الأحيان تعذبه بلا رحمة ولا شفقة، وتقسو عليه في التعذيب. واسوأ ما في الأمر أنه لم يكن في وسعه قط أن ينفذ إلى أعماق عواطفها. إضافة إلى أنه كان يستحيل عليه أن يخضعها لارادته لا بالقوة ولا بالحسنى، لأنها لم تكن تخضع لأي شيء. وكان يعرف جيداً أن

اللجوء إلى هذه الطرق قد لا يؤدي إلى شيء سوى اغضابها وتركه نهائياً. وكان مصيباً في ما ظنه من أنها هي أيضاً كانت تعاني صراعاً داخلياً، وأنها كانت في حالة شديدة من الحيرة والقلق فهي تحاول أن تبت في أمر ما لكنها كانت لا تستطيع أن تعقد العزم عليه. وهكذا فإنه كان يشعر، وبأسى، شعوراً بعيداً عن العقل ـ وكان محقاً إلى حد ما ـ بأن غروشينكا لا تكن سوى الكره له ولعاطفته نحوها. ولعله كان مصيباً، غير أنه لم يكن يدرك سبب قلق غروشينكا. أما مكمن الداء بالنسبة إليه فكان في الاختيار: إما هو وإما فيودور بافلوفيتش.

وهنا لا بد لنا من التنويه، ونحن نسرد القصة، بحقيقة ثابتة ألا وهي أن ديمتري كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن فيودور بافلوفيتش سيعرض على غروشينكا، أو هو عرض عليها فعلاً، الزواج منها زواجاً شرعياً، ولم يكن يتصور لحظة بأن الشهواني العجوز يفكر بأن ينال بغيته مقابل ثلاثة آلاف روبل. وقد ساعد ميتيا بهذا الاستنتاج معرفته بغروشينكا وخلقها. وهذا هو ما كان يجعله يعتقد احياناً أن قلق غروشينكا إنما مرده إلى حيرتها في اختيار احدهما، ومعرفة الاصلح منهما لها.

وقد يبدو غريباً أنه لم يخطر بباله قط في تلك الأيام أن يفكر بقرب عودة «الضابط»، ذلك الرجل الذي كان له أثر حاسم في حياة غروشينكا، والذي كانت تنتظر وصوله بمزيج من المحبة والكراهية. صحيح أن غروشينكا لم تعد تحدثه، في هذا الأمر بقليل أو كثير، غير أنه كان يعرف بصورة جازمة أنها تلقت منذ شهر رسالة من الرجل ويعرف أيضاً جانباً من مضمونها، إذ اطلع على هذه الرسالة من غروشينكا نفسها. فقد أرته إياها في لحظة من لحظات حقدها، ولكنها دهشت إذ رأت أنه لم يعلق عليها أية اهمية، ولعله من العسير أن نفسر ذلك، لكنه قد يكون من الممكن أن نقول أنه تحت وطأة ذلك الفزع الشديد الناجم عن صراعه مع أبيه في سبيل هذه المرأة، لم يستطع أن يتصور وجود مصيبة تفوق تلك المصيبة وامراً افظع من هذا الأمر في ذلك الحين على الأقل. على أنه لم يكن يعتقد بإمكان ظهور فجائي لحبيب بعد اختفاء خمس سنوات، ولم يفكر بصورة أخص بعودته قريباً.

وفضلاً عن ذلك، فإن رسالة «الضابط» التي اطلع عليها ميتيا، لم تتضمن أكثر من إشارة غامضة إلى احتمال مجيئه. لقد كانت الرسالة باجمعها غير واضحة المعالم، منمقة، مفعمة بالعبارات العاطفية. ويجب أن نشير إلى أن غروشينكا اخفت عنه السطور الأخيرة من الرسالة التي يشير فيها «الضابط» إلى عودته بوضوح أكثر. لقد لاحظ عندئذ، وهذا ما تذكّره فيما بعد، نوعاً من الإزدراء المتعمّد الذي ارتسمت آياته على وجه غروشينكا وهي تطلعه على الرسالة. ولم تقل غروشينكا لدمتري شيئاً مما جرى مؤخراً بينها وبين هذا الرجل، بحيث أنه نسي تدريجياً وجود الضابط نسياناً تاماً.

وكان ميتيا يشعر بأن صراعه الحاسم مع فيودور بافلوفيتش اصبح وشيكاً، وإن ثمة طريقة لحلّه يجب أن تتقرر قبل أي شيء آخر، بغض النظر عما قد يحدث فيما بعد، وكيفما سارت الأمور. وكان يتوقع بقلق ونفاد صبر قرار غروشينكا في كل لحظة، وكان يعتقد جازماً بأنها ستتخذ قرارها فجأة، وسيكون ابن ساعته. وكان يترقب أن تأتي إليه فجأة وتقول له: «خذني، فأنا لك إلى الأبد» وبذلك ينتهي كل شيء. وسيحملها عندئذ ويطوف بها اطراف العالم. إنه عندئذ سيحملها فوراً إلى أبعد مكان ممكن؛ إلى أقاصي روسيا، إن لم يحملها إلى اقاصي الأرض، ثم يتزوج بها، ويعيشان متخفيان لا يعرفهما أحد هنا أو هناك أو في أي مكان. إنهما عندئذ فقط سيبدآن حياة جديدة!

وكانت احلام ديمتري بهذه الحياة الجديدة الصالحة «الفاضلة» خاصة فاضلة، تراود ذهنه في كل لحظة، وقد ملكت عليه كل مشاعره لقد كان ظامئاً للتجديد فهو طالما تألم من تلك الحفرة القذرة التي اوقع نفسه فيها بارادته وباتت تثير الاشمئزاز والنفور في نفسه، وكان ككثير من الناس الذين يواجهون مثل هذه الحالة، يعلق آماله فوق كل شيء على تبديل المكان. وكان دائماً يردد في نفسه أنه لولا هؤلاء الناس، ولولا هذه الظروف، ولو امكنه الفرار من هذا المكان اللعين، لتجددت حياته، وانطلق في طريق جديدة، ذلك ما كان يأمل به ويتوق إلى تحقيقه.

غير أن تحقيق كل ذلك كان مرتبطاً بتحقيق الشرط الأول، وهو ايجاد حل سعيد لمسألة اقترانه بغروشينكا. وهناك احتمال آخر، ذو نهاية رهيبة. فقد

تقول له فجأة: «أغرب عن وجهي، لانني اتفقت، بشكل نهائي مع فيودور بافلوفيتش، وقبلت الزواج به، أما أنت فلا تلقى هوى في نفسي». وعندئذ... عندئذ... ولكن ميتيا لم يكن يعلم ما سيحدث عندئذ. وظل يجهله حتى الساعة الاخيرة، وهذه حسنة يجب أن نسجلها له. إنه لم يكن لديه أية صورة واضحة عن أي هدف، ولا كان يخطط لاقتراف جريمة ما. بل كان يترقب ويتربص وهو يتعذب، والحقيقة أنه طرد من ذهنه كل فكرة اخرى. غير أن مسألة جديدة مقلقة ظهرت له، واعترضت سبيل الحل السعيد الموعود، وهي عقبة خارجية عرضية، ولكنها هامة يستحيل تجاوزها.

تراه ماذا يفعل لو قالت له: «أنا لك؛ خذني بعيداً عن هذا المكان»، وكيف يستطيع أن يبتعد بها؟ ومن أين يأتي بالمال اللازم؟ وها هو يواجه هذه العقبة في الوقت الذي انقطعت فيه عن ميتيا جميع الموارد المالية والهبات التي ظل يتلقاها من فيودور بافلوفيتش سنين عديدة متواصلة. صحيح أن غروشينكا كانت تملك مالاً، ولكن فكرة الإعتماد على مالها أثارت فجأة في نفس ميتيا شعوراً بالعزة والكبرياء لا حد له؛ كان يتوق إلى أن يحملها بعيداً ويبدأ معها حياة جديدة متكلاً على نفسه، متحملاً كل النفقات فلا يكون عالة عليها، وكانت هذه الفكرة ذاتها تثير فيه الاشمئزاز والنفور. ولست اريد أن ابتسط في الحديث عن هذه الحقيقة أو أن احللها، بل سأكتفي بالإشارة إلى أن ذلك كان موقفه في تلك الآونة وقد يكون مرد ذلك كله، بصورة غير مباشرة ولا شعورية، إلى تبكيت ضميره بسبب استيلائه على أموال ايفانوفنا بطريقة غير شريفة. وكان يشعر في ذلك الحين، كما اعترف فيما بعد، «أنه كان نذلاً مع الأولى، وسيكون نذلاً مع الثانية بصورة مباشرة. وإذا علمت غروشينكا، فإنها لن ترضى بنذل مثله».

فمن أين يمكنه الحصول على المال، وكيف الحصول على المال الذي يتوقف عليه مستقبله؟ إنه بدون المال سيفقد كل شيء، ولن يحقق شيئاً، «كل هذا لأنني لا أملك المال، يا للعار!»

سأستبق الحوادث فأقول إن ديمتري ربما كان يعرف فعلا أين يجد المال، بل ربما كان يعرف أين كان هذا المال موضوعاً. ولن اضيف شيئاً الآن

بشأن هذا الموضوع، لأنه سيتضح فيما بعد، ولكن ينبغي أن ابيّن، ولو بكلمات قليلة مبهمة، أن مشكلته الكبرى كانت تكمن في تقديره بانه لكي يحصل على المبلغ الذي يعرف مكانه، ولكي يكون له «حق» الاستيلاء عليه، يجب عليه أولاً أن يعيد إلى كاترينا ايفانوفنا ثلاثة الآلاف روبل، وإلا، «فأنا حقير ولا اختلف عن أي لص حقير آخر، وأنا لا أريد أن ابدأ حياة جديدة بهذه الصفات». ولما قرر ميتيا هذا الأمر في نفسه، عزم على أن يقلب الدنيا رأساً على عقب لكي يعيد الثلاثة آلاف روبل إلى كاترينا ايفانوفنا على أن يفعل ذلك قبل أي شيء آخر. ويمكن القول أنه لم يبلغ قراره هذا حده الأخير إلا قبل ساعات، جاءت بعد مقابلته الأخيرة لاليوشا قبل يومين، إذ التقاه على الطريق، مساء اليوم نفسه الذي وجهت فيه غروشينكا اهانتها البالغة إلى كاترينا ايفانوفنا وقد اعترف ميتيا عندئذ بعد أن أخبره اليوشا بما وقع بينهما بأنه نذل وطلب إلى اليوشا أن يبلغ كاترينا ايفانوفنا إن أخاه نذل، إذا كان في ذلك أي عزاء لها. وقد شعر ميتيا في تلك الليلة، بعد افتراقه عن أخيه، بأنه خير له أن يقتل أحد الناس ويسلبه من أن يعجز عن سداد دينه إلى كاتيا. وكان يقول في نفسه: «إنني أفضل أن يقول الجميع إنني لص قاتل، وأن انفى إلى سجون سيبريا، على أن يكون لكاتيا الحق في أن تقول أنني خدعتها وسرقت مالها واستعملته للهرب مع غروشينكا لكي ابدأ معها حياة جديدة! هذا ما لن افعله!» انتهى ميتيا إلى هذا الموقف وهو يصرف بأسنانه، وربما كان يخشى احياناً أن يعجز دماغه عن تحمل هذه الأفكار. ولكنه في هذه اللحظة بالذات ظل ماضياً في كفاحه...

والغريب أنه، في حين كان الأمر واضحاً بأنه لم يبق شيء في جعبة ميتيا وليس أمامه سوى اليأس - إذ أنى له أن يجمع مثل هذا المبلغ بينما هو يعاني من فقر مدقع؟ - فإنه مع ذلك، ظل حتى النهاية يأمل في الحصول على الثلاثة الآلاف روبل، ويعتقد بأن المال سيأتي إليه بطريقة ما، ولو بالسقوط عليه من السماء. تلك بالضبط حال الناس، امثال ديمتري، الذين لا دراية لهم بشؤون المال سوى تبديد ما ورثوه، ولا يعرفون طريقة واحدة لكسب المال. ولقد اجتاحت عقله بعد افتراقه عن اليوشا قبل يومين عاصفة من الافكار الغريبة

والخيالية التي احدثت اضطراباً عظيماً في تفكيره، الأمر الذي جعله يتجه في بدء الأمر إلى مشروع شاذ وسخيف. ولعل المشاريع الخيالية والأكثر غرابة وشذوذاً هي أول ما يخطر على بال اشخاص من هذا النوع تحيط بهم ظروف مشابهة. وتبدو لهم هذه المشاريع اقرب من غيرها إلى التحقيق.

ولقد استقر رأيه فجأة على أن يذهب إلى سامسونوف، التاجر الذي كان يبسط حمايته على غروشينكا، ليقترح عليه «صفقة» فيحصل منه على كامل المبلغ الذي يطلبه. ولم يكن عنده ادنى شك في القيمة التجارية لمشروعه هذا، إلا أنه لم يكن متيقناً من رأي سامسونوف في مشروعه، على افتراض أنه سينظر إليه من وجهة نظر غير تجارية. وكان ميتيا يعرف التاجر شكلاً، غير أنه لم يسبق له أن تعرف عليه أو تكلم معه. ولكنه كان يعتقد ومنذ زمن بعيد بأن هذا العجوز المتهتك، الذي يقترب الآن من قبره، قد لا يعارض مطلقاً في ضمان حياة شريفة لغروشينكا، واقترانها برجل «يعتمد عليه». وكان يرجح بأن العجوز لن يعارض في هذا وحسب، بل أن هذا ما كان يريده، وأنه مستعد للمساعدة من أجل تحقيقه. وهو استنتج، فضلا عن ذلك، من شائعة ترددت يومها، وربما من بعض الكلمات التي افلتت عفواً من شفتي غروشينكا، بأنه سيؤثره على فيودور بافلوفيتش زوجاً لغروشينكا.

ربما يشعر الكثيرون من قرائي بأن افتراضات ديمتري قد اظهرته على درجة عالية من الغباء وعدم الكياسة، إذ اعتمد على مثل هذه المساعدة وأمل في أن يتسلم عروسه، كما ظن، من يدي حارسها. واجيب بأن ميتيا كان ينظر إلى ماضي غروشينكا كشيء مضى وانتهى امره. إنه كان ينظر إلى ماضيها بمزيد من الرحمة والاشفاق، ولقد حملته عاطفته المتأججة، على الاعتقاد بأن يكون حب غروشينكا له ورغبتها في الاقتران به، بدء حياة جديدة لغروشينكا وله، يكونان فيه مبرأين من كل اثم ورذيلة. وسيغفر كل منهما للآخر ويبدآن حياتهما بداية جديدة. أما كوزما سامسونوف فكان ديمتري ينظر إليه على أنه رجل كان له أثر سيء في ماضي غروشينكا السحيق، مع أنه لم يحبها أبداً وأنه الآن جزء من الماضي انتهى امره كلياً، ولم يعد موجوداً، على حد تفكير ميتيا. إضافة إلى هذا، فإن ميتيا لم يكن قط ينظر إليه كإنسان

يتمتع بصفات الرجولة، لأنه كان معلوماً لدى جميع ابناء مدينتنا أنه لم يكن سوى إنسان أشرف على البلى وأن علاقاته بغروشينكا قد تبدلت وهي الآن اشبه بعلاقات أب بابنته، وقد حدث هذا التبدل منذ أمد بعيد.

ومهما يكن من أمر، فقد ظهر ميتيا على قدر كبير من السذاجة في كل ذلك، لأنه على الرغم من جميع رذائله، كان إنساناً ممعناً في السذاجة وسلامة الطوية. ومن الأمثلة على ذلك أن ميتيا كان يعتقد بأن كوزما العجوز الذي كان على وشك الانتقال إلى العالم الآخر، لا بد وأن يندم ندماً صادقاً على علاقته الماضية بغروشينكا، وأنه لم يكن لها صديقاً وحامياً في هذه الدنيا أكثر اخلاصاً من هذا العجوز الذي اصبح جانبه مأموناً نهائياً.

وعندما أوى ميتيا إلى فراشه، بعد حديثه مع اليوشا عند نقطة تقاطع الطرق، لم يعرف النوم طوال تلك الليلة. وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، كان في منزل سامسونوف يطلب إلى الخادم أن يستأذن له بمقابلة صاحب المنزل. وكان منزل سامسونوف كبيراً فسيح الأرجاء من الطراز القديم سيء التصميم، مؤلفاً من طابقين اضيف إلى جانبه منزل وبعض الغرف الأخرى. وكان يعيش في الطابق السفلي من المنزل ابنا سامسونوف وعائلتاهما، وشقيقته العجوز، وابنته العزبة، أما المنزل الاضافي فكان يسكنه اثنان من موظفيه، أحدهما له اسرة كبيرة. ومع أن المنزل الإضافي والطابق السفلي من المنزل الكبير كانا مزدحمين بسكانهما، فقد جعل العجوز الطابق العلوي له وحده، حتى أنه لم يسمح لابنته بمشاركته ذلك الطابق، مع أنها كانت تتعهده بالخدمة، وكانت مضطرة احياناً إلى الصعود إليه من الطابق السفلي كلما دعاها، وهي التي تعاني من مرض الربو.

وكان في هذا الطابق العلوي عدد من الغرف الفسيحة التي تم تأثيثها للتباهي فقط، وكان اثاثها من الطراز القديم العهد المعهود في بيوت التجار، ووضعت فيها المقاعد الخشنة المصنوعة من خشب الماهوغاني في صفوف طويلة متشابهة، وعلقت فيها ثريات زجاجية مغطاة وصفت على جدرانها مرايا تبعث على الكآبة. وكانت هذه الغرف جميعها غير مأهولة، لأن العجوز كان يسكن غرفة نوم صغيرة لا يغادرها، تقع في جانب قصي من الطابق، وكانت

تخدمه خادم عجوز تضع منديلاً على رأسها، وفتى كان يجلس عادة على الصندوق الموضوع في الممر. وكان العجوز لا يستطيع السير اطلاقاً بسبب تورم قدميه، بل كان في مناسبات نادرة ينهض عن مقعده الوثير فيستند على المرأة العجوز ويسير هكذا في الغرفة ذهاباً وإياباً مرة أو مرتين. وكان نفوراً قليلاً ما يتكلم حتى مع هذه المرأة العجوز.

ولما أُعلم بوصول «الكابتن» رفض في البدء أن يستقبله. ولكن ميتيا ألحّ واستأذن مرة ثانية. وقد أخذ سامسونوف يستجوب الفتى الخادم بدقة المحقق: كيف شكله؟ وهل هو ثمل؟ هل يبدو عليه أنه ينوي اثارة شغب؟ وأجابه الخادم: إن الرجل لا يبدو عليه السكر، ولكنه يرفض الإنصراف. ورفض العجوز استقباله للمرة الثانية. وكان ميتيا يتوقع هذا الرفض، واحضر معه قلماً وورقة، فكتب على الورقة بخط واضح الكلمات التالية: «جئت في امر هام جداً يتعلق مباشرة باغرافينا الكسندروفنا» ثم ارسل الورقة إلى العجوز.

وبعد تفكير قصير، طلب سامسونوف إلى الفتى الخادم أن يدخل الزائر إلى غرفة الجلوس، وأرسل المرأة العجوز إلى الطابق السفلي لتدعو ابنه الأصغر أن يصعد إليه في الحال. جاء هذا الابن الأصغر وكان رجلا مديد القامة يزيد طوله على ستة اقدام، ذا قوة بدنية خارقة، حليق الوجه يرتدي الزيّ الأوروبي، مع أن والده كان ملتحياً يرتدي قفطاناً. كان جميع افراد الأسرة يرتعدون خوفاً أمام الأب. وقد استدعى العجوز هذاالعملاق، لاعن خوف من «الكابتن» فهو لم يكن بطبعه جباناً، بل ليكون إنسان ما إلى جانبه بصفة شاهد إذا لزم الأمر، ووقع أمر طارىء. وها هو يتوجه إلى غرفة الاستقبال معتمداً على ابنه والخادم، ولعله من الصواب أن نفترض أنه كان يشعر بفضول عظيم وحب للاستطلاع. وكانت غرفة الاستقبال التي كان ميتيا ينتظر فيها فسيحة الارجاء تبعث الرهبة في النفس، مما زاد في انقباضه. وفي هذه الغرفة صف مزدوج من النوافذ وشرفة مغطاة، وجدرانها مغطاة بالرخام، وثلاث ثريات كبيرة مظللة بالأغطية.

كان ميتيا جالساً على مقعد صغير قرب مدخل الغرفة، ينتظر مصيره بقلق شديد. فلما ظهر الرجل العجوز في المدخل المقابل، على بعد سبعين قدماً، هب ميتيا فجأة من مكانه، وسار تجاهه بخطواته العسكرية الواسعة

لملاقاته. كان ميتيا متأنقاً في ملبسه، يرتدي معطفاً طويلاً مزرراً إلى اعلاه، ويمسك بيده قبعة مستديرة وقفازين اسودين، وهو اللباس نفسه الذي كان يرتديه قبل ثلاثة أيام، اثناء اجتماعه مع والده وأخويه في الدير. وقف الرجل العجوز بانتظاره، مظهراً الهيبة والرصانة. وشعر ميتيا وهو يقترب منه أنه كان يرقبه بعين متفحصة من اعلاه إلى اسفله. وقد أخذ ميتيا أيضاً بوجه سامسونوف المتورم تورماً مزمناً. وكانت شفته السفلى، الغليظة بطبيعتها، تبدو الآن متهدلة. وانحنى لضيفه بصمت مهيب، وأشار إليه بالجلوس على مقعد منخفض قرب الاريكة، ثم تهالك على الاريكة المقابلة، متكئاً على ذراع ابنه وهو يئن متألماً، حتى إن ميتيا، الذي تأكد له ألمه، شعر في الحال بتأنيب الضمير، وأحس بتفاهة شأنه إذ تسبب بازعاج هذا الرجل الوقور.

جلس الرجل العجوز، ثم سأل: «ما الذي تريده مني، يا سيدي؟» وقد القى هذا السؤال بعد تأمل، وبصوت ينم عن الوضوح والشدة ولا يخلو من الأدب.

فأجفل ميتيا فنهض من مكانه ثم عاد فجلس ثانية. ثم شرع يتكلم بصوت مرتفع وعصبية واضحة، مستعيناً على إيضاح المعاني بحركات من يديه، وكان يبدو عليه الهياج. وكان واضحاً أنه كان كمن وجد في مأزق، وأنه كان على وشك الهلاك، متعلقاً بآخر أمل للنجاة، مستعداً للغرق إذا اخفق. وبدا أن سامسونوف العجوز ادرك كل ذلك في لحظة واحدة، رغم أن وجهه ظل جامداً كوجه صنم، لا يبدو عليه التأثر.

بدأ ميتيا كلامه فقال: «سيدي المبجل، كوزما كوزميتش، لا شك أنك سمعت، عن خصوماتي مع والدي، فيودور بافلوفيتش كرامازوف، الذي سلبني ميراثي من أمي... إن أهل البلدة يتناقلون الأقاويل بهذا الخصوص.. لأن الناس جميعاً هنا يتقولون في كل ما لا يعنيهم.. وربما بلغتك هذه الأنباء بواسطة غروشينكا.. استميحك عذراً، اعني بواسطة اغرافينا الكسندروفنا.. اغرافينا الكسندروفنا، السيدة التي اكن لها اعظم التقدير والاحترام...».

وما كاد ميتيا ينهي الجملة الأولى من حديثه حتى اعياه الكلام. ولن أكرر هنا حديثه كلمة كلمة، بل سنكتفي بايجاز لمضمونه. فقد قال، أنه منذ

ثلاثة اشهر خلت، استشار محامياً في عاصمة المقاطعة، لقصد واضح (وقد استعمل ميتيا هاتين الكلمتين لرواجهما في بيئة سامسونوف) «إن بافل بافلوفيتش كورنبدولوف محام لامع، ياكوزما كوزميتش. لعلك سمعت عنه؟ إنه رجل يحاكي السياسيين بدهائه وذكائه.. وهو يعرفك، أيضاً... وقد اجزل في الثناء عليك...» وتوقف ميتيا عن الكلام للمرة الثانية، لقد عاد إليه الاضطراب. ولكن توقفه لم يطل، فقد كان يسرع في استئناف الكلام، وهكذا بقي يتابع.

إن كورنبدولوف هذا، بعد أن استوضحه بما لا مزيد عليه، وفحص الوثائق التي استطاع احضارها معه (وقد ألمح ميتيا إلى هذه الوثائق تلميحاً مبهما، ومر بالموضوع سريعاً) ابلغه انهما يستطيعان بكل تأكيد أن يقيما دعوى قانونية بشأن قرية تشرماشنيا، التي كان يجب، كما قال، أن يرثها من أمه، الأمر الذي يسقط في يد والده الوغد العجوز.. «إذ أن جميع الأبواب لم توصد بعد والعدالة ما زالت تستطيع العثور على منفذ». وفي الحقيقة، إنه يستطيع أن يضمن حصوله على مبلغ اضافي يتراوح من ستة آلاف وسبعة آلاف روبل من فيودور بافلوفيتش، لأن قيمة تشرماشنيا تبلغ خمسة وعشرين ألفاً على الأقل، وحتى ثمانية وعشرين ألفاً، بل «ثلاثين، ثلاثين، ياكوزما كوزميتش، وهل تصدق إنني لم أحصل إلا على سبعة عشر ألفاً من ذلك الرجل القاسي القلب!» ولكن ميتيا أرجأ المضي في القضية، لجهله بامور القانون، ولكنه ما إن جاء إلى هذه المدينة حتى فوجيء بكونه ملاحقاً. وهنا غضب ميتيا مرة أخرى، واستطرد كلامه من جديد: «فهلا تفضلت يا سيادة كوزما كوزميتش المبجل، وتوليت قضيتي ضد ذلك الوحش الهائل فأتنازل لك عن حقوقي كلها، على أن تدفع لي من القيمة مبلغ ثلاثة آلاف روبل فقط؟... إنك لن تخسر في هذه القضية بأي حال من الأحوال. إنني اقسم على ذلك بشرفي، اقسم بشرفي. بل أن الأمر على نقيض ذلك فإنك قد تحصل على ستة آلاف أو سبعة بدلا من ثلاثة والمهم، قبل كل شيء، أن تتم الصفقة في ذلك اليوم بالذات.

«إنني مستعد لابرام الصفقة معك لدى الكاتب العدل، أو لدى أي

كان. والواقع أنني مستعد لان أفعل أي شيء.. سأسلمك جميع المستندات.. وكل ما تطلبه، واتنازل لك عن كل شيء... وباستطاعتنا أن نبرم الاتفاقية حالاً... وإذا امكن، إذا كان ذلك ممكناً، أن يتم الأمر في صباح هذا اليوم... باستطاعتك أن تنقذني بتلك الثلاثة الآلاف، لأنك أكبر أصحاب رؤوس الأموال في المدينة، وهكذا ستنقذني من... ستنقذني في الحقيقة... لتنفيذ عمل خير، بل عمل شريف... لانني اكنّ انبل المشاعر لإنسانة، تعرفها أنت معرفة جيدة، وتعنى بها كأب. وما كنت لآتي، في الحقيقة، لو لم تكن عنايتك بها كأب. والواقع أنه صراع بين ثلاثة اشخاص في هذه المسألة؛ لأنها مسألة تقرير مصير. إن ذلك شيء رهيب يا كوزما كوزميتش! مأساة، يا كوزما كوزميتش، مأساة! وبما أنك انسحبت منذ زمن بعيد، انحصرت المنافسة بين اثنين. لعل تعبيري عن افكاري ركيك، ولكني لست اديباً. إذاً فأنا في كفة، وذلك الوحش في الكفة الأخرى. وعليك أن تختار بيننا، فإما أنا أو الوحش، والأمر منوط بك، فبين يديك مصائر ثلاثة اشخاص، وسعادة اثنين.. معذرة اذ رأيتني أخلط في الكلام، ولكنك تفهم قصدي.. إنني ادرك من عينيك الكريمتين أنك تفهم. وإذا كنت لا تفهم، فقد قضي علي.. تلك هي قضيتي!»

بهذه العبارة أنهى ميتيا خطابه المفكك، وقفز من مقعده منتظراً الجواب على اقتراحه الأحمق. لقد ادرك فجأة وهو ينطق بالجملة الاخيرة من خطابه، واليأس يتملكه، أن كل جهوده ذهبت عبثاً، وأن حديثه كله كان مجرد سخافة.

«ما اغرب هذا! لقد تصورت وأنا في طريقي إلى هنا أني وضعت خطة جيدة، فإذا بها الآن لا تعدو السخافة». لقد لمعت هذه الفكرة في ذهنه فجأة.

توقف ميتيا عن الكلام وظل الرجل العجوز ساكتاً هادئاً برهة وهو يلاحظ انتظاره للجواب. وأخيراً، لفظ كوزما كوزميتش قراره بلهجة لاذعة حازمة:

ـ معذرة، فنحن لا نتعاطى اعمالاً كهذه.

وشعر ميتيا فجأة أن قدميه تخونانه ولم تعودا تقويان على حمله.

ثم تمتم وهو يبتسم ابتسامة متكلفة: «ماذا عساني أفعل الآن، يا كوزما

كوزميتش؟ أظن بأنني انتهيت، ألست معي؟

ـ معذرة....

وظل ميتيا واقفاً مشدوهاً بدون أن يأتي بأي حركة. ثم لاحظ فجأة تبدلاً في وجه الرجل العجوز، فارتعش رعشة ممزوجة بالأمل.

قال العجوز: «اعلم يا سيدي أننا لا نتعاطى اعمالاً كهذه، فهناك القضاء والمحامون، حقاً إنه أمر مقيت. ولكن إذا شئت، أدلك على رجل يستطيع أن تعرض أمرك له».

فصاح ميتيا بكلمات متقطعة: «رباه! من هو هذا الرجل؟ إنك تنقذني يا كوزما كوزميتش».

ـ إنه لا يقطن هنا، وليس موجوداً في هذه المدينة الآن. فهو فلاح يتعاطى تجارة الأخشاب. واسمه لياغافي، إنه ما زال منذ عام يفاوض فيودوربافلوفيتش على اشجار حرجك في قريتك تشرماشنيا. وهما لم يتفقا على الثمن، لعلك علمت بهذا؟ وقد عاد الآن وهو مقيم لدى كاهن قرية الينسكي، وهي تبعد حوالي اثني عشر فرسخاً عن محطة فولوفيا، وقد كتب إلي أيضاً يستشيرني بخصوص هذه الأشجار. واظن أن فيودور بافلوفيتش عازم على الذهاب إليه فإذا سبقته إليه واقترحت عليه ما اقترحته علي الآن، فلعله..

فقاطعه ميتيا مهللاً: «فكرة رائعة! إنه الرجل المطلوب، وسيقبل بالعرض. فهو يساوم في السعر الذي يطلب منه، وها هو سيحصل على جميع الوثائق التي تجعله مالكاً الحرج ذاته».

وانهى ميتيا كلامه فجأة وهو يضحك ضحكته القصيرة الجافة التي جعلت سامسونوف يرتعش منها فزعاً.

ثم هتف بلهجة مفعمة بالأمل «كيف السبيل لشكرك، يا كوزما كوزميتش؟»

فأجاب سامسونوف وهو يحني رأسه: «لا داعي للشكر».

ـ ولكنك لا تعلم، لقد انقذتني، إن هاتفاً قد دفعني إليك... والآن فالى ذلك الكاهن!

ـ لا داعي للشكر.

ـ سأمضي إليه على جناح السرعة، وأخشى أن أكون قد اثقلت عليك. لن أنسى لك هذا الجميل. إنه وعد من روسي، يا كوزما كوزميتش روسي!

ـ بكل تأكيد!

وفيما يكاد يمسك ميتيا بيده لكي يشد عليها، إذ بدا في عيني الرجل العجوز بريق ينم عن حقد. فسحب ميتيا يده، ولكنه لام نفسه بسبب تشككه. وقال في نفسه: «إنه متعب».

ثم صاح بصوت عال «في سبيلها! يا كوزما كوزميتش! اعلم أن الأمر في سبيلها». واحنى قامته، واستدار بسرعة واتجه نحو الباب بخطوات واسعة، دون أن يلتفت إلى الخلف. لقد كان يرتجف لشدة الفرح. ثم أخذ يردد في نفسه: «لقد كدت انتهي، فجاء ملاكي الحارس وانقذني». وطالما رجل اعمال مثل سامسونوف (إنه رجل نبيل جدير بالثقة، وما اهيب طلعته!) قد اشار علي بهذا النهج، إذاً... إذاً فالنجاح مؤكد. سأمضي حالاً، «وسأعود قبل حلول الليل، أجل قبل حلول الليل واكون قد انهيت الأمر، فلا يمكن أن يكون العجوز قد سخر مني». وكان ميتيا يردد هذه الأفكار وهو يستعجل الوصول إلى بيته. والواقع أنه لم يتبادر إلى ذهنه شيء سوى افتراضين: إما أن تكون تلك النصيحة عملية (لا سيما وأنها صادرة عن رجل ذي خبرة كهذا له دراية بالأعمال التجارية، ومعرفة بلياغافي هذا يا لقبح هذا الاسم) وإماأن الرجل العجوز كان يسخر منه.

وللأسف لقد كان الافتراض الثاني هو الأصح. فقد ظل سامسونوف، ولفترة طويلة من الزمن بعد وقوع الكارثة، يضحك كلما تذكر أنه سخر من الكابتن. لقد كان رجلاً خلا قلبه من العاطفة، حقوداً، محباً للسخرية، مريضاً بداء الكراهية. ولست ادري ما الذي استفزه لمثل هذه السخرية، أهو وجه «الكابتن» المهتاج، أم الاعتقاد الساذج الذي رسخ في نفس ذلك «المتهتك الطائش» بأنه، أي سامسونوف، يمكن الاحتيال عليه بمثل تلك القصة عن مشروعه؟ أم هو الغيرة على غروشينكا التي جاءه ذلك «الأحمق» باسمها وعرض عليه مشروعه لكي يحصل على المال؟ ولكنه عندما كان ميتيا يقف

أمامه ويشعر أن قدميه قد خانتاه، واعلن فزعاً أنه هلك، في تلك اللحظة نظر الرجل العجوز إلى ميتيا نظرة حقد، وقرر أن يجعل منه موضوعاً للسخرية والضحك. وبعد أن خرج ميتيا، التفت كوزما كوزميتش إلى ابنه وقد بدا عليه غضب شديد، وامره أن يمنع ذلك المتسول من العودة إلى منزله، بل وأن يحول دون دخوله فناء المنزل، وإلا...

ولم ينطق بتهديده، غير أن ابنه، الذي تعود على رؤيته غاضباً اخذ يرتعد خوفاً. وظل العجوز بعد ذلك ساعة كاملة يتملكه الغضب الشديد مما جعل جسمه يرتعش. وفي المساء شعر بضعف وألم. فطلب استدعاء الطبيب.



لياغافي

ادرك ديمتري ضرورة الاستعجال إلى حيث كان يقيم لياغافي، ولكنه كان ينقصه المال لاستئجار الخيول التي ستنطلق بالعربة التي ستقله. إذ لم يكن في جيبه أكثر من أربعين قرشاً، وهو المبلغ الذي تبقى له بعد تلك السنوات الكثيرة التي عاشها برخاء! غير أنه تذكر وجود ساعة فضية عتيقة في منزله كانت تعطلت منذ زمن بعيد. فأسرع إلى المنزل وأخذ الساعة وحملها إلى رجل يهودي صاحب دكان لبيع الساعات في السوق. فنقده هذا اليهودي ستة روبلات ثمناً لها.

وصاح ميتيا منتشياً: «إنني لم أكن انتظر الحصول على هذا المبلغ». (وكانت النشوة لا تزال تغمره). ثم اختطف الروبلات الستة من يد الساعاتي وعاد إلى منزله مسرعاً. واقترض من أصحاب المنزل ثلاثة روبلات وكان هؤلاء يحبونه كثيراً حتى أنهم سروا بإعطائه هذا المبلغ رغم أنهم كانوا في ضائقة واخبرهم ميتيا وهو ما زال في نشوته، بأن مصيره سيتقرر هذا اليوم، وشرح لهم باقتضاب تفاصيل الخطة التي عرضها لسامسونوف، وقرار هذا الرجل، والآمال التي بدت مشرقة له، وغير ذلك. وكان هؤلاء القوم قد اطلعوا من قبل على الكثير من اسرار ميتيا، ولهذا فقد كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى واحد منهم، إلى رجل متواضع ولا يعرف الكبرياء أبداً. وبعد أن اجتمع في يد ميتيا مبلغ تسعة روبلات على النحو الذي وصفنا، ارسل في طلب الجياد لكي تنقله إلى محطة فولوفيا. وقد كانت الحقيقة التي بقي الناس يذكرونها هي أنه «في منتصف ذلك اليوم الذي سبق الحادث، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً، وأنه باع ساعته للحصول على المال واقترض من أصحاب المنزل ثلاثة روبلات، وقد تم كل ذلك أمام شهود».

وأنا الآن أشير إلى هذه الحقيقة، وسيتضح فيما بعد سبب اشارتي.

ومع أن وجه ميتيا كان يعكس فرحه، ومع توقعه بأنه سيتمكن في آخر الأمر من حل جميع هذه المشاكل، إلا أنه عندما اخذ يقترب من محطة فولوفيا، بدأ يرتعد لدى تفكيره بما كانت غروشينكا تفعله في غيبته. وأخذ يتساءل عمّا يؤول إليه امرها في حال قررت أن تذهب هذه الليلة إلى منزل فيودور بافلوفيتش. ولهذا السبب سافر دون أن ينبئها بذلك، وأمر صاحبة المنزل بكتمان المكان الذي سافر إليه، إذا سألهم أحد ما عنه.

وفيما كانت العربة منطلقة به وكان يكرر في نفسه باستمرار: «يجب أن أعود مهما كلف الأمر، يجب أن أعود الليلة. بل يجب أن أحضر لياغافي معي... لكي نبرم العقد. كان يستعرض هذه الافكار في ذهنه وقلبه يكاد ييبس ولكن احلامه، ويا للاسف، لم يكتب لها أن تتحقق.

ولنبدأ بالقول أنه وصل متأخراً، لأن الطريق المختصرة التي سلكها إلى محطة فولوفيا كانت تبعد مسافة ثمانية عشر فرسخاً لا اثني عشر فرسخاً. ثم إنه لم يجد الكاهن في منزله ببلدة إيلينسكو؛ بل كان في قرية مجاورة. وعندما انطلق ميتيا إلى تلك القرية وكانت خيوله اصبحت منهوكة القوى، كان الليل قد بدأ يرخي سدوله.

وهناك سرعان ما اخبره الكاهن الخجول الودود، أن لياغافي كان يسكن معه فعلاً في بدء الأمر، أما الآن فهو يقيم في بلدة سوهوي بوسيولوك، وإنه سيبيت ليلته في كوخ الناطور، إذ أنه ينوي شراء الأخشاب من هناك أيضاً والح ميتيا على الكاهن أن يصطحبه حالاً إلى سوهوي بوسيولوك، فوافق هذا بعد أن سمعه يقول له أنه بذلك «يحقق له الخلاص». وشعر الكاهن بالفضول. ولسوء الحظ فإنه اقترح أن ينطلقا إليها سيراً على الأقدام باعتبار أنها لا تبعد «اكثر بكثير» من فرسخ واحد. وقد وافق ميتيا على السير بطبيعة الحال، واخذ يسير بخطواته الواسعة مما اضطر الكاهن المسكين أن يهرول خلفه لكي يلحق به، وكان رجلاً عظيم التروّي والحذر، كما أنه ما زال فتياً.

وطفق ميتيا يتحدث إليه أيضاً عن خططه بعصبية واضطراب، وسأله النصح فيما يتعلق بلياغافي، ولم يسكت لسانه عن الكلام طول الطريق. وكان

الكاهن يجيب على اسئلة ميتيا بقوله: «لست أدري آه، لا أقدر. أنى لي أن اعرف؟» وما شابه ذلك من اجوبة. وعندما وصل ميتيا بالحديث إلى نزاعه مع ابيه حول إرثه، اصاب الكاهن ذعر شديد، لأنه كان معتمداً في معاشه على فيودور بافلوفيتش. وقد استفهم من ميتيا، والدهشة تغلبه، عن سبب اعتماده هذا الاسم للتاجر القروي غورستكين لياغافي، موضحاً له أن اسم الرجل فعلاً كان لياغافي، إلا أنه لم يكن يدعى بهذا الاسم ابداً، وأنه يشعر باهانة عظيمة لدى دعوته به، وطلب منه أن يحرص على مخاطبته باسم غورستكين. واختتم الكاهن نصيحته بقوله: «إنك إذا لم تتبع نصيحتي فلن تنال منه شيئاً، بل إنه لن يصغي لك». كانت دهشة ميتيا للحظة، ثم أوضح للكاهن أن هذا هو الاسم الذي سماه به سامسونوف. فلما سمع الكاهن ذلك غيرّ الحديث، مع أنه كان بوسعه أن يحسن صنعاً لو أنه أوضح لميتيا شكوكه في نية سامسونوف إذ ارسله إلى ذلك الفلاح الذي دعاه بلياغافي، وكان لا غبار على هذه التسمية، وافهمه أن سامسونوف إنما اراد أن يجعل منه اضحوكة. غير أن ميتيا لم يكن لديه الوقت الكافي للتفكير في مثل هذه التوافه من الأمور. وانطلق في طريقه بخطوات واسعة وعندما وصلا إلى سوهوي بوسيلوك ادرك أن المسافة لم تكن فرسخاً، ولا فرسخاً ونصف الفرسخ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل. ولكنه ظل مسيطراً على غضبه برغم ما شعر به من انزعاج.

ودخل الإثنان إلى الكوخ، وكان الناطور يشغل نصفه، أما النصف الثاني والذي يفصله ممرّ عن النصف الأول، فكان يشغله غورستكين وينام في أفضل غرفة عند الطرف الآخر من الممر. أنارا شمعة، وولجا باب الغرفة وكانت الغرفة عظيمة الدفء. ورأيا على المائدة ابريق شاي قد افرغ كله، وطبقاً عليه اقداح وزجاجة فارغة من شراب «الروم»، وزجاجة فودكا مملوءة إلى نصفها وبعض كسرات الخبز. ورأيا الضيف لياغافي مضطجعاً على مقعد طويل وقد جعل من معطفه لفّة كوسادة، وهو يشخر شخيراً مرتفعاً.

وعندما رأى ميتيا هذا المشهد وقف حائراً، ثم قال باضطراب شديد: «يجب أن أوقظه بالطبع، فإن ما جئت من أجله هام جداً وأنا مستعجل، فعليّ أن أعود هذا اليوم». غير أن الكاهن والناطور ظلا واقفين ولم يبديا برأييهما.

فمضى ميتيا إلى النائم واخذ يحاول ايقاظه بنفسه؛ فكان يهزه هزاً عنيفاً، غير أن الرجل لم يستيقظ.

فقال ميتيا: «إنه ثمل، يا لله! ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟» وكاد صبره ينفذ فأخذ يجذب النائم من يديه وساقيه، ويهز رأسه، ويرفعه محاولاً أن يجلسه على المقعد. وغاية ما حققه، بعد جهود شاقة، أنه جعل النائم السكران يهذي بكلمات غامضة مع شتائم مقذعة.

واخيراً قال الكاهن: «خير لك أن تنتظر قليلاً فإن حالته ليست مرضية».

وقال الناطور: «لقد بقي يشرب طول اليوم».

فصاح ميتيا: «يا للسموات! ليتكما تدركان كم هو مهم لي هذا الأمر وكم بلغ يأسي».

وعاد الكاهن يقول: «لا بد أن تنتظر حتى يحين الصباح».

ـ حتى الصباح؟ يا رحمة الله! إن هذا مستحيل!

وبلغ ميتيا ذروة اليأس، فكاد أن يهجم على الرجل النائم ويحاول ايقاظه من جديد، غير أنه امسك بعد أن ادرك عقم جهوده. ولم يقل الكاهن شيئاً، أما الناطور فكان قد نعس وبدا الأسى في وجهه.

ثم قال ميتيا بلهجة تعكس يأسه التام: «أية فواجع تدبرها الحياة للناس». واخذ العرق يتصبب على وجهه. وانتهز الكاهن فرصة الهدوء هذه فأعرب عن رأيه المعقول بأنه حتى ولو استيقظ الرجل، فإنه سيظل مترنحاً غير قادر على الحديث. وقال له: «بما أن قضيتك هامة، فمن الخير لك قطعاً أن تؤجل الأمر حتى الصباح». فوافقه ميتيا الرأي وحرك يده بطريقة تدل على اليأس؛ قائلاً: «أيها الأب، سأبقى ساهراً هنا وسأضيء الشمعة، لأرقب اللحظة المواتية، وحالما يستيقظ سأكلمه». وخاطب الناطور بقوله: «سأدفع لك ثمن الشمعة، وأجرة المبيت، وستذكر ديمتري كرامازوف». وعاد إلى الكاهن يخاطبه: «ولكنني يا أبتاه لا أدري أين ستنام؟»

فقال الكاهن: «سأعود إلى بيتي سآخذ حصان الناطور. والآن استودعك الله وأتمنى لك التوفيق والنجاح».

هكذا تم الرأي. وانطلق الكاهن على صهوة حصان الناطور وهو فرح

بخلاصه من ميتيا وكان يهز رأسه حائراً لا يدري ما إذا كان عليه، صباح الغد، أن يبلغ المحسن إليه فيودور بافلوفيتش نبأ هذا الحادث الغريب، «أو أنه قد يعلم به في ساعة نحس، فيغضب ويكف عن احسانه لي».

مضى الناطور إلى غرفته وهو يحك رأسه دون أن ينطق بكلمة. وجلس ميتيا على مقعد لكي «يترقب اللحظة المواتية» كما قال. وشعر بكآبة عظيمة تلفه كغمامة دكناء، كآبة مرهقة موحشة! كان يحاول التفكير لكن دون جدوى. وظلت الشمعة المتقدة ترسل نورها الخافت، وارتفع صوت صرار الليل قريباً منه في الغرفة الدافئة. وفجأة تخيّل الحديقة، والممر الواقع خلفها، وزين له وهمه أن باب منزل والده يفتح، وغروشينكا تدخل منه. فقفز من مجلسه مرتاعاً.

قال، وهو يصرف بأسنانه: «إنها مأساة!» ثم مشى بحركة آلية إلى حيث يرقد النائم وأخذ يتفرس في وجهه. فرآه فلاحاً شاباً دقيق العود، ذا وجه زادت استطالته، ضفائر شعره قد امتزج فيها البياض بالسواد، وكانت لحيته طويلة كثة حمراء اللون، وهو يرتدي قميصاً قطنياً أزرق، وصداراً أسود، تتدلى من أحد جيوبه سلسلة ساعة فضية. حدق ميتيا بوجه الرجل بكراهية فائقة، ولم يدر لماذا شعر بانزعاج عظيم عندما حط بصره على ضفائر شعره.

لقد شعر باذلال لا يطاق، فهو قد خلف وراءه اموراً هامة، وبذل تضحيات عظيمة، واضنى نفسه، وها هو رغم مجيئه من أجل أمر هام ومستعجل، يقف عند هذا الرجل الغبي الذي يتوقف مصيره كله عليه، وما زال نائماً يشخر لا يبالي بشيء وكأنه جاء من كوكب آخر.

وهتف ميتيا فجأة: «يا لسخرية الأقدار!» وكاد يفقد رشده فاندفع نحو الفلاح الثمل واخذ يحاول إيقاظه. انهضه من رقدته، وأخذ يجذبه ويدفعه بل ويضربه، وإذ فشلت محاولاته اليائسة لخمس دقائق مضت، تركه وعاد إلى مقعده فجلس عليه يائساً عاجزاً.

ثم صاح: «يا للأحمق! يا للأحمق!» وأضاف يقول، من غير تفكير: يا للعار، إن الأمر يكاد يضيع!» وشعر بألم حاد في رأسه، وتساءل في سره أينبغي أن أعدل عن هذه المهمة جملة؟ ووجد نفسه يجيب: «كلا، لأنتظرن حتى

الصباح. سأنتظر عامداً، إن أن اهمية الأمر هي التي حملتني على المجيء إلى هنا وفضلاً عن ذلك فليس لدي خيل. فكيف يمكنني الرحيل؟ أواه يا لغبائي إذ جررت على نفسي كل هذا!»

كان صداعه يشتد ويزداد، فجلس جامداً، ثم أحس بالنعاس بدأ يغالبه، واستغرق في النوم وهو جالس على المقعد ونام ساعتين أو أكثر، ولما استيقظ من نومه، كان صداعه بلغ حداً لا يحتمل حتى أنه كاد يصرخ من فرط الألم. وأحس كمن يضرب على صدغيه، وبألم عظيم في قمة رأسه. وانقضى وقت طويل قبل أن يستيقظ تماماً ويدرك سبب ما ألمّ به.

وأدرك أخيراً أن جو الغرفة المدفأة جيداً، قد افسدته رائحة الفحم المحترق في الموقد، وأنه كاد يموت اختناقاً. وكان الفلاح الثمل لا يزال يشخر وهو يغط في سباته. وكانت الشمعة قد ذابت وكادت تنطفيء، فصرخ ميتيا ومشى مترنحاً عبر الممر ودخل غرفة الناطور، فاستيقظ هذا فوراً، ولكنه لما سمع من ميتيا أن رائحة الفحم طاغية في الغرفة الأخرى، ابدى عدم مبالاة غريبة، مما ادهش ميتيا وازعجه مع أن الناطور اتجه نحو تلك الغرفة ليقف على حقيقة الأمر.

وصاح ميتيا وقد استبد به الفزع: ولكنه ميت، إنه ميت! وأنا... ماذا أصنع؟

وفتحا باب الغرفة على مصراعيه، وفتحا النافذة ومدخنة المدفأة، واحضر ميتيا دلوا مملوءاً بالماء من الممر. وقد بدأ بنفسه فجعل رأسه فيه، ثم عثر على خرقة فبللها بالماء ووضعها على رأس لياغافي. وكان الناطور لا يزال يبدي آيات الازدراء. وعندما فتح النافذة قال بامتعاض: «إن كل شيء سيكون الآن على ما يرام».

ثم عاد الناطور إلى نومه بعد أن ترك لميتيا سراجاً مشتعلاً. وأخذ ميتيا يدور حول الفلاح الثمل نصف ساعة من الزمن، وهو ينضح رأسه بالماء مرة بعد مرة، وقرر أن يبقى يقظاً. ولشدة اعيائه، فإنه ما كاد يجلس دقيقة واحدة لكي يسترد فيها قوته، إذ به يطبق جفنيه ويتمدد بلا وعي على المقعد وينام كالأموات.

وعندما استيقظ، كانت الساعة التاسعة، فصعق لتأخره في النوم. وكان نور الشمس يسطع من نافذتي الكوخ الصغيرتين. وكان الفلاح ذو الشعر المضفور جالساً على المقعد وقد تدثر بمعطفه. ورأى امامه إبريقا آخر من الشاي وزجاجة اخرى من الخمر نصفها فارغ. (وكانت زجاجة الأمس قد فرغت تماماً). فهبّ ميتيا جالساً، وادرك لتوه أن الفلاح اللعين قد عاد إلى سكره، حتى اصبح متعذراً أن يعود إلى صحوه. وحدق ميتيا فيه لحظة بعينين واسعتين، وكان الفلاح يرقبه بصمت وخبث، وقد جلس جلسة فيها استخفاف، بل خيل لميتيا أنه كان ينظر إليه باستخفاف وازدراء، فتوجه إليه بقوله:

«عفوك... إنني... الأرجح أنك سمعت بأمري من الناطور في هذا الكوخ. أنا الملازم ديمتري كرامازوف، ابن كرامازوف العجوز الذي جئت لشراء اشجاره».

فقال الفلاح بثقة وهدوء: إن هذه كذبة!

- كذبة؟ هل تعرف فيودور بافلوفيتش؟

فأجاب الفلاح وقد تثاقل لسانه: «إنني لا اعرف أحداً يدعى فيودور بافلوفيتش».

فقال ميتيا لاهثاً مختنقاً: «كيف، وأنت تساومه لشراء شجرات الحرج، هيا استيقظ وثب إلى رشدك. لقد جاء بي إلى هنا الأب بافيل من بلدة ايليينسكو، ولقد كتبت أنت رسالة إلى سامسونوف، فأرسلني إليك».

فصاح لياغافي مزمجراً: «إنك ك كاذب!» واحس ميتيا بالبرودة تنساب في عروقه.

- بحق رحمة الله! ليس الأمر مزحة! ربما كنت ثملاً، ولكنك تستطيع أن تتكلم وتفهم ما يقال لك.. أو... إنني أنا الذي لا افهم شيئاً!

- إنك دهّان!

- بحق رحمة الله! إنني كرامازوف، ديمتري كرامازوف. لقد جئت اعرض عليك مشروعاً سيجر عليك الربح... إنه عرض عظيم الربح، يتعلق باشجار الحرج!

أخذ الفلاح يمسد لحيته متصنعاً الوقار. ثم قال: أنت تكذب. لقد تعهدت بانجاز العمل، وتريد أن تستدرجني إنك نذل.

فصاح ميتيا محتجاً وهو يفرك يديه يائساً: «أؤكد لك أنك مخطىء». لكن الفلاح ظل يمسد لحيته، ونظر فجأة إلى ديمتري نظرة مشبعة بالمكر وقال:

«كلا، أريد أن توضح لي هذ الأمر: قل لي ما هو القانون الذي يجيز لك اقتراف النذالات. أتسمعني؟ إنك نذل! هل تفهم ما أقول؟»

صعق ديمتري لما سمع وارتد إلى الوراء منهزماً، وفجأة شعر «بشيء يضربه على أم رأسه» كما قال فيما بعد. وقال إن نوراً غمر عقله، فبدت الأمور واضحة: «لقد أشرق النور في ذهني فأدركت كل شيء». وقف ذاهلاً وهو يسائل نفسه كيف أنه وهو الرجل الذكي قد استدرج إلى هذه السخافة، وكيف دفع إلى خوض هذه المخاطرة، وأن يستمر في سخافته زهاء أربع وعشرين ساعة، منشغلاً بهذا الرجل لياغافي ينضح رأسه بالماء.

ثم قال ديمتري مخاطباً نفسه: إن الرجل سكران، يكاد يموت من فرط السكر، وسيبقى يشرب اسبوعاً؛ فما الفائدة من الانتظار في هذا المكان؟ وماذا لو أن سامسونوف أوصلني إلى هذا المكان لغاية في نفسه؟ وماذا يكون لو أنها؟... أواه يا ربي، ماذا صنعت؟

ظل الفلاح جالساً ينظر إليه ضاحكاً ساخراً. ولو حصل ما حصل في وقت آخر لقتل ميتيا ذلك الأحمق في ثورة غضبه، ولكنه الآن ضعيف كطفل. اتجه نحو المقعد بهدوء، وارتدى معطفه بدون أن ينبس ببنت شفة، وخرج من الغرفة. ولم يجد الناطور في الغرفة المجاورة؛ كما أنه لم يجد إنساناً آخر غيره. فاخرج من جيبه خمسين قرشاً ووضعها على المنضدة أجرة مبيته تلك الليلة، وثمن الشمعة، وتعويضاً لما احدثه من اضطراب في الكوخ. وعندما خرج لم يجد حوله سوى اشجار الغابة. ومضى مضطرباً لا يعرف اين يذهب. أيمضي إلى اليمين أم إلى الشمال. فهو لم ينتبه إلى الطريق عندما جاء مع الكاهن إلى الكوخ مساء، لاستعجاله الشديد. وهو الآن لا يشعر برغبة الانتقام من أي إنسان، حتى ولا من سامسونوف. سار على درب ضيقة من دروب

الغابة حائراً ذاهلاً غير مهتم بالمكان الذي سيصل إليه. وكان يشعر بارهاق في جسمه كما في روحه إلى حد أن طفلاً صغيراً كان في تلك اللحظة قادراً على أن يطرحه أرضاً. واستطاع الخروج من الغابة. فبدت لناظريه الحقول المحصودة ممتدة إلى أقصى ما يبلغه البصر.

وقال وهو يجدّ في السير غير عابىء بشيء: آه من اليأس والموت الذي يخيم على هذا المكان.

وقد انقذ ميتيا من حيرته، لقاؤه بتاجر عجوز كان يطوف في تلك الناحية بعربة مستأجرة. وعندما ادركت ميتيا عربة التاجر استوضحه هذا عن الطريق، وقد اتفق أن التاجر العجوز كان هو الآخر قاصداً فولوفيا. وبعد أن تبادلا بعض الحديث، صعد ميتيا إلى العربة. ووصلا إلى فولوفيا بعد ثلاث ساعات، ولدى وصوله، سرعان ما استأجر ميتيا عربة لتحمله إلى المدينة، حيث ادرك فجأة أنه كان يشعر بجوع شديد. وفيما كانت الجياد تسرج، طلب طبقاً من العجة فالتهمها التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز، كما اكل لحماً قديداً وعب ثلاثاً من كؤوس الفودكا. فلما شبع استعاد صفاء روحه ونشاطه. ثم انطلق نحو المدينة، وهو يحث السائق على الإسراع، وفجأة وضع خطة جديدة لا شك بجدواها للحصول على ذلك «المال اللعين» قبل حلول المساء. وقال مناجياً نفسه بازدراء: «يكفي أن تراود خاطر الإنسان فكرة بان حياة رجل ما ستنتهي في سبيل الظفر بهذه الثلاثة الآلاف التافهة من الروبلات! سأسوي الأمر في هذا اليوم». وربما كان ممكنا أن يكون سعيداً كما كان في السابق لولا أن فكره انحصر تماماً بغروشينكا، وبما قد يكون حصل لها، لكن هذا التفكير كان يطعنه في قلبه كل دقيقة كمدية حادة.

واخيراً وصلت العربة إلى المدينة وأسرع ميتيا تواً إلى غروشينكا.

مناجم الذهب

كانت زيارة ميتيا هذه قد تحدثت عنها غروشينكا أمام راكيتين وهي تشعر بذعر عظيم. وكانت في تلك اللحظة تنتظر ورود «الرسالة». وكانت تشعر بارتياح وسرور لان ميتيا لم يأت لزيارتها في ذلك اليوم ولا في الذي قبله. وقد تمنت في سرّها قائلة: «ليته يا رب لا يأتي قبل ذهابي». ولكنه اقتحم عليها المنزل فجأة وقد علمنا ما كان من امرهما. فقد أرادت أن تتخلص منه فطلبت إليه أن يرافقها إلى منزل سامسونوف متعللة أنه يجب عليها الذهاب قطعاً بسبب اضطرارها إلى «تصفية الحسابات معه»، وعندما رافقها ميتيا لتوه إلى منزل سامسونوف، ودعته عند المدخل، واخذت منه وعداً بأن يعود عند منتصف الليل ليوصلها إلى منزلها. وقد سر ميتيا أيضاً بهذا التدبير، لأنها لا تستطيع الذهاب إلى فيودور بافلوفيتش ما دامت ساهرة في منزل سامسونوف. وخشي أن تكون كاذبة، ولكن هذه الخشية تلاشت من ذهنه بعد أن حكم مما شاهده بانها كانت صادقة.

كان ديمتري من ذلك النوع من الرجال الغيارى، الذين إن غابوا عن حبيباتهم، سرعان ما تتملكهم التصورات والأوهام الرهيبة عن احتمال خيانتهن لهم. وحين يثبت لهم إخلاصهن، بعد شعورهم بالتحطم وتصدع القلب، يسارعون إلى العودة إليهن، فلا يكادون ينظرون إلى وجوههن وتكتحل عيونهم بمرأى هذه الوجوه المرحة، الضاحكة، المدلهة، حتى يستعيدوا بهجة الحياة فوراً، ويلوموا انفسهم، ويتخلوا عن كل شكوكهم وهم يشعرون بالخجل الممزوج بالغبطة.

وبعد أن ترك غروشينكا عند باب منزل سامسونوف، انطلق ميتيا إلى منزله. وكان عليه أن ينجز الكثير من الأعمال في ذلك اليوم إلا أنه مع ذلك

كان يشعر كأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن قلبه.

وجال في ذهن ميتيا خاطر يقول: لم يبق علي الآن إلا أن أسرع واستوضح من سمير دياكوف عما إذا كان قد حدث شيء ما في الليلة الماضية، وعما إذا كانت زيارتها لفيودور بافلوفيتش من باب الصدفة فقط.

وقبل أن يبلغ مسكنه، عادت الغيرة لتملأ قلبه المضطرب من جديد.

الغيرة! لقد قال بوشكين «إن عطيل لم يكن غيوراً، بل كان واثقاً». وفي هذه الملاحظة وحدها دلالة على عمق إدراك شاعرنا العظيم. إن سبب تحطم روح عطيل وتسويد نظرته إلى الأمور إنما هو انهيار مثله الأعلى. غير أن عطيل لم يلجأ إلى الاختباء والتجسس والمراقبة. لقد كان واثقاً. بل على العكس كان يجب أن يقاد، ويدفع، ويستثار بصعوبة عظيمة، لكي يستوعب فكرة المخادعة. وليست هذه حال الغيور الحقيقي. ومن المستحيل أن يرسم الإنسان لنفسه صورة العار والإنحطاط الأدبي اللذين قد يلحقان بالرجل الغيور بدون أن يتحرك ضميره. ومع ذلك فليست نفوس جميع الغيارى وضيعة ممتهنة. بل إن الأمر على نقيض ذلك فيمكن أن يكون ثمة رجل يتمتع بمشاعر سامية ويحب حباً صافياً، ويقدم على التضحية بنفسه، ثم نراه يختبىء تحت المناضد، ويرشو أحط الناس، ويمارس التجسس بأحط انواعه.

لم يكن عطيل قادراً على تهيئة عقله لادراك معنى الخيانة ـ ولست اعني أنه لم يكن غير قادر على الصفح عنها، بل إنه لم يكن قادراً على تهيئة عقله حتى لادراكها ـ مع أن روحه كانت بريئة طاهرة من الحقد كروح الطفل. والغيارى الحقيقيون ليسوا كذلك ومن الصعب على المرء أن يتصور ما تزينه عقول بعض الرجال لهم، وما يستطيعون أن يتخطوه أو يصفحوا عنه! والرجل الغيور هو أسرع الناس صفحاً، وجميع النساء يعرفن ذلك. فالرجل الغيور قادر على أن يصفح بسرعة فائقة ـ ولو تم ذلك طبعاً إثر مشهد عنيف ـ كما هو قادر على أن يغتفر الخيانة التي ثبت وقوعها بما يشابه الجرم المشهود، ويصفح عن القبل والمعانقات التي رآها بعينه، إذا ما اعتبر أن ما جرى كان «الفعل الأخير» وأن غريمه سيغيب من حينه إلى اطراف الأرض، أو أنه هو سيحمل حبيبته إلى مكان بعيد يدركه ذلك الخصم الرهيب. وغني عن

القول إن الغيور لا يبقي على الوفاق أكثر من ساعة واحدة، لأنه حتى ولو غاب الخصم عن الأنظار في اليوم التالي، فإنه سيغار من خصم آخر يخترعه. وقد يعجب الإنسان فعلاً ويتساءل عن ذلك السر الكامن في الحب الذي يتطلب وجود الرقابة، وعن المردود منه الذي يتطلب قيام تلك الحراسة الدقيقة. غير أن الغيور لا يفهم هذا أبداً. ومع ذلك، فثمة غيارى لهم قلوب نبيلة. والجدير بالذكر أيضاً أن اولئك الرجال ذوي القلوب النبيلة انفسهم، الذين يختبئون في الخزائن يسترقون السمع ويتجسسون، يعانون أبداً من عذاب الضمير في تلك اللحظة، مع أنهم يفهمون بوضوح تام «بقلوبهم النبيلة» تلك الأعماق المخزية التي تردوا فيها طائعين.

لقد كانت غيرة ميتيا تتلاشى عندما تقع عينه على غروشينكا، فيصبح خلوقاً واثقاً من إخلاصها، وكان يلوم نفسه لوماً شديداً لمشاعره الشريرة. ولكن هذا يثبت أن مقومات حبه لتلك المرأة تتضمن عنصراً هو في مكان اسمى مما يتصور، وأن حبه لم يكن مرده إلى عاطفة شهوانية فحسب، ولم يكن الأمر قائماً فقط على نوعية «تركيب جسدها»، الذي حدث اليوشا عنه، فهو لم يكن ليغيب عن غروشينكا حتى يشك فيها ويرميها باحقر صنوف الخيانة دون أن يشعر بعذاب الضمير على ذلك.

وهكذا عادت الغيرة تستبد به من جديد. وعلى كل حال فقد كان عليه أن يسرع ليحصل، قبل كل شيء على قرض صغير من المال مؤقتاً على الأقل. فإن الروبلات التسعة أوشكت جميعها على النفاد، في سفره، ويعلم الجميع أن الإنسان لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة بدون مال. ولكنه منذ كان في العربة أعمل فكره واهتدى إلى مكان يستطيع الحصول منه على القرض المنشود. لقد كان لديه غدارتان جميلتان للمبارزة في صندوق لم يرهنهما قبل الآن لأنه كان يميزهما عن جميع مقتنياته الأخرى.

وكان قد تعرف في حانة «متروبوليس» قبل مدة من الزمن على موظف شاب. وعلم أن هذا العازب الميسور مولع جداً باقتناء الأسلحة، ومن عادته أن يشتري الغدارات والمسدسات والخناجر ويعلقها على حائطه ويعرضها على انظار اصدقائه. وكان هذا الشاب يشعر بالزهو لذلك، كما كان اخصائياً في

تركيب قطع المسدسات. لم يتوان ميتيا لحظة، ولم يفكر في الأمر، بل توجه إليه فوراً، وعرض عليه أن يرهن لديه مسدسيه لقاء عشرة روبلات. وتملك السرور هذا الموظف وأخذ يحاول إقناع ميتيا بأن يبيعه المسدسين بيعاً، ولكنه رفض ذلك فقال له الشاب إنه ما من شيء يستطيع إقناعه بأخذ فائدة منه وأعطاه عشرة روبلات. وهكذا افترقا صديقين.

وكان ميتيا على عجل من امره، فمضى مسرعاً إلى منزل والده فيودور بافلوفيتش سالكاً إليه الطريق الخلفية، ومال إلى العريش لكي يرى سمير دياكوف بأسرع وقت ممكن. وهكذا فقد ثبتت هذه الحقيقة وهي أن حادثة معينة قد وقعت، وسأتحدث عنها فيمابعد، وقبلها بثلاث أو باربع ساعات كان ميتيا لا يملك درهماً واحداً، وإنه رهن شيئين عزيزين على نفسه لقاء عشرة روبلات، ولكنه اصبح بعد ذلك يملك آلاف الروبلات. غير أنني بهذا القول إنما استبق الحوادث. علم ميتيا من ماريا كوندراتييفنا (وهي المرأة التي كانت تسكن قرب منزل فيودور بافلوفيتش) قصة مرض سمير دياكوف التي أقلقت باله، واطلع منها على كيفية سقوطه في السرداب، وعلى نوبة الصرع التي انتابته، وعيادة الطبيب له، ومدى قلق فيودور بافلوفيتش، كما أصغى باهتمام إلى قصة سفر اخيه إيفان إلى موسكو في صبيحة ذلك اليوم.

وقال لنفسه: إذاً لا بد أن يكون إيفان قد وصل قبلي إلى فولوفيا. غير أنه كان عظيم الأسى بسبب مرض سمير دياكوف. وقال مفكراً «ماذا سيجري الآن؟ ومن ذا الذي سيقوم لي بدور المراقبة؟ ومن سيزودني بانبائها؟» ثم راح يسائل النساء عما إذا كن قد شاهدن شيئاً ما، في مساء اليوم السابق. وقد فهمن الغاية من استيضاحه لهن فاجبنه اجابات اعادت الاطمئنان إلى نفسه. لقد علم ميتيا منهن أن غروشينكا لم تزر أباه، وأن إيفان فيودوروفيتش قضى الليل في منزل أبيه، وأن كل شيء كان يجري في مجراه الطبيعي. واطرق ميتيا يفكر بضرورة قيامه بالحراسة هذه الليلة ولكن اين يقف؟ أيبقى هنا؟ أم يرابط أمام باب سامسونوف؟ وقر رأيه على أن يتولى الحراسة هنا وهناك، تبعاً للظروف، ولكن الآن.. الآن.. حان وقت تنفيذ الخطة الجديدة التي وضعها في العربة اثناء عودته. وكان واثقاً هذه المرة من النجاح، ولكن يجب عليه ألا

يتأخر في تنفيذها وقرر ميتيا أن يضحي في سبيل ذلك بساعة واحدة. وقال وهو يقرر ذلك: «بعد ساعة واحدة سأعرف كل شيء وسأسوي كل شيء، وبعدها سأذهب فوراً إلى منزل سامسونوف لاعرف ما إذا كانت غروشينكا هناك، ثم أعود إلى هنا فاظل فيه حتى الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك اذهب ثانية إلى منزل سامسونوف لكي اصحبها في عودتها...» هكذا حلّ ميتيا الصعوبة.

ومضى مسرعاً إلى بيته فاغتسل وسرح شعره، ونظف ثيابه بالفرشاة، ثم ارتداها وانطلق إلى منزل السيدة خولاكوف. فلقد بنى آماله عليها ويااللاسف، إذ نوى أن يقترض من هذه السيدة ثلاثة آلاف روبل. وأكثر من هذا فإنه اقتنع بأنها لن تضن عليه بهذا المبلغ ولن ترفض اقراضه إياه. وهنا يمكن أن يأخذنا العجب منه، فنقول أنه طالما كان متأكداً بأن السيدة خولاكوف لن تخيب امله، فلماذا لم يذهب إليها أولاً، وهو ذلك الفتى الرفيع النسب، إذا صح هذا التعبير، بدلاً من أن يذهب إلى سامسونوف وهو تاجر لم يكن يعرفه، ولم يكن ينتمي لطبقته، ولا يعرف اللغة المناسبة لمحادثته.

والحقيقة أن معرفته بالسيدة خولاكوف لم تكن معرفة وثيقة، ولم يراها لشهر بكامله، وأنه كان يعرف بانها تستثقله بل هي كرمته منذ البداية لأنه كان خطيب كاترينا ايفانوفنا، في حين أنها كانت شخصياً تشعر بالرغبة لسبب من الأسباب في أن ترميه كاترينا ايفانوفنا رمي النواة وتتزوج من ايفان ذلك الفتى «الساحر الرفيع المهذب المتميز بصفاته الممتازة» فضلاً عن شعورها بالنفور من اخلاق ميتيا. وكان ميتيا يسخر منها، فهو وصفها مرة أنها كثيرة الحركة مستهترة بقدر ما هي فظة. غير أن فكرة نيرة خطرت له، عندماكانت العربة تقله في ذلك الصباح، فقال محدثاً نفسه: «إذا كانت هذه رغبتها في أن لا اتزوج من كاترينا ايفانوفنا ـ وكان يعرف أنها مندفعة في ذلك إلى حد الهستيرية ـ فإنها لن تتردد الآن باعطائي الثلاثة آلاف روبل فتساعدني على الابتعاد عن كاتيا والانقطاع عنهاإلى الأبد» وقال ميتيا: «إن هؤلاء السيدات المرفهات الفاسدات إذا هوت قلوبهن شيئاً، فلن يتوانين عن بذل كل غال ورخيص في سبيل ارضاء شهواتهن. وإضافة إلى هذا، فهي ثرية إلى حد كبير.

كانت خطة ميتيا الجديدة مبنية على ما له من حقوق في تشيرماشنيا، وهو الأساس الذي بنيت عليه خطته القديمة، عدا أن الخطة الجديدة لم تكن ذات طابع تجاري، كما هو الحال مع سامسونوف، فهو لن يحاول اغراء المرأة بامكانية الحصول على ربح يبلغ ستة أو سبعة آلاف روبل، بل سيعمل على اقناع هذه المرأة بأن حقوقه في تشيرماشنيا هي الضمانة لاستعادة مالها. وفيما كان ميتيا يضع خطته الجديدة هذه، اعجب بها وافتتن، وكانت هذه عادته، إذ كان يندفع اندفاعاً في كل امر يهم القيام به، فيتخذ بشأنه القرارات المتسرعة. لقد كانت عواطفه تملي عليه طريقة تنفيذ أي فكرة جديدة تبدو له فيندفع إليها اندفاعاً حماسياً. ومع ذلك، فإنه لما وصل إلى منزل السيدة خولاكوف وبدأ يصعد السلم، شعر بقشعريرة الخوف تنساب في ظهره. فقد كان في تلك اللحظة يعي بشكلٍ أكيد وكامل أن هذه الفرصة هي أمله الوحيد، وأنها إذا فاتته، فلن يبقى له في الدنيا كلها من شيء سوى أن «يسرق أو يقتل إنساناً من أجل تأمين هذه الثلاثة الآلاف». وفي الساعة الثامنة والنصف كان ميتيا يقرع الجرس في منزل السيدة خولاكوف.

وقد بدا له لأول وهلة أن الحظ قد ابتسم له، إذ ما كاد يعرف بنفسه، حتى تم استقباله بسرعة فائقة. وقال ميتيا في نفسه: «لعلها كانت في انتظاري كما يبدو». وحين أصبح داخل غرفة الاستقبال، هرعت إليه السيدة خولاكوف، وأعلنت له توقعها لقدومه.

ـ كنت في انتظارك، كنت في انتظارك، رغم عدم وجود سبب يجعلني أظن أنك ستأتي لزيارتي كماتقر أنت نفسك بذلك. ومع هذا فقد كنت في انتظارك. قد تعجب من ملكتي الغريزية يا ديمتري فيودوروفيتش، ولكنني كنت طيلة هذا الصباح، على يقين من مجيئك الحتمي.

فقال ميتيا وهو يهم بالجلوس: «لا ريب أن هذا أمر مدهش يا سيدتي. ولكنني جئت إليك في أمر جد خطير!.. أكثر الأمور اهمية بالنسبة لي يا سيدتي.. لي وحدي.. وها أنا ذا أبادر...»

ـ أعرف إنك آت لأمر جد خطير يا ديمتري فيودوروفيتش، وليس علمي هذا من باب التكهن، ولا هو من باب الرجعية القائمة المنطلقة من الإيمان

بحدوث الاعاجيب (هل بلغك نبأ الأب زوسيما؟) لقد ايقنت أنك ستأتي بناء على أساس حسابي، وهو أنه ليس في مقدورك أن تتخلف عن المجيء، بعد كل ما حصل لكاترينا ايفانوفنا؛ لم يكن في وسعك التخلف، لم يكن في وسعك. إن هذه حقيقة حسابية.

ـ إن المسألة يا سيدتي تتعلق بالواقع الحقيقي للحياة، ولكن دعيني اوضح لك الأمر...

ـ إنها الحقيقة فعلا يا ديمتري فيودوروفيتش. فأنا الآن أؤمن بكل جوارحي بالحقيقة. لقد رأيت الكثير من المعجزات. هل بلغك أن الأب زوسيماقد توفي؟

دهش ميتيا لهذا النبأ وقال: «كلا يا سيدتي، أنا أسمع الآن لأول مرة نبأ وفاته». وتمثلت له صورة أخيه اليوشا.

ـ لقد مات ليلة أمس، يكفي أن نتصور...

فقاطعها ميتيا قائلاً: «إنني يا سيدتي، لا استطيع أن أتصور شيئاً عدا كوني في موقف يدعو إلى اليأس، وإنك إذا لم تعمدي إلى مساعدتي، فإن كل شيء سينتهي إلى نهاية مفجعة. وأنا سأكون أول ضحاياها. اعذريني وسامحيني على تفاهة هذا التعبير، فانني محموم...»

ـ أعلم، أعلم بانك محموم. فأنت تكاد لا تقدر على مقاومة الحمى، وكل ما تريد قوله، فأنا عالمة به سلفاً. إنني ما برحت منذ زمن بعيد احاول تقليب النظر في مستقبلك يا ديمتري فيودوروفيتش، انني أرقب مستقبلك وأدرسه.. صدقني، إنني طبيبة روحانية مجربة يا ديمتري فيودوروفيتش.

ـ سيدتي إذا كنت طبيبة مجربة، فأنا مريض مجرب. قال ميتيا ذلك وهو يبذل جهداً صادقاً ليحافظ على كونه مهذب المنطق. وأضاف: «وإنني لاشعر بأنك إذا كنت تفكرين في مستقبلي بهذا الشكل، فستبادرين لنجدتي وانتشالي من حفرة القضاء عليّ، ولذلك اسمحي لي على الأقل أن اشرح لك الخطة التي خاطرت في المجيء بها إليك... وأن اعرض لك ما آمله منك.. لقد جئت يا سيدتي...».

ـ لا تشرح لي الأمر، فهو ذو اهمية ثانوية. أما بخصوص مساعدتك

فإنك لست أول من ساعدت يا ديمتري فيودوروفيتش. والأرجح أنك علمت بامر ابنة عمي، السيدة بيلميسوف. لقد تحطم زوجها، كانت نهايته مفجعة، كما عبرت باسلوبك الخاص بك، يا ديمتري فيودوروفيتش. وقد اقترحت عليه أن ينصرف إلى تربية الجياد، فنفذ اقتراحي فصلح حاله. هل أنت ملمّ بتربية الجياد يا ديمتري فيودوروفيتش؟

قفز ميتيا من مكانه صارخاً وقد عيل صبره واهتاجت اعصابه: «إنني بعيد كل البعد عن هذا الموضوع يا سيدتي. انني اتوسل إليك يا سيدتي أن تصغي إلي. امنحيني دقيقتين اثنتين اتكلم فيهما بحرية لكي أوضح لك كل شيء، وأشرح لك تفاصيل خطتي التي جئت بها إليك. وفضلاً عن ذلك فوقتي قصير، إنني في عجلة من امري». ثم صاح ميتيا يقول بلهجة هستيرية وقد لاحظ أنها تكاد تعاود مقاطعته، فأراد أن يقطع عليها حبل الكلام: «لقد اتيت إليك يائساً.. بلغت ذروة اليأس، لكي ارجوك أن تسلفيني مبلغ ثلاثة آلاف روبل، اريد منك قرضاً، بضمانة مكفولة، مكفولة إلى ابعد الحدود، وبشروط قوية وموثوقة. وها أنذا أوضح لك الأمر...».

فاشارت السيدة خولاكوف بيدها إشارة كأنها ترفض بها ما يقترحه، وقالت له: تطلعني على كل هذه الأشياء فيما بعد، فيما بعد! وكل الذي تريد أن تذكره فأنا عالمة به سلفاً؛ لقد قلت لك ذلك. إنك تسألني أن اعطيك مبلغاً من المال، ثلاثة آلاف روبل، ولكنني استطيع أن اعطيك اكثر مما طلبت، أن اعطيك ما لا يحصى. سأنقذك يا ديمتري فيودوروفيتش، ولكن يجب أن تصغي إلى ما أقول.

واجفل ميتيا في مجلسه مرة أخرى، وهتف قائلاً بانفعال: «سيدتي هل بلغت بك الطيبة هذا الحد حقاً؟ يا إلهي الرحيم، لقد انقذتني! لقد انقذت رجلاً من الموت المفجع، من الانتحار بالرصاص.. سأظل عارفاً لجميلك إلى الأبد».

فردت السيدة خولاكوف وهي تنظر إلى ميتيا في نشوته وعلى ثغرها ابتسامة وضاءة: «سأعطيك أكثر من هذا، أكثر بكثير من ثلاثة آلاف روبل!»

- أكثر بكثير؟ ولكنني لست في حاجة إلى كل هذا. حاجتي هي فقط

تلك الآلاف الثلاثة التي ستخط مصيري. ومن ناحيتي فسأضمن لك سداد هذا المبلغ واشفع ضمانتي بامتنان لا حد له، وأنا اقترح عليك مشروعاً سيكون من شأنه...

فقاطعته السيدة خولاكوف بلهجة المحسن المنتصر: «كفاك يا ديمتري فيودوروفيتش، لقد قلت كلمتي وسأنفذها. لقد وعدت بأن اخلصك، وسأخلصك كما خلصت بيلميسوف. ما رأيك في مناجم الذهب يا ديمتري فيودوروفيتش؟»

ـ مناجم الذهب يا سيدتي؟ انني لم افكر في ذلك قط.

ـ ولكنني فكرت فيها من أجلك، فكرت فيها مراراً. لقد كنت ارقبك منذ شهر، لقد راقبتك مئات المرات وأنت تمر من أمامي، وكنت أقول في سري: إن هذا رجل قوي نشيط يجب أن يعمل في مناجم الذهب. لقد راقبت مشيتك وانتهيت إلى أنك الرجل الذي يستطيع العثور على الذهب..

فقال ميتيا مبتسما: «هل ادركت ذلك من مشيتي يا سيدتي؟»

ـ نعم من مشيتك. يقيناً إنك لا تنكر أن صفات الإنسان يمكن أن تعرف من مشيته يا ديمتري فيودوروفيتش! إن العلم يؤيد هذه الفكرة! إنني الآن منصرفة كلياً إلى العلم والواقعية، بعد كل ما حصل في الدير للأب زوسيما: الأمر الذي ازعجني واقض مضجعي. لقد صرت منذ هذا اليوم واقعية واريد أن اكرس حياتي لكل شأن نافع عملي. شفيت، «كفاني»! كما يقول تورغنيف.

ـ ولكن يا سيدتي ماذا تم في أمر الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت فوعدت باعطائي إياها؟..

فقاطعته السيدة خولاكوف مرة ثانية بحدة: «انها لك يا ديمتري فيودوروفيتش وبامكانك أن تحسب أن المبلغ صار في جيبك. وهو ليس ثلاثة آلاف، بل ثلاثة ملايين يا ديمتري فيودوروفيتش، ستحصل عليه خلال لحظة. سأعلمك باقتراحي: ستعثر على مناجم الذهب، وتغدو من أصحاب الملايين، ثم تعود إلينا وتصير زعيما مرموقاً، وستوقظنا من رقدتنا وتقودنا إلى خير الأمور. هل يليق بنا أن نترك الأمر كله بيد اليهود؟ إنك ستقيم البنايات

وستنشيء المؤسسات والصناعات المختلفة. ستساعد الفقراء، وسيباركونك. إن هذا العصر هو عصر السكك الحديدية يا ديمتري فيودوروفيتش ستصبح مشهوراً حتى إن وزارة المالية ستطلب عونك، وهي التي تعاني من معوقات في الوقت الحاضر. إن تخفيض قيمة الروبل قد سلبني النوم فتراني أقضي الليل مسهدة. ديمتري فيودوروفيتش؛ إن الناس لا يدركون هذا الوجه من وجوه طبيعتي».

فقاطعها ديمتري قائلاً، وقد بدا عليه القلق والاضطراب: «سيدتي، سيدتي، إنني ربما اتبعت نصيحتك فعلاً، تلك النصيحة الحكيمة، سيدتي.. انني قد أسافر.. إلى مناجم الذهب... سأعود لكي نتحدث في أمرها أكثر من مرة... ولكن الآن، تلك الثلاثة آلاف التي تكرمت.. أواه، إن ذلك المبلغ سيحررني، لو أنني استطيع امتلاكه.. إنني غير قادر كما ترين، على أن اضيع دقيقة واحدة...»

وهنا قاطعته السيدة خولاكوف ثانية حازمة: «كفاك، يا ديمتري فيودوروفيتش كفاك! إن السؤال هو كما يلي، أتود الذهاب إلى مناجم الذهب؟ اريد جواباً واضحاً، هل قطعت برأيك في الموضوع؟ أجبني بلا أو نعم».

ـ سأذهب يا سيدتي فيما بعد.. سأذهب حيث تشائين.. أما الآن...

فصاحت السيدة خولاكوف قائلة: «انتظر!» ثم قفزت من مكانها وهرعت إلى خزانة أنيقة متعددة الادراج، وأخذت تسحب ادراجها واحداً واحداً، باحثة فيها بسرعة عن شيء ما.

وقال ميتيا مفكراً وقلبه يكاد ينفجر: «لا بد أنها تبحث عن الثلاثة الآلاف روبل. إنها ستنقدني إياها توا... بدون صكوك ولا أمور رسمية.. إن تصرفها هو تصرف النبلاء المهذبين! إنها امرأة رائعة، لو أنها لا تثرثر إلى هذا الحد!»

ثم عادت السيدة خولاكوف مسرعة إليه وهي تصيح مبتهجة: «إليك هذه! إنها الشيء الذي كنت أبحث عنه!»

وكان ذلك الشيء أيقونة فضية صغيرة مدلاة من شريط كتلك التي

توضع احياناً تحت الثياب الداخلية مع صليب.

واستطردت تشرح، وقد ظهر الخشوع في صوتها: «إنها من كييف، يا ديمتري فيودوروفيتش، من مخلفات الشهيدة المقدسة فارفارا. دعني أطوق بها عنقك بنفسي. لتباركك في حياة جديدة، ومستقبل جديد..»

وطوقت عنقه بها فعلا، وباشرت بتسويتها. وانحنى ميتيا متحيراً وأخذ يساعدها حتى انزلق شريط الأيقونة تحت «ياقته» وربطة عنقه واستقرت الأيقونة تحت قميصه وعلى صدره.

وبعد أن فرغت السيدة خولاكوف من ذلك، عادت إلى مجلسها وهي تقول بزهو وأبهة: «الآن يمكنك أن تبدأ رحلتك».

ـ سيدتي، لقد غلب علي التأثر، ولست أدري حقاً كيف أوفيك حقك من الشكر.. على هذا اللطف ولكن.. ليتك تعرفين مدى ضيق وقتي... ذلك المبلغ، الذي سأكون مديناً به لكرمك.. أواه، يا سيدتي، نظراً لهذا اللطف العظيم الذي ابديته لي، وذاك الكرم العظيم، (وقد قال ميتيا هذه الكلمات بتأثر) دعيني أوضح لك.. مع أنك بطبيعة الحال تعرفين ذلك منذ زمن بعيد.. أنني أحب امرأة في هذه المدينة... لقد خنت كاتيا... أقصد كاترينا إيفانوفنا... أواه لقد تصرفت تصرفاً بعيداً عن النبل والشرف، ولكنني وقعت في حب امرأة أخرى... امرأة ربما كنت أنت تحتقرينها يا سيدتي، فأنت فعلا تعلمين كل شيء، ولكن يستحيل عليّ مفارقتها، ولذلك فإن هذه الثلاثة الآلاف الآن..

وهنا قاطعته السيدة خولاكوف بلهجة حازمة: دع عنك كل شيء يا ديمتري فيودوروفيتش، دع عنك كل شيء، وخاصة النساء. إن هدفك منذ الآن هو الذهب، ولا مكان للنساء هناك. وبعد أن تعود إلينا ثرياً مرموقاً ستجد الفتاة التي يصطفيها قلبك من أرفع مراتب المجتمع. ستكون فتاة عصرية، ذات علم وآراء متحررة. وعندها ستكون قضية المرأة قد حلّت مشكلتها، وبرزت في روسيا المرأة الجديدة.

فضم ميتيا يديه وهتف متوسلاً: «سيدتي ولكن ليس هذا ما اعنيه.. ابداً..»

ـ بلى، إنه هو يا ديمتري فيودوروفيتش، إن هذا ما تريده وتطمح إليه، ولو أنك لا تدركه في قرارة نفسك. إنني معايشة لمشكلة المرأة الحالية يا ديمتري فيودوروفيتش. إن المثل الذي أصبو إليه هو تطور المرأة، بل وممارستها الحياة السياسية. إن لديّ ابنة يا ديمتري فيودوروفيتش، والناس لا يعرفون هذه الناحية من نواحي نفسي. لقد كتبت رسالة إلى الكاتب شتشيردين[1] بهذا الخصوص. وقد أفدت منه الشيء الكثير عن رسالة المرأة. وهكذا فقد بعثت إليه في العام الماضي برسالة غير ممهورة بتوقيعي مؤلفة من سطرين: «إنني أقبلك وأعانقك يا استاذي نيابة عن المرأة العصرية». ووقعت الرسالة بكلمة «أم» لقد فكرت في توقيع الرسالة بعبارة «أم معاصرة» ولكنني عدت، واكتفيت بعد تردد بكلمة «أم» مجردة، ففي هذه الكلمة جمال معنوي يا ديمتري فيودوروفيتش. وفضلاً عن ذلك فإن كلمة «معاصرة» قد توقظ في فكره ذكريات مؤلمة عن الرقابة... ولكن، يا إلهي ماذا جرى لك.

واخيراً قفز ميتيا من مقعده، وضم يديه أمامها بتوسل وتضرّع وهتف قائلاً: «سيدتي! إنك ستهيجين دموعي إذا أخرت عني ما تكرمت بوعدك...».

ـ آه، ابك يا ديمتري فيودوروفيتش، إبك! إن هذا شعور نبيل... إن طريق البكاء مفتوح وطويل أمامك! فالدموع تريحك، وبعد ذلك ستكون سعيداً ستعود إليّ من سيبريا عامداً لأشاركك بهجتك...

فعاد ميتيا يقول: «ولكن اسمحي لي أيضاً بالكلام! إنني أتوسل إليك لآخر مرة، هل بوسعي الحصول على المبلغ الذي وعدت باعطائي إياه اليوم، فإن لم يكن اليوم فمتى أعود لأخذه؟»

ـ أي مبلغ يا ديمتري فيودوروفيتش؟

ـ مبلغ الثلاثة آلاف روبل التي وعدتني بها.. ذلك المبلغ الذي تكرمت...

فصاحت السيدة خولاكوف بلهجة صارمة مع قليل من الدهشة: «ثلاثة

---

(١) كان محرراً في مجلة «المعاصر» التي عطلتها الرقابة سنة ١٨٦٦.

آلاف؟... روبل؟ كلا، أنا لا أملك هذا المبلغ». وصعق ميتيا لدى سماعه قولها.

- لقد قلت لتوك.. لقد قلت... إنها مضمونة لي وكأنها في يدي...

- كلا، لقد أسأت فهمي يا ديمتري فيودوروفيتش. أنا كنت أتحدث عن مناجم الذهب. لقد وعدتك حقاً بالحصول على أكثر من هذا المبلغ.. أكثر منه بكثير، إنني الآن أذكر كل شيء، لكنني كنت أقصد مناجم الذهب..

فصاح ميتيا متلعثما: ولكن ماذا بشأن النقود؟ الثلاثة آلاف روبل؟

- إذا كنت اتيت من أجل النقود، فأنا لا املك منها شيئاً، ليس لدي فلس واحد يا ديمتري فيودوروفيتش. إنني أتخاصم مع وكيلي بسببها، ولقد اقترضت مؤخراً مبلغ خمسمائة روبل من ميوسوف. كلا، كلا، ليس لدي مال. واعلم يا ديمتري فيودوروفيتش أنه لو كان لدي مال لما أعطيتك إياه. فأنا أولاً لا أقرض مالاً، فإقراض المال معناه فقدان الاصدقاء. وإذا أقرضت غيرك، فلا اقرضك أنت بالذات. لن أعطيك مالا لأنني أميل إليك وأريد أن انقذك، إن كل ما أنت بحاجة إليه هو مناجم الذهب، مناجم الذهب، مناجم الذهب!

فصاح ميتيا مزمجراً وهو يضرب المنضدة بقبضة يده بكل قوته: «أواه، يا للشيطان!»

فما كان من السيدة خولاكوف إلا أن صاحت مذعورة وأسرعت إلى الركن الآخر المقابل من غرفة الجلوس وهي تقول: «وي! وي!»

فبصق ميتيا على الأرض وخرج مسرعاً من الغرفة وغادر المنزل واوغل في الشارع غارقاً في الظلام! وسار كالمعتوه يلطم صدره، ويضرب المكان الذي ضربه أمام أخيه اليوشا قبل يومين، في آخر مرة لقيه في الشارع تحت جنح الظلام. أما ما ترمز إليه هذه الضربات على صدره، على هذا المكان عينه، وماذا كان معناها، فقد بقي سراً مغلقاً لم يعرفه احد، ولم يبح به حتى لأليوشا. غير أن هذا السر كان بالنسبة لميتيا متعلقاً بما هو فوق العار؛ لقد كان يعني الإنهيار والانتحار. وهذا ما سيحدث، إذا لم يستطع الحصول على ثلاثة آلاف روبل لكي يوفي دين كاترينا إيفانوفنا وينزاح عن صدره، عن ذلك

المكان بعينه من صدره، العار الذي يثقله، ويؤلم ضميره. إن هذا السر سيكتشفه القارىء فيما بعد، أما الآن فإن الأمل الأخير من آمال ميتيا قد خاب، وهذا الرجل الذي يدل مظهره على البأس والقوة انفجر يبكي وينشج كالطفل الصغير على بعد خطوات يسيرة من منزل آل خولاكوف. وانطلق من غير أن يدري إلى أين يسير، وهو يمسح دموعه بقبضتيه. وإذ وصل إلى الساحة وهو على هذه الحال، شعر بغتة أنه اصطدم بشيء، وسمع ولولة امرأة عجوز كاد يوقعها.

- يا إلهي، لقد كدت تقتلني! لماذا لا تنظر أمامك وأنت تسير أيها الأحمق؟ تبين ميتيا المرأة العجوز بعد سماعه صوتها وتفرسه في وجهها، وعرف أنها الخادم التي تقوم بخدمة سامسونوف، فهو قد رآها البارحة في منزله ورسخت صورتها في ذهنه فقال لها: أهذه أنت؟

فأجابته المرأة وقد مالت لهجتها إلى اللطف: ومن تكون أنت يا سيدي الطيب؟

- إنك الخادم في منزل كوزما كوزميتش، أليس كذلك؟

- إن الأمر كما تقول يا سيدي، لقد كنت مسرعة إلى منزل بروخوريتش... ولكني ما زلت لا أعرفك.

فقال ميتيا وقد اشتد قلقه واضطرابه: أيتهاالمرأة الطيبة أخبريني هل اغرافينا الكسندروفنا هي الآن في منزل كوزما كوزميتش؟ لقد أوصلتها إليه قبل قليل.

- لقد كانت هناك يا سيدي، وقد مكثت برهة من الزمن ثم انصرفت.

فصاح ميتيا: ماذا تقولين؟ عادت؟ إلى أين ذهبت؟

- لقد عادت بعيد قدومها، ولم تمكث أكثر من دقيقة واحدة. لقد قصت على كوزما كوزميتش قصة أضحكته، ثم ما لبثت أن انصرفت. وانتفض ميتيا يقول مرعداً: «إنك تكذبين، أيتها اللعينة».

فصرخت المرأة وقد استبد بها الرعب: «وي! وي!» وكان قد ابتعد عن ناظريها. وعدا ميتيا باقصى سرعته إلى مسكن غروشينكا. ولكنها كانت، لدى

وصوله إلى المسكن، في طريقها إلى موكرو. لقد سافرت قبل أن يصل بربع ساعة فقط.

وعندما دخل «الكابتن» إلى المنزل ركضاً كانت فينيا جالسة في المطبخ مع جدتها الطاهية العجوز ماتريونا فلما رأته فينيا أطلقت صرخة حادة. فصاح ميتيا مرعداً: «أتصرخين؟ أين غروشينكا؟»

وقبل أن تتمكن فينيا، التي استبد بها الرعب، من النطق بكلمة واحدة، ارتمى تحت قدميها وقال متوسلا: «فينيا بحق يسوع المسيح، أنبئيني أين هي؟»

-إنني لا أدري ديمتري فيودوروفيتش يا عزيزي، لا أدري. اقتلني إذا شئت، ولكنني لا استطيع أن ادلك عليها ثم إنك قد خرجت بنفسك معها قبل قليل. وأكدت كلامها بالقسم.

- ولكنها عادت.

إنها لم تعد. اقسم بالله إنها لم تعد.

فصاح ميتيا قائلاً: «إنك كاذبة. إنني استدل من خوفك، علمك بمكانها».

ومضى مسرعاً. وكم كانت فينيا الخائفة مسرورة، بنجاتها بهذه السهولة. غير أنها أعادت ذلك إلى تسرعه وإلا لما نجت بمثل هذه السهولة. وعندما كان ميتيا ينصرف فإنه ادهش فينيا وماتريونا العجوز بعمل غير متوقع قام به. فقد كان على المنضدة هاون نحاسي صغير فيه مدقة لا يزيد طولها على ست بوصات. وفيما كان ميتيا يمسك قبضة الباب بإحدى يديه، ويفتحه، كان يتناول المدقة بيده الثانية ويدسها في جيبه.

وصاحت فينيا وهي تلوح بيديها: رباه! إنه ذاهب لقتل شخص ما.



تحت جنح الظلام

إلى اين كان ينطلق؟ الجواب سهل، إذ «لا يمكن إلا أن تكون في منزل فيودوربافلوفيتش! لا شك أنها ذهبت إليه رأساً من منزل سامسونوف. لقد اتضح الأمر الآن. إن المؤامرة كلها، الخديعة كلها انكشفت»... وقد عصفت هذه الافكار برأسه وهو يتابع سيره. وتعمد ديمتري ألا يذهب إلى منزل ماريا كوندراتييفنا. «ليست بي حاجة للذهاب هناك.. ليست بي أدنى حاجة لذلك.. فلا يجب أن أثير الفزع... ولا شك أن ماريا كوندراتييفنا شريكتهم في المؤامرة، وكذلك سمير دياكوف، هو أيضاً، لقد اشتراهم جميعاً»!

لذلك اعتمد نهجاً جديداً، فدار مسافة طويلة حول منزل فيودور بافلوفيتش مجتازاً الزقاق، وانطلق عدواً في شارع ديمتروفسكي، ثم عبر الجسر الصغير، فوصل إلى الطريق المقفر خلف الفناء، وكان خالياً من السكان، يقوم على احد جانبيه سياج حديقة أحد الجيران، وعلى الجانب الآخر السياج المتين العالي الذي يحيط بمنزل فيودور بافلوفيتش من جميع جوانبه. وقد اختار، ليتمكن من اجتياز هذا السياج بقعة منه وهي على ما يبدو البقعة ذاتها التي تسلقت ليزافيتا السياج منها، كما تقول الروايات المتداولة. وقال مخاطباً نفسه: «إن كانت هي استطاعت تسلق السياج فلن اعجز أنا عنه». والله وحده يعلم لماذا خطرت هذه الفكرة على باله. وقفز ميتيا فعلاً، وتمكن مع المحاولة الأولى من التعلق بأعلى السياج، وجلس فوقه كمن يركب حصاناً. وكان هذا المكان قريباً من حمام المنزل، ومنه أيضاً تمكن من أن يرى نافذة المنزل التي كانت مضاءة.

وقال مخاطباً نفسه: «نعم، إن غرفة نوم الرجل العجوز مضاءة، وهذا يعني أنها هناك!» وقفز من مكانه إلى الحديقة. ومع أنه كان يعلم أن غريغوري

كان مريضاً، وربما سمير دياكوف أيضاً، وأنه يصعب هنالك وجود من يسمعه، فقد تقفّع على نفسه غريزياً ولبث في مخبأه ساكناً وأخذ يسترق السمع. ولكن السكون التام كان يخيم على كل ما حوله، سكون مطلق لا يخترقه شيء حتى ولا نسمة من ريح، كأنما كان ذلك مدبراً عن قصد مطلق.

«السكون هو سيد الموقف»، وقد خطر هذ البيت من الشعر ببال ميتيا. وتحدث في داخله: «آمل انهم لم يسمعوني عندما قفزت عن السياج! أظن بأنه لم يسمعني أحداً». وظل ثابتاً لا يتحرك دقيقة واحدة، ثم سار بتؤدة فوق اعشاب الحديقة متحاشياً الاشجار والشجيرات. وكان يسير بخطوات بطيئة، ويزحف متلصصاً عقب كل خطوة، ويحاذر عندما يخطو. ومضت خمس دقائق على هذه الحال قبل أن يصل إلى النافذة التي كان ينبعث منها النور. وتذكر أنه كانت تحت النافذة مباشرة عدة شجيرات ملتفة عالية. أما باب المنزل الذي عن يساره، والمؤدي إلى الحديقة، فكان مغلقاً؛ وقد حرص اثناء مروره على ملاحظة الباب. وأخيراً أصبح عند الشجيرات واختبأ خلفها وكتم نفسه. وقال لنفسه: يجب أن انتظر حتى تعود الطمأنينة إلى نفوسهم، إذا ما كانوا قد سمعوا وقع قدمي وبدأوا يتنصتون. يبقى أن يساعدني الله على ألا أسعل أو اعطس.

وانتظر دقيقتين، كان خفقان قلبه خلالهما يشتد ويقوى، بل إنه كاد في بعض اللحظات أن يحبس نفسه. وفكر قائلاً: «كلا، إن خفقان قلبي لن يعود إلى طبيعته، ولا استطيع الانتظار أطول مما انتظرت». كان يقف خلف شجيرة في الظل وعلى جزئها الأمامي كان ينعكس النور المنبعث من النافذة. وتمتم ميتيا قائلاً: «ما اشد احمرار ثمر هذه الشجيرة!» ولم يدر ما الذي جعل فكره ينشغل بهذا. ثم اخذ يقترب من النافذة خطوة خطوة، بخفة وتؤدة، وحاول التطاول بالوقوف على اطراف اصابعه، فأطل على غرفة نوم فيودور بافلوفيتش، ولم تكن غرفة كبيرة، غير أن ستاراً أحمر من قماش «صيني»، بتعبير فيودور بافلوفيتش، كان يجعلها غرفتين ومضت كلمة صيني في عقله، إذ كانت من تعابير فيودور بافلوفيتش وظن أن غروشينكا وراء هذا الستار. وبدأ ميتيا يرقب فيودور بافلوفيتش وهو الآن يراه لأول مرة مرتدياً مبذله الجديد من الحرير

المخطط، ويلف حول خصره قيطاناً حزيرياً ذا شرابتين. وقد ظهر تحت ياقة المبذل طرف قميص نظيف انيق من الكتان المرقط باللون الذهبي. لكنه كان يضع على رأسه العصابة الحمراء ذاتها التي رآها اليوشا.

وقال ميتيا لنفسه: ها هو ينهض.

وكان والده واقفاً قرب النافذة، ويبدو مستغرقاً في التفكير، وفجأة سطع رأسه، وأصاخ بسمعه برهة قصيرة، فلما لم يسمع شيئاً أتى الخوان وسكب نصف كأس من البراندي من زجاجة أمامه، وأفرغه في جوفه مرة واحدة. ثم تنفس وكانه يتنهد. ووقف ساكناً برهة قصيرة، ثم جاء ووقف أمام المرآة المعلقة على الحائط وعدّل بيده اليمنى وضع العصابة الحمراء فوق جبهته، وأخذ يدقق النظر بالرضوض والجراح التي لم يزل أثر معالمها في وجهه.

وعاد ميتيا يخاطب نفسه: «إنه وحيد في الغرفة، ارجح أنه وحيد...»

وابتعد فيودور بافلوفيتش عن المرآة، واتجه فجأة نحو النافذة واخذ يتطلع منها إلى الحديقة. فانسل ميتيا بسرعة إلى الظل، وقال في نفسه والألم يعصر قلبه: «لعلها هناك وراء الستار. لعلها قد أوت الآن إلى الفراش». وكان فيودور بافلوفيتش قد ابتعد عن النافذة. «لقد وقف قرب النافذة يترقبها، إذاً فهي ليست هناك. وإلا ما الذي يدفعه إلى التحديق في الظلام؟ لا بد أنه في غاية القلق». وانسل ميتيا في الحال إلى مكانه قرب النافذة، وعاد يراقب الغرفة. وكان الرجل العجوز جالساً إلى الخوان، يدل مظهره على اليأس. وأخيراً اعتمد بمرفقه على الخوان، وجعل راحة يده تسند خده الأيمن. وأخذ ميتيا يرقبه باهتمام.

وردد مرة ثانية: «إنه وحيد، إنه وحيد! إذ لو كانت هناك، لاختلفت ملامح وجهه».

ومما يدعو إلى الاستغراب أنه أحس بقلق مفاجىء لا مبرر له، لعدم وجودها في المنزل. وقد سارع إلى ايجاد تفسير لهذا القلق فقال: «ليس مبعث قلقي أنها غير موجودة هنا، بل هو إني غير قادر على التثبت مما إذا كانت في هذا المنزل أم لا». وقد تذكر ميتيا فيما بعد، أن ذهنه كان في تلك الآونة، في حالة صفاء تام، وأنه كان يستوعب كل شيء، بأدق تفاصيله،

ولم يغفل أية نقطة. ولكن شعوراً بالشقاء، الشقاء الناجم عن القلق والحيرة، كان يتعاظم في نفسه مع كل لحظة تمر. تساءل، والحنق يأكله «أهي هنا في المنزل أم لا؟» وفجأة عزم على أمر، فمد يده وقرع بخفة اطار النافذة. قرع بطريقة الاشارة التي اتفق عليها الرجل العجوز مع سمير دياكوف أي: قرعتان متباعدتان اعقبتها ثلاث قرعات متقاربة، وهي الإشارة التي تعني أن «غروشينكا هنا!».

واجفل العجوز، ورفع رأسه، ثم قفز بسرعة وأسرع باتجاه النافذة، فانسل ميتيا إلى الظل.

فتح فيودور بافلوفيتش النافذة وأطل برأسه منها، وقال بصوت متهدج هامس: «غروشينكا، أهذا أنت! أهذا أنت! أين أنت يا ملاكي، أين أنت؟» وكان منفعلاً، يكاد اضطرابه يصبح خوفاً.

وجزم ميتيا قائلاً: «إنه وحيد في المنزل».

وعاد العجوز إلى الهتاف «أين أنت» ومد رأسه يتطاول عبر النافذة حتى لامست كتفاه جوانبها، وأخذ يحدق في كل الجهات. «هلمي، لدي مفاجأة صغيرة لك، تعالي، سأريك...»

وقال ميتيا في نفسه: «إنه يعني الثلاثة الآلاف».

ـ ولكن أين أنت؟ هل أنت أمام الباب؟ سآتي لتوي وافتح لك الباب.

وكاد العجوز يتهاوى من النافذة، وهو يحدق ببصره إلى يمينه، حيث الباب المؤدي إلى الحديقة، كأنه يريد أن يبصر في الظلام. وكاد أن يسرع إلى الباب ليفتحه بدون أن ينتظر جواب غروشينكا.

أخذ ميتيا ينظر إليه من الجانب الأيسر بدون أن يحرك ساكناً، فبدا له من منظور جانبي وجه أبيه، الذي كان يثير في نفسه المقت والكره. ظهر له حلقومه البارز، وانفه المعقوف وشفتاه اللتان تطل منهما الشهوة، وقد انعكس عليها كلها ضوء ساطع مائل من المصباح الموجود في الجهة اليسرى من الغرفة. واجتاحت قلب ميتيا موجة مخيفة من الحقد، «ها هو، خصمي، عدوي الذي عذبني ودمر حياتي!» لقد كانت موجة من ذلك الغضب المفاجيء الحاقد الشرس الذي يدفع بالإنسان إلى الإنتقام، والذي تحدث عنه

لاليوشا قبل أربعة أيام وكأنه كان يتنبأ به. فقد سأله اليوشا عندما التقى به آنذاك في العريش: «كيف تقول أنك ستقتل والدنا؟» فأجابه ميتيا: «لا أدري، لا أدري، قد لا أقدم على قتله، وقد أقتله. وأخشى أن يكون بنظري في تلك اللحظة كريهاً فجأة بوجهه المقيت. إنني اكره حلقومه وأنفه وعينيه وابتسامته المخزية. إنني اشعر بنفور شخصي منه. وهذا ما أخشاه، إن هذا مما قد لا أقوى على احتماله»... لقد اخذ هذا النفور الشخصي يزداد إلى حد لا يطاق. وكان شعور بالنفور الشديد أخرجه عن طوره وفجأة سحب المدقة النحاسية من جيبه.

وقد قال ميتيا نفسه فيما بعد: «إن الله كان يرعاني آنذاك». فقد استيقظ غريغوري، الذي كان طريح الفراش، في تلك اللحظة بالذات. وفي ذلك المساء كان عمل بوصفة سمير دياكوف لايفان. فقد فرك جسده بالفودكا الممزوجة بعقار حاد جداً لا يعرف أحد سر تركيبه، يتم استخراجه من النباتات، وشرب بعد ذلك، ما تبقى من هذا المزيج، بينما كانت زوجته تتلو فوق رأسه «صلاة خاصة»، ثم أوى إلى فراشه. وقد تناولت مارفا ايغناتييفنا، بدورها، شيئاً من الدواء، ولما لم تكن معتادة المشروبات القوية، فقد نامت إلى جانب زوجها كالميتة.

لقد استيقظ غريغوري في الليل فجأة وبعد لحظات من التأمل جلس في فراشه، مع أنه شعر في الحال بالم شديد في ظهره، ثم عاد إلى التأمل، ونهض وارتدى ثيابه على عجل. ولعله قد اراد إراحة ضميره الذي تحرك بسبب استسلامه للنوم والبيت متروك بدون حراسة «في مثل هذه الأوقات الخطرة» وكان سمير دياكوف الذي انهكته نوبة الصرع، نائماً كالميت في الغرفة المجاورة. كذلك كانت مارفا ايغناتييفنا هامدة في نومها لا تبدي حراكاً. وقال غريغوري وهو يرمق زوجته ويئن من الألم: «لقد كان الدواء فوق ما تستطيع المرأة احتماله» ثم قصد درجات منزله. كان بالتأكيد يريد أن يلقي نظرة من أعلى الدرجات، لأنه كاد ألا يقوى على السير، وكان يعجز عن تحمّل الألم في ظهره وساقه اليمنى لشدته. ولكنه تذكر فجأة أنه لم يقفل، في ذلك المساء، الباب الصغير المؤدي إلى الحديقة. وكان غريغوري مميزاً

بدقته في العمل وحرصه على الواجب، متمسكاً بنظام عمل ثابت، وعادات درج عليها منذ سنوات عديدة. ولقد نزل إلى الحديقة عبر الدرجات وهو يعرج ويتلوى ألماً. ووجد أن الباب كان حقاً مفتوحاً على مصراعيه.

وقفز غريغوري إلى الحديقة بطريقة عفوية قد يكون تخيل شيئاً، أو سمع صوتاً، وإذ نظر إلى يساره، وجد نافذة غرفة سيده مفتوحة. ولم يكن أحد يقف وراءها. فقال غريغوري في نفسه: «ما مبرر فتحها، إن الوقت ليس صيفاً». وفي تلك اللحظة عينها رأى فجأة شيئاً غريباً أمامه في الحديقة. كان رجل يعدو في الظلام على بعد اربعين خطوة منه، فبدا كشبح يولّي هارباً.

فصاح غريغوري وقد خرج عن طوره: «يا الهي!» واسرع لقطع طريق الفرار على الشبح المنطلق، متناسياً ألم ظهره، وقد سلك طريقاً مختصرة، فأثبت أنه أكثر خبرة بمسالك الحديقة من طريده. واتجه الشبح إلى غرفة الحمام ثم ركض من خلفها نحو سياج الحديقة. واقتفى غريغوري أثره، ولم يدعه يغيب عن بصره، وأخذ يعدو متناسياً كل شيء. ولما همّ الرجل بتسلق السياج كان هو قد ادركه. فصاح غريغوري باعلى صوته، وهجم على الرجل فأمسك به من ساقه بكلتا يديه. أجل، كان حدسه في محله. لقد عرفه، إنه هو، «الوحش» «قاتل أبيه».

وصاح الخادم العجوز: «يا قاتل أبيه» وتعمد أن يرفع صوته حتى يسمعه جميع الجيران، ثم اصبح عاجزاً عن معاودة الصراخ، إذ سقط فجأة كمن اخذته الصاعقة.

وقفز ميتيا عن السياج إلى الحديقة، وانحنى فوق جثة الرجل الصريع. وكان ميتيا ممسكاً بالمدقة النحاسية، فرماها فوق العشب بحركة آلية، وسقطت على بعد خطوتين من غريغوري، ولكنها لم تسقط على العشب، بل على الممرّ وفي موضع بارز منه. وامضى ميتيا بضع دقائق يفحص الجثة المطروحة أمامه. لقد كان رأس العجوز ملطخاً بالدماء. فمد ميتيا يده وأخذ يتحسسه. وقد تذكر فيما بعد بوضوح، أنه كان في تلك الآونة مشدوداً، وبدافع قوي، إلى التحقق الأكيد، هل هو حطم جمجمة الرجل العجوز أم أنه فقط افقده وعيه عندما ضربه بالمدقة. ولكن الدم كان يتدفق غزيراً، وفي

لحظات كانت اصابع ميتيا قد غرقت في الدم الحار. كما تذكر أنه اخرج منديله الأبيض النظيف الذي زين به جيب معطفه عندما زار السيدة خولا كوف، ووضعه على رأس الشيخ، محاولاً أن يوقف تدفق الدم على وجهه وعلى صدغيه بدون وعي لعمله. ولكن المنديل انغمس بالدم خلال ثوان.

ولكن ميتيا كف عن ذلك فجأة وحدّث نفسه متسائلاً: «رباه! لمَ افعل هذا؟» واضاف يائساً: «وكيف يمكنني معرفة ما إذا كنت كسرت جمجمة الرجل أم لا؟ وما الفرق بين أن اعرف أو لا أعرف؟» ثم قال بصوت مرتفع: «إذا كنت قد أزهقت روحه، فقد ازهقتها وحدث ما حدث لقد جنى على نفسه، هذا العجوز، فيجب أن يرقد هنا!» واندفع فجأة نحو السياج فتسلقه وقفز إلى الزقاق وانطلق يعدو. وكان المنديل المغموس بالدم لا يزال في يده اليمنى، فدسه في جيب معطفه الداخلي، واطلق ساقيه للريح. وقد تذكر عدد من المارة الذين التقى بهم في شوارع المدينة الغارقة في الليل البهيم، تذكروا فيما بعد أنهم رأوا تلك الليلة رجلاً يعدو في الشوارع، وعاد ميتيا إلى منزل الارملة موروزوف.

وعندما غادر ميتيا هذا المنزل في تلك الامسية، أسرعت فينيا إلى كبير البوابين نازار ايفانوفيتش، وتوسلت إليه باسم السيد المسيح، ألا يسمح للكابتن بدخول المنزل مرة أخرى. وقد وعد نازار ايفانوفيتش بتلبية طلبها، ولكنه ما لبث أن صعد إلى سيدته التي استدعته فجأة، والتقى في طريقه إليها بابن اخيه، وهو فتى في العشرين من عمره، جاء مؤخراً من الريف، فطلب إليه أن ينوب عنه في الحراسة، ولكنه نسي أن يلفته إلى ما يتوجب بشأن «الكابتن» فعندما وصل ميتيا إلى الباب قرعه، فعرفه الفتى في الحال، لأن ميتيا كان قد نفحه أكثر من مرة بقطع من النقود، ففتح له الباب ودعاه يدخل حتى أنه سارع إلى إبلاغه وهو يبتسم ابتسامة مرحة، إن «اغرافينا الكسندروفنا ليست في المنزل».

فسأله ميتيا وقد تسمّر في مكانه: «أين هي إذاً، يا بروخور؟»

ـ لقد سافرت هذا المساء، قبل ساعتين، مع تيموفي، إلى موكرو.

فصاح ميتيا: ولماذا؟

ـ لا أدري. إنها ذهبت لمقابلة احد الضباط. إن شخصاً ما أرسل لها دعوة وارفقها بعربة لتقلها.

قطع ميتيا اصغاءه إليه وعدا إلى فينيا كالمجنون.

قرار مفاجىء

كانت فينيا جالسة في المطبخ مع جدتها وهما تستعدان للنوم. ولم تغلقا باب المنزل اعتماداً منهما على نازار إيفا نوفيتش. فاقتحم ميتيا المكان وأخذ بعنق فينيا، وصاح بصوت راعد: «تكلمي حالاً! أين غروشينكا؟ ومع من هي في موكرو؟»

فصرخت المرأتان. وقالت فينيا متلعثمة وقد تملكها رعب قاتل: «وي! سأخبرك. وي! عزيزي ديمتري فيودوروفيتش، سأخبرك بكل شيء فوراً، ولن أخفي عنك شيئاً. لقد سافرت إلى موكرو، للقاء صديقها الضابط».

وصرخ ميتيا قائلاً: ومن يكون هذا الضابط؟

فقالت فينيا متسرعة: ذلك الضابط الذي عرفته منذ خمس سنوات وتركها وسافر.

فأرخى ميتيا قبضتيه عن عنق الفتاة، ووقف تجاهها ساكتاً غير قادر على الكلام وقد امتقع وجهه فبدا كوجوه الموتى، ولكن نظراته كانت تنبىء أنه قد أدرك كل شيء لدى سماعه الكلمة الأولى وفهم الموقف كله. ولكن المسكينة فينيا لم تكن في تلك اللحظة قادرة على ملاحظة فهمه للموقف أو عدم فهمه له.

وبقيت جالسة فوق الصندوق كما كانت عند دخوله إلى الغرفة، وهي ترتعد، وجعلت يديها ممدودتين أمامها في محاولة لحماية وجهها. وكانت تبدو مثبتة على الكرسي. وظلت عيناها تحدقان فيه، وجحظتا من الخوف إذ رأت يديه ملوثتين بالدم. ولا بد أنه كان أثناء عدوه قد مسح جبينه بيده ليزيل عنه العرق المتصبب، فترك على جبينه وخده الأيمن بقعاً من الدم. وكانت

فينيا على وشك أن تصاب بعارض عصبي. أما الطاهية العجوز فقد قفزت من مكانها وأخذت تحدق فيه كالمعتوهة، وهي تكاد تفقد رشدها لشدة فزعها.

وقف ميتيا لحظة، ثم تهالك بحركة آلية على مقعد قرب فينيا. وكان كمن افقده الرعب مشاعره، فبقي جالساً لا يفكر بشيء. إلا أنه كان يرى كل شيء واضحاً تماماً: إنه الضابط. لقد كان عالماً بأمر ذلك الضابط، عرفه من غروشينكا ذاتها، وعرف أنها تلقت رسالة منه قبل شهر واحد فاتضح له الآن أن المؤامرة دبرت سراً منذ شهر، منذ شهر كامل، وظلت الأمور سراً حتى وصل الخصم الجديد، ولم يكن ليعبأ به اطلاقاً. ولكن كيف غاب عنه التفكير بالرجل؟ ولماذا نسي هذا الضابط، بهذه الصورة، وكيف نسيه، بمجرد أن ذكر أمامه؟ كان ذلك هو السؤال الذي اعترض سبيله كشيء رهيب مخيف. واخذ ينظر إليه وقد استبد به الفزع، حتى إنه أحس بقشعريرة الخوف تسري في كيانه.

ولكنه عاد فجأة يتحدث إلى فينيا حديثاً رقيقاً هادئاً كطفل لطيف محبوب، كأنه نسي تماماً أنه قد أفزعها وآذاها لتوه. وشرع يستجوب فينيا متوخياً الدقة المتناهية، وادهشها أن تسمع هذه الاسئلة من رجل في مثل موقفه. ومع أن الفتاة لم تحول نظرها المذعور عن يديه الملطختين بالدم، فإنها أخذت تجيب على جميع أسئلته بطواعية وبشاشة عجيبتين، حتى بدت حريصة على قول الصدق كله ولا شيء غير الصدق. ورويداً رويداً شرعت تسرد له كل التفاصيل باقبال ورضى لا لتعذيبه، بل عن صدق نية باسداء خدمة له. وقد سردت على مسمعه باسهاب كبير جميع احداث ذلك اليوم، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا لغروشينكا، وكيف أنها تولت الحراسة بنفسها، وكيف سافرت السيدة، وكيف انها نادت أليوشا من النافذة وطلبت منه أن ينقل إليه، أي إلى ميتيا، تحياتها وأن يطلب إليه «أن يذكر إلى الأبد الساعة التي أحبته فيها».

فلما سمع ميتيا هذه الرسالة، ابتسم وسرى الدم في وجنتيه الشاحبتين. وقالت له فينيا، إذ ذاك من غير خوف أو وجل: «أنظر إلى يديك يا ديمتري فيودوروفيتش، فهما ملطختان بالدم!»

فأجابها ميتيا إجابة آلية: «آه نعم»، ثم نظر ذاهلاً غير مهتم إلى يديه وسرعان ما نسي سؤال فينيا.

وعاد إلى الصمت. وكانت قد انقضت عشرون دقيقة على وجوده في هذا المنزل.

والآن تبدد الرعب الذي كان يتملكه، وكان جلياً أنه استبدل رعبه بقرار جديد بعزم وتصميم. وفجأة نهض عن المقعد وهو يبتسم ابتسامة حالمة ذاهلة.

وعادت فينيا تخاطبه وهي تشير إلى يديه: «ماذا دهاك يا سيدي؟» وكانت لهجتها تتسم بالرقة والعاطفة وكأنها تشعر بشيء يقربها منه في تلك اللحظة من لحظات شقائه. ونظر ميتيا إلى يديه مرة ثانية.

أجابها وهو ينظر إليها وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب: «إنه دم يا فينيا، دم إنساني. يا إلهي! لماذا سفك؟ ولكن... فينيا... يوجد في هذا المكان سور، (ونظر إليها كمن يطرح عليها أحجية) وهو سور شاهق، رهيب المنظر. وغداً في الفجر، عندما تشرق الشمس، سيقفز ميتيا من فوق هذا السور.. إنك لا تفقهين معنى هذا السور يا فينيا، ولكن لا بأس... فإنك ستسمعين غداً وستفهمين... والآن وداعاً. إنني لن أقف في طريقها، بل أنا اعرف كيف سأتنحى عنه. عيشي يا فرحتي... لقد احببتني ساعة واحدة، تذكري ميتينكا كرامازوف إلى الأبد... لقد كانت دوماً تناديني باسم ميتينكا، هل تعلمين؟».

قال ذلك وانطلق خارجاً من المطبخ، وقد بدا أن خروجه المفاجىء أفزعها أكثر مما أفزعها دخوله المطبخ وهجومه عليها.

مضى على هذا الحديث عشر دقائق، ودخل ديمتري إلى منزل بطرس إيلييتش بيرخوتين، الموظف الشاب الذي رهن مسدسيه عنده. وكانت الساعة آنذاك قد بلغت منتصف التاسعة، وكان بطرس إيلييتش تناول الشاي، وارتدى معطفه يبغي الذهاب إلى مشرب «متروبوليس» لكي يلهو بلعب البلياردو. وقد لقيه ميتيا وهو يخرج من المنزل. فلما رآه الشاب ملطخ الوجه بالدم اطلق صيحة استغراب وقال له: «يا للسماء! ماذا دهاك؟»

فقال ميتيا: «لقد جئت استعيد المسدسين وقد احضرت لك نقودك وإنني اشكر لك هذه الخدمة. إنني في عجلة من امري بطرس إيليتش، فرجائي أن تسرع فلا وقت لديّ».

كانت دهشة بطرس إيليتش تزداد، لقد شاهد فجأة حزمة من اوراق النقد في يد ميتيا. ومما ضاعف في دهشته أن ميتيا دخل الغرفة حاملاً النقود بيده بطريقة تختلف عن طريقة أي من الناس يدخل منزلاً ويحمل نقوداً فقد كان يقبض عليها بيده اليمنى وهو يمدها كمن يريد عرضها. وقد قال، فيما بعد الصبي خادم بيرخوتين، والذي قابل ميتيا في ممشى المنزل، أنه رآه يدخل الممشى وهو يمد يده بالنقود، مما يرجح الظن بأنه كان يحملها على هذا النحو في الشارع أيضاً. وكانت جميع الأوراق النقدية زاهية اللون من فئة المائة روبل. وكانت الاصابع التي تقبض عليها ملطخة بالدم.

وعندما سئل بطرس إيليتش عما إذا كان يستطيع تقدير قيمة المبلغ الذي كان ميتيا يحمله، قال إن ذلك كان صعباً معرفته من نظرة واحدة، ولكن ربما كان يبلغ الألفين أو الثلاثة آلاف، لأن حزمة النقود التي كان يحملها، كانت سميكة.

وأضاف في أثناء إدلائه بالشهادة: «إن ديمتري فيودوروفيتش لم يكن في حالته الطبيعية، ولم يكن ثملاً، بل كان عظيم البهجة شارد اللب. وقد بدا عليه الاستغراق أو التأمل وكأنه كان يفكر باحثاً عن شيء ولا يستطيع الوصول إليه. وكان متعجلاً، يختصر اجاباته بلهجة غريبة. وكان يبدو عليه في بعض اللحظات أنه لم يكن حزيناً بل سعيداً».

وهتف بطرس إيليتش قائلاً وهو يحدج زائره بنظرة حادة: ماذا دهاك؟ ما السؤ الذي أصابك فأدمى اصابعك؟ هل سقطت؟ أنظر إلى نفسك في المرآة!

ثم أمسك به من مرفقه وقاده إلى المرآة، فلما رأى ميتيا وجهه الملطخ بالدم أجفل عابساً مقطباً. ثم تمتم غاضباً: «تبا لهذا! لم يكن ينقصني احتمال أمر غير هذا». ونقل حزمة النقود من يمناه إلى يسراه بحركة سريعة. ثم أخرج بعصبية منديلاً من جيبه، وكان هذا المنديل أيضاً ملوثاً بالدم بشكل كامل.

(إنه نفس المنديل الذي مسح به وجه غريغوري) وكان الدم يكاد يجف عليه، بل أن طياته قد التصقت وتقبضت، حتى صار أشبه بالكرة ولم يستطع ميتيا أن يفضه فألقى به إلى الأرض غاضباً. وقال مخاطباً الشاب: «تبا له، أليس لديك خرقة.. أمسح بها وجهي؟».

فأجابه بطرس إيلييتش: «أأنت إذن ملطخ بالدم فحسب، ولست جريحاً؟ وطالما الأمر كذلك فاغسل وجهك. ها هو الحوض وسأصب لك الماء».

ـ ألديك حوض؟ إن هذا شيء حسن.. ولكن أين أضع هذه؟

وأشار ميتيا، والحيرة تأخذه، إلى حزمة الأوراق النقدية من فئة المائة روبل، وكان ينظر متسائلاً إلى بطرس إيلييتش كأنما هو المسؤول عن تحديد المكان الذي يجب على ميتيا أن يضع نقوده فيه.

ـ في جيبك أو على المنضدة هنا، لن يأخذها أحد.

فصاح ميتيا وكأنه قد صحا بغتة من تأمله: «في جيبي؟ نعم في جيبي. حسناً... إن الأمر كله تافه سخيف. والآن دعنا ننهي قضية المسدسين أولاً. أعدهما إلي وهاك نقودك... فإنني في أمس الحاجة إليهما... وليست لدي دقيقة واحدة أضيعها».

وعمد إلى سحب الورقة النقدية العليا من الحزمة وقدمها إلى بطرس إيلييتش.

ـ ولكن ليس لدي المبلغ المتبقي لك. أليست لديك ورقة أقل قيمة من هذه؟

فأجاب ميتيا نفياً، وأعاد نظرة إلى الحزمة في يده وكأنه لا يصدق قوله، وقلب ورقتين أو ثلاثاً، وقال: «كلا إن الأوراق كلها سواء». واخذ ينظر إلى بطرس إيلييتش نظرة التساؤل.

وفعلاً سأله هذا: «كيف أصبحت غنياً إلى هذا الحد؟ مهلاً، سأرسل الصبي إلى حانوت بلوتنيكوف ـ فهو يظل مفتوحاً إلى ساعة متأخرة من الليل ـ وهم سيصرفون لنا الورقة النقدية. تعال يا ميشا!» وصاح منادياً فتاه من الممشى.

فلما دخل الخادم صاح ميتيا كمن ألهم فكرة: «إلى حانوت

بلوتنيكوف إنها فكرة رائعة. إمض يا ميشا إلى حانوت بلوتنيكوف وقل لأصحابه إن ديمتري فيودوروفيتش يبلغكم تحياته وسيوافيكم بعد لحظات.. ولكن أصغ، أصغ، قل لهم أن يحضروا ستاً وثلاثين زجاجة من الشمبانيا قبل أن أصل، وأن يحزموها لكي آخذها معي إلى موكرو» وأضاف موجهاً الحديث إلى بطرس إيلييتش فجأة: «لقد اخذت معي في المرة السابقة ثمان وأربعين زجاجة..» وعاد إلى مخاطبة الخادم قائلاً: «لا عليك إنهم سيفهمون كل شيء يا ميشا مهلا، قل لهم أن يهيئوا أيضاً جبناً وفطائر من نوع ستراسبورغ وسمكاً مدخناً، ولحم خنزير وكافياراً، وكل ما احتواه الحانوت من طيب المآكل، بقية مائة روبل أو مائة وعشرين كالمرة السالفة... مهلاً، وقل لهم أن لا ينسوا الحلوى والكمثرى والبطيخ، ليضعوا بطيختين أو ثلاثاً، أو أربعاً، كلا فواحدة تكفي... وكذلك الشوكولاته والسكاكر والكراميل والحلوى الذوابة. باختصار، كل ما اخذته معي إلى موكرو في المرة السابقة. بقيمة ثلاثمائة روبل مع الشمبانيا.. لتكن هذه المرة كسابقتها. واذكر يا ميشا، إذا كنت تدعى ميشا... أليس اسمه ميشا؟» والتفت إلى بطرس إيلييتش متسائلاً.

وكان هذا يصغي إلى اقواله ويرقب تصرفاته بقلق. وقد قاطعه قائلاً: «انتظر لحظة، الأفضل أن تذهب بنفسك وتوصيهم بما تريد، لا بد أن الخادم سيفسد كل شيء...»

- إنه سيفسد الأمر، وأنا اعتقد ذلك! هيه يا ميشا! إني أود تقبيلك لو أديت المهمة... وإن لم تخطىء فسأنفحك عشرة روبلات. هيا اسرع، انطلق... والأهم الشمبانيا، قل لهم أن يهيئوا الشمبانيا خاصة. وليهيئوا البراندي أيضاً والانبذة الحمراء والبيضاء، وكل ما اخذته معي في المرة الماضية... إنهم يعرفون الأشياء التي اخذتها تلك المرة.

فعاد بطرس إيلييتش إلى مقاطعته والضيق يأكله: دعني اتكلم. فليسرع الصبي لصرف الورقة النقدية ولابلاغهم ألا يقفلوا الحانوت لانتظارك، فتوصي بما تشاء... اعطه الورقة النقدية. انطلق يا ميشا! وأرنا كيف تكون السرعة!

لقد كان يبدو أن بطرس إيلييتش كان يتعمد صرف ميشا بسرعة، لأن الفتى كان يقف فاغر الفم محملقاً، بدهشة ورعب إلى وجهه الملطخ بالدم

واصابعه المرتعشة والملوثة به، التي كان تقبض على الأوراق النقدية. وكان يبدو غير مستوعب لأوامر ميتيا.

فلما انصرف الخادم التفت إليه بطرس إيلييتش وقال بلهجة حازمة: «الآن هيا اغسل وجهك. ضع النقود فوق المنضدة أو دسها في جيبك.. حسناً. هيا. اخلع معطفك».

وفيما هو يعاونه على خلع المعطف، عاد إلى مخاطبته قائلاً: «أنظر، إن معطفك أيضاً ملطخ بالدم!»

فأجاب ميتيا قائلاً، وقد بدا على وجهه بعض امارات الثقة والبراعة: «تلك البقعة.. إنها ليست على المعطف كله، بل هي شيء قليل من الدم على الكم. وهذه البقعة إنها اثر موضع المنديل. لا بد وأنني قد جلست على المنديل في منزل فينيا فرشح منه على المعطف».

كان بطرس يصغي إلى أقوال ميتيا متجهماً. فلما فرغ، تمتم قائلاً: لا بد وأنك قد اقدمت على امر ما واغلب الظن أنك قد تعاركت مع أحدهم.

ثم بدأ ميتيا ينظف نفسه من الدم، وكان بطرس إيلييتش يحمل الإبريق ويصب منه الماء على يدي ميتيا، الذي لم يكن بسبب سرعته قادراً على فركهما بالصابون كما ينبغي (كانتا ترتعشان، وقد تذكر بطرس إيلييتش ذلك فيما بعد). غير أن الموظف الشاب كان يلح على ميتيا أن يعيد فركهما بالصابون جيداً. وقد بدا كأن هذا الشاب اصبح يسيطر على ميتيا شيئاً فشيئاً بمرور الوقت. ويجوز لنا أن نبدي ملاحظة عابرة فنقول أنه كان شاباً يتمتع بشخصية قوية.

ـ أنظر نسيت أن تنظف اظفارك. الآن افرك وجهك بقوة أكثر؛ هنا على صدغيك، عند اذنك... أتريد الذهاب مرتدياً هذا القميص؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ انظر إلى كمك الأيمن فهو ملطخ عند الزند بالدم.

فقال ميتيا وهو يتفحص زند قميصه: «نعم، إنه ملطخ بالدم».

ـ إذن بدّل قميصك.

فأجاب ميتيا بصراحة تدل على الثقة، وهو يجفف وجهه ويديه بالمنشفة ويلبس معطفه: «لا وقت متسعاً لدي، إنني... سأثني الزند حتى لا

يرى من تحت المعطف.. أترى!»

فسأله بطرس إيلييتش بلهجة غير بعيدة من اللوم: «والآن قل لي، أيّ عمل اقدمت عليه؟ هل تشاجرت مع أحد؟ أفي الحانة كالمرة السابقة؟ هل ضربت ذلك الكابتن مرة ثانية؟ من كنت تضرب... أو لعلك قتلت أحداً؟

ـ لغو فارغ.

ـ لماذا يكون كلامي لغواً فارغاً.

فقال ميتيا وهو يضحك فجأة: «هون عليك. لقد هشمت امرأة في السوق لتوي».

ـ هشمتها؟ أكانت امرأة عجوزاً.

فصاح ميتيا ضاحكاً وهو يحدق في وجه بطرس إيلييتش تحديقاً شديداً وقد رفع صوته كأنه يحدث إنساناً أصم:

أقول لك رجلاً عجوزاً.

ـ لعنة الله عليك! رجل... امرأة... لا فرق... هل قتلت إنساناً؟

ـ لقد سوينا خلافاتنا. كنا تنازعنا ثم سوينا خلافاتنا وكان ذلك في مكان ما. لقد افترقنا صديقين. يا له من أحمق... لقد صفح عني... لا بد أنه قد صفح عني الآن... ولو أنه استطاع النهوض لما صفح عني وغمز ميتيا بعينه. «سحقاً له، اقول سحقاً له يا بطرس إيلييتش! لا يقلقنك امره! فلست أريد أن يسبب لي ذكره قلقاً الآن!» والعبارة الأخيرة هذه، قالها ميتيا بلهجة قاطعة.

ـ ما بالك ماضٍ في ضلالتك، تثير المشاجرات مع جميع الناس... ولاسباب سخيفة، كما فعلت مع الكابتن... لقد كنت تتشاجر وها أنت منصرف إلى اللهو والسكر وهذا طبعك، ست وثلاثون زجاجة شمبانيا! ما الذي يدعوك إلى شراء كل هذا؟

فصاح ميتيا وهو يدس يديه في جيوبه تباعاً: «مرحى! والآن أعطني المسدسين بسرعة، أقسم بشرفي إنه ليس لدي الآن متسع من الوقت. كنت أود أن أتبادل معك الحديث، يا فتاي العزيز، ولكن ليس لدي متسع من

الوقت. ثم لا حاجة بي لذلك، فقد تقدم الليل وفات وقت الكلام، أين أموالي؟ أين وضعتها؟»

ـ لقد وضعتها بنفسك على المنضدة... إنها هناك... هل نسيت؟ إن المال يبدو غير ذي قيمة بالنسبة لك. هاك مسدسيك إني استغرب هذا. لقد رهنتهما في الساعة السادسة لقاء عشرة روبلات، والآن لديك الآلاف، الفان أو ثلاثة آلاف روبل كم هي بالضبط؟

فضحك ميتيا، وهو يدس الحزمة في الجيب الجانبي لسرواله، وقال: «لك أن تثق بأنها ثلاثة آلاف».

ـ ستضيع منك إذا تركتها على هذا النحو. هل اكتشفت منجماً للذهب؟

فقال ميتيا بأعلى صوته، وهو يضحك ضحكاً عالياً: «المناجم؟ مناجم الذهب؟ أتريد الذهاب إلى المناجم يا بيرخوتين؟ إن في المدينة سيدة تمنحك فوراً ثلاثة آلاف روبل، إذا وافقت على الذهاب إلى المناجم، لقد فعلت ذلك معي. إنها مجنونة بمناجم الذهب. هل تعرف السيدة خولاكوف؟»

فحدجه بطرس إيلييتش بنظرة تعكس عدم تصديقه وقال له: «إنني لا اعرفها، ولكنني رأيتها وسمعت بعض اخبارها. هل دفعت لك حقاً ثلاثة آلاف روبل. هل فعلت هذا حقاً؟»

ـ إن كنت لا تصدقني، فاذهب إليها غداً عندما تشرق الشمس، حالما ينطلق إله الشمس الفتي صعداً يسبح الله ويمجد عظمته، إمض إليها، إلى السيدة خولاكوف واسألها هل اعطتني هذه الثلاثة الآلاف، أم لا. سوف تعلم بنفسك.

ـ إنني لا أدري بأي شروط وظروف... وما دمت تقول مثل هذا الكلام الجازم، فظني أنها قد أعطتك هذا المال، وها هي النقود معك. ولكنك بدلاً من الذهاب إلى سيبريا اراك تبددها كلها.. صارحني القول إلى أين أنت ماض الآن.

ـ إلى موكرو.

ـ أذاهب أنت إلى موكرو؟ وفي هذه الساعة المتقدمة من الليل!

فهتف ميتيا فجأة: «لقد كان يوم كل شيء فيه ملكي ولكنني اصبحت الآن خاوي الوفاض».

ـ كيف تقول إنك خاوي الوفاض؟ كيف ذلك وفي حوزتك كل هذه الآلاف!

ـ إنني لا اتحدث عن الآلاف. تباً للآلاف! إنني اتحدث عن طباع النساء.

فكر النساء سريع التصديق
وقلبهن كثير التقلب فاسد

ذلك قول «أوليس»، وأنا موافق تماماً عليه.

ـ لست افهم ما تقول!

ـ أتظنني سكران؟

ـ لست سكراناً، ولكنك قد تكون أسوأ حالاً من السكارى.

ـ إنني سكران الروح، يا بطرس إيلييتش، سكران الروح! كفانا كلاماً الآن!

ـ ماذا تفعل، أتحشو المسدس؟

ـ نعم أحشوه.

وكان ميتيا بعد أن اخرج أحد المسدسين من الصندوق، قد فتح مستودع البارود، وصب المسحوق بعناية في الخرطوشة. ثم تناول الرصاصة وقبل أن يولجها في مكانها من بيت النار امسكها بين إصبعيه يتأملها على ضوء الشمعة.

فسأله بطرس إيلييتش، وكان يرقبه بفضول ممزوج بالقلق: «لماذا تنظر إلى الرصاصة؟»

ـ لقد خطرت ببالي فكرة. إنك إذا كنت تنوي أن تودع دماغك رصاصة، أفلا تنظر إليها قبل حشو المسدس؟

ـ ولماذا انظر إليها؟

ـ إنها ستنفذ إلى دماغي، ولذلك فمن الأهمية بمكان أن ألقي عليها

نظرة لكي أرى أي شيء تشبه. ولكن هذه حماقة. إنها حماقة ظهرت لي الآن. ثم اضاف وهو يدفع الرصاصة إلى بيت النار: لقد فرغت من ذلك. بطرس إيليتش يا صديقي العزيز، إن هذا لغو، إنه كله عبث، وليتك تعرف أي عبث! والآن أعطني ورقة صغيرة.

ـ هاك بعض الورق.

ـ كلا، أريد ورقة جديدة نظيفة، من ورق الكتابة، هذه تكفي.

وتناول ميتيا قلماً عن المنضدة، كتب سطرين بسرعة وطوى الورقة طيتين متعارضتين، ودسها في جيب صداره، واعاد المسدسين إلى صندوقهما، واقفله وظل قابضاً عليه بيده. ثم نظر إلى بطرس إيليتش، وهو يبتسم ابتسامة رقيقة، وبوغل في التفكير، ثم قال: «والآن، فلنمض».

فسأله بطرس إيليتش مضطرباً: «إلى أين نمضي؟ كلا، انتظر لحظة... لعلك تفكر بتفجير رأسك بهذه الرصاصة!»

ـ لقد كنت ابغي مخادعتك عندما حدثتك عن الرصاصة فاعلم أنني اريد الحياة! كن على ثقة مما أقول إنني أحب إله الشمس وضفائره الذهبية، واحب اشعته الدافئة.. يا عزيزي بطرس إيليتش، أتعرف كيف تتنحى عن الطريق؟

ـ ماذا تقصد بالتنحي عن الطريق؟

ـ أقصد أن اخلي الطريق لغيري، لإنسان احبه، ولإنسان آخر أكرهه، وأن أحب الإنسان الذي أكرهه. إن هذا هو معنى التنحي عن الطريق! وأن أقول لهما: ليبارككما الله، إمضيا في سبيلكما، انطلقا، أما أنا...

ـ أما أنت؟

ـ إن هذا فيه الكفاية، لنمض.

فقال بطرس إيليتش وهو يتفرس فيه: «والله، لأحملن بعضهم على منعك من الذهاب. ما هي غايتك من الذهاب إلى موكرو في هذه الساعة؟»

ـ إن فيها امرأة، امرأة حسبك هذا، فاصمت.

ـ أصغ إلي، برغم أنك إنسان متوحش، فلقد احببتك... وأنا الآن شديد القلق عليك.

ـ شكراً لك يا فتاي. صحيح أنني متوحش. متوحشون. متوحشون! طالما كنت أردد هذه الكلمة. متوحشون. ها هو ميشا! لقد كدت أنساه.

ودخل ميشا عدواً وهو يحمل حفنة من النقود في يده، بعد أن صرف الورقة النقدية، وذكر أن حانوت بلوتنيكوف قد صار مسرحاً للعمل والحركة؛ «فهم اخذوا ينزلون الزجاجات، والسمك، والشاي، وسيتم تجهيز كل شيء فوراً». فتناول ميتيا قطعة من فئة العشرة روبلات وناولها إلى بطرس إيلييتش، ثم رمى قطعة مماثلة إلى ميشا.

فصاح بطرس إيلييتش قائلاً: «حذار من مثل هذا العمل! إنه عمل فاسد لا أطيق أن يجري مثله في منزلي، فهي عادة سيئة تحط من الأخلاق. رد إليك نقودك. ضعها هنا، لماذا تبددها؟ قد تحتاج إليها غداً وأرى أنك ستعود إلي لكي تقترض مني عشرة روبلات. لمَ تبقي نقودك في جيبك الجانبية؟ إنها ستضيع منك.

ـ هلم بنا يا صديقي العزيز نذهب إلى موكرو معاً.

وما لي في موكرو حتى أذهب إليها؟

ـ لنفتح الآن احدى الزجاجات، ولنشرب نخب الحياة! إنني في حاجة إلى الشراب وعلى الاخص معك. إنني لم اشرب قط معك، أليس كذلك؟

ـ حسناً جداً، فلنمض إلى حانة متروبوليس لقد كنت ذاهباً إليها الآن.

ـ ليس لدي متسع من الوقت لذلك. لنشرب في حانوت بلوتنيكوف. لنجلس في الغرفة الخلفية للحانوت. هل توافق أن تحل لي لغزاً؟

ـ سل ما بدا لك.

فأخرج ميتيا الورقة المطوية من جيب صداره، ففضها واراه إياها، وكان مكتوباً عليها بخط كبير واضح، العبارة التالية:

إنني اعاقب نفسي على حياتي كلها، وأقبل هذا العقاب. فلما قرأها بطرس إيلييتش قال: «يقيناً سأبلغ معارفك. سأمضي الآن».

ـ لن يكون لديك متسع من الوقت يا فتاي العزيز، هلم نشرب، إمض معي!

كان حانوت بلوتنيكوف يقع على ناصية الشارع، قريبا جداً من باب إيلييتش. وكان أكبر حانوت «للبقالة» في بلدتنا، وهو مزدهر، وأصحابه جماعة من أغنياء التجار يحسنون ادارته. وقد وضعوا فيه كل ما كان يعرض في حوانيت بطرسبورغ. فكانت فيه جميع صنوف «البقالة»: أنبذة «عبأها الأخوة إيليسييف»، وفاكهة، ولفائف السيجار، وقهوة، وسكر، وما شابه ذلك. وكان أصحاب الحانوت يستخدمون ثلاثة من المعاونين في الداخل، واثنين يقومان بالخدمة إلى الخارج، كانوا جميعاً دائمي الحركة. ومع أن ناحيتنا كانت قد فقرت، وهجرها كبار اصحاب الأراضي، وساءت حال التجارة، فإن مخازن «البقالة» ظلت مزدهرة كسالف عهدها، وكانت تزداد ازدهاراً بمرور الأعوام، والشارون يكثرون فيها، لأن موادها يحتاجها كل إنسان في كل زمان.

كان أصحاب الحانوت ينتظرون قدوم ميتيا بصبر نافد، إذ كانوا يتذكرون بوضوح، كيف أنه قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع، اشترى منهم مرة واحدة خمراً وحاجات منوعة بلغت قيمتها بضع مئات من الروبلات، دفعها نقداً (ولو طلب أن تكون ديناً، لما قبلوا بطبيعة الحال أن يسلموه شيئاً). وقد تذكروا أيضاً أنه كان آنذاك ـ كما هي حاله الآن ـ يحمل حزمة من الأوراق النقدية من فئة المائة روبل، ويدفع لهم منها بدون أن يساوم أو يفكر، أو يسأل نفسه عن مدى حاجته لكل تلك السلع. وقد تناقل جميع أهل المدينة كيف أنه عندما سافر مع غروشينكا إلى موكرو «انفق ثلاثة آلاف روبل في يوم وليلة، وعاد إلى المدينة وليس في جيبه درهم واحد». وقد دعا آنذاك جميع افراد قبيلة الغجر (التي كانت ضاربة في ناحيتنا)، وكان هؤلاء طيلة يومين كاملين يبتزون منه المال بلا حساب اثناء سكره، ويشربون الخمور الغالية بلا انقطاع. وكان الناس يتناقلون ساخرين أنه كان يقدم الشمبانيا للفلاحين ذوي الأيدي الوسخة، ويغدق الحلوى والفطائر على نساء القرية وبناتها. إن الناس كانوا يسخرون كثيراً في غيابه، وخاصة في الحانة، لأن مواجهته بذلك لا يخلو من خطر، ومحور سخريتهم اعلانه هو بأن كل ما امكنه الظفر به من غروشينكا في هذه

«الرحلة» أن اذنت له بتقبيل قدمها. ولم يسمح له بغير هذا.

عندما وصل ميتيا وبطرس إلى الحانوت؛ وجدا عربة مجهزة مربوطة بثلاثة جياد زينت اعناقها بالجلاجل والمفارش وكان اندريه الحوذي بانتظار ميتيا عند الباب متأهباً للانطلاق. وكان العمال قد اوشكوا أن يجهزوا صندوق الاطعمة، وكانوا بانتظار وصول ميتيا فقط لمباشرة تسمير الصندوق، ونقله إلى العربة. وبهت بطرس إيلييتش، وسأل متيتا: من أين جاءت هذه العربة بمثل هذه السرعة؟»

ـ لقد قابلت اندريه اثناء انطلاقي إليك، وأمرته أن يأتي بعربته إلى الحانوت مسرعاً، إذ لا وقت لدي اضيعه. في المرة السابقة أقلني تيمودي، لكنه سافر هذا المساء مع تلك الساحرة. هل سنتأخر كثيراً يا اندريه؟

فأجاب اندريه بحرارة، وكان رجلاً ناحل الجسم أحمر الشعر ما يزال شاباً يتدثر بمعطف ويحمل على ذراعه قفطاناً: «إنهم سيسبقوننا بساعة واحدة على ابعد تقدير، بل ربما بأقل من ذلك. لقد ادركت تيمودي وهو يتأهب للسفر، وأنا أعلم مدى سرعة عربته، ولن تكون سرعتهم مضاهية لسرعتنا، يا ديمتري فيودوروفيتش كيف يمكن أن يكون ذلك؟ إنهم لن يسبقونا حتى بساعة واحدة!»

ـ لك مني فودكا بخمسين روبلا إذا تأخرنا عنهم بمقدار ساعة واحدة فقط.

ـ إنني أضمن لك فرق الساعة يا ديمتري فيودوروفيتش، إيه، إنهم لن يسبقونا بأكثر من نصف ساعة.

ومع أن ميتيا أخذ يتنقل من مكان إلى آخر ليتفقد كل شيء، فقد كانت اوامره غريبة، مفككة، غير متناسقة. فكان يبدأ بالجملة فينسى آخرها. وقد وجد بطرس إيلييتش نفسه مضطراً إلى التدخل لنجدته، والحد من انفعاله.

وكان متيتا يصيح: «أريد اشياء بقيمة أربعمائة روبل، لا أقل من ذلك، كالمرة السابقة. ثمان وأربعين زجاجة من الشمبانيا، لا تنقص زجاجة واحدة».

فصاح به بطرس إيلييتش قائلاً: «ماذا عساك تصنع بهذه الكمية الكبيرة؟

لماذا؟ مهلا! ما هذا الصندوق؟ ماذا يحوي؟ أؤكد إن أشياءه ليست بقيمة أربعمائة روبل؟»

وعندما اخذ أحد المستخدمين يوضح بأدب متكلف أن الصندوق الأول يحتوي على ست من زجاجات الشمبانيا، والاشياء الأخرى الضرورية التي تفوق غيرها أهمية فقط» كالمشهيات والحلوى والنقل، ولكن القسم الأساسي من البضاعة المطلوبة سيحزم ويرسل كالمرة السابقة في عربة خاصة تجرها ثلاثة جياد فتنطلق بأقصى سرعتها بحيث لا يتأخر، وصولها عن ديمتري فيودوروفيتش بأكثر من ساعة واحدة.

قال ميتيا بحرارة: «ليس أكثر من ساعة! ليس أكثر من ساعة! وضع فيها المزيد من «الكراميل والسكاكر الذوابة، فإن فتيات موكرو مغرمات بها».

فتدخل بطرس إيلييتش قائلا، وكاد أن يثور غاضباً: «لا بأس من إرسال السكاكر الذوابة ، ولكن ما حاجتك إلى ثمان وأربعين زجاجة من الشمبانيا، تكفيك زجاجة واحدة فقط». ثم أخذ يساوم المستخدم، ويطالبه بقائمة الحساب وهو يتصلب في موقفه فلا يرضيه شيء. لكنه لم ينجح في انقاذ أكثر من مائة روبل. وتم الاتفاق اخيراً على إرسال اشياء بقيمة ثلاثمائة روبل فقط.

وأمعن بطرس إيلييتش فكره ثم صاح بميتيا قائلاً: حسناً، فلتذهب إلى الشيطان! فماذا يعنيني؟ بدد نقودك، طالما أنك كسبتها بغير عناء.

فما كان من ميتيا إلا أن جره إلى الغرفة الخلفية من الحانوت وهو يقول له: تعال من هنا، أيها المقتر، من هنا، لا تغضب، سيقدمون لنا الآن زجاجة، إيه يا بطرس إيلييتش، تعال معي، فإنك فتى طيب، وأنا أحب امثالك من الناس.

ثم جلس ميتيا على مقعد من القش قرب منضدة صغيرة مغطاة بغطاء قذر. وقبالته جلس بطرس إيلييتش، وسرعان ما قدمت لهما الشمبانيا، وعرض المستخدم عليهما محاراً قائلاً: «إنه محار من خير الأنواع، وقد وصل حديثاً».

فصاح بطرس إيلييتش: «سحقاً للمحار، فأنا لا أحبه. لسنا في حاجة إلى أي شيء».

وقال ميتيا: «لا وقت لدينا لاكل المحار ثم إنني لست جائعاً». وفجأة خاطب بطرس بحرارة قائلاً: «هل تعلم يا صديقي أنني لم أحب كل هذه الفوضى قط».

ـ ومن يحبها؟ أتشتري ستا وثلاثين زجاجة من الشمبانيا للفلاحين؟ لا شك أن هذا كاف لاثارة الغضب والتقزز.

ـ لست اعني هذا، انني اتحدث عن النظام الأسمى، نظام الروح. وأنا ينقصني نظام اسمى، ليس فيّ انسجام. ولكن لقد انتهى كل شيء. وما من حاجة للتحسر والندم فالوقت لم يعد وقت التحسر، تباً له! إن حياتي كلها كانت فوضى واضطراباً، وعلي الآن أن أعيد إليها النظام. أليست هذه استعارات غير مرضية؟

ـ إنك تهذي.

ـ المجد لله في العلا، المجد لله في...

«لقد انبعث يوماً، هذا البيت من الشعر من أعماق قلبي، إنه ليس شعراً بل دمعة... وأنا صانعها... ولم اصنعها عندما كنت أجذب لحية الكابتن...»

ـ ما الذي يدعوك إلى التحدث بسيرة ذلك الكابتن؟

ـ لماذا اذكره؟ إنها حماقة لكل شيء نهاية، كل شيء زائل. إنه فصل الكلام.

ـ إنني دائم التفكير في مسدسيك.

ـ وهذه أيضاً حماقة! اشرب، ولا تأخذك التصورات. إنني أحب الحياة، لقد احببتها حباً جماً، احببتها إلى حد مخز كفانا! لنشرب نخب الحياة، أيها الفتى الطيب، إنني اطلب أن نشرب نخبها، لماذا أنا معجب بنفسي؟ إنني نذل، ولكنني مزهو بنفسي. ومع ذلك فإنني عندما افكر بأنني نذل، أجد نفسي معذباً، ثم لا اتورع عن أن اعجب بنفسي. إنني ابارك الخليقة. إنني على استعداد لأن امجد الله ومخلوقاته الآن، ولكن... يجب أن اقتل حشرة ضارة لأمنعها من الزحف على الآخرين وإفساد حياتهم... دعنا نشرب نخب الحياة يا أخي العزيز. أثمة شيء هو أغلى من الحياة؟ لا شيء! لنشرب نخبها، ونخب امرأة هي ملكة الملكات.

وشرب كل واحد منهما كأسا. وكان ميتيا منفعلا ومتبسطا في الكلام، كما كان حزيناً أيضاً. وكان يبدو عليه كأنه ينوء بحمل ثقيل يجعله قلقاً مشتت المشاعر.

- ميشا... إنه ميشا خادمك، هلم! تعال يا ميشا أيها الفتى، اشرب هذه الكأس، نخب إله الشمس ذي الشعر الذهبي الذي سيصعد إلى السماء غداً مع الفجر.

فقال بطرس إيلييتش منزعجاً: «لماذا تدعوه إلى الشراب؟»

- نعم، نعم، نعم، دعني، إنني أريد ذلك.

- إيه إيه!.

فأفرغ ميشا الكأس في فمه، ثم انحنى وخرج مسرعاً.

وقال ميتيا: إنه سيذكر هذه الكأس فيما بعد. المرأة، إنني أحب المرأة! ما هي المرأة؟ إنها ملكة الخليقة! إن قلبي حزين يا بطرس إيلييتش. اتذكر هاملت؟ اتذكر قوله: «انني جد حزين يا هوراتيو الطيب! واحر قلباه على يوريك المسكين!» قد اكون انا المقصود بذلك، يوريك؟ نعم، إنني الآن يوريك وبعدئذ سأصير جمجمة».

وكان بطرس يصغي إليه بصمت. وصمت ميتيا برهة. ثم وقع نظره عرضاً على كلب صغير رائع ذي عينين دكناوين مقعياً في زاوية الغرفة، فقال مخاطباً المستخدم: ما هذا الكلب المقعي هناك؟

- إنه كلب السيدة فارفارا الكسييفنا، لقد جاءت به ثم نسيته في هذا المكان، ينبغي أن يعاد إليها.

فتمتم ميتيا كالحالم: «لقد رأيت كلباً يشبهه... في الكتيبة... غير أن ذلك الكلب كانت ساقه الخلفية مكسورة... والآن يا بطرس إيلييتش اريد أن أسألك: هل سرقت شيئاً في حياتك؟

- يا له من سؤال!

- لست أعني شيئاً. بل اردت معرفة ما إذا كنت سرقت شيئاً من جيب

إنسان ما، ولا اقصد أموال الحكومة، فالكل يسرقها، وأنت أيضاً تسرق حتماً أموال الحكومة.

ـ لتذهب إلى الشيطان.

ـ إنني اتحدث عن أموال الناس، وعن السرقة من الجيب! من الحافظة!

ـ لقد سرقت عشرين قبقاً من أمي وأنا طفل لا أتجاوز التاسعة من عمري. لقد اختلستها وجعلت راحتي مقبوضة عليها بإحكام.

ـ حسناً، وماذا حدث؟

ـ لا شيء احتفظت بها ثلاثة أيام، ثم خجلت من نفسي واعدتها إليها.

ـ ثم ماذا؟

ـ لقد جلدت بطبيعة الحال. ولكن لمَ تسألني؟ هل سرقت شيئاً؟ فأجاب ميتيا، وهو يغمز بعينه بدهاء: «لقد سرقت».

وسأله بطرس إيلييتش بفضول: «ماذا سرقت؟»

ـ سرقت عشرين قبقاً من أمي عندما كنت في التاسعة من عمري، ثم اعدتها إليها بعد ثلاثة أيام.

قال ميتيا ذلك وهبّ فجأة.

ودعاه اندريه من باب الحانوت قائلاً: ألا تأتي الآن يا ديمتري فيودوروفيتش؟

فقال ميتيا: وأأنت على استعداد للسفر؟ إننا قادمون! سنتبادل بعض الكلمات الأخيرة ثم... اندريه، عليك بكأس من الفودكا قبيل الانطلاق. تناول بعض البراندي أيضاً! من ذلك الصندوق (الذي يحتوي على المسدسين الموضوع تحت مقعدي. وداعاً يا بطرس إيلييتش، لا تذكرني بالسوء».

ـ ولكن، ألست عائداً في الصباح؟

ـ طبعاً.

وهنا نهض كاتب الحانوت من مكانه، واندفع إلى الأمام قائلاً: أيمكنك تسديد الحساب الآن؟

ـ الحساب، بالطبع.

واخرج ميتيا حزمة الأوراق النقدية من جيبه، واخذ منها ثلاث ورقات من فئة المائة روبل، ثم وضعها على المنضدة وغادر الحانوت مسرعاً. وخرج الجميع في اعقابه وهم ينحنون ويتمنون له حظاً سعيداً. وقفز اندريه إلى صندوق العربة وهو لا يزال يسعل من اثر البراندي الذي تجرعه لتوه. وفي الوقت الذي كان ميتيا يهم فيه بالجلوس على المقعد دهش إذ رأى فينيا فجأة أمامه، وكانت تركض لاهثة وقد ضمت يديها أمامه فانطرحت على قدمه صارخة:

«ديمتري فيودوروفيتش، يا عزيزي الطيب ديمتري فيودوروفيتش لا تمس سيدتي بأذى. إنني أنا التي انبأتك بكل شيء.. فلا تقتله. لقد كان هو السابق، وهو رجلها! وسيتزوج الآن من اغرافينا الكسندروفنا ولهذا السبب عاد من سيبريا. ديمتري فيودوروفيتش يا عزيزي لا تنتزع حياة إنسان من جنبيه!

وصاح بطرس إيلييتش متلعثماً: «هذه غايتك، أليس كذلك؟ إذن فأنت سائر لإثارة المشاكل! اتضح كل شيء الآن، إنه واضح وضوح الشمس، ديمتري فيودوروفيتش، اعطني مسدسيك حالاً إذا كنت تريد أن تكون رجلاً بتصرفاتك». وصاح باعلى صوته منادياً ميتيا: «هل تسمعني يا ديمتري»؟

-أتريد المسدسين؟ انتظر لحظة يا أخي، سأقذف بهما إلى الغدير عند الطريق. انهضي يا فينيا لا تركعي أمامي، إن ميتيا لن يؤذي أحداً إن الأحمق السخيف لن يؤذي إنساناً بعد الآن». وصاح بعد أن اطمأن في جلسته: «فينيا، لقد آذيتك قبل قليل فاصفحي عني واشفقي علي اصفحي عن نذل... وإذا لم تصفحي فذاك خير أيضاً. إن كل شيء الآن سيان في نظري، والآن انتبه يا أندريه انطلق بأقصى سرعتك!»

وساط اندريه الجياد فانطلقت واخذت الجلاجل تقرع في اعناقها.

-وداعاً يا بطرس إيلييتش! إن دمعتي الأخيرة لك!... وحدث بطرس إيلييتش نفسه قائلاً وهو يرقبه: «إنه ليس ثملاً ولكنه يهذي كالمعتوه. لقد كاد أن يبقى في الحانوت لكي يشرف على تحميل العربة بما تبقى من النبيذ والمأكولات، لمعرفته بانهم سيخدعون ميتيا ويغشونه، ولكنه شعر فجأة بضيق في نفسه، فسار غاضباً شاتماً يقصد الحانة لكي يلهو بلعب البلياردو.

وقال وهو يسير في طريقه: «إنه فتى طيب ولكنه أحمق لقد بلغني نبأ ذلك الضابط، عشيق غروشينكا الأول. إنه لو عاد إليها.. يا للمسدسين! تباً لكل ذلك، وأنا لست مسؤولاً عنه فليفعل ما يطيب له، والمهم أن كل ما في الأمر، أن النهاية ستكون اخيراً تافهة، إنهم جميعاً فئة مشاغبة، فهم يسكرون ويتشاجرون، ثم يتصالحون ويعودون اصدقاء كأن شيئاً لم يكن. إنهم ليسوا رجالاً جديين في اعمالهم. ماذا عنى بقوله: إنني سأتنحى عن الطريق، إنني اعاقب نفسي؟ إن ذلك لن يفيد في أي شيء! لقد ردد هذه العبارات ألف مرة وهو مخمور في الحانات أما الآن فهو غير مخمور. - سكران بالروح - إن الانذال مولعون بهذه العبارات المنمقة، وهل أنا وليّ امره؟ من المؤكد أنه كان يتشاجر، فإن وجهه كان ملطخاً بالدم. مع من تراه يتشاجر؟ سأستقصي نبأ ذلك في حانة «متروبوليس». وكان منديله ملطخاً بالدم... إنه ما زال في مكانه على ارض غرفتي... سحقاً له!

وصل الشاب إلى الحانة ضيق النفس، وانغمس في اللعب، فشعر بالارتياح يعاود نفسه. ثم اعاد الكرة، وعندها بدأ يروي لأحد رفاقه أن ديمتري كرامازوف قد استحصل ثانية على بعض النقود، وأن لديه زهاء ثلاثة آلاف روبل، وأنه عاد إلى موكرو لكي ينفقها مع غروشينكا. وتوقف الموجودون عن اللعب إذ سمعوا هذا الخبر واخذوا يتحدثون عنه، بجدية لا بخفة وضحك.

- ثلاثة آلاف؟ ولكن كيف امكنه الحصول على ثلاثة آلاف؟

وطرحت الاسئلة وكانت قصة هدية السيدة خولاكوف موضع شك.

- ألم يسرق أباه العجوز؟ ذلك هو السؤال.

- ثلاثة آلاف! هذا الأمر يدعو إلى الاستغراب.

- لقد قال متفاخراً وسمعه الجميع أنه سيقتل أباه؛ حتى إنه قال ذلك على مسامعنا في هذا المكان، وقد كان يتحدث عن ثلاثة آلاف روبل...

واصغى بطرس إيليتش. وفجأة اخذ يلتزم الاختصار والخشونة في اجاباته ولكنه كتم أمر الدم الذي كان يغطي وجه ميتيا ويديه، مع أنه كان ينوي التحدث عنه في بدء الأمر.

وبدأ اللاعبون جولة لعب ثالثة ثم ما لبث الحديث عن ميتيا أن انتهى.

ومع انتهاء الجولة الثالثة، عزف بطرس إيليتش عن لعب البلياردو، فالقى عصاه وخرج من الحانة بدون أن يتناول عشاءه كما كانت عادته. وإذ وصل السوق جمد في مكانه حائراً، وأخذ يفكر ولقي نفسه راغباً بالذهاب إلى منزل فيودور بافلوفيتش لكي يرى ما إذا كان قد حدث فيه حادث ما. وقال محدثاً نفسه: هل يجب أن تدفعني السخافة والتفاهة وكأني على يقين أن الأمر سيكون كذلك إلى أن أذهب واوقظ سكان المنزل واثير فضيحة؟ كلا! تباً لهم، هل يعنيني أمر حمايتهم؟

واتجه إلى بيته كئيباً ضيق النفس، وفجأة تذكر فينيا. وجد نفسه حانقاً، فقال في سره: «تباً لكل هذا! لقد كان علي أن استجوبها، وأن اسمع منها كل شيء». كانت رغبته تلح عليه بالتحدث إليها، ومعرفة السر منها، إلى درجة جعلته يتحول فجأة، وهو في منتصف الطريق، إلى المنزل الذي كانت غروشينكا تقطنه. ومضى نحو الباب وأخذ يقرعه. وعندما كان صوت طرق الباب يعلو ويمزق سكون الليل اصبح هو في حالة من الضيق والاضطراب ولكن سكان المنزل كانوا نياماً، فلم يجبه أحد.

وفكر برهة وهو يحس بانزعاج وقال: «لعله مطلوب مني أن أزعج الناس!» ولكنه بدلاً من أن ينصرف، عاد يطرق الباب بكل قوته فيملأ الشارع ضجة وجلبة.

وألح في الطرق ومع كل طرقة كان يدمدم: «ألا تأتون؟ حسناً، سأظل اطرق الباب حتى يستيقظوا!» وكان كلما وجد نفسه غاضباً ضاعف طرقه على الباب.

ها أنا قد أتيت

كان ديمتري فيودوروفيتش يسابق الريح لبلوغ موكرو وكانت الطريق إليها تزيد قليلاً على العشرين فرسخاً، إلا أن جياد أندريه الثلاثة كانت تعدو بأقصى سرعتها، حتى أنها قد تتمكن من قطع هذه المسافة في ساعة وربع الساعة. وانعشت ميتيا حركة العربة السريعة. وكان الهواء عليلاً ندياً، والسماء صافية ومزينة بالنجوم الزاهرة. في تلك الليلة عينها وربما الساعة عينها ركع اليوشا على الأرض وهو يقسم في نشوته الجامحة أنه سيحبها إلى الأبد.

وكان الضيق يجتاح ميتيا. ولكنه بالرغم من أن اموراً كثيرة كانت تعذبه فيشعر بألمها الشديد، كانت عواطفه كلها مشدودة إلى ملكة فؤاده، التي كان يسابق الريح لكي يلقي عليها نظرته الأخيرة. ويمكنني تقرير شيء واحد، وهو أن قلبه لم يتردد لحظة واحدة. وقد لا يصدقني أحد إذا قلت إن هذا العاشق الغيور، لم يكن ليعرف الغيرة من هذا المنافس الجديد الذي داهمه بهذه الشدة. ولو أن أي إنسان غيره ظهر في حياة غروشينكا، لشعر بالغيرة لتوه، وربما غمس يديه القويتين بالدم من جديد. ولكنه لم يكن اثناء انطلاقه تحت جنح الظلام، يشعر نحو ذلك الرجل الذي كان عشيقها الأول... والذي لم يسبق له أن رآه، لا بالعداوة ولا بالغيرة. «إن الأمر لا يحتمل الغموض، إنه من حقهما أن تعود ولقد كان هو حبها الأول الذي لم تقدر على نسيانه طيلة خمس سنوات؛ إذ أنها لم تحب أحداً سواه خلال هذه الفترة. أما أنا، فكيف تدخلت؟ وبأي حق تدخلت؟ ألا تنح عن الطريق يا ميتيا وأفسح لهما المجال! فمن أنا بالنسبة إليها؟ لقد انتهى الآن كل شيء حتى ولو لم يأت هذا الضابط. إن كل شيء سينتهي حتى ولو لم يظهر هذا الضابط...»

كان من الممكن أن تكون هذه الكلمات معبرة عن مشاعر ميتيا، لو

كان هو قادراً على التفكير السليم ولكنه لم يكن في تلك اللحظة كذلك فقد جاء طرحه الآني هذا غير مبني على أي تفكير منطقي. اهتدى إليه بدافع من الشعور لدى سماعه كلمات فينيا الأولى، فأقره فوراً، وقرر قبوله مهما كانت نتائجه. ومع ذلك وبالرغم من قراره، فإنه ما زال يشعر باضطراب في روحه، اضطراب مؤلم فقراره لم يرد إليه شعوره بالطمأنينة، إذ كان الكثير مما عذبه في الماضي مرتبطاً به حتى الآن. وقد كان يبدو غريباً عليه في بعض اللحظات أن يفكر بأنه أصدر حكمه بنفسه على نفسه بالموت عندما كتب: «إنني أعاقب نفسي»، وكانت الورقة موجودة في جيبه جاهزة للاستعمال؛ وكان المسدس معبأ، وهو مدرك تماماً أنه في صباح الغد سيلتقي بأول شعاع دافىء من أشعة «إله الشمس ذي الشعر الذهبي».

ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يتخلى عن الماضي، بكل ما فيه من عذابات له. لقد كان يشعر بذلك وهو مملؤ باليأس والكمد والشقاء. وكاد في لحظة من اللحظات، بدافع يلح عليه، أن يطلب إلى اندريه التوقف ويقفز من العربة ويخرج مسدسه المعبأ ويضع حداً لكل شيء قبل أن يطلع الفجر. إلا أن هذه اللحظة مضت بسرعة البرق. وكانت الخيول مستمرة في عدوها تنهب الأرض نهباً، وكلما اقتربت به من غايته، كان تفكيره ينحصر بتلك المرأة وحدها، وتستأثر صورتها بكامل تركيزه، فتبدّد كل أشباح الرعب التي تملأ قلبه. ولشد ما تاقت نفسه إلى أن يلمحها، ولو لمرة واحدة ومن بعيد.

وقال مفكراً: «إنها الآن معه. وسأرى الآن كيف تكون هيئتها وهي في صحبته، في صحبة حبيبها الأول، وهذا هو كل ما أبغي». ولم يسبق له أن شعر قبل الآن بمثل هذا الحب نحو هذه المرأة التي كان لها مثل ذلك الأثر العظيم على حياته. إن هذا الشعور الجديد الغامض، الذي كان يثير الدهشة حتى في نفسه هو، شعور يداني الوله، ونسيان الذات! الم يقل في لحظة من لحظات الهيام الهستيري: «بلى، إنني سأمحو ذاتي!»

مضت ساعة تقريباً منذ انطلاق العربة. وظل ميتيا صامتاً، وكذلك اندريه فلم يقل كلمة واحدة مع أنه كان، بحكم القاعدة، فلاحاً ثرثاراً، وبدا عليه كأنه كان يخاف الكلام، وكان همه منصرفاً إلى سوط خيوله الثلاثة العجفاء

الشديدة وفجأة صاح ميتيا قائلاً بقلق عظيم:

أندريه! ماذا عساي افعل إذا كانا نائمين؟

وكان لهذه الفكرة التي خطرت بباله صدى اليم في نفسه فهي لم تأته قبل الآن.

وقال الحوذي: يحتمل أن يكونا قد أويا إلى الفراش يا ديمتري فيودوروفيتش.

وقطب ميتيا جبينه كمن أصابه صداع. اجل، يقيناً... إنه منطلق إليهما... وهذه المشاعر تغمر كيانه... في حين أنهما نائمان. وربما كانت هي أيضاً نائمة هناك... وبدأ الغضب يستحوذ عليه. ثم خرج عن طوره صائحاً: «انطلق يا أندريه! الهب ظهور الجياد! إنتبه!»

ثم اردف اندريه يقول بعد برهة من التفكير: «ولكن من الجائز أنهما لم يأويا بعد إلى الفراش! فقد قال لي تيموفي أن هناك كثيرين...»

قاطعه ميتيا بالسؤال: في المحطة؟

-ليس في المحطة، بل في فندق بلاستونوف، في الخان حيث يؤجرون الخيول.

شعر ميتيا بخيبة أمل عظيمة لدى سماعه هذا النبأ الذي لم يكن يتوقعه، فصاح: «إنك تقول أن هناك كثيرين؟ كيف ذلك، ومن هم أولئك الناس؟»

-أخبرني تيموفي أنهم جيمعاً أناس طيبون اثنان منهم من ابناء مدينتنا- ولست أعرف من هما- واثنان آخران غريبان وربما كان هناك آخرون. إنني لم أتحرّ الدقة. كما اخبرني انهم منهمكون في لعب الورق.

-الورق؟

-لهذا يمكن أن لا يكونوا قد أووا إلى الفراش طالماً هم منهمكون في لعب الورق، فالساعة على الأكثر لم تتجاوز الحادية عشرة.

فصاح ميتيا مهتاجاً: انطلق يا اندريه بسرعة أكبر.

وبعد برهة من الصمت قال اندريه: هل لي بسؤالك يا سيدي؟ إني أخشى إثارة غضبك يا سيدي.

- سل ما تريد.

- لماذا القت فينيا بنفسها تحت قدميك قبل قليل، وهي تتوسل إليك أن لا تؤذي سيدتها، ولا بعض الآخرين.. ها أنت ترى يا سيدي.. أنني أنا الذي احملك إلى ذلك المكان... اعف عني، يا سيدي، إنه ضميري.. وقد يكون في حديثي هذا حماقة ما.

وقبض ميتيا فجأة على كتفيه من الخلف وسأله مهتاجاً: «أأنت حوذي؟»

- نعم يا سيدي...

- إذن فأنت تعرف أن على الإنسان أن يتنحى عن الطريق. وما رأيك في حوذي لا يوسع الطريق لغيره، بل يظل يتابع سيره ويدوس الناس؟ كلا لا ينبغي للحوذي أن يدوس الناس. فالإنسان لا يمكنه أن يدوس غيره، ولا أن ينال من راحة الناس. وإذا كنت قد نلت من راحة غيرك، فعاقب نفسك... إذا عكرت على غيرك الحياة، وسببت له الدمار، فعاقب نفسك ثم ابتعد.

كان ميتيا يفوه بهذه الكلمات بلهجة هستيرية. واستمر اندريه يحاوره رغم ما احدثته هذه الكلمات في نفسه من دهشة.

- إن هذا صحيح يا ديمتري فيودوروفيتش، وأنت مصيب، فالإنسان يجب عليه أن لا يقهر، أو يعذب غيره من الناس أو المخلوقات، لأنهم جميعاً مخلوقات لله. ولنأخذ حصاناً على سبيل المثال، فإن بعض الناس، وبينهم حوذيون منّا يسوقونه مهما كلف الأمر. ولا يردعهم شيء عن ذلك، بل إنهم يرغمونه على السير ارغاماً.

فقاطعه ميتيا بضحكته القصيرة السريعة متسائلاً: «إلى الجحيم؟» ثم شد بيديه كتفيه ثانية وقال له: اندريه، أيها الإنسان الساذج. قل لي، هل سيذهب ديمتري فيودوروفيتش كرامازوف إلى الجحيم أم لا؟ ما هو ظنك؟

- إنني لا أدري يا عزيزي، فالأمر متوقف عليك، لأنك أنت... سيدي، عندما صلب ابن الله ومات، هبط من صليبه إلى الجحيم، وخلّص جميع الخطاة والمعذبين فأثار سخط الشيطان الذي ظن بأن عدد الخطاة في الجحيم سيتضاءل وخاطبه الله قائلاً: «لا تتذمر، لأنه سيبقى لك جميع اقوياء

الأرض، من الحكام، وكبار القضاة، والأثرياء، وستظل متخما في جميع الدهور حتى أعوده. تلك كانت كلماته حرفياً.

ـ إنها من اساطير الفلاحين! وهي رائعة! إضرب الجواد الايسر يا اندريه!

وقال اندريه وهي يسوط جواده الأيسر: «إذن عرفت يا سيدي من هم أصحاب الجحيم. ولكنك تبدو كالطفل الصغير... كذلك تبدو في اعيننا... ومع أنك سريع الثورة يا سيدي فإن الله سيغفر لك بسبب قلبك الرحيم».

ـ وأنت، هل تسامحني يا أندريه؟

ـ وعلام اسامحك يا سيدي؟ إنك لم تسبب لي أي اذى أبداً.

ـ لست أعني هذا، بل أن تسامحني عن جميع الناس قل لي أيها الفلاح البسيط، إنك هنا وحيد في هذه الطريق فهل تسامحني نيابة عن الجميع؟

ـ سيدي إن وجودك في عربتي يشعرني بالخوف. فحديثك غريب جداً... إلا أن ميتيا لم يسمع قوله، فقد كان يتمتم بصلاة حارة:

اقبلني يا رب مع كل ما فيّ من مساوىء ولا تحكم علي بالهلاك دعني انجو من دينونتك... لا تحكم علي بالهلاك، لأنني قد حكمت على نفسي ارحمني لأنني أحبك يا رب. إنني رجل عديم الضمير، ولكنني احبك. وإذا ارسلتني إلى الجحيم فإنني سأبقى أحبك، ومن هناك سأصيح قائلاً: إنني احبك إلى ابد الآبدين... ولكن دعني احب حتى النهاية. هنا ولمدة خمس ساعات فقط... من هذه اللحظة إلى أن يبزغ أول شعاع من نور صباحك لإنني احب ملكة روحي... إنني احبها ولا استطيع مقاومة حبها. انك ترى قلبي كله... سأمضي إليها مسرعاً، وسأطرح نفسي أمامها وأقول: إنك على صواب إذ تركتني واخترتي هذه الطريق. وداعاً وانسي ضحيتك... ولا تحزني أبداً لأجلي.

وهنا صاح اندريه وهو يشير بطرف سوطه: «موكرو!»

وشوهدت في ظلمة الليل مجموعة سوداء متراصة من البنايات على امتدادالسهل الواسع. كان عدد سكان موكرو لا يتجاوز الفي نسمة، وكانوا جميعاً في تلك الساعة نياماً، ولم يبقى من المصابيح المتألقة إلا العدد القليل.

وصاح ميتيا مهتاجاً: «امض يا أندريه، ها أنا ذا آت!»

ثم عاد أندريه يقول وهو يرفع سوطه باتجاه فندق بلاستونوف الذي كان قائماً في مدخل القرية: «إنهم لم يناموا بعد». وقد كانت النوافذ الست المطلة على الشارع متألقة بالنور.

فردد ميتيا قوله مبتهجاً: «إنهم مستيقظون، زد سرعتك يا أندريه، هيا! امض بسرعة! فلتقرع الجلاجل، وليعلموا جميعاً أنني جئت. أنني آت! إنني آت، أيضاً».

وأعمل أندريه السوط في جياده المنهوكة، فانطلقت لاهثة والعرق يتصبب منها حتى وقفت عند الدرجات العالية.

عندما كان ميتيا يقفز من العربة كان صاحب الفندق يتهيأ للذهاب إلى فراشه، فأخذ يجيل نظره وقد استبد به الفضول لمعرفة من عساه يكون الآتي في هذه الساعة..

بادره ميتيا سائلاً: «تريفون بوريسوفيتش، أأنت هو؟»

وانحنى صاحب الفندق، واخذ يحدق باهتمام ثم هبط درجات السلم، واسرع باتجاه الضيف مظهراً البهجة العظيمة.

- ديمتري فيودوروفيتش، يا صاحب السعادة! هل عدت إلينا؟

كان تريفون بوريسوفيتش فلاحاً مربوع القامة، قوي البدن، سليم الجسم ممتلىء الوجه. وكان قاسي الملامح سيء الخلق وخاصة مع فلاحي موكرو، لكنه كان يملك قدرة عجيبة على ابداء البهجة والسرور، إذا أملت مصلحته ذلك، وكان يرتدي ثياباً ذات طرز روسي، فالقميص مقلوب من احد جانبيه، ومعطف سابغ. وكان قد ادخر مبلغاً وافراً من المال، ومع ذلك فهو في همّ دائم بتحسين موقعه. وكان أكثر من نصف الفلاحين يأتمرون بأمره لأنهم جميعاً كانوا مدينين له. وكان يشتري بعض الأراضي ويستأجر البعض الآخر ليجبر الفلاحين على مواصلة العمل املاً بسداد ديون لا سبيل إلى الخلاص منها. وكان ارملا وله اربع بنات شابات. احداهن ارملة تعيش في فندق والدها مع طفليها وتعمل فيه كأحقر الخادمات. وكانت ابنته الثانية زوجة لاحد صغار الضباط. وكانت صورة صغيرة لهذا الضابط ببزته العسكرية معلقة على جدار

احدى غرف الفندق بين صور افراد الأسرة. أما الابنتان الأخريان فقد كانتا ترتديان ثياباً جميلة ذات لون ازرق أو أخضر مشدودة على الظهر في المناسبات الشعبية والدينية ولكنهما كانتا في صبيحة اليوم التالي تنهضان مع الفجر، كالعادة، وتكنسان الغرف وتفرغان أواني القاذورات، وتنظفان الفندق بعد انصراف نزلائه.

كان تريفون بوريسوفيتش قد ادخر ثروة مالية محترمة ومع ذلك، فقد كان يمارس بحماسة تفريغ جيوب ضيوفه السكارى، وهو يتذكر أنه قبل شهر واحد، استطاع أن يحصل في غضون أربع وعشرين ساعة على مائتين إن لم يكن ثلاثمائة روبل من ديمتري عند فراره مع غروشينكا في المرة الأولى، فهو لذلك سارع الآن ورحب به بشوق وحبور، منذ أن بدأ ميتيا يصعد السلم، باعتباره فريسة قريبة المنال.

ـ ديمتري فيودوروفيتش، يا سيدي العزيز، أنت عندنا مرة أخرى. فأجابه ميتيا قائلاً: «مكانك ياتريفون بوريسوفيتش، اخبرني قبل أي شيء آخر، أين هي».

وفهم صاحب الفندق فوراً ما يعنيه ميتيا ونظر إليه محدقاً بامعان، ثم قال: «اغرافينا الكسندروفنا؟ إنها هنا أيضاً».

ـ مع من؟ مع من؟

ـ مع نزلاء أغراب. أحدهم من موظفي الحكومة ولهجته تدل على أنه بولندي. لقد ارسل الجياد لاحضارها من هنا؛ ومعه رجل آخر، وهو صديقه، أو رفيقه في السفر، لم اعرف ذلك. وهما يرتديان ثياباً مدنية..

ـ حسناً، هل أولما وليمة؟ ألديهما نقود؟

ـ إنها وليمة صغيرة! إنهم عاديون يا ديمتري فيودوروفيتش.

ـ عاديون؟ ومن الآخرون؟

ـ إنهما رجلان من المدينة.. عائدان من «تشيرني» وقد نزلا لقضاء الليل في الفندق. واحدهما شاب صغير يبدو أنه يمت بصلة القربى إلى ميوسوف وقد نسيت اسمه، أما الرجل الآخر، فأخالك تعرفه فهو يدعى مكسيموف. وهو

يقول إنه جاء إلى هذه الناحية حاجاً إلى دير المدينة، ويرافق قريب ميوسوف الشاب في سفره.

ـ أهؤلاء هم جميعاً.

ـ نعم.

ـ أصغ إلي يا تريفون بوريسوفيتش أمر واحد يهمني: كيف تبدو؟ وكيف حالها؟

ـ لقد وصلت لتوها. وهي الآن معهم.

ـ أهي مرحة؟ وهل تضحك؟

ـ كلا، بدت لي أنها لا تضحك كثيراً، بل قابعة في مكانها حزينة تداعب شعر الشاب.

ـ الضابط البولندي.

ـ إنه ليس شاباً ولا ضابطاً. انني اقصد يا سيدي الشاب قريب ميوسوف.. لقد نسيت اسمه.

ـ كالغانوف؟

ـ إنه هو، كالغانوف!

ـ حسناً، سأرى بنفسي. إنهم منهمكون في لعب الورق أليس كذلك؟

ـ لقد انتهوا من اللعب. فقد شربوا الشاي وقد ارسل الضابط في طلب الخمور.

ـ مهلاً، يا تريفون بوريسوفيتش، مهلاً أيها الإنسان الطيب، سأرى بنفسي. والآن أجبني على السؤال المهم: هل من غجر هنا؟

ـ ليس من غجر هنا الآن يا ديمتري فيودوروفيتش، فقد ابعدتهم السلطات عن هذا المكان، إلا إنه لدينا في القرية يهود يحسنون العزف على الرباب والكمان وإذا ما دعوناهم فسيلبون الدعوة.

فصاح ميتيا: ارسل في طلبهم وبسرعة واستدعي الفتيات كما فعلت آنذاك وخاصة ماريا وستيبانيدا وارينا وهذه مائتا روبل لاحضار الجوقة!

ـ إنني بهذا المبلغ استطيع أن اجمع لك القرية باسرها، ولو كانوا نائمين

ولكن هل يستحق الفلاحون مثل هذا العطف يا ديمتري فيودوروفيتش، أو تستحقه الفتيات؟ وهل يجوز انفاق مبلغ كهذا من أجل سماع أصوات قبيحة ورؤية مظاهر فظة! أي خير في اعطاء الفلاحين سيجاراً إنهم نتنون. والفتيات جميعاً قذرات. والحال هذه، فسأوقظ بناتي لقاء لا شيء ولا أدعك تهدر مبلغاً كهذا إنهن نائمات منذ قليل، وسأوقظهن واجعلهن يغنين لك. إني اعجب انك قدمت الشمبانيا للفلاحين واشفق عليك من ذلك.

وكان تريفون بوريسوفيتش لقاء هذه العاطفة المزيفة لميتيا قد خبأ، في المرة السابقة، ست زجاجات شمبانيا ووجد ورقة من فئة المائة روبل تحت الطاولة فاحتفظ بها جميعها.

ـ تريفون بوريسوفيتش، لقد انفقت عند مجيئي إلى هذا المكان في المرة السابقة اكثر من ألف روبل، هل تذكر؟

ـ لقد انفقتها. إنني اذكر ذلك تماماً. بل إنك انفقت ثلاثة آلاف.

ـ حسناً، لقد اتيت الآن لأفعل مثل ما فعلته في المرة السابقة. أتفهم ما اقول؟ ثم إنه أخرج من جيبه حزمة الأوراق النقدية، وقرّبها من انف صاحب الفندق، واردف يقول:

«والآن، أصغ إلي وافهم قولي. سيصل النبيذ في غضون ساعة واحدة وكذلك المقبلات والفطائر والحلوى فاصعد فوراً بها جميعاً وذلك الصندوق الموجود مع اندريه يجب احضاره أيضاً. افتحه وأدر الشمبانيا فوراً، والفتيات، يجب أن نظفر بالفتيات، وخاصة ماريا».

ثم قفل إلى العربة واخذ منها الصندوق المحتوي على المسدسين.

ـ إليك هذا يا أندريه فلنصف الحساب. هاك خمسة عشر روبلاً أجرة الرحلة، وهذه خمسون روبلاً ثمناً للفودكا... وتقديراً لإخلاصك، ومحبتك... اذكر كرامازوف!

فقال اندريه متلعثماً: «إنني خائف يا سيدي، إنني اقبل زيادة على أجري خمسة روبلات إذا شئت، ولكنني لن آخذ أكثر من هذا. يا تريفون بوريسوفيتش، كن شاهداً على اقوالي، اصفح عن كلماتي الحمقاء...»

فأجابه ميتيا متفرساً فيه: «ما الذي يخيفك؟ حسناً، فلتذهب إلى

الشيطان ما دامت هذه حالك!» وقذف إليه بخمسة روبلات. ثم التفت إلى تريفون بوريسوفيتش وخاطبه قائلاً: «والآن اصعد بي بهدوء واجعلني في موضع يمكنني منه مشاهدة الجميع بدون أن يروني. أين يجلسون؟ في الغرفة الزرقاء كما اعتقد.

والقى تريفون بوريسوفيتش نظرة متفحصة على ميتيا ولكنه سرعان ما امتثل لأمره. فقاده عبر الممشى، ودخل إلى الغرفة الكبيرة الأولى، المجاورة للغرفة التي كان يجلس فيها الزوار، واخرج منها المصباح، ثم قاد ميتيا إلى داخل الغرفة بدون ضجيج، واجلسه في احدى زواياها المظلمة تماماً حيث كان باستطاعته أن يرقب الجماعة بحرية تامة دون أن يراه احد.

ولكن ميتيا لم يطل النظر، لقد رآها وخفق قلبه خفقاناً شديداً، واظلمت الدنيا في عينيه. لقد كانت تجلس على مقعد منخفض قرب المائدة. وقريباً منها، كان يجلس الشاب الوسيم كالغانوف. كانت تمسك بيده، وتبدو كأنها تضحك، بينما كان هو يبدي التبرم ومن غير أن يلتفت إليها كان يناقش مكسيموف الذي كان يجلس عند الطرف الآخر من المائدة قبالة غروشينكا وكان مكسيموف مغرقاً في الضحك. وكان صديقها جالساً على الأريكة يسند ظهره إليها وهو يدخن غليوناً وكان يجلس رجل غريب آخر على مقعد قرب الأريكة، ورأى ميتيا أن الشخص المستلقي على الأريكة رجل عريض الوجه اقرب إلى الصرامة، وقدّر أنه قصير وبدا غاضباً لأمر ما. أما الرجل الغريب الثاني فقد كان طويلاً جداً، ولم يستطع ميتيا أن يتبين اكثر من ذلك. ولم يستطع احتمال المزيد، فوضع علبة مسدسيه على صندوق، وسار إلى الغرفة الزرقاء والبرودة تكمن في اوصاله حتى دخل عليهم.

وكانت غروشينكا أول من رآه داخلاً، فصاحت صيحة خوف ووجل.

الحبيب الأول صاحب الحق

توجه ميتيا بخطى واسعة سريعة نحو المائدة. ثم تكلم متلعثماً بصوت اقرب إلى الصراخ: «أيها السادة، أنا... إنني على ما يرام! لا تخافوا!» والتفت فجأة إلى غروشينكا التي ارتدت خائفة إلى الوراء بمقعدها نحو كالغانوف وشدت على يده، ثم قال: إنني... ليس هناك من شيء إنني... إنني عابر أيضاً... وسأبقى حتى الصباح، أيها السادة هل استطيع أن امكث معكم حتى الصباح؟ حتى الصباح فقط، لآخر مرة، في هذه الغرفة بالذات؟

وانهى كلامه على هذا النحو ملتفتاً إلى الرجل القصير السمين الجالس على الأريكة ويدخن الغليون فأخرج هذا غليونه من بين شفتيه بوقار، وقال بلهجة صارمة:

أيها السيد، نحن هنا في جلسة خاصة. وهناك غرف أخرى في الفندق.

واجاب كالغانوف فجأة: هذا ديمتري فيودوروفيتش! ماذا تعني؟ اجلس معنا. اهلا بك.

فأجاب ميتيا بفرح واشتياق وهو يمد يده إليه من فوق المائدة: إنني مسرور برؤيتك أيها الصديق الغالي.. العزيز إني ما برحت دائم التفكير بك وبكثير من الإحترام.

وقال كالغانوف ضاحكاً: أوه! كم هي قوية قبضتك عند المصافحة! لقد كدت تكسر اصابعي.

واشتركت غروشينكا في الحديث وقالت مرحة وقد اشرق وجهها بابتسامة خجولة: هذا دأبه في الشد على يد مصافحه. ويبدو أن ملامح ميتيا جعلتها تدرك أنه لا يبغي إثارة الشغب، وكانت ترقبه بفضول عظيم مشوب

بعض القلق. ثمة شيء غريب فيه لفت انتباهها ووقفت عنده، لاسيما طريقة دخوله إلى الغرفة وتكلمه بتلك اللهجة في مثل هذه اللحظة.

وخاطبه مكسيموف عن يساره متأدباً: طاب مساؤك. فأسرع ميتيا إليه أيضاً، واندفع يقول:

طاب مساؤك. أنت هنا أيضاً! إني جد مغتبط بلقياك هنا! أيها السادة، إني... (وعاد إلى مخاطبة الرجل البولندي ذي الغليون، وقد بدا وهو يتحدث إليه، أنه اهم الحاضرين شأناً) «لقد طرت إلى هذا المكان.. اريد أن اقضي آخر يوم من أيامي، وآخر ساعة من ساعاتي في هذه الغرفة، في هذه الغرفة بالذات.. حيث قمت أنا أيضاً بعبادة... ملكتي... سامحني أيها السيد»، ثم هتف بصوت قاصف «لقد طرت إلى هذا المكان واقسمت... لا تخافوا، إنها ليلتي الأخيرة! لنشرب نخب تفاهمنا. سيحضرون النبيذ حالاً... لقد احضرت هذه معي. (وكأن شيئاً ما دفعه فأخرج الأوراق النقدية من جيبه). وتابع: «اسمح لي أيها السيد! إنني اريد كما في المرة الماضية، موسيقى واناشيد وطرباً، لكن الدودة، الدودة التي لا حاجة إليها ستزحف مبتعدة، وستتلاشى. سأحتفل بيوم بهجتي وبآخر ليلة من ليالي عمري.

وكاد ميتيا يشرق بريقه. وكانت أمور كثيرة بعد، يريد إثارتها، ولكنه لم يتلفظ بأكثر من عبارات غريبة. وحدق البولندي فيه تحديقاً شديداً، ومال ببصره على الأوراق النقدية التي في يد ميتيا، ثم تحول نظره إلى غروشينكا وقد بدت عليه الحيرة، ثم قال: «لو سمحت سيدتي المالكة...»

- ماذا تعني بالمالكة؟ لعلك تعني الملكة؟ إنك تدفعني إلى الضحك منك، ومن طريقتك في التعبير. إجلس يا ميتيا، عم تتحدث؟ لا تدخل الرعب في قلوبنا أنت لا تريد أن تخيفنا، بالطبع؟ إذا صحّ هذا، فإنه يسرني أن اراك...

فصاح ميتيا قائلاً وهو يشير بذراعيه: أنا اريد إخافتك؟ معاذ الله، تجاوزيني، وامضي في طريقك، فلن اقف حجر عثرة في سبيلك!

وقام بحركة مفاجئة وغريبة جعلتهم يذهلون كما ذهل هو نفسه بالتأكيد، فقد ارتمى على احد المقاعد، وطفق يبكي بكاء مراً وقد ادار وجهه

عنهم باتجاه الجدار المقابل. وكان يقبض بذراعيه على مسند المقعد بقوة وكأنه يعانقه.

فصاحت به غروشينكا وكأنها تؤنبه: هلم، هلم، يا لك من فتى! إنه قادم لرؤيتي على هذ النحو، ويشرع في الحديث، فيمتنع عليّ فهم حديثه. لقد بكى مثل هذا البكاء ذات مرة، وها هو الآن يعود إلى البكاء! إنه أمر مخجل! ما الذي يبكيك؟ كأن هنالك سبباً يحملك على البكاء! أنهت غروشينكا جملتها الأخيرة محيرة وهي تشدد على مخارج كل كلمة، مبدية بعض الضيق.

قال ميتيا: «... إنني لست ابكي... حسناً، طاب مساؤكم!» ثم استدار في مقعده توا واطلق ضحكة، لا ضحكته القصيرة المجلجلة، بل ضحك ضحكة طويلة دلّت على اختناقه وتوتره.

واستأنفت غروشينكا الكلام في محاولة لاسترضائه: جيد ها قد ثبت إلى نفسك... هيا افرح، افرح! إنني جد مسرورة بمجيئك، جد مسرورة يا ميتيا، أتسمعني؟ إنني جد مسرورة». ثم توجهت إلى الحاضرين بكلام حازم وكان واضحاً أنها تخص به الرجل الجالس فوق الاريكة: «إنني اريده أن يمكث معنا».

واستدركت وعيناها تومضان: «إنني اريد ذلك! إنني اريد ذلك! وإذا ذهب فإنني سأذهب معه!»

فهتف البولندي قائلاً وهو يطبع قبلة على يد غروشينكا مصطنعاً الشهامة: إن طلبات ملكتي هي أوامر مطاعة. ثم توجه بالكلام إلى ميتيا متأدباً: «إنني ارجوك أيها السيد أن تنضم إلينا».

وهب ميتيا واقفاً كمن يستعد لالقاء خطبة عنيفة ولكن الكلمات لم تسعفه، فبدلاً من أن يلقي هذه الخطبة صاح متلعثماً: «دعنا نشرب أيها السيد» واغرق الحضور في الضحك.

وهتفت غروشينكا مضطربة: «يا للسماء! اعتقدت أنه سيعود إلى الكلام مرة ثانية!» ثم خاطبت ميتيا قائلة بالحاح: اسمع ما اقوله لك يا ميتيا، الزم الهدوء ولا تملأ الغرفة اضطراباً، جميل منك أنك احضرت الشمبانيا، فأنا اريد

جرع القليل منها فإن الخمور الأخرى لا تستهويني، وخير من هذا كله أنك جئت بنفسك. لقد كان يسيطر على جلستنا الخمول والملل. اظن بأنك جئت لكي تصخب وتعربد؟

وكان ميتيا ما يزال ممسكاً بيده حزمة الأوراق النقدية المتفرقة التي كانت تستقطب انظار الجميع وخاصة انظار الرجلين البولنديين وقد دسها الآن في جيبه مضطرباً متعجلاً، وقد احمر وجهه خجلاً. وإذ بصاحب الفندق يدخل حاملاً زجاجة من الشمبانيا مفتوحة وطبقاً فوقه اكواب. واختطف ميتيا الزجاجة منه، وكان شديد الاضطراب فلم يدر كيف يتصرف بها، فتناولها كالغانوف من يده وصب الشمبانيا في الأكواب.

وصاح ميتيا بصاحب الفندق قائلاً: «احضر لنا زجاجة ثانية» ثم رفع كوبه وتجرعه ولم ينتظر غيره، فنسي أن يصك بكوبه كوب البولندي الذي دعاه صادقاً إلى أن يشرب نخب تفاهمهما وسرعان ما انقلبت أساريره وخلا وجهه تماماً من آثار الشعور بالأسى المفجع التي كانت تعلوه حين دخوله، وبدا وجهه كوجوه الأطفال. واصبح فجأة ناعم الطرف كسير النفس. وجال على الجميع بنظرة فيها حياء وسعادة، وهو يضحك ضحكته القصيرة المضطربة، وظهرت عليه سعادة كسعادة الكلب الذي اعفي من عقاب كان استحقه. وبدا عليه كأنه نسي كل شيء واخذ يجيل بصره بجميع من حوله وعلى شفتيه ابتسامة سعيدة كابتسامة الأطفال، ويحدق في غروشينكا وهو دائم الضحك، ويدني مقعده من مقعدها. ثم أخذ شيئاً فشيئاً يجمع ملاحظاته عن الرجلين البولنديين، ولو أنه لم يكن قد توصل قبل الآن إلى رأي واضح بشأنهما.

وقد لفت انتباه ميتيا في البولندي الجالس على الاريكة مظهره الرصين، ولكنته البولندية، وخاصة غليونه. وقال في نفسه: «حسناً وماذا في ذلك؟ لا مانع أن يدخن الغليون» كان وجه هذا البولندي ممتلأً يدل على توسط عمره. له انف دقيق وشاربان خفيفان دقيقان، صبغهما بشكل سخيف، ولم يثر كل هذا شكاً في نفس ميتيا، بل أنه لم يأبه حتى لشعره المستعار المصنوع في سيبريا والمسرّح تسريحاً غبياً من الخلف إلى الأمام فوق

الصدغين. وعاد ميتيا إلى محادثة نفسه مسروراً مبتهجاً: «اظن أنه لا ضير من هذا الشعر المستعار» أما الرجل البولندي الآخر الذي كان يحدق بالجمع تحديقاً وقحاً فيه تحد، وينصت إليهم بامتعاض وازدراء، فلم يلفت انتباه ميتيا إلا بطول قامته التي كانت تناقض تماماً قامة البولندي الجالس على الاريكة. وقال ميتيا في سره «إن ارتفاعه إذا وقف يبلغ ستة اقدام وثلاث بوصات» وظن أيضاً أن علاقة ما تربط هذا البولندي بذاك وربما كان «حارساً» له، ولم يكن عنده شك في أن البولندي الطويل القامة كان يأتمر بأوامر مواطنه صاحب الغليون. لقد بدت كل هذه الاشياء لميتيا اشياء صحيحة بطبيعتها ولا تحتمل التأويل والجدل واصبح في حالة من الاستسلام التام سلبت من قلبه كل شعور بالخصومة.

ولم يكن قد تنبه بعد إلى حالة غروشينكا أو أدرك معنى اللهجة الغامضة التي اكتنفت بعض كلماتها، وكل ما كان يدركه وقلبه متأثر للغاية هو أنها كانت رحيمة به، وأنها غفرت له واجسلته بجوارها. إنه بلغ عمق الغبطة وهو يرقبها تحتسي كأس الشمبانيا. ثم وجد نفسه ينتبه فجأة إلى الصمت الذي كان يخيم على الحضور، فأخذ ينقل نظره فيهم بعينين فاحصتين، كأنهما تسألان لم أنتم قابعون هنا أيها السادة؟ ولماذا لا تشرعون بعمل ما؟

يادر كالغانوف إلى القول فجأة، وكأنه ادرك ما يجول في خاطره، مشيراً إلى مكسيموف: إنه يبالغ في سرد السخافات، وقد ضحكنا جميعاً.

وحدق ميتيا بكالغانوف ثم بمكسيموف واطلق ضحكته القصيرة المجلجلة، وكأن شيئاً ما أظهر سروره وقال: «هل يقوم بسرد السخافات؟»

ـ نعم، لعلك لا تصدق ادعاءه بأن جميع ضباطنا في سلاح الفرسان تزوجوا في العشرينات[1] نساء بولنديات. إن هذا لغو فارغ أليس كذلك؟

فقال ميتيا مبتهجاً: نساء بولنديات؟

لقد كان كالغانوف عالماً بعلاقة ميتيا بغروشينكا، ويعرف القليل عن

---

(١) من ١٨٢٠ إلى ١٨٣٠.

الرجلين البولنديين بالحدس والتخمين، ولم يثر فيه كل ذلك كثير اهتمام، بل لعله لم يثر فيه اهتماماً البتة. فمكسيموف هو كل ما كان يهمه. ولقد جاءت به الصدفة وحدها إلى هذا المكان مع مكسيموف، والتقى بالبولنديين في الفندق للمرة الأولى في حياته. أما غروشينكا فكان يعرفها من قبل، وقد قام بزيارتها ذات مرة برفقة أحد معارفه، ولكنها لم تكن مهتمة به. لكنها اخذت تنظر إليه باهتمام بالغ في الفندق وقبل وصول ميتيا، كانت تمعن في العناية به، ولكنه لأمر ما، لم يشعر بميل إليها، كما كان يبدو عليه، أنه فتى لم يتجاوز العشرين من عمره، مسرف في أناقته، ذا بشرة صافية جميلة وملامح ساحرة، وشعره رائع اشقر اللون، عيناه زرقاوان أخاذتان، تدلان على عمق وذكاء فوق ما يتوقع من فتى في مثل سنه، مع أنه كان أحياناً، يشبه الأطفال ويتحدث مثلهم، ولم يكن ذلك يخجله أبداً حتى عندما كان هو نفسه يدرك ذلك. ومع لطافة معشره، كان بطبعه متقلب الاهواء لا يستقر على رأي. وفي بعض الاحيان كانت ملامحه تعكس شيئاً من عناده وتمسكه برأيه. وإذا حدثه إنسان كان يصغي إليه باهتمام، وتظهره سيماه كأنه يحلم بشيء آخر ويغرق في حلمه. وغالباً ما كان يبدو عليه الإهمال والكسل، ولكنه كان يثور، احياناً أخرى، وربما كانت أمور تافهة وراء ثورته.

وعاد كالغانوف إلى الكلام فرد على سؤال ميتيا وهو يجرجر كلماته بطريقة لا تكلف فيها «تصور، أنني رافقته طيلة الأيام الأربعة الماضية، منذ أن قذف به اخوك من العربة والقاه على الأرض، كما تذكر. ولهذا اهتممت به آنذاك، فاخذته معي في طوافي بالريف، ولكنه كثيراً ما يكذب، حتى لقد صرت أخجل من مرافقته، وسأعيده إلى بيته.

وقال الرجل البولندي صاحب الغليون بالبولندية متوجهاً إلى مكسيموف: إن هذا الرجل لم يعرف سيدات بولنديات، وهو يتحدث عن أشياء يستحيل وقوعها.

كان هذا البولندي يجيد التحدث باللغة الروسية اجادة تفوق بكثير على كل حال المستوى الذي كان يتظاهر به من معرفة بهذه اللغة، فكان إذا ما نطق ببعض الكلمات الروسية شوه لفظها لاخراجه لها باللهجة البولندية.

واجاب مكسيموف مرتبكاً: «ولكنني كنت شخصياً متزوجاً من بولندية...»

واسرع كالغانوف في المشاركة بالحديث فوجه كلامه إلى مكسيموف: «ولكن هل خدمت في فرقة الفرسان؟ لقد كنت تتحدث عن الفرسان، فهل كنت ضابطاً في هذه الفرقة؟»

فهتف ميتيا مبتهجاً: «هل كان حقاً في فرقة الفرسان؟» وكان يقول كلامه هذا مصغياً باهتمام ومنقلاً نظره على الجميع بتساؤل، وكأنه كان جاهلاً وقع سؤاله في نفوس الحاضرين.

فالتفت إليه مكسيموف وقال: «كلا، لقد عنيت أن هؤلاء السيدات البولنديات البديعات... إذا رقصن رقصة المازوركا مع ضابط من ضباط الفرسان... عندما ترقص احداهن رقصة المازوركا مع ضابط من هؤلاء تأخذ في القفز على ركبته كالهرة... كالهرة البيضاء الصغيرة... تحت سمع والديها وبصرهما... وهما موافقان... وفي اليوم التالي يأتي الضابط ويطلب يدها للزواج منه». واختتم كلامه متلعثماً: «صحيح أن ذلك ما يحصل... يطلب يدها للزواج منه. هي، هي!»

فقال البولندي الطويل الجالس على المقعد مزمجراً وهو يضع احدى ساقيه على الأخرى: «إن والد مثل هذه الفتاة مسكين من طبقة الخدم!» ولاحظ ميتيا حذاءه الضخم المتسخ ذا النعل الوسخ وكذلك كانت ثياب الرجلين البولنديين متسخة.

وهتفت غروشينكا منزعجة: حسناً، اصبحنا نتكلم عن الخدم! فما الذي قادنا إلى هذه الاهانات؟

فردّ البولندي صاحب الغليون: «أيتها السيدة أغريبينا، إن الفتيات اللواتي عاشرهن هذا السيد في بولندة هن من الوضيعات ولسن سيدات نبيلات.

وثنى البولندي الطويل على كلام رفيقه قائلاً بازدراء: «يمكنكم الوثوق بهذا القول».

وعادت غروشينكا تقول منزعجة: «إن هذا كاف، دعوه يتكلم. هل ازعجكم كلامه؟ إن الحديث مدعاة للتسلية.

فقال البولندي صاحب الشعر المستعار ونظره مثبت على غروشينكا: «إنني لا أمنعهم من الكلام يا سيدتي». ثم التزم الصمت متصنعاً الوقار وأخذ يدخن غليونه.

واهتاج كالغانوف من جديد، وقال بحماس كأن الأمر على جانب عظيم من الأهمية: «كلا، كلا. إن السيد البولندي مصيب وطالما مكسيموف لم يذهب قط إلى بولندة، فكيف يسمح لنفسه بالتحدث عنها؟ أظن بأنك لم تتزوج في بولندة، أليس كذلك؟

- كلا، لقد تزوجت في مقاطعة سمولنسك. وكان ضابط من فرقة الفرسان قد جاء بها قبل أن اتزوجها، وجاءت معها أمها وخالتها واحدى قريباتها مع ابنها الشاب. إن هذا الضابط جلبها من بولندة وزوجني إياها. وكان ملازماً في كتيبتنا، وشاباً دمث الخلق. لقد كان يريد الزواج منها في أول الأمر، ولكنه تنازل لي عنها بعد أن تبين له أنها كانت عرجاء.

فصاح كالغانوف قائلاً: «إذن فقد تزوجت امرأة عرجاء»؟

- نعم لقد خدعاني قليلاً يومذاك، واخفيا عني السر. وظننت أنها كانت تتعمد القفز أمامي من باب المرح والتسلية.

وعاد كالغانوف إلى الصياح بصوت طفولي عال: «إذن كان سرورها عظيماً لانها كانت على وشك الزواج منك!»

- نعم، سرور عظيم ولكن اتضح فيما بعد أن الأمر كان مختلفاً كلياً فقد اعترفت لي، بعد أن انتهت مراسيم الزواج، وفي ليلة دخولي بها، اعترفت لي، واعتذرت بلهجة مؤثرة، قائلة: إن قدمي قد زلت عندما حاولت القفز فوق مجرى مائي، وأنا طفلة صغيرة فكسرت ساقي. ثم أطلق ضحكة مرحة.

وطالت ضحكة كالغانوف الصبيانية وكاد يسقط على الاريكة وضحكت غروشينكا أيضاً. أما ميتيا فقد كان في اوج سعادته.

ثم قال كالغانوف موجهاً كلامه إلى ميتيا: «إعلم أن ما قاله هو عين الحقيقة، فهو الآن صادق، ولقد تزوج مرتين، وهو يقصد بحديثه الآن زوجته الأولى، أما زوجته الثانية فقد هربت منه، وما زالت حية حتى اليوم».

فقال ميتيا وهو يمرر نظره سريعاً على مكسيموف، وقد ظهرت عليه

الدهشة التامة: «هل هذا ممكن؟»

فأجاب مكسيموف بلطف: «نعم هربت، ولقد مررت بهذه التجربة الكريهة. لقد فرت مع احد السادة، واسوأ من هذا هو إنني كنت قد سجلت باسمها سلفاً املاكي القليلة فقد اقنعتني بذلك قائلة: إنك رجل مثقف وبوسعك دوماً أن تدبر أمور معيشتك. وقد قال لي اسقف وقور ذات مرة: إن احدى زوجتيك كانت عرجاء، أما الثانية فكانت خفيفة القدم إلى حد بعيد...» وعاد إلى الضحك.

وصاح كالغانوف ضاحكاً: «اسمعوا! إذا كان الرجل يكذب ـ وكثيراً ما يكذب ـ فإنما يفعل ذلك لكي يدخل السرور على نفوسنا جميعاً. ولا ضرر في هذا، أليس كذلك؟ إنني اميل إليه أحياناً إنه رجل جد دنيء، ولكن دناءته طبيعية! ألستم معي؟ إن بعض الناس يكونون أدنياء تحقيقاً لمنفعة أو كسباً لمال، أما هو فدنيء بالفطرة يكفي أن تتخيلوا أن يدعي (وقد ظل يحاورني في هذا الأمر طيلة يوم أمس) بأن غوغول كتب قصته «أرواح ميتة» عنه. انكم تذكرون أن أحد الملاكين في هذه القصة يدعى مكسيموف وقد جلده نوزدريوف وتذكرون طبعاً أن هذا الرجل اتهم بايقاع الأذى الجسماني بالملاّك لجلده بالسياط مكسيموف، وهو في حالة من السكر قد لا تصدقون إذا قلت لكم أنه ينتحل شخص المضروب ويدعي أنه هو الذي تعرض للضرب. والآن هل يمكن ذلك؟ إن تشيتشيكوف قام برحلته على اقرب تقدير في سنة ١٨٢٠ وهكذا فإن هذا التاريخ لا ينطبق على صاحبنا، ولا يعقل والحالة هذه أن يكون قد ضرب، لا يعقل، هل يمكن أن يكون قد ضرب؟»

ولقد كان من الصعب على المرء أن يدرك مبرر البهجة التي ظهرت على كالغانوف، غير أن بهجته كانت صادقة صادرة عن القلب، وقد جاراه ميتيا فيها بدون اعتراض. وصاح يقول ضاحكاً: «حسناً، ما دام يعترف بأنهم ضربوه حقيقة». فقال مكسيموف: «إنني لا أعني على وجه الدقة انهم ضربوني، بل إن ما ارمي إليه هو...»

ـ ماذا تعني؟ فهم إما أن يكونوا قد ضربوك أو لم يضربوك.

وعندها ظهر الامتعاض على وجه الرجل البولندي صاحب الغليون وقال

مخاطباً صديقه الطويل: «كم الساعة يا صديقي؟» واجابه هذا بهز كتفيه فلم يكن لديهما ساعة.

فسارعت غروشينكا إلى سؤاله وهي تتعمد أن تخطئه: «هل مللت من الحديث؟ دع غيرك يتحدث. وهل يمنع الآخرون من الكلام لانك تشعر بالضيق والانزعاج؟» وادرك ميتيا على الفور نيتها الهجومية، ولم يكن مدركاً لها من قبل. واجاب الرجل البولندي والضيق باد عليه:

سيدتي، إنني لم أقل شيئاً ولم اعترض على أحد.

فالتفتت غروشينكا إلى مكسيموف، وقالت له: حسناً. إذن هيا قص علينا قصتك. لماذا سكتّم هكذا فجأة؟

وسارع مكسيموف إلى الاجابة متأدباً وقد ظهر الرضا عليه: ليس لدي ما أقصه فالأمر كله حماقة وأية حماقة. وفضلاً عن ذلك، فإن جميع الأسماء في قصة غوغول إنما هي على سبيل التورية، لأنه جعل لجميع هذه الاسماء معاني، فنوزدريوف كان اسمه الحقيقي نوسوف، واسم كوفشينيكوف كان يختلف عن هذا الاسم تماماً، لقد كان اسمه شكفورنيف. أما فيناردي فكان اسمه فيناردي، حقاً، فهو كان روسياً لا إيطالياً والآنسة فيناردي كانت فتاة رائعة ذات ساقين صغيرتين بديعتي التكوين تلفهما الجوارب الضيقة، وترتدي «تنورة» قصيرة مرصعة بالمعادن الكريمة وكانت تطوف من مكان إلى آخر لا لمدة أربع ساعات بل لمدة أربع دقائق فقط وكانت تأسر ألباب الجميع...

فصاح كالغانوف: ولكن لم ضربت؟

فأجابه مكسيموف: في سبيل بيرون.

وقال ميتيا: أي بيرون؟

- الكاتب الفرنسي الشهير بيرون. لقد كنا جميعاً آنذاك نشرب الخمرة، وكنا مجموعة كبيرة من الناس في إحدى حانات تلك السوق بالذات. وكنت مدعواً لمشاركتهم الشراب، فأخذت أضرب الأمثال معتمداً التورية: «أهذا أنت يا بوالو، ما اعجب هذا الزي»! ويجيبني بوالو بأنه ذاهب إلى حفلة تنكرية أي إلى الحمام، قه... قه! وقد حسبوا انني أسخر منهم، ولذلك بادرت إلى قول ابيات أخرى يعرفها جميع المثقفين، وهي حقاً لاذعة:

بلى، أنت «صافو» وأنا «فاون»!

غير أن أسى واحداً اعاني منه.

إنك لا تعرفين الطريق إلى البحر!

فازداد غضبهم وأخذوا يكيلون لي الشتائم والاهانات البعيدة عن الأدب والذوق. ولسوء حظي فقد حاولت اصلاح الحال فأخذت اسرد طرفة مهذبة عن بيرون يجهلها كثير من المثقفين كيف أنه حين رفض في الاكاديمية الفرنسية، اراد أن يثأر لنفسه فكتب البيت التالي من الشعر لكي يوضع فوق ضريحه بعد وفاته:

«هنا يرقد بيرون الذي لم يكن شيئاً مذكوراً.

حتى ولا عضواً في الاكاديمية».

فما كان منهم إلا أن امسكوا بي وأوسعوني ضرباً.

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟

ـ عقاباً على ثقافتي الواسعة. وأنهى مكسيموف كلامه كمن يصدر حكما قاطعاً غير قابل للاعتراض: إن الناس قد يضربون رجلاً بلا مبرر.

فقاطعته غروشينكا قائلة: كفاك! إن هذا قول سخيف، لست راغبة بسماع المزيد لقد توقعت منك ما يبعث على التسلية والضحك.

وأجفل ميتيا، وكف عن الضحك فوراً. ونهض البولندي الطويل واقفاً وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً شابكاً يديه خلف ظهره فبدا عليه الضيق والتعالي.

ثم قالت غروشينكا وهي ترمقه بنظرة ازدراء: «آه، إنه لا يستطيع أن يهدأ في مجلسه». وأخذ ميتيا يشعر بالقلق، خاصة أن البولندي الجالس على الاريكة كان ينظر إليه نظرة تدل على الضيق والتبرم.

وصاح ميتيا قائلاً: أيها السيد! لنشرب! والسيد الآخر أيضاً! دعونا نشرب.

وتناول ميتيا بسرعة ثلاثة كؤوس وملأها بالشمبانيا. ثم هتف قائلاً: «نخب بولندة أيها السيدان، فلنشرب نخب وطنكما بولندة!»

فقال البولندي الجالس على الاريكة بوقار وكبرياء متهذباً: «بكل سرور أيها السيد»، ثم تناول كأسه.

وعاد ميتيا يقول بجدية: والسيد الآخر، ما اسمه؟ لم تذكروا لي اسمه. تناول كأسك يا سيدي.

فقال البولندي الجالس على الاريكة. «إنه يدعى السيد فروبلفسكي».

وتقدم السيد فروبلفسكي نحو المائدة وهو يتمايل.

وقال ميتيا وهو يرفع كأسه: نخب بولندة أيها السيدان، أهلاً بكم.

وشرب الثلاثة. ورفع ميتيا الزجاجة وملأ الكؤوس الثلاثة ثانية، ثم هتف قائلاً: «والآن لنشرب نخب روسيا أيها السيدان، ولنكن إخواناً».

وقالت غروشينكا: املأ كأساً لي، فأنا أيضاً سأشرب نخب روسيا!

وقال كالغانوف: وأنا كذلك.

وقال مكسيموف متلعثماً: «وأنا أيضاً... سأشرب نخب روسيا، جدتنا العجوز!»

فصاح ميتيا قائلاً: لنشرب جميعاً! جميعاً! تريفون بوريسوفيتش، احضر مزيداً من الزجاجات!

وجيء بالزجاجات الثلاث الاخرى التي حملها ميتيا معه، ووضعت على المائدة. وقام ميتيا بملء الكؤوس.

وصاح قائلاً: «نخب روسيا! مرحى!» وشرب الجميع أنخابهم إلا الرجلين البولنديين، وشربت غروشينكا كوبها دفعة واحدة. أما البولنديان فلم يمسا كأسيهما.

وقال ميتيا بدهشة: «لم هذا أيها السيدان! ألا تودان الشراب؟» وعندها رفع السيد فروبلفسكي كأسه وقال بصوت مجلجل: «نخب روسيا كما كانت قبل عام ١٧٧٢».

وصاح البولندي الآخر: «هيا، عظيم!» ثم افرغ الاثنان كأسيهما.

فما كان من ميتيا إلا أن صاح بهما قائلاً: «إنكما احمقان أيها السيدان».

فرمقاه بنظرة تهديد وصاحا به معا: «أيها السيد!» وكان فروبلفسكي أشدهما هياجاً. وقد صاح به قائلاً: «هل يملك الإنسان إلا أن يحب وطنه؟»

وقالت غروشينكا بلهجة آمرة وبحدة: «صمتاً! لا تتشاجروا! إنني لا أريد المشاجرة!» وضربت الأرض بقدمها. واحمر وجهها وتألقت عيناها، كأن الكأس التي تناولتها لتوها قد ظهر اثرها وارتعد ميتيا فزعاً وقال:

«أيها السيدان عفوكما! إن الذنب ذنبي، وأنا آسف لما حدث. فروبلفسكي، أيها السيد فروبلفسكي إنني آسف».

فصاحت به غروشينكا تؤنبه بضيق عظيم: الأفضل أن تسكت أنت! اجلس أيها الغبي!.

وجلسوا جميعاً، وغرقوا في صمت مطبق واخذوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً.

وعاد ميتيا إلى الكلام، وهو غافل عن معنى اقوال غروشينكا: أيها السادة، أنا السبب في كل ما حدث. هلموا، علام جلوسنا هنا؟ أليس من شيء نفعله... فنستعيد اجواء التسلية والمرح.

فقال كالغانوف متكاسلاً: حقاً إن اجواءنا هنا ابعد ما تكون عن التسلية.

وقال مكسيموف مقترحاً: «لنعد إذن إلى لعب الورق، كما كنا نفعل منذ قليل».

فهتف ميتيا قائلاً: الورق؟ شيء رائع! طبعاً إذا وافق السيدان.

وقال البولندي الجالس على الاريكة بفتور وهو يجيب على دعوة ميتيا بالبولندية: «إن الوقت متأخر أيها السيد».

وأمن فروبلفسكي على أقوال صديقه قائلاً: «إن هذا صحيح».

وتساءلت غروشينكا: متأخر؟ ماذا تعني بكلمة متأخر؟

فقال البولندي الجالس على الاريكة موضحاً لها معناها: أي تقدم الوقت يا سيدتي، لقد تأخرنا.

فقالت غروشينكا وهي تكاد تصرخ لفرط غيظها: إن الوقت دائماً متأخر

بالنسبة لهذين السيدين، إنهما يجيدان صنع أي شيء! إنهما خاملان ويودان أن يكون جميع الناس خاملين. فهما حتى مجيئك يا ميتيا بقيا مخلدين إلى الصمت، وينظران إليّ نظرات التعالي.

فقال البولندي الجالس على الاريكة: يا معبودتي! لقد أدركت أنك غير راضية عني ولذلك اصبحت حزيناً ثم خاطب ميتيا قائلاً: «إنني على استعداد أيها السيد».

فوافق ميتيا واخرج حزمة نقوده من جيبه وأخذ منها ورقتين من فئة المائة روبل وألقاهما على المائدة وقال: «ابدأ أيها السيد. إنني أحب أن اخسر معك مالاً كثيراً. هيا خذ أوراقك وأدر اللعب».

فقال البولندي القصير عابساً صارماً: «سنلعب بورق لصاحب الفندق أيها السيد».

وقال فروبلفسكي: «إن هذا أفضل».

فقال ميتيا: «من صاحب الفندق؟ حسناً جداً، لقد فهمت، لنحصل عليه منه». ثم صاح بصاحب الفندق قائلاً: «احضر لنا ورقاً».

وأحضر صاحب الفندق علبة جديدة مختومة من أوراق اللعب، وأخبر ميتيا أن البنات يتجمعن استعداداً وأن اليهود مع معازفهم سيحضرون بعد لحظات، ولكن العربة المحملة بالمآكل والاشربة لم تصل بعد. وقفز ميتيا من مقعده قرب المائدة وعدا إلى الغرفة المجاورة ليقوم باللازم، لكنه لم ير سوى ثلاث فتيات قد حضرن وأن ماريا لم تكن منهن. ولم يكن يدري أية واجبات عليه القيام بها. حتى إنه لم يكن يعلم سبب مجيئه ولم يزد على أن أمر صاحب الفندق باخراج صندوق الهدايا إلى الفتيات، الذي يحتوي على الحلوى والكراميل والسكاكر الذوابة. وصاح متسرعاً: وقدموا الفودكا لأندريه، الفودكا لأندريه فلقد عنفته قبل قليل.

في هذه اللحظة كان مكسيموف قد خرج في اعقابه، ومسّه من كتفه وهمس في اذنه قائلاً: «اعطني خمسة روبلات فأنا اريد أن اقامر بلعب الورق أيضاً».

ـ عظيم! رائع! هاك عشرة روبلات.

ثم أخرج مجدداً الأوراق النقدية من جيبه، وأخذ منها واحدة بقيمة عشرة روبلات وناوله إياها قائلاً: وإذا خسرتها فعد إلي، عد إلي، سأعطيك غيرها.

فهمس مكسيموف مبتهجاً: «حسن جداً». وعاد إلى الغرفة مسرعاً. كما اسرع ميتيا باللحاق به واعتذر للجماعة عن تأخره عليهم. وكان الرجلان البولنديان قد جلسا إلى المائدة، وفتحا علبة أوراق اللعب، وبدت على وجهيهما امارات البشاشة بل والإخلاص واللطف. وكان البولندي الجالس على الاريكة قد أشعل غليوناً جديداً واستعد لخلط الورق، وهو يتصنع الوقار.

وصاح فروبلفسكي: «خذوا أماكنكم أيها السادة».

فقال كالغانوف: «أنا لن العب مجدداً، فلقد خسرت لتوي خمسين روبلاً».

وقال البولندي الجالس على الاريكة وهو يشير إليه: إن حظ السيد كان سيئاً، والأمل أن يكون أفضل هذه المرة.

وتساءل ميتيا قائلاً: «كم هو رهان اللعبة الواحدة، لكي أعد أوراقي؟»

ـ ذلك يتوقف على رغبتك أيها السيد، فقد يكون مائة أو ربما مائتين، بالقدر الذي تريد.

فقال ميتيا ضاحكاً: «فليكن مليوناً!»

ـ هل يعرف الكابتن قصة السيد بودفيسوتسكي؟

ـ ومن هو بودفيسوتسكي؟

ـ لقد كان في فارسوفيا ناد للقمار، وكان مجال المقامرة فيه مفتوحاً لأيّ كان. وكان هنالك رجل يدعى بودفيسوتسكي، وقد جاء مرة فرأى على الطاولة ألف قطعة ذهبية فقامر عليها. وقال قاطع الأوراق يسأله: أيها السيد بودفيسوتسكي، هل تريد أن تكشف عن ذهبك، أم أنه بوسعنا أن نعتمد على شرفك؟

ـ فأجاب: اعتمد على شرفي أيها السيد وأخذ الرجل بكلامه وألقى النرد، وربح بودفيسوتسكي، فقال له قاطع الورق: خذها أيها السيد. وسحب

درجاً وناوله مليوناً وقال له: إنها لك فقد ربحتها، ولقد راهنت على مليون. وقال بودفيسوتسكي: إنني لم أكن أعرف هذا. فأجابه قاطع الورق: أيها السيد بودفيسوتسكي، لقد راهنت بشرفك وراهنا بشرفنا. واخذ بودفيسوتسكي المليون.

فقال كالغانوف: «إن هذا غير صحيح».

ـ أيها السيد كالغانوف، إن كلاماً كهذا لا يقال في المجتمع الراقي.

وصاح ميتيا: «إنه يقول ذلك، وكأن مقامراً بولندياً يتساهل إلى حد أن يعطي مليوناً هكذا»! وكاد يستطرد في كلامه ولكنه استدرك بسرعة وقال: «سامحني أيها السيد، فأنا المخطىء تارة أخرى، إنه مستعد للتفريط بمليون، نداء للشرف، لشرف بولندة. هل أتكلم البولندية أنا أيضاً. ها إني أقامر بعشرة روبلات على ورقة «الشاب».

واظهر مكسيموف صورة «البنت» ضاحكاً مبتهجاً: وأنا أقامر بروبل واحد على «البنت» السيدة الجميلة، الصغيرة الفاتنة وبدا كأنه يحاول أن يخفي صورة البنت عن انظار الجميع، فقد ضمها بين يديه ودسها تحت الطاولة، وربحت ورقة ميتيا، وورقة مكسيموف أيضاً.

فهتف ميتيا: «لنلعب دوراً آخر!»

فتمتم مكسيموف يقول، وهو في منتهى البهجة بالروبل الذي ربحه: سأراهن بروبل ثان، رهاناً فرداً.

وصاح ميتيا: «لقد خسرت! إنني أضاعف الرهان على السبعة» وخسرت السبعة أيضاً.

وفجأة صاح كالغانوف قائلاً: «كف عن اللعب!»

وصاح ميتيا قائلاً: إنني اضاعف الرهان! إنني أضاعفه! وضاعف مقدار الرهان، وفي كل مرة كان يضاعف ميتيا فيها مقدار رهانه على احدى الورقات كان يخسر، أما ورقة مكسيموف فظلت تكسب.

وعاد ميتيا إلى الصياح مهتاجاً: «إنني اضاعف المقدار!»

وقال الرجل البولندي الجالس على الاريكة متسائلاً: ها أنت خسرت

مائتي روبل، أيها السيد، فهل تقامر بمائة أخرى؟

ـ ماذا تقول؟ هل خسرت مائتي روبل؟ إذن فإنني اضاعف وأقامر بمائتين.

وأخرج ميتيا نقوده من جيبه، وما كاد يهمّ بالقاء مائتي روبل على ورقة البنت حتى عمد كالغانوف إلى تغطيتها بيده وخاطبه بصوت عال: كفاك هذا.

فحدق ميتيا فيه وقال متسائلاً: «ماذا دهاك؟»

ـ كفاك هذا! إنني لا أريد أن تستمر باللعب فلا تلعب!

ـ لماذا؟

ـ السبب هو أنني لا أريد أن نلعب، هكذا كف عن اللعب، وابتعد عن الطاولة. لن أتركك تستمر في اللعب.

وحدق ميتيا فيه مندهشاً.

وشاركت غروشينكا في الحديث وقالت، وقد تميز صوتها بلهجة غريبة: «كف عن اللعب يا ميتيا، فربما كان هو على حق. لقد خسرت مبلغاً كبيراً». ونهض البولنديان عن مقعديهما وهما يشعران بالاهانة البالغة.

وتوجه البولندي القصير بالسؤال إلى كالغانوف والغضب ظاهر في عينيه: «هل تمزح أيها السيد؟»

وزمجر فروبلفسكي أيضاً وهو يصيح بكالغانوف: كيف تجرؤ على ما فعلت؟

فصاحت غروشينكا قائلة: أيها الديكان المغتران، احذركما من الاستمرار في الصياح هكذا.

وأخذ ميتيا يجيل بصره فيهم جميعاً، وفجأة لفته تغير ما في ملامح غروشينكا وفي نفس اللحظة مرّ بخاطره، كلمح البصر، خاطر غريب جديد!

وأراد البولندي القصير أن يعاود الكلام، فقال مخاطباً غروشينكا، وقد احتقن وجهه غضباً: «يا سيدتي أغريبينا...» غير أن ميتيا اقترب منه ووضع يده على كتفه برفق وقال يخاطبه:

«أيها الرجل النبيل، أريد أن أقول لك كلمتين».

فأجابه متسائلاً بالبولندية: «ماذا تريد؟»

-إنني اريد أن اقول لك كلمتين، على انفراد، وما سأقوله سيسرك، يسرك كثيراً. وستكون سعيداً لسماعه.

دهش البولندي القصير بأقوال ميتيا واخذ ينظر إليه نظرة تعكس خشية ما. ووافق حالاً على الاختلاء بميتيا مشترطاً أن يصحبه فروبلفسكي.

فصاح ميتيا قائلاً: الحارس؟ ليأت هو أيضاً، فأنا اريده أيضاً لأمر ما هيا أيها السيدان.

فسألته غروشينكا قلقة: «إلى أين أنت ذاهب؟»

فأجابها ميتيا قائلاً: سنعود بعد لحظة.

وكانت عيناه تشعان بالجرأة والعزيمة. وملامح وجهه تختلف عما كانت عليه عند دخوله الغرفة قبل ساعة واحدة. إنه مليء الآن بالحيوية، والثقة.

وقاد الرجلين البولنديين إلى غرفة هي الغرفة الكبرى التي كانت فتيات الجوقة قد اجتمعن في داخلها والمائدة تعد فيها، بل هي غرفة نوم تقع إلى اليمين، كانت ملأى بالصناديق والحزم، وكان فيها سريران كبيران، وفوق كل منهما مجموعة ضخمة من الوسائد. وكانت الغرفة مضاءة بشمعة فوق منضدة صغيرة عند الزاوية. جلس الرجل القصير وميتيا عند هذه المنضدة متقابلين، في حين ظل فروبلفسكي العملاق واقفاً قريباً منهما، ويداه خلف ظهره. وكان البولنديان متجهمي الوجه، ولكنهما كانا ينظران إليه بشوق إلى سماع ما سيقوله.

وقال البولندي القصير: ماذا يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟

-أصغ إلي يا سيدي، إنني لا أريد أن اطيل عليك. لديّ مال لك. واخرج ميتيا حزمة الأوراق النقدية وسأله قائلاً: «هل تريد ثلاثة آلاف روبل؟ خذها وامض في طريقك».

وحملق البولندي في ميتيا متفرساً في عينيه، ثم تبادل وفروبلفسكي النظر وقال متسائلاً: ثلاثة آلاف يا سيدي؟

-ثلاثة آلاف، يا سيدي، ثلاثة آلاف! اسمعني جيداً إنني الاحظ رجاحة

عقلك. خذ ثلاثة آلاف واذهب إلى الشيطان، وفروبلفسكي معك أيضاً، هل تسمعني؟ ولكن لتتصرف فوراً، وفي هذه الدقيقة إلى الأبد. أتفهم هذا يا سيدي، إلى الأبد. ها هو الباب، فاخرج منه. ماذا تركت هناك؟ معطف، معطف من الفرو؟ سأحضره لك. وسأطلب احضار الجياد حالاً، ثم وداعاً أيها السيد!

كان ميتيا ينتظر الجواب بثقة. ولم يخامره شك برفض عرضه. وظهرت على ملامح البولندي أمارات جدية القرار الذي اتخذه. فسأل: «والنقود أيها السيد؟»

فقال ميتيا: «أتسأل عن النقود؟ سأدفع لك الآن خمسمائة روبل لكي تستعين بها على السفر، كدفعة أولى. وسأدفع لك الفين وخمسمائة روبل غداً في المدينة. أقسم بشرفي، سأحصل عليها، سأحصل عليها مهما كلف الأمر.

وعاد البولنديان إلى تبادل النظرات. وتراجعت علامات التشجيع في وجه الرجل القصير.

فأضاف ميتيا قائلاً، وقد أدرك أن الأمور لا تسير كما يأمل: بل سبعمائة، سبعمائة، لا خمسمائة، ادفعها لك وفي هذه الدقيقة، نقداً! ما بك أيها السيد؟ ألا تثق بي؟ فأنا لا استطيع أن اعطيك مبلغ الثلاثة آلاف كلها في هذه اللحظة. لأنني إذا اعطيتك إياه فقد تعود غداً... ثم إنني لا أحمل معي الآن الثلاثة الآلاف، بل إنها موجودة في منزلي بالمدينة. (وكان ميتيا يتلعثم في أقواله وهو يشعر باليأس مع كل كلمة زيادة) قسماً بشرفي، إن المال مخبأ هناك.

وفي مثل لمحة خاطفة، ظهرت على وجه الرجل القصير علامات الشعور بالأنفة وبالكرامة الشخصية.

ثم سأل ميتيا قائلاً بلهجة ساخرة: «ثم ماذا؟ يا للعار!» وبصق بعنف على الأرض تعبيراً عن الاحتقار وكذلك فعل فروبلفسكي أيضاً.

وقال ميتيا، وقد تملكه اليأس وأيقن أن كل شيء قد انتهى: إنك تبصق يا سيدي لانك ترجو من غروشينكا، مبلغاً أكبر. إنكما رجلان دنيئان ومضحكان.

وصاح البولندي القصير قائلاً، وقد احتقن الدم في وجهه: إنها اهانة قاتلة. واتجه نحو باب الغرفة مسرعاً وكأنه لا يود سماع المزيد من الكلام، وخرج فروبلفسكي في اعقابه. وتبعهما ميتيا وقد انحنت هامته حزناً ويأساً. لقد كان يخشى غروشينكا، إذا ما ضجّ البولندي وفضح الأمر. وقد حدث ما توقعه فعلاً، فقد عاد البولندي إلى الغرفة الكبرى، واقترب من غروشينكا بطريقة مسرحية، ثم هتف بها بالبولندية: سيدتي أغريبينا، لقد أهنت إهانة قاتلة! ولكن غروشينكا نفد صبرها فجأة، وكأن البولنديين قد نالا من كرامتها، ثم صاحت مسعورة: تكلم اللغة الروسية! تكلم اللغة الروسية! لا أريد سماع كلمة واحدة باللغة البولندية! لقد كنت تتحدث بالروسية، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها في غضون خمس سنوات.

وظهر الغضب في وجهها.

- سيدتي اغريبينا...

- إن اسمي هو اغرافينا غروشينكا، تكلم الروسية وإلا فإنني لن أصغي إليك!

وشهق البولندي كمن اصيب في كبريائه، ثم تمالك نفسه واسرع يقول متكلفاً الأبهة والتأنق بلغة روسية ركيكة:

«سيدتي اغرافينا، لقد أتيت إلى هنا لكي أنسى الماضي واصفح عنه، لكي أنسى كل ما حدث حتى اليوم...»

فقفزت غروشينكا عن مقعدها وقاطعته قائلة: «لكي تصفح؟ أتيت إلى هنا لكي تصفح عني؟»

إنها الحقيقة يا سيدتي، فأنا لست قاسياً، بل عطوفاً ولكنني ذهلت عندما رأيت عشاقك. وهذا السيد ميتيا عرض علي في الغرفة المجاورة ثلاثة آلاف روبل، مقابل رحيلي عن هذا المكان، فبصقت في وجهه.

فصاحت غروشينكا بلهجة هستيرية: ماذا؟ عرض عليك مالاً من أجلي؟ حقاً فعلت يا ميتيا؟ كيف تجرؤ على هذا؟ فهل أنا للبيع؟

وصرخ ميتيا بالبولندي قائلاً: «أيها السيد، أيها السيد! إنها طاهرة نقية، وأنا لست عشيقها يوماً إن هذه كذبة...»

وعادت غروشينكا تصيح: «كيف تجرؤ على ان تدافع عني امامه؟ إذا كنت طاهرة حتى الآن، فذلك ليس بوازع من الفضيلة ولا خوفاً من كوزما، بل إنني عصمت نفسي كي استطيع مواجهته مرفوعة الرأس واقول له إنه نذل. هل رفض النقود حقاً؟»

فصاح ميتيا: لقد قبلها! لكنه اراد الثلاثة آلاف الآن دفعة واحدة، وأنا لا أحمل أكثر من سبعمائة روبل.

ـ اصبح الأمر واضحاً: فهو قد جاء للزواج مني إذ علم أن لدي مالاً.

وهتف البولندي القصير قائلاً: سيدتي أغرابيينا! إنني شهم، إنني نبيل، ولست نذلاً، حقاً أتيت من أجل الزواج منك ولكنني أراك الآن امرأة مختلفة، امرأة متمردة، وقحة.

فصاحت غروشينكا مهتاجة: «عد من حيث أتيت! سآمرهم بطردك، وسيطردونك. كم كنت حمقاء حمقاء، إذ جعلت نفسي تعيسة طوال السنوات الخمس! لا لم اعرف الشقاء بسببه، بل كان شقائي بسبب الغضب الذي انتابني. والرجل الذي عرفته هو غير هذا الماثل أمامي. لم يكن بهذه الهيئة. ربما كان والده! ومن أين أتاك هذا الشعر المستعار؟ كان صقراً جارحاً، وهو الآن أوزة. وكان من عادته أن يضحك ويغني لي... لقد كنت أبكي طيلة هذه السنوات الخمس، يا لي من حمقاء تعيسة وقحة! وغطت عينيها بيديها. وما كادت تتهاوى على مقعدها المنخفض فإذا بجوقة فتيات موكرو في الغرفة اليسرى بدأت بإنشاد لحن راقص مرح.

وفجأة زمجر فروبلفسكي قائلاً: إن هذا المكان هو مكان فساد ودعارة. اطرد هؤلاء الخليعات الوقحات.

وكان صاحب الفندق بين وقت وآخر يستطلع بنظراته اجواء الغرفة بعد أن سمع صراخ نزلائه، فظن بأنهم كانوا يتشاجرون، فإذ سمع نداء فروبلفسكي اسرع بالدخول.

وقال صاحب الفندق مخاطباً فروبلفسكي بفظاظة غريبة: «لم تصيح هكذا، بكامل فمك العريض».

فصرخ به فروبلفسكي قائلاً: «أيها الوغد».

ـ وغد؟ ما هو نوع الورق الذي كنت تلعب به قبل قليل؟ لقد أعطيتك علبة مختومة من أوراق اللعب ولكنك خبأتها. إنك تلعب باوراق موسومة. أنا استطيع أن ارسلك إلى سيبريا لانك غششت باللعب، هل تعلم هذا! لأن فعلك كفعل من يتداول أوراقاً نقدية مزيفة...

ثم مشى قاصداً الاريكة ودس يده بين ظهرها والوسادة وسحب علبة مختومة من أوراق اللعب، وقال:

ها هي علبتي لم تفض اختامها.

ورفع صاحب الفندق العلبة بين اصابعه وأراها للجميع ثم قال: لقد شاهدته من مكاني يخفي هذه العلبة، ويضع علبته في مكانها إنك غشاش ولست سيداً كريماً!

وصاح كالغانوف قائلاً: «وأنا شاهدت السيد يغش في اللعب مرتين!»

فهتفت غروشينكا، وقد ضمت يديها إحداهما إلى الأخرى وعبق وجهها: يا للعار! يا للعار! يا الهي! أي حد بلغت من النذالة!

وقال ميتيا: لقد كنت اظن فيه هذه النذالة أيضاً! ولكنه ما أن لفظ عبارته هذه حتى اخذ فروبلفسكي، ووجهه يبدو عليه الاضطراب والهياج، يهز قبضته في وجه غروشينكا. ثم صاح بها قائلاً:

أيتها العاهرة الحقيرة!

فسارع ميتيا إليه وأمسكه بكلتا يديه ورفعه، ثم حمله وخرج به إلى الغرفة اليمنى التي جاءوا منها لتوهم.

ثم عاد مسرعاً وقال بانفعال: لقد رميته، إن النذل يجهد في النهوض مجدداً! ولكنه لن يعود، فلا داعي للخوف!...

واقفل ميتيا أحد بابي الغرفة، وابقى الثاني مفتوحاً، ثم صاح بالبولندي القصير:

أيها السيد المبجل هلا غادرت هذه الغرفة لتلحق برفيقك؟

وقال تريفون بوريسوفيتش: يا عزيزي ديمتري فيودوروفيتش، فلتسترد أولاً مالك الذي خسرته، فإنهما قد أخذاه سرقة.

وقال كالغانوف فجأة: «إنني لا أريد روبلاتي الخمسين».

وهتف ميتيا: وأنا لا أريد المائتي روبل أيضاً، ولن آخذها بحال من الأحوال! ليأخذها عزاء لنفسه.

وصاحت غروشينكا: «مرحى يا ميتيا! إنك شهم كريم يا ميتيا!» وكان صوتها يداخله شيء من غضب.

وكان البولندي القصير محتقن الوجه من شدة الغضب، ولكنه بقي محافظاً على وقاره. كان همّ بالخروج، ثم توقف فجأة وقال مخاطباً غروشينكا:

«سيدتي، إذا كنت تودين مرافقتي، فهيا، وإلا فوداعاً».

ثم أكمل سيره نحو الباب وهو يظهر الصلف والكبرياء. كان هذا الرجل ممعناً في غرابة اطواره: فقد كان عظيم التقدير لنفسه، حتى إنه كان يتوقع أن تتبعه بعد كل ما حدث. وصفق ميتيا الباب خلفه بعنف.

وقال كالغانوف: اقفل الباب عليهما بالمفتاح. لكنهم سمعوا صوت المفتاح يدور من الداخل، فقد اغلق الرجلان عليهما الباب بنفسهما.

وهتفت غروشينكا بحقد: «إن هذا عظيم. إنهما يستحقان ذلك!»



هذيان

بعدانصراف البولنديين اقيمت وليمة كادت تكون احتفالاً صاخباً تخلله مجون وشرب خمر ورقص وكانت غروشينكا أول من طلب خمراً وقد قالت لميتيا: «أريد أن أشرب، أريد أن أشرب حتى أثمل، كما فعلنا في المرة السابقة، هل تذكر يا ميتيا يوم التقينا وتعارفنا هنا!»

وكاد ميتيا أن يصاب بذهول تام، إذ توقع تحقق سعادته. ولكن غروشينكا كانت ما تزال توالي صرفه عنها فتقول له: امض وروح عن نفسك واطلب إليهم أن يرقصوا ويبتهجوا، فليكن القصف عاصفاً حاراً كما حدث في المرة السابقة. وكانت غروشينكا جد مضطربة. وقد بادر ميتيا لتوه إلى تلبية طلباتها. واجتمعت جوقة الغناء في الغرفة المجاورة. كانت القاعة التي كانوا يجلسون فيها حتى ذلك الوقت، اصغر من أن تتسع لهم؛ وقد شطرتها إلى جزئين ستائر من نسيج قطني، وكان خلف هذه الستائر سرير كبير فوقه مفرش محشو بكمية من الريش، فوقه كومة من الوسائد المحشوة بالقطن. وكانت هناك بالطبع أسرّة كبيرة في الغرف الاربع المعدة لنزلاء الفندق. استلقت غروشينكا على مقعد وثير أعده لها ميتيا قرب مدخل الغرفة، إنه المكان ذاته التي جلست فيه المرة السابقة فهو مناسب جداً لكي تمتع نفسها بمشاهدة الراقصين والمغنين. وكانت الفتيات اللواتي وصلن إلى الفندق قد تجمعن في الغرفة، ووصلت أيضاً جوقة اليهود بقيثاراتها وقوانينها، واخيراً أعلن عن وصول العربة التي طال انتظارها حاملة الخمور والنقل.

وكان ميتيا مشغولاً جداً وشهدت الغرفة حركة دؤوبة، إذ كان يتوافد على المكان أناس من أهل القرية بينهم الفلاحون ونساؤهم، الذين اوقظوا من نومهم، وهرولوا إلى الفندق على أمل التمتع بسهرة رائعة كالسهرة التي تمتعوا

بها قبل شهر واحد. إن ميتيا يتذكر ملامحهم، وكان يحيي ويعانق معارفه منهم، ويفتح زجاجات الخمر ويملأ الاقداح لكل قادم. إن الفتيات دون غيرهن يفضلن الشمبانيا على غيرها من المشروبات، أما الرجال فقد آثروا البراندي والروم وما شابههما من الخمور القوية. وأعطى ميتيا أمراً بتقديم شراب الكاكاو للفتيات كما امر أيضاً بأن توضع ثلاثة أباريق مملوءة ماء على النار لتكون جاهزة لإعداد الشاي للجميع في أي وقت يشاؤون.

وهكذا كان جو المكان: هرج ومرج ولكن ميتيا ظل على طبيعته وكان كلما كثرت حماقات الجموع، ازداد هو مرحاً. ولم يكن ليتردد لو خطر للفلاحين أن يطلبوا منه إذ ذاك مالاً في اخراج نقوده من جيبه وتوزيعها في كل اتجاه. ولعل هذا هو ما حمل صاحب الفندق تريفون بوريسوفيتش، على مراقبة ميتيا عن كثب، لكي يحيطه بالرعاية وكان جلياً أن النوم قد جفاه في تلك الليلة، مع أنه لم يشرب سوى كأس واحدة من الخمر، وبقيت عينه ساهرة على ميتيا، جرياً على عادته، وكان يتدخل في الوقت المناسب، مظهراً الأدب والإخلاص، ويقنع ميتيا بأن يقتصد في توزيع «لفائف التبغ ونبيذ الراين وخاصة النقود» على الفلاحين كما فعل في المرة السابقة وقد أثار حفيظته أيضاً أن يرى الفتيات الفلاحات يشربن الخمر ويتلذذن بأكل الحلويات.

وقد خاطب ميتيا بقوله: إنهن جميعاً قذرات، يا ديمتري فيودوروفيتش، واودّ أن اركلهن وأطردهن وسيرين في ذلك شرفاً لهن، فهن جديرات فقط بهذا لا غير.

وتذكر ميتيا الحوذي اندريه ثانية، وأمر له بكأس من الشراب قائلاً بصوت خافت هادىء: «لقد كنت فظاً معه قبل لحظات». ولم يرد كالغانوف أن يشرب، ولم يأبه بغناء الفتيات في بدء الأمر، ولكنه بعد أن شرب كأسين من الشمبانيا بدا أن المرح بلغ منه غايته وأخذ يتجول في ارجاء الغرفة ضاحكاً يوزع اطراءه على الموسيقى والغناء، مبدياً اعجابه بكل من حوله وما حوله.

كان مكسيموف، قد فعلت الخمر فعلها فيه، فبقي ملازماً مكانه في الغرفة، كذلك غروشينكا فكانت بدأت تعاني دوار السكر، فأشارت بيدها إلى

كالغانوف وهي تخاطب ميتيا:

«يا له من فتى فاتن ظريف!»

وقد عبرّ عن بهجته بتقبيل كالغانوف ومكسيموف. لقد تراءت له الآمال الكبار في تلك الآونة! إنها لم تقل شيئاً بعد، بل كانت تبدو عازفة عن الكلام لغاية في نفسها. لكنها كانت تخصه من حين إلى آخر بنظرات مليئة بالغنج والعاطفة وما لبثت أخيراً أن قبضت على يده وجذبته إليها جذباً شديداً، وهي لا تزال قابعة على المقعد المنخفض قرب الباب، وقالت له:

ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟ كما كان دخولك علينا مميزاً وغريباً! لقد أفزعتني. ولكن كيف كنت تفكر أن تتنازل عني إلى ذلك الرجل. أحقاً خطر ببالك هذا؟!

فقال ميتيا متلعثماً من فرط فرحه: «لم اشأ أن أفسد سعادتك!» ولكنها لم تكن تحتاج رداً منه، فقد صرفته عنها مرة أخرى قائلة:

«هلم، إمض وتسلّى معهم... ولا تبك، فسأناديك مرة أخرى».

وذهب على الفور. بينما اخذت هي تنصت إلى الغناء وتشاهد الراقصين، ولم ينصرف نظرها نهائياً عن ميتيا، وما لبثت، أن دعته إليها من جديد بعد مضي ربع ساعة فلبى الدعوة وقالت له:

هلم، اجلس إلى جانبي، واخبرني، كيف علمت البارحة بوجودي هنا؟ من كان أول من انبأك بذلك.

فشرع ميتيا يقص عليها كالمحموم كل ما صادفه بلهجة غريبة وعبارات متقطعة لا ترابط بينها. واللافت أنه كان أحياناً يقطع كلامه مقطباً، فسألته: ما الذي جعلك هكذا؟

ـ لا شيء.. لقد خلفت في المدينة رجلاً مريضاً. وأنا مستعد للتنازل عن عشر سنوات من عمري مقابل أن يشفى، أو أن يكون بخير.

فقالت وهي تلثغ، والسكر يكاد يعقد لسانها عن الكلام: لا تبتئس لمرضه. احقاً كنت ستقدم على قتل نفسك غداً؟ يا لك من فتى غر! وما يدفعك إلى ذلك؟ إنني أحب الفتيان المتهورين امثالك. إذن فأنت مستعد للذهاب إلى ابعد الحدود في سبيلي. هل كنت تنوي حقاً أن تطلق النار على

نفسك، أيها الأحمق؟ كلا تمهل قليلاً فقد يحمل الغد جديداً أقونه لك.. فاليوم لن أقول شيئاً، بل غداً أتريد أن أفضي به إليك اليوم؟ كلا، فلن ابوح لك اليوم بشيء. هيا امض الآن، امض ورفه عن نفسك.

ولكنها دعته لحظة أخرى إليها، وكانت بادية القلق والحيرة، وسألته: ما سبب حزنك هذا؟ ثم اردفت تقول وهي تحدجه بنظرات متفحصة: إنني المح الأسى في عينيك... أجل، إنني المح الأسى في عينيك، رغم ضحكاتك العريضة وقبلاتك للفلاحين فإنني المح شيئاً ما. لا يا ميتيا، يجب أن تفرح. إنني مرحة ويجب أن تمرح أيضاً... إن في هذا المكان إنساناً احبه هل يمكنك معرفته؟ أنظر، لقد استغرق فتاي في النوم، إنه ثمل، عزيزي. انها كانت تقصد كالغانوف، الذي كان فعلاً ثملاً، وقد أغفى برهة وهو جالس على الاريكة. ولكنه لم يستسلم للنوم بسبب السكر فحسب، بل إنه أحس بانقباض في نفسه، أو أنه ضجر من الحفل على حد تعبيره. فقد اشمأز من أغاني الفتيات، التي جعلها السكر المتزايد أكثر فسقاً وإسفافاً ولم يكن الرقص خيراً من الأغاني، وقد ارتدت اثنتان من الفتيات جلود الدببة، وقامت فتاة ثالثة قوية الهمة اسمها ستيبانيدا فتناولت عصا واخذت تمثل دور مروض الدببة، «وتعرض» العاب الفتاتين وهي تقول:

«انشطي يا ماريا وإلا ضربتك بالعصا!»

وأخذ الدبان يتدحرجان على الأرض بطريقة مبتذلة، بينما كانت الضحكات الصاخبة تعلو من حناجر الجمع المحتشد نساء ورجالاً.

وصاحت غروشينكا وقد بدت في حال من البهجة الشديدة: «دعوهم وشأنهم! وما ضير أن يفرح الفلاحون في يوم تطيب فيه نفوسهم؟»

وبدا كالغانوف كمن تلوث بالاقذار. وقال متمتماً وهو يبتعد عن المكان: إن لهو الفلاحين هذا مبتذل جداً. هي الالعاب نفسها التي يلعبونها صيفاً في احضان الطبيعة.

وكان أكثر ما اشمأز منه بصورة خاصة اغنية «جديدة» كانت تغنى على نغم راقص جريء، وهي تحكي قصة سيد جاء لكي يجرب حظه مع الفتيات، ويختبر ولعهن به:

فهل يمنحنه الحب أم لا»

ولكن الفتيات لم يتجاوبن معه:

«سيضربني ويقسو علي بالضرب

وهذا الحب لا يصلح».

ثم يأتي أحد رجال الغجر مجرباً حظه:

«جاء الغجري يخطب ود الفتيات،

فهل يمنحنه الحب، أم لا؟»

ولكنهن لا يحببن النوري أيضاً:

قد يكون الغجري لصاً.

فأقضي حياتي كلها شقية.

ويتوالى الرجال بعد ذلك لاختبار حب الفتيات، وكان أحدهم جندياً:

«أتى الجندي يخطب ود الفتيات:

فهل يمنحنه الحب، أم لا؟».

ولكن الفتيات يرفضن الجندي باحتقار، ويغنين بيتين من الشعر ثانيهما صريح البذاءة فيضج الجمع ويتحمس للصراحة المقذعة في غناء البيتين، وتنتهي الاغنية بقدوم تاجر:

«جاء التاجر يخطب ود الفتيات.

فهل يمنحنه الحب، أم لا؟»

ويبدو أنه يظفر بحبهن:

«يسعدني التاجر بالحلى الذهبية

وسأكون أميرة احلامه».

وقد استنفدت الأغنية صبر كالغانوف فصاح بأعلى صوته:

إن هذه الأغنية حديثة من ذا الذي ينظم مثل هذه الكلمات لهن؟ لم يكن ينقصها سوى عامل من عمال السكك الحديدية أو يهودي فيجرب حظه مع الفتيات؛ إن المجال متسع لمختلف أنواع الرجال.

لقد شعر بأنه أهين شخصياً. فأعلن أمام الحفل، أنه يشعر بالضجر ثم جلس على الاريكة ونام وقد بدا وجهه الجميل شاحباً عندما أسنده إلى الوسادة.

وقالت غروشينكا وهي تصطحب ميتيا إليه: انظر إليه ما أجمله، لقد كنت اتسلّى بتسريح شعره. إن شعره أشقر اللون، كثيف ناعم كالحرير...

ثم انحنت فوقه برقة وحنان، وطبعت قبلة على جبينه، ففتح كالغانوف عينيه، ونظر إليها، ثم هب واقفاً، وسأل بلهفة وقلق شديدين: أين هو مكسيموف؟

فقالت غروشينكا ضاحكة: «إذاً عنه تسأل، امكث معي برهة، يا ميتيا اذهب وابحث عن مكسيموف».

وكان مكسيموف لا يفارق الفتيات. فكان ملازما لهن لا يبتعد عنهن إلا برهة قصيرة من حين إلى آخر، لكي يسكب لنفسه كأساً من الخمر. وقد شرب فنجانين من شراب الكاكاو، فتوردت وجنتاه وصار انفه أحمر شديد الحمرة، وكانت عيناه نديتين فيهما رقة وحنان. لقد وقف في وسط الغرفة واعلن أنه سيرقص رقصة «القبقاب» وقال موضحاً:

«لقد علموني جميع تلك الرقصات الارستوقراطية عندما كنت صغيراً...»

فقالت غروشينكا: «امض يا ميتيا برفقته، وسأرقبه من هنا وهو يرقص».

وهتف كالغانوف قائلاً: وأنا أيضاً سأمضي لمشاهدة الرقصة. إنه بهذا القول الذي صاغه بلهجة فظة، رفض دعوة غروشينكا إياه لمجالستها. وقد نهضوا جميعاً لمشاهدة رقصة مكسيموف، فلم يبد أحد حماسه لها باستثناء ميتيا. كانت الرقصة عبارة عن قفز وتلوّ. واستاء كالغانوف منها لكن ميتيا انهال على الراقص تقبيلاً، وقال له:

إني اشكرك لعلك تعبت؟ عم تبحث هنا؟ هل تريد بعض السكاكر؟ أو لعلك تريد سيجاراً؟

ـ بل سيجارة.

ـ ألا ترغب في كأس من الشراب؟

ـ شربت خمراً.. ألديكم شوكولاته؟

ـ أجل، ما أكثر ما لدينا منها على المائدة فاختر ما يحلو لك أيها الحبيب!

ـ اريد قطعة محشوة بالفانيلا.. فهي تناسب العجائز. وأطلق ضحكة أخرى.

ـ كلا يا أخي، فليس لدينا شيء من هذا الصنف الخاص..

ومال الرجل العجوز بهامته نحو أذن ميتيا قائلاً: «ألديك وسيلة ما؟ إن هذه الفتاة، ماريا الصغيرة!» وعاد إلى الضحك ثم أردف يقول: هل توافق أن تعرفني بها؟

ـ أرجو أنك تمزح. كلا يا أخي، فهذا ليس من صفاتنا.

أفحم مكسيموف وتمتم: إنني أريد شراً بها أو بغيرها.

ـ لا بأس، أنت تعلم يا أخي أنهن يأتين إلى هذا المكان فقط للرقص والغناء، ولكن مهلاً على كل حال. كل واشرب وامرح الآن. قد تكون بحاجة إلى شيء من المال؟

فأجاب مكسيموف وهو يبتسم: «لعلي سأحتاج إلى شيء منه فيما بعد».

ـ حسناً، حسناً..

وأحسّ ميتيا كأن ناراً تأكل رأسه فخرج إلى الشرفة الخشبية المحيطة بالبناية من جميع جوانبها، والمطلة على ساحة الفندق، فانتعش بالنسيم الناعم، فوقف وحيداً في ركن الشرفة، واحتضن رأسه بيديه. كانت افكاره المتناثرة تتسابق في عقله، ومشاعره تتداخل وتتوحد. ولمعت فجأة في ذهنه ومضة نور فأخذ يتساءل: «ما دمت سأقتل نفسي، فلم لا ابادر إلى ذلك الآن؟ لم لا أمضي واحضر المسدسين، وأنهي حياتي في هذه الزاوية المظلمة القذرة، نفسها؟» وقد وقف ميتيا زهاء دقيقة، متردداً لا يهدأ لقد كان قبيل ساعات وهو في طريقه إلى الفندق، يشعر أنه غارق في العار، فالسرقة التي اقترفها اتعبت ضميره كذلك الدم الذي اراقه، ذلك الدم...! ومع ذلك فما اهون الأمر

عندئذ، لأن كل شيء كان قد انتهى، لقد ظن انه فقدها، ويئس منها، وأنها ولت وانتهى امرها بالنسبة له. بلى، فإن حكم الموت آنئذ كان أهون منه الآن؛ أو أن هذا الحكم كان يبدو على أقل تقدير ضرورياً، لا مفر منه، فلم يبق في هذه الحياة مبرراً للتمسك بها.

أما الآن؟ فإن واقع الحال قد تبدل فقد اختفى الآن شبح الخوف الذي لازمه. إن الحبيب الأول صاحب الحق قد انتهى امره ولم يعد له أثر. إن الشبح المرعب قد تحول إلى شيء مضحك تافه جداً فقد تم نقله إلى غرفة النوم وأقفل عليه الباب، ولن يعود مطلقاً. وكانت هي خجلة، وها هو الآن يستطيع معرفة الشخص الذي تحبه. إنه الآن يملك كل مقومات السعادة في الحياة.. ولكنه لا يستطيع أن يظل على قيد الحياة، إنه لا يستطيع؛ يا للجحيم؟ وأخذ ميتيا يبتهل: ربي وإلهي! ردّ الحياة إلى ذلك الإنسان الذي صرعته قرب السياج! أبعد عني هذه الكأس الرهيبة! ربي إنك أحدثت المعجزات مع أمثالي من الخطاة! ولكن، ماذا لو بقي الرجل العجوز على قيد الحياة؟ آه، إنني عندئذ سأمحو العار الثاني. سأعيد النقود المسروقة. أجل، سأعيدها؛ سأنالها بأي طريقة... وسأمحو ذلك العار ولن يبقى له أثر إلا في قلبي وسيبقى فيه إلى الأبد! ولكن، لا، لا، إنها أحلام جبان يستحيل تحقيقها. يا للجحيم. لكن شعاعاً من نور وقبساً من أمل يخترقان حجب الظلام. ثم استعاد ثقته بنفسه وعاد مسرعاً إلى الغرفة، إليها من جديد، إلى ملكة حبه الأبدية. وتساءل: أليست لحظة واحدة ينعم فيها بحبها، تساوي كل ما تبقى من حياته، وحتى ولو دفع ثمن هذه اللحظة شعور ألم العار؟ وقد استحوذت هذه الفكرة الغريبة على لبه. وهتف في أعماق نفسه قائلا: «سأمضي إليها، إليها وحدها، سأراها وأسمعها ولن أفكر في شيء سواها، أريد أن أنسى كل شيء، ولو لهذه الليلة فقط، أو لساعة واحدة، بل لحظة واحدة»! وبينما كان يغادر الشرفة إلى الممر، التقى بصاحب الفندق، تريفون بوريسوفيتش، وقد لاحظ أنه كان متجهم الوجه قلقاً، وبدا له أنه كان يبحث عنه، فسأله:

«ما وراءك، يا تريفون بوريسوفيتش؟ لعلك تبحث عني؟».

فأجابه صاحب الفندق وهو بادي الاضطراب: «كلا يا سيدي ولِمَ أبحث عنك؟ أين كنت»؟.

- وما بالك متجهم الوجه؟ أم لعلك غاضب؟ مهلاً، ستذهب لتنام مطمئناً... كم الساعة الآن؟.

- إنها تقارب الثالثة. بل تجاوزت الثالثة، على الأرجح.

- سنغادر الفندق حالاً، سنغادره.

- أرجو عفوك يا سيدي فبإمكانكم أن تبقوا. امكثوا ما شئتم أن تمكثوا.

وقد عجب ميتيا لأمر صاحب الفندق، فتساءل في نفسه: «ما خطبه»؟ وكان يسرع إلى الغرفة التي كانت الفتيات يرقصن فيها، ولكن غروشينكا لم تكن هناك، ولم تكن في الغرفة الزرقاء كذلك. ولم يجد ميتيا أحداً سوى كالغانوف الذي كان يغط في نوم هادىء على الأريكة. وألقى ميتيا نظرة خلف الستارة فوجدها هناك. كانت جالسة على صندوق في الزاوية، حانية جسمها إلى الأمام ومسندة رأسها وذراعيها إلى سرير قربها، وكانت تبكي بكاءً مراً وتجاهد نفسها محاولة أن تحبس نشيجها وما أن لمحت ميتيا حتى أشارت إليه أن يقترب منها، فعدا إليها فقبضت على يده بشدة، وقالت:

«ميتيا، ميتيا، لقد أحببته، وأنت تعلم ذلك. كيف أحببته طوال تلك السنوات الخمس، كيف أقمت على حبه طيلة تلك المدة! تراني كنت حقاً أحبه أم أنني كنت أحب حقدي؟ كلا، بل كنت أحبه هو! أكون كاذبة إذا قلت أنني أحببت حقدي ولم أحبه هو. ميتيا، إنني لم أكن آنئذ قد تجاوزت السابعة عشرة؟ ولقد كان عطوفاً علي أنيساً، وكان يطربني بأغانيه... أتراني كنت أجد فيه كل ذلك لأنني فتاة حمقاء. أما الآن، يا إلهي، إنه لم يعد هو ذاته؛ إنه يختلف الآن كل الاختلاف، وقد كان من العسير علي أن أعرفه. لقد جئت إلى هنا مع تيموفي وكنت طيلة الطريق أفكر كيف أتصرف وأنا أقابله، وأي كلمات أقولها له وكيف ستلاقى نظراتنا. وكانت روحي كسيرة، وإذا به وكأنه يفرغ على رأسي فجأة سطل ماء قذر. فقد أخذ يحدثني بلهجة أستاذ المدرسة، مصطنعاً الوقار وسعة العلم؛ وكان عابساً حتى أنني صعقت لتلك المقابلة. ولم يمكنني من أن أقول كلمة واحدة. وخيل إلي في بدء الأمر أنه

استحى من رفيقه البولندي الطويل، وكف عن الكلام، فجلست أحدق فيه وأنا أعجب من نفسي لأنني لم أقدر أن أكلمه كلمة واحدة. وبدا لي أن زوجته قد دمرت حياته؛ فأنت تعلم أنه هجرني لكي يتزوج. بكل تأكيد إنها غيَّرته وجعلته كما بدا الآن. ميتيا، إن الأمر كله مخجل! أواه، يا ميتيا، إن خجلي عظيم، إنني أخجل من حياتي كلها. تباً لها من حياة، وتباً لتلك السنوات الخمس»!.

وعادت تذرف العبرات وبقيت ممسكة على يد ميتيا. ثم رفعت وجهها إليه وهمست قائلة:

«ميتيا، حبيبي، امكث، ولا تتركني. أود أن أقول لك كلمة واحدة، اسمعني، هل يمكنك أن تقول لي من هو الرجل الذي أحبه؟ إنني أحب رجلاً واحداً هنا، فمن هو هذا الرجل؟ ذلك ما يجب أن تخبرني به».

وابتسمت والدموع ما زالت تنحدر على وجهها، وأشرقت عيناها في النور الخافت.

«لقد دخل الحجرة قبل قليل صقر فارتعش قلبي. وحدثتني نفسي قائلة: أيتها الحمقاء! هذا هو الرجل الذي تحبين! فاجأتنا بحضورك فأنار كل شيء وتألق. وتساءلت في نفسي: ما الذي يخيفه؟ لأنك كنت خائفاً إلى حد أن الكلام قد خانك وقلت: لا يمكن أن يكون خوفه بسببهما، إذ هل يمكن أن يفزعك أحد؟ وقلت أنه يخافني أنا، ولا أحد سواي. إذن فقد أخبرتك فينيا، أيها الأحمق الصغير، أنني ناديت أليوشا من النافذة وقلت له أنني أحببت ميتينكا مدة ساعة واحدة فقط، وأنني ماضية الآن لكي أحب.. إنساناً آخر. ميتيا، ميتيا، لا يمكن أن أكون غبية إلى حد أن أحب إنساناً آخر بعدك؟ هل تصفح عني يا ميتيا؟ هل تصفح عني أم لا؟ هل تحبني؟ هل تحبني»؟ وهبت من مكانها ووضعت يديها على كتفيه. وبهت ميتيا لفرط سعادته فوقف يحدق في عينيها وفي وجهها وابتسامتها، ثم ضمها فجأة بين ذراعيه وغرق في تقبيلها.

«هل تغفر لي ما سببته لك من عذاب؟ لقد عذبتكم جميعاً بدافع من الحقد، وبهذا الدافع نفسه أخرجت الرجل العجوز عن طوره.. هل تذكر

نفسك يوم شربت في منزلي وحطمت الكأس؟ لقد تذكرت هذا الحادث، فحطمت اليوم كأساً وشربت نخب «قلبي الدنيء». ميتيا، أيها الصقر الذي غزا قلبي، لم لا تقبلني؟ لقد قبلتني قبلة واحدة واكتفيت وطفقت تنظر إلي وتصغي إلى أقوالي. لم تكتفي بالإصغاء إليّ؟ قبلني، قبلني بقوة وحيوية من شفتي. حسناً تفعل. إذا أحببت، فيجب أن تحب بكل قواك! سأكون الآن جاريتك، سأكون جاريتك بقية حياتي. ما أعذب أن أكون جارية. قبلني! اضربني، عذبني، إصنع بي ما تشاء.. إنني أستحق العذاب. رويدك، مهلاً، فلنؤجل هذا لا أريده الآن ودفعته عنها فجأة وقالت: إمض، يا ميتيا، وسأتبعك. سأحتسي كأساً من الخمر، أريد أن أشرب حتى أثمل. سأثمل وأرقص؛ يجب أن أرقص، يجب أن أرقص»! وانتزعت نفسها من بين ذراعيه وتوارت خلف الستارة. وقد تبعها ميتيا مترنحاً كالسكران.

وقال في نفسه: أجل، لست أبالي بما قد يحدث، ومهما حدث الآن، فأنا مستعد أن أقايض العالم كله بدقيقة واحدة معها». وقد حققت غروشينكا قولها، فشربت كأساً من الشمبانيا جرعة واحدة وشعرت بتأثيرها فوراً. وجلست على مقعدها في ذات المكان، وارتسمت على وجهها ابتسامة الغبطة والهناء وكانت وجنتاها متألقتين، وشفتاها ملهبتين، وعيناها البراقتان جامحتين، كأن فيهما نداء العاطفة، حتى أن كالغانوف شعر بانجذاب إليها فدنا منها.

وقد سألته بلهجة جافة: «هل شعرت عندما قبلتك وأنت نائم؟ إنني الآن ثملة، ثملة.. أو لست أنت ثملاً أيضاً؟ وميتيا لم لا يشرب؟ ما بالك لا تشرب يا ميتيا؟ إنني ثملة، وأنت لا تشرب...».

- إنني ثمل! إنني ثمل بغير شراب... ثمل بك.. وسأسكر الآن بالخمر، أيضاً.

وتجرع كأساً أخرى فاستغرب، إذ فاجأته هذه الكأس بفعلها الفوري فألفى نفسه سكراناً مع أنه ظل صاحياً وقد شرب قبلها عدة كؤوس. هذا ما تذكره فيما بعد. ومنذ تلك اللحظة أدارت الخمرة رأسه، وصار كمن أصيب بالهذيان، فأخذ يمشي ويضحك ويحدث كل من يصادفه بدون وعي. إلا أن عاطفة واحدة ظلت تتقد في قلبه «كالجمرة المتقدة» كما قال فيما بعد.. وقد

سار نحو غروشينكا وجلس إلى جانبها وأخذ يحدق فيها ويصغي إليها... أما هي فقد أخذت تسرف في الكلام، وتدعو الجميع إليها، وتومىء إلى فتيات الجوقة للاقتراب منها، فكانت كلما اقتربت فتاة منها، بادرت إلى تقبيلها ورسم شارة الصليب على رأسها، وهي تكاد تجهش بالبكاء. وقد سرها عظيم السرور «العجوز الصغير» وهو اللقب الذي كانت تدعو به مكسيموف. وكان هذا «العجوز» يسرع إليها بين آن وآخر ويقبل يديها «وكل إصبع من أصابعها الصغيرة،» ثم رقص في النهاية رقصة أخرى على أنغام أغنية قديمة أداها بصوته. وكانت تشتد حماسته في الرقص بصورة خاصة عند اللازمة، التي كانت عبارة عن تعريف بأصوات الخنزير والعجل والبطة والأوزة والدجاجة.

وهتفت غروشينكا: «أعطه شيئاً يا ميتيا امنحه هدية، فهو مسكين كما تعلم، يا للمسكين، المهان.. أتعلم يا ميتيا أنني سأدخل الدير؟ نعم إنني سأدخل الدير ذات يوم. لقد حدثني أليوشا اليوم حديثاً سأبقى أذكره طوال حياتي... أجل طوال حياتي.. أما الآن فدعنا نرقص. اليوم رقص وغداً دير. أريد أن ألهو أيها الناس الطيبون، وأي إثم في هذا؟ إن الله سيغفر لنا. لو كنت مكان الله لغفرت للجميع، وقلت لهم: «أيها الخاطئون، يا أعزائي، إني عفوت عنكم اعتباراً من اليوم». أريد أن ألتمس الغفران: اصفحوا عني أيها الناس الطيبون، أنا المرأة العابثة الغبية. أنا وحش ضار، ولكنني أريد أن أصلي، لأنني تصدقت بيصلة صغيرة ومهما أكن اقترفت من خطايا حتى الآن، فإنني أريد أن أصلي. ميتيا، ليرقص الجميع، لا تمنعهم من الرقص. إن جميع الناس في الدنيا أخيار، جميع من فيها بدون استثناء. إن الدنيا مكان جميل، وإن كنا نحن أشراراً... فهي مكان حسن. إننا اخيار واشرار، اخيار واشرار... هلموا، أنبئوني، سأسألكم سؤالاً: هلموا جميعاً لأسألكم: ما سبب طيبتي؟ إنكم تعلمون، إنني طيبة، جد طيبة... أنبئوني، ما سبب طيبتي»؟

وهكذا ظلت غروشينكا تهذي وبدا سكرها متعاظماً، وإذ هي تعلن أنها تريد أن ترقص أيضاً، ونهضت من مقعدها مترنحة، وهتفت بميتيا قائلة: «ميتيا لا تعطني مزيداً من الشراب، حتى ولو طلبته، فلا تلب طلبي. إن الخمر لا تسبغ الطمأنينة على النفس. إن كل ما حولي يدور، فالمدفأة تدور، وكل

...إنهم سيعجبون شيء يدور. أود أن أرقص. ليروا جميعاً كيف أرقص برقصتي...

وقامت لتوها فأخرجت من جيبها منديلاً من الكتان الأبيض، فأمسكته بيدها اليمنى من طرفه، لكي تلوح به أثناء الرقص، وكان ميتيا، في حركة دائمة، هنا وهناك. هدأت الفتيات ووقفن على استعداد ليصدحن بالغناء جماعياً عندما تعلن الإشارة لهم. أما مكسيموف، فقد أخذ يصيح مبتهجاً حين عرف أن غروشينكا تتأهب للرقص، وأخذ يعدو ويقفز أمامها وهو يرنم:

«بساقيهاالدقيقتين ووركها المدور

وذيلها المعقوف كالبرق».

ولكن غروشينكا أشارت له بمنديلها ليبتعد عنها.

ـ ميتيا، ما بالهم لا يقتربون؟ ليقتربوا جميعاً وليشاهدوا الرقص ونادِ أيضاً الحبيسين... لماذا حبستهما؟ قل لهما أنني سأرقص. أدعهما أيضاً ليشاهدا رقصتي...

وسار ميتيا مترنحاً من السكر إلى الباب وأخذ يقرعه بقبضة يده منادياً البولنديين:

أنتما... أيها الغشاشان! هلما، إنها سترقص وتدعوكما لمشاهدتها.

وصاح أحد البولنديين: «نذل»!.

ـ أنت النذل! إنك نذل صغير، هذه هي صفتك، هذه هي صفتك.

وقال كالغانوف بلهجة صارمة وكان سكراناً أيضاً: «كفوا عن السخرية من بولندة».

ـ أسكت أيها الفتى! فأنا إذا دعوته نذلاً، فلا أعني بولندة كلها. إن نذلاً واحداً لا يعني أن بولندة كذلك. صمتاً، يا فتاي الجميل سأقدم لك الحلوى.

قالت غروشينكا وهي تهم بالرقص: تباً لهما! كأنهما فقدا رجولتهما. ما بالهم لا يتصالحون؟. وبدأت الجوقة تغني «يا شرفتي، يا شرفتي الجديدة»! وقد أمالت غروشينكا رأسها إلى الخلف وانفرجت شفتاها عن ابتسامة،

واخذت تلوح بمنديلها، ثم مالت عى أحد جانبيها، ثم جمدت مكانها في وسط الغرفة، وبدت الحيرة في عينيها.

ثم قالت بصوت خافت: إنني خائرة القوى... معذرة... لقد خارت قواي، لا أستطيع... إنها غلطتي.

وانحنت أمام الجوقة، ثم أخذت تنحني للجميع، وهي تقول:

«إنني آسفة... معذرة...».

وردد الجميع: لقد أسرفت السيدة في الشراب. إن السيدة الجميلة ثملة.

وقال مكسيموف لفتيات الجوقة وهو يقهقه: لقد أفرطت السيدة في الشراب.

وصاحت غروشينكا منهوكة القوى: «ساعدني يا ميتيا... خذني من هنا». فهرع ميتيا فاختطفها بين ذراعيه، ونقل حمله الثمين إلى ما وراء الستائر.

وقال كالغانوف في نفسه: «هذه المرة يجب أن أنصرف»، ثم غادر الغرفة الزرقاء وأغلق خلفه الباب. لكن الصخب ظل مستمراً في الغرفة الكبرى، وعلت الأصوات. أما ميتيا فقد اضجع غروشينكا على السرير وقبّلها من شفتيها.

فقالت متلعثمة، كأنها تتوسله: «لا تمسني... لا تمسني قبل أن أصبح لك... لقد أنبأتك أنني لك، ولكن لا تمسني... دعني الآن... إنهما موجودان هنا، إنهما قريبان منا، فيجب أن تكف الآن. إنه هنا. إن هذا مكان قذر...».

وتمتم ميتيا قائلاً: «سأنصاع لأمرك! فلن أفكر بذلك... إنك معبودتي أجل إن هذا مكان قذر، إنه مكان دنس.».

وركع على الأرض قرب السرير، وهو لا يزال يضمها بين ذراعيه.

وقالت غروشينكا وهي بالكاد تقوى على الكلام: «إنني أعلم أنك شهم. وإن كنت شرساً. يجب أن تكون حياتنا شريفة... بل ستكون شريفة في المستقبل... ولنكن وفيين، خيرين، ولنبتعد عن الشراسة... ابتعد بي، خذني

إلى مكان بعيد، هل تسمع ما أقول؟ لا أريد البقاء هنا، بل أريد الابتعاد، الابتعاد.».

وقال ميتيا، وهو ما زال يعانقها: «أجل، أجل، إن هذا ما سيحدث! سآخذك وأبتعد بك... رباه، إنني مستعد لأن أتنازل عن حياتي كلها مقابل عام واحد، إذا ما علمت ما تم من أمر ذلك الدم!.

فسألته غروشينكا حائرة: «وأي دم هذا»؟.

وتمتم ميتيا: «لا شيء، غروشا، لقد أردت أن تكوني شريفة. ولكنني لص لقد سرقت مالاً من كاتيا... يا للعار، يا للعار»!.

- من كاتيا، تلك الآنسة الشابة؟ كلا، إنك لم تسرقه. رده إليها، خذ المبلغ مني... وما بالك تعظم الأمر؟ إن كل مالي هو الآن مالك أنت. وما شأن المال؟ إننا سنبدده على أي حال... إن أمثالنا من الناس دأبهم تبديد المال. والأفضل لنا أن نمضي ونفلح الأرض معاً. بودي أن أفلح الأرض بيدي هاتين. يجب أن نعمل، هل تسمعني؟ إن هذا ما قاله أليوشا. ولن أكون سيدتك، بل سأكون وفية لك، وسأكون جاريتك، سأكون خادمتك. سنذهب إلى الآنسة الشابة معاً وننحني أمامها لكي تغفر لنا، ثم نرحل. وإذا لم تغفر لنا، فإننا سنرحل على أي حال. رد إليها مالها، وامنحني حبك... لا تحبها... لا تحبها... إذا أحببتها فإنني سأخنقها... سأفقأ عينيها بإبرة...».

- إنني أحبك، ولا أحب أحداً سواك، وسأحبك في سيبريا[1]..

- ولم سيبريا بالذات؟ لا بأس فلتكن سيبريا إذا شئت. فسيان عندي... بوسعنا أن نعمل هناك أيضاً. إن الثلوج تغمر أرض سيبريا... وأنا أحب أن أقود الزلاجات على الثلج وهي مزينة بالجلاجل... هل تسمع، إنها أصوات جلاجل تقرع! أين تقرع الجلاجل؟ هنالك أناس قادمون... لقد كفت الجلاجل عن القرع.

اشتد إعياؤها، وأغمضت جفنيها، وأغفت برهة قصيرة. لقد سمعت بالتأكيد قرع جلاجل عن بعد، ولكن القرع كان قد توقف. وألقى ميتيا برأسه

(١) في سيبيريا كانت تقضى عقوبات الأشغال الشاقة.

على صدرها ولم يكن قد انتبه إلى قرع الجلاجل ولا إلى أن الأغاني قد توقفت، وأن السكون التام حل محل الغناء وصخب السكارى، وخيم على الفندق بأكمله، وفتحت غروشينكا عينيها.

ـ ماذا جرى؟ هل كنت نائمة؟ أجل... جرس... كنت نائمة وحلمت حلماً، فكنت أقود عربة فوق الثلوج، وكانت مزودة بجلاجل، وقد هومت. وكنت مع إنسان أحبه، معك في مكان بعيد جداً. كنت أضمك وأقبلك، وكنت ملتصقة بك، وقد شعرت بالبرد، وكان الثلج متألقاً.. هل تدري كيف يتألق الثلج في الليالي المقمرة؟ لقد ظننت أنني ارتفعت عن الأرض. ثم استيقظت فإذا بحبيبي إلى جانبي. ما أغرب هذا الحلم...

فتمتم ميتيا قائلاً وهو يقبل ثوبها ونحرها ويديها: «قريب منك». واجتاحه فجأة خيال غريب: فقد لاحظ أنها كانت تحدق ببصرها إلى الأمام من غير أن تنظر إليه، إلى وجهه، بل كانت تنظر فوق رأسه، وهي تحدق تحديقاً ثابتاً غير طبيعي وبدت على وجهها فجأة تعابير الدهشة بل الرعب.

وهمست في أذنه قائلة: «ميتيا، من هو ذلك الذي ينظر إلينا»؟.

فالتفت ميتيا إلى الوراء فرأى أن أحداً ما كان فعلاً قد أزاح الستائر وكأنه يراقبهما. ثم تبين له أنه لم يكن واحداً فقط.

فقفز لتوه وسار مسرعاً نحو المتطفل.

وسمع رجلاً يناديه بصوت غير عال ولكن بلهجة حازمة آمرة: «هلم، تقدم إلى هنا، تقدم نحونا».

وسار ميتيا إلى الجهة الثانية من الستارة، وهناك وقف جامداً في مكانه، فقد كانت الغرفة تعج بالناس، وهم غير الذين كانوا فيها من قبل وسرت رعشة في ظهره. لقد عرف هؤلاء جميعهم وكان ذلك الرجل الطويل، الصارم العجوز الذي يرتدي معطفه الطويل، وقبعته الرسمية ذات شعار «ضابط الشرطة» ميخائيل مكاروفيتش. أما ذلك الرجل النحيل المسرف في أناقته الذي كان دائماً ينتعل حذاءاً لامعاً، فكان نائب المدعي العام. وهو يحمل ساعة دقيقة ثمنها أربعمائة روبل؛ وقد أراني إياها. وذلك الشاب القصير الذي يضع نظارة على عينيه... إنه نسي اسمه الأول، رغم أنه سبق وتعرف عليه، كان

«المحقق»، خريج «المدرسة القضائية» الذي وفد إلى المدينة منذ زمن قريب. وهذا الرجل هو مفتش الشرطة مافريكي مافريكييفيتش وكان رجلاً يعرفه جيداً. وهؤلاء الرجال الذين يضعون الشارات النحاسية، ما الذي جاء بهم إلى هذا المكان، وهذان الرجلان... الفلاحان... وهناك عند الباب كان يقف كالغانوف ومعه تريفون بوريسوفيتش...

وقال ميتيا: «أيها السادة! لم كل هذا، أيها السادة»؟ ثم بدا فجأة، كمن فقد تركيزه فلم يعد يدري ما يصنع، فصاح بأعلى صوته بلهجة قاطعة: «لقد فهمت»!.

وفجأة توجه الشاب صاحب النظارة نحو ميتيا وخاطبه بلهجة فيها وقار وتسرع:

«علينا أن نقوم... باختصار، أرجوك أن تسير من هنا، من هنا إلى الأريكة... إنه من الضروري جداً أن تقدم لنا إيضاحاً».

فصاح ميتيا وقد خرج عن طوره: «الرجل العجوز! الرجل العجوز ودمه!... لقد فهمت».

وتهالك على مقعد قريب منه كأن أحداً اقتلعه.

اقترب من ميتيا ضابط الشرطة وهتف مزمجراً: هل فهمت؟ لقد فهم! أيها الوحش قاتل أبيه! إن دم أبيك يناديك.

وكان الضابط منفعلاً وقد احمر وجهه، وارتعش جسمه.

وصاح الشاب القصير قائلاً: إن هذا مستحيل! ميخائيل مكاروفيتش، ميخائيل مكاروفيتش، إن هذا لا يجدي!... أرجو أن تسمح لي بالكلام.

فأنا ما توقعت مثل هذا التصرف منك أبداً...

وعاد ضابط الشرطة إلى الكلام قائلاً: إن هذا هذيان أيها السادة، هذيان محموم؛ انظروا إليه: إنه ثمل في هذه الساعة من الليل، يداه ملطختان بدم والده وترافقه امرأة سيئة السيرة... إنه هذيان...

فقال المدعي العام يخاطب ضابط الشرطة هامساً في أذنه على عجل: أرجوك بحرارة يا عزيزي ميخائيل مكاروفيتش، أن تكبت مشاعرك، وإلا

فأنني سأكون مضطراً أن...

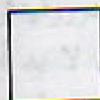
غير أن المحقق الشاب لم يدعه يكمل كلامه بل تحول إلى ميتيا وخاطبه بصوت عال ورصين:

«أيها الملازم السابق كرامازوف، إن من واجبي أن أبلغك أنك متهم بقتل والدك فيودور بافلوفيتش كرامازوف هذه الليلة...».

ونطق بكلام غير هذا، كما أن المدعي العام تفوه ببعض الكلام ولكن ميتيا كان يسمعهما من غير أن يفهم شيئاً، بل كانت عيناه تحملقان في الرجلين وهما تنمان عن حيرة وقلق.



الباب التاسع



التحقيق المبدئي

بدء حياة بيرخوتين الحكومية

نعود الآن إلى معرفة ما حلَّ ببطرس إيلييتش بيرخوتين الذي تركناه يقرع الأبواب المحكمة الإغلاق في منزل الأرملة موروزوف، فلقد سمع أخيراً سكان المنزل صوت طرقاته. أما فينيا التي كانت لا تزال تعاني من الانفعال العظيم نتيجة لما شعرت به من خوف شديد قبل ساعتين من الزمن، والاضطراب البالغ إلى حد جعلها تهجر فراشها، فقد استبد بها الفزع لدى سماعها الطرقات القوية على الباب، حتى كادت تصاب بنوبة هستيرية. ومع أنها كانت قد شاهدت ديمتري فيودوروفيتش بأم عينها، وهو منطلق بالعربة إلى موكرو، إلا أنها توهمت أن الطارق لا بد أن يكون هو بعينه، إذ لا يسع أحداً غيره أن يقرع الباب بمثل هذا العنف. وأسرعت فينيا إلى حاجب المنزل الذي كان قد استيقظ من رقدته ومضى نحو الباب، وتوسلت إليه ألا يفتحه. ولكنه بعد أن استجوب بطرس إيلييتش وعلم منه أنه جاء ليكلم فينيا «بأمر هام جداً»، وافق في النهاية على فتح الباب. وأذن لبطرس إيلييتش بدخول مطبخ فينيا، لكن الفتاة رجته أن يسمح للحاجب بأن يكون حاضراً، «نظراً لما تشعر به من اضطراب». وبدأ بطرس يستجوب الفتاة وسرعان ما انكشفت له حقيقة هامة جداً، وهي أن ديمتري فيودوروفيتش اختطف مدقة المهراس عندما غادر بحثاً عن غروشينكا، وأنه عندما عاد بعد ذلك لم تكن المدقة معه، وكانت يداه ملطختين بالدم.

وكانت فينيا ما تزال تردد قولها: «لقد كان الدم ينبعث من بين يديه، وينسكب على الأرض». لقد كان هذا الوصف الرهيب من نتاج مخيلتها المضطربة، ومع أن الدم لم يكن «ينسكب» من يدي ميتيا، فإن بطرس إيلييتش كان رأى هاتين اليدين ملطختين بالدم، وساعد ميتيا على غسلهما

وعدا عن ذلك، فإن الأمر الذي كان عليه أن يعرفه بشكل جازم، ليس المدة التي جف الدم فيها، بل المكان الذي ذهب ديمتري فيودوروفيتش إليه عدواً وهو يحمل المدقة، بل بالأحرى معرفة ما إذا كان قد ذهب بها فعلاً إلى منزل فيودور بافلوفيتش وإمكانية التأكد من ذلك. وقد كان بطرس إيلييتش يعود بأفكاره إلى هذه النقطة، وبات يعتقد، بالرغم من فقدانه أي دليل قاطع، بأن ديمتري فيودوروفيتش لم يذهب إلى منزل والده، وهذا ما يؤكد أن شيئاً قد حدث هناك.

وقالت له فينيا مضطربة: «وعندما عاد، رويت له القصة بتفاصيلها، ثم سألته: لم يداك ملطختان بالدم يا ديمتري فيودوروفيتش»؟. فأجابني بأنه دم بشري وبأنه قد قتل إنساناً لتوه. لقد اعترف لي بكل شيء، وفجأة انطلق كالمجنون ثم جلست أفكر وأسائل نفسي، إلى أين انطلق الآن كالمجنون؟ واعتقدت أنه سيذهب إلى موكرو وسيقتل سيدتي هناك. وقد لحقت به كي أرجوه ألا يقتلها، وأردت الذهاب إلى مسكنه، ولكن نظري وقع على دكان بلوتنيكوف ورأيته يتهيأ للسفر. وقد غاب الدم عن يديه عندئذ. (هذه الملاحظة حفظتها فينيا في ذاكرتها) وأمنت جدة فينيا العجوز على أقوالها وفق استطاعتها وبعد أن سألها بطرس إيلييتش أسئلة إضافية، غادر المنزل، وقد ازداد ضيقاً وتبرماً.

كان الأهم والأسهل بالنسبة إليه، أن يمضي رأساً إلى منزل فيودور بافلوفيتش لمعرفة ما إذا كان قد حدث فيه حادث ما، ومعاينة الحادث إن كان قد وقع؛ ثم يمضي بعد ذلك إلى ضابط الشرطة، إذا ما استوجبت الضرورة ذلك. ولكن الليل كان قد تقدم وأبواب فيودور بافلوفيتش قوية، مما سيجعله يكرر طرقها. وكانت معرفته بفيودور بافلوفيتش سطحية، فماذا يكون موقفه لو أنهم سمعوا طرقات بابه ففتحوا له، ثم تبين أنه لم يحدث أي شيء، وتصور كيف أن فيودور بافلوفيتش سيروي لكل أهل المدينة بأسلوبه الساخر كيف أن فتى غريباً يدعى بيرخوتين اقتحم بيته عند منتصف الليل لكي يسأله عما إذا كان قد قتل. إن الأمر سيكون فضيحة، والفضائح هي أكثر ما يرهبه في الدنيا.

وكان استبد به شعور قوي ومع أنه ضرب الأرض بقدمه ساخطاً، وأكثر من شتمه لنفسه، فقد مضى في طريقه، ولكنه لم يذهب إلى منزل فيودور بافلوفيتش بل إلى منزل السيدة خولاكوف. وقرر أنه سيذهب إلى ضابط الشرطة إذا ما أنكرت السيدة أنها أعطت ديمتري فيودوروفيتش قبل قليل ثلاثة آلاف روبل، أما إذا أقرت بإعطائه هذا المبلغ من المال، فسيعود إلى منزله ويدع الأمور تستقر حتى صبيحة اليوم التالي.

ولقد كان واضحاً بطبيعة الحال، أن ثمة فضيحة قد تحدث نتيجة ذهابه في الساعة الحادية عشرة ليلاً إلى منزل سيدة من سيدات المجتمع غريبة عنه تماماً، وربما إيقاظه إياها من نومها لكي يطرح عليها أسئلة مدهشة، أقوى من احتمال فضيحته بذهابه إلى منزل فيودور بافلوفيتش. لكن هذا لا بد من حدوثه أحياناً، وخاصة في حالات كهذه، تفرض على أشخاص اتخاذ قرارات وهم من أكثر الناس دقة وأبلدهم حساً. ولم يكن بطرس إيلييتش في تلك اللحظة بالذات بليد الحس أبداً. وقد ظل طول حياته يذكر كيف أن قلقاً عظيماً أخذ يستحوذ عليه شيئاً فشيئاً، ويزيد في ألمه مع مرور الوقت، ويدفعه عكس ما يريد. ومع ذلك فقد ظل طول الطريق يلعن نفسه، بسبب ذهابه إلى هذه السيدة، وكان يكرر قوله: «سأمضي في تقصي الأمر إلى نهايته البعيدة، سأمضي فيه»! وصرف بأسنانه، ومضى ينفذ ما صممه.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً عندما دخل إلى منزل السيدة خولاكوف، وسرعان ما أذن له بدخول الساحة لكنه لم يحظ من الحاجب بجواب عن سؤاله عما إذا كانت السيدة لا تزال مستيقظة، فقد اقتصر جوابه على أن السيدة تكون عادة في فراشها في مثل هذه الساعة، وقال له:

«إصعد واسألهم عنها، فإن كانت السيدة تريد استقبالك، استقبلتك، وإلا فإنها لن تستقبلك».

وصعد بطرس إيلييتش السلم، ولم يجد الأمور سهلة، فقد رفض الخادم أن يحمل اسمه إلى السيدة، ولكنه عاد ونادى إحدى الفتيات، وطلب إليها بطرس إيلييتش بأدب وإلحاح إبلاغ سيدتها أن موظفاً في المدينة يدعى بيرخوتين قد أتى لأمر هام، وأنه لو لم يكن في غاية الأهمية لما تجرأ على

الحجيرة إليها، وتخاطب الفتاة قائلاً: «وانقلي لها هذه الكلمات، بذاتها».

ومضت الخادمة، وبقي بطرس منتظراً عند المدخل. وكانت السيدة خولاكوف قد أوت إلى فراشها، وإن كانت لم تنم بعد، وكان الاضطراب لم يفارقها منذ زيارة ميتيا لها مع توقعها الأكيد أنها لن تسلم في تلك الليلة من الصداع الذي كان يعاودها كلما واجهت الانفعال. ودهشت للرسالة التي حملتها الخادمة إليها، فتذرعت بأنها منزعجة ورفضت مقابلته بالرغم من أن هذه الزيارة المفاجئة في مثل هذه الساعة من قبل «موظف في المدينة» لا تعرفه أبداً، قد أثارت فضولها الأنثوي إلى حد بعيد. ولكن بطرس إيليتش كان عنيداً جداً هذه المرة، ورجا الخادمة أن تنقل لسيدتها رسالة ثانية: «أنه جاء لأمر في غاية الأهمية، إن السيدة خولاكوف تصبح نادمة فيما بعد، إذا لم تقابله الآن».

وقد قال فيما بعد: «لقد اندفعت اندفاعاً أعمى». وحدقت الفتاة فيه مندهشة، ثم مضت تنقل رسالته إلى سيدتها، ولقد تأثرت السيدة خولاكوف بما سمعت. فأطرقت هنيهة تفكر، ثم سألت الخادمة كيف يبدو هذا الشاب. فأجابتها: «شاب مؤدب بديع الهندام». وتحسن الإشارة هنا إلى أن بطرس إيليتش كان فتى وسيماً، عالماً بوسامته. وقررت السيدة خولاكوف أن تستقبل الشاب. وكانت ترتدي مبذلها وتنتعل خفيها. ولكنها كانت تطرح على كتفيها مطرفاً أسود اللون. وطلبت من «الموظف» أن يدخل إلى غرفة الاستقبال، حيث استقبلت ميتيا قبل قليل. وأطلت السيدة تستقبل زائرها وأمارات التجهم والتساؤل واضحة على وجهها، وسألته قبل أن تطلب منه الجلوس: «ماذا تريد»؟

فقال بيرخوتين: لقد تجرأت على إزعاجك يا سيدتي بخصوص أمر يتعلق بديمتري فيودوروفيتش كرامازوف الصديق المشترك.

ولكنه ما كاد ينطق باسمه حتى بدت في أوج الانزعاج، وكادت أن تولول وقاطعته مهتاجة، وهي تصرخ صراخاً هستيرياً: إلى متى سيظل يقلقني هذا الرجل المخيف. كيف جرؤت يا سيدي، وكيف واتتك الشجاعة على دخول منزل سيدة غريبة عنك وفي مثل هذه الساعة لتقلقها؟... وتقحمها في

الحديث عن رجل جاء إلى هنا، إلى غرفة الجلوس هذه بالذات، قبل ثلاث ساعات فقط، لكي يقتلني، وقد خرج من الغرفة ثائراً بخلاف ما يخرج إنسان من منزل كريم. دعني أخبرك يا سيدي بأنني سأشكوك، وأنني لن أترك هذا الأمر يمر. تفضل واخرج حالاً... إنني أم... إنني...».

ـ يقتلك؟ إذن هل حاول أن يقتلك أنت أيضاً؟.

جفلت السيدة خولاكوف وقالت: «لماذا، وهل قتل إنساناً آخر»؟.

فأجاب بيرخوتين بلهجة حازمة: «إذا سمعتني مشكورة للحظة واحدة، فسأوضح لك الأمر في كلمتين. لقد اقترض مني ديمتري فيودوروفيتش عشرة روبلات في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم، وأنا على يقين من أنه لم يكن لديه مال. ومع ذلك فقد عاد في الساعة التاسعة مساء وهو يحمل حزمة من الأوراق النقدية من فئة المائة روبل، تبلغ قيمتها ألفين أو ثلاثة آلاف، وكانت يداه ملطختان بالدم وكذلك وجهه، وكان يبدو كالمجنون. وعندما سألته كيف تمكن من الحصول على مثل هذا المبلغ، أجابني بأنه أخذه منك، وأنك أعطيته مبلغ ثلاثة آلاف لكي يذهب إلى مناجم الذهب...».

وبدا الانفعال الشديد المؤلم على وجه السيدة خولاكوف ثم ضمت يديها وصرخت:

«يا إلهي لا بد أنه قد قتل أباه الشيخ! إنني لم أعطه قط مالاً! أبداً! أسرع أسرع!... لا تقل شيئاً! أنقذ الرجل العجوز... أسرع إلى أبيه. أسرع»!.

ـ معذرة يا سيدتي، إذن فأنت لم تعطه مالاً، هل أنت واثقة أنك لم تعطيه مالاً؟

ـ كلا، لم أعطه، لم أعطه! لقد رفضت أن اعطيه مالاً لأنه لم يقدر معنى المال. لقد غادرني هائجاً، وهو يضرب الأرض بقدميه. ولقد هاجمني، ولكنني راوغته وأفلت منه... ودعني أخبرك، لأنني لا أود أن أخفي عنك شيئاً الآن، أنه بصق في وجهي. هل تتصور هذا؟ ولكن لم أنت واقف؟ إجلس... أعذرني... إنني... أو أن الأفضل أن تعدو، أسرع، يجب أن تسرع وتنقذ الرجل العجوز المسكين من ميتة شنيعة!.

ـ ولكن ماذا يكون الحال لو أنه قد قتله فعلاً؟.

ـ يا للسماء، نعم! ماذا يمكننا أن نفعل؟ ماذا ترى أن نفعل؟.

وكانت في تلك الأثناء قد أجلست بطرس إيليتش وجلست تجاهه. وقص عليها بطرس إيليتش باختصار ووضوح كل ما جرى أو الجزء الذي شاهده على أقل تقدير وذكر لها أيضاً زيارته لفينيا، وقص عليها نبأ المدقة وقد أحدثت هذه التفصيلات كلها أثراً عظيماً في نفس السيدة الذاهلة التي أخذت تولول وتحجب وجهها بيديها...

ـ صدقني إذا قلت لك أنني قد تكهنت بهذا كله! فلدي موهبة خاصة، وهي أن كل ما أتصور وقوعه واقع لا محالة. وطالما نظرت إلى ذلك الرجل الرهيب وقلت أنه لابد قاتلي في النهاية. وها قد تحقق ظني... وإذا كان لم يقتلني بل قتل والده المسكين، فذلك لأن العناية الإلهية شاءت حمايتي منه، وأكثر من هذا فإنه خجل من الإقدام على قتلي، لأنني طوقت عنقه بالأيقونة المقدسة من مقدسات الشهيدة القديسة فارفارا، في هذا المكان بالذات... ويكفي أن تفكر في مدى اقترابي من الموت في تلك اللحظة، لقد اقتربت منه ومط لي عنقه!... أتعلم يا بطرس إيليتش (أظنك قلت أن اسمك بطرس إيليتش) إنني لا أؤمن بالمعجزات، غير أن تلك الأيقونة وهذه المعجزة الحقيقية التي حدثت لي قد هزتني بالعمق، وأنا على استعداد لأن أؤمن بأي شيء تريده. هل بلغك نبأ الأب زوسيما؟... ولكنني لا أعرف ماذا أقول... يكفي كيف أنه بصق في وجهي والأيقونة في عنقه... تخيل ذلك... ويكفيك أنه بصق في وجهي، وصحيح أنه لم يقتلني و... انطلق مسرعاً! ولكن ماذا نفعل، ماذا يجب أن علينا أن نفعل؟ ما رأيك؟.

وهنا نهض بطرس إيليتش وأعلن أنه سينطلق إلى ضابط الشرطة ليخبره بكل ما جرى، ويترك له أن يقرر ما يراه مناسباً من الأفعال.

وأجابته بقولها: «إنه رجل رائع، رائع! ميخائيل مكاروفيتش، إنني أعرفه. طبعاً إنه الإنسان الذي يجب أن تذهب إليه. إنني أقدر كثيراً تصرفك العملي يا بطرس إيليتش! وأستحسن تفكيرك في جميع الأمور! لو كنت في مكانك لما خطرت هذه الفكرة على بالي»!.

فقال بطرس إيليتش وقد نهض من مجلسه: «إضافة إلى أنني أعرف

ضابط الشرطة معرفة جيدة». وكان يبدو عليه أنه متعجل المغادرة للخلاص من براثن هذه السيدة المتقلبة، التي لم تكن تترك له الفرصة لوداعها والانطلاق في سبيله.

وقالت متلعثمة وهي تودعه: «ستعود إلي طبعاً وتطلعني على ما ستراه هناك، وما سينكشف لك من أمور... وما سيتضح من أشياء... وكيف سيحاكمونه... ونوع الحكم الذي سيصدرونه بحقه... قل لي، إن حكم الإعدام محرم عندنا أليس كذلك؟ إحرص على أن ترجع حتى ولو كانت الساعة الثالثة ليلاً، أو الرابعة؛ أو الرابعة النصف... قل لهم أن يوقظوني، ويهزوني في فراشي إذا لم أستيقظ... ولكن يا للسماء، إنني لن أنام! ولكن مهلاً يجب علي أن أذهب معك»؟.

- ك - كلا. ولكن حسناً تفعلين لو كتبت بيدك ثلاثة أسطر تذكرين فيها أنك لم تعط ديمتري فيودوروفيتش مالاً، فلعل ذلك يفيد بشيء... إذا دعت الحاجة...

فصاحت السيدة خولاكوف مبتهجة وهي تمضي إلى خزانتها: «بالتأكيد سأفعل هذا! والحقيقة هي أنني مأخوذة ومندهشة لما تتمتع به من مواهب، وحسن تصرف في مثل هذه الأمور. آنت موظف في هذه المدينة؟ كم أنا مغتبطة كونك موظفاً في مدينتنا»!.

ثم إنها كتبت السطور على نصف ورقة من ورق المذكرات وهي لا تزال تتكلم:

«إنني لم أقرض قط في حياتي ذلك الرجل التعيس ديمتري فيودوروفيتش كرامازوف، (وهو رغم كل شيء رجل تعيس) ثلاثة آلاف روبل في هذا اليوم. ولم أعطه قط مالاً، لم أعطه أبداً! وإنني أقسم على ذلك بكل ما هو مقدس»!

«ك. خولاكوف.»

ثم التفتت بسرعة إلى بطرس إيلييتش وقالت له: هاك المذكرة. إمض وانقذه. إنك تقوم بعمل نبيل.

ورسمت شارة الصليب عليه ثلاثاً. وخرجت مسرعة لكي تكون في

وداعه عند الممشى، وهي تقول:

«إن امتناني لك لا حدود له. إنك لا تستطيع أن تدرك مقدار امتناني لك لأنك جئت إلي أولاً. كيف لم يتفق أن قابلتك قبل الآن؟ سأشعر بفخر عظيم عندما تزورني في الأيام المقبلة. إن من دواعي سرورنا أن تكون من سكان مدينتنا. يا للدقة! ويا للقدرة العملية!... يجب عليهم أن يقدروك، ويفهموك إذا كان بوسعي عمل أي شيء، صدقني... إنني أحب الشباب! إنني مغرمة بالشباب! إن الجيل الفتي هو الدعامة التي تستند عليها بلادنا التعيسة. إنه أملها الوحيد... إمض، إمض»!.

ولكن بطرس إيليتش كان قد مضى مسرعاً، ومع شعوره بأن السيدة خولاكوف لم تكن لتدعه ينصرف سريعاً، فإنها كانت قد أحدثت في نفسه أثراً طيباً، الأمر الذي خفف قلقه الناجم عن انشغاله في مسألة بغيضة على النفس كهذه المسألة. والأذواق تتضارب كما نعلم. وقال وهو يشعر بالسرور: إنها ليست متقدمة في السن أبداً. وعلى نقيض ذلك فإنني عندما لقيتها كان ممكناً أن أعتقد أنني ألقى ابنتها.

أما فيما يتعلق بالسيدة خولاكوف، فقد سحرها ذلك الشاب وقالت في نفسها: «يا للذوق الحسن! يا للدقة! في رجل بمثل سنه! وفي هذه الأيام، وقد أضيف كل هذا إلى تلك الخلال الرفيعة والمظهر الجميل! إن الناس يقولون عن شباب اليوم أنهم لا يصلحون لشيء، ولكن ها هو المثال! والكثير من أقوال مشابهة. ونسيت تلك «الحادثة الرهيبة». وعندما أوت إلى فراشها كان فكرها مشغولاً فقط بأمر واحد وهو كم كانت قريبة من الموت، فهتفت قائلة: «إن هذا شيء رهيب، رهيب»!.

ولكنها ما كادت تغيب في فراشها حتى أخذها نوم عميق لذيذ. وما كنت لأتحدث بمثل هذا الإسهاب عن تفاصيل تافهة لا قيمة لها، لو لم تكن هذه المقابلة الغريبة بين الموظف الشاب، والأرملة غير المتقدمة في العمر، هي الأساس الكامل لسيرة ذلك الشاب العملي الدقيق. وما زالت قصته تذكر بالدهشة في مدينتنا حتى هذا اليوم، وربما عدت إلى ذكر شيء عنها بعد انتهائي من قصة الأخوة كرامازوف الطويلة.

النذير

إن ضابط شرطتنا ميخائيل مكاروفيتش مكاروف، ضابط متقاعد برتبة عقيد، وكان أرمل ممتاز الصفات. جاء إلى مدينتنا منذ قرابة ثلاث سنوات، ولكنه كان يحظى باحترام الجميع وتقديرهم، وذلك عائد في الدرجة الأولى إلى «معرفته بأصول تماسك المجتمع». ولم يكن منزله يخلو قط من الزوار، إذ أنه لا يستطيع الحياة بدونهم، وكان ثمة من يشاركه طعام الغداء دائماً؛ ولم يتفق له قط أن جلس إلى مائدة الطعام ولا يشاركه فيه ضيف ما. وكان يولم الولائم بصورة منتظمة في مناسبات كثيرة. وبعض هذه المناسبات كان يثير دهشة عظيمة وكانت المأكولات كثيرة ولكنها ليست من الأصناف الممتازة. وحدها فطائر السمك كانت كذلك. وكان يستعيض عن التأنق في اختيار صنوف الأنبذة، بالإكثار من الصنوف العادية.

وكان الضيوف إذا ما دخلوا تطالعهم غرفة أنيقة للبلياردو، وقد ازدانت جدرانها برسوم خيول السباق الإنكليزية، تصونها إطارات سوداء، وهي كما نعلم جميعاً زينة لا غنى عنها لغرفة البلياردو في منزل عازب. وفي مساء كل يوم كان لعب الورق يجري في بيته، ولو على طاولة واحدة. ولكن كان يحدث في فترات متعددة أن يأتي إلى منزله عدد من أفراد المجتمع الراقي فترى السيدات والشابات يجتمعن فيه للرقص. ولم يكن ميخائيل مكاروفيتش يعيش وحيداً في منزله مع أنه أرمل. فقد كانت ابنته الأرملة تشاركه العيش فيه، ومعها ابنتاها العزبتان، وكانتا فتاتين قد أتمتا تعليمهما. وكانتا حسنتي المنظر وتتمتعان بالحيوية، وقد جذبتا جميع الشباب العصريين إلى منزل جدهما، بالرغم من علم الجميع بأن لا بائنة لمن يتزوجهما.

وكان ميخائيل مكاروفيتش أبعد الناس عن توخي الدقة في تصريف

أعماله، ولكنه يقوم بأعباء وظيفته بشكل لا يقل سوءاً عن الآخرين. وبعبارة أوضح فقد كان رجلاً محدود المعرفة. أما فهمه لحدود سلطته الإدارية فلم يكن ممكناً الركون إليه وذلك ليس بسبب عدم قدرته على تفهم بعض الاصلاحات المعينة التي استحدثها العهد الحالي، بقدر ما يرتكب من اخطاء فاحشة في تفسير هذه الإصلاحات. وكان إهماله وراء ذلك كله، لا ذكاؤه، إذ كان متسرعاً جداً في معالجة أموره.

وكثيراً ما كان يقول في نفسه: «إن قلبي قلب جندي أكثر منه قلب مدني». بل أنه لم يكن قد كون لنفسه فكرة واضحة عن المبادىء الأساسية للإصلاحات المتعلقة بتحرير رقيق الأرض، فهو قد استوعبها عرضاً، إذا جاز هذا القول، بمرور الأعوام وهكذا ضاعف المران معلوماته عن غير قصد منه. وفوق ذلك، فقد كان هو نفسه صاحب أطيان. ولقد كان بطرس إيليتش متأكداً أنه سيجد بلا شك بعض ضيوف ميخائيل مكاروفيتش بمنزله في تلك الليلة، ولكنه لم يكن يعرف من سيكون هؤلاء الضيوف. وقد صادف في تلك الآونة وجود شخصين يلعبان الورق في منزل ضابط الشرطة هما: المحقق، وفارفنسكي طبيب مقاطعتنا وكان شاباً جاء إلى مدينتنا حديثاً من بطرسبورغ بعد أن نال درجة ممتازة من الأكاديمية الطبية. كما كان هناك إيبوليت كيريلوفيتش المدعي العام (وكان في الواقع نائباً للمدعي العام، غير أننا كنا دائماً ندعوه بالمدعي العام» وكان رجلاً فذاً يناهز الخامسة والثلاثين من عمره سقيم الجسم، ومتزوجاً من امرأة بدينة عاقر. وكان دعياً سريع الغضب بالرغم مما كان يتمتع به من ذكاء ورأفة. والظاهر أن عيبه الوحيد كان الغرور والاعتداد بنفسه وقد جعلته هذه الخلة رجلاً دائم القلق. وعدا ذلك، كانت له ميول سامية لبعض الفنون كعلم النفس مثلاً والدراسة الخاصة لخوالج القلب الإنساني، والمعرفة الخاصة بحقيقة المجرم وجريمته، وكان ذلك وراء تذمره واعتراضه، إذ كان يعتقد بأنه عومل بالإهمال عندما تمت ترقية أقرانه في الخدمة، وكان يؤمن إيماناً راسخاً بأنهم لم يقدروا مواهبه حق قدرها في الدوائر العليا، ومنهم من كان له عدوّ وخصم. بل إنه كان في لحظات يأسه يهدد باعتزال الخدمة ومزاولة المحاماة في القضايا الجنائية. وها هي قضية

كرامازوف غير المتوقعة تثيره إلى حد بعيد: «لقد كانت قضية يمكن أن يتحدث بها الجميع في كافة أنحاء روسيا». ولكنني أستبق الحوادث.

أما نيكولاي بارفينوفيتش نيليودوف المحقق الشاب، الذي لم ينقض على مجيئه إلى مدينتنا من بطرسبورغ سوى شهرين، فقد كان يجالس الشابات في الغرفة الثانية. إنها صدفة قد تحدث الناس عنها فيما بعد، وعجبوا كيف التقى جميع رجال الأمن في منزل ضابط الشرطة، كأنما كان ذلك مخطط له، ليلة وقوع «الجريمة». ومع ذلك فقد كان من الطبيعي أن يحدث هذا الاجتماع، وأن يكون موضع قبول وتصديق.

وكانت زوجة إيبوليت كيريلوفيتش تشكو ألماً مستمراً منذ يومين، وهذا ما دفعه إلى السهر خارج المنزل لكي يكفي نفسه عناء سماع شكواها. أما الطبيب فلم يكن بحكم طبيعته يطيق ألا يلعب بالورق ليلة واحدة. أما نيكولاي بارفينوفيتش نيليودوف فقد كان يعد نفسه بقضاء تلك الليلة في منزل ميخائيل مكاروفيتش، قبل ثلاثة أيام، وقد ادعى أن قدومه كان بمحض الصدفة، لكي يفزع الحفيدة الكبرى أولغا ميخائيلوفنا بأنه مطلع على سرها ويعرف أن ذلك اليوم كان عيد ميلادها، وأنها تعمدت إخفاء هذا السر لئلا تضطر إلى إحياء حفلة راقصة. وكان يتوقع مشاهدة مظاهر كثيرة من المرح، وسماع الطرف عن عمرها، وخوفها من أن يعرف مقداره الحقيقي، وعن معرفته بسرها وكشفه إياه للجميع، وما إلى ذلك من ضروب التسلية. وقد كان ذلك الفتى الساحر خبيراً لا يجارى في إحداث مثل هذه المضايقات؛ وكانت السيدات يسمينه «الرجل اللعوب» وكان يبدو عليه أنه مسرور بهذا الاسم. وكان مع ذلك شهماً رقيق الشعور ينتمي لأسرة طيبة العرق، موفور العلم. مع أنه كان يحب حياة المتعة، إلا أن جولاته كلها كانت بريئة تدل على حسن الذوق. وكان قصير القامة أنيق المظهر، يضع دائماً في أصابعه البيضاء، الدقيقة، الصغيرة، عدداً من الخواتم الكبيرة البراقة. وكان إذا انهمك في أعماله الرسمية اصطنع الوقار العظيم وكأنه مدرك لمركزه، مقدّر لما يترتب عليه من تعهدات مقدسة. وكان يتمتع بموهبة فذة في إرباك القتلة وغيرهم من مجرمي طبقة الفلاحين عند التحقيق، مما جعله بدون شك يثير دهشتهم من

غير أن يحظى باحترامهم.

وكان بطرس إيليتش ذاهلاً عن نفسه عندما دخل منزل ضابط الشرطة. وقد أدرك فوراً أن جميع الحضور كانوا مطلعين على القضية. وكانوا قد ألقوا أوراق اللعب من أيديهم. ووقفوا يتحدثون. وحتى نيكولاي بارفينوفيتش كان قد ترك مجلس السيدات ودخل مسرعاً، وعلى وجهه علامات الجدية والاستعداد للعمل.

وقد فوجىء بطرس إيليتش بالنبأ المدهش بأن فيودور بافلوفيتش كان قد قتل فعلاً في منزله في تلك الليلة وسرق ماله. وكان هذا النبأ قد بلغهم قبل برهة وجيزة على النحو التالي:

كانت مارفا إيغناتييفنا، زوجة غريغوري الخادم العجوز الذي نال ضربة جعلته يخر مغشياً عليه عند الجدار، تنام نوماً عميقاً في فراشها، فإن العقار الذي تناولته كان كفيلاً أن يبقيها نائمة حتى الصباح. ولكنها استيقظت من نومها فجأة، ولا ريب في أنها استيقظت على أثر صيحة مخيفة أطلقها سميردياكوف إذ أصابته نوبة الصرع في الغرفة المجاورة التي كان يضطجع فيها فاقد الحس، وكانت هذه الصيحة دائماً تسبق نوباته، فتفزع مارفا إيغناتييفنا وتجعلها مضطربة الحواس. ولم تستطع أن تعتادها أبداً. فقفزت من فراشها وركضت وهي بين نائمة ويقظة إلى غرفة سميردياكوف، وكانت غارقة في الظلام، ولم تستطع إلا أن تسمع صوت المريض، وهو يلهث ويضطرب. وقد صرخت مارفا إيغناتييفنا وجلة وأرادت أن تدعو زوجها، ولكنها تذكرت فجأة أنه لم يكن في جوارها عندما نهضت من الفراش، فعادت مسرعة إلى فراشها وأخذت تتحسسه بيديها ولكنها لم تعثر على أثر لزوجها. فقد خرج بدون شك، ولكن أين؟ فمشت إلى السلم ودعته بصوت خافت. ولم تتلق جواباً بطبيعة الحال، ولكنها سمعت في الظلام أنيناً صادراً من مكان بعيد في الحديقة. فأصاخت بسمعها، وتناهى الأنين إلى سمعها مرة ثانية، واتضح لها أن مصدره الحديقة.

فقالت تحدث نفسها: «لا بد وأنه قد خرج، يا عزيزي المسكين».

ومضت إلى باب الحديقة، وفجأة سمعت مناداة غريغوري لها باسمها

وبصوت ضعيف، وفيه أنة مخيفة: «مارفا! مارفا»!.

فتمتمت مارفا إيغناتييفنا قائلة: «يا رب، أبعد الشر عنا! وأتت مصدر الصوت، إلى أن اهتدت إلى مكان غريغوري. ولكنها لم تجده عند الجدار حيث ضرب، بل على بعد عشرين خطوة من هناك. وقد تبين فيما بعد أنه أخذ يزحف زحفاً بعدما استعاد رشده، وهو ربما لزمه وقت طويل لكي يبتعد عن مكان إصابته، هذه المسافة، وأغمي عليه بضع مرات. واكتشفت أنه كان مسربلاً بالدم، فأطلقت صرخة بأعلى صوتها. وكان غريغوري يهذي قائلاً:

«لقد اغتال... اغتال والده... لم الصراخ أيتها الحمقاء... أركضي... أطلبي النجدة من بعض الناس...».

غير أن مارفا ظلت تصرخ، ولما رأت أن نافذة سيدها كانت مفتوحة، وأن شمعة كانت مضاءة في الداخل، أسرعت إلى النافذة وأخذت تدعو فيودور بافلوفيتش. ولكنها عندما نظرت إلى داخل الغرفة من النافذة، شاهدت منظراً مروعاً. فقد كان سيدها مرتمياً على ظهره، لا حراك به، على أرض الغرفة. وكان مبذله وقميصه الأبيض ملطخين بالدم. وكان نور الشمعة الموضوعة فوق المنضدة قوياً ينعكس على الدم وعلى وجه فيودور بافلوفيتش الميت الساكن. واستبد الفزع بمارفا فتراجعت عن النافذة، وخرجت من الحديقة وأزاحت رتاج الباب الكبير، وسلكت الطريق الخلفية قاصدة منزل جارتها ماريا كوندراتييفنا. وكانت هذه المرأة وابنتها نائمتين، ولكنهما استيقظتا على صراخ مارفا المتصل اليائس، وصوت طرقاتها المتواصلة على الباب. ثم أخذت مارفا تصرخ وتولول، واستطاعت بأقوالها المتقطعة أن تطلعهما على حقيقة الأمر، وطلبت منهما العون. وقد اتفق أن كان فوما قد عاد من تجواله، وكان يبيت ليلته في المنزل معهما، فأيقظته المرأتان من نومه فوراً وعدا الثلاثة إلى مكان الجريمة. وتذكرت ماريا كوندراتييفنا، وهي في الطريق، أنها سمعت في حوالي الساعة الثامنة صرخة عظيمة تنبعث من الحديقة، ولا شك في أنها كانت صرخة غريغوري وهو يصيح: «يا قاتل أبيه»! عندما أمسك بميتيا من ساقه.

وقالت ماريا كوندراتييفنا وهي تعدو: «لقد صرخ أحدهم، ثم ساد

الصمت». وعدا الثلاثة إلى حيث كان غريغوري منطرحاً، وتمكنت المرأتان بمساعدة فوما من حمله إلى مسكن الخدم. وأشعلوا شمعة ساعدتهما على أن يريا أن سميردياكوف لم يكن أحسن حالاً، وأنه كان يتلوى من تشنجات نوبة الصرع، وقد شخصت عيناه وأخذ الزبد يتساقط من شدقيه. ثم بللوا جبين غريغوري بمحلول الخل والماء فأحس فوراً بالانتعاش وصاح قائلاً:

«هل قتل السيد»؟.

وعندما عدا فوما والمرأتان إلى المنزل، فرأوا هذه المرة أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة بل الباب المطل على الحديقة أيضاً، مع أن فيودور بافلوفيتش دأب طيلة الأسبوع الماضي على أن يقفله على نفسه كل ليلة فلا يسمح حتى لغريغوري بالدخول منه مهما كان السبب. وتخوفوا الدخول، من هذا الباب المفتوح، على فيودور بافلوفيتش، «لئلا يحدث شيء ما فيما بعد». وإذ عادوا إلى غريغوري طلب منهم هذا أن يمضوا تواً لإبلاغ ضابط الشرطة. وعدت ماريا كوندراتييفنا إلى منزل الضابط، وأعلنت نبأ الجريمة على مسمع من جميع الحضور. وقد سبقت بطرس إيليتش بخمس دقائق. وهكذا فإن روايته للحادث لم تكن مجرد سرد لظنونه وأوهامه بل جاءت من قبل شاهد كإثبات مباشر لظن يدور في أذهان الجميع فيما يتعلق بشخص المجرم (وهو ظن لم يكن ليؤمن له حتى تلك اللحظة).

وتقرر مباشرة العمل بحزم. وتم انتداب نائب مفتش الشرطة لاصطحاب أربعة شهود، والدخول إلى منزل فيودور بافلوفيتش والشروع في التحقيق فوراً، وحسب الطرق المألوفة التي لن أتحدث عنها الآن. وألح طبيب المقاطعة، وكان رجلاً ذا حمية، حديث العهد بعمله، أن يرافق ضابط الشرطة والمدعي العام والمحقق إلى مسرح الجريمة.

وسأذكر باختصار أن فيودور بافلوفيتش وجد ميتاً وقد تهشمت جمجمته. ولكن بأي شيء؟ أغلب الظن أنها نفس الآلة التي ضرب بها غريغوري فيما بعد. وقد عثر على هذه الآلة بعد وقت قليل. وقد وصف غريغوري الذي تم إسعافه بالقدر المتوفر وبصوت خافت ومتقطع كيف ضرب وطرح أرضاً. وبدأ المحققون البحث عن الجدار مستعينين بمصباح فرأوا المدقة

النحاسية ملقاة في مكان بارز من ممشى الحديقة. ولم يكن في الغرفة التي كان فيودور بافلوفيتش مطروحاً فيها ما يدل على حصول فوضى فيها. ولكنهم عثروا عند السرير خلف الستارة، على ظرف سميك ملقى على الأرض مكتوباً عليه هذه العبارة «هدية ثلاثة آلاف روبل إلى ملكتي غروشينكا إذا وافقت على موافاتي». وتحت هذه العبارة كان مكتوباً بخط فيودور بافلوفيتش ما يلي: «إلى دجاجتي». وكان الظرف مختوماً بالشمع في ثلاثة مواقع، ولكنه كان ممزقاً خالياً: لقد أخذ أحدهم المال الذي كان فيه. وعثروا، على أرض الغرفة أيضاً، على قطعة دقيقة من الشريط الأحمر الذي كان الظرف مربوطاً بها.

وقد أحدثت نقطة واحدة من نقاط إفادة بطرس إيلييتش أثراً عظيماً على المدعي العام والمحقق، وهي اعتقاده بأن ديمتري فيودوروفيتش سيطلق النار على نفسه قبل حلول الفجر، وأنه قد عقد عزمه على ذلك، وأنهى هذا العزم لبطرس إيلييتش، وأنه أخذ مسدسيه منه، وعبأهما بحضوره وكتب رسالة ووضعها في جيبه إلى آخر ما هنالك. وأوضح لهم بطرس إيلييتش أنه عندما لم يصدق ميتيا وهدده بإبلاغ بعض الناس ما ينوي فعله، لكي يحول دون انتحاره، أجابه هذا ضاحكاً: «إنك ستكون متأخراً». وقال لهم أن عليهم أن يمضوا سريعاً إلى موكرو للعثور على المجرم قبل أن يطلق النار على نفسه.

وقال المدعي العام منفعلاً: إن هذا واضح، إنه واضح! هكذا هم المجانين أمثال ذلك الرجل: «سأقتل نفسي غداً، إذن فلأبتهجن حتى تحين ساعة وفاتي!».

كما أن المدعي العام كان اهتمامه بالغاً بقصة ابتياع ميتيا للخمر والمآكل، وقال يخاطب رفاقه:

«هل تذكرون، أيها السادة، ذلك الرجل الذي قتل تاجراً يدعى أولسوفييف. لقد سرق منه ألفاً وخمسمائة روبل ثم انطلق لتوه لتزيين شعره بالغدائر، وأكمل سيره إلى الفتيات بدون أن يخفي النقود، بل كان يحملها بيده كما فعل ميتيا».

ولقد تأخر الجميع بسبب التحقيق والتفتيش والإجراءات الرسمية وما

شابه ذلك في منزل فيودور بافلوفيتش. واستغرقت هذه المعاملات فترة من الزمن، مما حملهم على أن يرسلوا قبل انطلاقهم إلى موكرو بساعتين ضابطاً ريفياً من ضباط الشرطة يدعى مافريكي مافريكيفيتش شميرتسوف، كان قد جاء في صبيحة اليوم السابق لقبض مرتبه، وتلقى هذا الضابط أوامر بتجنب لفت الانتباه إلى مهمته لدى وصوله إلى موكرو، وأن يراقب «المجرم» بعين يقظة حتى يصل رجال السلطة المختصون، كذلك بأن يهيىء الشهود على عملية إلقاء القبض عليه، ويعد رجال الشرطة وما إلى ذلك من إجراءات، وقد صدع مافريكي مافريكيفيتش بهذه الأوامر وظل متخفياً، ولم يلمح لأحد بأية إشارة عن مهمته السرية إلا لصديقه القديم تريفون بوريسوفيتش، وكان قد أفصح له عن هذا الأمر قبل أن يلتقي ميتيا في الشرفة بصاحب الفندق، وهو يبحث عنه في الظلام، فيلاحظ على الفور ذلك التبدل في ملامح تريفون بوريسوفيتش وصوته. وهكذا فلم يكن لميتيا ولا لأي إنسان آخر فرصة للتفكير بأنه كان تحت المراقبة. وكان تريفون بوريسوفيتش قد حمل صندوق المسدسين ووضعه في مكان أمين. وبعد الساعة الرابعة وقبيل بزوغ الشمس وصل جميع رجال الأمن، أي ضابط الشرطة، والمدعي العام، والمحقق إلى موكرو على عربتين، تجر كل واحدة منهما ثلاثة جياد. أما الطبيب فقد بقي في منزل فيودور بافلوفيتش لكي يقوم بتشريح جثته في اليوم التالي، وكان الطبيب قد أولى الخادم سميردياكوف اهتماماً خاصاً لحالته. فهو قد صرح لأصدقائه بحماسة عظيمة: «إن مثل هذه النوبات العنيفة المتصلة من الصرع التي تتواتر على المصاب مدة أربع وعشرين ساعة، هي من الأمور النادرة وهي موضع اهتمام العلم». وقد هنأه أصدقاؤه ضاحكين على هذا الاكتشاف، عند شروعهم في السفر إلى موكرو. وقد ظل المدعي العام والمحقق يذكران بوضوح كلمات الطبيب عن سميردياكوف أنه لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة بعد تلك الليلة.

وبعد هذه الإيضاحات المسهبة، الضرورية كما أظن، سنعود الآن إلى تلك الفترة من فترات قصتنا التي وقفنا عندها.

آلام روح ـ المحنة الأولى

كان ميتيا جالساً يحدق فيمن حوله حائراً مشدوهاً، لا يفقه شيئاً مما يقال له. وبغتة هب واقفاً ولوح بذراعيه وصاح قائلاً:

لست مجرماً! لم أسفك ذلك الدم! لم أسفك دم أبي... نعم كنت أنوي قتله، ولكنني لم أقتله. لست أنا من قتله.

وما كاد ينطق بهذه الكلمات، حتى اندفعت غروشينكا من خلف الستارة وارتمت على قدمي ضابط الشرطة، ثم قالت بلهجة مؤثرة وهي تبكي بكاءً مراً، وقد مدت يديها المضمومتين نحوهما: «إن الذنب ذنبي! ذنبي! إنه شري! لقد فعل ما فعله بسببي. لقد عذبته وحملته على ذلك قسراً. لقد عذبت بإثمي ذلك الرجل العجوز المسكين الميت، وأوصلته إلى هذه النهاية! إن الذنب ذنبي، إنه ذنبي قبل غيري، وهو أعظم من ذنب غيري، إنه ذنبي»!.

فصاح ضابط الشرطة بها وهو يهددها بيده: «نعم، إنه ذنبك! أنت المجرمة الأولى أيتها المستهترة! أيتها العاهرة! إنك أنت المسؤولة الأولى». ولكنه مال عنها بسرعة وحزم، فقد عاجله المدعي العام بإمساكه، وصاح به قائلاً وهو يكاد يلهث: «إن هذا عمل شاذ للغاية يا ميخائيل مكاروفيتش! إنك تعيق سير التحقيق... وتمنع المضي في القضية...».

وصاح نيكولاي بارفينوفيتش المحقق وهو مضطرب للغاية: «أسلك السبيل السوي! أسلك السبيل السوي! وإلا كان الأمر مستحيلاً تماماً!...».

فصرخت غروشينكا بانفعال وكانت لا تزال جاثية على ركبتيها: «حاكمونا معاً! وعاقبونا معاً. وسأذهب معه الآن أنى ذهب، ولو إلى الموت»!.

فخر ميتيا على ركبتيه بالقرب منها واحتضنها بقوة بين ذراعيه مخاطباً

إياها: «غروشينكا، حياتي، دمي، يا أقدس الناس عندي! لا تصدقوها، إنها لم تقترف أي جرم، ولم تسفك أي دم، ولم تكن مجرمة قط».

وتذكر فيما بعد أنه قد أبعد عنها بالقوة، فقد أبعده عنها عدد من الرجال، وتم إخراجه من الغرفة وعندما استعاد وعيه، ألفى نفسه جالساً إلى المنضدة وكان يحيط به رجال يضعون شارات الشرطة، وكان يجلس في مواجهته أمام المنضدة نيكولاي بارفينوفيتش المحقق، الذي كان يلح عليه في شرب قليل من الماء من كأس فوق المنضدة.

وكان يقول له بلهجة مهذبة: إن الماء سينعشك وسيعيد إليك هدوءك، كن مطمئناً ولا تخف. وكان ميتيا يتذكر فيما بعد كيف كان اهتمامه آنئذ عظيماً بخواتمه الكبيرة وأحدها مزدان بحجر كريم، وآخر يزينه فص شفاف أصفر اللون يبرق بريقاً عظيماً. كما يتذكر بعد ذلك بزمن طويل وهو مندهش، أن هذه الخواتم كانت تجذب انتباهه إليها طيلة تلك الساعات الرهيبة وهو رهن التحقيق، حتى أنه لم يستطع أن يصرف انتباهه عنها وينساها شأنها كشأن أشياء لا تمت بصلة إلى الموقف الذي هو فيه. وكان يجلس المدعي العام إلى يسار ميتيا، تماماً في ذات المكان الذي كان يجلس فيه مكسيموف في مستهل السهرة، أما حيث كانت تجلس غروشينكا، فقد جلس شاب متورد الخدين يرتدي معطفاً مهلهلاً كالتي تلبس للصيد، وأمامه المداد والقرطاس. إنه أمين سر المحقق الذي كان يرافقه. وكان ضابط الشرطة يقف قرب النافذة من الجهة المقابلة من الغرفة قرب كالغانوف الذي كان جالساً هناك.

وخاطب المحقق ميتيا للمرة العاشرة قائلاً بهدوء: إشرب بعض الماء.

فصاح ميتيا وهو يحملق في المحقق بنظرة جامدة: «لقد شربت أيها السادة، لقد... ولكن... هلموا أيها السادة، إسحقوني، عاقبوني، قرروا مصيري»!.

وسأله المحقق بهدوء وإلحاح: إذن فأنت تعلن أنك لست مذنباً ولم تقتل أباك فيوردو بافلوفيتش!

- لست مذنباً. إنني مسؤول عن دم رجل عجوز لا عن دم والدي. وأنا محطم لما ارتكبته! لقد قتلت الرجل العجوز وطرحته أرضاً... ولكنني لا

أستطيع الإجابة على أسئلة بخصوص جريمة قتل أخرى، جريمة فظيعة لست مذنباً فيها... إنها تهمة هائلة، أيها السادة، وضربة قاضية. ولكن من قتل والدي، من قتله؟ ترى من يمكنه قتله، إن لم أكن أنا قتلته؟ إن هذا شيء غريب مستحيل.

فقال المحقق متسائلاً: «نعم، من يمكن أن يكون قاتله»؟ ولم يتسنى له متابعة الكلام لأن إيبوليت كيريلوفيتش حدجه بنظره وقال مخاطباً ميتيا: «لا داعي للقلق على الخادم العجوز غريغوري فاسيلييفيتش. إنه ما زال حياً. لقد تعافى. ويبدو أنه سيعيش رغم الضربات الهائلة التي كلتها له حسب ما جاء في إفادته وإفادتك. ذلك ما يقوله الطبيب على الأقل».

فصاح ميتيا وهو يلوح بذراعيه، وقد تألق وجهه: «حي؟ هل هو حي؟ بالإلهي إنني أشكرك على هذه المعجزة التي حققتها لي وأنا المخطىء المذنب. لقد استجيب لصلاتي». إني قضيت الليل مصلياً. ثم رسم شارة الصليب ثلاثاً، وكان مبهوراً.

ومضى المدعي العام قائلاً: وهكذا فقد حصلنا من غريغوري هذا، على أدلة هامة فيما يتعلق بك وهي أن... وقاطعه ميتيا وهو يقفز من مقعده فجأة ويقول: دقيقة واحدة، أيها السادة بحق الله، دقيقة واحدة سأمضي إليها عدواً.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش وهو يكاد يصرخ بأعلى صوته: «أعذرني، إن طلبك مستحيل في هذه اللحظة». وقفز هو الآخر من مكانه. وقبض رجال الشرطة على ميتيا، ثم عاد وجلس بمحض إرادته. وكانت النشوة بادية على ميتيا فقال وهو يتطلع فيمن حوله باحترام: «أيها السادة، إن هذا شيء مؤسف! لقد كنت أود أن أراها لمدة دقيقة واحدة فقط؛ لأقول لها أنني لست قاتلاً الآن وأقول لها أن ذلك الدم الذي كان يثقل قلبي طيلة هذه الليلة، قد غسل وانتهى أمره! أيها السادة، إنها خطيبتي! أواه شكراً لكم أيها السادة! أواه لقد أعدتموني إلى الحياة من جديد ووضعتم في صدري خلال دقيقة واحدة قلباً جديداً فطالما حملني أيها السادة ذلك الرجل العجوز بين ذراعيه وغسلني في المغطس عندما كنت طفلاً لا أتجاوز الثالثة من عمري، وقد تخلى عني جميع الناس، لقد كان لي بمثابة أب!...».

وعاد المحقق إلى القول: «إذن فأنت...».

فقاطعه ميتيا بقوله واضعاً مرفقيه على المنضدة ويغطي وجهه بيديه: أمهلوني برهة أخرى أيها السادة، دعوني أفكر برهة، دعوني أسترد أنفاسي أيها السادة. إن كل ذلك يقض مضاجع الإنسان بشكل مخيف. إن الرجل أيها السادة ليس خالياً من الشعور والعاطفة كالبرميل.

وتمتم نيكولاي بارفينوفيتش قائلا: «إشرب قليلاً من الماء». فأزاح ميتيا يديه عن وجهه، وأخذ يضحك. وعكست عيناه شعوره بثقته بنفسه. وبدا كأنه قد تبدل من حال إلى حال في لحظة واحدة. وقد تغيرت ملامحه كلها، فأصبح لا يرى نفسه أقل مستوى من أولئك الرجال، الذين كانت المعرفة تربطه بهم جميعاً وكأنهم اجتمعوا بالأمس، قبل حدوث ما حدث، في إحدى مجالس المجتمع. ويجوز لنا هنا أن نقول عرضاً، أن ميتيا لدى وصوله إلى المدينة، كان يقابل بالترحيب في منزل ضابط الشرطة، ولكنه قلَّل من زياراته له حتى أصبحت نادرة جداً خلال الشهر المنصرم. وكان ميتيا يلاحظ أن ضابط الشرطة كان يقابله بالتجهم عندما يصادفه في الشارع مثلاً، وينحني له أدباً. وكانت معرفته بالمدعي العام أقل، مع أنه كان أحياناً يزور زوجته، وهي سيدة مضطربة الأعصاب كثيرة الأوهام، زيارات يدفعه إليها الأدب، دون أن يدري لذلك سبباً، وكانت هي تقابله دائماً بالترحيب، بل إنها لسبب ما أخذت تهتم به اهتماماً عظيماً. فلم يتسنى له التعرف إليه مع أنه كان قابله مرتين وتحدث معه حول شؤون الجنس اللطيف.

وصاح ميتيا مغتبطاً ضاحكاً: «برأيي أنت أبرع رجال القانون يا نيكولاي بارفينوفيتش، وأنا الآن أستطيع مساعدتك. أواه أيها السادة، إنني أشعر كأنني قد صرت رجلاً آخر، فلا تشعروا بالإهانة إذا حدثتكم بهذه البساطة والصراحة وأصارحكم أيضاً بأنني ثمل. أعتقد أنه كان لي الشرف والسرور بلقياك يا نيكولاي بارفينوفيتش في منزل قريبي ميوسوف. أيها السادة، أيها السادة، إنني لا أدعي قدرتي على مجاراتكم وأنا أفهم بطبيعة الحال بأي صفة أجلس تجاهكم. إن هنالك شكاً رهيباً بطبيعة الحال... يحوم حولي... إذا كان غريغوري قد أدلى بإفادة... شكاً مخيفاً. إنه شك رهيب، رهيب، وأنا أفهم

ذلك! ولكن دعونا ننتقل من الكلام إلى الحس أيها السادة، إنني مستعد، وسنضع حداً لكل شيء في برهة واحدة. أصغوا أصغوا إلي أيها السادة! طالما أنني بريء فإننا قادرون على إنهاء كل شيء في دقيقة. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟». وكان ميتيا يسرع في الكلام ويتبسط فيه، ويكثر منه باضطراب، وكأنه يرى أن سامعيه هم أعز أصدقائه.

وقال نيكولاي بارفينوفيتش بلهجة مؤثرة: «إذن نسجل أنك الآن تنكر إنكاراً تاماً التهمة الموجهة إليك». ثم انحنى على أمين سره وأملى عليه بصوت خافت العبارة التي أراد تدوينها.

قال ميتيا: «أتدونون ذلك؟ أتريدون أن تدونوه؟ حسناً، دونوا ما تريدون؛ إنني موافق، إنني موافق تماماً على ذلك ولكن... هل ترون... مهلاً، مهلاً، أكتبوا هذه الكلمات. إنني مسؤول عن سوء التصرف، واصطناع العنف مع الرجل العجوز المسكين. وإضافة إلى ذلك، فثمة شيء آخر في قرارة قلبي، أنا مذنب بشأنه، ولكنه لا يستوجب التدوين (والتفت فجأة إلى أمين السر)؛ إن ذلك يتعلق بحياتي الخاصة، أيها السادة، إنه لا يعنيكم أمر ذلك الشيء الموجود في قرارة قلبي... ولكن فيما يتعلق باغتيال والدي العجوز، فأنا لست مذنباً بشأنه. إن هذا الاعتقاد بعيد عن الواقع... بعيد جداً. سأثبت لكم ذلك وستقتنعون به فوراً... إنكم ستضحكون أيها السادة إنكم ستضحكون من ريبكم!...».

فقال المحقق مخاطباً ميتيا، وكأنه يحاول أن يخفف من اضطرابه بالتأدب معه: «إهدأ يا ديمتري فيودوروفيتش. قبل أن نبدأ استجوابنا وطالما أنك موافق على الإجابة، أحب أن أسمع إقرارك بما أفدت به من أنك كنت تكره أباك فيودور بافلوفيتش، وأنك كنت معه في خصام مستحكم. فلقد صرحت قبل ربع ساعة على الأقل أنك كنت تريد قتله إذ قلت: ـ إنني لم أقتله، ولكنني كنت أود أن أقتله ـ!».

ألنا صرحت بذلك؟ قد يكون ذلك صحيحاً أيها السادة، نعم، لقد شاء سوء الطالع أن أكون مريداً لقتله... وقد أردت ذلك مرات كثيرة... لسوء الطالع، لسوء الطالع»!.

ـ لقد كنت تريد قتله. فهل توافق أن تكشف لنا بشكل دقيق عن الدوافع التي جعلتك تمقت والدك؟.

فهز ميتيا كتفيه، وهو ينظر إلى الأرض متجهماً: «وأي شيء تريدون مني شرحه لكم أيها السادة؟ إنني لم أكتم مشاعري قط. وكل أهل المدينة يعرفون أسباب ذلك، وجميع رواد الحانة يعرفونها. ولقد أعلنتها مؤخراً في غرفة الأب زوسيما... وفي نفس ذلك اليوم، عند حلول المساء ضربت أبي. وقد كدت أقتله، وأقسمت على أن أعود وأقتله بحضور الشهود... بحضور ألف شاهد وأصبحت أجهر بذلك في غضون الشهر الأخير، وكل إنسان بوسعه أن يثبت لكم ذلك!. إنكم أمام الحقيقة العارية، لكن المشاعر أيها السادة، المشاعر شيء آخر. وقطب ميتيا جبينه وتابع يقول: «أيها السادة يبدو لي أنه لا يحق لكم أن تستجوبوني عن المشاعر. وأنا على يقين من أن واجبكم يحتم عليكم ذلك، إنني أفهم ذلك لكنه أمر يخصني وحدي، وأنا أحرص عليه، ومع ذلك... وطالما أنني لم أخف عنكم مشاعري في الماضي... ففي الحانة مثلاً، تحدثت عنها لكل الناس... فأنا لن أكتمها الآن. إنني أفهم أيها السادة أن هنالك حقائق رهيبة ضدي في هذه القضية. فلقد أعلنت على الملأ بأسره أنني لا بد قاتله، والآن وجد مقتولاً على حين غفلة. إذن فلا بد وأن أكون أنا قاتله. إن هذا يضحكني. إنني على استعداد لتقدير ظروفكم أيها السادة، وأنتم معذورون في ظنونكم فأنا نفسي قد صعقت إذ من تراه يكون قاتله إن لم أكن أنا؟ إنه استنتاج منطقي، أليس كذلك؟ وإن لم أكن أنا القاتل، فمن يكون ذلك القاتل»؟ وفجأة هتف يقول: «أيها السادة، أود أن أعرف وألح على أن أعرف! أين قتل؟ وكيف قتل؟ وما هي الأداة التي قتل بها؟ أنبئوني». ثم التفت بسرعة إلى رجلي القانون.

وأجاب المدعي العام: لقد وجدناه في غرفته منطرحاً على ظهره مهشم الجمجمة.

فارتجف ميتيا وأسند مرفقيه على المنضدة وأخذ وجهه براحة يده اليمنى وقال: «إن هذا شيء رهيب»!.

وعاد نيكولاي بارفينوفيتش إلى القول: «سنستمر في التحقيق. ما هو

الدافع الذي كان يدفعك إلى كرهه؟ أعتقد أنك قد قلت علناً أنك كرهته بدافع الغيرة!

ـ نعم الغيرة، وشيء غير الغيرة.

ـ أهو الخلاف على المال؟.

ـ نعم، على المال أيضاً.

ـ لقد كان بينكما .كما أظن خلاف على ثلاثة آلاف روبل، كنت تزعم أنها جزء من إرثك.

فصاح ميتيا محتداً: «ثلاثة آلاف روبل! أكثر من هذا، أكثر، أكثر، أكثر من ستة آلاف، بل ومن عشرة آلاف. لقد أعلنت ذلك أمام الجميع، وجهرت به. ولكنني قبلت بثلاثة آلاف مقابل موافقتي على تصفية الأمر. ولقد كنت في أمس الحاجة إلى تلك الآلاف الثلاثة... حزمة الأوراق النقدية بقيمة الثلاثة آلاف روبل، فقد كنت أعلم أنه كان يخبئها تحت الوسادة، تمهيداً لتقديمها لغروشينكا، هذه الحزمة كنت أعتبرها مسروقة مني. نعم أيها السادة لقد كنت أرى أنها ملك لي، وأنها مالي...».

وهنا ألقى المدعي العام نظرة ذات مغزى على المحقق وغمز بعينه سراً. وبادر المحقق إلى القول: سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً. إن نظرتك هذه إلى ذلك المال كأنه مالك أمر نلاحظه وندونه بموافقتك.

ـ دونوها كما تشاؤون. إنني أعلم أن هذه حقيقة أخرى ضدي، غير أنني لا أخشى الحقائق بل أسردها ولو كانت على نفسي. هل تسمعون؟ وفجأة صاح بصوت فيه أسى وانكسار: «أيها السادة إني في الحقيقة رجل مختلف عن الذي ترونه أمامكم. عليكم معاملتي كرجل شريف، وفي أرفع درجات الشرف، وفضلاً عن هذا ينبغي ألا تنسوا ذلك، رجل أتى الكثير من الأعمال الحقيرة، ولكنه في حقيقته وفي داخله، كان وما زال شريفاً. إنني عاجز عن التعبير عن ذلك. إن سبب تعاستي طول حياتي، هو أنني كنت أتحرق شوقاً إلى أن أكون شريفاً. وكنت شهيد الشعور بالشرف، أبحث عنه بالمصباح، بمصباح ديوجينيس ومع ذلك فقد ظللت طول حياتي آتي الموبقات كبقية أبناء البشر، أيها السادة... إنها صفة لي أنفرد بها من دون

الناس... وأنا أشعر أنني مخطىء في ذلك. وهذا أنفرد به أيضاً.. أيها السادة، إنني أشعر بصداع..» وقطب حاجبيه ألماً، ومضى يقول: «أيها السادة، إنني لم أكن أحتمل رؤيته، فقد كان فيه شيء دنيء، وقح، يدنس كل ما هو مقدس، شيء سافل، لعين بغيض كريه. أما الآن وقد مات فإن شعوري نحوه قد اختلف».

- ماذا تعني بذلك؟.

- إن شعوري لم يتبدل، ولكنني وددت أن كرهي له لم يبلغ هذا الحد.

- هل أنت نادم؟.

- كلا لا أشعر بالندم، لا تسجلوا هذا، فإن طيبتي ليست مطلقة. إنه لم يكن من حقي أن أراه بشعاً، إذ أن شكلي ليس جميلاً. هذا هو قصدي، دونوا ذلك إذا شئتم.

عندما كان ميتيا يلفظ هذه الكلمات، كان يبدو أشد حزناً، وكان مرور الوقت واستمرار التحقيق يزيدان من تجهمه.

وفي تلك اللحظة، حدث مشهد آخر غير متوقع. كانت غروشينكا قد أخرجت من الغرفة، ولكنها لم تنقل إلى مكان بعيد، بل أخذت إلى غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة قرب الغرفة الكبرى حيث كانوا يعبثون ويقصفون. ولم يكن يجالسها فيها سوى مكسيموف، الذي كان الأسى مستحوذاً عليه والخوف مسيطراً على حواسه، وقد التصق بها وكأنه يلتمس النجاة. وكان يقف عند باب غرفتها شرطي قروي. وكانت غروشينكا تبكي وتنتحب، وفجأة فاضت نفسها بالحزن فلم تعد تطيق احتماله، فقفزت من مكانها ولوحت بذراعيها وغادرت الغرفة مسرعة وهي تبكي وتولول، تبغي الذهاب إليه، إلى ميتيا. وقد تم ذلك فجأة حتى أنهم لم يدركوها قبل دخول الغرفة. فلما سمع ميتيا صياحها، أصابته رجفة، فقفز من مجلسه واندفع بقوة وهو يصرخ، يريد ملاقاتها ولا يدرك الهدف من تحركه. ولكن لم يدعوهما يلتقيان. فتلاقت أبصارهما فقط. لقد أمسكوه من ذراعيه، فأخذ يناضل لكي يفلت من أسره، وتطلب أمر منعه من الإفلات ثلاثة أو أربعة رجال. وأمسكوا بها أيضاً،

وشاهدها وهي تمد ذراعيها إليه، وكانت تعول عندما أخرجوها من الغرفة. فلما هدأ الوضع، ثاب إلى نفسه فجلس في نفس المكان تجاه المحقق وهو يصيح بهم قائلاً:

«ماذا تريدون منها؟ ولماذا تعذبونها وهي لم ترتكب إثماً، ولم تفعل شيئاً».

وحاول رجلا القانون أن يهدئا روعه. وبقيا في هذه المهمة فترة عشر دقائق. وأخيراً دخل إلى الغرفة ميخائيل مكاروفيتش الذي كان متغيباً. وكان مسرعاً فصاح بالمدعي العام منفعلاً: «لقد نقلت، وهي الآن في الطابق السفلي. هل تسمحون لي بأن أقول كلمة واحدة لهذا الرجل الشقي؟ بحضوركم أيها السادة، بحضوركم».

فأجاب المحقق قائلاً: «طبعاً يا ميخائيل مكاروفيتش، إننا لا نعترض على ذلك وخاصة في هذه القضية».

وعندها مضى ضابط الشرطة قائلاً بصوت يشبه صوت الأب الحنون، وقد بدا الانفعال في وجهه تأثراً منه لحال السجين التعس: «أصغ إلي يا ديمتري فيودوروفيتش يا فتاي العزيز. لقد رافقت صاحبتك اغرافينا الكسندروفنا بنفسي إلى الطابق السفلي، وطلبت إلى بنات صاحب الفندق تأمين الاهتمام بها، فضلاً عن أنه بقي برفقتها الشيخ مكسيموف وقد واسيتها، هل تسمعني؟ لقد واسيتها وهدأت روعها وأقنعتها بأن مهمتك الآن تبرئة نفسك، وبالتالي فلا يجب أن تعوقك، أو تحزنك، لئلا تفقد وعيك وتخطىء في إفادتك. لقد تحدثت إليها حقاً وفهمتني. إنها فتاة واعية، تتمتع بقلب طيب، وقد همّت بلثم يدي لترجوني أن أعينك. وقد أرسلتني إليك لكي أطمئنك عنها. ويجب علي يا صاحبي العزيز أن أعود إليها وأخبرها أنك قد هدأت وطبت نفساً بما صارت إليه. ولذلك يجب أن تستقر وتهدأ. هل تفهم ما أقوله لك؟ إنك كنت قاسياً عليها، إنها فتاة طيبة أيها السادة، نعم أقول لكم إنها فتاة رحيمة، وليس من مبرر للومها على أي شيء. إذن، فماذا تريدني أن أنقل إليها يا ديمتري فيودوروفيتش، أتود أن تهدأ في مجلسك أم ماذا؟»

لقد قال ضابط الشرطة الشيء الكثير مما هو شاذ، لكن مصاب

غروشينكا، مصاب تلك الإنسانة، قد حطم فؤاده، فأطلت الدموع من عينيه وقفز ميتيا واندفع نحوه ثم صاح قائلاً:

«صفحكم أيها السادة، إسمحوا لي! إن في صدرك قلب ملك، ملك يا ميخائيل مكاروفيتش، وإنني أشكرك باسمها، سأهدأ، سأهدأ، بل وأبتهج. امنحها حنان قلبك وقل لها أنني مرح، عظيم المرح، وأنني بعد قليل سأكون ضاحكاً، بعد أن أيقنت أنها في حماية ملك حارس مثلك. سأنتهي حالاً من كل شيء. وسأنطلق إليها فور إطلاق سراحي، وسترى. لتنتظرني». ثم وجّه كلامه إلى المدعي العام والمحقق قائلاً: «أيها السيدان والآن سأكشف لكما عن مكنونات صدري، سأبوح بكل شيء، وسننتهي من هذه القضية سريعاً، وسننتهي إلى نهاية مبهجة، وسنضحك منها في نهاية الأمر، أليس كذلك؟ ولكن أيها السيدان، إن تلك المرأة هي ملكة قلبي، دعوني أخبركم بذلك. وطالما أراكم رجالاً شرفاء، فإني أقول لكم الآن أمراً واحداً إنها نور حياتي. إنها فتاتي المقدسة، وليتكم تعرفون! هل سمعتموها وهي تصرخ: «سأذهب معك إلى الموت»؟ وماذا فعلت لها وأنا المتسول الفقير؟ وما سبب كل هذا الحب لي؟ وكيف يمكن أن يستحق إنسان فظ عنيد، قبيح مثلي، وأنا صاحب هذا الوجه القبيح، مثل هذا الحب، حتى أنها مستعدة للذهاب معي إلى المنفى؟ يا إلهي، كيف ارتمت الآن على أقدامكم من أجلي!... ومع ذلك فهي فخورة ولم ترتكب ذنباً! كيف يمكنني إلا أن أعبدها، وكيف كان بوسعي أن أمنع نفسي من الصراخ والاندفاع نحوها كما فعلت الآن؟ عفوكم أيها السادة أما الآن فأنا أشعر بالراحة».

وارتد في مقعده إلى الوراء وحجب وجهه بيديه وأخذ يبكي بكاء مراً، ولكن دموعه كانت دموع السعادة. وثاب إلى رشده تواً. وظهر السرور العظيم في وجه ضابط الشرطة، وابتهج رجلا القانون أيضاً وأدرك الجميع أن التحقيق قد دخل مرحلة جديدة. وعندما خرج ضابط الشرطة، كان ميتيا يشعر بالمرح، فخاطبهم قائلاً:

«والآن أيها السادة إنني رهن إشارتكم، بكل ما في ذلك من معنى، ولولا هذه التفصيلات التافهة لكنا قد فهمنا بعضنا بعضاً في مدى دقيقة

واحدة، وها هي هذه التفصيلات موضوع حديثي ثانية. إنني رهن إشارتكم، أيها السادة، ولكنني أريد أن نعمل جميعاً بثقة متبادلة، ويجب أن تثقوا بي، وأن أثق بكم، وإلا فلن تكون هناك نهاية لهذا الذي نحن فيه. إن صالحكم هو مقصد كلامي. هيا إلى العمل أيها السادة، إلى العمل. لا تعيثوا فساداً في روحي، ولا تثيروني بسفاسف الأمور، بل اسألوني عن الحقائق وعن كل ما هو مهم وسأرضيكم حالاً وسحقاً للتفصيلات».

فلما فرغ ميتيا من كلامه، استؤنف التحقيق معه.



المحنة الثانية

كان نيكولاي بارفينوفيتش بادي الرضى العظيم من عينيه البارزتين الحاسرتين الغبراوين، اللتين أراحهما من المنظار قبل لحظة واحدة، فبدأ كلامه بحيوية وقال: «إنك تساعدنا كثيراً بما تبثه فينا من شجاعة يا ديمتري فيودوروفيتش باستعدادك للإجابة عن أسئلتنا. ولقد كنت على صواب لدى حديثك عن الثقة المتبادلة، التي يستحيل بدونها أحياناً الاستمرار في متابعة قضايا بمثل هذه الأهمية، إذا كان الطرف المشتبه فيه، يأمل حقاً ويرغب في الدفاع عن نفسه، وكان في وضع يستطيع معه ذلك. أما من جانبنا نحن فسنفعل كل ما في وسعنا، وستتحقق بنفسك كيف يكون سيرنا في هذه القضية». ثم التفت إلى المدعي العام وخاطبه قائلاً: هل توافقني على هذا القول يا إيبوليت كيريلوفيتش»؟.

فأجابه هذا قائلاً: «لا شك في ذلك». وكانت نبرات صوته فاترة بالمقارنة مع الحيوية التي تبدت في لهجة نيكولاي بارفينوفيتش.

وسأذكر هنا للمرة الأخيرة أن نيكولاي بارفينوفيتش الذي لم يكن جاء إلى هنا منذ وقت طويل، شعر منذ البداية بالاحترام العظيم للمدعي العام، إيبوليت كيريلوفيتش وصار صديقه الحميم، وكاد أن يكون الإنسان الوحيد الذي يؤمن بمواهب إيبوليت كيريلوفيتش الخارقة، كرجل نفساني وكخطيب، كما كان يؤمن بصدق شكواه. وقد سمع به منذ كان في مدينة بطرسبورغ. أمّا نيكولاي بارفينوفيتش فقد كان، بالمقابل، الرجل الوحيد في الدنيا الذي أحبه المدعي العام «الذي لم تقدر مواهبه» حباً صادقاً. وقد كان لديهما الوقت الكافي أثناء انطلاقهما إلى موكرو للوصول إلى تفاهم حول القضية التي هما بصددها.

وبينما كانا يجلسان الآن إلى المنضدة، كان المحقق، صاحب البديهة الحاضرة يستوعب ويفسر كل قسمة من القسمات التي كانت تنطبع على وجه رئيسه، سواء أكان ما يسمعه أو يراه نصف كلمة، أو نظرة خاطفة، أو غمزة.

وقال ميتيا منفعلاً: «أيها السادة، إسمحول لي فقط أن أقص عليكم قصتي ولا تقاطعوني بالأسئلة التافهة وسأروي لكم كل شيء في لحظة واحدة».

- رائع! شكراً لك. ولكن قبل أن نبدأ في الإصغاء إلى أقوالك، إسمح لي بالاستيضاح عن حقيقة صغيرة أخرى نهتم بها اهتماماً عظيماً. وأعني تلك الروبلات العشرة التي اقترضتها بالأمس حوالي الساعة الخامسة من صديقك بطرس إيليتش بيرخوتين لقاء رهنك مسدسيك عنده.

- لقد رهنتهما أيها السادة، لقد رهنتهما لقاء عشرة روبلات. ماذا تريدون أكثر من هذا؟ إن هذا هو كل شيء. لقد رهنتهما فور عودتي إلى المدينة...

- عودتك إلى المدينة؟ لقد غادرت المدينة إذاً؟.

- نعم، لقد قمت بجولة في الريف قطعت فيها مسافة أربعين فرسخاً. ألم تعلموا بها؟.

وتبادل المدعي العام النظرات مع نيكولاي بارفينوفيتش.

- حسناً، ما رأيك في أن تبدأ قصتك بأن تذكر بشكل كامل ما قمت به من أعمال يوم أمس، منذ الصباح: إسمح لنا مثلاً أن نستفهم منك عن سبب غيابك عن المدينة، ومتى غادرتها ومتى عدت إليها. أسرد علينا كل هذه الحقائق.

فقال ميتيا ضاحكاً: «لقد كان أجدر بكما أن تطلبا مني ذلك منذ البداية، ولو وافقتم لبدأنا من صباح أمس الأول، لا من صباح يوم أمس، فتعلمون إذ ذاك كيف غادرت المدينة، وسبب مغادرتي إياها، والمكان الذي ذهبت إليه. لقد ذهبت أول من أمس أيها السادة إلى تاجر في المدينة يدعى سامسونوف كي أقترض منه مبلغ ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانة تطمئنه تماماً.

لقد كنت محتاجاً لهذا المبلغ بشكل ضاغط أيها السادة، ضاغط تماماً».

فقال المدعي العام متأدباً: «إسمح لي أن أقطع كلامك. ما سبب حاجتك الماسة لهذا المبلغ بالذات؛ لثلاثة آلاف روبل»؟.

- سادتي إن التفاصيل، كيف، ومتى، ولماذا، لا تعوزكم، لماذا هذا المبلغ من المال، وليس ذلك، وما إلى ذلك من لغو فارغ لا طائل فيه، لعلكم تحتاجون إلى ثلاثة مجلدات لملىء كل ذلك. وبعدها ستحتاجون إلى خاتمة!.

فاه ميتيا بهذه الكلمات وكان يبدو غير متكلف مع قليل من التململ، نافذ الصبر، رجلاً تواقاً إلى قول الصدق كله، ممتلىء النفس بأطيب النوايا. واستأنف فجأة كلامه: «أيها السادة! لا تضايقنكم خشونتي أرجوكم ثانية. صدقوني تارة أخرى، إنني أكن لكم أعظم الاحترام، وأفهم تماماً ظروف الحالة، لا تظنوا بأنني سكران. فأنا الآن صاح. وفضلاً عن ذلك، فالسكر لا يعوقني. فأنا ينطبق علي قول القائل: «إذا كان صاحياً، فهو غبي، وإذا كان سكراناً فهو رجل عاقل». غير أنني أدرك أيها السادة أنه لايليق بي أن أمازحكم، على الأقل قبل أن ننتهي من التوضيح وهناك كرامتي التي أحافظ عليها أيضاً. وأنا الآن مدرك للفرق بيننا في هذه اللحظة، فأنا، في النهاية، في موقف المجرم، ولذلك فأنا بعيد عن أن أكون على قدم المساواة معكم. ومن واجبكم أن تراقبوني، ولست أتوقع منكم أن تغدغدوا رأسي بعد الذي فعلته مع غريغوري، لأن الإنسان لا يستطيع أن يحطم رؤوس الشيوخ دون أن يلقى الجزاء على ذلك. وأظن أنكم ستطالبون بمعاقبتي بالسجن مدة ستة أشهر أو ربما عام كامل. لست أعلم مدى العقاب الذي ستوقعونه بي، غير أنه لن يفقدني حقوقي المدنية، لن يفقدني هذه الحقوق، أليس كذلك؟ إذن فها أنتم ترون أيها السادة، كيف أنني أفهم الفرق بيننا... ولكن يجب عليكم أن تعترفوا بأنكم تستطيعون أن تحيروا الله ذاته بمثل هذه الأسئلة: كيف خطوت؟ وأين ذهبت؟ ومتى ذهبت؟ وعلى أي شيء سرت؟ إني سأرتبك إذا سرتم على هذا النحو، وستتخذون كل ذلك حجة ضدي. ثم إلى أين سيقودنا ذلك؟ إنه لن يفضي بنا إلى أية نتيجة! وحتى لو كنت أتحدث الآن كلاماً غير صحيح

فدعوني أنهي أقوالي، ولما كنتم أيها السادة رجالاً تتمتعون بالشرف وحسن التهذيب فستصفحون عني! سأنهي كلامي بالطلب منكم أيها السادة أن تتجاوزوا هذا الأسلوب البالي المعهود في الاستجواب. وأعني أن تكفوا عن البدء بأسئلة تافهة: كيف استيقظت من نومك، وماذا تناولت في إفطارك، وكيف بصقت، وأين بصقت، وهكذا تصرفون انتباه المجرم، وفجأة تباغتونه وتحيرونه بسؤال يذهله من قتلت؟ ومن سرقت؟ إن هذا هو أسلوبكم المعتاد، وهذا هو مصدر كل دهائكم. فأنتم قادرون أن تذهلوا الفلاحين عن أنفسهم بهذه الطريقة أما أنا فلا. إنني أعرف حيلكم. لقد خدمت الحكومة مثلكم. لعلّي لا أثير غضبكم أيها السادة! بل تصفحون عن تهجمي»! ثم التفت إليهما وقال بلهجة مرحة تكاد تدعو إلى الدهشة: «إنني لست إلا ميتيا كرامازوف، كما تعلمون، وهكذا فإن بوسعكم أن تتجاوزوا عني. وأنتم قد لا تصفحون عما قلته لو نطق به رجل سليم الحس؛ ولكنكم تستطيعون أن تصفحوا عنه في ميتيا». وأطلق ضحكة مجلجلة.

وأصغى نيكولاي بارفينوفيتش وضحك أيضاً وأبقى المدعي العام نظره مثبتاً على ميتيا، فلم يضحك، وكأنه كان حريصاً على ألا يفوته سماع كلمة واحدة من كلامه، ورؤية أقل حركة من حركاته، أو أيّ تغير في قسمات وجهه.

كان نيكولاي بارفينوفيتش لا يزال مغرقاً في الضحك عندما قال: «كذلك كانت معاملتنا لك منذ البداية. فنحن لم نحاول أن نصرف انتباهك بسؤالك كيف استيقظت من نومك في الصباح، وماذا تناولت في إفطارك. ولقد بدأنا في الحقيقة بأسئلة على جانب عظيم من الأهمية».

- إنني أفهم ذلك. لقد لمسته وقدرته، وقدرت لكم أكثر من ذلك، لطفكم بي، وهو لطف نادر، جدير بقلوبكم النبيلة. إننا رجال مهذبون نتعامل مع الأمور على أساس الثقة المتبادلة بين الناس المتعلمين، ذوي الحسب، الذين يتساوون في النسب، والشرف. وعلى كل حال، دعوني أعتبركم كأعز أصدقائي في هذه اللحظة من حياتي، في هذه اللحظة التي أصبحت فيها كرامتي غرضاً للشك. إن هذه ليست إهانة لكم أيها السادة، أليس كذلك؟

فأجاب نيكولاي بارفينوفيتش بوقار واحترام: «بالعكس. لقد أحسنت التعبير يا ديمتري فيودوروفيتش».

وصاح ميتيا بحماسة: «كفانا هذه الأسئلة التافهة أيها السادة، أعني هذه الأسئلة التي تنصب الأفخاخ، وإلا فإننا لن نعرف إلى أين ينتهي بنا الأمر! أليس كذلك»؟

فقال المدعي العام مخاطباً ميتيا: «سأتبع نصيحتك الحكيمة بحذافيرها، ولكنني لن أسحب سؤالي، فهو على كل حال مهم جداً لنا أن نعرف تماماً لماذا كنت في حاجة إلى ذلك المبلغ، أعني ثلاثة آلاف روبل بالضبط».

ـ لماذا كنت في حاجة إليه؟... احتجته لسبب ما... لكي أسد ديناً.

ـ ولمن هذا الدين؟.

ـ إنني أرفض رفضاً باتاً الإجابة عن هذا السؤال أيها السادة، إنني حتماً أستطيع الإجابة عليه، وأجرؤ على ذلك، ولست أرفض طبعاً لأن الإجابة تضرني، إذ أن الأمر كله حقير تافه ولكنني لن أجيب عن هذا السؤال، لأنه يتعلق بمسألة تمس المبدأ: إن هذه المسألة تتعلق بشؤوني الخاصة، وأنا لن أسمح لأحد بأن يتدخل في شؤوني الخاصة. إن هذا هو مبدئي. إن سؤالك لا علاقة له بالقضية وكل ما ليس له صلة بالقضية، هو من شؤوني الشخصية. لقد أردت أن أسدد ديناً. وكنت أبغي أن أدفع دين شرف، ولكنني لن أقول لمن هذا الدين.

فقال المدعي العام: «إسمح لي أن أسجل هذا».

ـ بكل تأكيد. أكتب أنني لن أبوح بذلك، لن أبوح به. أكتب أنني أعتبر التحدث عن ذلك، مناقضاً للشرف. بوسعك أن تكتب ذلك؛ فهذا هو الأمر الوحيد المتوفر لك حتى الآن.

عندها قال المدعي العام بنبرة غريبة وحادة جازمة: «إسمح لي أن أنبهك يا سيدي، وأن أذكرك مرة أخرى؛ بما قد يكون فاتك معرفته، فلك ملء الحق في أن تمتنع عن الإجابة عن الأسئلة التي توجه لك الآن. أما بما يخصنا فليس لنا الحق في أن نرغمك إرغاماً على الإجابة. طالما ترفض ذلك لسبب من الأسباب. إن هذا الأمر رهن برأيك الشخصي. ولكن الواجب يحتم علينا

من جهة ثانية، في مثل هذه القضية، أن نشرح لك ونوضح مدى الأذى الذي تلحقه بنفسك، برفضك الإدلاء بإفادتك عن بعض الأمور. وبعد ذلك سأرجوك أن تستمر في كلامك».

فتمتم ميتيا، بلهجة مضطربة: «أيها السادة، إنني لست غاضباً... إنني... حسناً، أيها السادة. إن ذلك التاجر سامسونوف الذي ذهبت إليه آنذاك...».

أما بقية أقواله، فلن نعود بطبيعة الحال إلى إعادتها لأن القارىء يقف على حقيقتها. وقد كان ميتيا حريصاً أشد الحرص على أن يذكر التفاصيل الأكثر تفاهة، وفي نفس الوقت كان متسرعاً يبغي الفراغ من هذه القضية. ولكن أقواله كانت تدون عند إدلائه بها، ولذلك فقد كانوا يكثرون من توجيه الأسئلة إليه. وهذا ما كرهه ميتيا، ولكنه خضع لحكم الواقع، وقد غضب، ولو أنه ظل محافظاً على حسن بديهته. ولقد كان في الحقيقة يهتف قائلاً من وقت لآخر: «أيها السادة هذا كاف لأن يضع حداً لصبر الملائكة» أو، «أيها السادة إن إزعاجي لن يفيدكم».

بقي ميتيا مدة من الزمن محتفظاً بمرحه وتبسطه بالرغم من تذمره. وهكذا أنهى إليهم كيف أن سامسونوف عبث به واستطاع إظهار حماقته قبل يومين، (وكان قد أيقن تماماً أنه قد سخر منه). وكان الجديد في الأمر بالنسبة لرجلي القضاء، بيعه ساعته لقاء ستة روبلات لكي يحصل على المال اللازم لرحلته. وكان اهتمامهما به عظيماً، بل أنهما، مع استنكار ميتيا البالغ، رأيا ضرورة أن يدونا هذه الحقيقة كتوكيد ثانوي لذلك الظرف، وهو أن ميتيا كاد ألا يكون في جيبه درهم واحد في ذلك الوقت. وكانت أقوال ميتيا تزداد فظاظة بالتدريج. ثم إنه بعد أن وصف ما لقيه في رحلته لمواجهة لياغافي، والليلة التي قضاها في الكوخ الحقير، وما إلى ذلك، جاء على ذكر عودته إلى المدينة. وهنا عاد إلى سرد وصف دقيق لآلام الغيرة التي تحملها بسبب غروشينكا، بشكل طبيعي بدون أن يفرضه عليه أحد.

وكان رجال الأمن يصغون إلى أقواله باهتمام وقد خيم عليهم الصمت، وقد حرصوا على أن يكشف لهم عن سر وجوده في منزل ماريا كوندراتييفنا القائم خلف حديقة فيودور بافلوفيتش، حيث كان يجلس مختبئاً لمراقبة

غروشينكا، كما استفسروا منه عن تزويد سميردياكوف له بالأنباء. ولقد سجلوا ذلك تأكيداً لاهتمامهم الخاص به. ولقد تحدث ميتيا بحرارة وإسهاب عن غيرته، وكان واضحاً أنه قوي على خجله لكي ينطق بالحقيقة، متجاوزاً خجله الباطني من إعلان مشاعره الخاصة، إذا صح هذا القول، وجعلها عرضة للاستهجان من كافة الناس. وفي نهاية المطاف كان اضطرابه شديداً بسبب تلك الصرامة التي تجلت في محيّا المحقق، والتي زادت في وجه المدعي العام، وهما يحدقان فيه ببرودة أثناء سرده قصته.

وقال في نفسه مبتئساً: «إن ذلك الصبي نيكولاي بارفينوفيتش، الذي كنت أحادثه حديثاً تافهاً عن النساء قبل بضعة أيام، وذاك المدعي العام العليل كلاهما غير جدير بأن أقص عليه هذا الأمر. إنه شيء مخجل». وأنهى خاطرته بقوله: «صبراً، وسلم بالمقدر، وطب نفساً». ولكنه استجمع قواه لكي يمضي في سرد قصته. وعندما وصل إلى أمر زيارته للسيدة خولاكوف، استعاد مرحه بل وأحس برغبة في سرد طرفة عن السيدة التي لا علاقة لها بالقضية. غير أن المحقق أوقفه، وطلب منه بأدب أن ينتقل إلى «الأمور الأهم». وأخيراً عندما وصف لهم يأسه وذكر لهم ما خطر بباله أنه «كان ينوي أن يقتل أحداً» لدى مغادرته منزل السيدة خولاكوف ولم يحتج ميتيا على هذه الملاحظة وسمح بتدوينها. وأخيراً وصل إلى تلك النقطة من قصته التي علم فيها أن غروشينكا خدعته، إذ أخبرته أنها ستبقى في منزل سامسونوف حتى منتصف الليل، ولكنها عادت منه بمجرد أن غادره هو.

وعندما بلغ ميتيا في سرد قصته هذه النقطة صاح قائلاً: «أما إنني لم أقتل فينيا آنذاك أيها السادة، فلأني لم أكن أجد الوقت الكافي لذلك» وقد دونت هذه العبارة أيضاً بعناية. وأمسك ميتيا عن الكلام وهو مكفهر الوجه، ثم طفق يروي كيف أسرع في الدخول إلى حديقة والده، وعندها استوقفه المحقق فجأة، وفتح حافظة الأوراق الكبيرة التي كانت بجانبه عند الأريكة وأخرج منها المدقة النحاسية.

وعرض المدقة على ميتيا وخاطبه قائلاً: «هل يمكنك التعرف على هذا الشيء»؟.

فضحك مبتسماً وقال: «نعم، إنني أعرفها بطبيعة الحال. دعني أنظر إليها... وتباً لها، لا بأس»!.

وقال المحقق: «لقد نسيت أن تشير إليها».

- سحقاً لها؛ كان يجب ألاّ أخفي أمرها عنكم، هل تظنون بأنه كان في مقدوري أن أشير إليها؟ لقد غابت عن ذاكرتي.

- تفضل وقص علينا بدقة كيف تسلحت بها.

- طبعاً سأتفضل بذلك أيها السادة.

ثم وصف ميتيا كيف أخذ المدقة وخرج يعدو بها.

- ولكن ماذا كان قصدك من وراء تسليح نفسك بمثل هذا السلاح؟

- أي قصد؟ لم يكن لي من قصد. كل ما في الأمر هو أنني أخذتها وطفقت أعدو.

- وطالما لم يكن لك قصد. فلم فعلت ذلك؟.

وهنا استبد بميتيا الغضب، فحدج «الصبي» بنظرة حادة وابتسم ابتسامة يمتزج فيها الحقد والألم. وأخذ خجله يزداد لأنه قص على «مثل هؤلاء الناس» قصة غيرته بهذا الصدق والاندفاع الطوعي.

وقال فجأة: «إذن فأنت مهتم بأمر مدقة»؟.

- ومع ذلك...

- لقد أخذتها لكي أهش بها الكلاب، وقد احتطت لكل أمر يستجد، فالدنيا كانت مظلمة.

- ولكن هل من عادتك أن تتسلح عندما تخرج ليلاً؛ طالما أنك تخشى الظلام؟.

- سحقاً لذلك أيها السادة! ثم صاح ميتيا وقد استبد به الضيق وأصابه انزعاج لا مزيد عليه: إنني لن أتحدث إليكم البتة! والتفت إلى أمين السر وقد امتلأ وجهه بالدم لفرط غضبه، وقال له متسرعاً ورنة الغضب بادية في صوته:

«أكتب حالاً... حالاً... أنني اختطفت المدقة لكي أمضي وأقتل والدي... فيودور بافلوفيتش... بضربه بها على أم رأسه! - ثم نظر نظرة طويلة

برجلي القانون لا تخلو من التحدي وقال: «والآن هل أرضاكم هذا أيها السادة؟ هل ارتاحت نفوسكم إليه»؟.

فأجابه المدعي العام بلهجة جافة: «إننا ندرك تماماً أن سبب إدلائك بهذه الإفادة الآن إنما هو تبرمك منا وضيقك من الأسئلة التي نطرحها عليك، وهي الأسئلة التي تظنها تافهة، وإن كانت في الحقيقة على جانب عظيم من الأهمية».

- بشرفي أيها السادة! بلى لقد أخذت المدقة... لماذا يلتقط الإنسان الأشياء في مثل هذه اللحظات؟ إنني لا أدري لماذا. لقد التقطتها وانطلقت مسرعاً. هذا كل شيء. فإما أن تكفوا عن ذلك أيها السادة وإلا فأنا أعلن أنني لن أضيف على ما قلته لكم شيئاً.

ثم وضع مرفقيه على المنضدة وأسند رأسه بين يديه. ولوى لهم عِطفه وأخذ يحملق في الجدار، وهو يقاوم دواراً في رأسه. وقد كان في الحقيقة يشعر بميل رهيب لكي ينهض من مجلسه ويعلن أنه لن يقول كلمة واحدة، «حتى ولو وضعتم حبل المشنقة في عنقي».

وأخيراً قال بعسر وهو يكبح جماح نفسه: أترون أيها السادة، أترون، إنني أصغي إليكم، وأنا في حلم... إنه حلم يراودني في أكثر الأحايين وهو ذاته في كل مرة... أن إنساناً يتصيدني، إنساناً يخيفني حتى الموت... وأنه يتصيدني في الظلام، أثناء الليل... يقتفي أثري، وأنا أختبيء منه، خلف باب أو خزانة، أختبيء بشكل مخز معيب، وأسوأ من هذا، هو أنه دائماً يكتشف مكاني، ولكنه يتظاهر بعدم معرفة مكاني متقصداً، لكي يطيل عذابي، ويتلذذ بفزعي... إنكم تفعلون الآن الشيء ذاته.

فتساءل المدعي العام: «هل هذا هو الشيء الذي تحلم به»؟

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة: «نعم، إنه هو، أفلا تود أن تدونه»؟.

- كلا، لا حاجة بي إلى تدوينه. ولكن مع ذلك هل تحلم أحلاماً غريبة أخرى؟.

- إن القضية الآن ليست قضية أحلام أيها السادة - إنها الحقيقة، إنها

الحياة الحقيقية! فأنا الذئب وأنتم الصيادون فبادروا إلى صيدي!.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش بلهجة بالغة الرقة: «إنك مخطىء في هذه المقارنات...».

فاندفع ميتيا يقول: «كلا، لست مخطئاً، البتة»! وكانت سورة غضبه قد جلبت الراحة إلى قلبه. وكانت كل كلمة يقولها تزيد من مرحه. وأضاف: «ربما كنتم لا تثقون بمجرم أو برجل رهن المحاكمة تعذبونه بأسئلتكم، ولكن إذا كان رجلاً شريفاً، وإذا كانت دوافع القلب شريفة ـ وأنا أعلن هذا بجرأة ـ كلا! يجب عليكم أن تؤمنوا بأنه لا حق لكم في ذلك... ولكن...

اصمت أيها الفؤاد،

اصبر، وتواضع، واهدأ.

ثم أنهى كلامه كاسف البال: «حسناً، هل أمضي في أقوالي»؟.

فأجابه نيكولاي بارفينوفيتش: «إذا تفضلت».



المحنة الثالثة

كان واضحاً أن ميتيا، رغم نفوره في الكلام، كان يحاول الآن أكثر منه في أي وقت مضى ألا يغفل أو يسهو عن أي شيء من دقائق قصته. وقد قصَّ عليهم كيف أنه قفز عن الجدار ودخل حديقة والده، ومضى إلى النافذة وقصَّ عليهم أيضاً كل ما جرى له تحت النافذة. وكان دقيقاً في وصفه الواضح لتلك المشاعر التي أزعجته أثناء اللحظات التي أمضاها في الحديقة، وعندما كان يتوق إلى معرفة ما إذا كانت غروشينكا مع والده أم لا. ولكن ما يثير الاستغراب أن كلا رجلي القانون أخذا يصغيا إلى أقواله الآن بشيء من التحفظ الشديد، وبدت نظراتهما إليه فاترة وأضحت أسئلتهما قليلة. ولم يكن بإمكان ميتيا أن يستشف من ملامحهما معنى ما.

وقال في نفسه: «لقد استبد بهما الغضب وشعرا بالمهانة. إذن فلأمعن في إزعاجهما»!.

وعندما أخبرهما كيف استقر عزمه أخيراً على أن يقرع «العلامة» التي يفهم منها والده أن غروشينكا قد حضرت، فيفتح النافذة، لم يكترث المحققان بكلمة «العلامة»، كأنهما استحال عليهما إدراك معنى الكلمة في هذا المجال، وقد لفت انتباه ميتيا ما كانا عليه من تجاهل. ثم بلغ ميتيا في سرد قصته تلك اللحظة التي شاهد فيها والده يطل من النافذة حيث جاش صدره بالكراهية وأخرج المدقة من جيبه، وهنا توقف عن الكلام بغتة، كأنه فعل ذلك عامداً. وقد أخذ يحدق في جدار الغرفة وهو مدرك أن بصرهما كان مثبتاً فيه.

وقطع المحقق حبل الصمت قائلاً: «وماذا بعد؟ لقد أخرجت السلاح و... وماذا حدث عندئذٍ»؟.

ـ عندئذٍ... لقد قتلته... أليس هذا ما تظنه؟ ضربته على أم رأسه وهشمت جمجمته... أظن بأن هذه هي روايتكم، هذه هي!

وتألقت عيناه، وتأجج غضبه المكبوت بغتة واختلجت جوارحه بقوة. وقال نيكولاي بارفينوفيتش: «روايتنا؟ لا بأس، فما هي روايتك»؟.

وأطرق ميتيا وصمت فترة طويلة. ثم قال بصوت هادىء:

«روايتي أيها السيدان؟ إنها على النحو التالي: أنْ تكون دموع شخص ما قد شفعت لي، أم أن أمي ابتهلت إلى الله، أم أن ملكاً كريماً قبلني في تلك اللحظة، فقد ابتعدت عن النافذة عدواً واتجهت إلى جدار الحديقة، ورآني والدي في تلك الآونة لأول مرة، فصرخ وارتد عن النافذة. لقد كان فزعاً. أدركني غريغوري وأنا جالس فوق الجدار».

وعندما بلغ هذه النقطة من قصته، رفع عينيه وثبت بصره في جليسيه. وقد بدا له أنهما يحدقان فيه ويوليانه انتباهاً تاماً، وأحس ميتيا بأن سورة من الغضب تستبد به.

وصاح فجأة: «إنكما تسخران مني في هذه اللحظة، أيها السيدان»!.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش: «ما الذي يحملك على هذا الظن»؟.

ـ إنكما لا تصدقان كلمة واحدة مما أقوله لكما. ذلك هو السبب وأنا أعرف طبعاً أنني بلغت النقطة الجوهرية في شهادتي. فالرجل العجوز مطروح هناك على الأرض وقد تهشمت جمجمته. ومع ذلك فإنني ـ بعد أن سمعتم وصفاً مثيراً لنيتي على قتله، وكيف أنني اختطفت المدقة ـ ابتعدت بغتة عن النافذة. يا له من خيال! يا له من خيال شاعري! كأن باستطاعة المرء أن يصدق غيره إذا أقسم بشرفه! لقد جئتما لتسخرا مني، أيها السيدان!

واستدار في كرسيه فاهتزت وسمع صوت صريرها.

ثم سأله المدعي العام بغتة، وكأنه لم يلحظ هياج ميتيا: «وهل لفت انتباهك، هل لفت انتباهك وأنت تعدو مبتعداً عن النافذة، ما إذا كان باب المنزل المطل على الحديقة مفتوحاً»؟.

ـ كلا، لم يكن مفتوحاً.

ـ لم يكن مفتوحاً؟

ـ لقد كان مقفلاً. ومن كان يمكنه فتحه؟ مضحك أمر هذا الباب. رويدكم! وبدا عليه فجأة كأنه يستعيد شيئاً في ذاكرته، فقال وهو يكاد يجفل: «لماذا، هل وجدتم الباب مفتوحاً»؟.

ـ نعم، لقد كان الباب مفتوحاً.

وصاح ميتيا مندهشاً: إذا لم تفتحوه أنتم، فمن يكون الذي فتحه؟

ـ لقد وجدناه مفتوحاً، ولا ريب في أن قاتل والدك قد دخل المنزل من هذا الباب، وبعد أن أتم جريمته، خرج من الباب ذاته. وقد تعمد المدعي العام قول هذه الكلمات وهو يخرج كل كلمة منها على حدة. وتابع كلامه قائلاً: «إن هذا جلي واضح تمام الوضوح. لقد ارتكبت جريمة القتل في داخل الغرفة، لا من النافذة؛ لقد أكد التحقيق الذي أجريناه ثبوت ذلك بصورة جازمة كما أكده وضع الجثة، والقرائن كلها تدل على إثباته. إن هذا أمر لا يرقى إليه الشك».

لقد صعق ميتيا وجلس في مكانه واجماً.

ثم صاح وقد غلب على أمره: «ولكن هذا مستحيل قطعاً! إنني... لم أدخل الغرفة... أقول لكم بكل تأكيد وكل وضوح أن الباب كان مقفلاً طيلة الفترة التي قضيتها في الحديقة، ولدى هربي من الحديقة أيضاً. إن ما فعلته هو أنني وقفت قرب النافذة وراقبته منها. إنني لم أفعل شيئاً سوى ذلك. لم أفعل شيئاً سوى ذلك... وأنا أذكر كل شيء حتى اللحظة الأخيرة. ولنفترض أنني لا أذكر، فهذا لا يبدل شيئاً من الحقيقة، فأنا أعلم أنه لم يطلع على سر العلامات أحد غيري أنا وسميردياكوف والرجل الميت. لا يمكن أن يكون قد فتح الباب لأي إنسان بدون أن يسمع العلامات».

فسأله النائب العام: «علامات؟ أية علامات؟» وقد استبد به فضول غريب بل نهم لمعرفة معنى هذه العلامات، وزالت عن وجهه للتو جميع آثار التحفظ والوقار. وقد ألقى سؤاله مبدياً شيئاً من الاستحياء المشابه للخضوع. لقد اشتم رائحة حقيقة هامة كان يجهلها جهلاً تاماً، وتقلصت أعصابه خوفاً من أن يمتنع ميتيا عن كشف سرها.

وقال ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ساخرة لا تخلو من حقد: «إذن فقد كنتم جاهلين لها! وماذا يكون من أمركم إذا لم أكشف لكم عنها. وأنى لكم في تلك الحالة أن تدركوا سرها؟ لأنه ما من أحد يعرف سر العلامات سواي أنا وسميردياكوف ووالدي، ولا أحد سوانا. إن السماء تعرفه أيضاً ولكنها لن تبوح به لكم. إلا أنها حقيقة مثيرة للاهتمام. ولا يعلم إلا الله ما الذي ستبنونه عليها». وضحك ميتيا ثم تابع كلامه: «لا بأس أيها السيدان، سأكشف سرها لكما. إنكما تضمران فكرة سخيفة، لأنكما لا تعرفان الرجل الذي تحققان معه! إن أمامكما متهماً يقدم أدلة ضد نفسه تقوده إلى الهلاك. نعم، فأنا رجل شريف أما أنتما فلا».

واحتمل المدعي العام الإهانة بدون تذمر. إنه كان يرتجف لفرط نفاد صبره واشتياقه إلى سماع الحقيقة الجديدة. وقد أفضى ميتيا لهما بكل ما يتعلق بالعلامات التي ابتكرها فيودور بافلوفيتش لسميردياكوف، وأفاض في وصف دقائقها. وقد كشف لهما بدقة عن معنى كل قرعة على النافذة، دالاً على طريقتها بتمثيلها على المنضدة. وقد أعرب نيكولاي بارفينوفيتش عن اعتقاده بأن ميتيا عندما نقر النافذة لاستدراج والده، كان يقرع العلامة التي تعني أن «غروشينكا حضرت» وأجاب ميتيا بأن ذلك هو ما قام به فعلاً.

وصاح ميتيا قائلاً: «والآن أصبح بوسعكما بناء برجكما» ثم أشاح بوجهه عنهما مظهراً الازدراء لهما.

وتابع نيكولاي بارفينوفيتش استجوابه فقال: «إذن فلم يكن أحد يعرف سر العلامات سوى والدك الميت وأنت والخادم سميردياكوف؟ ولا أحد سواكم»؟

ـ أجل، الخادم سميردياكوف، والسماء. دوّن إشارتي إلى السماء، فقد تكون مفيدة لكما، وفضلاً عن ذلك فإنكما ستحتاجان إلى الله.

وكانا بطبيعة الحال قد شرعا بتدوين إشارته إلى السماء، ولكن المدعي العام أمسك فجأة عن الكتابة، كأن فكرة جديدة قد خطرت بباله، وقال:

إذا كان سميردياكوف أيضاً عالماً بأمر هذه العلامات وما دمت أنت تنكر إنكاراً قاطعاً مسؤولية قتل أبيك، أليس من المحتمل أن يكون هو الذي

قرع العلامة المتفق عليها واستدرج والدك ليفتح الباب، ثم... قتله؟ التفت ميتيا إليه، ورمقه بنظرة مفعمة بالسخرية والكره الشديد، وظل يحدق فيه مدة طويلة حتى أن المدعي العام أسقط في يده.

وقطع ميتيا حبل الصمت قائلاً: «نلت من الثعلب مرة ثانية، وحاصرته تماماً. ها، ها! لقد نفذت إلى دخيلة نفسك يا سيدي المدعي العام. لقد ظننتني بطبيعة الحال أنني سأغتنم هذه السانحة، وأتشبث برأيك الحازم، وأهتف بأعلى صوتي: «أجل، إنه سميردياكوف؛ إنه هو القاتل». إعترف بأن هذا هو ما ظننته. إعترف وسأتابع شهادتي.

ولكن المدعي العام لم يعترف، بل أمسك عن الكلام وجلس ينتظر.

فقال ميتيا: «إنك مخطئ، لأنني لن أهتف: إنه سميردياكوف».

ـ ألا تشتبه به؟.

ـ ولماذا تشتبهون به؟

ـ إن الشبهات تحوم حوله أيضاً.

وأطرق ميتيا وجعل بصره في الأرض. ثم قال وقد تجهم وجهه: «كفًا عن المزاح الآن، واسمعاني جيداً. إن فكرة مسؤولية سميردياكوف لم تفارق فكري منذ البداية، منذ تلك اللحظة التي خرجت فيها من خلف الستارة لمقابلتكم. وكنت أثناء جلوسي هنا أهتف بأنني بريء وأردد في نفسي «إنه سميردياكوف» ولم أستطع أن أطرد فكرة سميردياكوف من فكري. وفي الحقيقة لقد جالت بذهني أنا أيضاً فكرة سميردياكوف الآن، ولكن هذه الفكرة لم تستمر أكثر من ثانية واحدة، وسرعان ما قلت في نفسي: «كلا، إنه ليس سميردياكوف» إنها ليست فعلته، أيها السيدان.

فسأله نيكولاي بارفينوفيتش مراعياً جانب الحذر: «في هذه الحالة، ألا تشتبه بأي إنسان آخر؟».

فقال ميتيا جازماً: لا أعرف أحداً يمكنه الإقدام على هذه الجريمة. ولكن ليس سميردياكوف سواء أكانت من عمل السماء أم من عمل الشيطان.

ـ ما الذي يحملك على أن تؤكد جازماً أنه لم يقدم على الجريمة؟.

- إنه اعتقادي، الفكرة التي أحملها عنه. لأن سميردياكوف رجل يتصف بأحط الصفات فضلاً عن أنه جبان أيضاً. إنه ليس جباناً فحسب، بل إن جبن العالم كله يتجسد فيه. وهو يحمل بين جنبيه قلباً خائراً، وكان إذا ما كلمني ارتعد فرقاً لئلا أقتله مع أنني لم أحاول قط أن أضربه، ولقد خر على قدمي مولولاً وقبّل حذائي هذا، وتوسل إليَّ ألا أخيفه. هل تسمعاني؟ ألاّ أخيفه، أي قول هذا! وأبلغ من هذا أنني عرضت له نقوداً. إنه إنسان ضعيف، عليل الجسم، مصاب بالصرع، سقيم العقل، حتى أن ولداً في الثامنة من عمره يستطيع أن يجلده وليس فيه صفة واحدة تستحق الحديث عنها. كلا إنه ليس سميردياكوف، أيها السيدان. إنه لا يعبأ بالمال؛ فهو كان يرفض الهدايا مني. وفضلاً عن ذلك فما هو الدافع الذي يغريه بقتل الرجل العجوز؟ إنه قد يكون ابنه، كما تعلمان، ابنه الطبيعي. هل تعرفان ذلك؟.

- لقد سمعنا هذه الإشاعة. ولكنك أنت أيضاً ابن أبيك، كما تعلم، ومع ذلك فقد أعلنت على الملأ أنك تنوي قتله.

- هذا تعريض بي! وإنه لتعريض قذر حقير! أنا لست خائفاً أيها السيدان، أليس قولكما هذا أمامي حقيراً؟ إنها حقارة، لأنني أنا الذي قلته لكم بنفسي. وأنا لم أكن أنوي قتله فحسب، بل كان محتملاً أن أقتله. وأبلغ من هذا أنني أنبأتكم بمحض اختياري أنني كنت على وشك أن أقتله. ولكنني كما ترون، لم أقتله. لقد أنقذني ملكي الحارس. وهذا ما لم يكن في حسبانكم. ولهذا أقول أنكما وضيعان. لأنني لم أقتله، لم أقتله! هل تسمعاني، إنني لم أقتله.

وغص ميتيا بريقه. فهو لم ينفعل مثل هذا الانفعال منذ بدء استجوابه وقد صمت قليلاً ثم قال فجأة:

«وماذا قال لكما أيها السيدان، أعني سميردياكوف، هل باستطاعتي أن أسألكما هذا السؤال»؟.

فأجابه المدعي العام بلهجة جافة صارمة: «إسأل ما بدا لك من الأسئلة التي تمت بصلة إلى حقائق القضية، وأكرر أننا ملزمان بالإجابة على جميع أسئلتك. فقد وجدنا الخادم سميردياكوف، الذي تستوضح عنه، مستلقياً على

الفراش فاقد الوعي، إثر إصابته بنوبة عنيفة من الصرع، عاودته عشر مرات على ما نعتقد. وكان يرافقنا طبيب ففحصه وأعلمنا أنه قد لا يعيش حتى صباح الغد».

ـ ما دام الأمر كذلك، فليس إذا غير الشيطان قد قتله.

وقد أفلتت هذه العبارة من شفتي ميتيا فجأة، وكأنه كان حتى تلك اللحظة يتساءل في نفسه: «هل كان سميردياكوف هو القاتل أم لا»؟.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش: «سنعود إلى هذه القضية فيما بعد. أما الآن ألا تريد استئناف شهادتك»؟.

وقد طلب ميتيا أن يرتاح قليلاً، فاستجيب لطلبه بلباقة. وبعد أن نال قسطاً من الراحة تابع سرد قصته. ولكنه كان مكتئباً، خائر القوى، كسير النفس، مشتت الحواس. ومما زاد الأمور سوءاً أن المدعي العام استنفد صبره، بأسئلة تبعث على الضيق حول «نقاط تافهة»، وكأنه كان يفعل ذلك عامداً، وراح ميتيا يصف كيف أنه، وهو جالس على الجدار، ضرب غريغوري على رأسه بالمدقة، بينما كان غريغوري قابضاً على ساقه، وكيف أنه قفز بعدئذٍ لكي يتفقده، إذ بالمدعي العام يستوقفه ويطلب إليه أن يصف وصفاً دقيقاً جلسته فوق الجدار، ودهش ميتيا لهذا الطلب.

ـ لقد كنت أجلس هكذا، فإحدى ساقي كانت في جهة من الجدار والأخرى في الجهة الثانية.

ـ والمدقة؟.

ـ لقد كانت في يدي.

ـ ألم تكن في جيبك؟ أتذكر هذا على وجه الدقة؟ هل وجهت له ضربة قوية؟.

ـ لا بد وأنها ضربة عنيفة. ولكن لم تسأل هذا السؤال؟.

ـ هل تتفضل بالجلوس على الكرسي كما كنت تجلس على الجدار، وأن توضح لنا كيف حركت ذراعك وبأي اتجاه؟.

فنظر ميتيا إلى محدثه نظرة استعلاء وسأله قائلاً: إنك تسخر مني أليس

كذلك؟. ولم يبد محدثه أي ردّ فعل.

ودار ميتيا ثم امتطى الكرسي وحرك ذراعه، وقال: «لقد ضربته هكذا! فماذا تريدون أكثر من هذا»؟.

ـ شكراً. هل لي أن أزعجك وأطلب إيضاح سبب قفزك، وماذا كانت غايتك، وماذا كنت تريد؟.

ـ سحقاً لذلك!... لقد قفزت لكي ألقي نظرة على الرجل الذي آذيته... ولست أدري سبب ذلك!.

ـ وذلك برغم اضطرابك الهائل وإسراعك في العدو؟

ـ نعم مع اضطرابي الهائل وعدوي السريع.

ـ أكنت تود مساعدته؟.

ـ مساعدته!... نعم لعلّي كنت أريد مساعدته... لم أعد أذكر.

ـ ألا تذكر؟ إذن فأنت لم تكن تعرف تماماً ماذا كنت تفعل!.

ـ ليس ذاك أبداً. فأنا أذكر كل شيء، وجميع التفاصيل. لقد هبطت عن الجدار لكي أنظر إليه. وقد مسحت وجهه بمنديلي.

ـ لقد شاهدنا منديلك. هل كنت تأمل في أن تعيد إليه وعيه؟.

ـ لست أعلم ماذا كنت آمل من وراء ذلك. لقد كنت أريد أن أتأكد من أنه كان حياً أم ميتاً.

ـ آه، لقد كنت تريد أن تتأكد؟ حسناً، ثم ماذا؟.

ـ لست طبيباً. ولم أستطع أن أتحقق من ذلك. فعدوت مبتعداً وأنا أظن أنني قتلته، وهو الآن قد استعاد وعيه.

فعلق المدعي العام على ذلك بقوله: «إن هذا حسن للغاية. شكراً لك. إن هذا كل ما كنت أريده. تفضل بالاستمرار في أقوالك».

وللأسف، لم يخطر ببال ميتيا أن ينبئهما بأنه عاد فقفز بدافع من رأفته رغم أنه كان يذكر ذلك، وبأنه نطق ببعض كلمات الأسف، وهو واقف فوق الرجل المطروح أرضاً، قائلاً يخاطبه: «لقد جنيت على نفسك، أيها العجوز، فيجب أن ترقد هنا»!.

وقد توصل المدعي العام إلى نتيجة واحدة فقط: وهي أن ميتيا قفز عائداً «في مثل تلك اللحظة، وفي مثل ذلك الاضطراب لكي يطمئن إلى أن الشاهد الوحيد على جريمته قد مات، ولذلك فلا بد من أن يكون رجلاً يتمتع بقوة هائلة وهدوء أعصاب، وحكمة، وبعد نظر، في مثل تلك اللحظة»... وما إلى ذلك. وقد أقنع المدعي العام نفسه بقوله: «لقد أثرت على ذلك الرجل العصبي بالتوافه من الأمور حتى نطق بأكثر مما كان يود النطق به».

ومضى ميتيا في سرد قصته وهو يبذل جهداً مضنياً، لكن هذه المرة كان نيكولاي بارفينوفيتش يدير دفة الحديث.

ـ كيف خطر لك أن تعدو إلى الخادمة فيدوسيا ماركوفنا ويداك ملطختان بالدم، ووجهك أيضاً، كما يبدو؟.

فأجاب ميتيا قائلاً: «إنني لم ألاحظ وجود الدم البتة في ذلك الوقت».

وتبادل المدعي العام النظرات مع نيكولاي بارفينوفيتش ثم قال: «هذا أمر محتمل. وهو يحدث في بعض الأحيان».

فأمن ميتيا على أقواله: «إنني لم ألاحظ ذلك. وأنت محق فيما تقوله يا حضرة المدعي العام».

ثم تطرق إلى ذكر عزمه المفاجىء على «التنحي عن الطريق» وإفساح المجال لسعادتهما ولكنه لم يجد نفسه مندفعاً إلى أن يفتح قلبه لهما كما فتحه من قبل، وينبئهما بأمر «ملكة روحه». وقد كره أن يأتي على ذكرها أمام ذوي الشعور الفاتر «الذين يطبقون عليه كالحشرات المؤذية». وهكذا فقد أخذ يجيب على أسئلتهما باقتضاب وتسرع:

ـ حسناً، لقد قررت أن أقتل نفسي، فهل بقي لي ما يغريني من الحياة. لقد جوبهت بهذا السؤال مجابهة. فها هو حبيبها الأول وصاحب الحق قد عاد إليها، ذلك الرجل الذي خدعها وغرر بها ولكنه عاد إليها مسرعاً بعد مضي خمس سنوات لكي يبذل لها حبه، ويكفر عن إساءته إليها بالزواج منها... وهكذا فقد أدركت أن كل شيء كان قد انقضى... ومن ورائي العار وذلك الدم، دم غريغوري... فما الذي يجعلني أتعلق بالحياة؟ ولذلك فقد ذهبت كي أفك رهن مسدسي وأعبئهما وأطلق فجر الغد رصاصة في دماغي.

ـ وتقيم مأدبة عامرة في الليلة التي تسبق ذلك؟.

ـ نعم مأدبة عامرة في الليلة السابقة. تباً لكل هذا أيها السادة! ألا فاسرعوا وانهوا هذه القضية. لقد كنت أنوي أن أطلق النار على نفسي في مكان غير بعيد عن هنا، في مكان يقع وراء القرية. وقد عزمت على أن يكون ذلك في الساعة الخامسة من صباح الغد. وأنا أحمل في جيبي ورقة دونت فيها هذا الأمر. لقد كتبتها في منزل بيرخوتين حيث عبأت مسدسي. ها هي الرسالة. وأضاف بازدراء: «اقرأها! إنها ليست لك». وأخرج الرسالة من جيب صداره ورماها على المنضدة، وقد قرأها رجلا القانون بفضول واهتمام وضماها كما هي العادة إلى ملف القضية.

ـ وكيف لم يخطر ببالك أن تغسل يديك في منزل بيرخوتين؟ أما حسبت أن الشبهات ستثار حولك؟.

ـ أية شبهات؟ سواء أكانت هنالك شبهات أم لا، فقد كان ينبغي لي أن أسرع إلى هذا المكان على كل حال، وأن أطلق النار على نفسي في الساعة الخامسة، ولولا ذلك الذي حصل لوالدي لما كان لديكم الوقت للمجيء وفعل أي شيء، لأنكم ما كنتم لتعلموا شيئاً عن هذا الأمر، ولما جئتم. أواه، إن ذلك من عمل الشيطان. إن الشيطان هو الذي اغتال أبي. والشيطان هو الذي هداكم إلى الحادث بمثل هذه السرعة. فكيف استطعتم الوصول إلي بهذه السرعة؟ إنه شيء عجيب، إنه حلم من الأحلام.

ـ لقد أبلغنا السيد بيرخوتين أنك حين جئته كنت تحمل في يديك... يديك الملطختين بالدم... نقودك... مبلغاً كبيراً من المال... رزمة من الأوراق النقدية من فئة المائة روبل، وأن خادمه قد رآها أيضاً.

ـ إن هذا صحيح أيها السادة. لقد كان الأمر كذلك كما أذكر.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش بلطف بالغ: «والآن، ثمة نقطة صغيرة تبرز الآن، هل تستطيع أن تذكر لنا كيف حصلت على مثل هذا المبلغ الكبير فجأة، في حين أنك لم تذهب إلى منزلك كما ثبتت الحقائق وقياس الوقت.

وقطب المدعي العام جبينه لأن هذا السؤال طرح على ميتيا مباشرة، ولكنه لم يقاطع نيكولاي بارفينوفيتش.

فأجاب ميتيا قائلاً: «كلا، إنني لم أذهب إلى المنزل». وكان ما يزال مطرقاً وهو يتمالك أعصابه.

وعاد نيكولاي بارفينوفيتش إلى الكلام بطريقة ناعمة: «إذن فاسمح لي أن أعيد سؤالي، كيف استطعت الحصول على مثل هذا المبلغ فجأة، في حين أنك اعترفت بأنك في الساعة الخامسة من ذلك اليوم...».

فقاطعه ميتيا بحدة: «كنت في حاجة إلى عشرة روبلات ورهنت مسدسي لدى بيرخوتين، ثم ذهبت إلى السيدة خولاكوف لكي أقترض منها مبلغ ثلاثة آلاف روبل ولكنها رفضت إعطائي هذا المبلغ، وهكذا، إلى آخر ما هنالك من أقوال. نعم أيها السيدان لقد كنت في حاجة إلى عشرة روبلات، وفجأة امتلأت يدي بالآلاف أليس هذا ما تسألان عنه؟ هل تعلمان أيها السيدان أنكما الآن خائفان وتتساءلان في سركما قائلين: «وماذا يكون من أمرنا لو بقي متمنّعاً عن إطلاعنا على مصدر هذا المال؟» إن هذا هو واقع الحال. لقد جاء ظني في محله، أيها السيدان، فلن أطلعكما عليه، ولن تعلما شيئاً». وقد كان ميتيا يخرّج كلماته مشدداً عليها حتى بدا صادقاً في قصده منها. وصمت رجلا القانون برهة.

ثم قال نيكولاي بارفينوفيتش بلهجة رقيقة مهذبة: يجب أن تدرك أيها السيد كرامازوف أن إطلاعنا على هذا الأمر في غاية الأهمية.

- إنني مدرك لذلك ومع هذا فلن أطلعكما عليه.

وتدخل المدعي العام في الحديث فذكر المحقق بأن للسجين ملء الحق في أن يرفض الإجابة على ما يلقى عليه من أسئلة ما دام يعتبر ذلك في مصلحته وما إلى ذلك من أقوال. ولكن بالنظر إلى ما قد يلحقه بنفسه من ضرر بسبب صمته وخاصة في قضية لها مثل هذه الأهمية...».

وهنا عاد ميتيا إلى مقاطعته قائلاً: «إلى آخر ما هنالك من أقوال أيها السادة، إلى آخر ما هنالك من أقوال. كفى لقد أصغيت إلى هذه السخافات قبل الآن. وأنا أستطيع أن أقدر بنفسي مدى أهمية هذه القضية وهنا بيت القصيد فيها. ورغم هذا فلن أقول شيئاً».

فقال نيكولاي بارفينوفيتش مضطرباً: «وما شأننا في ذلك؟ إن ذلك

عائد إليك وليس لنا، فأنت تؤذي نفسك بذلك».

فرفع ميتيا عينيه وحدق فيهما تحديقاً ثابتاً ثم قال: أيها السيدان، لنكن جدِّيين؛ لقد كنت أشعر منذ البداية بأننا سنصطدم عند هذه النقطة، ولكنني في بدء الأمر عندما شرعت بإفادتي كان هذا الشعور غامضاً بعيداً، ولقد كنت سليم الطوية عندما اقترحت في أول إفادتي بأن تكون هناك ثقة متبادلة بيننا. غير أنني أدرك أن مثل هذه الثقة معدومة لأنه كان مقدراً لنا على كل حال أن نصطدم بهذه العقبة الكأداء. وها قد اصطدمنا بها! إن هذا مستحيل! ولا نهاية له! ولكنني لا ألومكما. فأنتما تستطيعان أن تؤمنا بكل ما أقوله لكما، معتمدين على صدق أقوالي، وأنا متفهم للأمر طبعاً.

ثم سكت وظهرت على وجهه أمارات الابتئاس.

ـ إن كنت لا تتنازل عن إصرارك على الصمت وعدم إيضاح هذه النقطة الهامة، أفلا تستطيع في نفس الوقت أن تلمح لنا ولو من بعيد عن طبيعة الدوافع التي هي من القوة بالمقدار الذي يقنعك برفض الإجابة على سؤال في أزمة كهذه الأزمة مليئة بالمخاطر بالنسبة لك؟.

فابتسم ميتيا ابتسامة حزينة وشرد نظره، ثم قال: «إنني أسلم طوية مما تظنان أيها السيدان، سأقول لكما السبب، وألمح لكما ولو أنكما لا تستحقان ذلك. لن أتكلم لأن ذلك سيكون وصمة تلطخ شرفي. والجواب على السؤال الخاص بالمصدر الذي تلقيت منه المال سيعرضني لعار يفوق عار قتل والدي وسرقة ماله. هذا إذا كنت أنا قاتله وسارقه. إن هذا هو الذي يجعلني أخفيه عنكما إنني لا أستطيع ذلك خشية العار. ماذا أيها السيدان، هل تنويان تدوين هذا القول»؟.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش: «نعم سندونه».

ـ يجب أن لا تدونوا قولي عن «العار» فإني قلت ما قلت بدافع من سلامة طويتي وما كانت بي حاجة لذلك. لقد كانت أقوالي بمثابة هدية فانتهزتم الفرصة سريعاً. آه، حسناً دونوا، دونوا ما تشاؤون. وختم أقواله مظهراً الازدراء والاشمئزاز: «لست خائفاً منكم، ما زلت قادراً على مواجهتكم مرفوع الرأس».

فعاد نيكولاي بارفينوفيتش إلى التساؤل: «ألا تستطيع أن تكشف لنا طبيعة هذا العار»؟.

وقطب المدعي العام جبينه.

ـ كلا، كلا، كفاكم، لا تزعجوا أنفسكم. فلا خير في تدنيس الإنسان سمعته. لقد دنست نفسي بسببكم بما فيه الكفاية. وأنتم لا تستحقون ذلك، ولا أحد يستحقه. كفاكم أيها السادة! لن أقول، لن أقول أكثر مما قلت.

وقد نطق بهذه الأقوال بلهجة قاطعة، حتى أن نيكولاي بارفينوفيتش لم يلح عليه في السؤال، لكنه وجد في نظرة إيبوليت كيريلوفيتش بقية من أمل.

ـ ألا تستطيع أن تقول لنا على الأقل كم كان معك عندما دخلت إلى منزل السيد بيرخوتين. كم روبلاً بالضبط؟.

ـ لا أستطيع أن أقول لكم ذلك.

ـ لقد تحدثت مع السيد بيرخوتين، كما أعتقد، عن ثلاثة آلاف روبل. قلت أن السيدة خولاكوف أعطتك إياها.

ـ ربما تحدثت معه في ذلك. كفاكم أيها السادة، لن أضيف كلمة واحدة.

ـ هل يمكنك أن تذكر كيف جئت إلى هذا المكان وما هي الأعمال التي قمت بها منذ وصولك؟.

ـ إن بوسعكم أن تسألوا أهل هذا المكان عن ذلك.

ثم طفق يروي ما كان من أمره، ولكننا لن نعود إلى ذكر قصته. وكان أثناء حديثه يبدي الجفاء ويتعمد السرد المختصر. ولم يتطرق إلى ذكر ثورات عاطفته ولكنه قال أنه عدل عن قرار الانتحار بسبب عوامل جديدة في القضية. وقد أنهى قصته بدون أن يأتي على ذكر الدوافع أو التفصيلات. ولم يثقل عليه رجلا القانون كثيراً هذه المرة. فهما لم يجدا في هذه النقطة ما يهمهما من جوهر القضية.

وأخيراً قال نيكولاي بارفينوفيتش: «سنتحقق فيما بعد من كل هذا وسنعود إليه أثناء استجواب الشهود، الذي سيجري بحضورك حتماً، والآن

اسمح لي أن أطلب منك إلقاء كل ما في حوزتك من أشياء على المنضدة وخاصة النقود التي لا تزال معك».

ـ نقودي أيها السادة؟ طبعاً. إنني مدرك ضرورة ذلك. وأنا مندهش جداً لأنكما حتى الآن لم تستوضحا مني عن أمرهما. وصحيح أنني لا أستطيع مغادرة هذا المكان والذهاب إلى غيره. إنني باق هنا حيث تمكن رؤيتي. ولكن ها هي نقودي، عدّوها، خذوها. أظن أن هذا هو كل ما في حوزتي.

ثم إنه أخرج النقود من جيوبه، حتى أقلها قيمة، ومنها قطعتان من فئة العشرين قبقاً، أخرجهما من جيب صداره، فعدًا النقود التي بلغت قيمتها ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين قبقاً.

وتساءل المحقق قائلاً: «أهذا كل شيء»؟.

ـ نعم.

ـ لقد قلت في إفادتك لتوك إنك انفقت مبلغ ثلاثمائة روبل في حانوت بلوتنيكوف. وأعطيت بيرخوتين عشرة روبلات، وسائق عربتك عشرين روبلاً، وهذا يعني أنك فقدت مائتي روبل إذن.

وأحصاها نيكولاي بارفينوفيتش كلها، وساعده ميتيا بإقبال، وأخذا يذكران كل فلس من النقود المصروفة ويضيفانه إلى الحساب. ثم أعلن نيكولاي بارفينوفيتش حاصل الجمع بسرعة.

ـ لا بد وأنه كان معك في أول الأمر حوالي ألف وخمسمائة روبل من ضمنها هذه الثمانمائة روبل.

فقال ميتيا: أظن ذلك.

ـ وكيف يؤكد الجميع أنه كان بحوزتك أكثر من هذا المبلغ بكثير؟.

ـ ليؤكدوا بقدر ما يريدون.

ـ ولكنك أكدت ذلك بنفسك.

ـ نعم لقد فعلت هذا أيضاً.

ـ سنقارن كل هذا مع إفادات الشهود الذين لم يتم استجوابهم بعد. ولا تخش على نقودك ستكون في مأمن وستعاد إليك بعد انتهاء..

التحقيق... إذا تبين أو على الأصح، إذا ثبت أنها لك بلا شك. حسناً أما الآن...

وفجأة نهض نيكولاي بارفينوفيتش من مجلسه وأبلغ ميتيا بلهجة قاطعة أن من واجبه أن يجري تفتيشاً دقيقاً شاملاً في «ملابسه وكل شيء آخر...».

- بكل تأكيد أيها السادة، فسأقلب لكم جميع جيوبي إذا أردتم ذلك.

وبالفعل شرع يقلب جيوبه.

- سيكون من الضروري أن تخلع ثيابك أيضاً.

- ماذا! أخلع ثيابي! سحقاً لذلك! ألا تفتشوني كما أنا؟ ألا تستطيع ذلك؟.

- بل لا بد من ذلك يا ديمتري فيودوروفيتش؛ يجب أن تخلع جميع ثيابك.

فقال ميتيا مبتئساً وقد ظهر عليه الخضوع: كما تشاؤون، ولكن أرجوكم أن لا يكون ذلك هنا بل خلف الستائر، من سيقوم بتفتيشها؟.

- سيكون التفتيش خلف الستائر طبعاً.

فهز نيكولاي بارفينوفيتش رأسه موافقاً، وقد اجتاحت وجهه الصغير موجة وقار عظيم.





المدعي العام يوقع بميتيا

إن ما عقب ذلك لم يخطر ببال ميتيا أبداً، وقد صعقه لغرابته. فهو لم يكن يعتقد أبداً، وقبل دقيقة خلت، أن إنساناً ما يستطيع أن يعامله مثل هذه المعاملة، وهو ذلك الفتى، ميتيا كرامازوف. لقد أصابه الذل من خلال هذه المعاملة، وكان رجال الأمن ينظرون إليه «باستعلاء وازدراء» ولم يكن الأمر متوقفاً على معطفه فقط بل طلب إليه أن يخلع المزيد من ثيابه، أو بالأحرى «أمر» بذلك أمراً، ولقد فهم ذلك وأيقن به. وقد أبدى الخضوع ولم يتذمر بدافع من كبريائه وازدرائه لهم. وكان بضعة فلاحين قد بقوا مع رجال القانون، وقال ميتيا في نفسه: «إنهم بقوا معهم لكي يكونوا على استعداد إذا اقتضى الأمر، لاستعمال القوة، أو ربما لبعض الأسباب الأخرى أيضاً».

وتساءل ميتيا محتداً: «هل يجب علي أن أخلع قميصي أيضاً»؟ ولم يكترث نيكولاي بارفينوفيتش للإجابة، فقد كان منهمكاً مع المدعي العام في تفتيش المعطف، والسروال والصدار والقبعة، وكان واضحاً اهتمامهما البالغ بهذا الإجراء.

وقال ميتيا في سره: «إنهم ماضون في التفتيش بلا تردد، ولا يراعون أقل مقتضيات الأدب...».

وعاد ميتيا إلى التساؤل وقد ازدادت حدته واشتد حنقه: «إنني أسألكم للمرة الثانية، ضروري أن أخلع قميصي أيضاً»؟.

فأجاب نيكولاي بارفينوفيتش، وقد بدت في صوته رنة الأمر الصارم، أو هكذا خيل ميتيا: «لا تقلق سنطلب منك ذلك عندما يقتضي الأمر».

وفي هذه الأثناء كان رجلا القانون منهمكين في الحديث بصوت

منخفض، فقد وجدا على المعطف، وخاصة على الجانب الأيسر من ظهره، بقعة كبيرة من الدم الجاف المتقبض. وبقعة أخرى على السروال أيضاً. وفضلاً عن ذلك فقد كان نيكولاي بارفينوفيتش بحضور الشهود من الفلاحين يمرّر أصبعه في عنق المعطف، وكميه، وجميع ثنايا المعطف والسروال، بحثاً عن شيء ما. وهو المال بطبيعة الحال. وكان ميتيا لاحظ أنه شك بأنه يمكن أن يكون أخفى النقود في ثيابه وخاطها عليها.

وتمتم ميتيا يحدث نفسه: «إنه لا يعاملني كضابط، بل يعاملني كاللص». وأخذوا يتبادلون الآراء بصراحة مدهشة، فهذا أمين السر مثلاً الذي كان خلف الستارة يضطرب من مكان إلى آخر ويصغي إلى ما يقال، لفت انتباه نيكولاي بارفينوفيتش إلى القبعة التي كانوا يمرّرون أصابعهم عليها.

وقال أمين السر: «هل تذكرون غريدينكو كاتب النسخ، الذي تسلم في الصيف الماضي مرتبات جميع موظفي المكتب، وادعى أنه فقد المال أثناء سكره. ولكن أين وجد المال؟ في مثل هذه الثنايا من قبعته وكان قد لف الأوراق النقدية من فئة المائة روبل لفائف صغيرة ودسها في ثنايا قبعته».

وكان رجلا القانون يذكران جيداً قضية غريدينكو هذا، وها هما يطرحان قبعة ميتيا جانباً، ويقرران أن يعودا فيما بعد إلى البحث في ثياب ميتيا بحثاً جيداً.

وإذ بنيكولاي بارفينوفيتش يرى أن الزند الأيمن في قميص ميتيا كان مقلوباً وملطخاً بالدم، فصاح: «عفوك، عفوك، ما هذا، أهو دم»؟.

فأجاب ميتيا محتداً: «نعم».

دم ماذا... ولماذا قلب الزند؟ وروى له ميتيا كيف أن كمه تلوث بالدم عندما كان يتفقد غريغوري، وكيف أنه قلبه عندما كان يغسل يديه في منزل بيرخوتين.

ـ يجب أن تخلع قميصك أيضاً، فإنه هام جداً كدليل ملموس.

وعندها صعد الدم إلى رأس ميتيا فاحتقن وجهه وهاج هياجاً عظيماً وصاح قائلاً: «ماذا، أتريدون أن أقف عارياً»؟.

ـ لا تتكدر، سنحضر لك شيئاً ما، وفي هذه الأثناء إخلع جوربك.

وومضت عينا ميتيا وهتف قائلاً: ألا تمزحان؟ هل هذا ضروري حقاً؟

فأجابه نيكولاي بارفينوفيتش بلهجة صارمة: ليس المزاح ممكناً في حالتنا هذه.

فتمتم ميتيا قائلاً: «حسناً، إذا كان يجب علي...» ثم جلس على السرير ونزع جوربه. وشعر بالحرج العظيم، فقد كان عرياناً بين جميع الحضور ومن الغريب أن نقول أنه عندما خلع ثيابه شعر بأنه في حضورهم مجرم إلى حد ما، وكاد يعتقد في قرارة نفسه بأنه كان أدنى منهم مرتبة، وأن لهم الآن ملء الحق في أن يحتقروه.

وظل يكرر في سره المرة تلو المرة: «إن الإنسان قد يشعر بالخجل في حضور أناس كلهم عراة، أما إذا كان هو العريان الوحيد والآخرون ينظرون إليه فذاك التدني في المستوى. إن هذا أشبه بالحلم. ولقد حلمت في بعض الأحايين أنني أقف هذه المواقف المخزية». كان في ضيق شديد وهو ينزع جوربه. فقد كان في غاية القذارة، ولم تكن ملابسه الداخلية أقل قذارة، والآن أصبح في وسع الجميع أن يطلعوا على ذلك. وشر من هذا أنه كان لا يحب النظر إلى قدميه، فقد كان طيلة حياته يرى أن إصبعيّ رجليه الكبيرين قبيحين إلى حد مخيف. وكان ينفر خاصة من ظفر الأصبع اليمنى الخشن المنبسط المعقوف، والآن فإنهم جميعاً سيرونه وكان إحساسه بالخزي الشديد جعل جفاءه يزداد عفواً، فعمد إلى خلع قميصه.

ـ هل تود أن تنظر إلى أي مكان آخر إذا كان ذلك لا يخجلك؟

ـ كلا لا حاجة إلى ذلك في الوقت الحاضر.

فسأل المحقق حانقاً: حسناً، وهل سأظل عرياناً هكذا؟.

ـ نعم، إن هذا لا بد منه الآن... أرجوك أن تجلس برهة، إنك تستطيع أن تلف جسمك بغطاء السرير، وسأقوم أنا بتدبير كل شيء.

وتم عرض جميع الأشياء على الشهود، وكتابة تقرير إثبات التفتيش، وأخيراً خرج نيكولاي بارفينوفيتش، وأخرجت الملابس. كما أن إيبوليت كيريلوفيتش خرج أيضاً وترك ميتيا وحيداً مع الفلاحين الذين وقفوا صامتين محدقين فيه أبداً. ولف ميتيا نفسه في غطاء السرير. وشعر بالبرد. وبرزت

قدماه الحافيتان، ولم يستطع أن يجذب الغطاء إلى أسفل لكي يغطيهما. وبدا له كأن نيكولاي بارفينوفيتش قد غاب أمداً طويلاً. وقال في نفسه والغيظ يكاد يأكله: «لقد غاب مدة طويلة لا تحتمل. وهو يظنني جرواً لا قيمة له. وهذا هو المدعي العام الفاسد أيضاً قد ذهب وهو يشعر بلا شك بالاحتقار فلا يطيق أن يراني عارياً»!.

وقد خيل ميتيا أنهم أخيراً سيفتشون ثيابه ثم يعيدونها إليه. ولكن غيظه بلغ مداه عندما عاد نيكولاي بارفينوفيتش وخلفه أحد الفلاحين يحمل ثياباً غير ثيابه.

وقال يخاطب ميتيا بخفة المرح وبدا عليه الرضى لأنه نجح في مهمته: «ها قد جئت لك بثياب، فلقد تكرم كالغانوف بها في هذه اللحظة الطارئة الاستثنائية، وهاك قميصاً نظيفاً أيضاً. ولحسن الحظ فقد كانت هذه الثياب كلها في حقيبته. بوسعك أن تحتفظ بجوربك وملابسك الداخلية».

فثارت ثائرة ميتيا وصاح غاضباً: «إنني لن أرتدي ثياباً ليست لي. أعيدوا إلي ثيابي»!.

ـ إن هذا مستحيل!.

ـ أعد لي ثيابي. سحقاً لكالغانوف وثيابه!.

لم يستطيعوا أن يقنعوه بارتداء ثياب كالغانوف؛ إلا بعد مرور وقت طويل. لكنهم استطاعوا بعض الشيء تهدئته. وأقنعوه بأنه نظراً لتلطخ ثيابه بالدم فيجب أن «تضم إلى الأدلة المادية الأخرى»، وأنهم ليس لهم الحق في إعادتها له الآن... إذا أخذت بعين الاعتبار النتيجة الممكنة للقضية. وأخيراً فهم ميتيا ذلك فهدأ وصمت كئيباً وارتدى الثياب على عجل. وقد أدرك عندما لبس الملابس بأنها كانت تفضل ملابسه القديمة إلى حد بعيد، وأنه كان يكره أن يكون «الجانب الرابح من وراء هذا التغيير». وكانت فضلاً عن ذلك، «ضيقة إلى حد يبعث على الضحك، فهل ينبغي لي أن ألبس كالحمقى... لكي أسليكم»؟.

وقد أكدوا له مرة ثانية أنه كان يبالغ في وهمه، وأن كالغانوف كان أطول منه قليلاً فقط فالسروال وحده ربما كان طويلاً عليه بعض الطول.

والمعطف كان مشدوداً على الكتفين.

وقال ميتيا متذمراً: «تباً لهذا المعطف! إنني لا أكاد أستطيع أن أزرره. تلطفوا بإبلاغ السيد كالغانوف أنني لم أطلب ثيابه، وإني كنت مرغماً على إلباسي كالمهرج».

فتمتم نيكولاي بارفينوفيتش قائلاً: إنه مدرك لذلك، وهو آسف... أي أنه آسف بسبب هذه المشكلة لا لأنه أعارك ثيابه.

- تباً لأسفه! حسناً، إلى أين أمضي الآن، أو لعلكم تريدونني أن أبقى قابعاً هنا؟.

وقد طلب إليه أن يعود إلى «الغرفة الأخرى». فدخل ميتيا إليها وهو محقون بالغضب، ويتفادى النظر إلى أي إنسان. وقد جعلته هذه الثياب المستعارة يشعر بالخزي، حتى من الفلاحين، وتريفون بوريسوفيتش، الذي أطل بوجهه لسبب ما عند الباب، ثم ما لبث أن اختفى مسرعاً. وقال ميتيا محدثاً نفسه: «لقد أطل ليراني بهذه الثياب». ثم جلس ميتيا على نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه من قبل. وبدأ يشعر بأن كابوساً سخيفاً يثقل عليه، حتى كاد يفقده عقله.

ثم قال مخاطباً المدعي العام وهو يصرف بأسنانه: حسناً، ماذا تبغون الآن؟ فلم يبق لكم إلا أمر واحد هو أن تجلدوني. أتريدون هذا؟ ولم يلتفت إلى نيكولاي بارفينوفيتش وكأنه كان يربأ بنفسه أن يخاطبه.

وقال في سره: «لقد كان النذل يدقق النظر في جوربي، وقد تعمد أن يقلبه لكي يظهر للجميع مقدار اتساخه»!.

وهتف نيكولاي بارفينوفيتش قائلاً، وكأنه يرد على سؤال ميتيا: «حسناً والآن يجب علينا أن نبدأ باستجواب الشهود».

فرد المدعي العام بالإيجاب وهو شارد كأن شيئاً يشغل ذهنه. ثم أردف نيكولاي بارفينوفيتش يقول: «لقد بذلنا كامل جهدنا لكي نراعي مصلحتك يا ديمتري فيودوروفيتش، ولكن نظراً لرفضك القاطع في ذكر المصدر الذي حصلت منه على المال الذي عثرنا عليه معك، فنحن في هذه اللحظة...».

وهنا قاطعه ميتيا فجأة وكأنه يستيقظ من حلم: ما هذا الفص في

خاتمك؟ وكان يشير إلى أحد الخواتم الثلاثة الكبيرة التي كانت تزين يد نيكولاي بارفينوفيتش اليمنى.

فتساءل هذا قائلاً بدهشة: «الخاتم»؟.

فأجاب ميتيا بإصرار كالطفل المشاكس: نعم، فص ذلك الخاتم في إصبعك الوسطى المزدان بالعروق الصغيرة. من أي نوع هو؟

فقال نيكولاي بارفينوفيتش مبتسماً: من العقيق، أتريد أن تلقي عليه نظرة؟ سأنزعه لكي تراه....

وصاح ميتيا محتداً وقد ثاب إلى نفسه فجأة وشعر بالغضب: كلا، لا تنزعه، لا تنزعه... لا حاجة لذلك... تباً له... أيها السادة لقد ملأتم قلبي خزياً وعاراً! أو تظنون أنني لو قتلت أبي حقاً، كنت لا أعترف لكم أو أراوغ وأكذب وأختبىء؟ كلا، إن ذلك ليس من طباع ديمتري كرامازوف، وهو لا يستطيع أن يفعل ذلك، وأقسم لو أنني كنت مجرماً لما انتظرت مجيئكم، ولما أرجأت انتحاري عن موعده إلى شروق الشمس، بل لكنت قد قتلت نفسي قبل ذلك، وقبل أن أنتظر مجيء الفجر! إنني أدركت هذا التوجه في نفسي الآن. وما تعلمته في هذه الليلة اللعينة لم يكن في مقدوري أن أتعلمه في مدى عشرين عاماً... وهل كان في وسعي أن أبدو بهذا الشكل في هذه الليلة، وفي هذه اللحظة، وأنا أجلس بينكم، وهل كان بوسعي أن أقول مثل هذا القول، وأتحرك مثل هذه الحركة وأنظر إليكم وأواجه العالم بهذا الشكل، لو أنني كنت في الحقيقة قاتل أبي، في حين أن فكرة قتلي غريغوري عرضاً، أبعدت عني الطمأنينة طيلة هذه الليلة، ليس خوفاً من عقابكم! بل من العار! وبعد، فأنتم تتوقعون مني الصراحة مع ساخرين كأمثالكم لا يرون شيئاً ولا يؤمنون بشيء، وأنتم اللامبالون والهازؤون، وأن أصارحكم بشيء آخر دنيء اقترفته، شيء يجلب الخزي والعار، حتى ولو كان ذلك يبعد التهمة عني. كلا، خير لي أن أنفى إلى سيبريا! إن الرجل الذي فتح باب أبي ودخل من ذلك الباب، هو الذي قتله وسرقه. فمن تراه يكون؟ لقد أمعنت الفكر ولم أستطع معرفته. ولكنني أستطيع أن أقول لكم أنه ليس ديمتري كرامازوف، وهذا كل ما أستطيع أن أقوله لكم، وفي هذا الكفاية، كفاكم، اتركوني وشأني...

إنفوني، عاقبوني، ولكن لا تزعجوني أكثر من هذا. لن أقول أكثر مما قلت. فادعوا شهودكم!.

أنهى ميتيا كلامه، وكأنه كان ينوي بعد ذلك أن يبقى متمسكاً بالصمت. وكان المدعي العام يرقبه طوال الوقت، فلما فرغ من كلامه، قال له ببرود وثبات وكأنه يقول شيئاً عادياً:

«أما فيما يتعلق بالباب المفتوح الذي تحدثت عنه الآن، فبوسعنا أن نطلعك عرضاً، على دليل هام للغاية بالنسبة لك ولنا، قاله لنا غريغوري، الرجل العجوز الذي جرحته. فلقد أدلى بعد صحوه رداً على أسئلتنا بإفادة واضحة ثابتة قال فيها أنه لدى خروجه من الباب إلى السلم وسماعه جلبة في الحديقة، قرر أن يذهب إلى مكان الجلبة ماراً من الباب الصغير الذي كان مفتوحاً، قبل أن يراك وأنت تركض، كما قلت لنا، في الظلام مبتعداً عن النافذة التي كنت تشاهد أباك منها. وكان غريغوري ينظر إلى اليسار، وقد لاحظ أن النافذة كانت مفتوحة كما لاحظ في نفس الوقت أن باب الغرفة القريب منه كان مفتوحاً على مصراعيه، وقد ذكرت أنت بأنه بقي مغلقاً طيلة بقائك في الحديقة. ولن أخفي عنك أن غريغوري بذاته يؤكد تأكيداً قاطعاً ويشهد، برغم أنه لم يرك بأم عينه، على أنك ولا شك قد انطلقت من ذلك الباب، نظراً لأنه لم يرك إلا بعد أن أوغلت قليلاً في الحديقة وأنت تعدو نحو الجدار».

كان ميتيا قد قفز من مكانه عندما سمع هذا الكلام، فلما فرغ المدعي العام من أقواله صاح صيحة عظيمة: «إن هذا لغو فارغ، إنها كذبة صارخة فما كان بوسعه أن يرى الباب مفتوحاً لأنه كان مغلقاً. إنه يكذب»!.

- أعتبر أن من واجبي أن أكرر على مسمعك بأنه ثابت على شهادته، لا يتردد فيها، بل يصر عليها. ولقد استجوبناه أكثر من مرة.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش بحرارة مصادقاً على أقوال المدعي العام: «إن هذا عين الحقيقة، لقد استجوبته عدة مرات».

فعاد ميتيا إلى الصياح قائلاً: «إن هذا كذب وبهتان! فالأمر إما أن يكون محاولة لتلويث سمعتي أو أنه أوهام رجل مجنون. إنه يهذي بسبب ما نزف

من جرحه من الدم. ولا بد أنه تخيل ذلك عندما ثاب إلى رشده... إنه يهذي».

ـ ولكنه لاحظ أن الباب كان مفتوحاً قبل أن يثوب إلى رشده إثر إصابته بمجرد أن دخل إلى الحديقة من مسكن الخدم.

ـ ولكن ذلك غير صحيح! إن حقده عليَّ يحمله على الإضرار بي... فهو لم يكن بوسعه أن يراه مفتوحاً... وأنا لم أدخل من الباب.

فالتفت المدعي العام إلى نيكولاي بارفينوفيتش وقال له بلهجة مؤثرة: «جابهه بذلك الشيء».

ووضع نيكولاي بارفينوفيتش على المنضدة ظرفاً كبيراً سميكاً رسمياً، عليه ثلاثة أختام سليمة. وقال لميتيا: هل تعرف هذا؟. وكان الظرف خالياً، وقد شق من طرفه. فحدق ميتيا فيه بعينين جاحظتين، وصاح يقول: «إنه... إنه لا بد أن يكون ظرف والدي، ذلك الظرف الذي كان يحتوي على الثلاثة آلاف روبل... وإذا كان مكتوباً عليه، إسمحوا لي «إلى دجاجتي الصغيرة»... نعم، ثلاثة آلاف روبل! هل ترون، ثلاثة آلاف، هل ترون»؟.

ـ إننا نرى طبعاً، ولكننا لم نجد المال في داخله. لقد كان خالياً ملقى على الأرض قرب السرير، خلف الستارة.

ذهل ميتيا، وظل واقفاً في مكانه بضع دقائق لا يبدي حراكاً.

وبغتة صاح بأعلى صوته: «أيها السادة، إنه سميردياكوف! إنه هو الذي قتله! لقد سرقه! فما من إنسان كان يعرف المكان الذي أخفى الرجل العجوز الظرف فيه. إنه سميردياكوف، لقد اصبح الأمر واضحاً الآن».

ـ ولكنك أنت أيضاً كنت تعرف مكان الظرف، وأنه كان موضوعاً تحت الوسادة.

ـ لم أكن أعرفه أبداً، ولم أشاهده البتة. إن هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها. لقد علمت به من سميردياكوف.. فقد كان الإنسان الوحيد الذي يعرف أين خبأه الرجل العجوز، أما أنا فلم أكن أعرف مكانه.. وبهر ميتيا عندما انتهى من أقواله.

ـ ولكنك قلت لنا بلسانك أن الظرف كان موضوعاً تحت وسادة أبيك

الميت. ولقد ذكرت لنا بوجه خاص بأنه كان تحت الوسادة، فأنت حتماً كنت عالماً بمكانه.

وصادق نيكولاي بارفينوفيتش على كلامه قائلاً: «إن ذلك مدون في إفادتك».

- إن هذا عبث لا طائل تحته! إنه قول سخيف! فأنا لم أكن أعلم أن الظرف كان تحت الوسادة. وربما لم يكن تحت الوسادة أبداً... لقد صدف أنني قلت أن الظرف كان تحت الوسادة من باب الحدس والتخمين. ما قول سميردياكوف في ذلك؟ هل سألتم سميردياكوف أين كان الظرف موضوعاً؟ ماذا يقول سميردياكوف؟ إن هذه هي النقطة الأساسية... لقد ضللت سبيلي فكذبت ضد نفسي... لقد قلت لكم إنه كان تحت الوسادة من غير تفكير، والآن فها أنتم.. أواه، إنكم تعلمون كيف يخطىء الإنسان في قوله بدون أن يكون له قصد معين. لم يكن من إنسان يعرف مكان الظرف سوى سميردياكوف وسميردياكوف وحده، ولا أحد سواه... وهو حتى لم يطلعني على مكانه! ولكن ذلك العمل من صنع يديه، من صنع يديه، لا شك في ذلك، لقد قتله، وباتت المسألة واضحة وضوح النهار.

وهكذا تابع ميتيا أقواله وهو في حالة هياج، وكان يبدي ويعيد أقواله المفككة والمنفصلة مع ازدياد تبرّمه وهياجه: «يجب عليكم أن تفهموا ذلك، وتقبضوا عليه حالاً... لا بد وأنه قد قتله فيما كنت أنا أعدو، وغريغوري غائباً عن وعيه، إن ذلك واضح الآن.. لقد أعطى الإشارة ففتح أبي له الباب.. لأنه ما من إنسان يعرف هذه الإشارة غيره، وبدونها لم يكن أبي ليفتح الباب أبداً».

فقال المدعي العام، وهو لا يزال محتفظاً بهدوئه، ولكن بلهجة المنتصر: «ولكن ها أنت تعود إلى نسيان ظروف القضية، وهي أنه لم تكن هنالك من حاجة لإعطاء الإشارة، طالما أن الباب كان مفتوحاً عندما كنت هناك، عندما كنت في الحديقة».

فتمتم ميتيا قائلاً: «الباب، الباب»، ثم أخذ يحدق في المدعي العام ولا يستطيع النطق، كمن انعقد لسانه. وجلس خائر القوى على كرسيه. وصمت

الجميع. كان ميتيا يحدق إلى الأمام وقد ذهل عن نفسه تماماً، فتابع يقول: «نعم، الباب!... إنه كابوس رهيب! إن الله ضدي».

فقال المدعي العام بوقار: «ها أنت ترى، وبوسعك أن تحكم بنفسك يا ديمتري فيودوروفيتش. فنحن من جهة، لدينا الدليل على كون الباب الذي ركضت منه كان مفتوحاً، وهي حقيقة تحيرك وتحيرنا. ومن جهة ثانية فأنت تواجهنا بإصرارك الذي نجد تبريراً له، وبصمتك المطبق، إذا جاز هذا القول، عن المصدر الذي حصلت منه على المال الذي وجد فجأة معك، في حين كما قلت أنك قبل ذلك بثلاث ساعات رهنت مسدسيك لقاء عشرة روبلات! بناء على هذه الحقائق، فما الذي نصدقه وعلام نعتمد؟ ولا تصفنا بأننا جماعة من ذوي العواطف الفاترة، ومحبي السخرية والانتقاد، جماعة لا تستطيع أن تؤمن بالدوافع الكريمة التي تنبعث من قلبك.. ضع نفسك في أماكننا...».

امتقع لون ميتيا وقد اضطرب اضطراباً بالغاً. وفجأة صاح قائلاً: «حسناً، حسناً! سأطلعكم على سري. سأطلعكم على المصدر الذي حصلت منه على المال!.. سأكشف لكم خزيي وعاري، فلا ألوم بعد ذلك نفسي ولا ألومكم أنتم.

وقال نيكولاي بارفينوفيتش بصوت فيه بهجة وتأثر: وصدقني يا ديمتري فيودوروفيتش إن كل اعتراف صادق كامل تفضي به في هذه اللحظة قد يكون في المستقبل ذا أثر بعيد بالنسبة لمصلحتك، وفضلاً عن ذلك فربما....

لكن المدعي العام وكزه وكزة خفيفة من تحت المنضدة فسكت فجأة، والواقع أن ميتيا لم يسمع منه كلمة واحدة.



سر ميتـيا العظيم

يقابل بالاستهجان

بقي الانفعال مستبداً بميتيا فبدأ كلامه قائلاً: «أيها السيدان، سأفضي لكما باعتراف كامل؛ إن ذلك المال كان مالي».

كان هذا الاعتراف يختلف كل الاختلاف عما كان رجلا القانون يتوقعان سماعه، فبدت الدهشة في وجهيهما.

وقال نيكولاي بارفينوفيتش متلعثماً: «ماذا تعني بذلك؟ فقد كنت في الساعة الخامسة من اليوم ذاته، حسب اعترافك...».

- سحقاً للساعة الخامسة من اليوم ذاته، تباً لاعترافي. فلا شأن لذلك الآن بالمسألة! لقد كان ذلك المال مالي، مالي الخاص، أعني أنني سرقته... ليس مالي الخاص، بل أعني أنني حصلت عليه بالسرقة، وكانت قيمته ألفاً وخمسمائة روبل، وكنت أحمله طوال الوقت، طوال الوقت....

- ولكن من أين حصلت عليه؟

- لقد نزعته عن عنقي، أيها السيدان، عن عنقي هذا... فقد كان هنا حول عنقي، داخل خرقة، وبقي معلقاً هناك مدة طويلة، لأنني ربطته حول عنقي منذ شهرين من الزمن... وجلبت على نفسي الخزي والعار!.

- ولكن ممن... استوليت عليه؟.

- تقصد ممن سرقته؟ كن صريحاً في كلامك الآن. أجل، فأنا عملياً بنظر نفسي سارق لهذه المال، ولكن إذا شئت فقد استوليت عليه. إنني أعتبر نفسي سارقاً له. لقد سرقته البارحة نهائياً.

ـ البارحة؟ ولكنك ذكرت أن شهراً قد مضى منذ... حصلت عليه؟.

ـ نعم، ولكني لم أحصل عليه من والدي. لم أحصل عليه من والدي. لا تتذمرا. لم أسرقه من والدي، بل منها. دعاني أتكلم، ولا تقاطعاني. إن اعترافي لأمر عسير كما تعلمان. لقد أرسلت كاترينا إيفانوفنا في طلبي منذ شهر، إنها خطيبتي سابقاً، هل تعرفانها؟.

ـ إننا نعرفها بطبيعة الحال.

ـ وأنا أعلم أنكما تعرفانها. إنها فتاة نبيلة، بل ليس أنبل منها. ولكنها منذ زمن بعيد تكن لي الكره، أجل، منذ زمن بعيد... وكانت تكرهني لسبب وجيه!.

فهتف نيكولاي بارفينوفيتش مستغرباً: كاترينا إيفانوفنا! كذلك بهت المدعي العام.

ـ حذار أن تقرن إسمها بالباطل! إنني نذل إذ أزج باسمها في هذه القضية. أجل إني أعرف أنها تكرهني... منذ زمن بعيد... منذ البداية، بل منذ تلك الأمسية في مسكني... ولكن كفانا حديثاً عن هذا، فنحن غير جديرين بمعرفة ذلك. ولسنا بحاجة إلى كل هذا... ويكفيني القول أنها أرسلت في طلبي منذ شهر، وكلفتني إرسال ثلاثة آلاف روبل إلى أختها وقريبة أخرى لها في موسكو (كأنها لم تكن قادرة على إرسال المبلغ بنفسها!) لكنني... لقد حدث ذلك في تلك اللحظة الحاسمة من حياتي عندما كنت... إن ذلك حدث، في الحقيقة، عندما وقعت في غرام فتاة أخرى، في غرامها، تلك الفتاة الجالسة الآن في الطابق السفلي، غروشينكا، ولقد أغريتها آنئذ في مرافقتي إلى موكرو، وبددت في غضون يومين نصف تلك الآلاف الثلاثة المشؤومة وأبقيت معي النصف الآخر. لقد جعلت ذلك النصف الآخر بما يشبه العقد، تلك الألف والخمسمائة من الروبلات، حول عنقي، حتى كان أمس فنزعتها وأنفقتها، وما تبقى منها وهو ثمانمائة روبل، فهو بين يديك الآن، يا نيكولاي بارفينوفيتش. هذه هي بقية الألف والخمسمائة التي كانت في حوزتي.

ـ معذرة، كيف ذلك؟ عندما جئت إلى هذا المكان قبل شهر كنت أنفقت ثلاثة آلاف، لا ألفاً وخمسمائة، وهو أمر لا يخفى على أحد.

- ومن يعرفه؟ ومن عساه أحصى نقودي؟ هل سمحت لأحد بإحصائها؟.

- لقد قمت بنفسك بإعلام الجميع أنك أنفقت ثلاثة آلاف بالضبط.

- هذا صحيح، لقد أنبأت جميع أبناء المدينة أنني أنفقت ثلاثة آلاف، وتناقل أهل المدينة هذا القول، وهنا في موكرو وحسب الجميع أنني أنفقت ثلاثة آلاف، والحقيقة أنني لم أنفق ثلاثة آلاف بل ألفاً وخمسمائة. وأما الألف والخمسمائة الأخرى فقد خطت كيساً ووضعتها فيه. إن هذا هو ما حدث أيها السيدان وهكذا أصبحتما تعلمان كيف حصلت على المال أمس...

وتمتم نيكولاي بارفينوفيتش قائلاً: «إن هذا شيء عجيب».

وقال المدعي العام: «إسمح لي أن أسألك، هل أطلعت أحداً على هذا الأمر من قبل، أعني أنك أبقيت معك ألفاً وخمسمائة روبل منذ شهر»؟.

- كلا، لم أطلع أحداً.

- إن هذا شيء غريب، هل تعني أنك لم تخبر أحداً على الإطلاق؟

- لا أحد على الإطلاق، لا أحد مطلقاً.

- وبم تبرر تكتمك هذا؟ ما الذي دفع بك إلى كتمان الأمر؟ وبتعبير أوضح: لقد اطلعنا أخيراً على سرك المخزي - على حد تعبيرك - مع أننا إذا راعينا الواقع، طبعاً أنا أعني، التحدث نسبياً، لرأينا أن هذا العمل، أعني الاستيلاء على ثلاثة آلاف روبل ليست لك وطبعاً لفترة محدودة من الزمن، إنه حقاً في نظري على أقل تقدير، عمل يدل على طيش عظيم، ولكنه ليس مخزياً إلى الحد الذي تصف، خاصة بالنسبة لرجل بمثل صفاتك... وحتى إذا اعترفنا بأنه عمل مشين، فإن العمل المشين ليس «مخزياً»... وهنالك أناس كثيرون عرفوا بالحدس، خلال الشهر الأخير بأمر نقود كاترينا إيفانوفنا البالغة ثلاثة آلاف روبل، التي أنفقتها، وقد سمعت هذه الرواية بنفسي، قبل اعترافك بها... فإن ميخائيل مكاروفيتش على سبيل المثال، سمعها أيضاً، حتى غدت لا رواية فحسب بل قصة تتردد على ألسنة أهل المدينة بأسرها. وهنالك دلائل أيضاً، إذا لم أكن مخطئاً، على أنك اعترفت بهذا أنت نفسك لأحد الناس، عنيت أن كاترينا إيفانوفنا هي صاحبة المال، ولذلك، فقد دهشت دهشة

عظيمة لأنك، حتى الآن، أعني حتى هذه اللحظة، أحطت بالكتمان الشديد أمر الألف والخمسمائة روبل التي تقول إنك ابقيتها معك، ويبدو أن هذا السر رافقه شعور من الفزع العظيم.. وليس من اليسير على المرء أن يصدق أن اعترافك بهذا السر يمكن أن يؤذيك إلى هذا الحد... ولقد هتفت لتوك الآن، بأن النفي إلى سيبريا أهون عليك من الاعتراف به....

وتوقف المدعي العام عن الكلام. كان الأمر قد أثاره، ولم يحاول إخفاء تبرمه الذي كاد يبلغ حد الغضب، فأطلق العنان لحقده المكبوت، بألفاظ عشوائية تلقائية، وبعبارات متفككة مضطربة.

وقال ميتيا بلهجة حازمة: «إن الخزي ليس في الألف والخمسمائة بحد ذاتها بل في أنني أبقيتها جانباً من أصل الثلاثة الآلاف».

فقال المدعي العام وهو يبتسم متضايقاً: «لماذا، ما هو مصدر الخزي كما تراه في أن تضع جانباً نصف الثلاثة الآلاف التي استوليت عليها بأسلوب مشين، أو بأسلوب «مخز»، إذا كنت تفضل هذا التعبير؟ إن استيلاءك على هذا المبلغ هو أهم من طريقة تصرفك به، وبهذه المناسبة، ما الذي دفعك على هذا التصرف ـ لماذا أبقيت جانباً نصف المبلغ، لأية غاية، إلام كنت ترمي من وراء ذلك العمل؟ هل لك أن تفسر لنا ذلك؟.

فهتف ميتيا قائلاً: «أيها السيدان، إن الغاية من ذلك العمل هي بيت القصيد. لقد وضعته جانباً لأنني كنت دنيئاً، أعني، لأنني كنت أرمي إلى غاية ما، والتعمد في مثل هذه الحالة دناءة... وقد استمرت هذه الدناءة شهراً كاملاً».

ـ إن هذا كلام غير مفهوم.

ـ عجباً لكما. ولكنني سأوضح كلامي، فقد يكون غير مفهوم فعلاً. انتبها جيداً واسمعا ما أقول. افترضا أني استوليت على ثلاثة آلاف اؤتمنت عليها ثم أنفقتها في أوجه استهتاري، وأنني أنفقتها بكاملها، وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت إليها وقلت لها: كاتيا، لقد ارتكبت زلة، وبددت آلافك الثلاثة، فماذا تقولان، هل أكون مصيباً في ذلك؟ كلا، إنه ليس حسناً. إنه إساءة للأمانة ودلالة على الجبن، وعلى أنني وحش، لا أملك السيطرة على نفسي

أكثر مما تملك الوحوش، إن الأمر هكذا، أليس كذلك؟ ولكن هذا لا يعني أنني لص! إنني لا أكون قد تدنيت إلى مرتبة اللصوص، إنكما تقران بذلك! لقد بددت المبلغ، ولكنني لم أسرقه. إليكما هذا الاحتمال الآخر وهو أفضل من الأول. تتبعا أقوالي بعناية، لئلا تفوتني الدقة مرة ثانية. إنني أشعر بدوار، والآن، لأوضح لكما الاحتمال الثاني: هبا أني أنفقت هنا ألفاً وخمسمائة فقط من الثلاثة الآلاف، أي نصفها فقط. فإذا كان الغد ذهبت إليها ومعي النصف الآخر وقلت لها: كاتيا، هاك هذه الألف والخمسمائة استرديها مني، إنني وحش حقير ونذل لا يؤمن له، لأنني بددت نصف المبلغ، وسأبدد هذه أيضاً، فأنقذيني من التجربة!.

فما رأيكما في هذا الاحتمال؟ سأكون في هذه الحالة وحشاً نذلاً، وما شئتما من نعوت؛ ولكنني لا أكون لصاً، لا أكون لصاً بكل معنى الكلمة، وإلا لما رددت إليها ما تبقى معي، بل لكنت احتفظت به أيضاً. وطالما قد أعدت إليها نصف المال فهي ستطمئن إلى أنني سأرد إليها ما أنفقته منه، وأنني لن أكف عن المحاولة لكي أرده إليها، وسأعمل على تحصيله وإعادته إليها. وهكذا فإنني في هذه الحالة أكون نذلاً، ولكنني لا أكون لصاً، انعتاني بما يحلو لكما، ولكنني لست لصاً!.

فقال المدعي العام مبتسماً ببرودة: أعترف بأنه شتان بين الحالتين ولكن من الغريب أنك تجعل الاختلاف عظيماً بينهما.

- أجل، إني أرى اختلافاً عظيماً! كل إنسان معرض أن يكون نذلاً، وربما كان جميع الناس أنذالاً، ولكنه ليس باستطاعة كل إنسان أن يكون لصاً، لأن ذلك يقتضي منه أن يكون أنذل الأنذال، إنني بطبيعة الحال، لا أستطيع بيان هذه الفوارق الدقيقة... لكنني أعتقد أن اللص أحط من النذل. اسمعاني جيداً، لقد حملت النقود شهراً كاملاً، فلو قررت إعادتها غداً، فإنني أدفع عن نفسي صفة النذالة، ولكنني عاجز عن اتخاذ القرار. مع أنني أحاول ذلك كل يوم، لكن شهراً كاملاً قد انقضى ولم أستطع التنفيذ فهل هذا صواب في رأيكم، هل هذا صواب؟.

فأجاب المدعي العام متحفظاً: «إنه ليس صواباً بكل تأكيد، وأنا مدرك

لذلك تماماً وأوافقك الرأي. ولنكف عن الخوض في كل هذه الفوارق والنقاط التي تحمل التأويل، ولنعد إلى النقطة التي انتهينا إليها، إذا وافقت، وهذه النقطة هي أنك لم توضح لنا بعد، رغم طلبنا إليك ذلك، ما الذي حملك، في الدرجة الأولى على تنصيف المال، وتبديد أحد النصفين والاحتفاظ بالنصف الآخر؟ ماذا كانت غايتك بالضبط عندما خبأت النصف الآخر؟ وماذا كنت تبغي أن تفعل بالألف والخمسمائة روبل؟ إنني أصر على هذا السؤال، يا ديمتري فيودوروفيتش».

فصاح ميتيا قائلاً، وهو يلطم جبهته بكفه: «نعم، بطبيعة الحال، أستميحكم العذر، إنني أزعجكم، ولست أقوم بإيضاح النقطة الرئيسية، وإلا لكنتم قد فهمتم في دقيقة واحدة. إن العار ليس هو غير الدافع إلى ذلك! والأمر كله يتعلق بالرجل العجوز، والدي العزيز. ولقد كان دائماً يلاحق أغرافينا الكسندروفنا فيسبب لها الإزعاج، وكنت أنا غيوراً. وكنت آنذاك أظن بأنها كانت مترددة بيني وبينه. وهكذا فقد كنت دائم التفكير ليل نهار أنها ربما قطعت برأيها في الأمر فجأة، فرأت أن توقف عذابي وتفاجئني بقولها: إنني أحبك أنت ولا أحب أباك؛ فخذني إلى طرف الدنيا. ولا يكون لدي عندئذ أكثر من أربعين قبقاً؛ فكيف يتسنى لي أن أحملها وأبتعد بها، وماذا عساي أفعل؟ لا شك أنه سيسقط في يدي. وحتى ذلك الوقت لم أكن أعرفها تمام المعرفة، أو أفهمها على حقيقتها، وكنت أظن بأنها تسعى وراء المال وأنها لن تغتفر لي فقري. ولذلك فقد قمت كالشيطان بتنصيف الآلاف الثلاثة، وخطت الكيس على نصفها وأنا قاصد لذلك، خطته قبل أن أثمل. ثم انطلقت لكي أنفق النصف الآخر على السكر. نعم لقد كان هذا العمل حقيراً. هل فهمتم الآن.

وضحك رجلا القانون ضحكاً عالياً.

وقال نيكولاي بارفينوفيتش مقهقهاً: «أما أنا فأرى أنك كنت متمسكاً بالعقل والحكمة لأنك لم تبدد المال كله. وبعد فما هو معنى ذلك»؟.

- معناه أنني سرقت ذلك المبلغ! أواه، يا رب، إنك تملأني رعباً بعدم فهمك! طالما حدثت نفسي في كل يوم بل في كل ساعة، منذ كان مبلغ

الألف والخمسمائة روبل مربوطاً حول عنقي؛ إنك لص! إنك لص! نعم ذلك كان السبب في الوحشية التي أظهرتها طيلة هذا الشهر، وفي مشاجرتي بالحانة وفي اعتدائي بالضرب على أبي، لقد كنت أشعر بأنني لص. إنني لم أقدر على الجزم برأيي، ولم أجرؤ حتى على إبلاغ أليوشا، أخي، بأمر الألف والخمسمائة روبل، فلقد كنت أعتقد بأنني نذل وحقير وسارق دنيء، ولكنني كنت دائم التحدث إلى نفسي وأنا أحملها: كلا، يا ديمتري فيودوروفيتش، ربما لم تكن لصاً. ولماذا؟ لأنه كان بالإمكان أن أذهب في اليوم التالي إلى كاتيا وأعيد لها الألف والخمسمائة روبل. ولقد قررت بالأمس فقط أن أنزع الكيس عن عنقي لدى توجهي إلى منزل بيرخوتين عائداً من عند فينيا. ولم أكن قبل تلك اللحظة قادراً على دفع ذاتي لتنفيذ هذه الخطوة. ولم أصبح لصاً حقيقياً إلا بعد أن نزعت الكيس، لقد أصبحت لصاً مجرداً عن الشرف حتى آخر يوم في أيام حياتي. لماذا؟ لأنني بهذا العمل، أصبحت عاجزاً عن تحقيق حلمي بالذهاب إلى كاتيا والقول لها: إنني نذل، ولكنني لست لصاً! هل تفهمان الآن؟ هل تفهمان؟.

فقاطعه نيكولاي بارفينوفيتش قائلاً: «ما الذي دعاك إلى أن تتخذ قرارك هذا بالأمس».

ـ لماذا؟ إن السؤال عن ذلك سخيف لأنني قررت أن أقتل نفسي في الساعة الخامسة من صباح اليوم، هنا عند حلول الفجر. وقد ظننت بأنه لا فرق بين أن أموت لصاً أو أن أموت رجلاً شريفاً. ولكن ظني الخاطىء واضح أمامي الآن، فقد ظهر لي أن هنالك فرقاً. صدقوني أيها السادة، إن أكثر ما آلمني من العذاب خلال تلك الليلة، لم يكن الظن بأنني قتلت الخادم العجوز، وبأنني قد أواجه النفي إلى سيبريا في اللحظة التي بودلت فيها حباً بحب، وفي اللحظة التي فتح فيها لي باب السماء، أواه، إن ذلك قد عذبني، ولكنه كان عذاباً من نوع آخر، لا يعدل العذاب بسبب إدراكي بأنني نزعت النقود عن صدري أخيراً وأنفقتها وصرت لصاً أكيداً! أواه، أيها السادة إنني أعيد عليكم القول، وقلبي يقطر دماً، إنني قد تعلمت الشيء الكثير هذه الليلة، لقد تعلمت أنه ليس من المستحيل فحسب أن يعيش الإنسان وشعوره بالنذالة

يلاحقه، بل من المستحيل عليه أن يموت نذلاً... كلا أيها السادة، يجب أن يموت الإنسان شريفاً.

كان وجه ميتيا مصفراً وبدت واضحة عليه أمارات الإعياء والضياع رغم ما كان فيه من اضطراب عظيم.

وقال المدعي العام متباطئاً، وبلهجة قريبة من الرقة بل العطف أيضاً: «لقد بدأت أفهمك يا ديمتري فيودوروفيتش. ولكن أعذرني إذا قلت لك أني لا أرى أن المسألة كما قدمتها، هي مسألة أعصاب... مسألة أعصابك المنهوكة، وهذا هو ما في الأمر. فمثلاً لماذا لم توفر على نفسك ما عانيته من عذاب، مدة تكاد تبلغ شهراً بإعادة مبلغ الألف وخمسمائة روبل إلى السيدة التي ائتمنتك عليه؟ ولماذا لم تستطع أن توضح لها وضعك، وبالنظر إلى موقفك الذي تصفه بأنه مخيف هائل، لماذا لم تلجأ إلى الخطة التي تخطر ببال الإنسان بشكل طبيعي، وهي، أنك بعد اعترافك لها اعترافاً شريفاً بما اقترفته من أخطاء، لماذا لا يكون بوسعك أن تطلب منها إقراضك المبلغ الذي تحتاج إليه في نفقاتك، وهي على الأرجح ستلبي طلبك، في محنتك، لما يعمر قلبها بالكرم وخاصة إذا كان إقراضها المبلغ لك، لقاء كفالة، أو حتى تلك الضمانة التي عرضتها للتاجر سامسونوف والسيدة خولاكوف. أما تزال تعتبر هذه الضمانة ذات قيمة بنظرك؟.

واحمر وجه ميتيا فجأة. ثم أخذ يحدق بقوة في وجه المدعي العام وقال بامتعاض وكأنه لا يقوى على تصديق ما سمعته أذناه: «إنك لا تظنني قد بلغت هذا الحد من النذالة بلا ريب. لا بد وأنك غير جاد فيما تقول»؟.

ـ اؤكد لك أنني جاد في قولي... ما الذي يحملك على الظن بأنني غير جاد؟

وكان الشعور بالدهشة، هذه المرة، من نصيب المدعي العام.

ـ أواه ما كان أدنأ هذا! أيها السيدان، إعلما أنكما تعذبانني! دعاني أطلعكما على كل شيء. ولا راد لإرادة الله. سأعترف لكما بجميع مفاسدي الدنيئة فإني أريد أن تشعرا أنتما بالعار والخزي. وستدهشان أنتما نفسكما إذ تدركان إلى أي مدى من الدناءة يمكن أن تتردى عواطف الإنسان المتباينة.

عليكما أن تعلما أنني كنت أفكر في هذه الخطة، الخطة التي تحدثت عنها لتوك يا حضرة المدعي العام! نعم، أيها السيدان لقد فكرت أنا أيضاً في ذلك طيلة هذا الشهر، حتى أوشكت أن أذهب إلى كاتيا. لقد بلغت في الدناءة هذا الحد. حدّ الذهاب إليها وإطلاعها على خيانتي، والطلب إليها بعد ذلك أن تقرضني مالاً لأتمكن من تنفيذ خيانتي. أطلب منها هي، من كاتيا ثم الانطلاق من لدنها مباشرة والهرب مع الأخرى، مع غريمتها، المرأة التي تكرهها وأهانتها. فكر في هذا! ألست مجنوناً يا حضرة المدعي العام!.

فأجاب المدعي العام مبتسماً: لست مجنوناً، ولكنني تسرعت في القول، بدون أن أفكر في غيرة النساء... إذا كانت هنالك غيرة في هذه القضية كما تؤكد... الحق أنه يجب اعتبار مثل هذه العاطفة.

فقال ميتيا وهو يضرب المنضدة بقبضة يده ضربة عنيفة: «ولكنني سأكون منحطاً لو فعلت ذلك. إنني لو فعلته لكنت قد أتيت أحقر عمل في الدنيا! نعم إنها قد لا تحجم عن إعطائي ما أطلب من المال، نعم، لو طلبته لما كانت تتردد في إعطائي، لكي تشبع رغبتها في الانتقام مني، وتظهر احتقارها لي لأن طبيعتها هي أيضاً طبيعة دنيئة؛ وهي امرأة حقودة جداً. كنت أود أن آخذ المال منها، يا إلهي؛ بل كان ينبغي لي أن آخذه، كان ينبغي لي أن آخذه، وبعدئذ، سأبقى حتى آخر أيام حياتي... رباه! سامحاني أيها السيدان؛ فأنا أحدث هذه الجلبة لأن الفكرة خطرت ببالي منذ عهد قريب، لقد فكرت بها قبل يومين في الليلة التي شهدت ما وقع لي مع لياغافي، ثم في يوم أمس، إنني أذكر ذلك وبقي عالقاً بذهني إلى أن حدث ذلك...».

فقال نيكولاي بارفينوفيتش متسائلاً: «إلى أن حدث ماذا؟» ولكن ميتيا لم يسمع السؤال. وقد تابع كلامه وهو متجهم الوجه مكتئباً، فقال:

«لقد اعترفت لكما بأمر رهيب، فيجب أن تقدراه لي، بل يجب أن ينال احترامكما، وإلا إن لم تتأثرا بهذا الاعتراف، فأنتما لا تحترمانني البتة، أيها السيدان، وسيكون اعترافي لرجلين مثلكما سبباً لموتي من شدة الخجل! سأطلق الرصاص على نفسي! أجل، ها أنا أرى، إنني أرى أنكما لا تصدقاني» ثم هتف بلهجة تنم عن القنوط؛ «ماذا؟ هل تريدان أن تدونا ذلك أيضاً»؟.

فقال نيكولاي بارفينوفيتش، وهو ينظر إليه مندهشاً: «نعم، ستدون ما قلته الآن. أي أن ذهابك إلى كاترينا إيفانوفنا واستجداءك المبلغ منها كان وارداً لديك حتى آخر لحظة. يا ديمتري فيودوروفيتش إن هذا دليل على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لك بصورة خاصة».

فقال ميتيا وهو يلوح بذراعه: «رحماكما أيها السيدان! لا تدونا ذلك فأنا على كل حال فتحت لكما قلبي شريحتين، وها أنتما تنتهزان الفرصة وتعبثان بجروحي في كلا الشريحتين... رباه»!.

وكان اليأس قد بلغ منه حدّاً كبيراً فغطى وجهه براحتيه. فقال المدعي العام: «لا تقلق إلى هذا الحد، يا ديمتري فيودوروفيتش، إننا سنعيد عليك فيما بعد تلاوة كل ما دوناه وسنغير كل ما لا ترغب به. أما الآن فإنني للمرة الثانية أوجه إليك هذا السؤال الصغير: ألم تخبر أحداً البتة بأمر النقود التي خبأتها في الكيس؟ وهنا أجد لزاماً عليّ أن أصارحك بأن تصديق هذا شبه مستحيل.

ـ لا أحد، لا أحد، لقد قلت لكم من قبل، وإلا فأنتما لم تفهما شيئاً دعاني وشأني!.

ـ لا بأس، فهذه المسألة لا بد وأن نجد لها تفسيراً، ولدينا متسع كبير من الوقت لذلك، أما الآن، فاعلم أن لدينا إثني عشر شاهداً يجمعون على القول أنك أنت نفسك أشعت، بل أعلنت على الملأ أمر الثلاثة الآلاف التي أنفقتها هنا؛ ثلاثة آلاف لا ألفاً وخمسمائة. والآن أيضاً، بعد أن حصلت على المال الذي كان بين يديك أمس، أوهمت الكثيرين أن معك ثلاثة آلاف.

فصاح ميتيا: «ليس لديكم إثنا عشر شاهداً، بل مئات الشهود، مائتا شاهد مائتان سمعوني أردد هذا القول، بل ألوف الناس سمعوني أردده».

ـ إذن، فها أنت ترى، أن جميع القرائن تثبت ذلك، وكلمة «جميع» لها وزنها.

ـ إنها لا تعني شيئاً. لقد كنت أقول كلاماً سخيفاً، فأخذ الجميع يرددونه.

ـ ولكن ما الذي حملك على قول كلام سخيف على حد تعبيرك؟

ـ الشيطان وحده يعرف السبب. قد يكون من باب المباهاة... بإنفاق مثل ذلك المبلغ الكبير من المال... لعلّي أنسى أمر المال الذي خبأته، لعل... نعم، ذلك هو السبب.. تباً لذلك... كم من مرة ترددون هذا السؤال؟ لقد نطقت بكذبة، فآلت إلى ما أنا فيه، وقد نطقت بها مرة ولم أهتم بتصحيحها، لأي سبب يكذب المرء أحياناً؟

فأجاب المدعي العام بلهجة حازمة: صعب علينا أن ندرك السبب الذي يحمل المرء على الكذب، يا ديمتري فيودوروفيتش، ومع ذلك، أخبرني هل كان الكيس الذي وضعته حول عنقك كبيراً؟

ـ كلا، لم يكن كبيراً.

ـ بأي حجم مثلاً؟.

ـ بحجم ورقة المائة روبل إذا ثنيت مرة واحدة.

ـ خير لك أن ترينا بعض ما تبقى منه. فلا شك أنك تحتفظ بجزء منه في مكان ما.

ـ يا للجحيم، أي هراء هذا! إنني لا أعلم أين هو الآن.

ـ ولكن معذرة: أين ومتى نزعته عن عنقك؟ لقد سبق واعترفت أنك لم تذهب إلى منزلك.

ـ نزعته عن عنقي وأخرجت المال منه بعدما خرجت من عند فينيا منطلقاً إلى منزل بيرخوتين.

ـ في الظلام؟

ـ وما حاجتي إلى النور؟ لقد نزعت المال بأصابعي ولم يستغرق ذلك أكثر من دقيقة واحدة.

ـ فعلت ذلك في الشارع ولم تحتج مقصاً؟

ـ في السوق على ما أذكر. ولم المقص؟ لقد كانت خرقة بالية، مزقتها في دقيقة واحدة.

ـ أين وضعتها بعد ذلك؟

ـ ألقيتها هناك.

هل لك أن تحدد المكان بالضبط؟.

ـ في السوق، في السوق! الشيطان وحده يعلم مكان الخرقة. يهمكما أمر مكانها؟.

ـ إن هذا أمر بالغ الأهمية، يا ديمتري فيودوروفيتش. إنه دليل مادي لمصلحتك. إني لأعجب كيف لا تدرك هذه الناحية؟ من ساعدك على خيطه قبل شهر؟.

ـ لا أحد، لقد خطته بدون مساعدة أحد.

ـ وهل تعرف الخياطة؟

ـ يفترض بالجندي أن يعرف كيف يخيط، وهذا لا يتطلب سعة معرفة.

ـ ومن أين حصلت على القماش، أعني الخرقة التي جعلتها مخبأً للمال؟

ـ هل تضحكان مني؟

ـ كلا، فنحن لا رغبة بنا إلى الضحك، يا ديمتري فيودوروفيتش.

ـ لا أدري من أين حصلت على الخرقة، من مكان ما على ما أعتقد.

ـ كنت أعتقد أنك لم تنس إسم المكان.

ـ قسماً بشرفي لا أذكره، لعلي اقتطعتها من قميصي الداخلي.

ـ إن هذا شيء يدعو للاهتمام فقد نعثر غداً في بيتك على القميص أو الشيء الذي اقتطعت منه الخرقة. وما نوع تلك الخرقة، أهي من القطن أم من الكتان؟.

ـ لا يعلم ذلك سوى الله. مهلاً... أعتقد أني لم أقتطعها من شيء ما، لقد كانت قطعة من قماش قطني... أظن بأنني خبأت المال في خرقة نزعتها من قبعة صاحبة المنزل الذي أسكنه.

ـ قبعة صاحبة منزلك؟.

ـ أجل، لقد أخذتها منها.

ـ وكيف حصلت عليها؟.

ـ أذكر أنني أخذت ذات مرة قبعة لكي أنتزع منها خرقة، لعلي كنت

أريدها لمسح الحبر عن قلمي، وقد أخذتها بدون إذن، لأنها كانت خرقة بالية. وقد نزعتها وصنعت منها كيساً خبأت فيه النقود. أعتقد بأن هذا الكيس الذي خبأت فيه النقود هو تلك الخرقة ذاتها. إنها قطعة من قماش قطني بالٍ لم تعد صالحة لشيء.

ـ وهل أنت موقن من ذلك الآن؟.

ـ لا أعلم على وجه التأكيد. أظن أنها القبعة، ولكن، سحقاً لها، فأية أهمية لذلك؟

ـ إذا كان الأمر كذلك فإن صاحبة المنزل لا شك تذكر أنها فقدت ذلك الشيء.

ـ كلا، إنها لا تذكر لأنها لم تفتقدها. أقول لكم إنها خرقة بالية، خرقة قديمة لا قيمة لها.

ـ ومن أين حصلت على الإبرة والخيط.

فقال ميتيا، وبات عاجزاً عن ضبط أعصابه: سأقف عند هذا الحد. لن أقول كلمة واحدة بعد الآن، كفانا حديثاً عن هذا!.

ـ من الغريب أنك نسيت تماماً أين ألقيت بقايا الخرقة في السوق!

فقال ميتيا هازئاً: «أصدروا الأوامر بكنس السوق غداً فقد تجدونها». ثم قال وقد بدا التعب في صوته: كفاكما أيها السيدان، كفاكما! ها أنا أرى أنكما لا تصدقاني! ولم تصدقاني في لحظة من اللحظات! أنا المذنب ولستم أنتم، كان ينبغي عليّ ألا أكون مطواعاً إلى هذا الحد. ففي أيّ سبيل جلبت العار لنفسي وأطلعتكم على سري؟ إن الأمر بالنسبة لكم مزحة لا أكثر. إنني أدرك ذلك من نظراتكم، أنت الذي غررت بي، أيها المدعي العام! أطلق صيحة النصر، إذا كان بوسعك أن تفعل ذلك... سحقاً لكما، يا من تحبان التعذيب!.

وأحنى ميتيا رأسه، وجعل وجهه بين يديه، وصمت رجلا القانون. ومضت دقيقة واحدة فرفع رأسه وأخذ ينظر إليهما ساهماً وقد ظهرت في وجهه آيات اليأس المطلق القتال، وانعقد لسانه عن الكلام، فبات شارداً كأنه لا يدرك ما يدور حوله. وكان عليهم في تلك الأثناء أن يفرغوا مما كانوا فيه،

وأن يبادروا فوراً إلى استجواب الشهود.

وكانت الساعة آنذاك قد بلغت الثامنة، والمصابيح قد أطفئت منذ فترة طويلة. وخرج في تلك اللحظة ميخائيل مكاروفيتش وكالغانوف اللذين كانا طيلة وقت التحقيق يذرعان أرض الغرفة خروجاً ودخولاً. وقد ظهرت آيات التعب الشديد على المحقق والمدعي العام أيضاً. وكان اليوم موحشاً يحمل على الكآبة، وقد تلبدت السماء بالغيوم وانهمر المطر مدراراً. وبات نظر ميتيا شارداً من خلال النافذة.

وفجأة سأل نيكولاي بارفينوفيتش قائلاً: «أتسمحان لي بالنظر من النافذة»؟

فأجابه هذا قائلاً: «بالقدر الذي تريد».

فنهض ميتيا وذهب إلى النافذة، وكان المطر ينسكب على الألواح الزجاجية المخضرة. ورأى الطريق الموحلة تحت النافذة. ولاح له عن بعد صفاً من أكواخ الفلاحين السوداء الحقيرة، وقد زادها المطر سواداً. وخطر بباله «إله الشمس ذو الغدائر الذهبية» وكيف أنه كان مصمماً على إطلاق النار على نفسه عند ظهور أول شعاع من أشعته. وفكر وهو يبتسم، بأن الانتحار ربما كان من الأفضل أن يتم في صباح يوم كهذا اليوم. وفجأة خفض يديه وعاد إلى «معذبيه».

وهتف قائلاً: أيها السيدان، أرى أن المنافذ قد سدت في وجهي. ولكن ماذا تم بأمرها؟ أخبراني ماذا آل إليه أمرها، أتوسل إليكما. يقيناً أنه لا حاجة لأن يلحقها الخراب معي! إنها بريئة، وما صيحتها أمس «إن الذنب كله ذنبي» إلا عن غير وعي. إنها لم تقترف إثماً، أبداً! لقد كان الحزن عليها يمضني طوال الليل وأنا جالس معكم.. أليس بإمكانكما أن تطلعاني على ما ستتخذونه بشأنها من إجراءات الآن؟.

فبادر المدعي العام إلى الإجابة عن سؤال ميتيا بانشراح مصطنع: بإمكانك أن تطيب نفساً فيما يتعلق بهذا الأمر يا ديمتري فيودوروفيتش. فنحن لم نعثر حتى الآن على سبب يدعونا إلى التدخل في أمر السيدة التي يهمك أمرها إلى هذا الحد. وأعتقد بأن الأمر لن يتغير في المراحل القادمة من

القضية... وبالعكس فإننا سنعمل كل ما في وسعنا لمساعدتها في هذا الأمر، فطب نفساً واهدأ بالاً.

ـ أيها السادة، شكراً لكم. لقد كنت أعلم أنكم رغم كل شيء أناس شرفاء مستقيمون. لقد أزحتم حملاً ثقيلاً كان ينوء به قلبي... حسناً، وماذا سنصنع الآن؟ إنني على استعداد.

ـ حسناً، يجب أن نسرع. يجب أن ننتقل إلى استجواب الشهود بدون إبطاء. وهذا يجب أن يتم بحضورك ولذلك...

فانبرى نيكولاي بارفينوفيتش يقول: أظن أننا نستحق قبل هذا أن نشرب الشاي.

وقر الرأي على أنه إذا كان الشاي معداً في الطابق السفلي، (وكان ميخائيل مكاروفيتش قد هبط ولا شك لكي ينال شيئاً من الشاي) فإنهم سيتناولونه ثم «يمضون في التحقيق» ويؤجلون تناول الفطور حتى يحين الظرف المواتي. وبالفعل كان الشاي معداً في الطابق السفلي، وسرعان ما أحضر إليهم. ومن قبيل الأدب، رفض ميتيا في البدء تناول الكوب الذي قدمه إليه نيكولاي بارفينوفيتش، ولكنه عاد وطلبه وجرعه بنهم واشتياق. وكان يبدو منهوك القوى إلى حد غريب، فقد كان منتظراً منه لقوته الجسمانية الهائلة أن لا تؤثر فيه تلك الليلة التي قضاها في عب الخمر، ورغم أنها كانت مليئة بالانفعالات الشديدة، سوى أقل الأثر، ولكنه شعر بأنه لا يستطيع رفع رأسه إلا بصعوبة، وكانت جميع الأشياء المحيطة به، بين آن وآخر تتراقص أمام عينيه. وقال يحدث نفسه: «لعلي سأبدأ في الهذيان في وقت غير طويل».

شهادات الشهود

الطفل

بعد ذلك بوشر باستجواب الشهود. ولن آتي على ذكر ذلك بالتفصيل كما هي عادتي. ولذلك فإنني لن أتوسع في القول كيف أن نيكولاي بارفينوفيتش ألح على كل شاهد منهم بأن يدلي بشهادته كما يقتضي الصدق والوجدان، موضحاً له أنه سيعود إلى إعادة شهادته مقسماً على صدقه فيها، وكيف أنه طلب أيضاً إلى كل واحد منهم أن يوقع محضر شهادته، وما إلى ذلك. وسأكتفي بذكر أن النقطة التي حظيت بالقسط الأوفر من الاهتمام أثناء استجواب الشهود، كانت نقطة الثلاثة آلاف روبل، وما إذا كان ميتيا قد أنفق في موكرو في المرة الأولى قبل شهر واحد ثلاثة آلاف أو ألفاً وخمسمائة روبل، ثم أي مبلغ أنفقه في الأمس أيضاً، ثلاثة آلاف أم ألف وخمسمائة روبل. والذي حصل أن جميع الشهود أدلوا بإفادات جاءت كلها ويا للأسف، ضد مصلحة ميتيا ولم تأت شهادة واحدة في صالحه، وقد جاء بعض الشهود بحقائق جديدة قوية تناقض أقوال ميتيا.

وكان أول الشهود تريفون بوريسوفيتش، ولم يشعر بأي حرج عندما وقف أمام المحققين. بل على نقيض ذلك كان يبدي للمتهم الغلاظة ويظهر له الاستنكار الشديد، وذلك مما أضفى عليه هالة من الصدق والهيبة. وكان ظاهر التحفظ قليل الكلام، وكان ينتظر أن يطرح عليه السؤال فيجيب عليه إجابة دقيقة ثابتة. وقد شهد شهادة حازمة لا تردد فيها حول المبلغ الذي أنفقه ميتيا قبل شهر بأنه لم يكن أبداً أقل من ثلاثة آلاف روبل، وأن جميع الفلاحين في هذه الناحية يشهدون على أنهم سمعوا ديمتري فيودوروفيتش يذكر مبلغ

الثلاثة الآلاف بنفسه. ثم قال: ما أكثر المال الذي أغدقه فقط على الفتيات الغجريات. يمكنني القول أنه أنفق عليهم وحدهن ألف روبل.

كان ميتيا مبتسماً وقال معلقاً على أقوال تريفون بوريسوفيتش: لا أعتقد بأنني أنفقت عليهن أكثر من خمسمائة روبل. كنت في ذلك الوقت ثملاً، وللأسف لم أتمكن من إحصاء النقود.

كان ميتيا يجلس منحرفاً وقد أدار ظهره نحو الستائر. وأخذ يصغي بأسى وحزن وتخاذل وكأن لسان حاله يقول: «آه قولوا ما يحلو لكم فالأمر سيان الآن».

وقال تريفون بوريسوفيتش بلهجة حازمة: «لقد أنفقت عليهن أكثر من ألف روبل يا ديمتري فيودوروفيتش. وكنت تنثر المال بدون حساب فيلتقطنه. إن الغجر أناس من الرعاع، وهم لصوص يسرقون الخيول. لقد أبعدوا عن هذا المكان وإلا لشهدوا بأنفسهم كم من المال أخذوا منك. لقد رأيت المال في يديك بنفسي. ولكنني لم أستطع أن أحصيه، فأنت منعتني من ذلك، إن هذا عين الحق. غير أني أستطيع أن أقول لك أنني من النظر إليه يمكنني القول أنه كان أكثر من ألف وخمسمائة روبل بكثير... يقول أن المبلغ كان ألفاً وخمسمائة! لقد رأينا مالاً كثيراً، وبوسعنا أن نقدر قيمة الأموال بالنظر إليها...».

وقد أكد تريفون بوريسوفيتش بخصوص المبلغ الذي أنفق أمس أن ديمتري فيودوروفيتش قد أبلغه لدى وصوله، أنه كان يحمل ثلاثة آلاف روبل.

وهنا تدخل ميتيا وصاح به قائلاً: «مهلاً، يا تريفون بوريسوفيتش، أصحيح ما تقول؟ إنني لم أقل لك قولاً صريحاً بأنني كنت أحمل ثلاثة آلاف».

- لقد قلت ذلك يا ديمتري فيودوروفيتش، لقد قلته بحضور أندريه، وأندريه ما زال موجوداً. استدعوه. ولقد أعلنت في الردهة، وأنت تلهو مع فتيات الجوقة، صائحاً بأعلى صوتك، أنك تخلف وراءك في هذا المكان ستة آلاف روبل. وفي هذا إشارة منك إلى ما أنفقته في المرة السابقة. وقد سمعك ستيبان وسيميون، وكان بطرس فوميتش كالغانوف واقفاً إلى جوارك في ذلك

الوقت، ومن الجائز أن يكون قد سمع أقوالك...

وكان لهذه الإشارة إلى «الستة» آلاف روبل أثر بالغ على المحقق والمدعي العام. وكانا مسرورين بهذا الأسلوب الجديد في حساب المبلغ المنفق، فثلاثة مع ثلاثة تساوي ستة، إذن فثلاثة آلاف مع ثلاثة آلاف تساوي ستة آلاف. إنه أمر واضح.

وقاما باستجواب جميع الفلاحين الذين ذكر تريفون بوريسوفيتش أسماءهم: ستيبان وسيميون والحوذي أندريه، وكالغانوف. وقد أثبت الفلاحان والحوذي بدون تردد ما جاء في إفادة تريفون بوريسوفيتش. وعنيا برواية أندريه للحديث الذي تمّ بينه وبين ميتيا أثناء انطلاقهما إلى موكرو وحيث يقول: أين ذاهب أنا، ديمتري فيودوروفيتش، إلى السماء أم إلى الجحيم، وهل سيغفر لي في الدار الأخرى أو لا؟.

وقد كان إيبوليت كيريلوفيتش العالم النفساني، يصغي إلى ذلك وهو يبتسم بطريقة معبّرة، وقد اقترح بأن تدون هذه الملاحظات عن مصير ديمتري فيودوروفيتش في أوراق القضية.

وعندما استدعي كالغانوف، دخل متردداً، وقد قطب جبينه وبدا عليه الضيق والتبرم. وكان يتحدث إلى رجلي القانون، وكأنه لم يكن قد قابلهما قط في حياته، رغم أنهما من معارفه، وكان يلتقي بهما يومياً لزمن مضى. وقد بدأ إفادته بقوله: «أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر ولا يود أن يعرف عنه شيئاً». ولكن ظهر أنه سمع بتلك الآلاف «الستة» وأقر بأنه كان يقف على مقربة من ميتيا عندما تحدث عنها. وقال أن النظر إلى ميتيا لم يتح له تقدير المال الذي كان يحمله بيديه. وقد أكد أن البولنديين كانا يغشان أثناء لعب الورق. وطرحت عليه مراراً أسئلة عدة، فكان رده عليها أن مركز ميتيا لدى اغرافينا الكسندروفنا تحسن بكل تأكيد بعد إقصاء البولنديين، وأنها أعلنت حبها له. وكان كالغانوف يتحدث بتحفظ واحترام عن اغرافينا ألكسندروفنا، كأنها كانت تنتسب إلى أرفع طبقات المجتمع، ولم يبح لنفسه أن يدعوها باسم غروشينكا. وكان تردد الشاب واضحاً في تقديم أية أدلة، ومع ذلك فقد أطال إيبوليت كيريلوفيتش استجوابه، واطلع منه دون غيره على جميع تفاصيل

«غرام» ميتيا، إذا جاز التعبير، في تلك الليلة. ولم يحاول ميتيا قط أن يستوقف كالغانوف. وأخيراً سمح الرجلان للشاب بالانصراف، فغادر الغرفة بدون أن يخفي شعوره بالاشمئزاز.

وتمَّ أيضاً استجواب البولنديين. إنهما لم يعرفا النوم طيلة الليل رغم كونهما قد أويا إلى الفراش في حجرتهما، ولدى وصول رجال الشرطة ارتديا ثيابهما على عجل ووقفا على أهبة الاستعداد، فهما كانا على يقين من حتمية استدعائهما. وقد أفضيا بشهادتهما مظهرين الوقار المشوب بالضيق والتبرم. وتبين من التحقيق أن البولندي القصير كان موظفاً متقاعداً من المرتبة الثانية عشرة، سبق أن خدم في سيبريا كطبيب بيطري، واسمه موسيالوفيتش. أما السيد فروبليفسكي، فقد تبين أنه كان يمارس طب الأسنان ولا يحمل شهادة. ومع أن نيكولاي بارفينوفيتش كان هو الذي طرح عليهما الأسئلة لدى دخولهما الغرفة، فقد أخذا يوجهان أجوبتهما إلى ميخائيل مكاروفيتش الذي كان يقف على حدة فإن جهلهما قادهما للاعتقاد أنه كان أخطر الحضور شأناً وأرفعهم منزلة، وكانا يخاطبانه في كل مناسبة باسم «حضرة الكولونيل». وعندما وجه هذا إليهما عبارات اللوم والتعنيف، عندها فقط أدركا أن أجوبتهما يجب أن توجه إلى نيكولاي بارفينوفيتش دون غيره. وتبين أنهما كانا يستطيعان التحدث بلغة روسية سليمة، خلا أنهما كانا يلفظان بعض الكلمات بلكنة بولندية. وقد جاء حديث السيد موسيالوفيتش عن صلاته الماضية والحاضرة بغروشينكا، مفعماً بالتفاخر والعاطفة، فثارت ثائرة ميتيا في الحال، وأعلن أنه لن يسمح «للوغد» أن يتحدث حديثاً كهذا في حضوره! وقد لفت السيد موسيالوفيتش انتباه المحققين في الحال إلى كلمة «الوغد» وطلب تسجيلها في المحضر، فصاح ميتيا وقد استبد به الغضب:

«إنه وغد، وغد، بوسعكم أن تدونوا ذلك. ودونوا أيضاً أنني لا أرهب المحضر وما زلت أعلن أنه وغد»!.

لقد دوَّن نيكولاي بارفينوفيتش الملاحظة فعلا في المحضر، ولكنه أظهر من اللباقة وحسن التصرف ما يستحق الثناء. فبعد أن وجه إلى ميتيا توبيخاً شديداً، أوقف التحقيق في الناحية الغرامية من القضية، وانتقل فوراً إلى

الأمور الأساسية. وكان ثمة أمر واحد ورد في شهادة البولنديين موضع اهتمام المحققين بصورة خاصة، وهو أن ميتيا حاول في تلك الغرفة بالذات أن يرشي موسيالوفيتش ليبتعد عن طريقه، وعرض له مبلغ ثلاثة آلاف روبل «مقابل التنازل عن مطالبه، على أن يدفع له تواً سبعمائة روبل ويدفع الباقي وهو ألفان وثلاثمائة روبل «بالمدينة في اليوم التالي» وأنه أقسم عندها بأنه لم يكن يحمل المبلغ كله معه في موكرو؛ بل أن المال كان في المدينة. وقد نفى ميتيا بحدة أن يكون قال له أنه سيدفع ما تبقى من المال حتماً في اليوم التالي، لكن فروبليفسكي أكد أقوال رفيقه. ثم أن ميتيا عاد وأقر وهو مطرق ومقطب جبينه بأن الأمر لا بد وأن يكون كما ذكر الرجلان البولنديان، وأنه كان مضطرباً آنذاك، وأنه ربما قال ذلك القول.

وقد تشبث المدعي العام بهذا الدليل، فقد تبين أنه سيثبت أثناء المحاكمة (وقد بنيا حقاً استنتاجهما على أساس هذه الحقيقة) بأن نصف الثلاثة الآلاف التي حصل عليها ميتيا، أو جزءاً منها، قد خبأه في المدينة قبل مجيئه أو ربما في مكان ما في موكرو. وهذا يفسر وجود ثمانمائة روبل فقط مع ميتيا، وهو الأمر الذي جعل المدعي العام في حيرة كبيرة. وقد كان هو الدليل الوحيد، رغم تفاهته، الذي كان حتى الآن يقوم في مصلحة ميتيا، والآن تداعى هذا الدليل الوحيد. وعندما استوضحه المدعي العام من أين كان يمكنه أن يعطي للبولنديين ألفين وثلاثمائة روبل في حين أنه، أي ميتيا، كان قد أنكر إنكاراً باتاً أنه كان يملك أكثر من ألف وخمسمائة روبل، أجاب معتداً بأنه لم يكن ينوي أن يعطي «للشاب» مالاً بل صكاً رسمياً يتنازل له بموجبه عن حقوقه في قرية تشيرماشنيا، وهي الحقوق التي عرضها على التاجر سامسونوف والسيدة خولاكوف. وعندها ابتسم المدعي العام للبراءة المتجلية في هذا العذر.

- أو كنت تظن بأنه يرضى بمثل هذا الصك عوضاً عن الألفين والثلاثمائة روبل نقداً؟.

فقال ميتيا بحرارة: «لا بد أنه كان يرضى بذلك، ربما ربح من وراء ذلك ليس ألفين فقط، بل أربعة أو ستة آلاف روبل. ولو وقع هذا الصك في

يده لجمع محاميه من بولنديين ويهود لتحقيق الربح. وربما لم يكفه الحصول على ثلاثة آلاف روبل، بل استخلص الضيعة كلها من قبضة الرجل العجوز».

وقد تم طبعاً ضم شهادة موسيالوفيتش في محضر التحقيق بجميع تفصيلاتها، ثم أذن المدعي العام والمحقق للبولنديين بالذهاب. ولم يتناول التحقيق معهما مسألة التزوير في أوراق اللعب إلا قليلاً، فقد سر نيكولاي بارفينوفيتش بهما سروراً عظيماً، فلم يشأ أن يثقل عليهما بالتوافه من الأمور، وفضلاً عن ذلك، فلم تكن المسألة أكثر من عراك سخيف قام به جماعة من السكارى بسبب أوراق اللعب. ولقد تميزت تلك الليلة بحدوث الشيء الكثير من السكر والصخب... وهكذا فقد ظلت المائتا روبل في جيوب البولنديين.

ثم استدعي مكسيموف، فجاء خائفاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى وهو حزين أشعث، وكان طيلة الوقت قابعاً في الطابق الأرضي مع غروشينكا، وجلس صامتاً لا يبدي ولا يعيد، لكنه كان «من حين لآخر، يبكي لحالها ويمسح دموعه بمنديل أزرق» كما وصفه ميخائيل مكاروفيتش، حتى أنها أخذت هي نفسها تواسيه وتعزيه. وقد اعترف العجوز في الحال بأنه اقترف ذنباً، وأنه «لحاجته اقترض عشرة روبلات» من ديمتري فيودوروفيتش، وأنه كان ينوي ردّها. وعندما سأله نيكولاي بارفينوفيتش عما إذا كان قد عرف المبلغ الذي كان ديمتري فيودوروفيتش يحمله بيديه، فهو بلا شك استطاع رؤية المال عندما تناول الورقة النقدية من ديمتري، أكد مكسيموف أنه رأى عشرين ألفاً.

فسأله نيكولاي بارفينوفيتش مبتسماً: «هل سبق ورأيت من قبل مبلغ عشرين ألف روبل»؟.

- إذا أردت الصدق. لم أر عشرين ألفاً، بل سبعة آلاف، عندما رهنت زوجتي قطعة أرض صغيرة، وكانت تفاخرني بالمبلغ ولم تسمح لي برؤيته إلا عن بعد. إنها رزمة كبيرة من الأوراق النقدية ذات الألوان الزاهية. وكذلك كانت نقود ديمتري فيودوروفيتش ذات ألوان زاهية... وأسرع المحققان باستجوابه.

وأخيراً جاء دور غروشينكا. وكان واضحاً أن نيكولاي بارفينوفيتش أدرك ما قد يكون لوجودها من أثر على ميتيا، فأبلغه هامساً بعض كلمات

التحذير، ولكن ميتيا خفض رأسه صامتاً، وانتهى إلى قناعة «بأنه لن يقدم على إثارة الشغب». وقد تولى ميخائيل مكاروفيتش نفسه مرافقة غروشينكا إلى الغرفة. وإذ دخلت كانت متجهمة الوجه صارمة الملامح، حتى كادت تبدو عليها مظاهر الوقار، فجلست على الكرسي بهدوء. فدعاها نيكولاي بارفينوفيتش إلى الجلوس، وكانت عظيمة الشحوب وقد تدثرت بمطرف نفيس أسود لاتقاء البرد الشديد، إذ كان البرد تسبب لها بنوبة خفيفة من الحمى وكانت هذه أولى أعراض المرض الذي أصابها عقب تلك الليلة ولازمها أمداً طويلاً. وقد أحدثت رصانتها ونظرتها الثابتة الصريحة ورباطة جأشها أثراً طيباً في نفوس الجميع، بل أن نيكولاي بارفينوفيتش أحس قليلاً «بسحرها». وقد أقر فيما بعد في حديثه عن هذا الأمر أنه لم يدرك «مقدار أناقة المرأة» إلا في تلك اللحظة. فبالرغم من أن بصره وقع عليها مرات عديدة من قبل، فإنه كان ينظر إليها نظرته إلى «واحدة من داعرات المنطقة». وقد أخذ يتحدث عنها في الأوساط النسائية ويقول عنها بحماسة: «إن صفاتها هي صفات امرأة من خيرة سيدات المجتمع» لكن هذه الأقوال واجهتها السيدات بالاحتقار والاشمئزاز، وأخذن يصفنه «بالرجل العابث». وكان في داخله مرتاحاً جداً لهذه الصفة.

وعندما دخلت غروشينكا إلى الغرفة، ألقت نظرة خاطفة على ميتيا الذي بادلها النظر بقلق، غير أن محياها أعاد إليه الثقة فوراً. وبعد الأسئلة والتحذيرات المبدئية التي لا غنى عنها، سألها نيكولاي بارفينوفيتش بتردد مصطنع مع إظهاره آيات اللطف والإيناس، عن سر علاقتها بالملازم السابق ديمتري فيودوروفيتش كرامازوف. وقد اجابت غروشينكا عن هذا السؤال قائلة بحزم: «إنه كان أحد معارفي. وقد كان يأتي لزيارتي كأحد الأصدقاء خلال الشهر المنصرم». كما أجابت بصراحة تامة عن الأسئلة الأخرى التي ألقيت عليها فقالت، رغم أنها «أحياناً» كانت تراه رجلاً جذاباً، فإنها لم تحببه، ولكنها ملكت قلبه وقلب والده العجوز «في حقدها الدنيء»، وأنها كانت ترى ميتيا عظيم الغيرة من فيودور بافلوفيتش وسائر الناس ولكن ذلك لم يبعث في نفسها سوى التسلية. وقالت إنها لم تكن قط تنوي موافاة فيودور بافلوفيتش

بل كانت تسخر منه.

ثم قالت: «طيلة الشهر الماضي، لم أكن أفكر بأيّ منهما، بل كنت أنتظر رجلاً آخر غرر بي» واختتمت كلامها قائلة: ولكنني أظن بأنه لا حاجة بكم إلى الاستفهام عن هذه الناحية، ولا حاجة بي إلى الإجابة على سؤالكم، فهو شأن خاص بي.

وقد امتثل نيكولاي بارفينوفيتش لقولها. وكف عن إثارة الناحية «الغرامية» من القضية وانتقل إلى الناحية الجدية، أي الناحية التي كانت محور الإهتمام الشديد والمتعلقة بالثلاثة آلاف روبل. وقد أيدت غروشينكا القول بأن ثلاثة آلاف روبل، قد أنفقت بلا ريب عند هروبها في المرة الأولى مع ميتيا، فقالت أنها سمعت ديمتري يقول إن ما أنفق كان ثلاثة آلاف، ولكنها لم تتحقق من المبلغ بنفسها.

وسألها المدعي العام: «هل نطق بذلك أمامك وحدك أم بحضور بعض الناس، أم أنك كنت موجودة وسمعته يقول هذا القول لغيرك».

فأجابت غروشينكا بأنها سمعته يقول ذلك أمام الناس، وأنه كان قد أسرّ لها بذلك.

وعاد المدعي العام إلى سؤالها: هل قال لك ذلك مرة واحدة أم عدة مرات؟ فردت عليه بأنه قال لها ذلك عدة مرات.

وقد سرّ إيبوليت كيريلوفيتش بهذا الدليل أيما سرور. وقد تبين خلال متابعة استجواب غروشينكا أنها كانت هي أيضاً تعلم مصدر المال، وأن ديمتري فيودوروفيتش قد حصل عليه من كاترينا إيفانوفنا.

- ألم يبلغك ولو مرة واحدة أن المال الذي أنفق قبل شهر لم يكن ثلاثة آلاف روبل، بل أقل من ذلك، وأن ديمتري فيودوروفيتش قد احتفظ بنصف هذا المبلغ لاستعماله الشخصي؟.

وقد أجابت غروشينكا على هذا السؤال بالنفي وأكثر من هذا فإنها أوضحت له أن ميتيا، على نقيض ذلك، كان كثيراً ما يقول لها أنه لا يملك فلساً.

ثم قالت: «لقد كان دائماً يتوقع الحصول على بعض المال من أبيه».

وانبرى نيكولاي بارفينوفيتش للقول فجأة: «ألم يتفق له أن ذكر بحضورك... عرضاً وفي لحظة من لحظات الضيق أن فكرة الاعتداء على حياة والده قد راودته؟.

فأجابت غروشينكا متأوهة: «بلى لقد قال ذلك».

ـ مرة واحدة أو عدة مرات؟

ـ لقد قاله عدة مرات، وكان دائماً يقول ذلك أثناء غضبه.

ـ وهل كنت تصدقين بأنه قد يقدم على هذا العمل؟.

فأجابت بلهجة حازمة: كلا، إنني لم أكن أصدقه أبداً، فأنا واثقة من طهارة قلبه.

وهنا صاح ميتيا فجأة: «أيها السيدان، إسمحا لي أن أقول كلمة واحدة لأغرافينا الكسندروفنا بحضوركما».

فقال نيكولاي بارفينوفيتش موافقاً: «يمكنك ذلك».

فنهض ميتيا عن كرسيه وقال: «اغرافينا ألكسندروفنا، ثقي بالله وبي. إنني لم أقتل أبي»!.

قال هذا وعاد إلى مقعده، فنهضت غروشينكا ورسمت شارة الصليب بخشوع أمام الأيقونة.

لقد بدت متأثرة جداً وقالت بصوت مرتعش: «الشكر لك يا ربي». والتفتت إلى نيكولاي بارفينوفيتش وهي لا تزال واقفة، وأضافت تقول: صدقوا ما قاله الآن، فأنا أعرفه. فهو إذا أراد الممازحة أو المعاندة، فإنه قد يقول أي شيء، ولكنه لا يمكن أن يخدعكم ويخالف ضميره. إنه يقول الحقيقة وبإمكانكم تصديقه.

فقال ميتيا بصوت مرتعش: شكراً يا اغرافينا ألكسندروفنا، لقد زودتني بشحنة جديدة من الشجاعة.

ثم استؤنف التحقيق معها. وسئلت عن المال الذي أنفق في اليوم السابق، فقالت أنها لم تعلم مقدار ذلك المال، ولكنها سمعت ميتيا يقول أمام الكثيرين إنه كان لديه ثلاثة آلاف روبل. ولما سئلت عن مصدر المال أجابت

بأن ميتيا قد ذكر لها أنه «سرقه» من كاترينا إيفانوفنا وأنها قد رفضت أن يكون سرقه، وأن عليه أن يرد إليها المال في اليوم التالي. ولما ألح عليها المدعي العام في السؤال عما إذا كان المال الذي قال عنه أنه سرقه من كاترينا إيفانوفنا هو ذاته الذي أنفقه بالأمس، أو أنه كان ذلك المبلغ الذي بدده قبل شهر، أجابت بأن ما فهمته من أقواله أنه كان يقصد المال الذي أنفقه قبل شهر.

ثم أخلي سبيل غروشينكا، وقد أنبأها نيكولاي بارفينوفيتش بأنها تستطيع العودة إلى المدينة حالاً، وأنه مستعد، في حدود قدرته، لمساعدتها بإحضار الخيول لها مثلاً، أو بتأمين من يرافقها إذا رغبت بذلك.

فقالت غروشينكا وهي تنحني له: أشكرك خالص الشكر. سأذهب برفقة هذا السيد العجوز، سآخذه معي في عربتي إلى المدينة. أما الآن، فإنني إذا سمحتم، سأنتظر في الطابق السفلي لمعرفة قراركم بشأن ديمتري فيودوروفيتش.

ثم غادرت الغرفة، وكان ميتيا هادئاً، بل كان يبدو منشرحاً. لكن حالته هذه لم تستمر سوى برهة وجيزة. وقد شعر بضيق نفسي سببه انهيار جسماني غريب، وقد أطبق جفنيه لفرط ما أصابه من إجهاد، وأخيراً تم استجواب الشهود، وانتقل المحققان إلى وضع المحضر في صيغته النهائية. فنهض ميتيا من كرسيه واتجه إلى الزاوية قرب الستارة واستلقى على صندوق كبير مغطى بخرقة، وسرعان ما أخذه النوم.

وقد رأى في نومه حلماً غريباً، لا يتناسب مطلقاً مع ظروفه الحالية زماناً ومكاناً.

لقد رأى نفسه يركب عربة في إحدى بقاع السهوب، التي كان قد نقل إليها منذ عهد بعيد، وكان أحد الفلاحين يسوق العربة. وقد شد إليها جوادان، وسط الثلج والصقيع. وكان ذلك في أوائل تشرين الثاني، والثلج يتساقط قطعاً كبيرة رطبة كانت تذوب حال ملامستها الأرض. وقد أحس ميتيا بالبرد، وكان الفلاح ذو اللحية المسترسلة الجميلة يسوق العربة كأمهر الحوذيين، ولم يكن طاعناً في السن، بل كان يناهز الخمسين من عمره،

ويرتدي جلباباً أقل زهواً من لباس الفلاحين، وعلى مقربة من المكان كانت تقوم قرية، فرأى ميتيا أكواخها السوداء عن بعد، وكان نصف هذه الأكواخ محترقاً، بقيت دعاماتها فقط قائمة ولكنها محترقة. ولما أوغلا في السير شاهدا عدداً كبيراً من الفلاحات يقفن في صف طويل إلى جانب الطريق. وكن ناحلات الأجسام شاحبات الوجوه، وقد شابتها سمرة، ولفت انتباهه بصورة خاصة إحداهن، وكانت امرأة ممشوقة القوام بارزة العظام مخروطة الوجه تقف في طرف الصف، تبدو للناظر إليها في الأربعين من عمرها مع أنها ربما لم تكن تتجاوز العشرين. وكانت تحمل على ذراعيها طفلاً صغيراً يصدر بكاءاً عالياً. وقد جف ثدياها فلم يعد فيهما قطرة واحدة من اللبن، ولم ينقطع بكاء الطفل، وكان يمد يديه الصغيرتين العاريتين، وقد جعل البرد قبضتيه مزرقتين.

وسأل ميتيا والعربة منطلقة بهما: «لماذا يبكين؟ ما الذي يبكي هؤلاء النسوة»؟.

فأجاب الحوذي: «إنه الطفل الرضيع الذي يبكي». وقد أخذ ميتيا لدى سماعه الحوذي الفلاح ينطق بكلمة «الرضيع» وطرب لأن الفلاح وصف الطفل بأنه «طفل رضيع». ولقد بدت له هذه الكلمة أكثر رقة من غيرها. وعاد ميتيا يسأل متغابياً «ولكن ما الذي يبكيه؟ ولأي سبب ذراعاه عاريتان؟ لماذا لا يقمطنه»؟.

- إن الرضيع يشعر بالبرد. لقد تجمدت ثيابه، ولم تعد صالحة لتدفئته.

وعاد ميتيا يسأل كالأحمق: «ولكن لماذا؟ لماذا»؟.

- لماذا، إنهم قوم فقراء، أتت النار على أكواخهم».

فقال ميتيا وكأنه لم يفهم: «كلا، كلا، أنبئني لماذا تقف هؤلاء الأمهات المسكينات هناك؟ وما سبب فقرهن؟ ولأي سبب كان هذا الطفل الرضيع فقيراً؟ ولم هذه السهوب قاحلة؟ لماذا لايتبادلون العناق والقبلات؟ ولماذا لا يرنمون ترانيم البهجة والفرح؟ لماذا أكتأبت نفوسهم من الفقر المدقع؟ لماذا لا يطعمون الطفل الرضيع»؟.

وقد شعر ميتيا برغبة في طرح هذه الأسئلة وبهذا الأسلوب مع أنها

كانت تدل على غباء ومجافاة للمنطق. وأحس بأن شعوراً بالرأفة لم يعرف له مثيلاً قد ملأ قلبه، كما وشعر برغبة في البكاء، ورغبة في مساعدتهم جميعاً، بحيث يكف كل من الرضيع والأم المكتئبة الناحلة عن البكاء، وبحيث تنضب دموعهم بعد تلك اللحظة، وكان راغباً في تقديم المساعدة فوراً، لتوه، بغض النظر عن جميع الصعاب، وبكل ما في أبناء أسرة كرامازوف من طيش وتهور.

وسمع عن قرب، صوت غروشينكا العذب المفعم بالعاطفة يقول له: «وأنا آتية معك، ولن أتركك الآن حتى آخر أيام حياتي، إنني آتية معك. وشعر بالعاطفة تضطرم في قلبه، وأخذ يكافح للسير قدماً نحو النور، وتاق إلى الحياة، إلى الحياة والإقدام باتجاه النور الجديد الذي يناديه، وأراد أن يسرع، أن يسرع في الذهاب إليه، الآن، في الحال»!.

وقال متعجباً وهو يفتح عينيه: «ماذا! أين؟ وقد استوى في مكانه على الصندوق وكأنه صحا من نوبة إغماء، وأشرق وجهه بابتسامة عذبة. وكان نيكولاي بارفينوفيتش يقف بالقرب منه، ويدعوه إلي الإصغاء لتلاوة المحضر عليه بصوت مرتفع لكي يوقعه. وخيل لميتيا أنه أغفى ساعة أو أكثر من ساعة لكنه لم يسمع ما قاله نيكولاي بارفينوفيتش. وقد أخذته المفاجأة إذ وجد تحت رأسه وسادة لم تكن من قبل عندما استلقى على الصندوق خائر القوى.

وهتف مبدياً الامتنان العظيم: «من وضع هذه الوسادة تحت رأسي؟ من هو اللطيف إلى هذا الحد»؟. وكاد صوته يختنق لفرط التأثر، كأن صنيعاً قد أسدي إليه.

ولكنه لم يعرف قط ذلك المحسن الكريم، ربما كان أحد الشهود الفلاحين، أو أمين السر الصغير الذي يصطحبه نيكولاي بارفينوفيتش معه، ولكنه أحس بأن روحه كلها كانت تضطرب لفرط التأثر. وقال وهو يتجه نحو المنضدة أنه سيوقع على أي شيء يطلبون منه توقيعه.

وقال بلهجة غريبة: «لقد رأيت أيها السادة حلماً جميلاً». ثمة نور جديد سطع على وجهه، وكأنه نور الغبطة والسعادة.

نقل ميتـيا

وقع ميتيا محضر التحقيق، فالتفت إليه نيكولاي بارفينوفيتش بوقار متكلف وتلا عليه «وثيقة الاتهام»، وقد جاء فيها أنه في عام كذا في يوم كذا في مكان كذا، قام محقق المحكمة المركزية كذا بالتحقيق مع فلان (ميتيا) المتهم بكيت وكيت (وقد دونت جميع التهم المنسوبة إليه بدقة وعناية). وإذ يعتبر أن المتهم، الذي لم يعترف باقتراف الجرائم المنسوبة إليه ولم يقدم دفاعاً معتبراً وحيث أن الشهود فلاناً وفلاناً، والقرائن كيت وكيت جميعها في غير مصلحته، عملاً بالمواد كذا وكذا من قانون العقوبات، وما إلى ذلك فقد قرر، أنه رغبة في منع كافة الوسائل التي تمكن فلان (ميتيا) من تفادي الملاحقة والمقاضاة، يجب احتجازه في سجن كذا، وقد قام بإبلاغ المتهم بموجب هذا وتسليم نسخة عن «وثيقة الاتهام» إلى نائب المدعي العام، إلى آخر الإجراءات.

وإذا رمنا الاختصار فقد تم إبلاغ ميتيا بأنه قد صار منذ تلك اللحظة سجيناً، وبأنه سينقل فوراً إلى المدينة، وهناك يلقى خلف أبواب مكان كريه موحش. ولقد أصغى ميتيا إلى ذلك باهتمام، واكتفى بأن هزَّ كتفيه استخفافاً.

ـ حسناً، أيها السادة، إنني لا ألومكم. فأنا مستعد وأنا أدرك أنه ليس أمامكم غير ما قمتم به.

وقد أبلغه نيكولاي بارفينوفيتش مترفقاً أنه سينقل من قبل ضابط الشرطة الريفي مافريكي مافريكييفيتش الذي كان هناك صدفة.

وقاطعه ميتيا قائلاً: «مهلاً»، وكان مدفوعاً إلى الكلام بشعور لم ينجح بتجاوزه. ثم قال يخاطب جميع الحضور في الغرفة:

«أيها السادة، إننا جميعاً قساة، إننا جميعاً وحوش، ونحن جميعاً نحمل

الناس على البكاء، بما فيهم النساء، والأطفال الرضع، ولكن يجب أن توضع جميع الأمور في نصابها، الآن، إنني أحقر الوحوش الزحافة! لقد أقسمت على أن أصلح شؤوني، لكنني كنت في كل يوم أقترف نفس الأفعال القبيحة. وأنا مدرك الآن أن أمثالي من الرجال يستحقون ضربة، ضربة من ضربات القدر تقضي عليهم وتواجههم بالقوة العليا. وما كان ينبغي لي قط أن أسمو من تلقاء نفسي لكن الصاعقة انقضت. إنني أقبل عذاب التهم الموجهة لي، وأقبل عار التشهير بي بين الناس، إنني أرجو أن أشقى وأن يتطهر قلبي، ومن الممكن أن أتطهر أيها السادة! ولكن أصغوا إليَّ للمرة الأخيرة، إنني لست مسؤولاً عن مقتل أبي. وأنا أقبل فعلاً العقاب لا لأنني قتلته، بل لأنني كنت أنوي قتله، وربما كان من الجائز أن أقتله فعلاً. ومع ذلك فأنا أريد أن أكافح لرد هذه التهمة عني وها أنا ذا أنذركم بذلك. إنني سأكافح حتى الرمق الأخير والله هو المقرر. وداعاً أيها السادة، سامحوني لأنني كنت أصيح بكم أثناء التحقيق. كم كنت أحمق عندئذ... وسأصير سجيناً بعد دقيقة واحدة، ولكنني أنا ديمتري فيودوروفيتش أمد لكم يدي كرجل حر للمرة الأخيرة. وأنا إذ أقول لكم وداعاً، فإنما أودع الناس كلهم.

وتهدج صوت ميتيا ومد يده، لكن نيكولاي بارفينوفيتش الذي كان أدنى الحاضرين منه في تلك اللحظة، أخفى يديه خلف ظهره بحركة مفاجئة كادت تكون عصبية. وقد لاحظ ميتيا ذلك لتوه، فأجفل وانهارت يده الممدودة حالاً.

وقال نيكولاي بارفينوفيتش متلعثماً، وقد بدا منزعجاً: «إن التحقيق المبدئي لم ينته بعد، وسنتمه في المدينة، وأنا من جانبي على استعداد بطبيعة الحال لأن أتمنى لك كل نجاح... في دفاعك... والحقيقة يا ديمتري فيودوروفيتش، هي أنني ما زلت أعتبرك، إذا جاز هذا القول، عاثر الحظ أكثر منك مجرماً. ونحن جميعاً، في هذا المكان، إذا كان لي أن أجرؤ على التحدث باسم الجميع، على استعداد لأن نعترف بأنك في قرارة نفسك شاب شريف دفعته ويا للأسف أهواؤه الجامحة بعيداً عن الحد المقبول بعض الزيادة...».

عندما أنهى نيكولاي بارفينوفيتش كلامه، كان جسمه الضئيل بحجمه منتصباً شامخاً. ولقد خيل لميتيا في لحظة عابرة أن هذا «الصبي» سيأخذ بيده ويسحبه إلى إحدى زوايا الغرفة ويجدد معه الحديث عن «الفتيات». لكن كثيراً من الأفكار، حتى ما كان منها لا ينسجم مع الموقف، تراود أحياناً بال السجين، حتى في لحظة سوقه إلى ساحة الإعدام.

ثم قال ميتيا متسائلاً: أيها السادة، إنكم أخيار، رحماء، هل أستطيع أن أراها لكي أقول لها «وداعاً» للمرة الأخيرة؟.

ـ لا ريب في ذلك، ولكن يجب أن تأخذ بعين الاعتبار... في الحقيقة، إن هذا مستحيل الآن، على انفراد بل بوجود شهود.

ـ حسناً، لا بد من ذلك، لا بد!.

وجيء بغروشينكا إلى الغرفة وكان الوداع قصيراً، ولم يتبادل ميتيا معها سوى بضع كلمات، ولم يرض هذا الوداع نيكولاي بارفينوفيتش أبداً. وقد انحنت غروشينكا انحناءة عظيمة لميتيا وقالت له:

ـ لقد قلت لك أنني لك، وسأكون لك، وسأتبعك إلى الأبد، وإلى أي مكان يرسلونك إليه. وداعاً. إنك بريء ولو أن حظك العاثر شاء أن تكون كما أنت.

وارتعشت شفتاها وانهمرت الدموع من عينيها.

ـ اصفحي عني يا غروشا، لأنني أحببتك، ولأن حبي سبّب لك الخراب.

ولقد كان ميتيا يود أن يقول أكثر من هذا، ولكنه كفّ عن الكلام وخرج من الغرفة. وسرعان ما أحاط به رجال أخذوا يرقبونه بعيون يقظة. وقد كانت عربتان تقفان على أهبة الاستعداد في أسفل درجات السلم التي انطلق به أندريه إليها بالأمس بسرعة عظيمة على متن عربته التي تجرها ثلاثة جياد. وكان الضابط مافريكي مافريكيفيتش ببنيته القوية وملامحه الخشنة ووجهه المتغضّن منزعجاً من هفوة اقترفها أحد رجاله، ويصيح بهم غاضباً. وقد طلب إلى ميتيا أن يدخل إلى العربة بلهجة مسرفة بفظاظتها.

وقال ميتيا في نفسه وهو يهم بالصعود إلى العربة: إن وجه الرجل

يختلف عما كان عندما كنت أقدم له كؤوس الشراب في الحانة. وكان جمع من الناس يقف عند أبواب الفندق، وفيه الفلاحون والنسوة والحوذيون. وهبط تريفون بوريسوفيتش درجات السلم أيضاً، وكان الجميع يحدقون بميتيا.

وصاح ميتيا فجأة من داخل العربة: «إصفحوا عني أيها الأخيار إذ أفارقكم»!.

وسمع صوتين أو ثلاثة أصوات تردد قائلة: «وأنت أيضاً إصفح عنا»!.

ـ استودعك الله أنت أيضاً يا تريفون بوريسوفيتش!

لكن تريفون بوريسوفيتش لم يكلف نفسه عناء الالتفات إليه. وربما كانت مشاغله كثيرة. وكان هو أيضاً يصيح ويضطرب. وقد اتضح أن كل شيء كان معداً في العربة الثانية التي كان فيها إثنان من رجال الشرطة لمرافقة مافريكي مافريكييفيتش. وكان الفلاح الذي أوكل بقيادة العربة الثانية يتمتم زاعماً أن الدور لم يكن دوره بل دور آكيم، ولكن آكيم كان غائباً، ولم يعثروا عليه، فاستدعوه هو. وأخذ الفلاح يلح في طلبه راجياً منهم المزيد من الانتظار.

وهتف تريفون بوريسوفيتش قائلاً: «هل ترى يا مافريكي مافريكييفيتش أية فئة من الناس فلاحونا، إنهم لا يخجلون». والتفت إلى الحوذي وقال له: «لقد أعطاك آكيم خمسة وعشرين روبلاً أول أمس وقد أنفقتها كلها على الخمرة وها أنت الآن تصيح شاكياً». وعاد يخاطب الضابط قائلاً: «إنني مندهش لما تبديه من طيبة وتسامح مع فلاحينا الأدنياء يا مافريكي مافريكييفيتش، إن هذا هو كل ما أستطيع قوله».

وقال ميتيا: «ولكن ما حاجتنا إلى عربة ثانية، لننطلق بواحدة يا مافريكي مافريكييفيتش، إنني لن أقوم بالشغب ولن أتمرد على النظام ولن أهرب منك أيها الرفيق القديم، ما حاجتنا إلى الحراسة»؟.

فأجابه مافريكي مافريكييفيتش ثائراً، وكأنه يشعر بالغبطة لتوفر الفرصة للتفريج عن غيظه المكبوت: «إنني أطلب منك يا سيدي أن تتعلم كيف تخاطبني، إذا لم تكن قد تعلمت ذلك قبل الآن. وأنا لست رفيقاً قديماً لك، فلا تخاطبني بصيغة المفرد وبوسعك أن توفر نصيحتك إلى وقت آخر»!.

وصمت ميتيا صاغراً. واحمر وجهه خجلاً. وفي غضون لحظة واحدة شعر ببرد يطرق كيانه. وكانت السماء قد أمسكت فتوقف هطول المطر، ولكنها كانت بعد ملبدة بالغيوم، وكانت الريح الباردة تهب فتلفح وجهه.

وقال ميتيا مفكراً وهو يهز كتفيه: «لقد أصبت بالبرد».

وأخيراً ولج مافريكي مافريكييفيتش العربة، وجلس بجسمه الثقيل دافعاً ميتيا إلى الزاوية وكأنه لا يلحظ ذلك. والحق أنه لم يكن يطيق المزاح وكان يكره المهمة التي أوكلت إليه كرهاً شديداً.

وصاح ميتيا مرة ثانية: «وداعاً يا تريفون بوريسوفيتش»! وقد شعر وهو يناديه بأنه لا يرفع صوته بمودة، بل كان يشعر بأن نداءه كان لا إرادياً مبعثه الغضب.

ولكن تريفون بوريسوفيتش ظل يبدي الكبرياء في وقفته. وقد شبك يديه خلف ظهره، وأخذ يحدق في وجه ميتيا غاضباً متجهماً من غير أن يجيبه وفجأة سمع صوت كالغانوف يصيح به وهو يخرج مسرعاً: «وداعاً، يا ديمتري فيودوروفيتش، وداعاً»! وركض باتجاه العربة ومد يده إلى ميتيا، ولم تكن قبعته على رأسه.

وقد اتسع الوقت لميتيا لكي يتناول يده ويشد عليها. ثم قال بحرارة: «وداعاً يا صديقي الشهم! إنني لن أنسى كرمك»!.

غير أن العربة تحركت فافترقت يداهما. وأخذ الجرس يقرع وانطلقت العربة تنقل ميتيا.

وعاد كالغانوف إلى الفندق عدواً فانتحى زاوية جلس فيها وأطرق وغطى وجهه براحتيه وطفق يبكي. وظل على هذه الحال فترة طويلة وهو يبكي كطفل صغير لا كشاب يبلغ العشرين من عمره، فلقد كان يا للأسف على يقين بأن ميتيا قتل والده.

وهتف قائلاً وهو يشعر باليأس والمرارة، وقد تناثرت كلماته وتشتتت أفكاره: «ما هؤلاء البشر؟ وكيف يمكن أن يأتوا مثل هذه الأعمال»؟ وكان في تلك الآونة يود لو تنتهي حياته.

ثم قال وقد تملكه اليأس: هل تستحق الحياة كل هذا؟ لم هذه الحياة؟.

الباب العاشر



الصبية



كوليا كراسوتكين

حدث ما حدث في أوائل تشرين الثاني، وقد اشتد القر، وهبطت الحرارة إلى إحدى عشرة درجة وتوقف سقوط الثلج، لكن بعضه سقط على الجليد أثناء الليل، وهبت ريح عاتية باردة وأخذت تعبث به وتحمله إلى شوارع مدينتنا المقفرة، ولا سيما البقعة التي يقوم فيها السوق. لقد كان صباح ذلك اليوم قاتماً يبعث الكآبة في النفوس.

وعلى مقربة من السوق، بالقرب من حانوت بلوتنيكوف، كان يقوم منزل صغير، امتاز بنظافته التامة من الداخل والخارج. كان هذا منزل السيدة كراسوتكين، أرملة أمين سر المنطقة السابق، المتوفّى قبل أربعة عشر عاماً. وكانت لا تزال في ربيعها الثاني والثلاثين، ومحتفظة بنضارتها، وكانت تعيش في منزلها الأنيق الصغير معتمدة على وسائلها الخاصة، في عزلة جلبت لها الاحترام، إنها سيدة لطيفة المعشر تمتاز بروح مرحة. توفي زوجها بعد مضي عام واحد أو أكثر على زواجهما، وكانت آنذاك تناهز الثامنة عشرة وولدت ابناً قبل وفاته بأيام معدودات. ومنذ وفاة زوجها نذرت نفسها قلباً وروحاً، لتنشئة كنزها الغالي، ابنها كوليا. ومع أنها أحبته بكل جوارحها طيلة تلك الأربعة عشر عاماً، فإنه كان سبباً لألمها أكثر منه مدعاة لسعادتها فكانت خلال تلك المدة لا يكاد يمر يوم بدون أن يأكلها الرعب ويتهددها الإغماء خشية أن يصاب بمرض، أو زكام، أو يأتي عملاً شريراً، أو يصعد على كرسي ويسقط عنه، وما إلى ذلك. ولما بدأ كوليا يذهب إلى المدرسة أقبلت الأم بكليتها تتابع جميع العلوم معه لكي تساعده وتمكنه من مذاكرة الدروس معها. وقد قامت بالتعرف على الأساتذة وزوجاتهم، بل تعرفت على رفاق كوليا في المدرسة فمنحتهم حبها وعطفها، مؤملة من وراء ذلك حماية ابنها من

مشاكستهم وسخريتهم واعتدائهم عليه بالضرب، وقد أسرفت في ذلك إلى حد أن الصبية أخذوا فعلاً يهزأون منه بسببها، ويعيرونه بأنه «ابن مدلل».

ولكن الصبي كان قادراً على الذود عن نفسه. فقد كان شديد العزيمة، أشيع في صفه أنه «يتمتع بقوة هائلة»، وقد أثبت فعلاً أنه كان كذلك، وكان مميزاً بنشاطه الفائق وجرأته وإقدامه، ناجحاً في دروسه، وقد سرت شائعة في المدرسة بأنه كان يبز الأساتذة، داردانيلوف، في دروس الحساب وتاريخ العالم. لم يكن متعالياً غير أنه كان يشمخ بأنفه على الجميع ومع ذلك فكان حلو المعاشرة. وكان يقبل احترام أترابه كشيء يدينون به له، لكنه كان صادقاً ودوداً معهم. وفضلاً عن ذلك فقد كان يعرف حدوده فلا يسرف في التمادي، ويستطيع أن يكبح جماح نفسه في الوقت المناسب. أما علاقاته مع المعلمين فقد كان يحرص ألاَّ تتجاوز قط ذلك الحد الغامض الذي تصبح بعده كل هفوة انتهاكاً لحرمة النظام، لا يغتفر. ولكنه كان مولعاً بالخصام كلما أتاحته الفرص فهو، بذلك، لا يختلف عن أصغر الصبية في المدرسة. وكان يفعل ذلك حباً في استثارة الإعجاب، وابتكار الأشياء، والقيام بعمل بارز ذي أثر، أكثر منه حباً في الخصام.

وكان شديد الغرور دعياً، كما كان يعرف كيف يحمل حتى أمه على الإذعان لإرادته، فيتسلَّط عليها إلى درجة الاستبداد. وقد رضخت لمشيئته بل أنها أرخت له العنان منذ سنين. والفكرة الوحيدة التي كانت لا تطيق لها احتمالاً هي أن ابنها يكن لها حباً عظيماً. وكان يخيل إليها دوماً أن كوليا «عديم الشعور» لها فكانت في بعض الأحيان تؤنبه على فتوره نحوها، وهي تنتحب وتذرف العبرات، وقد كره الصبي منها هذا التوجه والتصرف، فكان يزداد تهرباً من تلبية طلبها بإظهار شعوره نحوها، كلما ألحت هي فيه. وكان يبدو أنه يفعل ذلك عامداً، لكن الحقيقة أنه لم يتعمد ذلك، بل كان يفعله بالغريزة، إنها سجيته. وكانت أمه مخطئة، فقد كان كلفاً بها، ولكنه كان يكره «العواطف» التي تبدو «خضوعاً» على حد تعبيره بلغة صبية المدارس.

وكانت في المنزل خزانة للكتب تحتوي على بضعة كتب خلفها والده. وكان كوليا مولعاً بالمطالعة، وقرأ على نفسه عدداً كبيراً من الكتب.

ولم تر أمه بأساً في ذلك، لكنها كانت أحياناً تعجب في سرها من وقوف الصبي ساعات متتالية أمام الخزانة مستغرقاً في قراءة أحد الكتب، بدلاً من أن ينصرف إلى اللهو واللعب، وهكذا قرأ كوليا أشياء لا تتناسب وسنه.

ومع أن الصبي كان يعرف بصورة عامة حدوده في المشاكسة، فقد بدأ في الآونة الأخيرة يأتي من أعمال الطيش ما سبب لأمه قلقاً عظيماً. والواقع أنه لم يكن يقصد الشر في أعماله بقدر ما كانت نتيجة جنون غريب.

وقد حدث في شهر تموز من ذلك العام، أثناء العطلة الصيفية، أن سافرت الأم وابنها لتمضية أسبوع لدى سيدة قريبة إليهما تقطن في مقاطعة تبعد عن مدينتنا مسافة خمسة وأربعين ميلاً. كان زوج هذه السيدة موظفاً في محطة السكة الحديدية (وهي المحطة ذاتها التي انطلق منها إيفان فيودوروفيتش كرامازوف قبل شهر من الزمن إلى موسكو، والتي هي أدنى محطة إلى مدينتنا).

بدأ كوليا زيارته للمحطة بدراسة دقيقة لجميع التفاصيل المتعلقة بالسكة الحديدية، وكوّن قناعة بأنه سيستحصل على إعجاب أترابه التلاميذ بعد عودته إليهم بمعلوماته الجديدة. ولكن اتفق أن كان في تلك الناحية صبية آخرون وسرعان ما نشأت صداقة بينه وبينهم. وكان بعضهم يعيش في المحطة؛ وآخرون في منطقتها، وكانوا في مجموعهم ستة أو سبعة، تراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وكان اثنان منهم من أولاد مدينتنا. وكان الصبية يلعبون معاً، وفي اليوم الرابع أو الخامس لوصول كوليا إلى المحطة، جرى بين الصبية الحمقى رهان جنوني. كان كوليا أصغرهم سناً، الأمر الذي جعل الآخرين يستصغرون شأنه فدفعه الغرور والطيش إلى مراهنتهم على روبلين بأنه سيستلقي بين قبضتي السكة الحديدية عند موعد مرور قطار الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأنه سيظل مستلقياً هناك حتى يمر القطار من فوقه بأقصى سرعته. صحيح أنهم قاموا بتجربة أولية أكدت إمكانية أن يستلقي الصبي بين القضيبين ملتصقاً بالأرض، بحيث يمر القطار فوقه فلا يمسه، إلا أن الاستلقاء هناك ليس من قبيل اللهو! ولكن كوليا أصر على أنه سيفعل ذلك. وقد سخروا منه في بدء الأمر، قائلين أنه كذاب صغير وأنه مكابر، وكان أن

زاده هذا إصراراً وعناداً. وقد أزعجه أكثر من أي شيء آخر أن أولئك الصبية الذين بلغوا الخامسة عشرة كانوا يشمخون عليه بأنوفهم، ويمعنون في الاستعلاء، وينظرون إليه «كصبي صغير» ليس أهلاً لمرافقتهم، فاعتبر ذلك إهانة لا تحتمل. وهكذا اتفقوا على المضي في تلك الليلة إلى مكان يبعد نصف ميل عن المحطة، حيث تكون سرعة القطار قد بلغت أقصاها منذ خروجه من المحطة. وتجمع الصبية في ذلك المكان وكانت ليلة حالكة الظلام. وفي الموعد المضروب انطرح كوليا بين القضيبين. أما الخمسة الآخرون الذين تراهنوا معه فقد كمنوا بين الشجيرات قرب الخط الحديدي، وكانت قلوبهم تخفق خفقاناً شديداً، وما لبثوا أن شعروا بالفزع والندم. وأخيراً سمعوا عن بعد هدير القطار وهو يغادر المحطة، وتألق في الظلام مصباحان ينبعث منهما نور أحمر، وكان زئير القطار يشتد مع اقترابه.

وصاح الأولاد من مكمنهم بين الشجيرات بكوليا: «أسرع، أسرع في الهرب» وقد أخذ منهم الفزع مأخذاً عظيماً. ولكن صياحهم جاء متأخراً عن أوانه. فقد مر القطار كالسهم ومضى، واندفع الصبية نحو كوليا فألفوه لا يبدي حراكاً. فأخذوا يجذبونه ويسحبونه. وإذ هو ينهض فجأة ومضى معهم بدون أن ينبس ببنت شفة. وقد أوضح لهم بعد ذلك أنه تعمّد البقاء بين القضيبين كمن فقد حسه لكي يرعبهم، والحقيقة هي أنه فقد وعيه فعلاً، كما اعترف لأمّه بعد فترة طويلة من الزمن. ونتيجة لهذا الحادث لازمته إلى الأبد صفته «كإنسان مستهتر» وكان وجهه أشبه بوجوه الموتى عند عودته إلى المنزل. وفي اليوم التالي أصابته نوبة خفيفة من الحمى العصبية، لكنه كان يتمتع بروح معنوية عالية ويشعر بالرضى عن نفسه. ولم ينتشر نبأ الحادث في الحال، إلا أنه، مع عودة كوليا وأمه إلى المدينة، كان قد بلغ المدرسة وتناهى إلى مسامع المعلمين، وسارعت والدته عندئذ إلى المعلمين متوسلة باسم ابنها، وفي النهاية تطوع داردانيلوف، وهو أستاذ يتمتع بالإحترام والنفوذ، للدفاع عن الصبي، وبهذا انتهت المسألة. وكان داردانيلوف عزباً في سن الكهولة، أحب السيدة كراسوتكين حباً جارفاً منذ سنين عديدة، وقد سبق له، منذ عام مضى، أن تجرأ وطلب يدها للزواج بمزيد الاحترام. فعل ذلك وهو يرتجف بسبب

خوفه ورقة شعوره. وقد رفضت طلبه رفضاً قاطعاً، لأنها شعرت بأن قبولها به خيانة لولدها، مع أن داردانيلوف كان يعتقد، لأسباب كافية لديه بأنه لن يواجه صدود الأرملة الفاتنة الرقيقة القلب الممعنة في العفة، وكان يعتمد في اعتقاده هذا على بعض الدلائل الغامضة. وقد ظهر أن فعل التهور الجنوني الذي قام به كوليا قد وضع حداً لفتور الأرملة وتحفظها، وكوفىء داردانيلوف على شفاعته باقتراح يبعث على الأمل، وقد كان هذا الأمل في الحقيقة واهياً، غير أن داردانيلوف كان مثالاً للطهارة ورقة الشعور إلى حد أن هذا الأمل كان كافياً في ذلك الحين لأن يفعم قلبه بالسعادة. وقد كان كلفاً بالصبي، مع أنه كان يلمس عجزه عن محاولة استمالته، وكان صارماً يقسو عليه في الصف. وبالمقابل فإن كوليا حمل داردانيلوف على احترامه. فهو يحفظ دروسه حفظاً تاماً، فكان يحتفظ بالمرتبة الثانية في صفه، وكان متحفظاً في علاقاته مع داردانيلوف، كما أن جميع تلاميذ الصف كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن كوليا أوتي من سعة الاطلاع في تاريخ العالم ما يمكنه من «مقارعة» داردانيلوف نفسه. وبالفعل فقد حدث أن كوليا سأله ذات مرة «من هو مؤسس طروادة»؟ فكان جواب داردانيلوف عن هذا السؤال مبهماً يشير إلى حركات وهجرة الأجناس البشرية، وبعد العهد، والأساطير الخرافية. ولم يتمكن من الإجابة مباشرة عن السؤال: «من هو مؤسس طروادة»؟ أي من هم الأفراد الذين قاموا بتأسيسها، بل أنه لسبب ما اعتبر السؤال تافهاً سخيفاً. وبقي التلامذة على قناعتهم بأن داردانيلوف يجهل مؤسس طروادة. وكان كوليا قد قرأ شيئاً عن مؤسسي طروادة في كتاب للتاريخ من تأليف سماراغدوف عثر عليه في خزانة كتب والده. وأخيراً ثار فضول جميع التلامذة لمعرفة مؤسس طروادة ولكن كراسوتكين أبى أن يفشي سره، وظل محتفظاً بشهرة قوية بمعرفته الواسعة.

لقد نتج عن حادثة السكة الحديدية تبدل في موقف كوليا من أمه!. فعندما علمت آنا فيودوروفنا (السيدة كراسوتكين) بالمجازفة التي أقدم عليها ابنها، كادت أن تفقد عقلها لفرط ما امتلأ به قلبها من رعب. وأصبحت تنتابها نوبات هستيرية عنيفة كانت تدوم عدة أيام، حتى أن كوليا، الذي شعر

بخوف عظيم عليها، وعدها مقسماً بشرفه ألا يعود إلى عمل طائش مماثل، وقد جثا على ركبتيه أمام الصورة المقدسة وأقسم على ذلك، كما أقسم بذكرى والده، امتثالاً لطلب السيدة كراسوتكين. وطفق كوليا «المتشبه بالرجال» يبكي بكاء طفل في السادسة من عمره. وظلت الأم وابنها طيلة ذلك اليوم يتعانقان ويبكيان. إلا أن كوليا استيقظ في صباح اليوم التالي «عديم الشعور» كما كان من قبل، ولكنه كان أكثر إخلاداً إلى الصمت، وأكثر خجلاً وعبوساً، وأكثر إغراقاً في التفكير.

مضت ستة أسابيع، ووقع كوليا في مشكلة أخرى جعلت اسمه يبلغ قاضي مدينتنا، ولكنها كانت مشكلة من نوع آخر، مشكلة تبعث على التسلية وتدل على الحماقة، وقد تبين أنه لم يكن البطل فيها، بل أقحم فيها إقحاماً، ولكن سأتحدث عن هذا فيما بعد. وكانت أمه لا تزال تشعر بالانزعاج والخوف العظيم، وهذا الازدياد في قلقها كان يضاعف آمال داردانيلوف. وينبغي لي أن ألاحظ أن كوليا كان يدرك ويقدس ما كان داردانيلوف يضمره في نفسه وكان بطبيعة الحال يحتقره احتقاراً عظيماً «المشاعره». إنه لم يكن في الماضي لبقاً، فهو لم يتورع عن إظهار هذا الاحتقار أمام أمه، وكان يلمح لها تلميحاً مبهماً إلى أنه مدرك لما يهدف إليه داردانيلوف. لكن سلوكه في هذا الشأن أيضاً تبدل منذ حادثة السكة الحديدية. ولم يعد يسمح لنفسه بأقل تلميح إلى الموضوع، بل كان احترامه المتزايد لداردانيلوف يظهر في حديثه مع أمه التي كانت امرأة حساسة، فقدرت له ذلك بامتنان بالغ. ولكنها، عندما تصدر عن أحد الزوار أقل إشارة إلى داردانيلوف في حضور كوليا، كانت وجنتاها تحمرّ خجلاً. وكان كوليا في مثل هذه اللحظات إما يتشاغل بالنظر من النافذة ويتجهم وجهه، أو بالنظر إلى حذائه، أو يصيح غاضباً منادياً «بيريزفون»، الكلب الكبير ذا الشعر الخشن، الذي جلبه إلى البيت منذ شهر من الزمن بعد أن اعتقله واحتفظ به في المنزل بصورة سرية لسبب من الأسباب، بقي يكتمه على جميع أترابه في المدرسة. وكان يخيف الكلب خوفاً عظيماً، وعلمه ألعاباً عديدة ومنوعة، حتى أن الكلب المسكين كان ينبح كلما غاب كوليا في المدرسة، فإذا عاد إلى البيت أخذ يبصبص بذنبه فرحاً،

واندفع نحوه كالمعتوه وكان يتودد إليه ويستلقي على الأرض متظاهراً بالموت وما إلى ذلك؛ والواقع أن جميع الألعاب التي علمه إياها لم تكن نتيجة انصياعه للأمر بقدر ما كانت تعبيراً عن الحماسة التي تملأ قلبه الفرح الممتن.

لقد غاب عني، بهذه المناسبة، أن أذكر أن كوليا كراسوتكين هو نفسه ذلك الصبي الذي أصيب بطعنة موسى من الصبي الذي قدمناه للقارىء، بأنه ابن الكابتن سنيغيريوف، وكان أليوشا يدافع عن والده عندما كان التلاميذ يلقبونه بسخرية «حزمة القش».



الطفلان

كان كوليا كراسوتكين ملازماً منزله في ذلك اليوم المصقع المثلج العاصف من أيام تشرين الثاني. إنه يوم الأحد والمدارس مغلقة الأبواب. وقد دقت الساعة معلنة الحادية عشرة، وكان يشعر برغبة ملحة في مغادرة المنزل لقضاء «أمر مستحيل». لكنه في تلك الآونة، كان الوحيد المسؤول عن المنزل، فقد اتفق أن كان جميع سكانه الذين يكبرونه سناً قد خرجوا بسبب حادث جلل مفاجيء. وكانت السيدة كراسوتكين قد أجرت غرفتين صغيرتين من غرف المنزل، يفصلهما ممشى عن بقية الغرف، إلى زوجة طبيب، مع طفليها الصغيرين. وكانت هذه الزوجة في مثل سن السيدة آنا فيودوروفنا، تربطها بها أواصر الصداقة الوثيقة. وكان زوجها الطبيب قد غادر أسرته قبل عام كامل، فذهب أولاً إلى أورنبورغ ثم إلى طشقند، وانقطعت عنها أخباره، منذ ستة أشهر. وكادت حسرتها تقتلها لولا صداقتها للسيدة كراسوتكين التي كانت تدخل على نفسها العزاء. ولسوء طالعها فإن خادمتها الوحيدة كاترينا أعلنت في الليلة السابقة، فجأة أنها ستلد طفلاً قبل حلول الفجر، الأمر الذي أثار دهشة سيدتها. وقد كان عجيباً حقاً أن أحداً ما لم يلاحظ أن الخادمة كانت حاملاً، من قبل. وقد قررت زوجة الطبيب التي كانت مأخوذة تماماً، أن تنقل كاترينا، طالما يتسع الوقت، إلى مؤسسة في المدينة تديرها قابلة تعالج الحالات الطارئة كهذه. ولما كانت تكنّ لخادمتها الإعزاز العظيم، فقد بادرت إلى تنفيذ ما عزمت عليه، ونقلتها إلى المؤسسة ولازمتها وتولت بنفسها العناية بأمرها. ومع إطلالة الصباح طلبت من السيدة كراسوتكين أن تقوم بكل ما هو معهود فيها من عطف وما هو مأثور عنها من قوة، ببذل مساعدتها، والتوجه إلى غيرها بتقديم المساعدة لمواجهة الحالة.

وهكذا فقد كانت السيدتان غائبتين عن المنزل. وكانت أغافيا خادمة السيدة كراسوتكين قد خرجت إلى السوق، وهكذا فإن كوليا انصاع للضرورة وبقي في المنزل برهة من الزمن لكي يحمي ويعنى بشؤون الطفلين أي ابن وابنة زوجة الطبيب اللذين كانا وحيدين فيه، ولم يكن كوليا خائفاً من تعهده أمر العناية بالمنزل، وفضلاً عن ذلك فقد كان لديه كلبه بيريزفون، الذي أمره بأن يستلقي على الأرض تحت المقعد في الردهة ولا يقوم بأية حركة. وكان الكلب كلما ذرع الردهة جيئة وذهاباً هز رأسه وضرب الأرض ضربتين بذنبه، ولكن صفرة انطلاقه من أسره لم تدوي بعد. وكان كوليا ينظر نظرة الازدراء الشديد لمغامرة كاترينا غير المتوقعة، ولكنه كان مغرماً «بالطفلين المستوحشين، وقد حمل لهما كتاباً مزداناً بالصور. وكانت ناستيا الكبرى البالغة من العمر ثماني سنوات تستطيع القراءة، وكوستيا الصغير البالغ من العمر سبع سنوات تستهويه قراءة أخته له. وكان بوسع كراسوتكين، بطبيعة الحال، أن يؤمن لهما أجواء لعبة «الغميضة» عبر أرجاء المنزل. وقد لعب معهما هذه اللعبة فيما مضى أكثر من مرة، ولم يصبح كبيراً عليها الآن فلا يعود إليها.

ولقد تناقل أطفال المدرسة الشائعات عن كراسوتكين بأنه كان يلاعب الطفلين ويجعل من نفسه حصاناً لهما. فينهض على ساقيه ويميل رأسه كخيول جر العربات. غير أن كراسوتكين رد على موقف اللائمين بأنفة وكبرياء قائلاً أن من العار عليه «في ذلك الوقت» أن يقوم بدور الحصان في لعبه مع أضرابه ممن يبلغون الثالثة عشرة من العمر، وأنه كان يقوم بذلك العمل لكي يدخل التسلية إلى نفوس «الطفلين» لأنه أحبهما، وأنه لا يحق لأي كان أن يحاسبه على مشاعره. وكان «الطفلان» بدورهما يعبدانه.

وكان في ذلك الوقت غير راغب باللعب، فثمة عمل هام جداً ينتظره، وشيء يكاد يكون عجيباً غامضاً. وأخذ الوقت يمضي دون أن تعود أغافيا من السوق. وقد كان بإمكانها أن تتعهد بأمر الطفلين. ولقد اجتاز الفتى ممشى المنزل مرات عديدة، وفتح باب جيرانه، ونظر بقلق إلى الطفلين فيراهما مشغولين بالكتاب كما أمرهما. وكانا في كل مرة يفتح عليهما الباب، ابتسما له وأملا أن يدخل ويقوم بأعمال مبهجة مسلية، ولكن القلق كان يمنع كوليا

من أن يدخل.

وعندما أعلنت الساعة الحادية عشرة عزم عزماً أكيداً على أنه إذا لم تعد أغافيا «اللعينة» خلال عشر دقائق، فإنه سيخرج من المنزل دون أن ينتظرها، وذلك طبعاً بعد أن يستخلص «وعداً» من الطفلين بأن يتشجعا في غيابه وألا يكثرا من العبث أو يبكيا خوفاً. وعندما خطرت له هذه الفكرة، لبس معطفه الشتوي السميك المزدان بفراء على عنقه، ووضع حافظة كتبه على كتفيه، ولم يأخذ بتوسلات أمه بانتعال خفّيه في أمثال هذا اليوم البارد، بل نظر إليهما نظرة ازدراء وهو يجتاز الردهة ويخرج لابساً حذائيه من دون الخفين. فلما رآه بيريزفون مرتدياً ثياب الخروج، أخذ يضرب الأرض بذنبه ضرباً عنيفاً. ثم شد جسمه وأخذ يصدر أصوات التوسل لكن كوليا إذ رأى انفعال كلبه العاطفي، اعتبره خروجاً على النظام، وعاقبه بإبقائه دقيقة أخرى تحت المقعد، ولم يطلق الصفير المؤذن بانطلاقه إلا بعد أن فتح الباب ودخل الممشى. وعندها قفز الكلب كالمسعور وسبق سيده مبتهجاً مسروراً.

فتح كوليا الباب لكي يطمئن إلى الطفلين فألفاهما كما كانا من قبل جالسين عند المنضدة، ولم يكونا مستغرقين في القراءة، بل كانا يتجادلان ويتحاوران. وهما كثيراً ما كانا يتجادلان في عدد من مشاكل الحياة المحيرة، ونظراً لأن ناستيا كانت الكبرى، فإنها هي التي تفوز. وكان كوستيا كلما خالف أخته في شيء توجه في معظم الأحيان إلى كوليا كراسوتكين طالباً تحكيمه بينهما، وقد كان الأخوان يريان في حكمه أمراً نهائياً لا يقبل الخطأ. وكان أثار حديثهما في هذه المرة اهتمام كراسوتكين، فوقف في الممشى ساكناً يصغي إلى أقوالهما، وإذ رآه الطفلان على هذه الحال ازدادا حماسة واندفاعاً.

وكانت ناستيا تقول بلهجتها الصبيانية: «لن أصدق أبداً أن العجائز يجدن الأطفال في بساتين الملفوف. فالوقت الآن وقت الشتاء. ولا وجود للملفوف، ولذلك فلا تستطيع المرأة العجوز أن تجد طفلة لكاترينا».

وصفر كوليا مستغرباً.

ومضت ناستيا تقول: «لعلهم يجلبن الأطفال من مكان ما، ولكن

لأولئك النسوة المتزوجات فقط».

وكان كوستيا يحدق بناستيا مصغياً وهو مستغرق في التفكير. وأخيراً قال بهدوء وثبات: «كم أنت غبية يا ناستيا، كيف تستطيع كاترينا الحصول على طفل طالما هي غير متزوجة»؟.

فأبدت ناستيا الضيق والتبرم وقالت بانزعاج: إنك تجهل هذا الأمر تماماً، فقد يكون لها زوج، وهو الآن في السجن، والآن صار لها طفل.

وظهر الاهتمام الجدي على كوستيا فتساءل: «ولكن هل زوجها في السجن»؟.

فقاطعته ناستيا، وكأنها تخلت عن ظنها الأول: «لأقل لك هذا فهي لا زوج لها وأنت محق في هذا القول، ولكنها تريد أن تتزوج، وهكذا فقد ظلت تفكر في الزواج، واستغرقت في التفكير حتى وصلت إليه، أعني إلى الطفل لا إلى الزواج».

فما كان من كوستيا إلا أن أقرها على رأيها مدحوراً: حسناً، ربما كان الأمر كذلك، ولكنك لم تقولي ذلك من قبل، فكيف كان في مقدوري أن أعرفه؟

وعندها دخل كوليا إلى الغرفة وصاح بهما قائلاً: «هلما أيها الطفلان، إنكما، كما يبدو، إنسانان مخيفان».

فقال كوستيا ضاحكاً: «لقد جئت وأحضرت بيريزفون معك أيضاً»! وأخذ يدعو الكلب بنقر إصبعيه.

فأجاب كراسوتكين قائلاً: «إنني واقع في معضلة أيها الطفلان، ويجب عليكما أن تساعداني. لا بد أن تكون آغافيا قد كسرت ساقها، طالما أنها لم تعد إلى الآن. ولا ريب في ذلك. وأنا مضطر للخروج، فهل تسمحان لي بذلك»؟.

فتبادل الطفلان نظرات الحيرة والقلق، ولكنهما لم يقفا على ما يريده منهما.

- إنكما لن تكثرا من العبث عند خروجي أليس كذلك؟ ولن تتسلقا الخزانة وتكسرا سيقانكما؟ ولن تخافا ولن تبكيا؟.

عندها ظهرت على وجهي الطفلين دلائل الخوف العظيم.

وعاد كراسوتكين إلى مخاطبتهما قائلاً: «ومقابل ذلك سأريكما شيئاً مكافأة لكما. وهو مدفع نحاسي يمكن إطلاقه بملح البارود الحقيقي».

وعندها تألق وجها الطفلين فرحاً. وقال كوستيا بغبطة فائقة: «أرنا المدفع».

فمد كراسوتكين يده إلى الحافظة وأخرج منها مدفعاً برونزياً صغيراً ووضعه على المنضدة.

ثم قال وهو يدحرج المدفع على المنضدة: «أتوقع أن توجها هذا السؤال! انظرا، إنه يدفع على عجلتين. ويمكن إطلاقه أيضاً. يمكن تعبئته بالقذيفة وإطلاقه».

ـ وهل يمكن أن يقتل أي إنسان؟.

ـ نعم، إنه يمكنه أن يقتل أي إنسان؛ وما عليكما إلا أن تصوباه إليه. ثم شرح لهما كراسوتكين موضع البارود، وأطلعهما على مكان القذيفة. وأراهما ثقباً صغيراً في جانبه، وقال لهما إن المدفع يرتد إلى الوراء عند انطلاقه.

أصغى الطفلان باهتمام عظيم وكانت هذه المعلومة أن المدفع يرتد إلى الوراء قد أثارت خيالهما.

وتساءلت ناستيا قائلة: «وهل لديك بارود»؟.

ـ نعم.

فابتسمت له متوسلة وقالت: «أرنا البارود أيضاً».

فأدخل كراسوتكين يده في حافظته وأخرج منها قارورة ملأى بالبارود الحقيقي. وكانت لديه قذيفة ملفوفة بقطعة من الورق، وقد فتح القارورة وأفرغ منها شيئاً من البارود على راحة يده.

ثم قال يحذرهما باهتمام عظيم: «يجب علينا أن نتأكد من عدم وجود النار بالقرب من هذا المكان وإلا فإن البارود سينفجر وسيقتلنا جميعاً».

وحملق الطفلان في البارود بأعين ملؤها الفزع المشوب بالرهبة، غير أن ذلك ضاعف سرورهما. وقد ابتهج كوستيا بالقذيفة، فقال متسائلاً: «هل

تحرق قبضة من يحملها»؟ فأجابه كراسوتكين نفياً.

فقال له متوسلاً: «أعطني قذيفة صغيرة».

- سأعطيك قذيفة صغيرة، هاك خذها، ولكن لا ترها لأمك حتى أعود وإلا فإنها ستظنها بارودا ويستحوذ عليها الخوف وتضربك بشدة. فبادرت ناستيا بالقول: «إن أمي لا تضربنا أبداً».

- إنني أعلم ذلك، ولقد قلت ما قلته لكي أختتم جملتي. لن تخدعا أمكما غير هذه المرة حتى أعود. والآن أيها الصغيران هل أستطيع الخروج؟ ألا تشعران بالخوف ولا تبكيان إذا ذهبت؟.

فقال كوستيا وقد أخذت الدموع تجول في مآقيه: بل إننا سنبكي.

وأردفت ناستيا تقول متسرعة: «سنبكي، لا شك في أننا سنبكي».

- أواه أيها الصغيران إن فترة حياتكما محفوفة بالمخاطر! لا حيلة لي فيكما أيها الفرخان، فسأبقى، على أن أمكث معكما وقتاً لا أدري كم يمتد. إن الوقت يمضي، إن الوقت يمر مرّ السحاب!.

وقال كوستيا متوسلاً: «هلا أمرت بيريزفون بتصنّع الموت»!.

فقال كراسوتكين: «لا مجال لنا غير ذلك، يجب علينا أن نلجأ إلى بيريزفون. هيا بيريزفون». ثم أخذ كوليا يصدر أوامره إلى الكلب الذي أخذ يقوم بجميع الحيل التي تعلمها.

كان بيريزفون كلباً خشن الشعر، متوسط الحجم، أشهب اللون أعمى العين اليمنى، مصلوم الأذن اليسرى. وكان يهر ويقفز ويقف على قائمتيه الخلفيتين ويسير عليهما ويضطجع على الأرض ويرفع قوائمه إلى أعلى، ويشدها بطريقة تحمل على الاعتقاد بأنه قد نفق. وبينما كان الكلب يقوم بالفصل الأخير من ألعابه، فتح الباب، ووقفت أغافيا خادمة السيدة كراسوتكين عند مدخل الغرفة. وكانت امرأة قوية البنية تناهز الأربعين من عمرها، وقد ترك الجدري آثاره في وجهها. وقد جاءت من السوق وهي تحمل بيدها كيساً مملوءاً بالحاجيات. وبقيت واقفة في مكانها لكي تنظر إلى الكلب وقد حملت

السلة بيدها اليسرى. وبالرغم من أن كوليا كان ينتظر عودتها على أحر من الجمر، فإنه لم يقطع لعب كلبه. وبعد أن أبقى بيريزفون متصنعاً الموت، طيلة الوقت المحدد، أطلق صفيره، فقفز الكلب وأخذ يغدو ويروح وكأنه مغتبط لإنفاذه أوامر سيده.

وقالت أغافيا متعجبة: «كلب يفعل هذا»!.

فسألها كراسوتكين بلهجة حادة: «ما علة تأخرك أيتها الأنثى»؟.

ـ أنثى فعلاً! أكمل ما أنت بصدده أيها الطفل.

ـ طفل؟

ـ نعم، طفل. وما شأنك أنت إذا تأخرت؟ كن واثقاً، في حال تأخري، بأن هناك سبباً وجيهاً له. ثم تشاغلت أغافيا بتعهد المدفأة وهي تتمتم بهذه الكلمات بدون أن تظهر في لهجتها رنة الغضب أو الامتعاض. وقد بدا أنها مسرورة حقاً بمشاكسة سيدها الصغير اللعوب.

فنهض كراسوتكين عن الأريكة وصاح قائلاً: إسمعيني جيداً أيتها العجوز السخيفة، هل لك أن تقسمي بكل المقدسات وما يعلوها، بأنك ستعنين بأمر الطفلين في غيابي؟ فإنني خارج من المنزل!.

فضحكت أغافيا قائلة: وما يدعوني إلى أن أقسم؟ فأنا سأعنى بأمرهما بدون قسم.

ـ كلا بل يجب أن تقسمي بخلاصك الأبدي وإلا فأنني لن أخرج.

ـ حسناً، لا تخرج إذن، فما هو شأني في ذلك؟ إن الطقس بارد، فالزم البيت.

فالتفت كوليا إلى الطفلين وقال يخاطبهما: «أيها الصغيران، إن هذه المرأة ستمكث معكما حتى أعود، أو حتى تعود أمكما، وقد آن أن تعود. وستقدم لكما عشاءكما. إنك ستقدمين لهما بعض الطعام يا أغافيا، أليس كذلك».

ـ إنني أستطيع أن أقوم بذلك.

ـ وداعاً أيها الفرخان، إنني ماضٍ وفؤادي مرتاح. ثم مرّ أمام أغافيا وهمس لها بوقار: وأنت أيتها الجدة، آمل بأنك ستراعين صغر سنهما، فلا تقصين عليهما سخافات شيخوختك حول كاترينا! هيا يا بيريزفون!.

فردت عليه أغافيا غاضبة: «إمض أيها الغلام المضحك! إن ما تتفوه به تستحق عليه الجلد».



التلميذ

لم يسمع كوليا تعنيف أغافيا. وأصبح بإمكانه مغادرة البيت. وعندما خرج إلى الشارع، تلفت حوله، وهز كتفيه قائلاً: «إنه يوم قر». وانطلق في الشارع، ثم انعطف يميناً واتجه إلى السوق. ولما بلغ المنزل قبل الأخير في طريقه إلى السوق، توقف أمام الباب وأخرج صفارة من جيبه وصفر بها صفرة قوية وكأنها علامة ما. ولم تمض أكثر من دقيقة واحدة حتى خرج من المنزل صبي متورد الوجنتين يناهز الحادية عشرة. يرتدي معطفاً أنيقاً مدفئاً حسن الزي، وأقبل لملاقاته. إنه سموروف، التلميذ في الصف الإعدادي (دون صف كوليا كراسوتكين بصفين)، وهو ابن موظف غني. ويبدو أن والديه قد منعاه من معاشرة كراسوتكين، لما عرف عنه من طيش وشرّ، ولذلك فإنه خرج من البيت متسللاً. وقد كان سموروف ـ إذا لم يغب عن ذهن القارىء ـ أحد تلك العصبة من الصبية التي كانت ترشق إيلوشا بالحجارة قبل شهرين من الزمن، وكان هو الذي قصّ أمر إيلوشا على أليوشا كرامازوف.

قال سموروف بعفوية: إنني أنتظر وصولك منذ ساعة، يا كراسوتكين ثم سار الصبيين يحثان الخطى إلى السوق.

وقد أجابه كراسوتكين قائلاً: لقد تأخرت، لأن ظروفاً غير متوقعة قد أخرتني. ألن يسبب خروجك معي لك الجلد؟.

ـ هلم، لقد قلت لك أنني لا أجلد قط! أرى أنك أحضرت معك بيريزفون!.

ـ نعم.

ـ وهل ستأخذه معك أيضاً؟.

ـ نعم.

ـ آه. حبذا لو كان جوتشكا مكانه!.

ـ إن ذلك مستحيل. جوتشكا لم يعد له وجود. لقد ضاع جوتشكا في سحب الغموض.

توقف سموروف فجأة عن السير وقال: آه! ألا نستطيع أن نفعل ذلك؟ ثم تابع كلامه قائلاً:

«هل تعلم أن إيلوشا ما برح يقول أن جوتشكا كان أغبر خشن الشعر، مثل بيريزفون. ألا يمكن أن تقول له أن هذا هو جوتشكا فيصدق قولك»؟.

ـ يا صديقي، يجب أولاً أن تخجل من الكذب؛ ويجب ثانياً أن تخجل منه حتى ولو كان قصدك طيباً. وفضلاً عن ذلك، فأنا أرجو ألا تكون قد تفوهت بشيء عن قدومي.

ـ معاذ الله! إنني مدرك ما سأفعله. وأضاف سموروف متأوهاً: «إنك لن تدخل العزاء على قلبه بإحضار بيريزفون. لقد أخبرنا والده الكابتن «حزمة القش» بأنه سيحضر له اليوم جرواً من نوع الكلاب العظيمة الجرم، ذا أنف أسود. وهو يظن أنه بهذا سيدخل العزاء على قلب إيلوشا؛ ولكنني أشك في ذلك.

ـ وكيف حال إيلوشا؟.

ـ أواه، إنه سيء الحال، إن حاله سيئة جداً! أعتقد بأنه مصاب بالسل؛ إنه لم يفقد وعيه، ولكن تنفسه غير طبيعي. وقد طلب بالأمس أن ينتعل حذاءه وأن يقوده أحدهم فيجول في الغرفة. وحاول السير، ولكنه عجز عن الوقوف، فقال: «آه، لقد قلت لك يا أبتاه أن هذا الحذاء لا يناسب قدمي، فهو لا يمكنني من السير». فقد خيل إليه أنه فقد توازنه بسبب الحذاء والحقيقة أنه السقم ولا شيء سواه. إنه لن يعيش أسبوعاً آخر. ويشرف الآن على معالجته الطبيب هرتزنشتوبي. لقد استعادوا ثراءهم، ولديهم الآن مبالغ مكدسة من المال.

ـ إنهم أوغاد.

ـ من هم الأوغاد؟.

ـ الأطباء وسائر طغمة الدجالين أدعياء الطب. إنه علم عقيم. إنني عازم على بحث هذا الأمر بحثاً وافياً. ثم ما هذه العواطف التي تبدونها هناك؟ هل يجتمع كل يوم جميع تلامذة الصف؟.

ـ كلا، ليس جميع تلامذة الصف، بل يذهب عشرة فقط من رفاقنا كل يوم لكي يعودوه، وليس في الأمر مغزى خاص.

ـ إن ما عجزت عن فهمه في كل هذا، هو الدور الذي يقوم به ألكسي كرامازوف في الوقت الذي سيقدم فيه أخوه للمحاكمة غداً أو في اليوم الذي يليه. فهو كيف يجد متسعاً من الوقت لقضائه في الأمور العاطفية مع الصبيان.

ـ ليس في المسألة أمور عاطفية. فها أنت نفسك ذاهب لمصالحة إيلوشا.

ـ ذاهب لمصالحته؟ أي قول سخيف هذا! فأنا لا أسمح لأحد بتعليل تصرفاتي.

ـ وسيكون سرور إيلوشا بقدومك عظيماً! إنه لا يعرف أنك قادم لتعوده.

ثم صاح سموروف بحماسة: «لماذا أحجمت عن عيادته حتى الآن؟».

ـ يا صديقي العزيز، إن هذا من شؤوني الخاصة، ولا دخل لك به. إنني ذاهب الآن بمحض إرادتي، لأنني رغبت في أن أعوده، أما أنتم جميعاً فإنكم مدفوعون إلى ذلك من قبل ألكسي كرامازوف، وهنالك فرق بين الحالتين، كما تعلم. وما أدراك؟ فلعلي لا أنوي مصالحته البتة. إن هذا قول سخيف.

ـ إنه ليس كرامازوف؛ وليس هو المحرك. لقد شرع رفاقنا يعودونه بمحض اختيارهم. لقد ذهبوا في بدء الأمر برفقة كرامازوف، بطبيعة الحال. ولكن الأمر ليس كما تقول. لم تكن هنالك أية سخافة. فقد ذهب واحد في بدء الأمر، وتبعه ثان بعد ذلك، وقد سر والده سروراً عظيماً لرؤيتنا. هل تدري، إنه سيفقد عقله إذا مات إيلوشا، ويرى أن إيلوشا مشرف حتماً على الموت، ويبدو أنه عظيم السرور لأننا تصالحنا مع ابنه. وما فتىء إيلوشا يسأل عنك، وهذا كل ما في الأمر. إنه يسأل عنك ولا يضيف شيئاً. إن والده سيفقد عقله

أو يشنق نفسه. لقد تصرف من قبل تصرف المجانين. أتعلم إنه رجل محترم. لقد أخطأنا آنذاك. إن الذنب كله ذنب ذلك القاتل الذي اعتدى عليه بالضرب آنذاك.

- على كل حال فإن كرامازوف لغز بالنسبة لي. لقد تسنى لي أن أتعرف عليه منذ زمن بعيد، ولكنني أحب أن أحافظ على القدر المناسب من الكبرياء في بعض الحالات. وفضلاً عن ذلك فإن لدي عنه فكرة عليَّ أن أتأكد من صحتها.

وأخلد كوليا إلى صمت مهيب. وشاركه سمورروف الصمت. وكان سمورروف بطبيعة الحال، يحترم كراسوتكين إلى حد العبادة، ولم يحلم قط بأن يضع نفسه على قدم المساواة معه. وكان قول كوليا أنه «ذاهب غير مدفوع» لعيادة إيلوشا، موضع اهتمامه البالغ. وشعر بأن هنالك سراً أكيداً في قرار كوليا المفاجئ بعيادته في ذلك اليوم.

كانا يجتازان ساحة السوق التي تعج بالعربات المحملة القادمة من الريف، وبعدد كبير من الطيور الداجنة الحية. وكانت نساء السوق يبعن في أكواخهن أصناف القطن والخيوط وما إلى ذلك. لقد كانت أسواق الأحد تدعى «معارض» في مدينتنا، وهي تسمية تدل على السذاجة. وفي ذلك العام بالذات كانت أمثال هذه المعارض كثيرة.

وكان بيريزفون يسير أمامهما طروباً، وهو يشم الأرض من حواليه، فإذا التقى بكلب آخر قاما بحماس بعملية شم متبادلة، وفق قواعد آداب سلوك الكلاب.

وقطع كوليا حبل الصمت قائلاً: إنني مولع برؤية هذه المشاهد الواقعية، يا سمورروف. هل لاحظت كيف تشم الكلاب بعضها بعضاً عندما تلتقي؟ يبدو أن طبيعة الكلاب تقضي بذلك.

- نعم؛ إنها لعادة مضحكة.

- كلا، إنها ليست مضحكة، وأنت مخطىء في هذا. ليس في الطبيعة شيء مضحك، مهما بدا مضحكاً في عين الإنسان المتحامل. ولو كان باستطاعة الكلاب أن تدرك وأن تنتقدنا فإنها ستجد حتماً ما هو مضحك في

العلاقات الاجتماعية بين أبناء البشر ـ سادة الكلاب ـ مثل ما نجده عند الكلاب من أمور مضحكة بل وأكثر في الحقيقة. أؤكد لك هذا القول لأنني على يقين من أن حماقاتنا تفوق بكثير حماقات الكلاب. هذه فكرة راكيتين، ويا لها من فكرة رائعة. إنني إشتراكي، يا سموروف.

فسأله سموروف: «وما هو الاشتراكي»؟.

ـ إن الاشتراكية هي أن يتساوى الجميع، وأن تكون كل الممتلكات مشتركة بينهم بما فيها النساء، فلا مبرر للزواج، وأن يعتنق الإنسان الديانة التي يراها أفضل من غيرها، ويتبع القوانين التي يؤثرها، وما إلى ذلك. إنك لم تبلغ بعد السن التي تؤهلك لفهم كل ذلك. إن الطقس شديد البرودة.

ـ نعم، لقد انخفضت الحرارة إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصفر. لقد نظر والدي لتوه إلى ميزان الحرارة.

ـ هل لاحظت يا سموروف؟ إن درجة الحرارة عندما تكون خمس عشرة درجة أو ثماني عشرة درجة تحت الصفر لا نشعر معها بالبرودة الحاصلة الآن، في مطلع فصل الشتاء، عندما تنخفض الحرارة فجأة إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، خاصة إذا كان الثلج قليلاً. وسبب ذلك هو أن الناس لا يكونون قد ألفوا الصقيع بعد، إن العادة تغلب على الإنسان في جميع أموره في كل شيء حتى في صلاته الاجتماعية والسياسية. إن العادة قوة دافعة عظيمة. ما أظرف هذا الفلاح!.

وأشار كوليا إلى فلاح مديد القامة، ذي شكل حسن، يرتدي معطفاً طويلاً من جلود الخراف، وكان يقف إلى جانب عربة نقل وقد ضم يديه وهما في قفازين من الجلد، لكي يدفئهما. وكانت لحيته الشقراء المسترسلة مبيضة بما علق بها من الثلج.

وإذ تجاوز الفلاح صاح كوليا بصوت مرتفع فيه رنة الاستفزاز: «لقد تجمدت لحية ذلك الفلاح».

فأجاب الفلاح بصوت هادىء: «لقد تجمدت لحى أناس كثيرين».

وقال سموروف: «لا تستفزه».

ـ لا بأس، فهو لن يغضب. إنه رجل طيب. وداعاً، يا ماتفي.

ـ رافقتك السلامة.

ـ هل تدعى ماتفي؟

ـ نعم، ألست تعرف أن ذلك هو اسمي؟.

ـ كلا، لم أكن أعرف. وقد حزرته الآن.

ـ نعم.

ـ هل أصدق ما أسمع! إنك تلميذ، كما أعتقد؟.

ـ وتجلد، كما أعتقد؟.

ـ هذا أمر مفروغ منه، فأنا أجلد أحياناً.

ـ وهل يؤذي الجلد؟.

ـ نعم، إنه يؤذي.

ـ أية حياة هذه!. وتأوه الفلاح بحرارة.

ـ وداعاً، يا ماتفي.

ـ رافقتك السلامة. إنك فتى طيب.

ومضى الصبيان.

وقال كوليا مخاطباً سموروف: إن هذا فلاح طيب. وأنا أحب محادثة الفلاحين. ويسعدني أن أساعدهم دائماً بتخفيف الظلم عنهم.

فسأله سموروف: «ولكن ما الذي حملك على الكذب، والتظاهر بأنك تجلد»؟.

ـ كان ينبغي لي أن أقول هذا القول لكي أدخل السرور على قلبه.

ـ وماذا تعني؟

ـ إنك تعلم، يا سموروف، أنني لا أحب أن يوجه لي سؤال واحد مرتين، أريد أن يكون الناس سريعي الفهم. إن بعض الأشياء لا يمكن تفسيرها. إن الفلاحين يعتقدون أن تلامذة المدارس يجلدون، بل يجب أن يجلدوا. وفي رأيهم أن تلميذ المدرسة لا يتكرس تليمذاً إذا لم يجلد. ولو قلت له أننا لا نجلد، فإنه سيصاب بصدمة، ولكنك لا تفهم هذه الأمور. ينبغي للإنسان أن يعرف كيف يحادث الفلاحين.

ـ ولكنني أرجوك ألا تشاكسهم لئلا تتكرر معك مشكلة الأوزة.

ـ إذن فأنت خائف؟.

ـ لا تسخر، يا كوليا. إنني خائف طبعاً. إنك لن تتصور كم سيكون عظيماً غضب والدي، فقد حرم علي تحريماً تاماً الخروج معك.

ـ لا تقلق، فلن يحدث شيء في هذه المرة. ثم مرَّ بامرأة من نساء السوق كانت في كوخها. فصاح بها: مرحى يا ناتاشا!.

فصاحت به المرأة الكهلة: «تدعوني ناتاشا! وماذا بعد ذلك! إن اسمي ماريا».

ـ يسرني أن اسمك ماريا. وداعاً.

ـ يا لك من وغد صغيرا إنك صغير على مثل هذا التصرف!.

ـ إنني في عجلة من أمري، لا أستطيع البقاء هنا الآن. ستنبئيني يوم الأحد القادم. وأخذ كوليا يهددها بقبضة يده وكأنها هي التي كانت البادئة بالخصام لا هو.

وصاحت ماريا غاضبة: «ليس لدي ما أقوله لك يوم الأحد. أنت الذي هاجمتني، أيها القرد الصغير الوقح، أما أنا فلم أقل شيئاً، إنك بحاجة إلى الجلد، أيها القرد السليط اللسان».

وضحكت نساء السوق الأخريات من حولها. وفجأة اندفع من السوق رجل استبد به الغضب. وكان هذا شاباً، غريباً عن مدينتنا، ذا شعر أسود مجعد، ووجه مخروط شاحب، فيه آثار الجدري وكان يرتدي معطفاً طويلاً أزرق وقبعة عالية، ويبدو كأنه أحد كتبة التجار. وكان حانقاً مهتاجاً، فأخذ يتهدد كوليا ويهز قبضة يده في وجهه، وصاح غاضباً:

«لقد عرفتك. لقد عرفتك».

وحدق كوليا في وجهه، فلم يذكر أنه سبق وتشاجر مع الرجل. فهو لم يعد يذكر جميع شجاراته مع الناس في الشوارع نظراً لكثرتها. وقد سأل الرجل ساخراً: «هل تعرفني حقاً»؟.

فعاد الرجل يردد كالمعتوه: «لقد عرفتك، لقد عرفتك»!.

ـ إن هذا من حسن حظك. علي أن أنصرف الآن. وداعاً!.

فصاح الشاب: «هل عدت إلى أعمال العبث مرة أخرى؟ هل عدت إلى أعمال العبث مرة أخرى؟ إنني أعلم أنك عدت إليها»!.

جمد كوليا في مكانه وأخذ يرمقه بنظرة استخفاف وقال: «إن عودتي إلى أعمال العبث ليست من شأنك يا أخي».

ـ ليست من شأني.

ـ كلا ليست من شأنك.

ـ من شأن من إذن؟ من؟ من؟.

ـ إنها من شأن تريفون نيكيتتش وحده.

فقال الشاب وهو يحدق في ميتيا مشدوهاً، وما يزال على غضبه: ومن هو تريفون نيكيتتش هذا؟.

وظل كوليا يحدجه بنظرات الاستخفاف.

ثم سأله بغتة وهو يؤكد سؤاله: هل ذهبت في حياتك إلى كنيسة الصعود؟.

ذهل الشاب لهذا السؤال وقال: «أية كنيسة صعود هذه؟ ولماذا تسأل؟ كلا، لم أذهب إليها».

فعاد كوليا يسأله بلهجة أشد صرامة وأكثر تأكيداً: «هل تعرف سابانييف»؟.

ـ ومن هو سابانييف؟ كلا، إنني لا أعرفه.

فقال كوليا مختصراً الملاسنة: «إذن فلتذهب إلى الجحيم». وانعطف يميناً، وهو يستعجل السير؛ كأنه يربأ أن يحدث إنساناً أبله لا يعرف حتى سابانييف.

وما لبث أن صحا الشاب من ذهوله الموقت، فصاح بكوليا: «يا هذا، قف! من هو سابانييف»؟ ثم التفت إلى امرأة من نساء السوق وسألها وهو يحدق فيها مشدوهاً: «ماذا قال»؟.

وضحكت النسوة.

ثم قالت إحداهن: «لا يمكن أن يعرف هدف هذا الصبي».

فعاد الشاب يسأل: «من هو سابانييف الذي أتى على ذكره»؟ وكان لا يزال حانقاً يلوح بيده اليمنى متوعداً.

فقالت إحدى النسوة: «لا بد وأن يكون سابانييف الذي كان يعمل عند آل كوزميتشوف».

وحدق فيها الشاب تحديقاً غريباً.

وقالت امرأة ثانية: «عند آل كوزميتشوف؟ ولكن اسمه ليس تريفون. إنه كوزما، وليس تريفون. ولكن الصبي قال تريفون نيكيتتش، فلا يمكن أن يكون هو الذي تحدثت عنه».

واشتركت في الحديث امرأة ثالثة كانت صامتة حتى تلك الساعة تصغي باهتمام فقالت: إن اسمه ليس تريفون ولا سابانييف بل تشيجوف. واسمه الشخصي ألكسي إيفانتش، ألكسي إيفانتش تشيجوف».

فقالت امرأة رابعة بلهجة قاطعة مثنية على كلام المرأة الثالثة: «لا ريب في ذلك أبداً، إن اسمه تشيجوف».

تسمَّر الشاب حائراً ينقل بصره بين امرأة وأخرى. ثم صاح وهو في حالة كادت تبلغ حد اليأس: ولماذا سأل، لماذا سأل، أيتها النساء الطيبات لقد سألني: «هل تعرف سابانييف»؟، ومن بحق الشيطان ينبغي أن يعرف سابانييف؟

فصاحت إحدى النساء بجدية: «إنك رجل غبي. لقد قلت لك أنه ليس سابانييف، بل تشيجوف، ألكسي إيفانتش تشيجوف، هذا هو اسمه»!.

ـ أي تشيجوف هذا؟ من هو؟ أنبئيني إذا كنت تعرفين.

ـ إنه ذلك الرجل الطويل المهذار الذي كان يجلس في السوق خلال فصل الصيف.

ـ وما علاقة تشيجوف هذا بي، أيتها النساء الطيبات؟

فأجابت امرأة أخرى: «أنى لي أن أعرف ما علاقتك به؟ أنت نفسك يجب أن تعرف ما الذي تبغيه منه، ما دمت تثير كل هذه الجلبة حول إسمه.

لقد خاطبك ولم يخاطبنا، أيها الغبي، ألا تعرفه حقاً؟

- أعرف من؟

- تشيجوف.

- ليختطفك الشيطان أنت وتشيجوف. سأجلده. حتماً إنه كان يسخر مني.

- أنت ستجلد تشيجوف! أغلب الظن أنه سيجلدك. إنك أحمق ليس إلا.

- ليس تشيجوف الذي سأجلده، ليس تشيجوف، أيتها المرأة الحقودة الشريرة، سأجلد الصبي، اقبضوا عليه، اقبضوا عليه، فقد كان يسخر مني.

وضحكت جميع النساء. وكان كوليا قد ابتعد، وأخذ الآن يمشي مشية المنتصر. وكان سموروف يسير إلى جانبه وهو ينظر خلفه إلى الجماعة التي علا صياحها، وكان هو أيضاً مزهواً مع كونه لا يزال خائفاً أن تسبب له مرافقة كوليا الوقوع في مشكلة ما.

وقد سأل كوليا قائلاً: «من هو سابانييف الذي قصدته»؟.

فأجاب كوليا: أنى لي أن أعرف؟ إنهم سيبقون في حالة صياح وخصام طيلة النهار، فأنا أحب إثارة الحمقى في كل طبقة من طبقات المجتمع. هاك أحمق آخر، ذلك الفلاح. هل تعلم المثل القائل: «ليس هنالك أغبى من فرنسي غبي». وليس الروسي الغبي أقل غباء منه. ألا تستطيع أن تتبين الحماقة في وجه ذلك الفلاح؟.

- دعه وشأنه، يا كوليا، ولنمض في طريقنا.

- لا شيء يستطيع أن يوقفني الآن، بعد أن أفلت من عقالي. أسعدت صباحاً، أيها الفلاح!.

التفت الفلاح الذي خاطبه كوليا رافعاً رأسه، وكان قوي البنية ذا وجه مستدير ولحية خطها الشيب، فكان يبدو ساذجاً ولم يصح من سكره تماماً.

وقد رد على كوليا قائلاً: «أسعدت صباحاً، إذا لم تكن ساخراً مني».

فقال كوليا ضاحكاً: «وإذا كنت»؟.

ـ إذا كنت، فيجب أن أحتمل مزاحك، اسخر ما شئت، فلست أرى في المزاح ما يضر.

ـ أرجو صفحك، يا أخي، لأنني كنت أبغي المزاح.

ـ ليغفر الله لك.

ـ وهل تصفح عني أنت أيضاً؟.

ـ إمض لقد صفحت عنك.

ـ إنك تبدو فلاحاً نابهاً.

ـ فأجاب الفلاح وهو لا يزال يبدي الوقار: «بل أنبه منك». ولم يكن متوقعاً منه هذا الجواب.

فقال كوليا مأخوذاً: «لا أشك في هذا».

ـ ومع ذلك فهو صحيح.

ـ لعله صحيح.

ـ بل هو صحيح، يا أخي.

ـ وداعاً، أيها الفلاح.

ـ رافقتك السلامة.

وقال كوليا مخاطباً سموروف بعد صمت قصير: هنالك مختلف أنواع الفلاحين. ولم يكن بوسعي أن أعرف سلفاً أنني وقعت على فلاح نبيه. إنني أجزم بوجود فلاحين أذكياء.

وسمعا عن بعد ساعة الكاتدرائية تعلن الحادية عشرة والنصف. فأخذ الصبيان يحثان الخطى، وظلا يسرعان في السير حتى بلغا منزل الكابتن سنيغريوف، وبقيا صامتين كل هذه المسافة الطويلة. وعلى بعد عشرين خطوة من المنزل وقف كوليا وأعرب إلى سموروف عن رغبته في أن يتقدمه وأن يطلب إلى كرامازوف الخروج لمقابلته ثم خاطبه قائلاً: «يجب على المرء أن يتلمس سبيله».

فقال سمورروف محتجاً: «ولم أطلب إليه الخروج؟ أدخل أنت، وسيكون سرورهم عظيماً برؤيتك. وما معنى التعرف على الناس هنا في الصقيع»؟.

فقاطعه كوليا بلهجة آمرة كان يحب اعتمادها مع «الصبيان الصغار»: إنني أعرف لماذا أريد مقابلته هنا في الصقيع. وانطلق سمورروف مهرولاً ينفذ الأمر.



الكلب الضائع

انتظر كوليا مجيء أليوشا وهو متكيء على الجدار بوقار مصطنع. وهو كان يتوق منذ زمن بعيد إلى مقابلته. وكان قد سمع الشيء الكثير عنه من أفواه الصبية، ولكنه كان حتى اللحظة يبدي عدم الاكتراث عند سماع اسمه وشيئاً من الازدراء، بل إنه كان «ينتقد» ما كان يبلغ سمعه من أنبائه. لكنه كان في سره يتوق إلى التعرف عليه؛ فقد كان هنالك شيء يدفعه إلى الإعجاب به وما يسمعه عن أحواله. لذلك كانت تلك اللحظة لحظة هامة: و لنبدأ القول بأنه كان حريصاً على أن يظهر بما يكفي لإثبات استقلاليته له، «وإلا فإنه سيظنني صبياً في الثالثة عشرة من عمره ويعاملني كالصبي، معاملته لهؤلاء الصبية، ولكن كيف ينظر إلى جميع أولئك الصبية؟ سأسأله عن رأيه فيهم عندما أتعرف عليه. من المؤسف أنني قصير القامة إلى هذا الحد. إن توجيكوف يصغرني سناً ولكنه أطول مني قليلاً، لكنني أتميز بوجه ينم عن الذكاء. إنني لست حسن الصورة، وأنا أعلم أنني قبيح المنظر، ولكن وجهي ينم عن الذكاء، يجب علي ألا أتهور في التحدث إليه، فلو فتحت له مغاليق قلبي فجأة فقد يظن... تباً لذلك! ما أنكى أن يظنني...»!.

تلك كانت هي الأفكار التي راودت مخيلة كوليا، وهو يبذل جهده لكي يبدو مستقلاً بنفسه، وكان قصر قامته مثار حزنه أكثر من أي شيء آخر، ولم يكن يعبأ بقبح وجهه، بمقدار اهتمامه بقصر قامته. وكان في العام السابق قد رسم علامة بالقلم على الجدار في إحدى زوايا المنزل لكي يحدد طول قامته وكان دأبه منذ ذلك الحين أن يقوم مرة في كل شهرين بقياس نفسه لمعرفة مقدار تزايد طوله. وقد أدرك ويا للأسف أن طوله بطيء الازدياد، وقد كان ذلك مدعاة لشعوره بحالة تدنو من اليأس أحياناً. ولم يكن وجهه في

الحقيقة «مخيفاً» أبداً، بل على نقيض ذلك كان جذاباً، ببشرته البيضاء الصافية النمشة. وكانت عيناه الصغيرتان الرماديتان تدلان على جرأة وحيوية. وفي معظم الأحيان كانت تنطقان بالشعور. وكان بارز عظم الخدين، ذا شفتين صغيرتين حمراوتين غليظتين، وكان أنفه صغيراً شامخاً، ولكنه كان في كل مرة يتطلع في المرآة وهو يشعر بالنفور. وفي بعض الأحيان كان يفكر قائلاً: «ولكن ربما لم يكن وجهي ينم عن الذكاء»! ففي هذا كان يشك أيضاً. ويجب أن لا يظن ظان أن فكره كان منصرفاً إلى وجهه وطول قامته وحدهما، فبالعكس من ذلك فإنه بالرغم من قسوة اللحظات التي كان يقضيها أمام المرآة، فقد كان ينساها بسرعة، ويظل منصرفاً عنها مدة طويلة متفرغاً كلياً إلى «أفكاره وإلى الحياة الحقيقية»، كما كان يصورها لنفسه.

خرج أليوشا مسرعاً للقاء كوليا. وقد لمح كوليا عليه قبل أن يصل إليه أنه كان مبتهجاً. وقد حدث نفسه قائلاً وهو يشعر بالسرور: «أيمكن أن يكون مسروراً إلى هذا الحد برؤيتي»؟ ويجوز لنا أن نشير بإيجاز في هذه المناسبة إلى حصول تبدل تام بمظهر أليوشا منذ أن تركناه في الفصول السابقة. فقد تخلى عن جلباب الرهبنة. وكان يرتدي معطفاً حسن الزي وقبعة مستديرة لينة، وقد قص شعره. وقد كان هذا المظهر لائقاً به لافتاً إلى أناقته. وكانت دلائل المرح منطبعة على محياه الجميل، ولكن اللطف والوقار كانا يمتزجان بمزجه. وكانت دهشة كوليا عظيمة عندما رأى أليوشا يخرج إليه كما كان في المنزل بدون أن يرتدي معطفه. وكان جلياً أنه خرج مسرعاً وقد مد يده إلى كوليا تواً وخاطبه قائلاً: «ها قد أتيت أخيراً! كم كان شوقنا شديداً لرؤيتك»!.

فتمتم كوليا وقد بهر قليلاً: «إن هنالك أسباباً ستطلع عليها حالاً. وعلى كل حال فإنني مسرور بالتعرف إليك. لقد كنت دائماً أترقب فرصة التعرف إليك. وقد سمعت كثيراً من أخبارك.

- لقد كان ينبغي أن نلتقي على كل حال، فلقد بلغتني أخبارك أيضاً، لكنك لم تأت إليّ هذا المكان منذ أمد بعيد.

- أنبئني كيف تسير الأمور؟.

- إن وطأة المرض قد اشتدت على إيلوشا. لا شك في أنه موشك على الموت.

فهتف كوليا مندفعاً: «إن هذا شيء رهيب! يجب أن تعترف بأن العلاجات الطبية هي من قبيل التدجيل يا كرامازوف».

- إن إيلوشا يذكرك كثيراً، وحتى في نومه وهذيانه، إن الإنسان يستطيع أن يدرك كم أنت عزيز على نفسه... قبل ذلك الحادث... حادث طعنك بالموسى... وهنالك سبب آخر... قل لي هل هذا كلبك؟

- نعم إنه بيريزفون.

فنظر أليوشا إليه بعين ملؤها الأسى وسأله قائلاً: أليس جوتشكا؟ هل ضاع إلى الأبد؟.

فابتسم كوليا ابتسامة غريبة وقال: «إنني أعلم بأنكم جميعاً تتمنون لو كان هذا الكلب، جوتشكا، لقد سمعت كل ما قيل عن هذا الأمر. إسمعني يا كرامازوف، سأقول لك شيئاً، أي السبب في مجيئي، والسبب في دعوتي إياك لملاقاتي هنا، لكي أوضح لك القصة برمتها قبل أن ندخل». ثم قال متحمساً: «إعلم يا كرامازوف أن إيلوشا التحق بالصف الإعدادي في فصل الربيع الماضي. وأنت تعلم طبعاً ما هو الصف الإعدادي في مدرستنا، فطلابه صبية صغار. وأنا أعلى من هذا الصف بصفين، وكانوا بدأوا يضايقون إيلوشا، وبطبيعة الحال كنت أكتفي بالنظر إليهم دون أن أختلط بهم. وقد لاحظت صغر سن إيلوشا وضعفه، ولكني رأيته لا يلين لهم؛ بل كان يقاتلهم. ولقد أدركت أنه كان متكبراً، وأن نار الحقد كانت تطل من عينيه. وأنا أحب الأطفال الذين هم على هذه الشاكلة. وقد أمعنوا في الاعتداء عليه. وأسوأ ما في الأمر أن ثيابه كانت آنذاك ولا أحقر، فسراويله ضيقة، وحذاؤه كثير الخروق. فأوسعه الصبية هزؤا وسخرية. ولم أطق لذلك احتمالاً، فجعلت من نفسي حامياً له وعنفتهم على مضايقتهم له». ثم قال مفاخراً: «لقد ضربتهم مع أنهم كانوا يعبدونني، أتعرف هذا يا كرامازوف؟ لكنني أحب الأطفال. وفي عهدتي الآن إثنان منهم في المنزل، ولهذا السبب تأخرت. وهكذا فقد كفوا عن ضرب إيلوشا، وأبقيته تحت حمايتي. وقد تبين لي أن الصبي كان عزيز

النفس. إنني أقول لك ذلك، إن الصبي عزيز النفس ولكنه صار في النهاية شديد التعلق بي: فأصبح ينفذ جميع أوامري وينصاع لإرادتي كأنني كنت رباً له، وأخذ يسعى لتقليد أعمالي.

كان في أوقات الاستراحة بين فترات الدرس يسرع إلي فنطوف معاً ساحة المدرسة. ولم يستثن من ذلك أيام الأحد أيضاً، إن الناس يضحكون دائماً إذا رأوا صبياً كبيراً يصادق الأطفال الصغار، وهم بهذا حائرون، ويكفيني أنني أرى هذا الرأي، لقد أردت أن أعلمه وأنمي قدراته. وماذا يمنعني من هذه التنمية إذا كنت أحبه؟ ها أنت ذا يا كرامازوف منهمك في العناية بشؤون الأطفال. وأنا أرى أنك تبغي التأثير على أبناء الجيل الصاعد، لكي تنميهم وتفيدهم، وأنا أؤكد لك أن هذه الصفة هي من رغباتك، وقد علمت بها بعد أن شاعت، وجذبتني إليك أكثر من أي شيء آخر، والآن، فلنعد إلى موضوعنا. لقد لاحظت على الصبي شيئاً من الرقة والعاطفة، وأنا أكره للغاية العاطفة الدالة على الخضوع. وكذلك لمحت فيه شيئاً من التناقض أيضاً: فإنه مع تكبره كان متعلقاً بي تعلق العبيد. ورغم ذلك، فقد كنت ألمح في عينيه فجأة كانقداح النار، ثم أراه يعارضني الرأي؛ فيجادلني ويشتط في غضبه. وأحياناً أخرى كنت أعرض عليه أفكاراً معينة، فألاحظ أنه لم يكن يكتفي بمعارضتها وحسب، بل يثور علي لأنني كنت فاتر العاطفة في الاستجابة لتودده. ومن أجل تحقيق الكمال في تدريبه، صرت أقابله بالفتور كلما أبدى الرقة، لقد كنت أتعمد ذلك تعمداً: فقد كان ذلك مخططي وكانت غايتي أن أجعل له طابعاً وأضعه في قالب خاص، وأصيره رجلاً... وفضلاً عن ذلك... لا شك أنك تفهم ما أرمي إليه. وفجأة لاحظت وجومه وشرود خواطره ثلاثة أيام متوالية لا بسبب برودي بل بسبب شيء آخر أعظم خطراً.

ولقد فكرت في أسباب هذا الوضع المأساوي، وألححت عليه في الاستفهام والتساؤل حتى عرفت سره، فعلمت أن التغيير الذي أصابه كان عائداً لمعرفته بسميردياكوف، خادم أبيك الراحل ـ وكان ذلك قبل وفاته بطبيعة الحال ـ فقد علّم الأحمق الصغير حيلة سخيفة، أي حيلة فظة قبيحة. لقد طلب إليه أن يضع إبرة في قطعة من الخبز ويلقيها إلى كلب جائع يلتهم

الأشياء التي تأتيه من فوق دون أن يلقمها، ثم ينتظر ما سيصيب هذا الكلب. وهكذا أعدا قطعة من الخبز على هذا النحو وألقيا بها إلى جوتشكا ذلك الكلب الذي كثر الحديث عنه. ولم يكن أصحاب هذا الكلب يطعمونه أبداً فكان نباحه المتواصل يملأ الدنيا طول النهار. (هل تحب ذلك النباح السخيف يا كرامازوف؟ إنني لا أطيقه). وهكذا اندفع الكلب نحو قطعة الخبز فابتلعها وأخذ يهر هريراً موجعاً، وأخذ يدور في مكانه، ثم انطلق راكضاً وهو يهر وينبح حتى غاب عن الأبصار، وهكذا روى إيلوشا الحادث بنفسه. لقد اعترف لي بذلك وبكى بكاء مراً. وعانقني وهو يرتجف تأثراً وظل يردد هذه العبارة: «لقد ابتعد وهو يهر وينبح». لم يكن هذا المشهد يفارق مخيلته. لقد عذبه وخز الضمير، كما لاحظت. أما أنا فقد اهتممت بالأمر اهتماماً عظيماً، وقررت أن ألقنه درساً حول أشياء أخرى أيضاً. ولذلك، فإنه لزام علي أن أعترف بأنني لم أكن مستقيماً تماماً وادعيت الشعور بالاشمئزاز يغالب شعوري الحقيقي، فقلت له: «لقد قمت بعمل قبيح، إنك نذل، ولن أخبر الصبيان بما قمت به من عمل بطبيعة الحال، ولكنني سأنقطع عنك مدة من الزمن. سأدقق في ذلك وأبلغك قراري بهذا الخصوص بوساطة سموروف (وهو ذلك الصبي الذي جاء لتوه معي، وهو مستعد دائماً لأن يفعل كل شيء في سبيلي). وسأبلغك حين أقرر تجديد علاقتي بك في المستقبل أو ما إذا كنت سأبقى أرى فيك نذلاً إلى الأبد. ولقد جعله قولي هذا يضطرب أيما اضطراب. ويجب علي أن أعترف بأنني شعرت بأنني كنت مبالغاً بما حدثته به، ولكنني لم أستطع تفاديه. لقد فعلت ما رأيت أنه خير ما يمكن فعله في ذلك الوقت.

وبعد ذلك بيوم أو يومين أرسلت سموروف لكي يبلغه أنني لن أعود إلى محادثته. وهذا هو ما يلجأ إليه صبي المدرسة إذا خطر له أن يقطع علاقته بغيره من الصبية. وقد كنت في سري أبغي مقاطعته بضعة أيام ثم مصالحته إذا لمحت في وجهه دلائل الندم والتوبة. لقد كان هذا هو قصدي. ولكن ما ظنك فيما حدث؟ إنه أنصت إلى أقوال سموروف فومضت عيناه وصاح به قائلاً: قل لكراسوتكين على لساني بأنني سأضع الأبر في الخبز وألقيها لجميع الكلاب، جميعها. فقلت في نفسي: «لقد احتد قليلاً لسوف

أؤدبه على ذلك. وصرت أقابله بازدراء، وكنت كلما التقيت به تحولت عنه، وابتسمت ابتسامة السخرية. وفي ذلك الوقت وقع حادث أبيه. أتذكر ذلك؟ يجب أن تدرك بأنه كان منهوك الأعصاب إلى حد مخيف بما جرى له قبل ذلك. وعندما رأى الصبية أنني تخليت عنه، عادوا يلاحقونه ويعيرونه صائحين: «حزمة القش، حزمة القش». وسرعان ما أخذ يشتبك معهم في مشاجرات مستمرة، الأمر الذي أشعرني بالأسف الشديد. ويبدو أنهم ضربوه ذات مرة ضرباً مبرحاً.

وفي ذات يوم حمل عليهم جميعاً عند خروجهم من المدرسة، وكنت أرقب ما يجري وأنا على بعد ياردات قليلة منهم. وأقسم أنني لا أذكر بأنني ضحكت؛ بل كان شعوري مناقضاً لذلك، إذ أنني كنت أشعر نحوه بالأسف العظيم، وكدت في لحظة واحدة أبادر إلى الوقوف إلى جانبه والدفاع عنه. ولكن وقع نظره فجأة على نظري، ولست أعرف ماذا خيل إليه، فاستل موسى صغيرة من جيبه، وحمل علي، وطعنني بها في فخذي، هنا في رجلي اليمنى. ولم أتحرك من مكاني. ويمكنني الاعتراف بأنني أحياناً أحتفظ برباطة جأشي يا كرامازوف. ولم أزد على النظر إليه بازدراء. وكأنني أقول له أهذا هو جزاء كل ما أبديته لك من عطف؟ أعد الكرة إذا شئت، فأنا رهن مشيئتك. ولكنه لم يطعني ثانية؛ بل أسقط في يده. وانتابه الخوف مما فعل، فقذف بالموسى جانباً، وطفق يبكي وانطلق عدواً، ولم أحمل عليه بطبيعة الحال، وأمرت الصبية بأن يهدأوا ويلزموا جانب الصمت لئلا يصل نبأ ذلك إلى أساتذة المدرسة، ولم أنبىء أمي بأمر الطعنة قبل أن أشفى منها وكان الجرح عبارة عن خدش بسيط. ثم سمعت أنه رماك بالحجارة وعض إصبعك. وها أنت الآن تدرك الحالة التي كان فيها! حسناً إن ذلك أمر لا دافع له: لقد كان سخفاً مني ألا آتي وأصفح عنه، أي أن أسترضيه وأصالحه، عندما ألزمه المرض الفراش. إنني الآن آسف لما حدث غير أن لدي سبباً خاصاً، وها أنا ذا أطلعتك على كل شيء... ولكنني كنت أخشى أن أكون قد أتيت حماقة».

فهتف أليوشا وقد فاض شعوره: «آه، إنني آسف، ألا أكون قد عرفت حقيقة علاقته بك، وإلا لجئت منذ زمن بعيد راجياً أن تصطحبني إليه.

صدقني إنه كان يتحدث عنك في هذيان الحمى. ولم أكن أعرف قدرك عنده. أحقاً لم تستطع العثور على ذلك الكلب؟ إن والده ورفاقه دائبون في السعي للعثور عليه في جميع أنحاء المدينة. لقد سمعته ثلاث مرات منذ مرضه يقول والدموع تتساقط من عينيه: إن ما جرى لي كان بسبب قتلي جوتشكا يا أبي. إن الله يعاقبني عليه. وهو لا يستطيع أن ينزع هذه الفكرة من رأسه، ولو عثر على الكلب وتبين أنه ما زال في قيد الحياة، فإن الإنسان يستطيع أن يتخيل بأن العافية سترتد إليه بفعل البهجة التي سيحس بها. إنك أنت محط آمالنا جميعاً.

فسأله كوليا بفضول عظيم: «قل لي، ما الذي يجعلكم تأملون بأنني أنا الذي سيعثر على الكلب؟ ولماذا علقتم آمالكم علي أنا من دون الناس أجمعين»؟

ـ لقد بلغنا أنك كنت تبحث عن الكلب، وأنك ستحضره عندما تعثر عليه.

لقد قال سموروف شيئاً بهذا المعنى. إننا ما زلنا جميعاً نحاول أن نبث في نفس إيلوشا أن الكلب حي وأن بعضهم قد أبصره. ولقد أتى الصبية له بأرنب بري حي. فما أن نظر إليه حتى ابتسم ابتسامة خفيفة وطلب إليهم أن يطلقوه في الحقول، وقد قمنا بما أمرنا به. ولقد جاء أبوه لتوه وأحضر له معه جرواً كبيراً وهو يأمل أن يجلب له العزاء؛ ولكنني أظن بأن ذلك لن يساهم إلا بزيادة الحالة سوءاً.

ـ قل لي يا كرامازوف، أي نوع من الرجال أبوه؟ أنا أعرفه، ولكن ما رأيك فيه، أهو دعي، ومهرج؟.

ـ كلا، إن هنالك بعض الناس ذوي الحس المرهف الذين حطمتهم الحياة. والتهريج بالنسبة لمثل هؤلاء هو ممارسة أقرب إلى السخرية الممزوجة بالكره من أولئك الذين لا يستطيعون أن يقولوا لهم الصدق، بسبب بقائهم سنوات طويلة خاضعين لهم ويخشون بأسهم. صدقني يا كراسوتكين إن هذا الضرب من التهريج هو شيء محزن إلى أقصى حد. إن محور حياته كلها الآن هو إيلوشا فهو إما أن يصاب بالجنون بسبب حزنه أو يقتل نفسه. إنني

كلما نظرت إليه الآن أيقنت بذلك.

فقال كوليا بحنان: «إنني أفهمك يا كرامازوف. وها أنا أرى أنك تفهم طبيعة البشر».

- وحالما رأيت كلباً معك ظننت بأنك قد جئت بجوتشكا.

- مهلاً، يا كرامازوف. فقد نستطيع العثور عليه؛ ولكن هذا الكلب يدعى بيريزفون... وسأدخله الآن إلى المنزل فقد يسلي إيلوشا أكثر مما يسليه الجرو. وفجأة أضاف كوليا صائحاً: «مهلاً، يا كرامازوف؛ إنك ستعلم شيئاً خلال دقيقة واحدة. ولكن ما لي قد أبقيتك هنا في هذا الصقيع وأنت لا ترتدي معطفك. يا لي من إنسان أناني. إننا جميعاً أنانيون يا كرامازوف»!

- لا تهتم؛ إن الجو بارد، ولكنني قلما أصاب بالزكام. دعنا ندخل. وما دمنا في هذا الحديث فما اسمك؟ إنني أعلم أنك تدعى كوليا، ولكن ما هو كامل اسمك؟.

- نيكولاي إيفانوفيتش كراسوتكين لقد سجلوني في السجلات الرسمية باسم «ابن كراسوتكين» وضحك كوليا لسبب ما ثم أضاف فجأة: إنني بطبيعة الحال أكره إسم نيكولاي الذي أدعى به.

- لماذا؟.

- إنه تافه، عادي.

فسأله أليوشا: «هل تبلغ الثالثة عشرة من عمرك»؟.

- كلا، إنني أبلغ الرابعة عشرة، وسأبلغ هذا السن قريباً في غضون أسبوعين. إنني سأعترف بضعف واحد فيّ يا كرامازوف، سأعترف به لك وحدك، نظراً لأن هذا اللقاء هو لقاؤنا الأول، فيمكنك أن تفهم حقيقة سجيتي. إنني أكره أن أسأل عن سني، وأكثر من هذا... وفي الحقيقة... إن هناك قصة مهينة يتداولها الصبية عني، وهي أنني في الأسبوع الماضي لعبت لعبة اللصوص مع تلاميذ الصف الإعدادي. ولقد لعبت فعلاً هذه اللعبة معهم، ولكن من الأمور المهينة أن يقال إنني قد قصدت تسلية نفسي من وراء

ذلك. إن لدي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بأنك قد سمعت بهذه القصة؛ ولكنني لم أكن ألعب معهم بقصد تسلية نفسي، بل كنت أود تسلية نفوس الأطفال، نظراً لأنهم لم يكونوا قادرين على التفكير بأي شيء من تلقاء أنفسهم. لكن الصبية لا تنقصهم القصص السخيفة يتداولونها، فهذه المدينة يكثر فيها القيل والقال.

- ولكن ما وجه الضرر لو أنك كنت تقصد تسلية نفسك من وراء اللعب، ما هو الضرر في ذلك؟.

- بلى، لقد كنت أقصد تسلية نفسي! إنك لا تلعب لعبة الخيول، أليس كذلك؟.

فقال أليوشا مبتسماً: «ولكن يجب أن تنظر إلى هذا الأمر هذه النظرة: إن الكبار يقصدون المسارح حيث يقوم أبطال متنوعون بتمثيل المخاطرات، وفي بعض الأحيان يكون فيها اللصوص والمعارك أيضاً. أو ليس ذلك نفس ما يفعله الصبية، بشكل مختلف عن ذلك بطبيعة الحال؟ وأن ألعاب الجنود واللصوص التي يقوم بها الأحداث في لهوهم، هي أيضاً فن في المرحلة الأولى. وهذه الألعاب مبعثها الغرائز الفنية في الأحداث. وأحياناً تأتي هذه الألعاب أفضل تمثيلاً مما يدور في المسرح. والفرق الوحيد هو أن الممثلين يقصدهم الناس إلى المسرح لمشاهدتهم في حين أن الصبية في الحالة الأخرى هم الممثلون أنفسهم، إن هذا شيء طبيعي!

فحدجه كوليا بنظرة متفحصة وسأله قائلاً: «أتظن ذلك؟ هل هذا هو رأيك؟ ألا فاعلم أن هذا هو رأي ملذ، وسأفكر فيه عند عودتي إلى المنزل» ثم اختتم قوله بلهجة فيها شعور خالص: «سأعترف لك بأنني كنت أعد نفسي بأني سأتعلم منك شيئاً. لقد جئت كي أتعلم منك يا كرامازوف».

وقد سر كوليا سروراً عظيماً بأليوشا. وكان متأثرا من طريقة معاملته كندّ له وأنه كان يحادثه كما يحادث «فتى كبيرا».

ثم قال وهو يبتسم ابتسامة عصبية: سأريك الآن شيئاً يا كرامازوف، جئت خصيصاً من أجله، وهو أيضاً مشهد مسرحي.

- لندخل أولاً إلى غرفة أصحاب المنزل، وهي على اليسار، فجميع الأولاد يخلعون معاطفهم هناك، لأن الغرفة صغيرة دافئة. فلن أمكث أكثر من دقيقة، وسأظل مرتدياً معطفي، وسيبقى بيريزفون في الممشى ويتصنع الموت، هيا يا بيريزفون انطرح على الأرض «ومت». أنظر لقد مات. سأدخل في أول الأمر وأستطلع الوضع، حتى إذا حانت اللحظة المناسبة سأصفر له وسترى كيف أنه سيدخل إلى الغرفة كالمجنون. عسى أخيراً ألا ينسى سموروف أن يفتح الباب في تلك اللحظة. سأرتب كل شيء وسترى ما يسرّك.



حول سرير إيلوشا

يعرف القارىء الآن الغرفة التي تعيش فيها أسرة الكابتن المتقاعد سنيغيريوف. إنها في تلك اللحظة تغص بعدد من الزوار وبابها مغلق. وكان عدد كبير من الصبية يجالسون إيلوشا آنذاك. وكانوا جميعاً مستعدين، مثل سموروف، لإنكار الحقيقة، وهي أن أليوشا هو الذي حملهم على الحضور وصالحهم مع إيلوشا. وقد توسل أليوشا بكل ما يتحلى به من لباقة وحسن تصرف لكي يأخذهم، كلّ بدوره، لعيادة إيلوشا بدون أن تكون هنالك «عواطف تدل على الخضوع»، متظاهراً بأنه يفعل ذلك عفو الخاطر وبدون تدبير خاص. وقد وجد إيلوشا في حضورهم عزاء عظيماً له في مرضه. فلقد تأثر عظيم التأثر بتحولهم من أشخاص يناصبونه العداء إلى رفاق أغدقوا عليه حبهم وعطفهم.

وكان كراسوتكين الصبي الوحيد الذي افتقدوه، وقد اغتم إيلوشا كثيراً لغيابه. ولعل آلم ذكريات إيلوشا المؤلمة كانت ذكرى طعنة كراسوتكين بالموسى وهو الذي كان صديقه الأوحد وحاميه. وقد كان هذا هو اعتقاد سموروف الصغير النابه، الذي كان أول من صالح إيلوشا. ولكن عندما ألمح سموروف أمام كراسوتكين إلى أن أليوشا يرغب في الحضور للتحدث إليه في أمر ما، قاطعه كراسوتكين بلهجة الأمر بأن يخبر «كرامازوف» في الحال أنه أدرى الناس بما يجب أن يفعل، وأنه في غنى عن نصائح جميع الناس. وأنه إذا ذهب لكي يعود إيلوشا، فإنه سيختار الوقت الذي يناسبه لأسباب خاصة به.

حدث ذلك قبل أسبوعين من يوم الأحد هذا. ولذلك امتنع أليوشا عن الذهاب لمقابلته مع أنه كان ينوي ذلك للتحدث إليه. وفي حين ظل أليوشا ينتظر، فإنه أرسل سموروف إليه مرتين، لكن كراسوتكين صده في المرتين

صداً عنيفاً، وحمله رسالة إلى أليوشا وطلب منه فيها أن يكف عن مضايقته، وقال أنه أي كراسوتكين، لن يذهب قط لعيادة إيلوشا حتى لو جاءه أليوشا شخصياً. وقد ظل سموروف حتى اليوم السابق يجهل أن كوليا كان ينوي أن يعود إيلوشا في صباح ذلك اليوم، ولم يعرف بعزمه هذا إلا في مساء اليوم السابق، عندما افترقا، فقد طلب كوليا آنذاك من سموروف، وكأنه يصدر أوامره، أن ينتظره في بيته في صباح اليوم التالي، لأنه عازم على زيارة منزل عائلة سنيغيريوف. وكشف له أنه يريد أن تبدو زيارته كأنها تقع عرضاً محذراً إياه من التفوه بأية كلمة عن قدومه. وصدع سموروف بالأمر. أما ظن سموروف بأن كوليا سيحضر الكلب المفقود، فمرده إلى كلمات تسقّطها من فم كوليا الذي قال: «إنهم لن يختلفوا عن الحمير إذا لم يعثروا على الكلب، إذا كان على قيد الحياة». ولذلك فعندما تحين سموروف الفرصة، وأفصح بتردد عما في فكره عن الكلب، ثارت ثائرة كراسوتكين، وصاح به: «لست حماراً حتى أضرب في المدينة بحثاً عن كلاب الآخرين. في حين أن لدي كلبي الخاص! ثم كيف يمكن تصور بقاء كلب حياً بعد أن يبتلع إبرة؟ يا لها من عواطف تدل على الخضوع»!.

بقي إيلوشا طيلة الأسبوعين الماضيين ملازماً سريره القائم في زاوية الغرفة تحت الأيقونات، ولم يذهب إلى المدرسة منذ التقائه بأليوشا عندما عض إصبعه. فقد أصيب بالمرض في اليوم ذاته، ولكنه بقي طيلة الشهر الأول من مرضه، قادراً أحياناً على الوقوف والتنقل بين الغرفة والممشى. ولكنه هزل في الأيام الأخيرة إلى حد أنه لم يعد يستطيع الانتقال من مكانه بدون مساعدة والده. وكان والده عظيم القلق عليه، بل إنه كف عن تعاطي الخمر، وكاد أن يفقد عقله خوفاً أن يموت ابنه. وكان كثيراً ما يتجه إلى إحدى زوايا الممشى المظلمة، ولا سيما بعد أن يعينه على أن يسير في الغرفة ويعيده إلى سريره، فيسند رأسه إلى الحائط، ويبكي بكاء مراً، مخفياً صوت نشيجه لئلا يسمعه إيلوشا.

وعندما يعود إلى الغرفة يبدأ بعمل أي شيء لإدخال السرور والراحة على قلب ابنه الغالي، فهو تارة يروي له قصة، وأخرى يسرد له بعض الطرف

المضحكة، أو يقلد بعض الناس المضحكين الذين اتفق أن قابلهم، بل إنه كان يقلد أصوات الحيوانات. ولكن إيلوشا لم يكن يطيق رؤية والده وهو يهرج ويمثل دور الماجنين. وكان الصبي يحاول ألا يظهر كرهه لذلك إلا أنه كان يرى، وقلبه محطم، أن والده كان هدفاً للازدراء، فظلت تلاحقه ذكرى «حزمة القش» وذكرى ذلك «اليوم الرهيب».

وكانت نينا شقيقة إيلوشا اللطيفة المقعدة تشاركه الامتعاض مما كان يقوم به والدها من تهريج (أما فارفارا فكانت قد سافرت منذ وقت مضى إلى بطرسبورغ لمتابعة علومها في الجامعة)، في حين كانت الأم، نصف المعتوهة تبتهج ابتهاجاً عظيماً وتغرق في الضحك لرؤية زوجها يقفز في أنحاء الغرفة أو يمثل دوراً ما. وقد كان هذا العمل هو الشيء الوحيد الذي يسليها ويدخل السرور إلى قلبها، وإلا فهي دائمة التذمر والشكوى من إهمال الجميع لها، ومن عدم معاملتهم لها بالاحترام، فكلهم يزدرونها، وما إلى ذلك من أقوال. لكنها كانت قد تبدلت في الأيام القليلة الماضية تبدلاً تاماً. فقد أخذت تطيل النظر إلى سرير إيلوشا في زاوية الغرفة وتبدو كأنها مستغرقة في التفكير. وازدادت صمتاً وهدوءاً، وإذا بكت فبهدوء لكي لا يسمعها أحد. وقد لاحظ الكابتن التبدل الذي طرأ عليها بحيرة مشوبة بالحزن. وقد كانت زيارات الصبية في أول الأمر تغضبها، لكنها بدأت تشعر بالسرور عندما تسمع قصصهم وضحكاتهم المرحة. وأصبحت أخيراً تحبهم حباً جماً. حتى أنها كانت تشعر بالوحشة إذا ما الصبية فكروا بالانقطاع عن المجيء، وكانت تضحك وتصفق كلما قص الأطفال قصة أو لعبوا لعبة. وكانت تدعو بعضهم إليها وتقبلهم خاصة سموروف الذي خصته بحب مميز.

أما فيما يتعلق بالكابتن، فإن مجيء الأطفال إلى غرفته لتسلية إيلوشا، ملأ قلبه منذ بدء الأمر ببهجة لا مزيد عليها. بل إنه كان يسمح لنفسه أن يأمل بأن ابنه سيتغلب على كآبته، وأن هذا سيعجل في شفائه. وقد ظل حتى الآونة الأخيرة، لا يراوده شك في أن إيلوشا سيشفى أخيراً، برغم خوفه من كل ما يتهدده. وكان يلقى زواره الصغار بإجلال ولا يتوانى في تلبية طلباتهم، وكان لا يتورع عن أن يجعل من نفسه حصاناً لهم، بل إنه مضى في ذلك

إلى حد أنه أخذ يسمح لهم بالركوع على ظهره، غير أن إيلوشا لم يحب هذه اللعبة وطلب الغاءها وقد بدأ يشتري لهم بعض الأشياء الصغيرة كحلوى الزنجبيل والجوز. وكان يصب لهم الشاي ويصنع لهم الشطائر.

وينبغي أن نذكر أنه في تلك الفترة كان يملك الكثير من المال، إذ أنه كان قد أخذ المائتي روبل من كاترينا إيفانوفنا كما تنبأ أليوشا. ثم أن كاترينا إيفانوفنا بعد أن اطلعت على المزيد من ظروف أسرته ومرض إيلوشا، زارته بنفسها، وتعرفت على أسرته ونجحت في استمالة الأم نصف المعتوهة إليها. ومنذ ذلك الوقت أخذت تغدق عليهم مساعدتها إغداقاً، وقد تغاضى الكابتن عن كبريائه بعد إحساسه بالرعب من جراء الظن بأن ابنه قد يموت، وتقبل مساعدتها بخضوع. وكان الطبيب هرتسنشتوبي الذي استدعته كاترينا إيفانوفنا لمعالجة إيلوشا، يعوده كل يوم، غير أنه لم يتحسن إلا قليلاً، وكان يقسو على المريض في إعطائه العلاج.

ولكن في صبيحة ذلك الأحد كان من المنتظر مجيء طبيب جديد، وصل إلى المدينة من موسكو. وكان صيته فيها ذائعاً. وقد استدعته كاترينا إيفانوفنا من موسكو ودفعت له مبلغاً كبيراً من المال، ولم تعلن أنها استدعته لمعالجة إيلوشا، بل لشيء آخر سنأتي على ذكره في موضعه فيما بعد. ولكنها طلبت إليه، طالما أنه هنا الآن، أن يعود إيلوشا أيضاً، وأبلغ الكابتن بأن ينتظر مقدمه، ولم تكن لديه أقل فكرة بأن كوليا كراسوتكين سيحضر، مع أنه كان يتمنى منذ زمن بعيد زيارة هذا الصبي الذي كان ابنه يتوق إليه.

وفي اللحظة التي فتح فيها كراسوتكين الباب ودخل إلى الغرفة، كان الكابتن وجميع الصبية متحلقين حول فراش إيلوشا، وهم ينظرون إلى الجرو، الذي كان قد ولد في اليوم السابق، رغم أن الكابتن كان قد أسلف الحديث عنه قبل ذلك بأسبوع لكي يبهج ويسلي إيلوشا الذي كان شوقه ما زال عظيماً لذلك الكلب الضائع وربما الميت جوتشكا. وكان إيلوشا قد سمع قبل ثلاثة أيام بأنه سيهدى جرواً، لا كالجراء، بل من الفصيلة ذات الجرم الكبير (وهي نقطة هامة جداً بطبيعة الحال)، فحاول بدافع من رقة إحساسه أن يتظاهر بالسرور، لكن أباه والصبية كانوا متنبهين إلى أن الجرو قد أعاد إلى

ذاكرته صورة الكلب التعيس الذي قتله. وكان الجرو إلى جانبه يتحرك حركة ضعيفة، وكان إيلوشا يربت عليه بيده الناحلة المعروقة الشاحبة، وهو يبتسم ابتسام الحزين. وقد كان جلياً أنه أحب الجرو، ولكنه... لم يكن جوتشكا؛ ولو استطاع أن يظفر بجوتشكا والجرو في آن واحد لكملت سعادته.

وصاح أحد الصبية فجأة: «كراسوتكين»! وقد كان أول من وقع بصره عليه.

وقد أحدث دخول كراسوتكين أثراً عظيماً في نفوس الجميع وتحرك الصبية من أماكنهم ووقفوا عند جانبي السرير، لكي يتمكن من مشاهدة إيلوشا. وركض الضابط متشوقاً للقاء كوليا. وقال متسرعاً: «تفضل بالدخول... أهلاً بك. إيلوشا، إن السيد كراسوتكين قد جاء لعيادتك»!.

لكن كراسوتكين بعد أن صافحه متسرعاً، أظهر إحاطته التامة بأصول المعاملة في المجتمع الرفيع. فالتفت أولاً إلى زوجة الكابتن الجالسة على مقعدها الوثير، وكانت في تلك الآونة سيئة الطبع، تتذمر لأن الصبية كانوا يقفون بينها وبين فراش إيلوشا حاجبين عنها رؤية الجرو. وانحنى لها كراسوتكين انحناءة عظيمة وقد شد قدميه ثم التفت إلى نينا، وانحنى لها هي الأخرى انحناءة مماثلة لأنها الأنثى الوحيدة بعد أمها في الغرفة. وكان لهذا التصرف المهذب أثر كبير على السيدة المضطربة.

وهتفت قائلة بصوت جهوري وهي تلوح بذراعيها إلى أعلى: «ها أنكم تستطيعون أن تدركوا تواً أنه فتى حسن التربية، أما زوارنا الآخرون فيدخلون بتدافع وتزاحم».

فتمتم الكابتن مبدياً العطف والقلق عليها: «ماذا تعنين بقولك أنهم يدخلون متزاحمين، كيف ذلك»؟.

- إنهم يدخلون بهذا الشكل، تراهم يتدافعون بالمناكب في الممشى ثم يدخلون إلى المنازل المحترمة متدافعين، إن هذا جمع غريب من الزائرين!.

- ولكن من دخل على هذا النحو؟.

- لقد دخل هذا ممتطياً ظهر ذاك، ودخل ذاك ممتطياً ظهر ذلك.

وكان كوليا قد بلغ سرير إيلوشا. وازداد شحوب الصبي المريض. وقد

نهض متثاقلاً من سريره وأخذ ينظر باهتمام إلى كوليا. وكان قد مضى شهران على رؤية كوليا لصديقه الصغير وإذ رآه على هذه الحالة اضطرب اضطراباً شديداً. ولم يكن يخطر بباله قط أن يرى مثل هذا الوجه الناحل المصفر، وهاتين العينين المتسعتين المتألقتين بنار الحمى، وهاتين اليدين الدقيقتين. ولاحظ والدهشة والألم يحزان في قلبه، نفس إيلوشا السريع المضطرب وشفتيه الذاويتين. وتقدم حتى التصق به وتناول يده وقال بلهجة مؤثرة:

«حسناً أيها الفتى... كيف حالك»؟ وكانت لهجته تعكس حقيقة داخله فهو لم يستطع أن يظل متصنعاً الهدوء؛ فتقلص وجهه واختلجت زاويتا فمه. وابتسم إيلوشا ابتسامة هادئة حزينة وهو عاجز عن النطق بكلمة واحدة. وأحس كوليا بدافع جعله يرفع يده ويتحسس بها شعر إيلوشا.

ثم هتف به قائلاً بلهجة رقيقة لكي يشيع في نفسه العزاء: «لا بأس عليك»! ولعله كان يجهل الدافع الذي حمله على أن يقول هذه العبارة. وبقيا صامتين لفترة دقيقة.

ثم قال كوليا فجأة بلهجة جافة: «مرحى، ألديك جرو جديد»؟.

فقال إيلوشا وهو يهمس همساً طويلاً ويلهث: «ن ـ نعم».

وعاد كوليا إلى القول بوقار وجد: «إن أنفه الأسود يدل على أنه سيكون عندما يكبر كلباً شرساً، يصلح لحماية المنازل». وقد قال ذلك وكأن ما كان يهمه هو أمر الجرو وأنفه الأسود. وفي الحقيقة كان يحاول إشغال نفسه لكي يكبت مشاعره فلا يبكي كالطفل، ولكنه لم يفلح في ذلك رغم ما بذله من جهد. وتابع يقول: «وعندما يكبر، يجب عليك أن تربطه بسلسلة من حديد. إنني واثق من ذلك».

وصاح أحد الصبية: «إنه سيكون ضخم الجثة»!.

وارتفعت أصوات أخرى تقول: «طبعاً إن الكلاب من هذه الفصيلة تبلغ هذا الحد من الكبر، ويصبح الواحد منها في حجم العجل».

وأمن الكابتن على أقوالهم هاتفاً: «حجم العجل، العجل الحقيقي. لقد اخترت عمداً كلباً من هذه الفصيلة، وهو من أشرس فصائل الكلاب من أب وأم عظيما الحجم شرسا الطبع، ويبلغ ارتفاعهما هذا الحد... إجلس هنا على

سرير إيلوشا، أو هنا على المقعد. أهلاً بك، لقد كنا مشتاقين لرؤيتك منذ زمن بعيد... لقد أبديت لنا منتهى الكرم بمجيئك مع ألكسي فيودوروفيتش»!

وجلس كراسوتكين على حافة السرير عند قدمي إيلوشا، ولم يعرف كيف يبدأ حديثه، فهو ربما قد أعد كلمات تسهل عليه هذا الأمر وهو في طريقه، ولكن ما أعده نسيه في تلك اللحظة.

ـ كلا... لقد أتيت مع بيريزفون. إن لدي الآن كلباً يدعى بيريزفون. وهو اسم سلافوني. إنه في الخارج... فإذا صفرت له، انطلق إلى الداخل ثم وجه كلامه إلى إيلوشا بغتة: «إن لدي كلباً. هل تذكر جوتشكا أيها الفتى»؟. وكان هذا مفاجئاً له.

وعندما سمع إيلوشا هذا السؤال اختلج وجهه الصغير. ونظر إلى كوليا نظرة تفيض بالحزن. وكان أليوشا يقف عند الباب فعبس وأشار إلى كوليا بأن يحجم عن ذكر جوتشكا، ولكنه لم يبال بذلك، وربما لم يلاحظ إشارته.

وتساءل إيلوشا بصوت متقطع: «أين... جوتشكا»؟.

ـ أواه، حسناً، يا فتاي، إن جوتشكا قد ضاع وانتهى أمره»!.

ولم يقل إيلوشا شيئاً، بل ألقى على كوليا نظرة أخرى ثابتة. والتقت عينا أليوشا بعيني كوليا فأشار إليه إشارة قوية بأن يكف عن كلامه، ولكنه أشاح بوجهه عنه وكأنه لم ير إشارته.

وقال كوليا متصنعاً القسوة، مع أنه كان مبهوراً: لا بد وأنه انطلق بعيداً ونفق في مكان ما، ولا بد أنه نفق بعد أكلة كتلك الأكلة. ولكن لدي كلب إسمه بيريزفون... وهو إسم سلافوني... لقد جئت به لتروه.

فقال إيلوشا بغتة: «إنني لا أريده»!

ـ بلى، بلى، يجب أن تراه حقاً... فإنه سيسرك. لقد تعمدت إحضاره... إنه وذلك الكلب الأشعث من نوع واحد. وفجأة التفت إلى السيدة سنيغيريوف وسألها باضطراب غريب: «هل تسمحين لي يا سيدتي أن أدعو كلبي»؟.

فصاح إيلوشا بصوت متهدج غلب عليه الحزن وقد أطلت من عينيه أمارات التأنيب: «إنني لا أريده، إنني لا أريده»!

وانبرى الضابط قائلاً وهو جالس فوق الصندوق الموضوع عند الزاوية: «الأفضل، الأفضل... أن تؤجل ذلك إلى وقت آخر». غير أن كوليا لم يستطع أن يتمالك نفسه. وسارع بمناداة سموروف: «إفتح الباب». ولما فتح، أطلق صفارته، واندفع بيريزفون إلى الغرفة كالسهم.

وصاح كوليا وهو يهب على قدميه: «إقفز يا بيريزفون»! فوقف الكلب منتصباً على قائمتيه الخلفيتين عند سرير إيلوشا. وقد فاجأ الجميع ما حدث تواً بعد ذلك فقد أجفل إيلوشا، وأمال جسمه بعنف إلى الأمام، وانحنى فوق بيريزفون وحدق فيه وقد تخاذل جسمه لفرط حيرته.

وفجأة صاح بصوت فيه مزيج من الفرح والألم: «إنه... جوتشكا»! وصرخ كراسوتكين عالياً بصوت مغتبط مجلجل: «وماذا كنت تظنه»؟ ثم انحنى إلى الكلب ورفعه إلى إيلوشا، ثم قال: «أنظر أيها الفتى، ها أنت ترى ذات الأوصاف التي ذكرتها لي: إنه أعمى العين اليمنى، مصلوم الأذن اليسرى. لقد ساعدتني هذه الأوصاف على الاهتداء إلى مكانه، فلم يصعب علي أن أجده، ولم يكن أحد يملكه. ثم نقّل بصره بين الكابتن، وزوجته وأليوشا، ثم إلى إيلوشا ومضى يقول: «وجدته في ساحة آل فيدوتوف الخلفية، ومع أنه كان يتردد على ذلك المكان فإنهم ضنوا عليه بالطعام. لقد كان كلباً ضالاً هرب من القرية... ها أنت ترى أيها الفتى بلا شك أنه لم يبتلع الإبرة التي وضعتها له في قطعة الخبز. فهو لو ابتلعها لنفق، لا شك في ذلك! ولذلك فكونه ما زال حياً، فلا بد أنه لفظها. وأنت لم تره يلفظها من فيه. إلا أن الإبرة وخزت لسانه، فأخذ يهر وينبح. ولقد مضى هارباً نابحاً فخيل إليك أنه ابتلعها. وهو قمين بأن يهر وينبح فإن أفواه الكلاب حساسة جداً... وتفوق بحساسيتها أفواه الناس، تفوقها إلى حد بعيد»!.

وكان كوليا يصيح عالياً ووجهه يتألق فرحاً. وعقلت المفاجأة لسان إيلوشا فلم يستطع أن يقول شيئاً. وحدق في كوليا وقد استحال لون وجهه أبيض تماماً. وهو فاغر فاه، وجحظت عيناه حتى كادت تخرجان من محجريهما. ولو علم كراسوتكين، الخالي البال، مقدار الأثر القاتل الذي قد تحدثه مثل تلك اللحظة في صحة الطفل المريض، لما كان هناك شيء في

الوجود يقنعه بالقيام بمثل هذه اللعبة، ولعل أليوشا هو الإنسان الوحيد في الغرفة الذي أدرك نتائج ذلك. أما الكابتن فقد أخذ يتصرف تصرف الأطفال. لقد غمرته السعادة فأخذ يصيح: «جوتشكا! إنه جوتشكا. إيلوشا ها هو جوتشكا، كلبك جوتشكا، أيتها الزوجة البارة إنه جوتشكا»! وكاد يبكي.

تأثر سموروف بعمق فقال: «لم يكن قط يخطر ببالي ذلك! مرحى يا كراسوتكين، لقد قال إنه سيعثر على الكلب وها هو قد عثر عليه».

وردد أحد الصبية هذا القول مبتهجاً: «لقد عثر عليه»!.

وصاح ثالث: «إن كراسوتكين إنسان كريم»! فتبعه بقية الصبية صائحين: «إنه كريم»! وأخذوا يصفقون له استحساناً.

وصاح كراسوتكين بأعلى صوته ليعلو صياح الآخرين: مهلاً، مهلاً، سأوضح لكم كيف حدث هذا الأمر، فإن هذا بيت القصيد. لقد وجدت الكلب فأخذته معي إلى المنزل وأخفيته عن الأنظار حالاً. لقد أبقيته محبوساً في البيت ولم أكشفه لأحد حتى هذا اليوم. إن سموروف وحده علم بوجوده منذ أسبوعين. وقد أكدت له أن اسمه بيريزفون، ولم يخطر بباله أنه جوتشكا. ولقد قمت بتلقين الكلب جميع الحيل وأنواع الخدع، ويجدر بكم الاطلاع على كل الألعاب التي يستطيع القيام بها! لقد أحسنت تدريبه لأقدم لك كلباً مدرباً، وفي حالة جيدة أيها الفتى، لكي أستطيع أن آتي إليك وأقول لك: «أنظر أيها الفتى، ما أحسن كلبك جوتشكا الآن! أليس لديكم قطعة من اللحم، أليس لديكم شيء من اللحم»؟.

وأسرع الكابتن باجتياز الممشى إلى مسكن صاحبة المنزل حيث كان يطهي طعام أسرته. وحرص كوليا على عدم إضاعة الوقت فأسرع يصيح بكلبه طالباً منه أن يتظاهر بالموت. وللحال دار الكلب حول نفسه ونام على ظهره ورفع قوائمه إلى أعلى. وضحك الصبية. وأخذ إيلوشا ينظر ويبتسم إبتسامته الدالة على الألم. أما الإنسان الذي فاق غيره سروراً بألعاب الكلب فكان أم إيلوشا. فقد صارت تضحك منه وتنقر له بأصابعها وتدعوه إليها باسمه.

فصاح كوليا قائلاً ونشوة النصر تأخذه: «إنه ما من شيء يجعله ينهض، لا شيء ولن يقوم من رقدته ولو صاح به أهل الدنيا جميعاً أن ينهض، إ- إذا

دعوته أنا، فسينهض حالاً. هيا يا بيريزفون»! وعندها قفز الكلب من مكانه وأخذ يهر مسروراً. ثم عاد الكابتن إلى الغرفة وهو يحمل قطعة لحم بقري مطهوة.

وقال كوليا مستفهماً وهو يتناول قطعة اللحم: «هل هي حارة؟ إن الكلاب تنفر من الأطعمة الحارة. كلا، لا بأس بها. أنظروا جميعاً، أنظر يا إيلوشا أيها الفتى؛ لماذا لا تنظر؟ إنه لا ينظر إليه. بعد أن أحضرته له».

أما اللعبة الجديدة فتلخصت في حمل الكلب على الوقوف بدون حراك وهو يمد أنفه، ثم توضع فوقه لقمة شهية من اللحم. وكان على الكلب التعيس أن يبقى واقفاً بدون حراك، وقطعة اللحم موضوعة فوق أنفه، طيلة المدة التي يحددها صاحبه، ولو امتد ذلك نصف ساعة. غير أنه لم يبق بيريزفون سوى برهة وجيزة.

ثم صاح كوليا بكلبه قائلاً: «خذ أجرك»! وفي مثل لمح البصر كانت قطعة اللحم تنتقل من موضعها فوق أنف الكلب إلى فمه وقد أبدى الحضور بطبيعة الحال كل حماسة ودهشة لما رأوه.

وهتف أليوشا قائلاً بلهجة لم يتمكن من إخفاء دلالتها على التأنيب: «هل صحيح أنك أجلت قدومك طيلة هذه المدة لكي تدرب الكلب»؟.

فأجابه كوليا بعفوية: ذاك هو السبب بعينه! لقد أردت أن أريه الكلب في قمة أدائه.

وفجأة قال إيلوشا وهو ينقر إصبعيه داعياً الكلب إليه: «بيريزفون، بيريزفون»!.

ـ ماذا تريد؟ أتريد أن تجعله يقفز إلى السرير؟ هيا يا بيريزفون! وضرب كوليا السرير بيده فقفز بيريزفون فوقه وجلس عند إيلوشا. وطوق الصبي رأس الكلب بكلتا يديه، وأخذ بيريزفون يلعق خده. واقترب إيلوشا منه ومد جسمه وأخفى وجهه بجلد الكلب الأشعث.

وأخذ الكابتن يقول: «يا عزيزي، يا عزيزي»! وعاد كوليا فجلس عند حافة السرير.

ـ إيلوشا، أستطيع أن أريك لعبة أخرى، لقد أحضرت لك مدفعاً صغيراً

إنك تذكر المدفع الذي سبق وحدثتك عنه، وقلتَ لي إنك جد راغب في رؤيته. حسناً ها قد أحضرته معي.

وسرعان ما أخرج كوليا المدفع البرونزي الصغير من حافظته، وقد أسرع في إخراجه لأنه كان سعيداً. ولقد كان ينتظر وشوك انتهاء ما أحدثه بيريزفون، إلا أنه الآن أسرع في إظهار لعبته الثانية مهملاً أي اعتبار آخر، وقال في نفسه: «إنكم جميعاً سعداء الآن، إذن فهاكم شيئاً يزيد في سعادتكم». لقد كان هو نفسه مسحوراً بسعادة تلك اللحظة.

ـ لقد كنت أتوق إلى هذا الشيء منذ زمن بعيد، وهو لك أيها الفتى، إنه لك، لقد كان ملكاً لموروزوف، وغير ذي فائدة له وقد أخذه من أخيه. ولقد قايضته بكتاب من خزانة أبي اسمه «حماقة مستحبة» وهو كتاب مملوء بالفضائح وقد نشر في موسكو منذ مائة عام قبل أن توجد لديهم رقابة. وإن موروزوف راغب بمثل هذه الأمور فكان ممتناً جداً أيضاً لهذه المقايضة.

رفع كوليا المدفع بيده لكي يستطيع الجميع أن يروه ويعجبوا به، ونهض إيلوشا قليلاً وأخذ يحدق مخلوب اللب باللعبة وهو لا يزال يطوق الكلب بذراعه اليمنى. وزاد تأثر الحاضرين إعلان كوليا أن لديه باروداً، وأن بالإمكان إطلاق المدفع حالاً «إذا كان ذلك لا يزعج السيدتين». وقد طلبت الأم فوراً أن تنظر إلى اللعبة من مدى قريب فلبي طلبها. وكان سرورها عظيماً بالمدفع البرونزي الصغير المنصوب على عجلتين وأخذت تدحرجه على حجرها جيئة وذهاباً. وبادرت إلى إعطاء الإذن بإطلاق المدفع بدون أن تفطن إلى مغزى السؤال الذي وجه إليها. وأخرج كوليا البارود و «الكبسونة» وقد تولى الكابتن بصفته العسكرية تعبئة المدفع، فوضع فيه قليلاً من البارود، وطلب أن يؤجل وضع «الكبسونة» إلى وقت آخر. ووضع المدفع على الأرض موجهاً فوهته نحو الجدار الخالي من الغرفة وزوّد ثقبه بحبات قليلة من البارود، وأدنى منه عود ثقاب مشتعل، فتبع ذلك انفجار عظيم. وقد أجفلت الأم ولكن سرعان ما أغرقت في الضحك. وحدق الصبية مزهوين وقد أخذتهم الدهشة تماماً. وكان الكابتن وهو ينظر إلى إيلوشا هو أكثر الجميع بهجة وحبوراً. ثم أن كوليا أخذ المدفع عن الأرض وقدمه لإيلوشا مع البارود

«والكبسونة» مخاطباً إياه بسرور بالغ: لقد جلبته لك، لك! لقد احتفظت به لك زمناً طويلاً.

أما الأم فكانت تقول متوسلة كالطفل الصغير: «آه، أعطني إياه! كلا أعطني المدفع»! وظهر على وجهها كأنها تخشى ألا تعطى المدفع واضطرب كوليا، وظهر القلق على محيا الكابتن. فعدا نحو زوجته وخاطبها قائلاً: «لا بأس، إن المدفع سيكون لك، ولكن دعي إيلوشا يتناوله لأنه مهدى إليه من غير أن تنسي أنه لك، فإن إيلوشا سيسمح لك بأن تلعبي به، وسيكون المدفع لكما في آن واحد، لكما معاً».

فقالت الأم ملحة والدموع تترقرق في عينيها: «كلا إنني لا أريد أن يكون المدفع لكلينا، بل أريده أن يكون لي وحدي، لا لإيلوشا».

فقال إيلوشا: «خذيه يا أماه، فهو لك وحدك». ثم التفت إلى كوليا وسأله: «كراسوتكين، هل أستطيع أن أعطيه لأمي»؟ وقد نطق بهذه العبارة متوسلاً وكأنه يخشى أن يشعر كوليا بالإهانة لأنه قدم هديته لإنسان آخر.

فهتف كراسوتكين بحرارة: طبعاً، تستطيع ذلك. ثم تناول المدفع من يد إيلوشا وقدمه إلى الأم وانحنى لها انحناءة عظيمة. وقد بكت لفرط تأثرها.

كانت تدحرج المدفع على حجرها جيئة وذهاباً وقالت: «إيلوشا عزيزي، إن هذا هو الابن الذي يحب أمه»! فبادر الكابتن إليها مسرعاً وقال لها: «دعيني أقبل يدك». وفعل.

وأشارت السيدة الممتنة إلى كراسوتكين وهتفت قائلة: إنني لم أر في حياتي فتى ساحراً كهذا الفتى الطيب.

ـ سأحضر لك المقدار الذي تريده من البارود يا إيلوشا. إننا الآن نصنع البارود بأيدينا. وقد اكتشف بوروفيكوف طريقة صنعه: أربعة وعشرون وحدة من ملح البوتاس، مع عشر وحدات من الكبريت مع ست وحدات من مسحوق الفحم. وتدق كل هذه الوحدات معاً ثم تمزج بالماء وتصبح معجوناً تفرك بغربال دقيق. هكذا يصنع البارود.

فأجاب إيلوشا: «لقد حدثني سموروف عن بارودك. لكن والدي لا يعتبره باروداً حقيقياً».

فاضطرب كوليا وقال: أليس حقيقياً؟ إنه يحترق. على كل حال فأنا لا أعلم ذلك.

وقال الكابتن وقد بدا آسفاً: كلا، إنني لا أقصد ذلك. لقد قلت إن البارود الحقيقي لا يصنع بهذه الطريقة، ولا تأخذ بهذا القول، فقد يصنع أيضاً بهذه الطريقة.

فقال كوليا: «إنني لا أعلم، ومعرفتك هي أوسع من معرفتي. لقد أشعلنا بعض البارود في وعاء، فاحترق احتراقاً رائعاً. وقد تلاشى كله فلم يبق منه سوى قليل من الرماد. ولكن الذي أحرقناه كان المعجون غير أنك إذا فركته فركاً جيداً... ولكنك تفوقني معرفة بطبيعة الحال، إنني لا أعلم..». ثم التفت إلى إيلوشا قائلاً له: «إن بولكين تعرض لضرب والده بسبب بارودنا هل علمت ذلك»؟.

فأجاب إيلوشا: «نعم». وكان يصغي إلى أقوال كوليا باهتمام ولذة عظيمين.

- لقد صنعنا ملء قارورة كاملة من البارود وكان بولكين يصنعها تحت سريره وقد رآها والده، فقال إنها قد تنفجر وقد ضربه تواً، وعزم على أن يشكوني للأساتذة ولم يسمح له بمصاحبتي، ولم يعد يسمح الآن لأي ولد بمرافقتي. كما أن سموروف لا يسمح له بمرافقتي أيضاً، فقد أصبحت الألسنة تلوك اسمي. وابتسم كوليا بازدراء وقال: إنهم يقولون عني: «إنه فتى متهور». وقد كان السبب في ذلك حادث السكة الحديدية.

فصاح الكابتن قائلاً: «آه، لقد سمعنا بهذا العمل الرائع الذي قمت به، كيف استطعت أن تظل مضطجعاً بين قضبان السكة الحديدية لا تبدي حراكاً؟ كيف أمكنك أن لا تشعر بالخوف أبداً وأنت مضطجع تحت القطار؟ ألم تكن خائفاً»؟.

وقد كان الكابتن مسرفاً في مدح كوليا.

فأجابه كوليا بدون إكتراث: كلا، البتة. ثم التفت إلى إيلوشا وتابع قائلاً: إن الأمر الذي جعل سمعتي تسوء أكثر من سواه هو حادث تلك الإوزة اللعينة. إنه لم يستطع ضبط تماسكه رغم تظاهره وهو يتحدث بعدم الاكتراث،

وكان دائماً يحيد عن الموضوع الذي كان يحاول التمسك به.

وقال إيلوشا وهو يضحك مغتبطاً: آه لقد سمعت نبأ الإوزة! رووها لي ولكنني لم أفهمها. هل أخذوك إلى المحكمة حقاً؟

فعاد كوليا إلى الكلام بدون أن يبدي الاهتمام: «إن الحادث بلغ من السخافة أقصى حدودها وهم كعادتهم يضخمون الأمور كثيراً. كنت ذات يوم أسير في السوق وقت إحضار الإوز إليه، فوقفت وأخذت أنظر إليها. وفجأة اقترب مني صبي يعمل خادماً في حانوت بلوتنيكوف وخاطبني قائلاً: «لماذا تنظر إلى هذا الإوز هكذا»؟ فنظرت إليه، وهو فتى يافع له وجه يقرب من الاستدارة، يناهز العشرين من عمره، وأنا كما تعلمون أقف دائماً في صف الفلاحين، وأهوى محادثتهم، إننا متخلفون عنهم. إنها نظرية مطروحة. هل أراك تضحك يا كرامازوف»؟.

فأجابه أليوشا متودداً: «كلا، لا سمح الله، فأنا مصغ إليك». وإذ كان كوليا مرهف الحس، فقد استعاد ثقته بنفسه.

ثم بادر إلى القول ثانية: «إن نظريتي يا كرامازوف واضحة سهلة؛ إنني أؤمن بأبناء الشعب، وأشعر بالسرور إذا عوملوا بما يستحقون، لكنني لا أدعو إلى إفسادهم، وهذا أمر لا غنى عنه... غير أنني كنت أتحدث إليكم عن الإوزة. لقد التفت إلى ذلك الأحمق وأجبته قائلاً: إنني أحاول معرفة ما يشغل بال الإوزة. فنظر إلي والحماقة بادية على محياه، وسألني قائلاً: وماذا يشغل بال الإوزة؟ فقلت له: «هل ترى تلك العربة المحملة بالشوفان؟ إن الإوزة كانت تمد عنقها تحت عجلة العربة لتلتقط حبوب الشوفان المتساقطة من الكيس. هل ترى»؟ فأجاب قائلاً: «إنني أرى ذلك». فقلت: «وماذا لو تحركت العربة قليلاً ألا تدق عنق الإوزة»؟ فأجاب وهو يضحك منشرحاً: «ستدق بلا شك». فقلت: «إذن هيا فلنجرب ذلك». فقال: «هيا». ولم يكن الوقت المطلوب طويلاً لكي نقوم بالتجربة. فقبض على اللجام بيده دون أن يراه أي إنسان، ووقفت أنا في الجهة المقابلة لكي ألفت انتباه الإوزة إلى الحب. ولم يكن صاحبها يرى ما يجري، فقد كان حديثه مع بعضهم يشغله، وهكذا فإنه لم يكن لي أي دور في الأمر، بل كانت الإوزة تمد عنقها في طلب الشوفان

من تلقاء نفسها تحت العجلة. فأشرت للفتى فجذب اللجام، وسمع صوت تحطم عنق الإوزة، وقد فصل عن جسمها. ولسوء حظنا فقد رآنا جميع الفلاحين في تلك اللحظة. وأحدثوا جلبة صاخبة:

لقد تعمدتما ذلك.

ـ كلا لم نتعمده.

ـ بلى لقد تعمدتماه!

وصاحوا قائلين: خذاهما إلى قاضي المحكمة! فأخذوني أنا أيضاً وقالوا لي: أنت أيضاً كنت تقف عند العربة وقد عاونته في فعلته. إن الجميع في السوق يعرفون أمرك! وأضاف كوليا معتداً بنفسه: ولسبب ما كان الجميع في السوق يعرفونني حقاً. وتابع يقول: «وذهبنا إلى المحكمة وأخذوا الإوزة إليها أيضاً. وقد كان الفتى يبكي بكاء مراً لفرط خوفه ويعول كالنساء، وكان الفلاح يصيح بنا قائلاً بأن في وسعنا أن نقتل أي عدد من الأوز بهذه الطريقة. حسناً، لقد كان هناك شهود كثيرون بطبيعة الحال. وقد بت الحاكم في القضية بسرعة فحكم بأن يأخذ الفلاح روبلاً ثمن الإوزة وأن يحتفظ الفتى بالإوزة، وقد حذره الحاكم من معاودة العبث بهذه الصورة. ولم ينفك عن البكاء بحرقة كالنساء والتأوه قائلاً: لم أفعل هذا، بل كان هذا هو الذي حضني عليه. وكان يشير إلي. ولكني أجبت برباطة جأش، بأنني لم أحضه على الإتيان بهذا العمل، ولم أفعل أكثر من أني اقترحت مجرد فكرة عامة وتكلمت بصورة نظرية. وابتسم الحاكم ولكنه سرعان ما لام نفسه وشعر بالغيظ لأنه ابتسم، ثم خاطبني قائلاً: سأشكوك إلى أساتذتك كيلا تقوم في المستقبل بإضاعة وقتك عبثاً بمثل هذه المقترحات العامة بدلاً من أن تنهي واجباتك المدرسية. قال ذلك على سبيل المزاح، فهو لم يشتكي إلى أساتذتي. غير أن الخبر أشيع وبلغ آذان أساتذتي، وآذانهم طويلة كما تعلمون! وقد وقع النبأ عظيماً على أستاذ العلوم الكلاسيكية كولباسنيكوف. ولكن داردانيلوف استطاع إخراجي من المأزق، إلا أن كولبا سنيكوف صار يقسو على الجميع حتى أصبحت طباعه كطباع الحمار الأشهب. لعلك علمت يا إيلوشا أنه قد تزوج مؤخراً. وحصل على بائنة مقدارها ثلاثة آلاف روبل.

وعروسه قبيحة المنظر، صحيح أنها من المرتبة الأولى في المجتمع إلا أنها من أدنى درجاتها. وقد كتب طلاب الصف الثالث عنه مثلاً أخذوا يتداولونه وهو:

لقد بلغ الصف نبأ مدهش.

إن كولباسينكوف صار حماراً.

وما إلى ذلك من الأمور المضحكة، وسأعطيكها فيما بعد. ولست أقول شيئاً ضد داردانيلوف، إنه بلا شك رجل متعلم. إنني أحترم الرجال من أمثاله لا لأنه وقف إلى جانبي.

وانبرى سموروف يقول فجأة، وهو يبدي الفخر بكراسوتكين في هذه اللحظة: «ولكنك أوقعت به بسؤالك عن مؤسسي مدينة طروادة»! وقد كانت الإوزة مصدر سرور عظيم لهذا الفتى.

وقال الكابتن مستفهماً وهو يتملق كوليا: وهل أوقعت به حقاً بسؤالك عن مؤسسي مدينة طروادة؟ لقد سمعت بذلك فقد أنبأني به إيلوشا في حينه.

وتدخل إيلوشا في الحديث قائلاً: إنه يعرف كل شيء يا أبتاه. وهو يفوقنا جميعنا في سعة علمه إنه حقاً متفوق في جميع الدروس، إلا أنه يتظاهر بعدم المعرفة.

وقد كان إيلوشا ينظر إلى كوليا وقد غمرته سعادة لا حد لها.

وقال كوليا بصوت اختلط فيه التواضع بالاستعلاء: آه، إن الحديث عن طروادة، أمر تافه، وأنا أعده شيئاً لا أهمية له. كان ما يزال يشعر باضطراب خفيف لكنه عاد معتداً بنفسه. فقد أدرك أنه كان عظيم الاضطراب حتى أنه قصّ حادث الإوزة مثلاً بتحفظ قليل، بينما كان أليوشا يتأمله صامتاً وأخذ الفتى المغرور رويداً رويداً يشعر بالخشية من أن يكون الاحتقار هو وراء صمت أليوشا، وظنه بأنه كان يتظاهر بما ليس فيه. وهو لو جرؤ على أن يظن فيه مثل هذا الظن فإن كوليا سوف...

وعاد إلى القول باستعلاء: «إنني أعد المسألة تافهة».

وهنا تكلّم صبي كان ما يزال صامتاً، فقال: «وأنا أعرف من هم مؤسسو طروادة». ودهش الجميع لقوله. لقد كان ساكتاً يبدو عليه الخجل،

وهو فتى جميل الوجه يناهز الحادية عشرة من عمره يدعى كارتاشوف، وكان يجلس عند الباب، فلما سمع كوليا قوله هذا نظر إليه نظرة الكبرياء المشوبة بالدهشة.

والحقيقة هي أن مؤسسي طروادة قد صارت أسماؤهم سراً غامضاً في المدرسة ولا أحد يستطيع معرفتها إلا بالاطلاع على كتاب سماراغدوف. وليس الكتاب موجوداً سوى مع كوليا. وقد حدث ذات يوم أن أخذ كارتاشوف على غفلة من كوليا كتاب سماراغدوف بسرعة، من بين كتبه وفتحه، ووقع فيه على الفصل الذي يتحدث عن مؤسسي طروادة. وحدث هذا الأمر منذ زمن بعيد، غير أن الصبي كان مضطرباً ولم يجرؤ على أن يعلن للملأ أنه هو أيضاً كان يعرف أسماء المؤسسين، وكان يخاف من النتائج المحتملة ومن العار الذي قد يوقعه فيه كراسوتكين إذا هو أعلن النبأ. أما الآن فلم يستطع أن يقاوم الرغبة في البوح بذلك، والواقع أنه كان يتوق لهذا الأمر منذ عدة أسابيع.

والتفت إليه كراسوتكين وسأله وهو يبدي الكبرياء والازدراء: «حسناً من أسسها»؟ وقد رأى من ملامحه أنه يعرف حقاً الجواب الصحيح ولذلك فقد وضع خطته لمواجهة الأمر.

وقال الصبي تواً: «إن الذين أسسوا طروادة هم تيوسر، ودردانوس، وإيليوس، وتروس». واحمر وجهه خجلاً حتى صار منظره مؤلماً. ثم حدق الصبية فيه دقيقة كاملة، واتجهت كل العيون حالاً إلى كوليا وتركزت عليه وكان لا يزال يرمق الصبي الجريء بنظرة ازدراء، وأخيراً خاطبه قائلاً: «ما هو معنى تأسيسهم لها، وما هو المقصود بتأسيس مدينة أو دولة؟ وكيف قاموا بتأسيسها، هل ذهبوا معاً ووضع كل واحد منهم لبنة»؟.

ورنت ضحكات الصبية. وتحول لون الصبي الذي ارتكب هذه الخطيئة من لونه الأحمر إلى القرمزي لفرط خجله، وصمت وهو يغالب دموعه. وطيلة دقيقة أخرى ظل عرضة لمضايقات كوليا.

ثم خاطبه بلهجة لاذعة حادة: قبل أن تتحدث عن واقعة تاريخية كتأسيس دولة يجب عليك أن تفهم المقصود بذلك. ثم توجه إلى الحضور

قائلا بمظهر غير المكترث: غير أنني لا أهتم كثيراً بأمور كهذه تشبه قصص العجائز، ولا حتى بتاريخ العالم بوجه عام.

فتساءل الكابتن قائلاً وقد بدا خائفاً: «تاريخ العالم»؟

فقال كوليا: تاريخ العالم! إنه دراسة الحماقات التي تتوالى على أيدي أبناء البشرية ولا شيء أكثر من هذا. إن المواضيع الوحيدة التي أحترمها هي الرياضيات والعلوم الطبيعية. وكان يتظاهر في أقواله، وحدج أليوشا بنظرة سريعة فهو الوحيد الذي يخشى رأيه ويحسب له حساباً. غير أن أليوشا كان لا يزال صامتاً جاداً كعهده به. إن كلمة واحدة منه كافية لتوقفه عند حده، غير أنه ظل صامتاً. وأخيراً قال كوليا في سره منزعجاً: «لعل صمته هو صمت الازدراء».

ثم توجه إلى أليوشا بقوله: «واللغات الكلاسيكية، إنها أيضاً نوع من أنواع العبث ولا شيء سوى ذلك. يبدو أنك لا تقرني على هذا الرأي أيضاً يا كرامازوف».

ابتسم أليوشا ابتسامة خفيفة وهو يقول: إنني لا أقرك.

وعاد كوليا إلى القول: «إن درس اللغات الكلاسيكية، إذا سألتني رأيي هو إجراء تعسفي، ولأنها كذلك أدخلت في مدارسنا. ورويداً رويداً أخذ الاضطراب يبدو على كوليا، ويثقل نفسه. وعاد يقول: «إن اللغتين اللاتينية واليونانية أدخلتا إلى مدارسنا لأنهما تبعثان على السأم وتحدان من تفتح الذهن. لقد كانت الدراسة بدونهما مملة، إذن فما العمل لكي يزيدوا في أسباب الملل؟ وهي كانت لا معنى لها من قبل، فماذا يصنعون لكي يجعلوها أسخف؟ لقد وجدوا الحل في اليونانية واللاتينية». واختتم حديثه قائلاً بلهجة حاسمة: إن هذا هو رأيي وأرجو أن لا أغيره. واصطبغت خداه بالحمرة.

وارتفع صوت سموروف بغتة: «إن هذا صحيح». وكان يتتبع الحديث بانتباه.

وصاح أحد الصبية: «إنه يقول ذلك وهو الأول في درس اللغة اللاتينية».

وقال إيلوشا مخاطباً أباه: «نعم يا أبتاه، إنه يقول ذلك وهو الأول في درس اللغة اللاتينية».

ورأى كوليا أن الفرصة قد سنحت للدفاع عن نفسه، وقد أحدث الإطراء الذي سمعه ارتياحاً في نفسه فقال: «وماذا في ذلك إن الدروس اللاتينية واجب مدرسي فلذلك أجتهد في حفظها وقد وعدت أمي بأن أنجح في الامتحان. ومن رأيي أن أي عمل من الأعمال بدأه الإنسان يجب عليه أن يجيده. ولكنني في قرارة نفسي أكن الاحتقار العميق للغات القديمة وكل هذه الأحابيل... ألست من رأيي يا كرامازوف»؟.

فعاد أليوشا إلى الابتسام وقال: «ولماذا تدعوها بالأحابيل»؟.

ـ حسناً، إن جميع كتابات المؤلفين باللغات القديمة قد ترجمت إلى كافة اللغات، ولذلك فإن اعتماد تدريس اللغة اللاتينية في مدارسنا لم يكن حباً في تدريس اللغات القديمة، بل كإجراء تعسفي، لكي يحيروا الذهن المتوقد. فعليه، لا نستطيع وصفها بالأحابيل؟.

فهتف أليوشا وقد استبدت به الدهشة: «من لقنك كل هذه الأشياء»؟

ـ أولاً أنا قادر على التفكير من تلقاء نفسي بدون تلقين من أحد. وثانياً إن ما قلته من أن المؤلفات الكلاسيكية قد ترجمت، قد جهر به معلمنا كولباسنيكوف أمام الصف الثالث.

وعندها هتفت نينا قائلة: «لقد حضر الطبيب»! كانت حتى تلك اللحظة صامتة.

توقفت عند الباب عربة السيدة خولاكوف. وهرع الكابتن لملاقاة الطبيب وكان في انتظاره طيلة ذلك الصباح. واستعادت الأم جلسة توحي لها بالوقار. ومضى أليوشا إلى سرير إيلوشا وأخذ يصلح وسائده.

وتابعته نينا بنظرها قلقة من مقعدها وهو يسوي المفرش. وبادر الصبية إلى الاستئذان، ووعد بعضهم بالعودة في المساء. ودعا كوليا بيريزفون فقفز عن السرير.

وخاطب كوليا إيلوشا متعجلاً فقال: «لن أذهب، لن أذهب، سأبقى في

الممر منتظراً ذهاب الطبيب، سأعود إليك، سأعود مع بيريزفون».

وفي تلك اللحظة دخل الطبيب. إنه رجل مهيب الطلعة حليق اللحية طويل الشاربين، يرتدي معطفاً من فراء الدببة. وعندما بلغ عتبة الغرفة توقف وقد ظهرت عليه البغتة. وبدا عليه الاعتقاد بأنه أخطأ المكان، فتمتم قائلاً: «كيف يكون هذا؟ أين أنا»؟ ولم يخلع معطفه ولا قبعته العالية. فقد أدهشه الجمع المحتشد، ومظاهر الفقر البادية في الغرفة ومشهد الغسيل المنشور على حبل في إحدى الزوايا. وانحنى الكابتن أمامه مرتين، وظل منحنياً أمامه.

ثم تمتم بلهجة متواضعة: هنا يا سيدي، هنا يا سيدي. إنك لم تخطىء المكان، إنك آت إلينا...

فصاح الطبيب متصنعاً التعالي والتعاظم: «سنيغيريوف؟ السيد أسنيغيريوف، أهو أنت؟

- نعم يا سيدي!

- آه!

وتفقد الطبيب بنظره أرجاء الغرفة مشمئزاً ثم خلع معطفه، وهو يتعمد لفت الأنظار إلى الزخارف الفاخرة التي يزدان بها عنقه. وقال الطبيب وهو يرفع قبعته بلهجة حازمة: «أين المريض»؟.



نضوج مبكر

قال كوليا متسائلاً بتسرع: «ماذا سيقول له الطبيب برأيك؟ إن لديه عقاراً كريهاً أليس كذلك؟ إنني لا أطيق الدواء»!

فأجابه أليوشا مبتسماً: إن إيلوشا يعاني سكرات الموت. أظن أنه أمر مؤكد.

ـ إن الأطباء أوغاد! والدواء خدعة! لقد سرني جداً التعرف إليك يا كرامازوف. لقد كنت راغباً في التعرف إليك منذ زمن بعيد، وللأسف أننا نلتقي في مثل هذه الظروف المحزنة.

وقد كان كوليا يميل ميلاً عظيماً إلى أن يبوح أكثر بأحاسيسه بكلام أقرب إلى القلب. ولكنه كبت ما في نفسه وهو يشعر بالحرج من التبسط. وقد أدرك أليوشا ما كان يدور في خلده فابتسم وشد على يده.

وعاد كوليا إلى الكلام متلعثماً وهو يتخبط في قوله ويضطرب: لقد تعلمت منذ زمن بعيد أن أجلك إجلالي لإنسان نادر الوجود. ولقد سمعت أنك متصوف وأنك كنت في الدير. وأنا أعرف بأنك متصوف ولكن... هذا لن يثني عزيمتي. إن الاتصال بأسباب الحياة الحقيقية كفيل بشفائك مما أنت فيه.. إن هذا هو واقع الحال مع أمثالك.

بدت المفاجأة على وجه أليوشا وهو يسأله: ماذا تقصد بكلمة متصوف؟ وشفائي مم؟.

ـ آه، من الله وسوى ذلك.

ـ ماذا، ألا تؤمن بالله؟.

ـ آه، إنني لا أحمل على الله. إن الله بطبيعة الحال ليس إلا افتراضاً

مسلماً به، ولكن... أقر بأن الحاجة ماسة إليه... من أجل النظام في الكون وما شابه ذلك... وإنه لو لم يكن الله موجوداً لكان علينا إيجاده. إحمر وجه كوليا خجلاً وهو يقول هذه الكلمات. وخيل إليه بغتة أن أليوشا قد يحسبه دعياً يحاول التظاهر بالمعرفة لكي يثبت أنه أصبح راشداً. وقال في نفسه وهو يشعر بالمهانة: «ليست لدي أدنى رغبة في التظاهر بالمعرفة أمامه». ولم يستطع التخلص من الشعور بحرج وضيق عظيمين.

ثم قال محاولاً فض الحديث: «يجب علي الاعتراف بأنني لا أتحمل متاهات مثل هذا الجدل، فالذي لا يؤمن بالله بوسعه أن يحب البشرية»! وحدَّث نفسه قائلاً: «ها أنا أعود إلى الموضوع».

فأجاب أليوشا بلهجة هادئة مهذبة طبيعية، كما لو كان يخاطب إنساناً يساويه في السنّ أو يزيده: إن فولتير كما أعتقد كان يؤمن بالله ولو أن إيمانه به لم يكن عظيماً، وأعتقد بأن محبته للبشرية لم تكن عظيمة أيضاً.

وقد أخذ كوليا بصورة خاصة بتشكيك أليوشا فيما قاله عن فولتير، فقد بدا أنه ترك له، لكوليا الصغير، تقرير الأمر.

وسأل أليوشا منهياً كلامه: «هل قرأت لفولتير»؟.

ـ كلا، لا أستطيع القول أنني قرأت له... ولكني قرأت الترجمة الروسية للكتاب «صافي السريرة»... وهي ترجمة قديمة، معقدة وسخيفة... (لقد عدت إلى الموضوع ثانية! ثانية)!

ـ وهل فهمته؟.

ـ أجل، لقد فهمت كل شيء... أعني لماذا تعتقد أنني لا أستطيع فهمه، إنه حافل بالأمور التي يمجها الذوق بطبيعة الحال... وأنا أدرك طبعاً أن الكتاب عبارة عن رواية فلسفية أو هو يدعو إلى فكرة... وهنا بدأ الأمر يلتاث على كوليا، فقال بغتة وهو لا يقصد هدفاً معيناً: إنني اشتراكي، يا كرامازوف، إنني إشتراكي وعقيدتي في الاشتراكية راسخة.

فقال اليوشا ضاحكاً: اشتراكي؟ ومتى وجدت متسعاً من الزمن لكي تصبح اشتراكياً؟ كنت أظن أنك ما تزال دون الثالثة عشرة.

وظهرت البغتة على كوليا، ثم قال وقد احتقن وجهه غضباً: «أولاً أنا

لست في الثالثة عشرة، بل في الرابعة عشرة من عمري، فخلال أسبوعين سأتم الثالثة عشرة، ثم أنني لا أستطيع أبداً إدراك الصلة بين سني وما نتحدث عنه. فالمسألة هي مسألة معتقداتي لا سني، أليس كذلك»؟.

فأجابه أليوشا بعبارات رقيقة هادئة قائلاً: «ستدرك بعد تقدم السن بك ما للسن من أثر على المعتقدات، ومن الواضح أنها ليست أفكارك الخاصة».

فقاطعه كوليا غاضباً:

كفى، إنك تريد الطاعة والتقشف. ينبغي لك أن تقر بأن الديانة المسيحية، على سبيل المثال، اقتصرت فائدتها على الأثرياء ومستعبدي أبناء الطبقات الدنيا، صحيح هذا، أليس كذلك؟.

فصاح به أليوشا: إنني أعرف أين قرأت هذا، وأنا على يقين من أن هذه الأقوال قد سمعتها من أحد ما.

ـ ما الذي يحملك على الظن بأني قرأته؟ ومن المؤكد أنني لم أسمع هذا القول من أي إنسان، فأنا قادر على التفكير ذاتياً. فأنا لست ضد المسيح، إذا أحببت هذا التعبير، لقد كان المسيح إنساناً يتحلى بأسمى الصفات الإنسانية، ولو كان الآن على قيد الحياة، لوجدناه في صفوف الثوريين ولربما قام بدور بارز... ولا ريب في ذلك.

فصاح أليوشا متعجباً: «أنبئني، من أين أتيت بهذه الآراء؟ من هو ذلك الأحمق الذي تصادقت معه»؟.

ـ مهلاً، سينجلي الحق! لقد سبق أن تحادثت مع السيد راكيتين، بطبيعة الحال، ولكن... بيلينسكي الشيخ قال مثل هذا القول، أيضاً، إن هذا ما سمعته.

ـ بيلينسكي؟ لست أذكر، إنه لم يكتب شيئاً كهذا في أي مكان.

ـ إذا لم يكتبه فإنه قاله كما سمعت. سمعت هذا من... ولكن ما لنا ولهذا.

ـ وهل قرأت شيئاً لبيلينسكي؟.

ـ كلا، لم أقرأ كل مؤلفاته، ولكني... قرأت الفصل الذي يتحدث فيه

عن تاتيانا، ويشرح أسباب عدم هربها مع أونيجين.

- عدم هربها مع أونيجين؟ لا ريب في أنك لا.. تفهم هذه الأمور بعد.

فقال كوليا وهو يبتسم ويبدي التبرم: يبدو لي أنني سمورروف الصغير بنظرك. أرجو ألا تظنني متطرفاً في عقيدتي الثورية. فأنا كثيراً ما أختلف مع السيد راكيتين. ومع أنني أتحدث عن تاتيانا، فلست من مناصري تحرر المرأة؛ بل أعترف بأن النساء جنس خلق للخضوع والطاعة. إنهن كما قال نابوليون ثرثارات. وابتسم كوليا لسبب ما؛ ثم أردف يقول: إنني في هذه المسألة على الأقل على اتفاق تام مع ذلك الرجل المدعي العظمة وأنا أعتقد أيضاً بأنه من الدناءة أن يترك الإنسان بلاده ويهرب إلى أميركا بل هو شيء يفوق الدناءة، إنه حماقة. لأي سبب يذهب المرء إلى أميركا ما دام يستطيع من هنا تقديم خدمة جلى للبشرية؟ ولا سيما في هذا الوقت. إن أمامنا مجالاً فسيحاً للعمل المستمر. هكذا أجبت.

- ماذا تعني؟ أجبت من؟ هل أشار أحد عليك بالذهاب إلى أميركا؟.

- ينبغي لي أن أعترف بأنهم لحوا علي بالذهاب ولكني أبيت. يجب أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا، يا كرامازوف، هل تسمع، يجب ألا تفوه بكلمة واحدة عنها أمام أي إنسان. إنني لا أخشى أن يقبض عليّ رجال الشرطة السرية، ولا أخشى أن ألقن درساً على جسر السلسلة.

«ستذكر أمداً طويلاً

المنزل القائم على جسر السلسلة».

هل تذكر هذا القول؟ إنه رائع. لماذا تضحك؟ إنك لا تظنني كاذباً، أم أن هذا ما تبادر إلى ذهنك؟ (وقال كوليا في نفسه وهو يرتعش: «ماذا يكون من أمري لو أنه علم بأنه ليس لدي سوى عدد واحد من مجلة «ذي بل» وأنني لم أعد إلى قراءته»)؟.

- كلا، كلا إنني لا أستطيع أن أسخر منك ولم يتبادر إلى ذهني أنك كاذب. كلا، إنني لا أستطيع في الحقيقة أن أظنك كاذباً، لأن كل ما ذكرت وياللأسف مطابق للحقيقة! ولكن أنبئني، هل قرأت لبوشكين، هل قرأت

أونيبيجين مثلاً؟ لقد تحدثت الآن عن تاتيانا.

ـ كلا، لم أقرأ له، ولكنني أود أن أقرأ له، لأسمع آراء الطرفين. فأنا لا أتحامل على أحد يا كرامازوف. ما الذي دفعك إلى طرح هذا السؤال؟.

ـ لا شيء.

وفجأة قال كوليا وهو يشد جسمه كمن يؤدي تمريناً رياضياً: قل لي يا كرامازوف، هل تضمر لي احتقاراً عظيماً؟ أرجوك أن تقول بدون مواربة.

فأجاب أليوشا وهو ينظر إليه متعجباً: أنا أضمر لك الاحتقار؟ ولأي سبب؟ غاية ما في الأمر أنني حزين لأن إنساناً مثلك تتعرض نفسيته الرائعة وقبل أن يبدأ حياته إلى الإفساد بسبب هذا اللغو الفارغ.

فقاطعه كوليا بدون أن يخفي ارتياحه: «دع عنك التفكير في طبيعتي. فأنا حساس حقيقة إلى حد السخف، شديد الحساسية. لقد ابتسمت الآن فخيل إلي أنك...».

ـ إن ما تبادر إلى ذهنك بعيد كل البعد عن معنى ابتسامتي. وسأوضح لك معناها، فمنذ فترة قصيرة قرأت نقداً كتبه ألماني عاش في روسيا، عن تلامذتنا وأساتذتنا في هذا العصر، وهو يقول فيه: «سلّم خريطة للنجوم إلى تلميذ روسي لا يعرف شيئاً عنها، فيعيدها إليك، وقد أدخل عليها بعض التعديلات. جهل وغرور لا حد لهما»، هكذا أراد الناقد الألماني أن يصف الطالب الروسي.

وضحك كوليا وقال: «أجل، تلك هي الحقيقة. لا شك بذلك. تحية لهذا الألماني. ولكنه لم يلتفت إلى الوجه الجيد من الأمر، ما رأيك؟ مصيب في حديثه عن الغرور، فالغرور من صفات الشباب وعند الحاجة يمكن إصلاحه، ولكن هنالك من جهة أخرى روح الاستقلال التي تنشأ مع التلميذ الروسي منذ الطفولة، وهنالك جرأة في التفكير والاعتقاد، بدلاً من الروح المسيطرة على صانعي القديد، الذين يتذللون أمام القوة... إن الألماني مصيب، على أي حال، مرحى لهذا الألماني! ولكن الألمان في مطلق الأحوال يستحقون الخنق. يجب أن يخنقوا على الرغم من نبوغهم في العلوم».

فقال أليوشا مبتسماً: «أن يخنقوا؟ لماذا؟».

- لعل حديثي كان سخيفاً، فأنا أعترف بذلك. أحياناً أكون سخيفاً، وإذا سرني شيء فلا أستطيع أن أكبت رغبتي، بل وقد أتكلم بكل ما يخطر ببالي. ولكن ما بالنا نثرثر هنا، وقد أمضى الطبيب هناك وقتاً طويلاً. لعله يقوم بفحص والدة إيلوشا، ونينا المقعدة المسكينة أيضاً. هل تعرف أنني أعجبت بهذه الفتاة، ولقد همست في أذني فجأة وأنا أغادر الغرفة: «لماذا لم تزرنا من قبل؟» آه من صوتها، وآه من تأنيبها! أظن بأنها لطيفة رقيقة الحاشية.

- نعم، نعم! يجب أن تكثر من زياراتك، وستعرفها على حقيقتها. ثمة فائدة كبيرة تسببها لك معرفة مثل هؤلاء الناس، وستعرف كيف تقدر هذه الفائدة الكبيرة التي تحصل عليها من معرفة هؤلاء الناس. إن هذا مما سيترك في نفسك أثراً لا يوازيه أثر أي شيء آخر.

فقال كوليا متحسراً: «لشد ما يؤسفني أنني لم آت قبل اليوم، وأنا ألوم نفسي على ذلك».

- حقاً إن هذا من دواعي الأسف الشديد. لقد لمست بنفسك كم كان الفتى المسكين مسروراً برؤيتك! آه لو علمت مدى إلحاحه على حضورك!

- كفى! فأنت تزيد في عذابي! ولكنني أستحقه. لم أكن أجيء بسبب غروري. إنه الغرور والأنانية الجوفاء، وعنادي الوحشي الذي لا أستطيع التخلص منه رغم أنني دائم المحاولة من أجل ذلك. إن هذا واضح لي الآن أنني وحش من عدة وجوه، يا كرامازوف!

- كلا، إن نفسيتك طيبة، أصابها التشويه، وقد علمت الآن سبب نفوذك العظيم على هذا الصبي الكريم الحساس العليل.

فصاح كوليا: «وتقول هذا القول لي! هل تصدق، إنني فكرت كثيراً وتبادر إلى ذهني منذ وصولي إلى هنا أنك تزدريني. لو تعلم مدى تقديري لرأيك»!.

- ولكن هل أنت حقاً شديد الحساسية؟ وفي مثل سنك! هل تصدق أنني اعتقدت الآن وأنا أستمع إليك تسرد علي قصتك، أن حساسيتك مفرطة بلا شك.

ـ حقاً هذا ما اعتقدته؟ يقيناً أن لك فكراً ثاقباً! أراهن على أن سردي لقصة الإوزة هو الذي جعلك تعتقد ذلك، وقد خيل إلي وأنا أسردها أنك تضمر لي الاحتقار العظيم بسبب تسرعي في التظاهر بالمعرفة، وهذا ما جعلني أكرهك للحظات، وصرت أثرثر كالأحمق. ثم خيل إلي الآن، وفي هذا المكان، عندما قلت لو لم يكن الله موجوداً لكان علينا إيجاده، إنني تسرعت في التظاهر بالمعرفة، ولا سيما وأني قد وقعت على تلك العبارة في أحد الكتب. ولكنني أقسم على أنني لم أكن أتظاهر بدافع من الغرور، أما سبب هذا التظاهر فلم أكن أعرفه، ولكنني كنت عظيم السرور، نعم أعتقد بأن سروري العظيم هو السبب.. مع أنه من العار لأي إنسان أن يندفع في كلامه بمجرد شعوره بالسرور، فأنا مدرك لهذا، ولكني الآن مقتنع بأنك لا تزدريني، فقد كان اعتقادي بذلك ضرباً من الوهم. أواه، يا كرامازوف، كم أنا تعيس. إنني أسرف أحياناً في تصوراتي، فيخيل إلي أن الناس جميعاً بل العالم أجمع يرمقني بنظرات السخرية، فأشعر إذ ذاك برغبة في قلب نظام الأشياء جميعاً رأساً على عقب.

فقال أليوشا مبتسماً: «وتزعج الناس جميعاً بأمرك».

ـ أجل، أزعج جميع الناس، ولا سيما والدتي، قل لي، يا كرامازوف، هل هو مضحك مظهري الآن؟.

فصاح أليوشا: «دع عنك هذا التفكير، لا تفكر بجميع هذه الأمور! وما معنى أن يكون المرء مضحكاً؟ أليس الناس جميعاً مضحكين أو أنهم يبدون هكذا في جميع الأحيان؟ ومعلوم أن الأذكياء من الناس يخافون خوفاً عظيماً أن يظهروا في عيون الناس بمظهر المضحكين، وهذا مما يدفعهم إلى التعاسة. إن ما يدهشني هو أنك في سن مبكرة على مثل هذا الشعور مع أنني لاحظت أموراً كهذه منذ حين، وفي غيرك من الناس أيضاً، حتى أنها أخذت تغزو قلوب الأطفال. إنه ضرب من العته». وأردف أليوشا قائلاً: «لقد تقمص الشيطان هذا الغرور ودخل أرواح جميع أبناء هذا الجيل؛ إنه الشيطان ولا شيء سواه». ولم يبتسم أليوشا وهو يقول ذلك كما كان يتوقع كوليا وهو يحدق في وجهه. وختم أليوشا كلامه قائلاً: «إنك سواء في هذا مع جميع

الآخرين، أعني إنك سواء مع كثيرين، وينبغي لك ألا تشبه سائر الناس، وهذا كل ما في الأمر».

- حتى ولو كان جميع الناس كذلك؟

- نعم، حتى ولو كان جميع الناس كذلك. فلتكن أنت نسيج وحدك، وأنت في الحقيقة لست كسائر الناس، فها أنت لم تخجل من الاعتراف بشيء سيء بل مضحك. ومن يقدم على مثل هذا الفعل في هذه الأيام؟ لا أحد، بل أن الناس فقدوا الشعور بواجب محاسبة النفس. إياك والتشبه ببقية الناس، حتى ولو انفردت في ذلك.

- رائع! لم أخطىء الظن بك. إنك تعرف كيف تدخل العزاء على قلب الإنسان! لقد كنت عظيم الشوق للتعرف إليك، يا كرامازوف. طالما كنت أتوق لهذا اللقاء. أحقاً كنت تفكر بي؟ هل قلت الآن أنك كنت تفكر بي؟

- نعم، لقد سمعت عنك وفكرت بك أيضاً... فلا بأس أن يكون الغرور هو أحد الأسباب التي دفعتك لتوجيه هذا السؤال إلي.

فقال كوليا بصوت ينم عن الخجل: هل تعلم، يا كرامازوف، إنه عليك أنت أيضاً أن تعترف بأنك تشعر بشيء من الخجل الآن... إنني أقرأ هذا الخجل في عينيك.

- وما الذي يخجلني؟

- إذاً، لماذا تخضب وجهك بحمرة الخجل؟.

فقال أليوشا ضاحكاً وقد احمر وجهه فعلاً: «أنت الذي جعلتني كذلك». ثم تمتم وهو يشعر بالحرج: «الحقيقة، لقد شعرت بشيء... لا أدري لماذا، لا أعرف السبب...».

فصاح كوليا وقد استحوذت عليه نشوة عارمة: «كم أحبك، وكم أنا معجب بك الآن لأنك تشعر بشيء من الخجل! لأنك الآن مثلي تماماً». وقد تألق وجهه وعيناه.

وشعر أليوشا بغتة بالرغبة أن يقول: «هل تعلم، يا كوليا، إنك ستكون عظيم التعاسة في حياتك».

فهتف كوليا قائلاً: «أعرف هذا، أعرف هذا. ما أعظم قدرتك على التنبؤ بكل هذا»!.

ـ ولكنك على أي حال ستبارك الحياة.

ـ إن هذه عين الحقيقة، مرحى! إنك لنبي! ستلتقي أفكارنا يا كرامازوف! هل تعلم، إن أكثر ما يفرحني هو أنك تعاملني معاملة الند للند. ولكننا غير متساويين، كلا، لسنا متساويين، لأنك تفضلني! غير أننا سنتآلف. أتعلم كنت طوال هذا الشهر أقول لنفسي: إما أن نتصادق في لقائنا الأول، وتستمر صداقتنا إلى الأبد، أو نفترق عدوين إلى اللحد!.

فقال أليوشا وهو يضحك مرحاً: فأحببتني طبعاً لقولي هذا.

ـ أجل. لقد أحببتك حباً جماً. أحببتك وملكت تفكيري. وكيف استطعت أن تتنبأ بكل هذا؟ ها هو الطبيب. يا إلهي! أنظر إليه، ماذا تراه سيقول لنا؟.



إيلوشا

غادر الطبيب الغرفة للمرة الثانية وقد تدثر بمعطفه المصنوع من الفراء. ووضع قبعته على رأسه، وكان الغضب والاشمئزاز واضحين في وجهه متحاشياً أن يتلوث بالأقذار. وقد ألقى نظرة عجلى على الممشى ثم وجّه نظرة صارمة إلى أليوشا وكوليا. وقد أشار أليوشا بيده للحوذي منادياً، فاقتربت العربة التي أحضرت الطبيب من الباب. وفي هذه اللحظة، أسرع الكابتن والد إيلوشا يريد اللحاق بالطبيب فانحنى له معتذراً، واستوقفه لكي يسمع رأيه النهائي في حالة ولده، وقد بدا الرجل المسكين محطماً ذليلاً وفي عينيه نظرة تنم عن الخوف والوجل.

قال مخاطباً الطبيب: يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة هل يمكنني... ولكنه لم يستطع متابعة كلامه، فضم يديه بحركة تدل على اليأس والقنوط ولكنه ظل يحدق في الطبيب متوسلاً مستعطفاً، كأن كلمة منه قد تطيل حياة الصبي المسكين.

فقال الطبيب بدون اكتراث، متشدقاً بكلامه: «ماذا يمكنني فعله، فأنا لست إلهاً».

- سيدي الطبيب يا صاحب السعادة... هل سيحدث هذا قريباً، في وقت قريب؟

فأجاب الطبيب بلهجته الصارمة اللاذعة، قائلاً: يجب أن نستعد لكل الاحتمالات.

كان قد أطرق وهمّ أن يصعد إلى العربة، فاستوقفه الكابتن الذي عاد الفزع يتملكه وقال: «يا صاحب السعادة أليس من وسيلة لإنقاذه الآن»؟.

فقال الطبيب مظهراً نفاد الصبر: «لقد خرج الأمر عن طاقتي الآن، ولكن...» وتوقف بغتة عن الكلام، ثم قال: «إذا استطعت مثلاً... أن ترسل... مريضك، في الحال، وبدون تأخير (قال الطبيب عبارات «في الحال» و «بدون تأخير» مبدياً الصراحة والحقد مما جعل الكابتن يجفل) إلى سيراكوز، فإن تبديل المناخ والانتقال إلى مناخ أفضل قد يساعد على...».

فصاح الكابتن، وقد أعياه فهم ما سمعه من الطبيب: «إلى سيراكوز»!

فسارع كوليا إلى توضيح ما غمض على الكابتن فقال: «إن سيراكوز في جزيرة صقلية».

وحول الطبيب نظره إليه.

فقال الكابتن: «صقلية! يا صاحب السعادة، وأنت ترى زوجتي وأفراد أسرتي». ومد يديه مشيراً إلى ما حوله.

- كلا، إن صقلية ليست المكان المناسب لأسرتك، والقوقاز هو المكان الأنسب لعائلتك. وزوجتك أيضاً... وبعد أن تستحم بمياه القوقاز في أوائل الربيع... يجب أن تذهب ابنتك إلى القوقاز.. وزوجتك أيضاً... وبعد أن تستحم بمياه القوقاز لإزالة الروماتزم... يجب إرسالها فوراً إلى باريس لكي يتولى معالجتها الطبيب ليبليتير، الأخصائي في الأمراض العقلية؛ ويمكنني أن أحمّلك توصية إليه، وبعدئذ... فقد يطرأ تبديل...».

- سيدي الطبيب، سيدي الطبيب! ولكنك ترى! ومد الكابتن يديه مرة أخرى مبدياً القنوط مشيراً إلى جدران الممشى العارية.

فقال الطبيب مبتسماً: «ليس هذا من مسؤوليتي، لقد أنهيت إليك جواب علم الطب على سؤالك المتعلق بالعلاج الممكن. وما تبقى بعد ذلك يؤسفني...».

وصاح كوليا بغتة بأعلى صوته وقد لاحظ القلق في عيني الطبيب من بيريزفون الذي كان يقف في مدخل الممشى: «لاتخف أيها الصيدلي فلن يعضك كلبي». وكانت في صوت كوليا رنة الحقد. وقد تعمّد استعمال كلمة الصيدلي بدلاً من الطبيب، وأوضح فيما بعد أنه فعل ذلك؛ قاصداً إهانته.

ومد الطبيب رأسه وأخذ يحدق في كوليا مذهولاً ثم سأل أليوشا: «من هذا»؟ وكأنه يطلب منه تفسيراً.

فقال كوليا بلهجة لاذعة: «إنني صاحب بيريزفون»؟.

- إنه يسمع النواقيس[1] ولكنه لا يستطيع الاهتداء إلى مكانها، وداعاً، وسنلتقي في سيراكوز.

فقال الطبيب وقد ثارت ثائرته: «من هذا؟ من هذا»؟.

فقال أليوشا متسرعاً عابساً: إنه تلميذ، أيها الطبيب، إنه صبي عابث فلا تحفل به. ثم صاح بكراسوتكين قائلاً: كوليا إحرص على بقائك صامتاً. وعاد يخاطب الطبيب مظهراً نفاد الصبر: لا تحفل به أيها الطبيب. فضرب الطبيب الأرض بقدمه في سورة غضبه، وقال: «يجب أن يجلد، يجب أن يجلد»!.

تغير لون كوليا وتألقت عيناه، وقال بصوت مضطرب: «أتعلم أيها الصيدلي، إن كلبي بيريزفون قد يعض»! ثم قال: «هيا، يا بيريزفون»! فصاح به أليوشا بلهجة الأمر: «إذا قلت كلمة ثانية، فسأقطع علاقتي بك».

- إن في العالم رجلاً واحداً يستطيع أن يأمر نيكولاي كراسوتكين، ذلك هو (وأشار إلى أليوشا). إنني رهن إشارته، وداعاً.

وتقدم من الباب ففتحه، ودخل الغرفة الداخلية مسرعاً، وتبعه بيريزفون، وتسمّر الطبيب واقفاً في مكانه مشدوهاً لمدة خمس ثوان، ينظر إلى أليوشا، ثم توجه بسرعة إلى العربة وهو يلعن ويردد بصوت عال: «إن هذا... إن هذا... لا أدري ما هذا»! وأسرع الكابتن لمساعدته على الصعود إلى العربة. أما أليوشا فتبع كوليا إلى الغرفة. وكان كوليا قد جلس على حافة سرير إيلوشا، وقد أمسك الصبي المريض بيده وأخذ ينادي والده. وبعد دقيقة واحدة كان الكابتن قد عاد أيضاً.

فقال إيلوشا متلعثماً: «أبت، أبت، تعال... إننا...» وكان شديد الانفعال، ولم يستطع متابعة الكلام، فطوق والده وكوليا بذراعيه الهزيلتين وضمهما معاً، وعانقهما عناقاً شديداً، وبدأ جسم الكابتن يهتز فقد كان يبكي بكاء مراً

---

(١) يأتي قوله هذا انسجاماً مع معنى كلمة بيريزفون أي «قرع النواقيس».

مكبوتاً، واختلجت شفتا كوليا وذقنه.

وقال إيلوشا وهو يبكي مثل بكائه: أبتاه، أبتاه! كم أنا آسف عليك!

- إيلوشا... حبيبي... لقد قال الطبيب... إنك ستشفى... وسنكون سعداء... الطبيب...

فصاح إيلوشا: «أواه، يا أبت! إنني أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عني... لقد رأيت»! وضمهما معاً إليه مرة أخرى بكل قواه، وقد أخفى وجهه بكتف والده.

- أبتاه، لا تبك، وعندما أموت، اختر لك إبناً، صالحاً، إبناً آخر... إختر لك واحداً من بينهم جميعاً، إبناً صالحاً، وادعه إيلوشا واجعله مكاني وأحببه كما أحببتني....

وصاح كوليا بصوت فيه رنة الغضب: صه، أيها الفتى، إنك ستشفى. ومضى إيلوشا في مناجاته قائلاً: «ولكن لا تنسني أبداً يا أبتاه. زر ضريحي... ادفني يا أبت قرب حجرنا الكبير حيث نجلس في نزهاتنا، زرني هناك واحضر معك كراسوتكين في المساء وبيريزفون أيضاً... سأنتظرك.. أبتاه، أبتاه»!.

واختنق صوته. وصمت الثلاثة وهم ما يزالون متعانقين. وكانت نينا تبكي بكاء هادئاً في كرسيها، ولما رأت زوجة الكابتن كل من حولها يبكي، انهمرت الدموع من عينيها وطفقت تردد إسم إيلوشا.

وأفلت كراسوتكين فجأة من ذراعي إيلوشا، وقال متسرعاً: «وداعاً أيها الفتى، إن والدتي بانتظاري لتناول الغداء. يؤسفني جداً أنني لم أنبئها بخروجي! إن القلق سيستبد بها... وبعد الغداء سأعود وأمكث عندك طول اليوم، إلى آخر المساء، وسأقص عليك أموراً كثيرة، أموراً كثيرة. وسأحضر بيريزفون، أما الآن فإنني سآخذه معي، لأنه سيزعجكم بنباحه أثناء غيابي. وداعاً»!.

وخرج مسرعاً إلى الممشى. وكان راغباً عن البكاء، ولكنه ما أن وصل إلى الممشى حتى انهمرت الدموع من عينيه، وقد رآه أليوشا يبكي، فقال له: «كوليا يجب عليك الوفاء بوعدك فتعود، وإلا فإن اليأس سيستحوذ عليه».

وتمتم كوليا باكياً: «سأحضر بكل تأكيد! إنني ألعن نفسي لأنني لم

أحضر من قبل». ولم يخجل كوليا من بكائه.

وفي تلك اللحظة خرج الكابتن من الغرفة مسرعاً، وأطبق الباب خلفه وقد احتقن الدم في وجهه، واختلجت شفتاه. وقد وقف قبالة كوليا وأليوشا ومد ذراعيه.

وتمتم بصوت خافت وهو يصرف بأسنانه: «لا أريد ابناً صالحاً! لا أريد ابناً غيره! إذا نسيتك، يا أورشليم، فإن لساني...» واختنق صوته بالبكاء، وجثا على ركبتيه أمام المقعد الخشبي. وكان يضغط رأسه بقبضته، ويبكي فلا يصدر صوتاً مخافة أن يبلغ صوت بكائه الغرفة.

وقد أسرع كوليا في الخروج إلى الشارع، وصاح بأليوشا غاضباً: «وداعاً يا كرامازوف! هل أنت عائد»؟.

- سأعود في المساء، لا شك في ذلك.

- ما هذا الذي قاله عن أورشليم... ماذا يعني؟

- إن هذه آية من التوراة «إذا نسيتك يا أورشليم» أي إذا نسيت أعز شيء على نفسي، إذا سمحت لأي شيء بأن يحل محله؟ فإنني عندئذ...

- كفى لقد فهمت! احرص على العودة! ثم صاح بكلبه: هيا يا بيريزفون! وجدّ السير باتجاه منزله.



الباب الحادي عشر

إيفان



في منزل غروشينكا

توجه أليوشا إلى ساحة الكاتدرائية وكان يقصد منزل الأرملة موروزوف لمقابلة غروشينكا التي أرسلت فينيا تستدعيه في بكرة ذلك اليوم، وحملتها إليه رسالة مستعجلة ترجوه فيها أن يحضر. وقد علم أليوشا من فينيا خلال استيضاحه لها أن الأسى ما زال مستحوذاً عليها منذ الأمس. وقد كان أليوشا طيلة شهرين مضيا على اعتقال أخيه ميتيا، يتردد باستمرار على منزل الأرملة موروزوف بمحض اختياره، لكي يحمل رسائل إلى ميتيا. وكانت غروشينكا قد مرضت بعد اعتقال ميتيا بثلاثة أيام واشتدت عليها وطأة المرض أكثر من شهر بصورة متواصلة وظلت غائبة عن وعيها أسبوعاً كاملاً. وغيّرها المرض كثيراً فهزل جسمها وشحب لونها، ولكنها تعافت منذ أسبوعين وأصبحت قادرة على الخروج من المنزل. غير أن التبدل الذي أصاب وجهها جعلها محببة إلى أليوشا وجذبه نحوها أكثر من ذي قبل. وكان يحب أن تلتقي عيناه بعينيها كلما دخل عليها المنزل، وقد بدت سيماء الثبات والعزم الصائب واضحة على وجهها، وكانت تطل من محياها دلائل تبدل روحي، وعزم صادق مشوب بالرقة والتواضع يدل على أنه ما من شيء يستطيع أن يهزها أو ينفذ إلى أعماق ذاتها.

وظهرت بين حاجبيها تجعيدة عمودية صغيرة أضفت على وجهها الفتان نظرة الاستغراق في التأمل يخيل لمن يراه لأول مرة بأنه دليل الخشونة والفظاظة. وكادت تمحي عن محياها كل أثر من آثار عبثها الغابر.

وقد بدا غريباً في عين أليوشا أيضاً أن غروشينكا ما زالت تتمتع بمرح الشباب بالرغم من تلك المصيبة التي حلت بهذه الفتاة المسكينة المخطوبة لرجل قبض عليه بتهمة اقتراف جرم شنيع في اللحظة التي تمت فيها

خطبتهما. وبالرغم من مرضها ومن الحكم الذي يكاد يكون محتوماً على ميتيا، كان ثمة نور هادىء ينبعث من العينين اللتين كانتا تنظران نظرة الكبرياء، مع أنهما كانتا أحياناً تومضان بنار الثأر عندما تراودها فكرة هي أعظم الأفكار أثراً على نفسها فتجعلها تضطرب. وقد كان مصدر هذا القلق واحداً، إنه كاترينا إيفانوفنا التي كانت غروشينكا تهذي باسمها حتى في غيبوبتها. لقد كان أليوشا يعلم أنها تغار منها إلى حد مخيف. ومع ذلك فإن كاترينا إيفانوفنا لم تزر ميتيا في سجنه مرة واحدة، مع أنها كانت تستطيع زيارته كلما خطر لها أن تفعل ذلك. وقد واجه أليوشا في كل هذا مشكلة صعبة، لأنه كان الإنسان الوحيد الذي فتحت غروشينكا قلبها له، وكانت تطلب منه دائماً أن يزودها بالنصح والإرشاد، وهو يعجز أحياناً عن قول شيء ما.

دخل أليوشا إلى منزلها والقلق مستحوذ عليه. كانت هناك فقد عادت إلى المنزل من زيارتها ميتيا في سجنه منذ نصف ساعة من الزمن. وقد أدرك أنها كانت تنتظره بفارغ الصبر، من سرعتها في النهوض من مجلسها لاستقباله، وشاهد على المنضدة علبة من أوراق اللعب، وأبصر مكسيموف متكئاً على فراش وضع له فوق أريكة جلدية في الجهة الأخرى من الغرفة. وكان يرتدي منامة وقبعة قطنية، وقد بدا عليه الضعف والمرض رغم انشراحه وابتسامه. وكان هذا الرجل المشرد عندما عاد مع غروشينكا من موكرو قبل شهرين، قد لازمها ولم يبرح بيتها. كان ذاق معها أثناء السفر قسوة المطر والصقيع، وجلس آنذاك على الأريكة في منزلها مبلل الثياب محدقاً فيها كالأبكم وعلى شفتيه ابتسامة الخائف المتوسل. وكادت غروشينكا تنسى وجود هذا الرجل في غمرة آلامها الممضة ولإصابتها بالحمى في مرحلتها الأولى، وقد شغلتها عنه في نصف الساعة الأولى من وصولها أعمال كثيرة كان عليها أن تنجزها. وبغتة نظرت إليه وثبتت نظرها فيه، فابتسم لها ابتسامة خفيفة تدعو إلى الرثاء وتدل على قلة الحيلة، فالتفتت إلى فينيا وطلبت إليها أن تحضر إليه طعاماً. وقد ظل طيلة ذلك اليوم قابعاً في مكانه يكاد لا يتحرك. وعندما أرخى الليل سدوله وأغلقت الأبواب سألت فينيا سيدتها: «هل سيبات السيد عندنا يا سيدتي»؟.

فأجابتها غروشينكا: «نعم، فهيئي له فراشاً على الأريكة».

وعندما استفهمت منه عن أمره بالتفصيل علمت أنه ليس له مكان يلجأ إليه وأن «المحسن إلي السيد كالغانوف قد أبلغني بصريح العبارة أنه كفّ منذ الآن عن صحبتي وقد أعطاني خمسة روبلات».

وقر رأي غروشينكا أن تبقيه في ضيافتها فقالت له وهي تبتسم له ابتسامة فيها عطف ورثاء: «حسناً. فليباركك الله، خير لك أن تمكث عندنا». وكان لهذه الابتسامة أعمق الأثر في قلب الرجل العجوز، فاختلجت شفتاه وبكى بين يديها ليعبر عن امتنانه. وهكذا فقد ظل ذلك المشرد المحروم ملازماً لها منذ ذلك الوقت. ولم يغادر المنزل حتى إبان مرضها. ولم تطرده فينيا ولا جدتها الطباخة من المنزل، بل ظلتا تحرصان على تقديم الطعام له وتهيئة فراشه فوق الأريكة. وقد أنست به غروشينكا وتعودت صحبته، وكانت بعد زيارتها لميتيا (الذي أخذت تزوره في سجنه قبل أن تبل من مرضها) تجلس وتحادث «مكسيموشكا» في أمور تافهة علّها تسلو قليلاً محن أساها. وقد تبين أن الرجل العجوز كان يحسن سرد القصص أحياناً، حتى أصبحت في النهاية لا غنى لها عنه. وقلما كانت غروشينكا ترى إنساناً آخر غيره سوى أليوشا، الذي لم يكن يزورها في كل يوم، ولم تكن زيارته قط طويلة.

وكان تاجرها العجوز طريح الفراش وقد ألح عليه المرض فصار في «الرمق الأخير» كما شاع في المدينة. وبالفعل فإنه بعد محاكمة ميتيا بأسبوع واحد فارق الحياة. وقبل وفاته بثلاثة أسابيع، شعر بدنو أجله، فدعا إليه أبناءه وزوجاتهم وأحفاده، فلما صعدوا إليه طلب منهم أن لا يفارقوه أبداً. ومنذ تلك اللحظة أمر خدمه أمراً باتاً بألا يسمحوا لغروشينكا بالدخول عليه، وبأن يقولوا لها إذا جاءت إليه: «إن السيد يتمنى لك العمر الطويل ويتمنى لك السعادة ويطلب منك أن تنسيه». غير أن غروشينكا ظلت تطمئن يومياً إلى وضعه بواسطة من تكلفه الاستفسار عنه.

فلما رأت أليوشا خفت للترحيب به مبتهجة، وألقت أوراق اللعب من يديها وهتفت به قائلة: «إن مكسيموشكا ما برح يشعرني بالرعب ويصور لي أنك لن تحضر. أواه ما أشد حاجتي إليك! إجلس عند المنضدة. ماذا تريد أن

آمر لك ـ أتريد قهوة»؟.

فقال أليوشا وهو يجلس عند المنضدة: «نعم. إنني جائع».

فصاحت غروشينكا قائلة: حقاً، فينيا، فينيا أحضري القهوة، لقد تم تحضيرها لك منذ وقت طويل. وهاتي بعض الفطائر الصغيرة، ولتكن ساخنة. لقد تشاجرنا بسبب الفطائر اليوم. فقد أخذتها له إلى السجن، ولعلك لا تصدق إذا قلت لك أنه قذفها في وجهي وقال أنه لن يأكلها. وقد رمى واحدة على الأرض وداسها بقدمه، فقلت له: سأتركها لك مع الحارس، فإذا أقبل الليل ولم تتناولها فهذا يعني أن حقدك القتال، يكفيك! وعدت أدراجي. لقد تشاجرنا ثانية. هل تصدق ذلك؟ إننا نتشاجر كل مرة أزوره.

وقد فاهت غروشينكا بذلك دفعة واحدة في غمرة اضطرابها. وشعر مكسيموف بالاضطراب فابتسم وأطرق.

فسألها أليوشا: «لم تشاجرتما هذه المرة»؟.

ـ إنني لم أكن قط أنتظر منه ذلك. تصور أنه يغار عليّ من الرجل البولندي وقد قال لي: لماذا عدت إلى العناية بأمره؟ إذن فقد عدت إلى الاهتمام به! إنه دائم الغيرة علي، في طعامه في منامه! بل لقد كاد أن يغار من كوزما في الأسبوع الماضي.

ـ ولكن هل كان يعلم بأمر البولندي من قبل؟

ـ نعم، لقد كان يعلم بأمره منذ البداية، ولكنه اليوم هب واقفاً فجأة وأخذ يوسعني شتماً وتأنيباً. إنني أخجل من ترديد أقواله، يا له من أمر سخيف باللإنسان! لقد دخل راكيتين عليه في اللحظة التي خرجت فيها. وربما كان راكيتين يقوم بتحريضه. وأضافت تقول بدون اكتراث: ما ظنك بهذا؟

ـ إنه يحبك، تلك حقيقة؛ إنه يحبك حباً جماً. والآن ازداد قلقه.

ـ أرجح أنه قلق، كون محاكمته ستجري غداً. ولقد قمت بزيارته لكي أحدثه عن الغد، لأنني أرهب أن أعمل فكري فيما سيجري غداً. إنك تقول أنه قلق، ولكن ما أعظم قلقي! ثم إنه يتحدث عن البولندي! إنه سخيف إلى حد بعيد! إنه على كل حال لم يغر حتى الآن من مكسيموشكا.

فانبرى مكسيموف يقول: لقد كانت زوجتي شديدة الغيرة علي أيضاً

غلب على غروشينكا الضحك وقالت: «هل كانت تغار عليك، وممن كانت تغار عليك»؟.

- من الخادمات.

فقالت ممازحة وهي ما زالت تضحك: «صن لسانك يا مكسيموشكا، فلست ميالة إلى الضحك الآن، بل أشعر بالغضب. لا تحدق في الفطائر، فلن أعطيك شيئاً منها؛ إنها غير مناسبة لك. كما أنني لن أعطيك شيئاً من الفودكا أيضاً. علي أن أهتم به كأنني أدير بيتاً للإحسان».

فقال مكسيموف وقد امتلأت عيناه بالدموع وارتجف صوته: «إنني لا أستحق حنوك، فأنا إنسان لا قيمة له، وخير لك أن تغدقي حنانك على من هم أكثر نفعاً لك».

- مكسيموشكا، إن كل إنسان له فائدته، وأنى لنا أن نعلم أيهم أكثر فائدة من غيره. ليت البولندي لم يخلق يا أليوشا، لقد خطر له أن يمرض في هذا اليوم. لقد زرته أيضاً. وسأرسل له بعض الفطائر عمداً. لقد اتهمني ميتيا بأنني أرسلت شيئاً منها له، مع أنني لم أفعل، ولذا فإنني سأرسل له بعضها الآن! آه، ها هي فينيا آتية ومعها رسالة! بلى إنها من الرجلين البولنديين، لقد عادا إلى التسول!.

وفعلاً كانت الرسالة من موسيالوفيتش، وكانت رسالة طويلة مكتوبة بأسلوب فصيح، وقد رجاها فيها أن تقرضه ثلاثة روبلات. وقد ضمّنها صكاً بالمبلغ ووعداً برده في غضون ثلاثة أشهر موقعاً من قبل فروبليفسكي أيضاً. وكانت غروشينكا قد تلقت عدداً آخر مماثلاً لها مشفوعة بالصكوك من عشيقها الأول خلال الأسبوعين الماضيين وهي فترة إبلالها من مرضها. ولكنها أعلمت أن البولنديين كانا يزورانها أثناء مرضها للاطمئنان عنها. أما الرسالة الأولى التي تلقتها غروشينكا منهما فقد كانت مطولة مكتوبة على قطعة كبيرة من الورق يزينها شعار الأسرة على الخاتم. ولم تكن غروشينكا آنذاك بوضع يسمح لها بالإجابة عن الرسائل، فضلاً عن أن الرسالة بحد ذاتها كانت على جانب كبير من الغموض فطرحتها جانباً ولما تكمل قراءة نصفها، ولم تستطع أن تفهم شيئاً منها. ثم أتبع الرسالة الأولى بثانية، ورجاها فيها موسيالوفيتش أن

تعرضه ألفي روبل لفترة قصيرة من الزمن، وقد أغفلت غروشينكا أمر هذه الرسالة أيضاً فلم ترد عليها. وأعقبت ذلك سلسلة من الرسائل، بمعدل واحدة يومياً، وكلها مدبجة بأسلوب بليغ منمق، غير أن القرض المطلوب أخذ يتناقص تدريجياً حتى صار مائة روبل فخمسة وعشرين روبلاً فعشرة روبلات، وأخيراً تلقت غروشينكا رسالة من الرجلين البولنديين يرجوانها فيها قرضهما روبلاً واحداً فقط ومعها صك موقع من قبل الإثنين.

وفجأة رقت غروشينكا لهما، وفي إحدى الأمسيات ذهبت بنفسها إليهما في مسكنهما، فرأتهما في حالة من الفقر يرثى لها، فهما أشبه ما يكونان بالمعدمين فلا طعام ولا قود ولا لفائف من التبغ، وقد تراكمت عليهما الديون لصاحبة المنزل، وكانت المائتا روبل التي أخذاها من ميتيا في موكرو قد نفدت سريعاً. غير أن ما أدهش غروشينكا حين قابلتهما ما ظهر عليهما من وقار وكبرياء واعتداد فضلاً عن بعض الفوقية ومخاطبتها بالمنمق من الكلام. وقد ضحكت غروشينكا وناولت محبها السابق عشرة روبلات ثم أنها أخبرت ميتيا ما حدث ضاحكة فلم تأنس فيه أية غيرة، غير أن هذين الرجلين لاحقاها منذ ذلك الحين وكانا يومياً يطلبان منها المال بإلحاح، فكانت دائماً تلبي طلبهما فتنقدهما مبلغاً قليلاً. أما اليوم فقد أحس ميتيا بالغيرة تنهش قلبه بشكل مخيف.

وعادت غروشينكا إلى القول وهي متسرعة مضطربة: «لقد كانت حماقة مني إذ ذهبت لزيارة البولندي دقيقة واحدة، وأنا في طريقي إلى ميتيا، فهو مريض أيضاً وقد أطلعت ميتيا ضاحكة على ما جرى لي معه فقلت له: «تصور أن يفكر صاحبي البولندي بأن ينشد لي أناشيده القديمة على أنغام القيثارة، على أمل أن ترق مشاعري فأقبل الزواج منه». فما كان من ميتيا إلا أن هب لاعناً... وهكذا فأنا مرسلة لهما الفطائر! فينيا هل هي الفتاة الصغيرة التي أرسلاها؟ هاك ثلاثة روبلات وأعدي بضع عشرة فطيرة ولفيها بقطعة من الورق ومريها بحملها إليهما. وأنت يا أليوشا لا تتهاون بإبلاغ ميتيا أنني أرسلت لهما الفطائر.

فقال أليوشا مبتسماً: «لن أبلغه مهما كان الأمر».

فأجابته غروشينكا مبتسمة: «إنك تظن بأنه تعيس لذلك. إنه غير مبال ولكنه يتعمد الغيرة لغاية في نفسه».

فتساءل أليوشا: «يتعمدها قاصداً؟».

ـ لأقل لك إنك غر أليوشا. فأنت لا تعرف شيئاً عن هذا الأمر مع كل ما تتمتع به من ذكاء. إن غيرته علي لا تشعرني بالإهانة، بل الإهانة أن لا يغار علي. فإن بين ضلوعي قلباً قاسياً. وبوسعي أن أغار أنا أيضاً. وما يسوءني، هو أنه لا يحبني إطلاقاً. أقول لك أنه يتعمد الغيرة علي لغاية في نفسه. فهل أنا عمياء؟ ألا أرى؟ لقد بدأ الآن يحدثني عن تلك المرأة كاترينا ويسترسل في الحديث، ويتحدث عن استدعائها طبيباً له من موسكو لكي يحاول إنقاذه، وعن انتدابها محامياً يعد خير المحامين وأغزرهم علماً للدفاع عنه. وهكذا فإنه يحبها طالما أنه يكيل لها المديح أمامي، فليخجل من نفسه! لقد أساء معاملتي، واعتدى علي، لكي يتهمني بمجانبة الحقيقة أولاً، ثم ينقلب عليّ وينسب إليّ جميع السيئات. ومعنى ذلك أنه سيقول لي: «لقد كنت خليلة صاحبك البولندي قبلي، فلا تجوز لك ملامتي إذا أحببت كاترينا». إنه يود أن يحملني وزر كل شيء. لقد حمل علي لنية مبيتة، إنني أقول لك ذلك، ولكنني سوف...

ولم تستطع غروشينكا أن تتابع كلامها، فحجبت عينيها بمنديلها وأخذت تنشج وتنتحب.

وقال أليوشا بلهجة حازمة: «إنه لا يحب كاترينا إيفانوفنا».

فأجابته غروشينكا بصوت يجسد الحقد وهي ترفع المنديل عن عينيها: «إنني سأعلم سريعاً ما إذا كان يحبها أم لا». وكان وجهها ممتقعاً. وقد رأى أليوشا والألم يحز في نفسه أنها انقلبت إلى نقيض ما كانت عليه، من هادئة رزينة إلى متجهمة حاقدة.

وقالت بغتة: «كفاني حماقة، أنا ما دعوتك لهذا. أليوشا يا عزيزي، الغد، ماذا سيجري في الغد، إن هذا هو ما يقلقني! ويقلقني وحدي دون سواي! إنني أجيل بصري حولي فلا أرى أي إنسان يفكر في هذا الأمر أو يهتم به. حتى أنت أتفكر فيه؟ غداً سيحاكم، كما تعلم. هل تعلم كيفية

محاكمته؟ أنت تعلم أن ذلك كان من فعل الخادم، فهو الذي قتله! يا للسماء! هل في وسعهم أن يحكموا عليه بجريمة اقترفها الخادم دون أن يجد إنساناً واحداً يقف إلى جانبه وينافح عنه؟ إنهم لم يزعجوا الخادم أبداً أليس كذلك»؟.

فأجابها أليوشا وهو مستغرق في التفكير: «لقد استجوبوه استجواباً ثقيلاً. غير أن الجميع قد أيقنوا في نهاية الأمر بأنه لم يكن القاتل. وهو الآن طريح الفراش وما زال منذ إصابته بتلك النوبة. وهو الآن يعاني من شدة المرض. وأضاف يقول: «إنه مريض حقاً».

ـ أواه يا عزيزي! ألا تستطيع أن تذهب بنفسك إلى المحامي وتطلعه على كل شيء؟ لقد قيل أنه جيء به من بطرسبورغ لقاء ثلاثة آلاف روبل. ولقد ساهمنا جميعاً في جمع هذه الآلاف الثلاثة ـ إيفان، وكاترينا إيفانوفنا وأنا ـ ولكنها دفعت هي ألفي روبل إلى الطبيب الذي استدعي من موسكو. وقد كان بوسع المحامي فتيوكوفيتش أن يطلب مبلغاً أكبر، غير أن القضية طار صيتها إلى روسيا كلها؛ واحتلت حيزاً كبيراً في الصحف والمجلات وهذا ما جعل فتيوكوفيتش يوافق على المجيء هنا وتولي الدفاع عنه حباً في الشهرة والمجد، فالقضية اشتهرت وتناقلت أنباءها الركبان.

ـ لقد قابلت المحامي أمس.

فقالت غروشينكا متلهفة: «حسناً! هل تحدثت إليه»؟.

ـ لقد اكتفى بالاستماع لي فقط ولم يزد على عبارة واحدة أنه قد كون رأيه في القضية. ولكنه وعد بأن ينظر إلى أقوالي بعين الاعتبار.

ـ عين الاعتبار! آه، إنهم جماعة من الخداعين! وسيجرون عليه الخراب. لماذا أرسلت في طلب الطبيب؟.

ـ لقد استدعته بوصفه خبيراً. إنهم يريدون أن يثبتوا أن ميتيا كان مجنوناً ولم يكن مدركاً ما يقدم عليه حين نفذ جريمة القتل. وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة وأضاف: «غير أن ميتيا لم يوافق على ذلك».

وصاحت غروشينكا قائلة: «نعم، ولكن ذلك لا بد وأن يكون صحيحاً إذا كان حقاً قد قتل أباه! لقد كان مجنوناً آنذاك، وفي جنون مطبق. وكان

الذنب ذنبي أنا الشقية! ولكنه لم يقدم على هذه الفعلة، لم يقدم عليها! وها هم جميعاً ضده، أهل المدينة بأسرها. بل إن شهادة فينيا قد جاءت بالدليل على إثبات جرمه. وأصحاب الحانوت، وذلك الموظف، ورواد الحانة أيضاً سمعوه يعلن قبل حدوث الجريمة أنه سيقترفها! إنهم جميعاً ضده ويجهرون بذلك».

فأجابها أليوشا متجهماً: «نعم، لقد تكاثرت القرائن ضده بشكل مخيف».

- وغريغوري - غريغوري فاسيليفيتش - ما زال متمسكاً بقوله أن الباب كان مفتوحاً، ويصر على أنه رآه مفتوحاً. وليس من وسيلة لحمله على نقض هذا القول. لقد ذهبت وتحدثت إليه بهذا الخصوص بنفسي، وقد لاحظت خشونة ردوده على من يفاتحه في هذا الأمر».

فقال أليوشا: «نعم، ربما كان هذا أقوى دليل ضده».

وعادت غروشينكا إلى الكلام وقد بدا عليها اضطراب غريب غامض: «أما أن ميتيا مجنون، فهو حقاً يبدو الآن كذلك. لطالما أردت يا أليوشا أن أتحدث إليك عن هذا الأمر. إنني أزوره كل يوم فلا أتمالك نفسي من التعجب لأمره. قل لي الآن، ما ظنك فيما يقوله دائماً؟ إنه يكثر من الحديث حتى لا أستطيع أن أفهم منه شيئاً. لقد أملت أن يحدثني عن أمر هام دقيق تعجزني حماقتي عن فهمه، غير أنه أخذ بغتة يتحدث إلي عن رضيع، أي عن طفل. وأخذ يقول: «ما علة فقر الطفل الرضيع؟ إنني ذاهب الآن إلى سيبريا في سبيل الرضيع، لست قاتلاً، ولكن يجب أن أذهب إلى سيبريا». ما معنى ذلك، وأي رضيع، إنني لم أستطع أن أفهم قصده. ولم أتمالك نفسي فذرفت الدموع لأن حديثه كان عذباً. ولقد بكى، وبكيت معه. وفجأة قبلني ورسم فوقي شارة الصليب. ما معنى ذلك يا أليوشا؟ أنبئني من هو ذلك الرضيع»؟.

فابتسم أليوشا وقال: «لا شك أن راكيتين هو مصدر هذه الأفكار فقد أخذ يتردد عليه في الآونة الأخيرة. ولكن لا... إنه ليس من عمل راكيتين. إنني لم أر ميتيا بالأمس، وسأراه اليوم».

وعادت غروشينكا إلى الكلام قائلة: كلا، إنه ليس راكيتين، بل الذي

يقلق باله هو أخوه إيفان فيودوروفيتش، بزيارته له، وتلك هي حقيقة الأمر. وفجأة أمسكت عن الكلام. فحدق فيها أليوشا مندهشاً.

ـ هل يزوره إيفان؟ هل يقوم بزيارته؟ لقد أنبأني ميتيا بنفسه أن إيفان لم يزره مرة واحدة.

احمرّ وجه غروشينكا وقالت مضطربة: «مهلاً... مهلاً! يا لي من فتاة ثرثارة تلقي الكلام على عواهنه! مهلاً يا أليوشا، صمتاً بما أنني بلغت هذا الحد من الإسراف في القول، فسأخبرك الحقيقة بحذافيرها. لقد زاره في سجنه مرتين. وكانت المرة الأولى فور عودته من السفر. فلقد عاد من موسكو على عجل، وكان ذلك بطبيعة الحال قبل أن يدركني المرض، أما الثانية فقد تمت قبل أسبوع. وقد طلب إلى ميتيا ألا يطلعك أنت ولا غيرك على نبأ هاتين الزيارتين مهما كانت الظروف. لقد جاء متستراً».

أطرق أليوشا واستغرق في أفكاره، فقد أخذ بما قالته غروشينكا. ثم قال متمهلاً: «إن إيفان لا يحادثني في قضية ميتيا. ولقد كان قليل الكلام معي طيلة هذين الشهرين. وكلما ذهبت لزيارته، لمحت عليه دلائل الانزعاج، ولذلك فأنا طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية لم أذهب إليه. أما وأنه قد زار ميتيا قبل أسبوع... فلا بد وأن يكون قد طرأ تبدل على ميتيا».

فأسرعت غروشينكا تقول مؤمنة: «إن تبدلاً ما قد أصابه، فهما يكتمان سراً، إنهما يكتمان سراً! لقد قال لي ميتيا ذلك بنفسه. وما يقلقه باستمرار إنما هو هذا السر عينه. وقد كان قبل ذلك كثير المرح، وهو إن كان الآن فرحاً حقاً فإنه عندما يهز رأسه على ذلك النحو ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يشد شعر صدغه الأيمن بقبضته اليمنى، أدرك أن هنالك شيئاً يحيره... إنني أعلم ذلك! لقد كان مرحاً قبل الآن ولو أن فيه بعض المرح الآن».

ـ ولكنك قلت أنه قلق.

ـ نعم، إنه قلق، ومرح كذلك. فهو يبدو منزعجاً دقيقة ثم يكون منشرحاً، ثم يعود إلى الانزعاج، ألا فاعلم يا أليوشا إن أمره يدفعني إلى العجب، فهو مع ما يتهدده، أراه في بعض الأحيان يضحك من توافه الأمور كالطفل.

- وهل طلب منك حقاً ألا تطلعني على أمر إيفان؟ هل قال لك، لا تطلعيه عليه؟.

- نعم، ذلك ما قاله لي. إنك أنت الذي يخشاه ميتيا أشد الخشية لأن الأمر سر: لقد قال بلسانه أنه سر. أليوشا يا عزيزي، إمض إليه اعلم سرهما ثم عد وأنبئني به. ثم توسلت إليه بشغف: أرح خاطري كي أستشف ما يخبئه القدر لي من شر. إن هذا هو الذي يدعوني إلى إرسالك.

- هل تظنين أنك معنية بالأمر؟ إنه لو كنت كذلك لما قال لك أن هنالك سراً.

- لست أدري. ربما كان يود إطلاعي عليه ولكنه لا يجرؤ على ذلك. إنه يريد أن يحذرني، بقوله أن هنالك سراً، ولكنه لا يطلعني على هذا السر.

- وما ظنك أنت؟

- ما ظني؟ إن الأمر هو النهاية بالنسبة لي؛ إن هذا هو ظني، أن الثلاثة يتآمرون على مستقبلي طالما أن كاترينا إيفانوفنا تشترك معهما فيه. إنها أصل كل شيء، وهذا معناه أنه لم يبق لي أي اعتبار ولا وزن. وهو يقول لي ذلك سلفاً، وينبهني إليه. كما أنه ينوي هجري، وهذا هو السر كله، وعليه كان اتفاق الثلاثة ميتيا وكاترينا وإيفان فيودوروفيتش. أليوشا لقد كنت أنوي أن أتحدث إليك في هذا الأمر منذ زمن بعيد، لقد قال لي ميتيا منذ أسبوع مضى أن إيفان مغرم بكاترينا لأنه يكثر من التردد عليها، فهل صادق هو أم لا؟ أستحلفك بشرفك أن تنبئني حقيقة الأمر مهما كانت تسوءني.

- إنني لم أكن أكذب عليك، فإيفان كما أظن لا يحب كاترينا إيفانوفنا.

- أواه إن ظني كذلك! إنه يكذب علي، يا له من مخادع لا يخجل، تلك هي صفته! وقد تصنّع الغيرة علي الآن لكي يحملني نتيجة عمله فيما بعد. إنه أحمق لا يقدر على إخفاء نواياه، إنه عظيم الصراحة كما تعلم... ولكنني سأتعامل معه بما يناسبه! لقد قال لي صدقيني لقد فعلتها. لقد قال ذلك لي، وحملني مسؤولية ذلك العمل! فليسامحه الله! أنتظر فأصب جام غضبي على كاترينا أثناء المحاكمة! وسأقول كلمة واحدة أثناءها... بل

سأقول كل شيء! وعادت إلى البكاء والنشيج.

فقال أليوشا وهو ينهض من مجلسه: يمكنني القول لك يا غروشينكا وأنا على يقين من صحة ما أقول، فهو قبل كل شيء إنه يحبك. يحبك أكثر مما يحب أي إنسان في الدنيا، ولا يحب سواك فصدقيني. إنني أعرف ذلك معرفة اليقين. والمسألة الثانية هي أنني لن أستدرجه لكي أطلع منه على سره، ولكن إذا ما بادر تلقائياً إلى إطلاعي عليه اليوم فسأقول له أنني وعدتك بإطلاعك عليه، وعندها سأعود إليك اليوم وأطلعك على السر. والأمر الثابت... هو أنه يخيل إلي... أنه لا علاقة لكاترينا إيفانوفنا بهذا الأمر، وإن السر يتعلق بشيء آخر. إنني موقن بما أقول، يبدو لي أن الأمر لا يتعلق بكاترينا إيفانوفنا. وداعاً، وإلى اللقاء.

ثم أن أليوشا صافحها، وهي ما تزال تذرف الدموع. وقد أدرك أنه أدخل بعض العزاء إلى نفسها، وأنها شعرت بالراحة إذ وجدت متنفساً لآلامها بعد أن باحت بها له. كان يود أن لا يتركها على هذه الحال إلا أنه كان على عجلة من أمره. فثمة أعمال كثيرة تنتظر أن ينجزها.



القدم المصابة

إن أول ما ينتظره كان في منزل السيدة خولاكوف فقصده مسرعاً لكي يفرغ منه بأسرع وقت ممكن، كيلا يتأخر في الذهاب لزيارة ميتيا. وكانت السيدة خولاكوف تشعر بوعكة بسيطة خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، فإن شيئاً ما قد تسبب في تورم قدمها. ومع أن ذلك لم يلزمها الفراش، إلا أنها كانت تقضي أيامها بطولها متكئة على الأريكة في مخدعها بشكل يظهر مفاتنها. وقد أدرك أليوشا تواً بحسن طوية ونقاء سريرة أن السيدة خولاكوف كانت رغم مرضها، قد أخذت تولي مظهرها عناية خاصة، فقد كانت تكثر العقد والأشرطة واللفائف. وكان ملمّاً ولو قليلاً بسبب ذلك مع أنه أبعد هذه الخواطر عن باله باعتبارها تافهة. ذلك أن الموظف الشاب بيرخوتين كان يتردد عليها بانتظام خلال الشهرين الماضيين.

ولم يكن أليوشا قد زار سكان المنزل منذ أربعة أيام، وذلك هو سبب استعجاله للذهاب تواً إلى ليزا، فهي التي كان يود التحدث إليها، لأن ليزا كانت قد بعثت أمس إحدى الخادمات إليه لكي تلح عليه في المجيء إليها لتحدثه «في أمر على جانب عظيم من الأهمية» وهو طلب اهتم له أليوشا لسبب من الأسباب. ولكن بينما كانت الخادمة تحمل اسمه إلى ليزا، نمي إلى السيدة خولاكوف من بعضهم نبأ وصوله، فسارعت إلى إبلاغه رجاءها المجيء إليها «لدقيقة واحدة فقط» وقد رأى أليوشا أن من الأفضل أن يستجيب لرغبة الأم، وإلا فإنها ستواصل تذكيره كل دقيقة أثناء مكوثه في غرفة ليزا. وكانت السيدة خولاكوف مضطجعة على أريكة. وكان هندامها في غاية الأناقة، لكنها ظاهرة الاضطراب والهياج الشديدين. وقد حيت أليوشا بصيحات الفرح.

ـ لقد انقضت دهور، دهور، دهور كثيرة منذ لقيتك! وها قد مر أسبوع كامل، يكفي أن تفكر في ذلك! آه، ولكنك كنت هنا قبل أربعة أيام يوم الأربعاء الماضي. لقد جئت لكي ترى ليزا. إني موقنة من أنك كنت تنوي الذهاب إلى غرفتها خفية على رؤوس أصابعك، دون أن أدري بقدومك يا عزيزي، عزيزي،ألكسي فيودوروفيتش ليتك تعرف كم أنا قلقة عليها! ولكن لنؤجل الكلام عن هذا الأمر، مع أنه أهم الأمور. فلا بأس. يا عزيزي ألكسي فيودوروفيتش إنني أركن إليك من قرارة نفسي في مرافقتك لابنتي ليزا. فمنذ وفاة الأب زوسيما ـ طيب الله ثراه ـ (ورسمت شارة الصليب) ما زلت راهباً في نظري مع أنك أنيق المنظر في بزتك الجديدة. أفي هذه المنطقة خياط بمثل هذه المهارة؟ لا، لا، ليس هذا هو الأمر الرئيسي، لنرجىء الحديث عنه إلى ما بعد الآن. سامحني لأنني أدعوك أحياناً باسم أليوشا، فإن امرأة عجوزاً مثلي قمينة بأن تتبسط في الحديث. وهنا ابتسمت ابتسامة دلال وأردفت قائلة: ولكن لنرجىء الحديث عن هذا أيضاً. إن الأمر المهم هو أنه يجب علي أن لا أنسى ما هو المهم. أرجوك أن تذكرني بهذا الأمر بنفسك. فمتى عجزت عن إمساك نفسي عن الكلام فإنه يكفي أن تقول لي، عليك بالأمر المهم! آه أنى لي أن أعرف الآن أيّ أمر هو أهم من غيره؟ منذ أن سحبت ليزا وعدها ـ وعدها الصبياني يا ألكسي فيودوروفيتش ـ بالزواج منك. لا شك أنك أدركت بطبيعة الحال إن ذلك لا يعدو كونه حصيلة خيال عابث لطفلة مريضة طال قعودها على الكرسي المتحرك شكراً لله، إنها تستطيع المشي الآن!... إن ذلك الطبيب الجديد الذي أرسلت كاتبا في طلبه من موسكو لأخيك التعيس الذي سيمثل غداً.. ولكن ما لنا والحديث عن الغد؟ إنني مستعدة للموت لمجرد ذكر الغد. مستعدة للموت بدافع من الفضول... ذلك الطبيب جاء إلينا بالأمس ورأى ليزا... لقد دفعت له خمسين روبلاً أجر زيارته. ولكن ليس هذا هو الموضوع، لقد شططت عنه تارة أخرى. ها أنت ترى أنني أخلط. إنني علىَ عجلة من أمري. ما سبب عجلتي؟ إنني لا أفهم ذلك. إن من المخيف أن أبدو حثيثة البحث عن شيء لا أعرف ما هو. إني أرى الأشياء كلها متداخلة مضطربة. أخشى أن يحملك ضيقك على أن تقفز

وتفر من أمامي، وسيكون هذا آخر عهدي بك. ويحي! لم تجلس هنا بدون أن تشرب القهوة؟ يوليا، غلافيرا، علي بالقهوة!.

وقد بادر أليوشا إلى شكرها، وأبلغها أنه تناول القهوة لتوه.

- أين؟

- في منزل اغرافينا ألكسندروفنا.

- في... في منزل تلك المرأة؟ إنها هي سبب مصائب الجميع. ولست أعلم شيئاً عن ذلك. يقولون أنها صارت قديسة، مع أنها وصلت متأخرة. كان خيراً لها لو قدمت التوقيت فما الفائدة من ذلك الآن؟ مهلاً يا ألكسي فيودوروفيتش، لأن في جعبتي أموراً كثيرة أريد أن أقولها لك، حتى أنني أخشى ألا أقول لك شيئاً. تلك المحاكمة المخيفة... سأذهب لحضورها قطعاً. إنني أعمل على إنجاز الترتيبات اللازمة لذلك. سأحمل إلى هناك في مقعدي، وفضلاً عن ذلك فأنا أقوى على الجلوس. سأصطحب معي بعض الناس وأنا شاهدة كما تعلم. فكيف أتحدث؟ لست أدري ما سأقوله. إنهم سيطلبون مني أن أقسم أليس كذلك؟.

- نعم، ولكن لا أظن بأنك ستكونين قادرة على الذهاب.

- إنني أقوى على الجلوس. آه، لقد أحرجتني، آه من هذه المحاكمة، هذه الفعلة الشنعاء، ثم أنهم جميعاً سيذهبون إلى سيبريا، وبعضهم سيتزوج، وكل هذا سيتم بسرعة فائقة، بسرعة فائقة، إن التغير طال كل شيء، وأخيراً لا شيء. سيكبرون جميعاً ولا يبقى أمامهم إلا ترقب الموت حسناً، وليكن ذلك! إنني متعبة. وكاتيا، هذه الإنسانة الفاتنة، قد خيبت كل آمالي. والآن فإنها ستتبع أحد أخويك إلى سيبريا، وأخوك الثاني سيتبعها، وسيعيش في أقرب مدينة منهما. وسيعملون جميعاً على تعذيب بعضهم بعضاً. إن ذلك يفقدني صوابي. والأسوأ من هذا كله: التشهير. لقد تنوقلت القصة ألف ألف مرة في جميع صحف موسكو وبطرسبورغ... آه، نعم، هل تصدق ذلك؟ إن إحدى الصحف تضمنت خبراً يقول إنني كنت، صديقة حميمة، لأخيك، إنني لا أستطيع أن أردد هذه الكلمة المخيفة. تصور هذا، تصوروه!.

- إن هذا مستحيل! أين نشر هذا الخبر؟ وماذا جاء فيه؟

ـ سأريك إياها فوراً. لقد وصلتني الصحيفة أمس وتلوتها هنا، في صحيفة «الأقاويل» التي تصدر في بطرسبورغ. ولقد بدأت الصحيفة تصدر في هذا العام. إنني جد مغرمة بالقيل والقال، وأنخرط فيه، وها قد بدأت أجني ثماره. إن هذه هي ثمرة القيل والقال! ها هو ذا، هذا الخبر، إقرأ.

وناولت أليوشا صفحة من جريدة كانت تحت وسادتها.

ولم تكن في الحقيقة منزعجة، بقدر ما كانت مضطربة، وقد اختلطت الأمور في ذهنها على أمر واحد، وهكذا فقد كان من الممكن أن ينصرف ذهنها في مدى دقيقة واحدة إلى موضوع آخر فتنسى الصحيفة تماماً.

وقد كان أليوشا مدركاً تمام الإدراك أن قصة القضية الفظيعة، قد انتشرت في جميع أنحاء روسيا. وما أكثر ما قرأ من الشائعات الهائلة حول أخيه، وحول عائلة كرامازوف، وحول نفسه في غضون هذين الشهرين؛ فضلاً عن مواضيع أخرى مشابهة من حيث إمكانية تصديقها، وقد شطت إحدى الجرائد إلى حد بعيد فذكرت أن أليوشا قد ذهب إلى الدير وانخرط في سلك الرهبنة نظراً لما أوقعته جريمة أخيه من رعب في نفسه. وناقضت صحيفة ثانية هذا القول فأكدت أنه وناسكه الأب زوسيما قد سطوا على خزانة الدير «ولاذا بأذيال الفرار». أما الفقرة المنشورة في صحيفة «الأقاويل» فقد كانت تحت هذا العنوان، «قضية كرامازوف في مدينة سكوتوبريغونييفسك». (وقد كان هذا ويا للأسف هو اسم مدينتنا الصغيرة الذي حرصت على كتمانه حتى الآن). وقد كانت فقرة مختصرة ولم يرد إسم السيدة خولاكوف فيها بصورة مباشرة. وفي الحقيقة لم تتضمن أية أسماء، ولم يأت فيها سوى أن المجرم الذي ستقاضيه العدالة كان محباً لإثارة الأمور العاطفية وأنه كابتن متقاعد في الجيش، ومتسكع كسول، ومستبد رجعي. وكان كثير المشاكل الغرامية خاصة باتصالاته مع سيدات معينات «ينعين وحدتهن». وإحدى هؤلاء السيدات أرملة تتحسر على ما ولى من أيامها، وبرغم أن لها بنتاً شابة، فإنها جهدت لتبدو صغيرة السن، وقد شغفت به حباً حتى أنها، قبل وقوع الجريمة بساعتين فقط، عرضت عليه مبلغ ثلاثة آلاف روبل شرط أن يوافق على الذهاب إلى مناطق مناجم الذهب. لكن المجرم، الذي كان يأمل في الإفلات من العقاب،

فضل اغتيال والده للحصول على الثلاثة آلاف روبل، على الذهاب إلى سيبريا مع تلك السيدة البائسة ذات مفاتن العمر المتوسط. وقد اختتمت هذه الفقرة طبعاً بإظهار الإحتقار الشديد لشرور هذا القاتل أبيه وكشف مساوىء نظام رقيق الأرض الذي ألغي مؤخراً. وبعد أن قرأ أليوشا الفقرة باهتمام طوى الجريدة وأعادها إلى السيدة خولاكوف.

قالت السيدة: «حسناً، إنني أنا المقصودة بذلك، لا ريب. فأنا اقترحت عليه الذهاب إلى مناجم الذهب، وها هي ذي تتحدث عن «مفاتن العمر المتوسط» وكأني دفعته أنا إلى جريمته! إن الكاتب يصب حقده فليسامحه الله على «مفاتن العمر المتوسط» كما سامحته أنا! هل تعلم أنه... هل تدري من كتب هذا؟ إنه صديقك راكيتين.

فقال أليوشا: ربما كان هو، ولو أنني لم أسمع شيئاً عن هذا الأمر.

- إنه هو، إنه هو! ولا مجال لاستعمال كلمة «ربما» إنك تعلم أنني قد طردته من المنزل... وتعرف القصة بحذافيرها أليس كذلك؟

- أعلم أنك قد طلبت إليه ألا يزورك لاحقاً، ولكن ما السبب؟ إنني لم أعلم السبب... منك على الأقل.

- آه، إذن فقد سمعته منه! إنه يلوك سمعتي، وأظنه بلغ في ذلك حداً مخيفاً.

- نعم، إنه يفعل ذلك، ولكنه يلوك سمعة الناس أجمعين، غير أنني لم أعلم حتى منه، سبب صدك إياه. فأنا قلما أقابله في هذه الآونة. إذ أننا لسنا صديقين.

- حسناً، إذن فسأقص عليك كل شيء. لا مندوحة لي عن ذلك. سأعترف لعلّي أنا ملومة في نقطة واحدة، غير أنها نقطة تافهة، وربما أفقدتها تفاهتها أية قيمة. وفجأة قالت السيدة خولاكوف باستعلاء وعلى ثغرها ابتسامة ساحرة ممتزجة بالحيرة: «هل ترى يا فتاي العزيز، هل ترى، إنني أشك... يجب أن تصفح عني يا أليوشا. إنني بمثابة أم لك... كلا، كلا، العكس هو الواقع. فأنا أتحدث إليك الآن كأنك أبي. إن هذا الأمر لا يتسع لكلمة الأم. حسناً، الحقيقة إنني أتحدث إليك وكأنني أعترف للأب زوسيما. لقد دعوتك

راهباً للآن. حسناً، إن ذلك الشاب المسكين، صديقك، راكيتين (ليرحمنا الله! إنني لا أستطيع أن أغضب منه. إني أشعر بالغضب ولكن ليس إلى حد قوي)، هل تصدق أن ذلك الشاب العابث خطر بباله أن يقع في حبي. لقد أدركت ذلك مؤخراً. وفي أول الأمر ـ قبل شهر واحد ـ أخذ يكثر من التردد علي، كل يوم تقريباً. مع أن المعرفة كانت تربطنا من قبل بطبيعة الحال. إنني لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك... وفجأة علمته، فكانت الدهشة تتملكني وأنا ألاحظ الوقائع. لعلك تعلم أن ذلك الشاب المهذب الممتاز الفاتن بطرس إيلييتش بيرخوتين الموظف في هذه المدينة أخذ من شهرين يكثر من التردد على منزلي. ولقد التقيته أنت عدّة مرات أليس شاباً ممتازاً مخلصاً هو؟ إنه يأتي لزيارتي مرة كل ثلاثة أيام لا كل يوم (ولو أنني أكون مسرورة برؤيته كل يوم)، ويكون دائماً حسن الهندام. إنني أحب الشباب إجمالاً وهو شاب موهوب متواضع مثلك، ويكاد يكون له عقل سياسي. وهو شيق الحديث، وسأسعى حتماً، حتماً، إلى تحقيق ترقية له. إنه من دبلوماسيي المستقبل وفي ذلك اليوم الرهيب إذ جاءني ليلاً أوشك أن ينقذني من الموت. أما صاحبك راكيتين فيأتي منتعلاً حذائيه القذرين ويمدهما على البساط... لقد أخذ يلمح أمامي من طرف خفي إلى مشاعره، وفي ذات يوم، أخذ يشدّ، وهو ينصرف على يدي شداً عنيفاً. وعلى أثر ذلك بدأت قدمي بالتورم. وكان قد قابل بطرس إيلييتش هنا. وهو دائم السخرية والتذمر منه لسبب ما. وقد كنت أنظر إليهما، وأرى كيف يمضيان معاً وأضحك في سريرتي. لقد كنت جالسة وحيدة، كلا، بل كنت مضطجعة. حسناً، كنت مضطجعة هنا وحيدة، وفجأة دخل علي راكيتين، وتخيل هذا! لقد حمل لي أبياتاً كان نظمها ضمن قصيدة صغيرة موضوعها قدمي، أعني أنه وصف قدمي في قصيدة شعرية. مهلاً كيف تمضي القصيدة؟

إنها تبدأ هكذا:

قدم صغيرة آسرة.

إنني لا أستطيع قط أن أحفظ الشعر. وهي لدي هنا، وسأريك إياها فيما بعد. غير أنها رائعة، وهي لا تدور حول القدم؛ ففيها مغزى أيضاً، وفكرة

ساحرة، ولكنني نسيتها، إنها جديرة حقاً بالحفظ في السجلات. وهكذا فقد شكرته بطبيعة الحال فشعر بالزهو. وما كدت أزجي إليه كلمات الشكر حتى دخل بطرس إيليتش: وفجأة احتقن وجه راكيتين وأربد. وقد أدركت أن بطرس إيليتش قد أبعد فكرة ما عن باله، ولا شك في أن راكيتين كان يود أن يقول شيئاً بعد أن قدم لي أبيات الشعر. لقد كنت أتكهن بهذا الشيء؛ غير أن بطرس إيليتش دخل علينا، فعرضت عليه الأبيات ولم أسمّي له ناظمها. ولكنني واثقة من أنه حزر اسمه، ولو أنه لا يود أن يقر بذلك حتى هذا اليوم، بل يعلن أنه لم تكن لديه فكرة عمن يكون لكنه يتعمد قول ذلك. وقد بدأ بطرس إيليتش يضحك تواً ثم انهال عليها نقداً وتجريحاً ووصفها بأنها تخليط تافه لا بد أن تكون من نظم أحد طلاب اللاهوت. وقد قال ذلك بحماسة! أما صاحبك فبدلاً من أن يضحك، ثارت ثائرته، فقلت في نفسي: رباه إنهما سيشتبكان. وقال صديقك: أنا ناظم الأبيات، وهدفت إلى المزاح، لأنني أعتقد أن نظم الشعر شيء يحط من قدر الإنسان ولكن هذه الأبيات من الشعر الجيد. إنهم يريدون أن يقيموا تمثالاً لبوشكين لأنه يتغزل بأقدام النساء، في حين أن قصدي من الكتابة معنوي. أما أنت فمن دعاة الاسترقاق، وليست لديك أفكار إنسانية، ولا مشاعر تجاري التطور العصري. والتقدم لم يؤثر فيك، ولست إلا موظفاً ترشى.

فأخذت أصيح وأتوسل إليهما أن يكفا. ولتعلم أن بطرس إيليتش هو أبعد الناس عن الجبن. وسرعان ما تصنع اللطف والتهذيب ورمقه احتقاراً، وأصغى إلى أقواله حتى النهاية وقال معتذراً: لم يخطر ببالي أن تكون ناظمها، ولو كنت أعرف لما جاز لي أن أقول ما قلت، بل كان عليّ أن أمدحها فالشعراء قوم سريعو الغضب. وجملة القول أنه ضحك منه بغطاء من الألفاظ المهذبة. وقد أوضح لي فيما بعد أن كلامه كان كله من قبيل الهزؤ، في حين كنت أحسبه جدياً حقاً. وبينما كنت مضطجعة هنا، كما أنا الآن أمامك أخذت أفكر قائلة: هل يليق لي أم لا يليق أن أطرد راكيتين لتهجمه بالصياح على زائر في منزلي؟ وقد ظللت مضطجعة وأنا مغمضة العينين، وأتساءل في سري عما إذا كان هذا عملاً صائباً أم لا؟ وظللت أشعر بالقلق والحيرة من

جراء ذلك وبدأ قلبي يجب، ولم أستطع المضي حتى إثارة الضجة بسبب ذلك. وقد سمعت هاتفاً يهتف بي قائلاً: قولي له. وهاتفاً آخر يقول: لا تقولي. وما كدت أسمع الهاتف الثاني حتى ولولت وأغمي علي. وطبيعي أن الضجة ثارت فعلاً، فنهضت فجأة وقلت لراكيتين: إنه مما يؤلمني أن أقول لك هذا، ولكنني لا أريد رؤيتك في منزلي بعد الآن. وهكذا طردته. أواه! ألكسي فيودوروفيتش، إنني مدركة أنني قد جئت شيئاً أدّاً، وأنني كنت متجنية. والحق أنني لم أكن غاضبة منه أبداً، ولكن خيالي صوّر لي فجأة - وهذا هو الباعث على ذلك - إن الأمر سيكون مشهداً رائعاً.. ومع ذلك صدقني إن الأمور جاءت طبيعية، لأنني بكيت فعلاً واستمر بكائي بضعة أيام عقب ذلك. وفجأة نسيت كل شيء عن هذا الموضوع بعد ظهر ذات يوم. لقد انقضى أسبوعان على طرده، وما زلت أفكر بإمكانية عودته ثانية. بل أنني كنت أفكر في هذا الأمر بالأمس، على حين غرة جاءت صحيفة «الأقاويل» هذه ليلة أمس. فقرأتها وشهقت، من يمكن أن يكون كاتبها؟ لا بد أنه هو. لقد ذهب إلى بيته وجلس وخط الكلمة وأرسلها تواً إلى الصحيفة، فنشروها له. لقد وقع ذلك منذ أسبوعين. أليوشا، إنه أمر مخيف إن ظللت أتحدث بدون أن أتطرق إلى ما أريد قوله. آه! إن الكلمات تتدافع وتخرج مني تلقائياً.

فقال أليوشا متلعثماً: «إن من الأهمية بمكان عظيم لي أن أمضي في الوقت المناسب لكي أزور أخي اليوم».

- بالتأكيد! ستنقل إلي كل شيء. مهلاً ما معنى الشذوذ؟

فتساءل أليوشا مستغرباً: «أي شذوذ»؟.

- الشذوذ في معناه الفقهي. الشذوذ الذي يصفح معه عن كل شيء، ومهما رافقه من أفعال لا يؤاخذ صاحبها عليها.

- ماذا تقصدين بذلك؟

- سأوضح لك الأمر. كاتيا هذه.. آه! إنها مخلوقة ساحرة، ساحرة، غير أنني لم أهتد بعد إلى معرفة من تمحضه الود. لقد كانت عندي منذ فترة ولم أتمكن من التوصل إلى شيء معها، وخاصة لأنها لم تعد تتحدث معي إلا عن الأمور السطحية. إن حديثها لا يتعدى شؤون صحتي لا غير، حتى أن

لهجتها باتت مستغربة ولقد قلت في نفسي: حسناً ليكن ما يكون فلست أبالي. آه، نعم، لقد كنت أتحدث عن الشذوذ. لقد جاء هذا الطبيب. هل تعلم إن أحد الأطباء قد جاء؟ لا شك أنك علمت بأمر ذلك الطبيب الذي يستطيع اكتشاف المجانين. لقد كتبت له. كلا، لم تكن أنت الذي كتب، بل كاتيا، إنها هي التي دبرت كل شيء. حسناً، إن الإنسان قد يكون جالساً على أحسن ما يرام وفجأة يحس بالشذوذ. وقد يكون في حالة شذوذ. إن ديمتري فيودوروفيتش كان ولا شك مصاباً بالشذوذ. لقد اكتشفوا هذا الشذوذ منذ استحداث الإصلاح في المحاكم. إن ذلك كله من الآثار الطيبة للمحاكم التي تناولها الإصلاح. لقد جاء الطبيب واستجوبني حول أحداث تلك الأمسية، وما تفوهت به عن مناجم الذهب. وسألني قائلاً: كيف كان يبدو آنذاك، لا بد وأنه كان في حالة من الشذوذ فقد جاء إلي صائحاً: المال، المال، وثلاثة آلاف! أعطني ثلاثة آلاف!. ثم مضى وارتكب جريمته تواً. وقد قال: إنني لا أود قتله. وفجأة ذهب وقتله. سيبرئون ساحته لهذا الاعتبار فقط، لقد قتله رغم أنه كافح من أجل منع قتله.

فقاطعها أليوشا محتداً: ولكنه لم يقتله. وقد ازداد ضيقه بما كان يشعر به من اضطراب ونفاد صبر.

ـ نعم، إنني أعلم أن ذلك الرجل غريغوري هو الذي قتله.

فصاح أليوشا: «غريغوري»؟.

ـ نعم، نعم، إنه غريغوري. ضربه ديمتري فيودوروفيتش فطرحه أرضاً، فلما نهض من وقعته رأى الباب مفتوحاً فدخله وقتل فيودور بافلوفيتش.

ـ ولكن لماذا، لماذا؟.

ـ إنه مصاب بالشذوذ. وعندما ثاب إلى رشده بعد الضربة التي تلقاها من ديمتري فيودوروفيتش على رأسه، كان مصاباً بالشذوذ، فذهب وارتكب جريمة القتل. أما فيما يتعلق بإنكاره، فالأرجح أنه فقد ذاكرته. ولكن، من الأفضل، من الأفضل إلى حد بعيد أن يكون ديمتري فيودوروفيتش هو الذي اغتاله. ذلك ما لم يكن بدأ منه، ولو أنني أقول إنها فعلة غريغوري. لا مراء في أن ديمتري فيودوروفيتش هو الذي اقترف الجريمة، وهذا أفضل إلى حد

بعيدا آه، لا أقصد أن قتل الابن والده هو الأفضل، فأنا لا أنافح عن ذلك، فإن على الأبناء أن يجلوا والديهم، ومع ذلك فإنه لو فعلها لكان أفضل، فعندها لن يكون لديك أي سبب للشكوى، لأنه إذ ذاك يكون فاقداً وعيه، أو بالأحرى وهو متمالك لوعيه ولكنه لا يدري ما هو مقدم عليه. فليطلقوا سراحه، وهذا عمل إنساني جليل، يؤكد أن المحاكم التي نعمت بالإصلاح، بركة عظيمة. إنني لم أكن أعلم شيئاً عن هذه المحاكم، ولكنهم يقولون أنها قد نعمت بالإصلاح منذ زمن طويل. وإذ سمعت ذلك بالأمس تأثرت تأثراً عظيماً حتى أنني وددت إحضارك فوراً. فإذا أخلي سبيله، فقل له أن يأتي تواً من المحكمة لكي يتغدى على مائدتي. وسأحتفل بذلك وأدعو لفيفاً من الأصدقاء وسنشرب نخب الإصلاح في المحاكم. إنني أستبعد أن يكون خطراً. وفضلاً عن ذلك فسأدعو أصدقاء كثيرين ليسهل إخراجه إذا حاول أن يقوم بأي عمل. وبعدئذ قد يعين قاضياً أو نحوه في مدينة أخرى لأن أولئك الذين يعانون أحداثاً كبيرة مؤهلون لأن يكونوا قضاة عادلين. ثم من هو الذي لا يشكو الشذوذ في أيامنا هذه؟ فأنت، وأنا، ونحن جميعاً في حالة من حالات الشذوذ، والأمثلة على ذلك كثيرة: فهذا رجل يجلس ويأخذ في الترنم بأغنية، وفجأة يضيق ذرعاً بشيء من الأشياء فيتناول مسدساً ويطلق النار على أول إنسان يصادفه. وما من أحد يلومه على ذلك. لقد قرأت عن هذا الأمر مؤخراً والأطباء كلهم يثبتون هذه الظاهرة. إن الأطباء يثبتون الأشياء دوماً، إنهم يثبتون كل شيء. إن ابنتي تعاني حالة من حالات الشذوذ. لقد جعلتني أمس أبكي ثانية، كذلك أمس الأول، واليوم أدركت بغتة أن ذلك كله إنما هو بسبب الشذوذ. آه، إن ليزا تحزنني حزناً عظيماً! أعتقد أنها فقدت عقلها. لماذا أرسلت في طلبك؟ أأنت جئت من نفسك أم أرسلت في طلبك؟.

فنهض أليوشا من مجلسه وهو يظهر الحزم: نعم، لقد أرسلت في طلبي وأنا ذا ذاهب إليها الآن.

وهنا هتفت السيدة خولاكوف قائلة، وقد أخذت الدموع تنهمر من عينيها: وآه، يا عزيزي ألكسي فيودوروفيتش، ربما كان هذا الأمر أكثر أهمية من كل ما عداه، الله يعلم أنني أأتمنك على ليزا من كل قلبي، ولا أحفل

بإرسالها في طلبك خلسة بدون إعلام أمها بذلك. ولكن اصفح عني، فأنا لا أستطيع بمثل هذه البساطة أن آتمن أخاك إيفان فيودوروفيتش على ليزا، مع أنني ما زلت واثقة من أنه أعظم الشباب مروءة. ولكن تخيل هذا، لقد جاء لزيارة ليزا دون أن أعلم شيئاً عن هذه الزيارة!»

أخذت أليوشا الدهشة الكاملة فصاح: «كيف؟ متى؟» ولم يعد إلى الجلوس بل ظل ينصت إلى أقوالها واقفاً.

- سأنبئك، ربما لهذا دعوتك إلى المجيء، لأنني لا أعرف الآن سبباً آخر. حسناً، لقد جاء إيفان فيودوروفيتش لزيارتي مرتين، منذ عودته من موسكو. فالمرة الأولى كانت باعتبار الصداقة، أما الثانية فإن كاتيا كانت هناك، وقد جاء لأنه سمع بوجودها عندي. ولم أكن لأتوقع طبعاً تكرر زياراته لي، بسبب علمي بكثرة مشاغله، وأنت مدرك لحقيقة تلك المسألة، وتلك الميتة الشنعاء التي ماتها والدك. ولكنني سمعت فجأة أنه قد عاد ليقابل ليزا لا أنا. وقد مضى على ذلك ستة أيام، فقد جاء ومكث خمس دقائق ومضى، ولم أعلم بمجيئه قبل انقضاء ثلاثة أيام، وكان ذلك من فم غلافيرا. وهكذا فقد كان النبأ بمثابة صدمة عنيفة هزتني، فاستدعيت ليزا تواً، فقالت ضاحكة: «لقد كان يظن أنك نائمة وجاءني مستفسراً عن صحتك». طبعاً هذه هي الكيفية التي تمت بها الزيارة. ولكن ليزا، ليزا، إرأفي بحالنا، ما أعظم الشقاء الذي تسببه لي! هل تصدق، لقد حدث ذات ليلة، قبل أربعة أيام، بعد رؤيتك لها للمرة الأخيرة قبل انصرافك، أن انتابتها نوبة مفاجئة، وأخذت تولول وتصيح صيحات هستيرية! لماذا لا تنتابني أنا نوبات هستيرية أبداً؟ وفي اليوم التالي انتابتها نوبة ثانية وتكرر الأمر في اليوم الثالث، وبالأمس أيضاً، ثم أظهرت الشذوذ بعد ذلك، حيث صاحت بغتة: «إنني أكره إيفان فيودوروفيتش، إنني أصر على ألا تسمحي له بدخول المنزل مرة ثانية». وقد صعقتني هذه الكلمات، فأجبتها قائلة: وأي سبب يحملني على رفض استقبال مثل ذلك الشاب الممتاز، الشاب ذي العلم الوافر أيضاً، الذي يقاسي التعاسة والشقاء، لأن كل هذه الأمور هي من قبيل سوء الطالع، أليس كذلك؟ وفجأة أغرقت في الضحك لدى سماعها كلماتي، وكان ذلك قسوة منها. حسناً،

لقد سرني ذلك، واعتبرته تسلية لها، فلن تعودها النوبات. فضلاً عن رغبتي برفض استقبال إيفان فيودوروفيتش على كل حال بسبب زياراته الغريبة لها بدون علمي، وكنت عازمة أن أطلب منه تفسيراً لذلك. غير أن ليزا في صباح هذا اليوم استيقظت من نومها وتشاجرت مع يوليا، وهل تصدق هذا، لقد صفعتها على وجهها. إنه أمر رهيب، فأنا دائماً أعامل خادماتي بكياسة ولطف. وبعد ذلك بساعة واحدة كانت تتعلق بقدمي يوليا وتقبلهما. ولقد بعثت إلي برسالة تقول فيها أنها لن تأتي إلي أبداً، وأنها لن تزورني قط، ولما جاهدت نفسي وهبطت السلم لرؤيتها اندفعت إلي وقبلتني باكية، وفي اللحظة عينها، كانت تدفعني إلى خارج الغرفة وهي صامتة، وهكذا فلم أفهم الأمر. والآن يا عزيزي ألكسي فيودوروفيتش إنني أعلق عليك كل آمالي، أو قل إن حياتي كلها بين يديك. وكل ما أرجوه منك هو أن تذهب إلى ليزا وتطلع منها على كل شيء، فأنت الإنسان الوحيد القادر على ذلك، ثم تعود إلي وتنبئني به، فأنا أمها، وأنت تعلم أن هذا الأمر لا يعني لي سوى الموت وحده، إذا استمر على هذا المنوال، أو أنني سأفر من هذا المكان، فقد تعدى الأمر طاقتي على الاحتمال. لقد صبرت وما أزال؛ ولكن صبري قد ينفد وعندها... وعندها سيحدث شيء هائل. آه يا عزيزي! أخيراً جئت يا بطرس إيليتش. هتفت السيدة خولاكوف بعبارتها الأخيرة وقد بدا عليها السرور العظيم إذ رأت بيرخوتين قادماً. ثم خاطبته قائلة: لقد تأخرت، لقد تأخرت! حسناً، إجلس، تحدث، وضع حداً لما نحن فيه من صمت وترقب. ما قول المحامي؟ إلى أين أنت ذاهب يا ألكسي فيودوروفيتش؟.

ـ لزيارة ليزا.

ـ آه، نعم. إنك لن تنسى، لن تنسى ما طلبته منك، أليس كذلك؟ حياة أو موت، تلك هي المسألة.

فأجاب أليوشا متلعثماً وهو يغادر الغرفة مسرعاً: «طبعاً، لن أنسى، إذا استطعت... ولكنني تأخرت كثيراً».

فقالت السيدة خولاكوف وهي تصيح في أثره: لا، إحرص، إحرص أن تعود، لا تقل لي إذا استطعت، فإن لم تعد سأموت. وكان أليوشا قد خرج.



الشيطانة الصغيرة

عندما دخل أليوشا غرفة ليزا كانت متكئة على الكرسي التي كانت تستعملها وهي مقعدة. ولم تتحرك من مكانها لملاقاته، ولكنها كانت تحدق في وجهه بعينين حادتين، وقد أطلت منهما نظرات ملتهبة، وشحب لون وجهها وبدا عليه الاصفرار. وقد ذهل أليوشا للتبدل الذي طرأ عليها والنحول الذي أصابها في غضون ثلاثة أيام. ولم تمد يدها لمصافحته، فاقترب منها ولمس أصابعها الدقيقة الطويلة المستقرة فوق ثيابها، ثم جلس قبالتها وهو صامت تماماً.

قالت ليزا موجزة: أنا أعلم أنك في عجلة من أمرك لكي لا تتأخر في الوصول إلى السجن، وقد أبقتك أمي عندها ساعات، وكانت تحدثك عني وعن يوليا.

فسألها أليوشا: وكيف عرفت ذلك؟.

- لقد كنت أسترق السمع. ما بالك تحملق في وجهي؟ أريد أن أتلصص، أريد أن أسترق السمع، فلا ضرر منه، ولن يحملني على الاعتذار.

- لعلَّ أمراً ما أزعجك؟.

- بالعكس، فأنا سعيدة جداً. كنت لتوي أفكر للمرة الثلاثين كم كنت مصيبة عندما رفضت أن أكون زوجة لك، فأنت لست أهلاً لأن تكون زوجاً. ولو تزوجتك ثم أحببت رجلاً آخر، وأعطيتك رسالة له فإنك ستأخذها وتحرص على تسليمها له وانتظار الجواب. يقيناً أنك ستوالي نقل الرسائل إلى عشاقي ولو بلغت سن الأربعين.

وفجأة ضحكت ليزا، فقال لها أليوشا مبتسماً: إن في كلامك رنة

الحقد، ولكنه صريح على كل حال.

ـ إن سبب صراحتي هو عدم خجلي من نفسي عندما أكون معك. ثم إنني لا أريد أن أشعر بالخجل أمامك، أمامك وحدك. لماذا لا أحترمك يا أليوشا؟ إنني كلفة بك وكأنني لا أحترمك. ولو احترمتك لما تحدثت إليك بدون خجل، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ولكن، هل تعتقد بأنني لا أخجل منك؟

ـ كلا، لا أعتقد بهذا.

وضحكت ليزا ضحكة تدل على الاضطراب، وكانت تتكلم بعجلة.

ـ لقد أرسلت بعض قطع الحلوى إلى أخيك ديمتري فيودوروفيتش في السجن. هل تعلم يا أليوشا أنك فاتن! سأتدله في حبك لأنك في وقت قصير جعلتني لا أحبك.

ـ لماذا أرسلت في طلبي اليوم، يا ليزا؟.

ـ أردت أن أفضي إليك برغبة في نفسي. فأنا أبحث عن إنسان يعذبني. يتزوج بي ثم يعذبني، يخدعني ويهجرني، فأنا أرفض السعادة.

ـ هل عشقت الفوضى؟

ـ نعم، أريد الفوضى. إن رغبة تتملكني في أن أشعل النار في المنزل، إنني أتمثل دائماً كيف سأزحف وأشعل النار في المنزل خفية، والخفية ضرورية هنا. وسيحاولون إخماد الحريق ولكن النار ستظل متأججة، وأكون عارفة بكل شيء واكتم الأمر. أواه، أية حماقة هذه! وأي ملل أشعر به.

وأشارت بيدها إشارة تدل على الضيق وعادت نظرة التحدي إلى عينيها. فقال أليوشا بصوت هادىء: «إن سبب ذلك هو عيشة الترف التي تعيشينها».

ـ وهل تفضّل أن أكون فقيرة؟

ـ نعم، أفضّل ذلك.

ـ إن هذا ما تعلمته عن راهبك، ولكنه ليس صواباً. سأكون أنا ثرية

وليكن بقية الناس فقراء، وسأتلذذ بأكل الحلوى والطيبات، ولن أشرك بها أحداً. ثم هزت رأسها في وجهه وقالت: «صه لا تتكلم، لا تفه بكلمة واحدة». كذلك أمرته وهو لم ينبس ببنت شفة. وتابعت: لقد حدثتني مثل هذا الحديث من قبل، وحفظته عن ظهر قلب، وهو يضايقني. فلو كتب علي الفقر، لأقدمت على قتل إنسان، بل إنني قد أقدم على قتل أحد ما حتى ولو كنت غنية، ربما فعلت ذلك، فلماذا أكون خاملة! ولكن هل تعلم أنني أحب أن أحصد الشوفان؟ سأتزوجك، وستصبح فلاحاً، فلاحاً حقيقياً، وسيكون عندنا جواد، أليس كذلك؟ هل تعرف كالغانوف؟

- نعم.

- حسناً، إنه كالدوامة. يريد أن يحاط بخيط ملتف، وأن يطرح بقوة فيبدأ بالدوران، ثم يلهب بالسوط. لو قدر لي أن أتزوجه فإنني سأجعله يدور حول نفسه طوال حياته. إنك لا تخجل من مجالستي؟.

- كلا.

- إنك غاضب أشد الغضب لأنني لا أحدثك عن المقدسات. فأنا لا أريد أن أكون مقدسة. وماذا يفعلون للإنسان في الآخرة إذا اقترف أعظم الآثام؟ يجب أن تعرف كل شيء عن هذا الأمر.

فقال أليوشا وهو يثبت بصره فيها: «إن الله سيوبخك».

- إن هذا عين ما أريد. سأصعد إلى السماء وأتلقى توبيخهم وأنا ساخرة منهم ضاحكة في وجوههم. ما أشد رغبتي في إشعال النار في المنزل، في منزلنا يا أليوشا، إنك ما زلت لا تصدق أقوالي؟

- ولماذا لا أصدقها؟ فهنالك أطفال في الثانية عشرة يحبون إحراق شيء ما، وهم يشعلون الحرائق فعلاً. إن هذا مرض من الأمراض.

- هذا غير صحيح، إنه غير صحيح. فقد يكون هنالك أطفال؛ ولكن قصدي هو غير هذا.

- إنك تخلطين الخير بالشر؛ وهي أزمة عابرة، لعلها نتيجة مرضك.

- يقيناً أنك تحتقرني! إن المسألة لا تعدو رغبتي في الشر وعزوفي عن الخير، ولا علاقة بين مرضي وبين هذا.

ـ ولم تصنعين الشر؟

ـ لكي يعم الدمار. ما أبدع أن يعم الدمار. هل تعلم يا أليوشا، إن نفسي تحدثني أحياناً بأن أقدم على كل شر من الشرور وأن أتسبب بعظيم الأذى، وسأفعل كل هذا خفية مدة طويلة من الزمن، ثم فجأة يكتشفون جميعاً أمري. وسيتحلق الناس حولي ويشيرون إلي بأصابعهم، وسأرمقهم جميعاً بنظرة التحدي. إن هذا رائع يا أليوشا؟

ـ لأدري. إنها رغبة في تدمير شيء حسن أو إشعال النار في شيء ما، على حد تعبيرك. إن هذا يحدث أحياناً.

ـ إنني لا أقول فحسب، بل سأقرن القول بالعمل.

ـ وأنا أصدق ذلك.

ـ إنني أحبك لأنك قلت أنك تصدقني. إنك لا تكذب أبداً. وأظنك تعتبرني من كلامي أتعمّد مشاكستك وحسب.

ـ كلا. إن هذا لم يخطر لي ببال... مع تقديري أنك ترغبين في الإقدام على ذلك أيضاً.

فقالت، وقد أومضت عيناها وميضاً غريباً: «نعم، عندي بعض الرغبة فأنا لا أستطيع قط أن أكذب عليك».

ومما أدهش أليوشا أكثر من أي شيء آخر، الصدق الذي تبدى في أقوالها فلم يكن في وجهها الآن أثر للمزاح أو الدعابة. مع أن المرح لم يفارقها في أكثر الأوقات جدية في الأيام السالفة.

فقال أليوشا وهو مغرق في التفكير: «هنالك لحظات يعشق فيها الناس الجريمة».

ـ أجل، أجل! لقد قلت ما في نفسي، إنهم يعشقون الجريمة، فجميع الناس يعشقون الجريمة، ويعشقونها دوماً، لا في لحظات معينة. أتصور أن هذا الأمر قد جمع الناس على الكذب، وما فتئوا يكذبون. فهم يعلنون أنهم يكرهون الشر، ولكنهم في دخيلة نفوسهم يعشقونه.

ـ أو ما زلت تقرأين الكتب المفسدة للأخلاق؟

- نعم. فإن أمي تخبئها تحت وسادتها فآتي وأسرقها.

- ألا يخجلك أن تقودي نفسك إلى التهلكة.

- بل أريد أن أهلك نفسي. في هذه المدينة صبي استلقى بين قضيبي السكة الحديدية عند مرور القطار. يا له من فتى حسن الطالع! إصغ، أخوك الآن يحاكم بتهمة قتل والده، وها هم الناس جميعاً يحبون إقدامه على قتل والده.

- يحبون إقدامه على قتل والده؟

- نعم، الجميع يحبون ذلك. إن جميع الناس يصفونه بالعمل الرهيب، ولكنهم في سرّهم يحبونه. فأنا مثلاً أحب هذا العمل.

فقال أليوشا بصوت هادىء: «ما تقولينه عن جميع الناس فيه شيء من الصحة».

فصرخت ليزا لفرط البهجة وقالت: «أية أفكار هذه التي تداعب خيالك! أنت أيها الراهب! إنك لا تعرف مقدار احترامي لك يا أليوشا لأنك لا تكذب أبداً. يجب أن أقصّ عليك حلماً مضحكاً رأيته. إنني أرى الشياطين في بعض أحلامي. لقد رأيت نفسي في غرفة فيها شمعة مضاءة، والليل قد أرخى سدوله، وفجأة امتلأ المكان بالشياطين، كانوا في زوايا الغرفة وتحت المنضدة، وقد فتحوا الأبواب، فإذا بي أرى جماعات من الشياطين تحتشد خلف الأبواب وتريد أن تدخل وتختطفني. وكانوا يريدون دخول الغرفة واختطافي. ورسمت بسرعة شارة الصليب فتراجع الشياطين من غير أن ينصرفوا، بل ظلوا وقوفاً في أماكنهم يترقبون ما يصدر عني. وفجأة شعرت برغبة رهيبة للتجديف على الله بصوت عال. وقد نفذتها، فعادت الشياطين تزحف نحوي مسرورة، فأمسكت بي، ولكني رسمت من جديد شارة الصليب فاندحرت. إنها تسلية رهية، تبهر الإنسان».

فقال أليوشا فجأة: سبق أن رأيت حلماً مشابهاً.

فصاحت ليزا وقد استولت عليها الدهشة: «حقاً؟ أليوشا، إياك والسخرية، فالأمر أعظم أهمية من ذلك. هل يمكن أن يرى شخصان حلماً واحداً؟».

- يبدو أن هذا ممكن.

وعادت ليزا تقول وقد عظمت دهشتها: أليوشا، لقد قلت لك أن الأمر عظيم الأهمية. ليس الحلم هو المهم، بل المهم هو أنك رأيت الحلم الذي رأيته أنا. أنت لم تكذب علي قط فلا تكذب الآن: هل تصدقني القول، أم تسخر مني؟».

- إني صادق فعلاً.

وبدا التأثر العظيم على ليزا وصمتت هنيهة. وفجأة اندفعت تقول متوسلة: أليوشا، تعال لرؤيتي، وأكثر من ترددك عليّ.

فأجابها أليوشا بلهجة قاطعة: «سأظل دوماً آتي لرؤيتك، طول حياتي».

وعادت ليزا إلى القول: «إنك الإنسان الوحيد الذي أستطيع التحدث إليه. إنني لا أخاطب أحداً غير نفسي سواك. أنت وحدك في الدنيا بأسرها. بل وأقبل على محادثتك أكثر مما أقبل على محادثة نفسي. أليوشا لماذا لا أشعر بالخجل منك، لا أشعر بأي خجل منك، قل؟ أصحيح يا أليوشا أن اليهود يسرقون طفلاً في عيد الفصح ويقتلونه»؟.

- لا أعلم.

- لدينا كتاب قرأت فيه عن محاكمة يهودي سرق طفلاً في الرابعة من عمره وقطع أصابع يديه، ثم صلبه على الجدار. لقد دقه بالمسامير وصلبه، وخلال محاكمته اعترف بأن الطفل مات سريعاً، في غضون أربع ساعات. لقد كان ذلك الموت سريعاً، وقد قال أنه وقف مقابل الطفل يتأمله معجباً بمنظره وهو يواصل أنينه. إنه شيء جميل.

- جميل؟

- جميل، إنني أحياناً أتخيل أنني أنا التي صلبته. فهو عندها سيظل مصلوباً وهو يئن ويتأوه، وأجلس أنا تجاهه وأتلذذ بأكل مربى الأناناس، إنني جد مغرمة بهذا المربى. هل تحبه؟.

وحدق أليوشا فيها صامتاً. وفجأة تشنج وجهها الناحل، وومضت عيناها.

ثم عادت تقول: «أتعلم عندما قرأت قصة هذا اليهودي ظللت طول الليل مسهدة وأنا أبكي وأرتجف وبقيت صورة ذلك الطفل تهز خيالي وهو يئن ويصيح (إن طفلاً في الرابعة من عمره يستطيع فهم ما يراد به كما تعلم). وظل ذهني طيلة ذلك الوقت منصرفاً إلى مربى الأناناس. فلما أصبح الصباح كتبت رسالة إلى إنسان معين، رجوته فيها رجاء خاصاً الحضور لزيارتي. وقد جاء فقصصت عليه كل ما طرأ على ذهني من أمر الطفل ومربى الأناناس. قصصت عليه كل شيء، ولم أترك شاردة ولا واردة، وقلت له أن ذلك شيء جميل. فضحك ووافقني الرأي. ثم نهض وانصرف. ولم يتعد مكوثه الخمس دقائق. فهل شعر نحوي بالاحتقار؟ هل احتقرني؟ قل لي، قل لي يا أليوشا، هل احتقرني أم لا؟ ثم استوت جالسة على الأريكة وعيناها تومضان.

فسألها أليوشا قلقاً: أخبريني، هل استدعيت ذلك الإنسان؟

- نعم، لقد استدعيته.

- وهل بعثت له برسالة؟

- نعم.

- وهل كان استدعاؤك له لمجرد سؤاله عن هذا الأمر، عن الطفل؟

- كلا، ليس عن هذا أبداً، ولكنه إذ جاء، بادرت إلى سؤاله عن ذلك وقد أجابني وضحك، ثم نهض وانطلق.

فتمتم أليوشا قائلاً: لقد تصرف ذلك الإنسان تصرف الشرفاء.

- هل احتقرني؟ وهل سخر مني؟

- كلا فقد يكون هو أيضاً مغرماً بمربى الأناناس. إنه مريض وقد ألحت عليه العلة أيضاً يا ليزا.

فأجابته ليزا قائلة وعيناها تومضان: نعم، إنه يحب مربى الأناناس.

وتابع أليوشا يقول: «إنه لا يحتقر أحداً، وكل ما في الأمر هو أنه لا يصدق أحداً. وإذا كان لا يصدق الناس فهو بطبيعة الحال يحتقرهم».

- إذن فهل هو يحتقرني، أنا؟

- وأنت أيضاً.

فهتفت ليزا تقول وهي تصرف بأسنانها: «حسناً، لقد شعرت إذ ضحك وهو يخرج بأن التحقير شيء جميل. إن مرأى الطفل مقطوع الأصابع شيء جميل. وكذلك التحقير جميل أيضاً...». وضحكت ليزا له ضحكة محمومة مليئة بالحقد.

ثم قفزت عن الأريكة؛ واندفعت نحوه وقبضت عليه بكلتا يديها، وصاحت به: «هل تعلم، يا أليوشا، هل تعلم، أنني أحب لو... أليوشا، أنقذني»! وتابعت بتأوه: «أنقذني! هل هنالك أي إنسان في الدنيا أستطيع أن أقول له ما قلته لك؟ لقد قلت لك الصدق، إنني صادقة في قولي. سأقتل نفسي، لأنني أكره كل شيء! لا أريد الحياة، لأنني أكره كل شيء». وختمت مهتاجة: «أليوشا لماذا لا تكن لي ذرة من المحبة»؟

فأجابها قائلاً: «ولكنني أحبك حباً جماً».

- وهل ستبكيني، هل ستبكيني؟

- نعم.

- لا لأنني لن أكون زوجة لك، بل تبكيني وكفى؟

- نعم.

- شكراً لك! إن دموعك تكفيني. إن أي إنسان آخر قد يعاقبني ويدوسني بقدميه، كلا، الناس جميعهم، لا أستثني من ذلك أحداً. لأنني لا أحب أحداً. هل تسمعني؟ إنني لا أحب أحداً! وعلى نقيض ذلك فأنا أكرهه! ثم ابتعدت عنه فجأة وهي تقول: «إذهب يا أليوشا، لقد آن أوان ذهابك لزيارة أخيك».

فقال أليوشا وقد بدا كأنه مرعوب: «كيف أستطيع أن أتركك وأنت على هذه الحال»؟.

- إمض إلى أخيك، إن أبواب السجن ستقفل، إمض، ها هي قبعتك. بلغ ميتيا حبي، إذهب، إذهب!

ثم إنها أخذت تدفع أليوشا دفعاً نحو الباب بعنف يكاد يكون مصطنعاً. وردّ أليوشا بنظرة الدهشة المشوبة بالألم. وفجأة أحس برسالة في يده اليمنى، رسالة دقيقة، مطوية، مختومة. فحدق فيها وقرأ اسم المرسل إليه: «إيفان

فيودوروفيتش كرامازوف». فرمق ليزا بنظرة سريعة، فألفى على وجهها مسحة من الحقد.

كان الغضب قد بدا عليها، فأمرته بصوت متهدج: أعطه إياها، يجب أن تعطيه الرسالة. وافعل ذلك، اليوم حالاً، وإلا تناولت السم! لقد استدعيتك من أجل هذا.

ولما خرج صفقت الباب خلفه، وسمع صرير المزلاج. فوضع أليوشا الرقعة في جيبه وهبط درجات السلم. إنه لم يعد إلى السيدة خولاكوف، إنه نسيها تماماً. وعندما ذهب أليوشا، أزاحت ليزا المزلاج وفتحت الباب قليلاً ووضعت أصبعها في الفرجة ثم صفقته بكل ما أوتيت من قوة فانهرست أصبعها، ثم ما لبثت أن أخرجتها من الفرجة ثم سارت متئدة هادئة نحو كرسيها. جلست عليه منتصبة وأخذت تتفقد بنظرها أصبعها المسودة والدم ينزف من تحت ظفرها. وكانت شفتاها ترتعشان وهي تهمس في سرها قائلة: إنني شقية، شقية، شقية، شقية!.



الترنـيمة والسر

وصل أليوشا إلى السجن ووقف عند الباب يقرع الجرس وكان أكثر النهار قد مضى. والظلمة قد أخذت تكتنف الكون، غير أن أليوشا كان يعلم بأنه سيؤذن له بالدخول دون أن يلقى عناء ولا نصباً. ولقد كانت الأمور تدبر في بلدتنا الصغيرة كما كانت تدبر في أي مكان آخر. فلم يكن، في بدء الأمر، وبعد انتهاء التحقيق المبدئي، بطبيعة الحال يسمح لأحد بزيارة ميتيا باستثناء أقاربه وعدد قليل من الناس يتمون إجراءات شكلية معينة. وفيما بعد خصص بعض الناس باستثناءات من غير أن تخفف هذه الإجراءات الشكلية. وعلى الأقل كان هذا هو الحال بالنسبة لزوار ميتيا وقد بلغ الأمر في بعض الأحيان حداً جعل الناس يقابلون السجين في الغرفة المخصصة لهذا الغرض وجهاً لوجه.

كانت هذه الاستثناءات على كل حال قليلة، فإن غروشينكا وأليوشا وراكيتين وحدهم عوملوا هكذا. وقد كان ضابط الشرطة ميخائيل ميخائيلوفيتش يعطف كثيراً على غروشينكا، فإن معاملته السيئة لها في موكرو عرضته لعذاب الضمير. وعندما ألم بقصتها كاملة تبدلت نظرته إليها تبدلاً كلياً. ومن الغرائب أن هذا الرجل العجوز تبدل موقفه من ميتيا أيضاً، فبعد أن كان يجزم بإجرامه أصبح ينظر إليه نظرة عطف متزايد بعد أن ضمته جدران السجن. وكان يقول في نفسه: لعله رجل طيب حلت به الكارثة نتيجة السكر والمجون. لقد تبدل من الفزع إلى الرأفة.

أما أليوشا فقد شغف به ضابط الشرطة حباً، وكان يعرفه منذ عهد بعيد. وأما راكيتين، الذي ازدادت مؤخراً زياراته للسجن، فقد كان من أوثق الناس معرفة «بآنسات ضابط الشرطة» كما كان يدعوهن، كثير التردد على منزلهن.

وكان أيضاً يعطي بعض الدروس في منزل مدير السجن الذي كان متقدماً في السن، ذا قلب رقيق، دقيقاً في تأدية واجبات وظيفته. وكان أليوشا كذلك وثيق المعرفة بمدير السجن الذي كان كلفاً بالتحدث إليه، حول المواضيع المقدسة. وكان هذا المدير يحترم إيفان فيودوروفيتش ويرهب رأيه، مع كونه فيلسوفاً عظيماً، وكان لا يفتأ يقول: إني تعلمت على نفسي. غير أنه كان يشعر بميل إلى أليوشا لا يستطيع له دفعاً. وقد أخذ هذا العجوز مؤخراً يقرأ الأناجيل غير المعترف بها، ويناقشها مع صديقه الشاب. وكان من عادته أن يزور الدير ويدخل معه ومع الرهبان في مجادلات تستمر ساعات عديدة. هذا الواقع سمح لأليوشا إذا وصل متأخراً إلى السجن أن لا يحتاج إلى أكثر من مقابلة المدير فيسهل أمره. وفضلاً عن ذلك فإن جميع من في السجن، حتى أقل السجانين شأناً ألفوا رؤية لأليوشا. ولم يكن الحارس بطبيعة الحال يسبب لأليوشا أدنى مضايقة ما دامت السلطات المسؤولة راضية عن زياراته.

وكان ميتيا كلما استدعي من زنزانته يتجه إلى الطابق السفلي، حيث خصصت غرفة لمقابلة السجناء. وعندما دخل أليوشا هذه الغرفة كان راكيتين هناك يودع ميتيا ويهم بالانصراف. كانا يتحدثان بصوت مرتفع، وفي حين كان ميتيا يضحك وهو يشيع زائره إلى الباب، بدت على وجه راكيتين آيات التذمر. وقد أخذ راكيتين، ولا سيما في الآونة الأخيرة، يكره الاجتماع بأليوشا، فإذا التقى به اكتفى بالانحناء العابر، من غير أن يكلمه. فلما رأى أليوشا الآن يدخل الغرفة قطب جبينه وأشاح بوجهه عنه، متظاهراً بالانشغال في تزرير معطفه الكبير المذيل بالفراء. ثم راح يفتش عن مظلته.

وتمتم قائلاً: «ينبغي لي أن لا أنسى شيئاً من متاعي». وقد فاه بهذه العبارة ليخرق جدار صمته.

فقال له ميتيا مازحاً: عليك بالحرص على عدم نسيان متاع الآخرين. وضحك ميتيا لطرفته، فانفجر راكيتين ثائراً، وصاح به، وهو يرتجف لشدة غيظه:

الأفضل لك أن توفر نصائحك ليس لي بل لأفراد أسرتك الذين ما زالوا طوال حياتهم يستعبدون الناس.

فقال ميتيا يخاطب أليوشا: «ماذا جرى؟ لقد كنت أمازحه. سحقاً لكل هذا، إنهم جميعاً على هذا النحو». ثم أومأ برأسه إلى راكيتين الذي كان يغادر الغرفة مسرعاً وأضاف: «لقد كان يجلس هنا ضاحكاً مرحاً، وبغتة أضحى ثائراً كما رأيت. وقد بلغ الأمر به حداً جعله لا يحييك، هل قاطعته تماماً؟ ما الذي أخرك؟ إنني لم أكن أنتظرك فحسب، بل كنت ظامئاً إليك طيلة هذا اليوم. ولكن لا بأس فسنعوض الآن ما فاتنا».

فسأله أليوشا وهو يومىء برأسه إلى الباب الذي خرج منه راكيتين: «لماذا يكثر من تردده عليك؟ إنكما بالتأكيد لستما صديقين حميمين أليس كذلك»؟.

ـ صديق حميم لراكيتين؟ كلا، لم أبلغ هذا الحد. هل من الممكن، خنزير كهذا؟ إنه يظن أنني... مجرم. وأسوأ ما في هؤلاء الناس أنهم لا يفهمون معنى المزاح، إنهم لا يفهمون، فأرواحهم سطحية وجافة؛ إنهم يعيدون إلى ذاكرتي جدران السجن عندما دخلته لأول مرة، لكن راكيتين فتى ذكي، إنه ذكي جداً. حسناً يا ألكسي، لقد قضي علي الآن.

ثم جلس على المقعد وأجلس أليوشا إلى جانبه.

وقال أليوشا مضطرب المشاعر: إن المحاكمة ستبدأ غداً. هل بلغ بك القنوط هذا الحد يا أخي؟

فأجابه ميتيا وهو ينظر إلى أخيه نظرة الحيرة: عم تتحدث؟ آه، إنك تعني المحاكمة! تباً لها! إننا ما زلنا حتى الآن نتحدث عن أمور لا أهمية لها، عن هذه المحاكمة، ولم أقل لك بعد كلمة واحدة عن الأمر الرئيسي. نعم، إن المحاكمة موعدها الغد، ولكن هذه المحاكمة ليست هي ما عنيته بقولي «لقد قضي عليّ». لماذا تتفحصني بنظرك هكذا؟.

ـ ماذا تعني يا ميتيا؟

ـ الأفكار، الأفكار، هذا كل شيء! المبادىء! ما هي المبادىء؟

فتساءل أليوشا حائراً: «المبادىء»؟

ـ نعم، هل هي علم؟

ـ نعم، إن هناك علماً يعنى بالمبادىء... ولكن... إنني أعترف بجهلي.

أي نوع من أنواع العلم هو؟

- إن راكيتين يعلم، إنه يعلم الشيء الكثير سحقاً له! وهو لا يريد أن يصير راهباً، بل ينوي السفر إلى بطرسبورغ. وهناك سيهتم بالنقد الرفيع. ومن يدري فهو قد يكون ذا فائدة ويبني مستقبله أيضاً. آه، إن هؤلاء الناس هم خير فئة تستطيع بناء مستقبلها! تباً للمبادىء. لقد انتهى أمري، ألكسي، إنني أيها الإنسان التقي! إنني أحبك أكثر من أي إنسان آخر. إن النظر إليك يملأ قلبي شوقاً وشغفاً. من هو كارل برنارد؟

فعاد اليوشا إلى سؤاله مندهشاً: كارل برنارد؟

- كلا، ليس اسمه كارل. مهلاً، لقد أخطأت. إن اسمه هو كلود برنارد. فمن هو؟ هل كان كيميائياً أم ماذا؟.

فأجابه أليوشا: «لا بد أنه كان خادماً. وأنا أعترف أيضاً بأنني عاجز عن إيفائه حقه من الكلام. لقد بلغني أنه كان خادماً، ولكنني لست أعلم من أية فئة من الناس كان هذا الرجل».

وقال ميتيا ساخطاً: «حسناً، إذن فسحقاً له! إنني لا أعرفه، وأغلب الظن أنه ينتمي إلى الأنذال. إنهم جميعاً أنذال. وسيشق راكيتين طريقه وسيمضي كيفما اتفق، إنه مثل برنارد. تباً لأمثال هذا الرجل! ما أكثرهم في هذه الدنيا».

وتساءل أليوشا بإلحاح: ولكن ما الأمر؟

- إنه يريد أن يكتب مقالاً عني، عن قضيتي وسيجعله استهلالية حياته الأدبية. إن هذا هو سبب تردده علي؛ لقد قال ذلك بنفسه. وهو يريد أن يثبت نظرية. يريد أن يقول عني: إنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن قتل أبيه، فلقد أفسدته بيئته. وما إلى ذلك من أقوال. لقد أوضح لي كل هذا. وهو يريد أن يضفي على مقاله طابعاً اشتراكياً حسب قوله. تباً له، بوسعه أن يصبغه بالصبغة التي يريد، إذا أراد ذلك، فلا يهمني ذلك. إنه لا يطيق إيفان، فهو يكرهه، ولا يحبك أنت أيضاً. ولكنني لا أصده، لأنه إنسان ذكي، ولكنه مغرور جداً. لقد قلت له لتوي: «إن أبناء كرامازوف ليسوا مجرمين بل فلاسفة مثلهم مثل جميع الروس الأقحاح، فأنت لست فيلسوفاً رغم تعمقك في الدرس، بل إنك إنسان دنيء». ولقد ضحك ضحكة فيها الحقد واللؤم. وقلت له باللاتينية: «إن هذه

الأفكار لا تقبل الجدل. أليس هذا شيئاً حسناً؟ ها أنا ذا أثبت براعتي في اللغات الحية كما ترى»! وضحك ميتيا.

فسأله أليوشا: لماذا قضي عليك؟ لقد قلت هذا الآن!

ـ أتسألني لماذا قضي علي؟... إن حقيقة الأمر هي... إذا قلّبت الأمر على كافة جوانبه، إنني آسف لفقدي الله. إن هذا هو السبب.

ـ ماذا تعني بقولك: «آسف لفقدي الله»؟

ـ تصور هذا: إن في داخل الإنسان، في أعصابه، في رأسه، أي في أعصاب دماغه... (سحقاً لها)! ذيولاً دقيقة، ذيول تلك الأعصاب، وحالما تأخذ في الارتجاف، أي أنني أنظر إلى شيء ما بعيني، فتأخذ في الارتجاف... ونتيجة ارتجافها، تتكون صورة في عيني... وهي لا تبدو لي تواً بل تنقضي هنيهة، ثانية... ثم يبدو لي شيء كالبرهة، أعني أنه ليس كالبرهة. لتتخطفها الشياطين! بل كالصورة؛ أعني كشيء، أو حركة تباً لها، وذلك السبب هو الذي يجعلني أرى وأفكر، إنها هذه الذيول. وليست الروح هي ذلك السبب أو وجودي بصورة ومثال على نحو ما. إن هذا هو كله لغو فارغ! لقد شرحه لي راكيتين بالأمس يا أخي، وقد جعلني في حيرة بالغة. إن العلم يا أليوشا شيء رائع. إن إنساناً جديداً يستيقظ. وذلك أفهمه... ومع ذلك فأنا آسف لفقدي الله.

فقال أليوشا: «حسناً، إن هذا شيء طيب على كل حال».

ـ إنني آسف لفقداني الله! إنه علم الكيمياء، يا أخي، علم الكيمياء! لقد فقدنا البديل يا صاحب النيافة، يجب أن نفسح الطريق أمام الكيمياء. إن راكيتين يكره الله، إنه لا يحبه! إن هذه هي النقطة المؤلمة التي تعيش في أعماق ذواتهم جميعاً، ولكنهم يخفونها. إنهم يقولون الأكاذيب. ويلجأون إلى التظاهر. وقد سألت راكيتين: «هل ستدعو إلى هذه المعتقدات في كتاباتك»؟ لقد ضحك وأجابني: آه، حسناً، لو أنني أردت أن أفعل ذلك صراحة، فإنهم لن يسمحوا بنشرها. وعدت إلى سؤاله: «ولكن كيف تصبح حال الإنسان عندئذ إذا كان لا يؤمن بالله وبالخلود؟ إن جميع الأمور تغدو إذ ذاك مشروعة، ويستطيع الناس أن يفعلوا ما يريدون. فأجابني ضاحكاً: هل تعلم، إن الإنسان

الذكي يستطيع أن يفعل ما يحلو له. فهو يعرف كيف يتلمس طريقه. أما أنت فقد وقعت، إذ اقترفت جريمة قتل، وتبقى في السجن حتى تتلاشى بين جدرانه. لقد جابهني بهذا القول مجابهة! يا له من خنزير! لقد كنت فيما مضى أركل مثل هذا الإنسان برجلي، أما الآن فإنني أصغي إلى كلامه. إنه أيضاً كثيراً ما ينطق بكلام معقول، ويحسن الكتابة. لقد تلا عليّ في الماضي مقالاً له. ولقد نسخت منه ثلاثة أسطر. مهلاً. ها هي ذي. وسحب ميتيا من جيبه بسرعة ورقة صغيرة وقرأ منها ما يلي:

«لكي يتمكن الإنسان من معالجة هذه القضية، ثمة أمر أساسي قبل أي شيء آخر، أن يجعل شخصيته على طرفي نقيض مع حقيقة ذاته. هل فهمت ذلك»؟

فقال أليوشا: «كلا، لم أفهم». وأخذ يتفرس في ميتيا ويصغي إليه بفضول.

- وأنا أيضاً لست أفهمه، فهو مبهم لا يستطيع الإنسان أن يوضحه، ولكنه يدل على الذكاء. وقد قال لي: إن جميع الناس يكتبون مثل هذه الكتابة في وقتنا هذا، وذلك من فعل بيئتهم فيهم. إنهم يخافون من البيئة. كما أن الجلف ينظم الشعر أيضاً. لقد نظم قصيدة مدح فيها قدم السيدة خولاكوف. وأغرق ميتيا في الضحك.

فقال أليوشا: لقد بلغني ذلك.

- هل بلغك ذلك؟ وهل سمعت القصيدة؟

- كلا.

- إنها لدي. ها هي ذي، سأتلوها عليك. إنك لا تعلم - فأنا لم أنبئك بذلك - إنها تدور حول قصة ما. إنه جلف! إنه يسبب لي الضيق منذ ثلاثة أسابيع قائلاً: لقد تورطت في المشاكل كالأحمق من أجل ثلاثة آلاف روبل، أما أنا فسأحصل على مائة وخمسين ألفاً. إنني سأتزوج أرملة وأبتاع لي بيتاً في بطرسبورغ. وأنبأني أنه يتودد إلى السيدة خولاكوف. وهذه المرأة كانت في صباها فاقدة بعض عقلها، والآن بعد أن بلغت الأربعين، أضاعت ما كان لديها من عقل. وقد قال لي: غير أنها عاطفية إلى حد بعيد، وسأستغل هذه

الناحية من أجل السيطرة عليها. وعندما أتزوجها سأنتقل معها إلى بطرسبورغ وهناك أقوم بإصدار صحيفة. وأخذ ريقه يتحلب، ليس شوقاً للأرملة بل للمائة والخمسين ألف روبل. وقد نجح في حملي على تصديقه. إنه يواظب على زيارتي يومياً. وقد قال لي ذات مرة: لقد بدأت تميل إلي. وكان الفرح يغمر نفسه. وفجأة عمدت إلى طرده من منزلها. إن بيرخوتين يكتسح كل شيء في طريقه، مرحى! إن بإمكاني أن أقبل تلك المرأة السخيفة البلهاء لأنها طردته من منزلها. وكان راكيتين قد كتب قصيدته التافهة. وقد قال لي: لقد دنست يدي للمرة الأولى بكتابة الشعر، وفي سبيل أن أكسب قلبها. ولذلك فإن هدفي محمود. فأنا سأكون مفيداً عظيماً للقضية الاشتراكية إذا ما حصلت على أموال هذه المرأة السخيفة. إن المبرر الاشتراكي لكل عمل قذر يقوم به هؤلاء الناس حاضر لديهم دائماً. ومضى راكيتين يقول: وعلى كل حال فإن نظمي خير من نظم شاعرك بوشكين، لأنني استطعت أن أجعل أبياتاً بهيجة قليلة زاخرة بالمعاني الوطنية الحزينة. إن إشارته إلى بوشكين، أدركها تماماً فإذا كان حقاً رجلاً موهوباً ما كان ينبغي له أن تقتصر أبياته على أقدام النساء، ولكن راكيتين لم يشعر بحرج من قصيدته! يا لغرور هؤلاء الناس! لقد اختار لها هذا العنوان: «في نقاهة قدم متورمة لإنسانة أثيرة على نفسي» فيا له من إنسان مهذار. وهذه هي القصيدة:

«قدم صغيرة ساحرة.

رقيقة متورمة هي الآن.

جاء الأطباء وضمدوها.

ولكنهم لم يفلحوا في شفائها.

ومع ذلك فليست قدمها هي التي أندب.

فهذه فكرة أتركها لبوشكين أن يعرب عنها.

إنها تشكو ليس قدمها بل رأسها.

الذي تخشى أن يفقد ذكاءه!

ذلك أن قدمها لو تورمت

مع غرابة هذا القول،

أواه، إنني ألح في طلب العلاج

الذي يعيد العافية إلى قدمها ورأسها».

إنه خنزير، بكامل معنى الكلمة. ولكن الوغد مترفع! ولقد طعّم قصيدته بفكرة تقدمية. أو لم يغضب عندما طردته من منزلها؟ لقد كان يصرف بأسنانه.

فقال أليوشا: لقد ثأر لنفسه. فقد كتب مقالاً في إحدى الصحف عن السيدة خولاكوف.

واختصر له أليوشا قصة المقال الذي ظهر في جريدة «الأقاويل». قطب ميتيا جبينه قائلاً: إن هذا من تدبيره، من تدبيره. إنه هو! هذه المقالات... أنا أعلم... هذه الأمور المهينة التي كتبت عن غروشينكا مثلاً... وعن كاتيا أيضاً... الويل له!. وأخذ يذرع الغرفة وقد استبد به الغضب.

وقال أليوشا بعد صمت قصير: أخي لا أستطيع أن أمكث طويلاً. إن غداً هو يوم عظيم رهيب بالنسبة لك، لأن الله سيصدر حكمه فيه... إن تصرفاتك تدهشني، فأنت تذرع هذه الغرفة، وتتحدث عن أمور غامضة... لا أعرفها.

فقال ميتيا مندفعاً: كلا، لا يدهشك أمري. أتريدني أن أتحدث عن ذلك الكلب القذر؟ عن القاتل؟ لقد تحدثنا عنه بما فيه الكفاية. كفاني حديثاً عن ذلك الابن القذر الذي أنجبته ليزافيتا القذرة! إن الله سينتقم منه، وسترى. كفى. واتجه نحو أليوشا وقبله وهو منفعل، وكانت عيناه تتألقان.

وقال منتشياً: «إن راكيتين لن يفهم هذا، أما أنت فستفهم كل شيء، ولهذا السبب كنت أتحرق لرؤيتك. هنالك أشياء كثيرة أود أن أبوح بها منذ زمن بعيد، هنا، بين هذه الجدران القاتلة، ولكني لم أفه بعد بكلمة واحدة عن أهم الأمور، ويبدو لي أن اللحظة المواتية لم تحن بعد. أما الآن فقد نفد صبري. يجب أن أفتح قلبي لك. أخي، لقد تحولت إلى إنسان جديد في الشهرين الماضيين. لقد انسلخت إنساناً جديداً. كان مختبئاً في داخلي، ولم

يكن ليظهر لولا هذه الضربة التي وجهتها لي السماء. إنني أشعر بالخوف! وهل يخيفني أن أقضي عشرين عاماً في المناجم، أحطم المعادن بمطرقة؟ ليس هذا ما أخشاه البتة. إن شيئاً آخر يخيفني الآن: أن يغادرني الرجل الجديد. وهناك في المناجم نفسها، وفي جوف الأرض، قد أجد سجيناً آخر أو قاتلاً آخر يحمل قلباً مفعماً بالعاطفة الإنسانية يمكنه أن يصبح صديقاً لي، إذ أن الإنسان يستطيع أن يعيش ويحب ويتألم حتى في المناجم. إن المرء يستطيع أن يبعث الدفء في قلب ذلك القاتل وأن يجدد حياته وأن يعنى بأمره سنوات عديدة فينتشل أخيراً من قاع الظلمة روحاً شريفة، شعوراً، مخلوقاً معذباً، بل يستطيع المرء أن يخرج ملكاً، وأن يخلق بطلاً! هنالك كثيرون منهم، مئات، ونحن جميعاً ملومون عنهم. لماذا حلمت بالطفل الرضيع في تلك اللحظة؟ إن ذلك السؤال الذي رددته عن سبب فقر ذلك الطفل الرضيع، كان علامة أرسلت إلي في تلك اللحظة. إنني ذاهب في سبيل الطفل الرضيع، فنحن جميعاً مسؤولون عن الجميع، مسؤولون عن جميع الأطفال الرضع، فإن من الأطفال كباراً وصغاراً. وجميعهم أطفال رضع. إنني ذاهب في سبيل الجميع. إن أحداً يجب أن يذهب إلى الجميع. إنني لم أقتل والدي، ولكن ينبغي لي أن أذهب، وأنا أقبل هذا المصير. لقد خطرت ببالي جميع هذه الأمور وأنا هنا، هنا، بين هذه الجدران المهلكة. وهنالك كثيرون منهم هناك، في جوف الأرض وفي أيديهم مطارق. أجل سوف يقيدوننا في أرجلنا ويحرموننا الحرية، ولكننا عندئذ، وفي أسانا العظيم سننهض ثانية إلى علياء البهجة، التي لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونها، والتي هي مرادف لوجود الله، لأن الله هو الذي يمنح البهجة: إنها ميزته، ويا لها من ميزة عظيمة. إن الأنسان يجب أن يتلاشى في الصلاة! وما فائدتي هناك في جوف الأرض بدون الله؟ إن راكيتين يزدريني، إذا أبعدوا الله عن سطح الأرض، فإننا سنأويه في جوف الأرض. إن الإقامة في السجن بدون الله مستحيلة. والأمر خارج السجن أقل استحالة. وسنرنم عندئذ نحن المنفيين إلى جوف الأرض، سنرنم من أعماقها ترانيم المجد لله مصدر كل بهجة وفرح. والمجد لله ولبهجته! إنني أحبه تعالى»!.

وكان ميتيا يلهث وهو يلقي خطابه الغريب. وغدا وجهه مصفراً وشفتاه

مرتجفتين، فيما كانت دموعه تنحدر على خديه.

وتابع خطابه قائلا: «أجل؛ إن الحياة حافلة بكل شيء، وهنالك حياة أيضاً في جوف الأرض. قد لا تصدق يا ألكسي كم أحب الحياة الآن، وكم أنا ظمآن، ضمن هذه الجدران المهلكة، للوجود والاستجابة للضمير. إن راكيتين لا يفقه شيئاً من هذا؛ وغاية ما يهمه هو بناء منزل وتأجير غرفة.

كنت عظيم الشوق لرؤيتك. ثم ما هو الألم؟ إنني لا أخاف الألم مهما بلغ من الشدة. إنني لا أخافه الآن. ولقد كنت فيما مضى أخافه. هل تدري، ربما امتنعت عن الإجابة على جميع الأسئلة أثناء المحاكمة... أتصور نفسي ذا قوة تمكنني من احتمال أي شيء، وأي ألم، في سبيل أمر واحد وهو أن يكون باستطاعتي أن أتحقق في أية لحظة، من أنني أعيش. أعيش في ضروب من العذاب تبلغ الآلاف. أتعذب على عجلة العذاب، ولكنني أعيش، وأشعر بوجودي، ولو كنت سجيناً في أصغر غرفة انفراد. وأرى الشمس، وإذا لم أرها فإنني أعلم بوجودها. وهنا الحياة كلها، في معرفة أن الشمس موجودة. أليوشا يا ملكي إن هذه الفلسفات كلها تحمل لي الموت، فسحقاً لها! إن أخي إيفان...».

فقاطعه أليوشا قائلاً: «ما شأن أخينا إيفان»؟ غير أن ميتيا لم يسمعه.

ـ أتعلم ذلك، إن أياً من هذه الشكوك لم يكن قط يخامرني من قبل، لقد كانت محجوبة في أعماق نفسي. ولعلّ إسرافي في الشراب والمشاجرات والغضب عائد إلى أن نفسي كانت تمور بأفكار لم أكن أفهمها، وإلى أنني كنت أبغي أن أكبتها في نفسي وأقهرها لتسكن. إن إيفان ليس راكيتين، فهو يحمل فكرة. وإيفان صامت كأبي الهول، ولا يخرج عن صمته أبداً. إن الذي يقض مضجعي هو الله. إنه وحده مصدر قلقي. تصور الأمر لو أنه لم يكن موجوداً؟ وتصور لو أن راكيتين كان على صواب، وإن الله عبارة عن فكرة أوجدها الإنسان؟ فإذا لم يكن له وجود، فإن الإنسان سيكون سيد الأرض، ومالك الكون. إن هذا شيء رائع! ولكن كيف يمكنه أن يحقق الفضيلة بدون الله؟ هذا السؤال كان سبب حيرتي، فتراني أعود إليه دائماً. فمن إذ ذاك يجب أن يحب الإنسان؟ ولمن يكون شاكراً؟ ولمن يرتل ترنيمة؟ إن راكيتين

يضحك من ذلك، وهو يرى أن المرء يستطيع أن يحب البشرية بدون وجود الله. حسناً، إن الغبي المنافق وحده هو الذي يستطيع أن يرى هذا الرأي، أما أنا فلا أستطيع له فهماً. إن راكيتين يجد الحياة سهلة، فهو يقول: خير لك لو انصرف تفكيرك نحو التوسع في تنعم الناس بالحقوق المدنية، أو حتى تخفيض أسعار اللحم، إن بوسعك أن تظهر محبتك للإنسانية بطريقة أسهل منالاً وأقرب مورداً، من الفلسفة. وقد أجبته: حسناً لكنك بدون الله قمين أكثر من هذا برفع أسعار اللحم، إذا كان ذلك يجلب لك الفائدة وربح روبل مقابل كل قبق تدفعه. إن هذا القول جعله منفعلاً. ولكن بعد هذا كله، ما هو الخير؟ أجبني عن هذا السؤال يا ألكسي. إن الخير في عرفي يختلف عنه في عرف الصيني. فهو إذن شيء نسبي. ألك رأي مخالف؟ أليس الخير شيئاً نسبياً؟ إن هذا سؤال محير محفوف بالمضللات! إنك قد تضحك مني لو قلت لك بأني بقيت ليلتين كاملتين لا أنام بسببه. وأنا الآن أعجب للناس كيف يستطيعون الحياة بدون أن يفكروا بهذا الأمر أبداً. يا للغرور! إن إيفان لا يسلم بوجود الله. فهو يحمل في رأسه فكرة، وهي فكرة يعجز إدراكي عنها، ولكنه صامت، وأعتقد أنه ماسوني. ولقد سألته غير أنه ظل صامتاً ولم يجبني عن سؤالي. لقد أردت أن أشرب من نبع روحه، ولكنه ظل صامتاً. لكنه ألمح لي مرة بكلمة واحدة. فقال أليوشا بلهفة: «وماذا قال لك»؟.

ـ لقد قلت له: إذاً فكل شيء مشروع إذا صح ما تقوله. فقطب جبينه وقال: إن فيودور بافلوفيتش أبانا كان إنساناً يحاكي الخنزير في قذارته، لكن أفكاره كانت صائبة. إن هذا هو ما فاه به عرضاً. ولم يقل شيئاً غيره. وهذا الرأي يفضل آراء راكيتين.

فقال أليوشا مؤمّناً على أقواله بلهجة فيها مرارة: «نعم، متى زارك»؟.

ـ لندع الكلام عن هذا إلى وقت آخر، إن أمراً آخر يجب أن أحدثك به. إنني لم أقل لك شيئاً عن إيفان قبل الآن. ولقد أجلت حديثي عنه إلى النهاية. وبعد انتهاء قضيتي وإصدار المحكمة حكمها علي، سأقول لك شيئاً، بل سأسرد عليك كل شيء. فأمامنا شيء هائل... ستكون أنت القاضي فيه. ولكن لا تبدأ بهذا الشيء الآن، لا تتحدث عنه. إنك تتحدث عن الغد، وعن

المحاكمة، ولكن هل تصدقني إذا قلت لك أنني لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر؟.

ـ هل تحدثت مع المحامي؟

ـ وما نفع المحامي؟ لقد أطلعته على كل شيء. إنه وغد لين الجانب من أبناء المدن، إنه من فئة برناردا ولكنه لا يصدقني ولا يؤمن بأية كلمة أقولها له. وتصور أنه يعتقد بأنني قد اقترفت تلك الجريمة. وقد أدركت هذا، فسألته: كيف تدافع عني وأنت تعتقد بذلك؟ تباً لهم جميعاً، لقد جاءوا بطبيب ويودون أن يثبتوا جنوني. ولكنني لن أرتضي ذلك! إن كاترينا إيفانوفنا تريد أن تؤدي واجبها إلى النهاية، مهما تحملت من أعباء! وابتسم ميتيا ابتسامة تعكس ما كان في قلبه من حقد وألم ثم مضى يقول: تلك الهرة المخلوقة بقلب من حجر إنها تعلم كيف قلت عنها في موكرو أنها امرأة حقودة للغاية ووصل قولي أذنيها. نعم إن الحقائق القائمة ضدي كرمل البحر عدداً وما زال غريغوري مصراً على أقواله. إن غريغوري رجل مخلص ولكنه أحمق. إن كثيرين من الناس مخلصون لأنهم حمقى: إن هذا هو رأي راكيتين. إن غريغوري خصمي، وثمة أناس تكون عداوتهم أفضل من صداقتهم. وأعني بذلك كاترينا إيفانوفنا. إنني خائف؛ أواه إنني أخشى أن تقول كيف أنها انحنت أمامي على الأرض في سبيل الحصول على تلك الآلاف الأربعة. إنها ستضحي في سبيلي بالرمق الأخير. ولكنني لا أريد تضحيتها؛ إنهم سيجلبون علي العار أثناء المحاكمة. كيف أستطيع احتمال كل هذه الأمور، ذلك ما سأعجب منه. إمض إليها يا أليوشا، وقل لها أن تنسى هذا الأمر في المحكمة، هل تستطيع أن تقوم بذلك؟ ولكن سحقاً لكل هذه الأمور، فلا بأس فيها! إنني، بوسيلة أو بأخرى سأتمكن من اجتياز المحنة. إنني لا أرثي لحالها فعلى نفسها جنت، وهي تستحق ما أصابها. ثم عاد إلى الابتسام بمرارة جلية وقال: إنني سأقصّ قصتي أيضاً يا ألكسي. أما ما يهمني فهو أمر غروشا.. فقط، غروشا! يا إلهي! لماذا قدر لها أن تتحمل كل هذا الشقاء؟ وجالت الدموع في مآقيه ومضى يقول: «إن غروشا تقتلني؛ إن تفكيري فيها يقتلني، يقتلني. لقد كانت عندي قبل قليل...».

ـ لقد أنبأتني أنك سببت لها حزناً عظيماً هذا اليوم.

ـ أعلم ذلك، تباً لخلقي! إن الغيرة هي وراء ما حصل. إنني آسف لذلك. لقد قبلتها أثناء خروجها، ولم أسألها الصفح.

فهتف أليوشا متسائلاً: «لماذا لم تسألها الصفح»؟

وردّ ميتيا بضحكة أبدى فيها شيئاً من المرح واندفع يقول: حماك الله يا فتاي العزيز من طلب الصفح عن خطيئة اقترفتها، من إمرأة تحبّها، تحبها حباً عظيماً، مهما كانت شناعة خطيئتك. المرأة! إن الشيطان وحده يعرف خصال المرأة. حاول أن تعترف للمرأة بخطأك، قل لها: «إنني آسف فاصفحي عني» وعندها ستنهال عليك عبارات التقريع واللوم! ولن تصفح عنك، بأي حال، صفحاً هادئاً سريعاً، بل إنها سترغم أنفك، وستأتي بأمور لم تحدث أبداً، وستستعد بذهنها لكل الأشياء والتفاصيل، بل تضيف إلى ذلك أشياء من عندها. ثم تصفح عنك. إن خير النساء بل وأخيرهن يفعلن ذلك. فالمرأة في مثل هذه الحالة تكدس فوقك التهم أكداساً وتثقل بها رأسك. وهن لا يتورعن عن سلخ جلدك حياً، أقول لك ذلك، إنهن جميعاً تفعلن هذا، هؤلاء الملكات لولاهن لما حيينا! إنني أقول لك هذا ببساطة وصراحة يا فتاي العزيز، إن كل رجل شريف لا بد إلا أن يأتمر بإبهام امرأة. إن هذا هو رأيي، أو قل هو ليس رأيي، بل شعوري، إن على الرجل أن يكون غفوراً، وهذا لا ينال من كرامته! إنه لا يسيء إلى كرامة الرجل ولو كان بطلاً، بل حتى ولو كان قيصراً! ولكن حذار أن تسألها الصفح عن أي شيء. أذكر هذه القاعدة التي لقنك إياها أخوك ميتيا، الذي سعى إلى حتفه بظلفه من أجل امرأة. لا، الأفضل لي أن أصالح غروشا دون أن أسألهاالصفح والغفران. إنني أعبدها يا ألكسي، أعبدها. ولكنها لا تدرك مقدار حبي لها. كلا، بل هي على اعتقادها حتى الآن بأنني لا أحبها كفاية. وهي تعذبني، إنها تعذبني بحبها. لا أهمية للماضي تذكر! إن عذابي في الماضي كان بسبب تقاطيع جسدها الدنيئة، أما الآن فقد مزجت روحها كلها بروحي، وبواسطتها صرت رجلاً. هل سيسمحون لنا بالزواج؟ وإذا لم يوافقوا على ذلك فإن غيرتي ستقتلني. وسأتصور شيئاً ما كل يوم فلا يغيب عن ذهني... ماذا قالت لك عني؟

وقصّ عليه أليوشا كل ما حدثته غروشينكا به، فكان ميتيا يصغي إليه، ويستعيده بعض العبارات، وغدا مغتبطاً.

ثم صاح ميتيا قائلاً: إذاً فلم تغضبها غيرتي؟ إنها امرأة عادية! إن في صدري قلباً عنيفاً! آه، إنني أحب القلوب العنيفة، ولو أنني لا أحتمل أن يغار أحد علي. إنني أعجز من أن أطيقه. سنتخاصم، ولكنني سأظل مقيماً على حبها، وسأظل على حبها، هل سيسمحون لنا بالزواج؟ سؤال وحده يحيرني، وبدونها لا أستطيع الحياة....

وأخذ ميتيا يذرع الغرفة جيئة وذهاباً مقطب الجبين، وكان الظلام قد بدأ يتسلل إلى الدنيا. وفجأة ظهر عليه القلق العظيم ثم قال:

إذن فهي تقول إن هناك سراً؟ وتظن أننا ندبر لها مؤامرة، وأن كاتيا متواطئة معنا عليها. كلا يا غروشينكا الطيبة، ليس الأمر هكذا. لقد أخطأت الهدف بإسرافك في تقديراتك الأنثوية الحمقاء. أليوشا، يا عزيزي، هاك حقيقة حالي! سأطلعك على سرنا!.

وتلفت ميتيا حواليه وزاد اقترابه من أليوشا الواقف أمامه، فهمس في أذنيه همساً غريباً، مع أنه لم يكن في الواقع ممكناً لأي إنسان أن يسمعهما، فقد كان قيم السجن العجوز يهوم في الممشى، ومن المستحيل أن تصل أية كلمة إلى مسامع الحراس.

قال ميتيا هامساً متسرعاً: «سأطلعك على سرنا كله. لقد كنت أنوي أن أطلعك عليه فيما بعد، إذ كيف يمكنني البت بأمر دون استشارتك؟ إنك لي كل شيء في الدنيا. وبالرغم مما ذكرته عن إيفان، من إنه متفوق علينا، فأنت ملكي. فإن حكمك هو الحاسم. وربما كنت أنت المتفوق لا إيفان. إن المسألة تتعلق بالضمير الأسمى، إن السر هو من الأهمية بحيث لا أستطيع أن أقطع فيه برأيي، ولقد أجلت البت فيه إلى أن أعرضه عليك. وعلى كل حال فإن البت فيه لم يحن أوانه بعد، لأن علينا أن ننتظر حكم المحكمة. وحالما يصدر الحكم يصبح لزاماً عليك أن تقرر مصيري. لا تقرره الآن. وسأطلعك عليه، فاصغ ولا تحكم. قف واهدأ. لن أطلعك على كل شيء، بل سأكتفي بجوهر الأمر دون التفاصيل، وستظل هادئاً، لا تطرح عليّ سؤالاً ولا تأت

بحركة. هل توافق على ذلك؟ ولكن؟ ولكن، يا إلهي كيف سأتجنب عينيك؟ أخشى أن تكشف لي عيناك عن الحكم الذي تتخذه، حتى لو لم ينطق لسانك. أواه! إنني خائف! إصغ إلي أليوشا! إن إيفان قد عرض علي الفرار. لن أطلعك على التفاصيل، وكل الأمور قد أشبعت درساً. يمكننا تدبير كل شيء، صمتاً لا تقطع برأيك. ينبغي لي أن أفر إلى أميركا مع غروشا، وأنت تعلم أنني لا أستطيع الحياة بدونها! وماذا يكون من أمري لو أنهم لم يسمحوا لها باللحاق بي إلى سيبريا؟ هل يسمحون للمحكومين بالزواج؟ إن إيفان لا يظن ذلك. وبدون غروشا ماذا عساي صانع هناك في بطن الأرض وفي يدي مطرقة؟ لم يكون أمامي عندها إلا أن أهشم جمجمتي بالمطرقة! ولكن من جهة ثانية هنالك ضميري! وحري بي أن أفر من الشقاء. ولقد أتتني علامة، وأنا أرفضها. وأمامي طريق الخلاص ولكنني لا أعبأ بها. إن إيفان يقول لي أنه إذا توفرت لدي،النية الحسنة، فأنا في أميركا أستطيع أن أكون أكثر فائدة مني في مناجم سيبريا. ولكن ماذا سيحل بترنيمتنا المنبعثة من قلب الأرض؟ وما هي أميركا؟ إن أميركا صورة من صور الغرور! وفيها الشيء الكثير من الخدع أيضاً كما أتوقع. يجب علي أن أهرب من الصلب! إنني أقول لك هذا يا ألكسي لأنك الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يفهمه. وغيرك لن يفهمه. إن كل كلامي عن الترنيمة ليس في نظر الآخرين سوى حماقة وجنون. وهم يقولون إنني مجنون أو أحمق. ولكنني في الحقيقة لست هذا ولا ذاك. إن إيفان يعي أيضاً معنى الترنيمة. إنه يفهمه ولكنه لا يحير جواباً إذا سألته عنه، إنه لا يتكلم. إنه لا يؤمن بالترنيمة. لا تتكلم. لا تتكلم. إنني مدرك معنى نظرتك! لقد قررت، لا تصل إلى قرار، إرحمني، إرحمني! إنني لا أستطيع الحياة بدون غروشا. أنتظر صدور حكم المحكمة.

فرغ ميتيا من كلامه مهتاجاً مضطرباً. ثم أمسك كتفي أليوشا بكلتا يديه، وثبت عينيه الظامئتين المتقدتين بعيني أخيه.

وأعاد سؤاله للمرة الثالثة بصوت فيه توسل ورجاء: «إنهم لا يسمحون للمحكومين بالزواج، أليس كذلك»؟.

تأثر أليوشا وهو يصغي إليه بدهشة عظيمة، ثم قال له: «قل لي شيئاً

واحداً، هل إيفان جاد في ذلك، وفكرة من هذه»؟

- إنها فكرته، فكرته، وهو جاد فيها تماماً، إنه لم يأت لزيارتي في أول الأمر، وفجأة جاء إلي قبل أسبوع وفاتحني بهذا الأمر من غير مقدمات. إنه جاد في فكرة هروبي إلى حد بعيد. إنه لا يسألني بل يأمرني أمراً بالفرار، وهو لا يشك في أنني سأرضخ له، رغم أنني فتحت له صدري كما فتحته لك وأطلعته على سر الترنيمة. لقد قال لي أنه سيتدبر الأمر، وأنه سيتخذ لكل شيء عدته. والآن، دعنا من هذا الحديث حتى وقت آخر. ويكفيك أن تعلم أنه قد أتمّ استعداده وبقي المال هو كل القضية. إنه سيدفع عشرة آلاف تكاليف عملية هروبي، وسيعطيني عشرين ألفاً كي تكون عدتي في أميركا. وكان رأيه أننا نستطيع تدبير حيلة بارعة لهروبي لقاء عشرة آلاف روبل.

وعاد أليوشا إلى سؤال أخيه: «وهل طلب منك ألاّ تطلعني على ذلك مهما كلف الأمر»؟.

- لقد طلب مني ألا أطلع عليه أي إنسان، ولا سيما أنت، ألا أطلعك عليه مهما كلف الأمر. إنه طبعاً يخشى أن تحول دون ذلك وأن توجّه ضميري. لقد كان متشدداً في طلبه ألا أطلعك على هذا الأمر مهما كلف الأمر.

فقال أليوشا: إنك على صواب. إن من المستحيل تقرير موقف ما قبل انتهاء المحاكمة. فإنك بعدها تستطيع أن تقرر بنفسك، وستشعر بأنك صرت إنساناً جديداً، وهكذا تضع حداً للأمر.

فأجابه ميتيا وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة: إنسان جديد، أم رجل يماثل برنارد حقارة، يقرر خطة إنسان صنوه، فأنا أعتقد بأنني في مستواه من الحقارة.

- ولكن يا أخي، ألا يراودك أي أمل بالبراءة؟

وفجأة تعجّل ميتيا القول وهو يهز رأسه: «أليوشا، يا عزيزي، لقد حان موعد انصرافك، إن مدير السجن يصيح في الساحة، وسيأتي إلي تواً. لقد تأخرنا وهذا مخالف للنظام. هلم وعانقني. قبلني! ارسم شارة الصليب، يا

حبيبي، بحق الصليب الذي سأحمله غداً».

ثم قال ميتيا فجأة: «إن إيفان يعرض علي الهرب. وهو يعتقد أنني فعلتها حقاً».

وارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة.

فسأله أليوشا: «هل سألته عما إذا كان يعتقد ذلك»؟.

ـ كلا، لم أسأله. لم أستطع أن أسأله، لقد خانتني شجاعتي، لكنني استنتجت ذلك، إذ لمحت هذا الاعتقاد في عينيه. حسناً وداعاً!.

ثم عادا إلى تبادل القبل مسرعين، وبينما كان أليوشا يهم بمغادرة الغرفة ناداه ميتيا قائلاً: «قف في صفي! حسناً»! وعاد فقبض على أليوشا ووضع يديه على كتفيه. وفجأة امتقع وجهه، حتى لقد بدا ذلك جلياً رغم الظلام. واختلجت شفتاه وثبتت عيناه في أليوشا.

وقال يخاطب أخاه بصوت فيه رنة اليأس: أليوشا، قل لي الحقيقة كلها وكأنك ماثل أمام الله. هل تعتقد بأنني اقترفت هذه الجريمة؟ هل تعتقد بذلك في دخيلة نفسك؟ أصدقني القول! وقل الحقيقة كاملة.

والتاث الأمر على أليوشا، وشعر بمثل الطعنة تخترق فؤاده، ثم قال بصوت خائر متلعثم: «أسكت! ماذا تقول»؟.

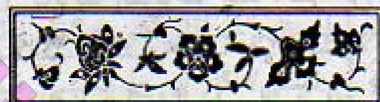
فعاد ميتيا إلى سؤاله: «أريد الحقيقة كاملة، لا تكذب علي»!.

وهنا قال أليوشا بصوت مرتجف رافعاً يده اليمنى إلى أعلى، وكأنه يحلف بالله: «إنني لا أعتقد لحظة واحدة بأنك قاتل»!.

عمّت السعادة ملامح ميتيا، ثم قال متمهلاً متنهداً كمن أفاق من الإغماء: «شكراً لك قد نفخت في روحاً جديدة. أتصدق، إنني كنت حتى هذه الدقيقة أخشى أن أطرح عليك هذا السؤال، حسناً إمض، لقد بثثت في قوة يهون عليها مكروه الغد. باركك الله! ثم ختم قائلاً: هلم إمض! أحب إيفان»!

خرج أليوشا من غرفة أخيه وهو يجهش بالبكاء، فإن مثل هذا الشك

بميتيا وعدم الثقة به حتى بالنسبة إليه، إلى أليوشا، قد كشفا له فجأة عن ذلك الغور السحيق الأكيد من الألم والشقاء واليأس الذي تردت فيه روح أخيه التعيس. فاستحوذت عليه عاطفة جياشة غير محدودة. وشعر بألم يقطع قلبه، واستعاد قول ميتيا له: «أحب إيفان». ولقد كان ذاهباً لزيارة إيفان؛ إنه كان طيلة يومه يتشوق له. فقد كان قلق البال بسبب إيفان تماماً كما هو بسبب ميتيا، وكان في تلك اللحظة يعاني من أعظم قلق واضطراب عرفه في حياته.



لست القاتل، لست القاتل!

عندما انطلق أليوشا إلى أخيه إيفان، كان مضطراً أن يمر من أمام منزل كاترينا إيفانوفنا. وقد أبصر النور منبعثاً من نوافذه. وفجأة وقف، وقرر أن يعرج عليها. ولم يكن قد رأى كاترينا إيفانوفنا منذ أكثر من أسبوع. إلا إنه خطر بباله الآن أن إيفان قد يكون هناك وخاصة في عشية ذلك اليوم الرهيب. وعندما قرع الجرس ثم صعد درجات السلم المضاءة بمصباح صيني خافت النور، أبصر رجلاً يهبط السلم. وعندما التقيا أدرك أنه أخوه. إنه يغادر الآن منزل كاترينا إيفانوفنا.

وقال إيفان بلهجة جافة: «آه، فهذا أنت، حسناً، طابت ليلتك! أأنت ذاهب إليها؟».

ـ نعم.

ـ إنني لا أنصحك بالذهاب إليها فهي مضطربة، وقد تضاعف اضطرابها. وسرعان ما فتح أحد الأبواب على مصراعيه. وسمعا صوتاً من أعلى السلم يقول بغتة: كلا، كلا! ألكسي فيودوروفيتش، أمن قبله آتٍ أنت؟

ـ نعم، لقد كنت معه.

ـ هل حملك إلي رسالة؟ إصعد إلي يا أليوشا، وأنت يا إيفان فيودوروفيتش يجب أن تعود، يجب أن تعود. أسمعت؟

كان كلامها ينم عن لهجة آمرة، حتى أن إيفان بعد أن تردد هنيهة قرر أن يعود مع أليوشا.

وتمتم غاضباً: «لقد كانت تسترق السمع». ولم يسمع أليوشا قوله. وحين كان يدخل غرفة الجلوس قال إيفان: معذرة لأنني لم أنزع معطفي، فأنا

لن أجلس سأمكث هنا دقيقة واحدة فقط. وتوجهت كاترينا إيفانوفنا إلى أليوشا بالقول وهي لا تزال واقفة: «اجلس يا ألكسي فيودوروفيتش». وقد لاحظ أليوشا عليها بعض التبدل. وكانت عيناها الدكناوان تومضان وميضاً قوياً. وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه، في تلك اللحظة، كان مأخوذاً بأناقتها.

ـ ماذا طلب منك أن تبلغني؟

فقال أليوشا وهو يحدق في وجهها: «إنه يطلب منك شيئاً واحداً فقط، وهو أن تحفظي نفسك فلا تقولي أثناء المحاكمة شيئاً مما (وهنا بدا مضطرباً قليلاً)... جرى بينكما... وقت تعارفكما الأول... في المدينة».

فقاطعته وهي تضحك ضحكة الألم: «آه، إنه يعني ألا أذكر كيف أنني انحنيت إلى الأرض طلباً للمال. لماذا، أهو خائف علي أم على نفسه؟ ومن يريدني أن أحفظ: نفسه أم نفسي؟ قل لي يا ألكسي فيودوروفيتش»!

وأخذ أليوشا يرقبها بعين متفحصة، وهو يحاول أن يفهم مغزى أقوالها. ثم قال بلهجة رقيقة: «كلاكما».

فقالت بلهجة ملؤها الحقد: «هذا يسرني». واحمر وجهها فجأة. ثم عادت تقول متوعدة: «إنك لا تعرفني بعد يا ألكسي فيودوروفيتش، وأنا لا أعرف نفسي بعد. وربما شعرت بالرغبة في أن تدوسني بقدمك بعد أن أنتهي من الإدلاء بأقوالي غداً».

فقال أليوشا: إنك ستلزمين جانب الشرف أثناء إدلائك بشهادتك وليس مطلوب منك سوى ذلك.

فأجابت: «إن النساء غالباً ما يتنكبن جادة الشرف. لقد كنت أفكر في أمره قبل ساعة واحدة، وشعرت بأنني أخاف لمس ذلك الوحش... وكأنه تنين... ولكن كلا، إنه لا يزال في نظري إنساناً»! اتجهت فجأة إلى إيفان وصاحت صياحاً هستيرياً: «ولكن هل أقدم على تلك الفعلة؟ هل هو القاتل»؟ وقد أدرك أليوشا تواً أنها وجهت إلى إيفان هذا السؤال قبل الآن، وربما كان ذلك قبل قدومه بزمن يسير، ليس مرة واحدة بل مائة مرة، وأنهما أنهيا حديثهما بالمشاجرة.

ومضت تقول وهي ما تزال موجهة كلامها إلى إيفان: لقد ذهبت لزيارة

سميردياكوف... وأنت، أنت أقنعتني بأنه هو الذي قتل أباه. وكنت أنت الإنسان الوحيد الذي صدقته! وقابل إيفان هذه الكلمات بابتسامة مغتصبة. وأجفل أليوشا من لهجتها، فلم يكن يتوقع أن تكون بينهما مثل تلك الدالة.

أراد إيفان وضع حد للمجادلة، فقال: «حسناً إن هذا يكفي على كل حال. إنني ذاهب، وسآتي غداً. ثم دار على عقبيه تواً وخرج من الغرفة ثم هبط السلم. والتفتت كاترينا إيفانوفنا إلى أليوشا بحركة سريعة ثم قبضت عليه بكلتا يديها وقالت له هامسة: «إتبعه! إلحق به! لا تتركه وحده دقيقة واحدة! إنه مجنون! ألا تعلم أنه مجنون؟ إنه محموم، إن به حمى عصبية. إن الطبيب أخبرني بذلك. إذهب، إركض خلفه...».

فقفز أليوشا فجأة واقفاً ثم عدا خلف إيفان الذي كان يسبقه بخمسين خطوة.

فلما رأى إيفان أليوشا يعدو خلفه، التفت إليه بسرعة وقال له: «ماذا تريد»؟ وأضاف بانزعاج: لقد طلبت منك أن تمسك بي لأني مجنون، إنني أعرف كل هذا عن ظهر قلب.

فقال أليوشا: «إنها مخطئة طبعاً، لكنها مصيبة بقولها، إنك مريض. لقد كنت أنظر إلى وجهك في التو واللحظة. وأنت تبدو معتل الصحة إلى حد بعيد يا إيفان».

وتابع إيفان سيره دون أن يقف، وتابع أليوشا اللحاق به. وفجأة قال إيفان يسائل أخاه بلهجة هادئة لم يكن فيها أثر للإنزعاج، بل شيء من الفضول: «وهل تعلم يا ألكسي فيودوروفيتش كيف يفقد الناس عقولهم»؟.

- كلا، لا أعلم. أظن أن هناك أنواعاً كثيرة من الجنون.

- وهل يستطيع الإنسان أن يدرك جنونه بذاته؟.

فأجابه أليوشا مستغرباً: «يخيل إلي أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه بوضوح في مثل هذه الأحوال».

وسكت إيفان هنيهة، وفجأة قال: إذا كنت تودّ محادثتي، فأرجو ألاّ تكون حول هذا الموضوع.

فقال أليوشا متردداً: آه، سأنفذ ذلك فعليّ تسليمك رسالة. وأخرج رسالة

ليزا من جيبه ومد يده بها نحو إيفان. ووصلا في تلك اللحظة إلى أحد مصابيح الشارع. وقد استبان إيفان الخط وعرف فوراً من كتبه.

ثم ضحك ضحكة تعكس الحقد وقال: «آه، إنها من تلك الشيطانة الصغيرة»! ثم أنه أمسك بالرسالة ومزقها إرباً إرباً بدون أن يفض غلافها وقذف بها في الهواء، فتبعثرت قطعها في ثنايا الريح.

وقال إيفان بازدراء، وهو يستأنف مسيره: إنها لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد، كما أعتقد، وهي تعرض نفسها.

فهتف أليوشا قائلاً: «ماذا تعني بقولك إنها تعرض نفسها»؟.

- كما تعرض النسوة المستهترات أنفسهن، ويمكنك الوثوق بكلامي.

فصاح أليوشا بصوت فيه رنة الحزن: كيف تستطيع يا إيفان، كيف تستطيع أن تقول عنها هذا القول؟ إنها طفلة، إنك تهين طفلة! وهي عليلة، واستبدت بها العلة أيضاً. وربما كانت على أبواب الجنون... لقد كنت آمل أن تقول شيئاً يساهم في إنقاذها.

- إنك لن تسمع مني شيئاً. فإذا كانت هذه الفتاة طفلة فلست مربيتها. إهدأ يا ألكسي. لا تحم حولها. إنني لا أفكر فيها مطلقاً.

وعادا إلى الصمت برهة.

ثم قال إيفان بلهجة حادة غاضبة: «إنها ستقضي ليلتها تصلي إلى السيدة العذراء تستلهمها ما ينبغي لها أن تفعله غداً في المحاكمة».

- إنك... تعني كاترينا إيفانوفنا؟

- نعم، إنها حائرة بين تدميره أو إنقاذه. إنها ستصلي طالبة الهداية من السماء. فهي لا تستطيع أن تبت من نفسها. ولم يكن لديها الوقت الكافي لاتخاذ القرار. وهي أيضاً تظنني ممرضة لها، وتريد أن أناغيها وأهدهدها.

فقال أليوشا مبتسماً: «إن كاترينا إيفانوفنا تحبك يا أخي».

- ربما صح هذا، غير أنني لا أهتم بها اهتماماً عظيماً.

فأجابه أليوشا وهو يلومه لوماً هادئاً: «إنها تشقى، لماذا تقول لها... أحياناً أشياء تملأ نفسها أملاً»؟ وأضاف بقول: «إنني أعلم بأنك أشبعتها أملاً.

إصفح عني لانني اقول لك مثل هذا القول».

فقال إيفان بانزعاج: إنني لا أستطيع أن أتصرف كما ينبغي لي، أن أقاطعها نهائياً. وأصارحها بذلك. يجب أن أنتظر حتى يصدر الحكم على القاتل. وإذا خاصمتها الآن انتقمت مني بجر الخراب على ذلك النذل غداً أثناء المحاكمة، فهي تكرهه وأنت تعلم ذلك. إنها كلها كذبة، كذبة يعلوها كذبة! ولكن ستظل تأمل، طالما لم تنقطع بيننا الشعرة الأخيرة. ولن تجر الخراب على ذلك الوحش، إذ تدرك مبلغ رغبتي في خلاصه من مشكلته. فليصدر ذلك الحكم اللعين وننتهي.

وقد أحدثت كلمتا «القاتل» و «الوحش» أثراً مؤلماً في قلب أليوشا. فسأل أخاه وهو يزن كلماته: «ولكن كيف تستطيع أن تجر الخراب على ميتيا؟ وما هي الشهادة التي تستطيع بواسطتها أن تقضي عليه»؟.

- إنك تجهل هذا حتى الآن. إنها تملك وثيقة بخط ميتيا تثبت أنه اغتال فيودور بافلوفيتش.

فصاح أليوشا: مستحيل هذا.

- ولماذا يكون مستحيلاً؟ لقد قرأتها بنفسي.

فعاد أليوشا إلى القول باهتمام: «لا يمكن أن تكون وثيقة كهذه موجودة! لا يمكن، لأنه ليس القاتل. إنه لم يقتل أباه. ليس هو القاتل. وعندها توقف إيفان عن المسير بغتة، وسأل أخاه بفتور ظاهر: إذا صدق قولك فمن هو القاتل إذن؟. قال ذلك بلهجة الاستغراب. فقال أليوشا بصوت خافت ثابت: «إنك تعرف من».

- من؟ أتعني تلك الخرافة المتاقلة عن ذلك الأبله المعتوه، سميردياكوف المصروع؟.

وفجأة شعر اليوشا برجفة تعم كيانه، ثم قال وقد تداعى، وأخذ نفسه يتردد بصعوبة: «إنك تعلم من».

فصاح إيفان محتداً: «من؟ من؟» وفجأة أصبح غير متحفظ تماماً.

ومضى أليوشا يقول بصوت يكاد يكون همسا: «إنني اعلم شيئا واحدا، وهو أنك لست القاتل». فقال إيفان مصعوقاً: «لست القاتل!» ماذا يعني قولك هذا؟».

فأعاد أليوشا قوله بلهجة ثابتة: «لم تكن أنت القاتل أبيك، لست القاتل!».

وخيم صمت نصف دقيقة.

ثم قال إيفان وهو يغتصب ابتسامة خفيفة، وقد ثبت عينيه في أليوشا: إني أعلم بأنني لم أقتله، هل تهذي في أقوالك؟ وكانا في هذه اللحظة يقفان تحت مصابيح الشارع.

- كلا يا إيفان، لقد قلت في سرك مرات كثيرة إنك أنت القاتل.

فقال إيفان متلعثماً وقد سدت في وجهه السبل: «متى قلت ذلك؟ لقد كنت في موسكو... متى قلت ذلك»؟.

وتابع أليوشا يقول بذات اللهجة الرقيقة الواضحة: «لقد قلت هذا القول في سرك عدة مرات في وحدتك طيلة هذين الشهرين الرهيبين». وكان يتحدث الآن، وكأنه لا يطيع هواه في الكلام بل كأنه كان يطيع أمراً لا يقوى على رفضه. وأردف يقول: «لقد اتهمت نفسك واعترفت في سرك بأنك أنت القاتل ولا أحد سواك. ولكنك لم تفعلها: إنك مخطىء: لست القاتل. هل تسمعني؟ لم تكن أنت القاتل! لقد أرسلني الله كي أقول لك هذا».

وصمت الإثنان. وظلا صامتين دقيقة كاملة وهما يقفان ثابتين، وأبصارهما متلاقية؛ وقد امتقع وجهاهما وفجأة عرت إيفان هزة. وقبض على كتف أليوشا.

ثم همس بصوت أجش: لقد كنت في غرفتي! لقد كنت فيها ليلاً عندما أتى... إعترف... هل رأيته، هل رأيته؟ فسأله أليوشا حائراً: «أتقصد ميتيا»؟.

فصاح إيفان منفعلاً: «ليس هو، تباً للوحش! هل تعلم أنه يزورني؟ كيف

علمت ذلك؟ تكلم»!.

فقال أليوشا متلعثماً، وقد تغلغل الخوف إلى وجهه: «من تعني؟ إنني لا أعلم من تقصد بكلامك».

ـ بلى، إنك تعلم... وإلا فكيف...؟ من المستحيل ألا تكون عالماً به.

وفجأة بدا عليه كأنه يحاول كبح جماح نفسه فوقف ثابتاً يغلب على مظهره التأمل. وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.

فعاد أليوشا إلى القول بصوت مرتجف: أخي، لقد قلت لك هذا القول لأنك ستصدق أقوالي، وأنا أعلم ذلك. إنني أقول لك هذا جازماً، لم تكن أنت القاتل. هل تسمع، إنني أقطع بذلك! لقد أوحى لي الله أن أقول لك هذا، ولو سبّب هذا أن تكرهني منذ الآن.

وكان إيفان في هذه اللحظة قد أخذ يسترد ثقته بنفسه. وقال وهو يبتسم ابتسامة فاترة: «ألكسي فيودوروفيتش، إنني لا أحتمل المتنبئين والمصروعين ـ وخاصة تلك الرسائل من الله ـ وأنت تعلم هذا علم اليقين. إنني الآن أقطع كافة علاقاتي بك، وربما إلى الأبد. أرجوك أن تفارقني عند هذا المنعطف، فهو يؤدي إلى مسكنك، والأفضل ألا تعود لزيارتي في هذا اليوم بوجه خاص! فهل تسمعني»؟.

ثم دار ومضى في طريقه بخطوات ثابتة دون أن يلتفت إلى الخلف.

فصاح أليوشا يناديه: «أخي، إذا تعرضت اليوم إلى مكروه ما، فتعال إلي قبل أي إنسان آخر»!.

لم يجب إيفان. ووقف أليوشا تحت المصباح عند مفترق الطرق، وظل واقفاً حتى غاب إيفان عن ناظريه في قلب الظلمة. وعندها دار وانطلق بخطى وئيدة نحو مسكنه. وقد كان أليوشا وإيفان يسكنان في منزلين مأجورين. فلم يكن أي واحد منهما ميالاً إلى السكن في منزل فيودور بافلوفيتش الخاوي. وكان أليوشا يسكن غرفة مفروشة لدى جماعة من الطبقة العاملة. وكان إيفان يسكن في منزل يبعد عن منزله. فقد استأجر نزلاً فسيحاً حسن الأثاث تابعاً لمنزل جميل تسكنه سيدة غنية، وكانت أرملة موظف حكومي. وكانت

تخدمه عجوز صماء تشكو آلام الروماتيزم، وكانت قد تعودت أن تأوي إلى فراشها في الساعة السادسة من مساء كل يوم، وتنهض منه في الساعة السادسة صباحاً. وكان إيفان قد أخذ في الآونة الأخيرة يبدي عزوفاً غير عادي عن وسائل الراحة،وكان به غرام بالوحدة. وكان يقوم بقضاء كافة أموره في غرفته، وقلما دخل إلى غرفة ثانية من غرف المنزل.

ولقد بلغ باب المنزل وهمّ بقرع الجرس، ولكنه تراجع فجأة وشعر بأنه كان يرتجف لشدة غضبه فأنزل يده عن الجرس. واستدار لاعناً، ثم انطلق في الاتجاه الآخر بخطى سريعة. سار ميلاً ونصف الميل قاصداً منزلاً خشبياً بل كوخاً صغيراً متداعي الجوانب كانت تسكنه ماريا كوندراتييفنا، وهي الجارة التي كانت تأتي إلى مطبخ فيودور بافلوفيتش في طلب الحساء، والتي غنى لها سميردياكوف أغانيه وعزف لها على قيثارته ذات مرة. وكانت قد أتت لتسكن هنا مع أمها بعد أن باعت منزلها الصغير. وكان سميردياكوف المريض، المشرف على الموت، قد لازمها منذ وفاة فيودور بافلوفيتش. كان إيفان يتعجل الوصول، مدفوعاً إلى ذلك بدافع لا يقوى عليه.



المقابلة الأولى مع سميردياكوف

هذه هي المرة الثالثة التي يقوم فيها إيفان بزيارة سميردياكوف منذ أن عاد من موسكو. أما المرة الأولى التي رآه وتحدث إليه فيها، فقد جاءت يوم وصوله، ثم زاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين. ثم انقطع عنه فترة شهر كامل، وقل أن سمع عنه شيئاً بعد ذلك.

وكان إيفان قد عاد من موسكو بعد وفاة أبيه بخمسة أيام، ولذلك فلم يشارك بتشييع جثمانه الذي سبق عودته بيوم واحد. وكان سبب تأخره هو أنه كان على أليوشا، الذي لم يكن يعرف عنوانه في موسكو، أن يطلب من كاترينا إيفانوفنا أن تبرق إليه. وكانت هي أيضاً لا تعرفه فاضطرت إلى الإبراق إلى أختها وخالتها، وهي ترجح أن إيفان سيزورها حال وصوله إلى موسكو. غير أنه لم يزرهما إلا بعد انقضاء أربعة أيام، وعندما تسلم الرسالة أسرع في العودة إلى مدينتنا. وكان أليوشا أول من لقيه، وكانت دهشة إيفان عظيمة عندما أدرك أن أخاه لم يكن يشك في براءة ميتيا قط، بل كان يجهر بأن سميردياكوف هو القاتل. وهو خلاف ما كان يتناقله الناس في المدينة. وبعد أن اجتمع بضابط الشرطة والمدعي العام واطلع على تفاصيل التهمة وظروف الاعتقال، ازدادت دهشته من رأي أليوشا، واعتبره وليد مشاعر الأخوة المجسمة وعطفه على ميتيا، الذي كان أليوشا يكن له الحب العظيم، وإيفان نفسه كان يعرف هذه الحقيقة.

وما دمنا في هذا المجال فلنقل كلمة أو كلمتين عن المشاعر التي كان يضمرها إيفان لأخيه ديمتري. فلقد كان يكرهه كرهاً لا ريب فيه في معظم الأحيان، وإذا كان أحياناً يشعر بشيء من العاطفة، فإنها كانت مشوبة بالازدراء حتى يكاد يبلغ حد النفور. وكانت شخصية ميتيا كلها بل ومظهره

مدعاة لنفوره. وكان ينظر بعين الاحتقار إلى حب كاترينا إيفانوفنا لأخيه. ومع ذلك فقد ذهب لزيارة ميتيا في اليوم الأول لوصوله، ولم تثن هذه الزيارة إيفان عن اعتقاده بارتكاب أخيه الجريمة بل إنها زادته قوة. وقد وجد أخاه عظيم الانفعال والاضطراب. وكان ميتيا كثير الكلام، ولكنه كان ذاهلاً، يقول كلاماً مفككاً. وكان يعنف في أقواله، ويكيل التهم لسميردياكوف، وكان مشتت الحواس إلى حد مخيف. وقد كان حديثه يدور بصورة رئيسية حول الثلاثة الآلاف روبل التي قال أن أباه «سرقها» منه.

وكان ميتيا لا يفتأ يردد: لقد كان المال مالي، لقد كان مالي. ولو كنت سرقته فعلاً فلي ملء الحق في ذلك».

وقلما كان يحاول أن يدحض الدليل القائم ضده، فإذا حاول تبيان حقيقة ما دعماً لموقفه، جاءت محاولته سخيفة مضطربة. ولم يكن يبدو عليه أنه راغب في الدفاع عن نفسه أمام إيفان أو أي إنسان غيره. بل على نقيض ذلك فإنه كان غاضباً ساخراً بشدة من التهم الموجهة إليه؛ وغالباً هو منفعل يكيل الشتائم لجميع الناس. وكان يضحك استخفافاً من الشهادة التي أدلى بها العجوز غريغوري عن الباب المفتوح وقال عنه «إن الشيطان هو الذي فتحه». غير أنه لم يستطع أن يأتي بتفسير معقول لهذه الحقيقة. بل أنه نجح في توجيه الإهانة لإيفان خلال مقابلتهما الأولى، فقد قال له إن الذين أعلنوا «أن كل شيء حلال» ليس من حقهم أن يشكوا فيه ويستجوبوه. وكان سلوكه مع إيفان في تلك المناسبة أبعد ما يكون عن الود. وقد ذهب إيفان بعد تلك المقابلة مباشرة ليقوم بأولى زياراته لسميردياكوف.

ولقد كان أثناء سفره بالسكة الحديدية من موسكو؛ كثير التفكير بسميردياكوف وبمحادثته الأخيرة معه عشية سفره من المدينة. وكانت أمور عديدة تدفعه إلى الشك والحيرة. ولكنه عندما أدلى بإفادته أمام المحقق تجاهل هذه المحادثة تماماً، فقد فضل أن يؤجل ذلك ريثما يرى سميردياكوف، الذي كان أدخل آنذاك المستشفى.

وقد استفهم إيفان عن حال سميردياكوف من الدكتور هرتسنشتوبي والدكتور فارفينسكي الذي قابله في المستشفى فأجاباه عن اسئلته بتأكيد لا

يرقى إليه الشك، أن نوبات الصرع التي أصابت سميردياكوف كانت نوبات حقيقية مائة بالمائة بل إن دهشتهما كانت عظيمة من سؤال إيفان لهما عن مدى صدق تظاهره بالصرع في اليوم الذي حدثت فيه الكارثة. وقد أفهماه أن وطأة المرض كانت غير عادية في شدتها وأن النوبات كانت تتاوتر عليه مما جعل حياته في خطر، وأنهما لم يكن يوسعهما التثبت من أن المريض سيظل في قيد الحياة إلا بعد أن عالجاه بالأدوية والعقاقير. وقد أضاف الدكتور هرتسنشتوبي إلى ذلك قوله: «إنه ربما ظل يعاني اضطراباً في عقله ردحاً من الزمن، إن لم يكن إلى آخر أيامه». وعندما سألهما إيفان وهو نافد الصبر عما إذا كان كلامهما يعني جنونه، أجاباه بأن الأمر لم يكن كذلك بكل ما في هذه الكلمة من معنى، إلا أن بوادر أمور شاذة في عقله أخذت تظهر. وقد قرر إيفان أن يتثبت من هذه الأمور الشاذة بنفسه.

وفي المستشفى، سمح له بالدخول على المريض تواً. وكان سميردياكوف مضطجعاً على سرير ذي عجلات في فناء مستقل عن غيره. ولم يكن في هذا الفناء سوى سرير ثان يشغله أحد تجار المدينة وقد تورم جسمه لكثرة ما فيه من خراجات. وكان مشرفاً على الموت، ولذلك فهو لم يشكل عقبة في تحادثهما. وعندما رأى سميردياكوف إيفان ضحك له ضحكة ظهر فيها الاضطراب وبدا عليه الانفعال منذ اللحظة الأولى، وربما استل إيفان هذه الصورة من مخيلته. غير أن ذلك الانفعال لم يدم إلا هنيهة، إذ أنه ظل في الوقت المتبقي من الزيارة يعجب من تمالك سميردياكوف أعصابه. ولم يشك إيفان منذ اللحظة الأولى في أن العلة قد اشتدت عليه. وقد كان خائر القوى، متمهلاً في حديثه، ويبدو أن لسانه قد ثقل في فمه، وكان هزيل الجسم ناحله. إنه طيلة المقابلة التي دامت عشرين دقيقة كان يشكو صداعاً وألماً في أطرافه. وبدا صغير الوجه معروقاً، مشعث الشعر مع انتصاب بعض خصلاته إلى الإمام. أما عينه اليسرى التي كانت مشدودة إلى أعلى وكأنها تحاول إدراك شيء مخبوء، فلم يتغير شيء منها. إن نظرة سميردياكوف هذه، ذكرت إيفان بعبارة: «من المفيد دوماً محادثة الأذكياء». وقد جلس على مقعد عند قدمي سميردياكوف الذي تحامل على نفسه وبذل جهداً مضنياً لتبديل

ضجعته على السرير، ولكنه لم يكن البادىء في الحديث، بل ظل صامتاً، مبدياً عدم الاهتمام.

وسأله إيفان قائلاً: «هل بوسعك محادثتي، إنني لن أثقل عليك كثيراً»؟.

فأجابه سميردياكوف بصوت خافت: «إنني أستطيع ذلك طبعاً». ثم أضاف، متودداً وكأنه يريد أن يمتص اضطراب زائره: «هل وصلت منذ زمن بعيد يا صاحب السعادة»؟.

ـ لقد وصلت اليوم كي أتحقق من هذا الاضطراب الذي يسودكم.

وتأوه سميردياكوف.

فاندفع إيفان يقول: «لماذا تتأوه؟ فأنت تعرف كل شيء»؟.

وأخلد سميردياكوف إلى الصمت المطبق هنيهة، ثم قال: «وكيف يمكن إلا أن أعرفه فلقد كان جلياً من قبل. ولكن أنى لي القدرة على التكهن بأن الأمور ستجري على النحو الذي جرت عليه»؟.

ـ أي نحو؟ لا تجعل أقوالك قابلة للتأويل! لقد تكهنت بأن نوبة صرع ستفاجئك وأنت تهبط السرداب، لقد حددت المكان.

فسأله سميردياكوف بثقة: «هل قلت هذا أثناء التحقيق معك»؟.

وفجأة شهر إيفان بالغضب ثم قال: «كلا لم أقله بعد، ولكنني لا شك مطلعهم عليه. عليك أن توضح لي أشياء كثيرة أيها الرجل، ولأقل لك أنني لن أدعك تتلاعب بي».

فقال سميردياكوف وهو لا يزال يبدي رباطة الجأش، ولو أنه أغمض عينيه برهة من الزمن: «ولماذا أتلاعب بك، طالما وثقت بك ثقتي بالله»؟

فأجابه إيفان قائلاً: «في البدء إنني أعلم أن نوبات الصرع لا يمكن التنبوء بها. لقد استفهمت عن ذلك فلا تحاول خداعي. فأنت لا تستطيع أن تتنبأ باليوم، وبالساعة، فكيف حددت لي الساعة واليوم، فضلاً عن السرداب أيضاً؟ كيف استطعت أن تعلم بأنك ستقع على درجات السرداب في نوبة من الصرع، ما لم تكن تتظاهر بهذه النوبة»؟.

جذب سميردياكوف فكه قائلاً بلهجة نابية: إن واجبي يستدعي أن

أهبط درجات السرداب عدة مرات في كل يوم، ولقد وقعت عن درجات غرفة السطح بنفس الطريقة منذ عام. وصحيح أن الإنسان لا يستطيع التنبؤ باليوم والساعة التي يصاب فيها بنوبة الصرع، ولكن الشعور بها مقدماً ممكن.

- ولكنك تنبأت باليوم والساعة.

- سيدي فيما يتعلق بمرضي بالصرع الأفضل أن تسأل أطبائي في المستشفى، سلهم عما إذا كانت النوبة التي أصابتني نوبة صحيحة أم مفتعلة، فمن نافل القول الزيادة على هذا.

- والسرداب؟ كيف استطعت التنبؤ بأنك ستقع في السرداب؟

- يبدو أنك لا تستطيع أن تصرف ذهنك عن السرداب! عندما كنت أهبط درجات السرداب؛ كنت أشعر بفزع رهيب وشك مخيف. وكان أشد ما أفزعني هو أنني فقدت بغيابك السند الوحيد الذي يدفع عني السوء. ولذلك فقد هبطت درجات السلم وأنا أفكر قائلاً: «إنها ستصيبني الآن، إنها ستصرعني لتوي، فهل أسقط؟» وقد كان الخوف هو الذي أحدث فجأة في نفسي التشنجات التي تصيبني دوماً... وهكذا سقطت مغشياً علي. ولا شك بأن في نفسي أثراً ما تركه حديثي السابق معك عند الباب عشية سفرك، عندما أنبأتك بمقدار خوفي وذكرت لك السرداب. لقد نقلت كل هذا إلى الدكتور هرتسنشتوبي والى نيكولاي بارفينوفيتش المحقق فدونت جميع أقوالي في المحضر. وقد أكد طبيب المستشفى السيد فارفينسكي لهم جميعاً أن التفكير في النوبة وخوفي كانا سبب حدوثها. ولقد انتابني الصرع في تلك اللحظة، وهكذا فقد دونوا أقوالي، ولا بد أن يكون هذا هو السبب في مجيئها، أي خوفي منها.

أنهى سميردياكوف كلامه، فشهق شهقة عظيمة كمن خارت قواه. فقال إيفان وهو يكاد يجفل: «إذن فقد أدليت بكل هذه الأمور، في إفادتك»؟ ولقد كان يهدف إلى تخويفه فيهدده بإعادة ما دار بينهما من حديث، ولكن تبين له أن سميردياكوف قد ذكر كل شيء بنفسه.

وقال سميردياكوف بلهجة حازمة: «وماذا يخيفني؟ ليدونوا الحقيقة كلها».

- وهل ذكرت لهم كل ما دار بيننا عند الباب.

- كلا، لم أذكر كل شيء.

- وهل أنبأتهم بقدرتك على اصطناع النوبات كما تبجحت آنذاك؟.

- كلا لم أنبئهم بذلك.

- والآن قل لي، لماذا طلبت مني عندها أن أسافر إلى تشيرماشنيا؟

- لقد كنت أخشى أن تسافر إلى موسكو، إذ الأقرب إلينا هي تشيرماشنيا.

- إنك تكذب، لقد اقترحت علي الابتعاد بنفسك، ولقد قلت لي أن أبتعد عن مواطن المتاعب.

- إن هذا سببه حبي لك وتعلقي العظيم بك، فلقد أردت أن أكفيك مؤونة العناء بعد أن ظهرت بوادره. ولقد كنت أبغي أن أوفر على نفسي أنا أيضاً مؤونة العناء أكثر منك، وكان هذا هو سبب طلبي إليك أن تبتعد عن المتاعب، لكي تدرك أن مصيبة توشك أن تحل بالبيت فتبقى لكي تحمي أباك.

فقال إيفان غاضباً: لقد كنت تستطيع أن تصرح بطريقة واضحة أيها الغبي.

- كيف كنت أستطيع أن أقول ذلك بمزيد من الصراحة آنذاك. لقد كان دافعي إلى الكلام هو الخوف، وربما كان بالإمكان أن أغضبك، وقد كان من حقي الظن بأن ميتيا سيثير شغباً فيسرق النقود لأنه يعدها نقوده، ولكن من كان يخطر بباله أن الأمر سينتهي بجريمة قتل؟ لقد كنت أظن بأنه سيكتفي بأخذ الثلاثة الآلاف روبل الموضوعة تحت مفرش سيدي في الظرف، إنك أنت الآن ترى أنه قتله، فكيف كان بإمكانك أن تتنبأ بهذا يا سيدي؟

فقال إيفان متعجباً: ولكن طالماً أنك نفسك تقول أن ذلك مما لا يمكن التكهن به فكيف كان بإمكاني أن أتكهن به وأبقى في المنزل؟ إنك تناقض نفسك بنفسك!.

- لقد كان بإمكانك أن تتكهن به لأنني طلبت إليك السفر إلى

- وهل ذكرت لهم كل ما دار بيننا عند الباب.

- كلا، لم أذكر كل شيء.

- وهل أنبأتهم بقدرتك على اصطناع النوبات كما تبجحت آنذاك؟.

- كلا لم أنبئهم بذلك.

- والآن قل لي، لماذا طلبت مني عندها أن أسافر إلى تشيرماشنيا؟

- لقد كنت أخشى أن تسافر إلى موسكو، إذ الأقرب إلينا هي تشيرماشنيا.

- إنك تكذب، لقد اقترحت علي الابتعاد بنفسك، ولقد قلت لي أن أبتعد عن مواطن المتاعب.

- إن هذا سببه حبي لك وتعلقي العظيم بك، فلقد أردت أن أكفيك مؤونة العناء بعد أن ظهرت بوادره. ولقد كنت أبغي أن أوفر على نفسي أنا أيضاً مؤونة العناء أكثر منك، وكان هذا هو سبب طلبي إليك أن تبتعد عن المتاعب، لكي تدرك أن مصيبة توشك أن تحل بالبيت فتبقى لكي تحمي أباك.

فقال إيفان غاضباً: لقد كنت تستطيع أن تصرح بطريقة واضحة أيها الغبي.

- كيف كنت أستطيع أن أقول ذلك بمزيد من الصراحة آنذاك. لقد كان دافعي إلى الكلام هو الخوف، وربما كان بالإمكان أن أغضبك، وقد كان من حقي الظن بأن ميتيا سيثير شغباً فيسرق النقود لأنه يعدها نقوده، ولكن من كان يخطر بباله أن الأمر سينتهي بجريمة قتل؟ لقد كنت أظن بأنه سيكتفي بأخذ الثلاثة الآلاف روبل الموضوعة تحت مفرش سيدي في الظرف، إنك أنت الآن ترى أنه قتله، فكيف كان بإمكانك أن تتنبأ بهذا يا سيدي؟

فقال إيفان متعجباً: ولكن طالماً أنك نفسك تقول أن ذلك مما لا يمكن التكهن به فكيف كان بإمكاني أن أتكهن به وأبقى في المنزل؟ إنك تناقض نفسك بنفسك!.

- لقد كان بإمكانك أن تتكهن به لأنني طلبت إليك السفر إلى

تشيرماشنيا بدلاً من موسكو.

ـ وكيف ذلك.

وبدا التعب على سميردياكوف فصمت هنيهة ثم استأنف: «لقد كان بإمكانك أن تتكهن بذلك من طلبي إليك ألا تذهب إلى موسكو بل إلى تشيرماشنيا؛ وما ذلك إلاَّ لرغبتي في أن تظل قريباً مني، لأن موسكو بعيدة. ولو علم ديمتري فيودوروفيتش أنك لست في مكان قصي، لما تجرأ على ارتكاب فعلته. وإذا وقع الأسوأ، عدت إلي كي تحميني أنا أيضاً، لأنني لفتّك إلى مرض غريغوري فاسيلييفيتش، وإلى أنني خائف من تعرضي للنوبة. وعندما أوضحت لك سر الطرقات التي يستطيع المرء أن يدخل بواسطتها غرفة المتوفى، وقلت لك أن ديمتري فيودوروفيتش قد علم بأمرها مني، ظننت بأنك ستتكهن بما سيقترفه، فتعدل عن السفر كلياً حتى إلى تشيرماشنيا.

فقال إيفان في سره: «إنه يتحدث حديثاً معقولاً، لولا أنه لا يوضح مخارج حروفه، فأين ذلك الاضطراب في ملكته الذي حدثني عنه هرتسنشتوبي»؟

ثم قال يخاطب سميردياكوف غاضباً: إنك ماكر فسحقاً لك.

فقال سميردياكوف ببساطة: لقد ظننت آنذاك بأنك قد فهمت كل شيء.

فصاح به إيفان قائلاً: «لو فهمته لبقيت».

ـ ولقد ظننت بأن فهمك له هو الذي عجّل ذهابك لكي تنجو بنفسك من المشاكل، لكي تفر وتنجو بجلدك في غمرة تسرعك.

ـ وهل تظن بأن جميع الناس جبناء مثلك.

ـ سامحني، لقد ظننتك مثلي.

فقال إيفان مضطرباً: «لقد كان علي طبعاً أن أتكهن فتكهنت فعلاً بأن شيئاً شريراً يدور في خلدك... إنك تكذب، لقد عدت تكذب. وفجأة صاح كمن ذكر شيئاً: هل تذكر ما قلته لي وأنت تقفز إلى العربة «من المفيد دوماً محادثة الأذكياء»؟ إذن فقد كنت مسروراً بذهابي طالما أنك أطريتني»؟.

وتنهد سميردياكوف واختلف لونه، ثم قال مبهوراً: «إذا كنت حقاً سررت فلأنك فقط وافقت على تغيير وجهتك من موسكو إلى تشيرماشنيا، لأنها أقرب على كل حال. أما عن تلك الكلمات، فلم تكن إطراء لك بل لوماً، ولكنك لم تفهم قصدي».

- وأي لوم؟.

- لأنك بعد أن أدركت المصيبة التي توشك أن تحل بأبيك، تركته ولم تشأ أن تبقى لكي تحمينا، إذ أن اتهامي كان ممكناً في أي وقت بسرقة الثلاثة الآلاف روبل.

فعاد إيفان إلى القول لاعناً: تباً لك، ألا قل لي هل قصصت على المدعي العام والمحقق قصة تلك القرعات؟.

- لقد قصصت عليهم كل شيء كما حدث تماماً.

وعادت الدهشة فاستحوذت على إيفان. ثم قال: «لو أن خاطراً ما خطر ببالي في تلك اللحظة، فإنه لن يكون سوى أنك ستقترف إثماً. فلو جاز الظن بأن ديمتري فيودوروفيتش سيقتله، فإنه لن يكون كذلك بالنسبة للسرقة إلا أنني كنت أتوقع منك كل شر. لقد أخبرتني بنفسك أنك تستطيع التظاهر بوقوعك في نوبة من نوبات الصرع، فلم قلت هذا؟

- إنني لم أتظاهر بذلك طيلة حياتي بدافع من بساطة. ولقد قلت لك ذلك آنذاك من قبيل التبجح، لقد كان الأمر مجرد حماقة. لقد أحببتك حباً جماً وكنت صريحاً معك.

- إن أخي يتهمك بالقتل والسرقة.

فقال سميردياكوف ضاحكاً بسخرية: وماذا بقي له أن يفعل؟ ومن يصدقه مع كل هذه البراهين القائمة ضده؟ لقد رأى غريغوري فاسيليفيتش الباب مفتوحاً. فماذا يستطيع أن يقول بعد هذا؟ ولكن دعنا منه! إنه يرتعد فرقاً ويبغي إنقاذ حياته.

وسكت متمهلاً ليعود فيقول فجأة وكأنه يزن كلماته: «ولا تنسين أيضاً أنه يريد أن يلقي عبء الجريمة على عاتقي ويوهم الناس أنها من صنع يدي. لقد بلغني ذلك. أما فيما يتعلق بمهارتي وقدرتي في تصنع نوبات الصرع،

فهل كان من المعقول أن أطلعك سلفاً على قدرتي، لو كنت حقاً أضمر لأبيك تلك النهاية؟ ولو كنت فعلاً أنوي قتله فهل تبلغ حماقتي أن أقيم الدليل على نفسي سلفاً؟ ولمن؟ لابنه. أستحلفك بالله هل هذا معقول؟ إن حديثنا الآن لا يسمعه سوى الله، فإذا فكرت بأن تذكر هذا أمام المدعي العام نيكولاي بارفينوفيتش، فإنك ستهيء لي بذلك أسباب الدفاع، إذ أي مجرم هذا الذي يفتح قلبه سلفاً؟ إن كل إنسان يستطيع أن يدرك ذلك».

فنهض إيفان من مجلسه بغية إنهاء الحديث إذ وجد حجة سميردياكوف الأخيرة مقنعة وقال: «حسناً، إنني لا أشك فيك إبداً. وأظن أن من السخافة أن أشك فيك. فأنا، بالعكس أشكرك لأنك قد أرحت خاطري. والآن، أنا ماض، ولكنني سأعود إليك، أستودعك الله إلى حين، وأتمنى لك الشفاء، أتريد شيئاً»؟.

- إنني شاكر لك كل شيء، إن مارفا ايغناتييفنا لا تنساني بل تؤمن لي كل ما أطلبه حسب ما توحي به إليها رأفتها. إن أولئك الأخيار يزورونني كل يوم.

وفجأة أحس إيفان بشيء يدفعه إلى قول هذه العبارة: وداعاً، إنني لن أذكر شيئاً عن قدرتك على تصنع النوبات، وأنصحك بألا تذكر شيئاً عنها.

- إنني أفهم ما تعني. وإذا لم تقل شيئاً عن هذا الأمر، فلن أذكر الحديث الذي دار بيننا عند الباب.

وعندما خرج إيفان، وسار في الممر بضع عشرة خطوة استعاد كلمات سميردياكوف الأخيرة، وشعر بأنها تنطوي على إهانة ما. وقد كاد يعود إليه، ولكن شعوره ذلك لم يكن أكثر من شيء عابر. وخرج من المستشفى وهو يتمتم قائلاً: «لغو فارغ»!.

كان الشعور الأقوى الذي يخامره، وهو شعوره بالارتياح لتلك الحقيقة وهي أن الذي اقترف جريمة القتل لم يكن سميردياكوف بل ميتيا، ولو أن من المفروض أن يكون سبب شعوره مخالفاً لذلك. ولم يكن يرغب بتحليل شعوره، بل إنه أحس بالنفور من التعمق في المشاعر. وشعر بميل للإسراع بنسيان شيء ما. ولقد اقتنع في الأيام التي تلت ذلك بجريمة ميتيا، بعد أن

اطلع على الحجج الدامغة التي تنهض ضده. أما إفادات البعض القليلة الأهمية، كفينيا وأمها مثلاً، فكان لها أثر قوي لا يقاوم. وفيما يتعلق ببيرخوتين ورواد الحانة، وأصحاب حانوت بالوتنيكوف، إضافة إلى الشهود في موكرو، فإن شهاداتهم جاءت بحجج دامغة. وكانت التفاصيل هي التي تضيق الخناق على ميتيا. ولقد اهتم المحققان بأمر القرعات اهتمامهما بشهادة غريفوري عن الباب المفتوح. وقد أفادت مارفا زوجة غريغوري، جواباً عن سؤال وجهه إليها إيفان، بأن سميردياكوف نام طيلة تلك الليلة في الجانب الثاني من جدار الغرفة وقالت: «إنه لم يكن بعيداً عن فراشي أكثر من ثلاث خطوات». وأنها رغم ثقل نومها، استيقظت مراراً وسمعته يئن: «لقد كان يئن طيلة الوقت ولم يكن أنينه ينقطع».

وعندما تحدث إلى الطبيب هرتسنشتوبي، واصفاً سميردياكوف بأنه لم يكن مجنوناً، بل ضعيفاً، أجابه ذلك الرجل العجوز وهو يبتسم باستهجان: «هل تدري كيف يقضي الآن أيامه؟ إنه يقوم باستظهار المفردات الكثيرة باللغة الفرنسية. وتوجد تحت وسادته كراسة فيها كلمات فرنسية كتبها له بعضهم بحروف فرنسية». وأغرق الطبيب في الضحك.

وانتهى الأمر بإيفان إلى تبديد جميع الشكوك. وأصبح تفكيره في ديمتري ملازماً أبداً للشعور بالنفور منه. وعلى كل حال، فقد كان هناك شيء واحد غريب، فإن أليوشا كان يصر على أن ديمتري ليس القاتل، وأن «جميع الاحتمالات» تدل على أن سميردياكوف هو القاتل. ولقد كان إيفان يشعر دائماً بأن رأي أليوشا يعني الشيء الكثير بالنسبة إليه، ولذلك فقد أحدث فيه رأيه الآن دهشة. وثمة شيء غريب ثان وهو أن أليوشا لم يحاول أن يتحدث عن ميتيا مع إيفان، ولم يجعل الحديث يدور حوله، بل كان يجيب على أسئلة إيفان له. وقد سبب هذا أيضاً لإيفان دهشة من نوع خاص.

لكن أمراً آخر كان في ذلك الوقت يشغل بال إيفان، فإنه لدى عودته من موسكو انساق في عواطفه نحو كاترينا إيفانوفنا انسياقاً عظيماً. وليس ملائماً هنا الحديث عن عاطفة إيفان التي طبعت حياته بطابع لم تخلو منه حتى آخر أيامه. وربما كان هذا موضوعاً يصلح لكتاب آخر قد لا أكتبه أبداً.

غير أنه لن يفوتني أن أذكر هنا أنه عندما غادر إيفان كاترينا إيفانوفنا، مع أليوشا، كما سبق لي أن ذكرت، قائلاً له: «إنني لأأهتم بها»، كان قوله هذا كذباً بحتاً. فقد كان يحبها حباً جنونياً، ولو أنه كان أحياناً يكرهها إلى حد يتمنى معه لو يقتلها. إن عوامل كثيرة ساعدت على خلق هذا الشعور في نفس إيفان. فهي بعد ذلك الحادث الذي جرى لميتيا وحطمها، اندفعت نحو إيفان لدى عودته، واستقبلته كأنه أملها الوحيد في الخلاص. لقد تعرضت مشاعرها للإذلال، فضلاً عن الإيذاء والإهانة. وها هو ذلك الرجل الذي كان يحبها ذلك الحب العنيف، (ولقد كانت تدرك ذلك تمام الإدراك) ها هو يعود إليها، إنه من كانت تعتقد بتفوقه عليها ذكاءاً وعلماً. غير أن الفتاة العفيفة الشديدة التمسك بعفتها وفضيلتها، لم تترام على قدمي الرجل الذي أحبته رغم عنف العاطفة المتأججة في قلبه وهو سليل كرامازوف، ورغم ذلك السحر الذي يجذبها إليه. وقد كان عذابها في الوقت عينه موصولاً بهجرانها لميتيا، وفي لحظات الاضطراب والغضب العظيم (وقد كانت كثيرة) كانت توضح ذلك لإيفان علناً. وهو عندما قال أمام أليوشا «أكاذيب من فوقها أكاذيب» إنما كان يعني ذلك.

ولقد كانت تلك المشاعر تحمل الشيء الكثير من الكذب بطبيعة الحال، وهو ما أغضب إيفان أكثر من أي شيء آخر... ولكن لنؤجل الحديث عن ذلك إلى مناسبة أخرى.

وقد كاد إيفان في الحقيقة ينسى وجود سميردياكوف. ومع ذلك فبعد مضي أسبوعين على لقائه الأول معه، سارعت الأفكار القديمة إلى خاطره كما في السابق. ويكفي أن نقول أنه كان لا يفتأ يسأل نفسه: لماذا تسلل كاللص في الليلة الأخيرة التي قضاها في منزل أبيه فيودور بافلوفيتش إلى الدرج وأخذ يسترق السمع على أبيه في الطابق السفلي. ولماذا استعاد ذلك في خاطره فيما بعد والشعور بالنفور يلازمه. ولماذا أصبح في اليوم التالي بغتة والأسى يملأ قلبه بسبب عزمه على الرحيل؛ ولماذا قال عندما بلغ موسكو في نفسه: «إنني نذل»؟ والآن خيل إليه أن هذه الأفكار التي كانت تعذبه، ستساعده على نسيان كاترينا إيفانوفنا. فقد استحوذت على لبه. وفي اللحظة التي كانت فيها

هذه الأفكار تتدافع في فكره، لقي أليوشا في الشارع فاستوقفه فجأة وسأله:

هل تذكر ذلك الوقت الذي اقتحم فيه ديمتري غرفة أبيه وضربه، ثم قلت لك في الساحة فيما بعد أنني أحتفظ لنفسي «بالحق في إبداء الرغبة»... أنبئني أكنت تظن عندها بأنني كنت أود أن يقتل أبي أم لا؟

فأجابه أليوشا بلهجة رقيقة: «لقد كنت أظن ذلك».

- لقد كان ذلك حقاً؛ فليست المسألة من قبيل الحدس والتخمين. ولكن ألم يرد إلى فكرك عندها أنني كنت راغباً في أن يلتهم أحد التنينين الآخر، أي أن يقتل ديمتري أباه، وبأسرع وقت ممكن... وأنني أنا نفسي كنت مستعداً للمساعدة على تنفيذ ذلك؟

فامتقع وجه أليوشا ونظر إلى وجه أخيه صامتاً.

فصاح إيفان: تكلم! إنني قبل كل شيء أريد أن أعرف ماهية تفكيرك آنذاك. أريد الصدق، الصدق!.

وشهق شهقة عميقة، وقبل أن يسمع جواب أخيه، كان الغضب يظهر في ملامحه.

فهمس أليوشا قائلاً: «سامحني، لقد كنت أظن ذلك في تلك الآونة». ولم يضف إلى ذلك عبارة من شأنها أن تهدىء ثائرة أخيه.

وقال إيفان: «شكراً». ثم ترك أليوشا وتابع طريقه مسرعاً. ومنذ تلك اللحظة، أخذ أليوشا يلاحظ أن أخاه كان يتجنبه ويبدي له الكره، فانقطع أليوشا عن زيارته. وبعد تلك المقابلة بينهما، لم يمض إيفان إلى مسكنه بل قصد سميردياكوف مرة أخرى.



الزيارة الثانية لسميردياكوف

كان سميردياكوف آنذاك قد غادر المستشفى. وكان إيفان يعرف مسكنه الجديد، وهو منزل خشبي متداعي الأركان فيه ممشى يقسمه إلى قسمين، أحدهما كان لسكنى سميردياكوف والآخر كانت تسكنه ماريا كوندراتييفنا وأمها. ولم يكن أحد يدرك صفة سميردياكوف التي كان بموجبها يعيش معهما، أصديق هو أم مستأجر. وقد ظن فيما بعد أنه كان يعايشهما بصفته خاطباً لماريا كوندراتييفنا، وأنه ظل في منزلهما زمناً، دون أن يدفع أجرة. وقد كانت الأم وابنتها تضمران له الاحترام الفائق وتريانه أعلى منهما مرتبة وأرفع قدراً. قرع إيفان الباب، فلما فتح له دخل إلى الممشى. وقادته ماريا كوندراتييفنا مباشرة إلى الغرفة التي كان يسكنها سميردياكوف، وكانت إلى يسار المنزل وأفضل غرفة. ورأى إيفان مدفأة مكسوة بالبلاط، وكانت شديدة الحرارة. أما الجدار فكان مزداناً بالورق الأزرق الزاهي ولو أنه كان متآكلاً لقدمه. وفي الشقوق تحته كانت تعشش أعداد عظيمة من الصراصير، التي كانت لكثرة حركتها يسمع لها حفيف متصل. وكان أثاث الغرفة قليلاً، فهي تحوي مقعدين طويلين متقابلين عند طرفي الجدار وكرسيين عند المنضدة. وكان فوق المنضدة الخشبية غطاء من قماش زين برسوم حمراء. وعند كل نافذة من النافذتين الصغيرتين إناء تنبت فيه زهور قرمزية. وعند الزاوية إطار فيه مجموعة من الأيقونات. ورأى إيفان على المنضدة إبريقاً صغيراً من الشاي تعرض لكدمات كثيرة وطبقاً فوقه كوبان. وكان الإبريق فارغاً، فإن سميردياكوف شرب محتواه من الشاي. ورآه إيفان جالساً على المقعد قرب المنضدة، وهو ينظر إلى كراسة ويدون بعض الكلمات بتؤدة. وكانت بقربه محبرة وشمعدان من الحديد الرقيق فيه شمعة ملونة. وسرعان ما

أدرك إيفان في ملامح سميردياكوف دليلاً على تعافيه من مرضه. فقد كان وجهه ممتلئاً صحيحاً وشعر مقدمة رأسه مسرحاً ومصففاً. وكان يرتدي مبذلاً سميكاً ذا لونين، غلبت عليه القذارة وتهرأت أطرافه. كما كان يضع فوق أنفه نظارات لم يتفق أن رآها إيفان من قبل أبداً. وقد ضاعف كل هذا غضب إيفان فخاطب نفسه بغضب: «مخلوق كهذا يضع نظارات على عينيه»!.

رفع سميردياكوف رأسه ببطء وتفرس في زائره باهتمام من خلال نظاراته ثم خلعها بهدوء ونهض عن المقعد. ولم يكن نهوضه من باب الاحترام أبداً، فهو نهض متكاسلاً. فكان مراعياً لأقل مقتضيات الأدب. وقد أدرك إيفان ذلك لتوه ووعاه في ذاكرته، وخاصة تلك النظرة التي كانت تطل من عيني سميردياكوف، المشبعة بدلالات الحقد والدناءة والتعالي. وبدا عليه كأنه يقول: «لماذا تتدخل في شؤوني؟ فلقد سوينا كل شيء في اللقاء السابق، فما سبب عودتك»؟ واستطاع إيفان أن يكبت مشاعره بصعوبة. وقال وهو لا يزال يحضر لنزع معطفه: «إن الجو دافيء هنا».

فأجابه سميردياكوف موافقاً: «إخلع معطفك».

فخلع إيفان معطفه ورماه على المقعد بيدين مرتجفتين. ثم تناول كرسياً ونقله بسرعة إلى المنضدة وجلس. وكان سميردياكوف قد سبق إيفان إلى الجلوس.

فقال إيفان بلهجة صارمة: قبل أن نبدأ حديثنا، هل نحن وحيدان هنا؟ هل يمكن أن يسترق أحد السمع علينا؟.

- إنه ما من إنسان يستطيع أن يسمع شيئاً. ولقد رأيت بنفسك أن هناك ممشى يفصل بين حجرتي والحجرة الثانية.

- إصغ إلي يا فتاي الطيب، ماذا كنت تقصد عندما كنت أغادر المستشفى وقلت بأنني إذا تفوهت بشيء عن قدرتك على تصنع النوبات، فستطلع المحقق على كامل محادثتنا عند الباب. ماذا كنت تعني بكلمة كامل؟. ماذا كان يمكن أن تعني بذلك؟ هل كنت تهددني؟ هل أنا متواطيء معك في أمر من الأمور؟ هل تظن بأنني أخافك؟.

وقد تفوه إيفان بأقواله هذه هائجاً، وهو يود أن يوضح له عامداً أنه

يزدري التلون وعدم الصراحة، وأنه يريد أن يكشف أوراقه. وأطل الغيظ من عيني سميردياكوف ثم غمز بعينه اليسرى وجابه إيفان بأجوبته هادئاً ثابتاً في كلامه، ولسان حاله يقول: «إنك تريد أن تلم بكل شيء. حسناً فسأسرد لك الوقائع كاملة:

«لقد كان هذا هو عين ما قصدته، وكان ذلك هو سبب قولي لك تلك العبارة. أردت أن أقول لك أنك مع علمك سلفاً بأن والدك سيقتل، تركته يواجه مصيره، وأنك أردت أن تصون مشاعرك من سوء ظن الناس، وربما بشيء آخر أيضاً، لقد كان هذا هو الذي وعدت بعدم اطلاعي السلطات عليه ومع أن سميردياكوف لم يكن متسرعاً في أقواله، بل كان هادئاً واثقاً من نفسه، إلا أن صوته لم يكن صافياً، وكان فيه عزم وتصميم، وتحد وقح مشوب بالغيظ. وحدق في إيفان مستكبراً، فأحس هذا للحظة بغشاوة تشوش نظره.

ـ كيف؟ ماذا؟ هل فقدت عقلك؟

ـ إنني متمالك جميع حواسي

وأخيراً صاح إيفان وأهوى بقبضتيه على المنضدة قائلاً: هل تظن بأنني كنت مطلعاً على الجريمة المبيتة؟ ماذا تقصد «بالشيء الآخر أيضاً»؟ تكلم أيها الجبان!.

فصمت سميردياكوف وظل ينظر إلى إيفان بوقاحة.

ـ تكلم أيها الجلف القذر، ما هو هذا «الشيء الآخر أيضاً»؟.

ـ أعني «الشيء الآخر»، أنك ربما كنت جد راغب في موت والدك.

فقفز إيفان من مجلسه، وأهوى على كتفه بكل قوته حتى أنه ارتطم بالجدار. وسرعان ما انهمرت الدموع من عيني سميردياكوف فبللت خده وقال: «عار عليك يا سيدي أن تضرب رجلاً عليلاً». ثم جفف دموعه بمنديل أزرق قذر وأخذ ينتحب. ومرت دقيقة، ثم عاد إيفان إلى القول بلهجة آمرة، وهو يعود إلى الجلوس:

كفاك بكاء! كف عن هذا، إياك أن تنفد صبري.

وأزاح سميردياكوف المنديل عن عينيه. وكان كل خط من الخطوط المرتسمة على وجهه المتغضن ينطق بالإهانة التي تلقاها، وعاد إيفان إلى القول:

إذن فقد كنت تظن أيها النذل، بأنني كنت شريك ديمتري في قتل والدي؟

فأجاب سميردياكوف محنقاً: لم أكن أدرك حقيقة الأفكار التي كانت تراود ذهنك في تلك الآونة، وهكذا فقد أوقفتك لكي استوضحك تلك النقطة بالذات.

- تستوضح ماذا؟ أي شيء؟.

- عن ذلك الأمر بالذات، عما إذا كنت تريد أن يُقتل والدك أم لا!.

كانت اللهجة الوقحة المهينة التي تكلم سميردياكوف بها هي أكثر ما أثار حفيظة إيفان، وفاجأه بالقول: «إنك أنت قاتله»!.

وابتسم سميردياكوف بازدراء وأجابه قائلاً: أنت نفسك تعلم علم اليقين بأنني لست قاتله، ولقد كنت أظن أنه ما من إنسان راجح التفكير يحتاج إلى معاودة الحديث عن هذا الأمر.

- ولكن لماذا، لماذا كنت تشتبه بي آنذاك؟

- إن ذلك كان بدافع الخوف كما تعلم، فقد كنت عندها أرتعد فرقاً ومستعداً لاتهام جميع الناس، وقد عزمت على أن أمتحنك أنت أيضاً إذ قلت في نفسي: إنك إذا كنت كأخيك راغباً في قتل أبيك؛ فإن النهاية حتمية، وإنني سأسحق أيضاً كالحشرة.

- إنك لم تقل هذا القول منذ أسبوعين.

- لقد كان هذا هو بالذات ما قصدته في حديثي لك في المستشفى، وكنت أظن بأنك قد فهمت قصدي دونما حاجة إلى الإسراف في الكلام، وأنك لن تكون مهتماً بالتحدث عن ذلك بصراحة انطلاقاً من حكمتك.

- ثم ماذا؟ هيا أجب، أجب، إنني أصر على إجابتك: ما الذي... ما الذي فعلته حتى أخذ مثل هذا الشك الدنيء يتسرب إلى روحك الحقيرة؟.

ـ أما فيما يتعلق بجريمة القتل، فما كان بوسعك أن تقترفها أو تبغي اقترافها، وإذا ما اقترفها غيرك، فذلك هو عين ما كنت تبغي.

ـ ما أعظم هدوئه وهو يقول هذا القول! ولكن لماذا كنت أتمنى قتله، وما هي الأسباب التي تدفعني إلى هذا التمني؟.

فأجابه سميردياكوف هازئاً، كأنه يثأر لنفسه منه: ما هي الأسباب؟ وماذا تقول في تركة أبيك؟ إن أربعين ألف روبل على الأقل هي نصيب كل واحد منكم، والأرجح أكثر من ذلك. ولكن لو تزوج فيودور بافلوفيتش من تلك السيدة اغرافينا ألكسندروفنا فإنها لا بد أن تجعله يسجل جميع ثروته باسمها بعد الزواج مباشرة، لأنها سيدة ذكية، وإذ ذاك فما كان أبوك ليخلف لكم جميعاً ثلاثة روبلات؟ وهل كان زواجهما بعيداً؟ كلا، لقد كان يقرب من حبل الوريد: إذ يكفي تلك السيدة أن ترفع خنصرها حتى يعدو خلفها إلى الكنيسة ماداً لسانه.

وكبح إيفان جماح نفسه بصعوبة، ثم قال: إن هذا حسن للغاية، ها أنت ترى أنني لم أقفز من مكاني ولم أصرعك أرضاً، ولم أقتلك. تكلم أفصح عما في دخيلة نفسك: لقد أوحيت لديمتري أن يقتله وكنت أعول عليه في ذلك!؟.

ـ وكيف كان يمكنك إلا أن تعول عليه؟ فهو إذا قتله فقد كافة حقوقه كإنسان شريف، وجرد من رتبته وأملاكه، ونفي، ولذلك فإن نصيبه من التركة لا بد وأن تتقاسماه مناصفة أنت وأخوك ألكسي فيودوروفيتش. وهكذا فإن حصة الواحد منكما لن تكون أربعين ألفاً بل ستين ألفاً. إنه ما من شك في أنك كنت تعول على ديمتري فيودوروفيتش!

ـ لقد صبرت عليك كثيراً! إصغ إلي أيها النذل، لو أنني كنت حقاً أعول على أي إنسان فهو أنت لا ديمتري. وأقسم أنني كنت أنتظر الشر على يديك... في ذلك الوقت، إنني ما زلت أذكر الأحاسيس التي كانت تراودني.

فقال سميردياكوف ضاحكاً بسخرية: لقد ظننت أيضاً في لحظة من اللحظات آنذاك، أنك كنت تعول علي أنا أيضاً. ولهذا السبب، أكثر من غيره، وجدت نفسك تبوح لي بما كان يداخلها من أفكار، لأنك لو كنت تظن بي

الظنون ثم انطلقت، لكان معنى ذلك أنك قلت لي: ـ «إن بوسعك أن تقتل أبي، فلن أمنعك!».

ـ أيها النذل! إذن فقد فهمتها هكذا!

ـ لقد كان الدليل كله هو ذهابك إلى تشيرماشنيا. لقد كنت مصمماً على الذهاب إلى موسكو، ورفضت كافة توسلات أبيك بأن تذهب إلى تشيرماشنيا. ثم بكلمة حمقاء مني وافقت على الذهاب إليها حالاً. فما هو السبب الذي حملك على قبول السفر إلى تشيرماشنيا؟ وطالما أنك ذهبت إليها من غير غاية، سوى استجابتك لكلمتي، فمعنى ذلك أنك كنت تتوقع شيئاً ما.

فصاح إيفان وقد اصطكت أسنانه: «كلا، أقسم أنني لم أكن أتوقع منك شيئاً»!.

ـ ألم تكن تتوقع شيئاً؟ إذن فقد كان حرياً بك، عملاً ببنوتك، أن تقودني إلى السجن وتأمر بجلدي تواً جزاء الكلمات التي قلتها لك... أو على الأقل أن تلطمني على وجهي. ولكنك لم تغضب أبداً، بل استجبت إلى كلمتي الحمقاء بكل ودّ وذهبت. وكان ذهابك سخافة لأن الواجب يحتم بقاءك لكي تنقذ حياة والدك. كيف أستطيع أن أتمالك نفسي من الوصول إلى هذه الاستنتاجات؟

وجلس إيفان واجماً وقد شد قبضتيه. ثم قال وهو يبتسم بطريقة تثبت غيظه: نعم، أنا آسف لأنني لم ألطمك على وجهك. ولم يكن بوسعي أن أجرّك إلى السجن آنذاك، إذ كيف لي أن يصدقوني، وما هي التهم التي كان بوسعي أن أكيلها لك؟ ولكن اللطمة في وجهك... آه، أنا آسف لأن أمرها فاتني. ومع أن الضرب ممنوع، إلا أنه كان عليّ أن أهشم وجهك القبيح!.

فنظر إليه سميردياكوف نظرة فيها شيء من السرور، ثم خاطبه بتلك اللهجة الهادئة الجازمة التي يستعملها لإغاظة غريغوري وهو يحادثه في أمور الدين على مائدة فيودور بافلوفيتش: إن اللطمات على الوجه حسب ظروف الحياة العادية يمنعها القانون في أيامنا هذه، وقد كف عنها الناس، إلا في

حالات إستثنائية، ليس عندنا فحسب بل في جميع أقطار العالم وحتى في الجمهورية الفرنسية ذاتها، كما كان الحال أيام آدم وحواء، وهم لم يكفوا عن هذه العادة أبداً، غير أنك حتى في الحالات الاستثنائية لم تجرؤ على ذلك.

فسأله إيفان وهو يومىء برأسه إلى الكراس المطروح على المنضدة: «لماذا تحفظ هذه المفردات الفرنسية»؟.

ـ ولماذا لا أحفظها رفعاً لمستواي العلمي، ومن يدري فلعلّ الظروف تواتيني فأسافر إلى تلك النواحي السعيدة من أقطار أوروبا.

فومضت عينا إيفان وقال وهو يرتجف غيظاً: إسمع أيها الوحش، إنني لا أخاف اتهامك، وبوسعك أن تقول عني ما يحلو لك، وإذا كنت لا أضربك حتى الموت فما ذلك إلا لأنني أرى أنك أنت الذي اقترف الجريمة، وسأسلمك إلى العدالة وأنزع القناع عن وجهك.

ـ أظن أن الأفضل لك أن تظل صامتاً، إذ ما هي التهمة التي تستطيع أن تقذفني بها، مع إمكانية تبرئتي، ومن ذا الذي يصدقك؟ وإذا بدأت أنت، فسأفضي بكل شيء، لأنني سأضطر للدفاع عن نفسي.

ـ وهل تظن أنني أخافك.

ـ إذا لم تصدق المحكمة جميع الأقوال التي قلتها لك الآن فإن الرأي العام سيصدقها، وسيكون هذا عاراً يلازمك.

فصاح إيفان غاضباً: إن هذا يعادل قولك: «من المفيد دوماً محادثة الأذكياء».

ـ لقد أصبت الهدف، حقاً، وخير لك أن تحكم عقلك.

فنهض إيفان عن الكرسي وهو يرتجف غضباً، ثم لبس معطفه وخرج من الكوخ مسرعاً من غير أن يجيب على أقوال سميردياكوف، ومن غير أن ينظر إلى وجهه. وقد أنعشه هواء الأمسية العليل، وكان القمر يتألق في كبد السماء. وشعر بأفكار وأحاسيس مخيفة تملأ جوانب روحه. وقال في نفسه: هل أتجه فوراً لتقديم شكوى للقضاء ضد سميردياكوف؟ ولكن أية معلومات أملك

ضده؟ هو ليس مجرماً على كل حال. بل، على العكس، إنه سيتهمني. حقاً، لماذا انطلقت إلى تشيرماشنيا آنذاك؟ لماذا؟ لماذا؟ نعم، لقد كنت أتوقع شيئاً، إنه على صواب...». وتذكر للمرة المائة، كيف أنه في تلك الليلة الأخيرة التي قضاها في منزل أبيه، استرق السمع عليه من أعلى السلم. ولكن الذكرى كانت في تلك اللحظة مشوبة بألم عظيم حتى كأن أحداً طعنه فتجمد في مكانه بلا حركة. نعم، لقد كنت أتوقع ذلك، إن هذا لصحيح! لقد كنت أريد له القتل. لقد كنت أريده أن يقتل! هل أردت له القتل؟ هل أردته؟ يجب أن أقتل سميردياكوف! وإذا لم أجرؤ على قتله الآن فلا خير في الحياة!.

ولم يذهب إيفان إلى منزله، بل اتجه إلى منزل كاترينا إيفانوفنا، وأرعبها بدخوله عليها. فقد كان كالمجنون. وقد أعاد عليها جميع ما دار بينه وبين سميردياكوف، ولم يحذف مقطعاً. ولم تهدأ ثائرته رغم محاولاتها المضنية لتهدئته. وقد ظل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وينطق بأقوال غريبة، متباعدة المعاني. وأخيراً جلس ووضع مرفقيه على المنضدة، وأسند رأسه على يديه وقال هذه الجملة الغريبة: «ليس ديمتري هو القاتل، بل إنه سميردياكوف، أنا أشاطره الإثم، لأنني أنا الذي أوحيت له به. ولكنني لا أعرف ما إذا كنت فعلاً قد أوحيت له به. ولكن إذا صح أنه هو القاتل لا ديمتري، فأنا أيضاً قاتل بطبيعة الحال».

وعندما سمعت كاترينا إيفانوفنا أقواله، نهضت عن مقعدها صامتة تماماً وذهبت إلى منضدة الكتابة، وفتحت علبة كانت موضوعة عليها، وتناولت منها وريقة ووضعتها أمام إيفان. إنها الوثيقة ذاتها التي تحدث عنها أمام أليوشا فيما بعد وقال عنها أنها «الحجة الدامغة» على أن ديمتري هو الذي قتل أباه. وقد كانت تلك الوريقة، هي الرسالة التي خطها ميتيا إلى كاترينا إيفانوفنا وهو سكران في أمسية ذلك اليوم الذي التقى فيه بأليوشا عند مفترق الطرق وهو ذاهب إلى الدير. بعد تلك الحادثة التي شهدها منزل كاترينا إيفانوفنا عند إهانتها غروشينكا. ولست أدري ما إذا كان قد رآها، ولكنه في مساء ذلك اليوم قصد إلى حانة «متروبوليس» حيث شرب وأفرط في الشراب، ثم طلب قلماً وقرطاساً، وخط وثيقة اعتبرها مهمة. وكانت مطولة، ولا رابط يربط بين

كلماتها، كلها اضطراب، إنها حقاً رسالة رجل مخمور. وكان ما فيها يشبه حديث الرجل المخمور الذي يعود إلى منزله فيسرد بكل حرارة وحماسة أمام زوجته أو أحد أفراد أسرته كيف تعرض للإهانة من قبل رجل جلف، وكيف أنه أثبت نبله، وكيف أنه سينتقم لنفسه من ذلك النذل؛ وكل ذلك بالتطويل وبكلمات مضطربة، مصحوبة بتأوهات السكارى وبضربات المنضدة. وكانت الرسالة مكتوبة على قطعة من الورق الرخيص وقذرة، كان أخذها من أصحاب الحانة، وعلى ظهرها دونت بعض الأرقام. وكان جلياً أن الورقة لم تتسع إلى ثرثرات ميتيا الثمل، فلم يكتف بملء الحواشي، بل كتب السطر الأخير من الرسالة قاطعاً به أسطرها الأخرى. وقد كان نصها كما يلي:

«كاتيا المهلكة! غداً سأحصل على النقود، وسأرد لك الثلاثة آلالاف وأودعك أيتها المرأة الحقودة وأودع حبي! فلأضع حداً لهذا! غداً سأحاول الحصول عليها من بعضهم، فإذا لم أجد من يقرضني إياها، فأقسم بشرفي أنني سأذهب إلى والدي وأهشم جمجمته؛ وآخذ المال من تحت وسادته، شرط أن يكون إيفان قد سافر. سأرد لك آلافك الثلاثة تحت طائلة نفيي إلى سيبريا، ثم أودعك. إنني أنحني أمامك حتى ألمس الأرض لأنني كنت نذلاً معك. إصفحي عني بل الأفضل لك ألا تصفحي عني، لأنني أحب امرأة أخرى، وقد تعرفت عليها أنت اليوم، إذن فكيف تصفحين؟ سأقتل الرجل الذي سلبني مالي! سأهجركم جميعاً وأذهب شرقاً كيلا أرى أحداً أبداً، ولا حتى هي، لانك لست معذبتي الوحيدة، فهي أيضاً معذبتي. وداعاً!

ملاحظة: إنني أدون لعنتي، ولكنني أعبدك! وأنا مدرك ذلك من أعماق قلبي. لم يبق بيدي سوى خيط واحد، وها هو يرتجف. خير لي أن أشق قلبي شقين! سأقتل نفسي، ولكنني سأبدأ بذلك الحقير. سأختطف منه ثلاثة آلاف وأردّها إليك. صحيح كنت نذلاً معك، ولكنني لست لصاً! إطمئني ستسترجعين الآلاف الثلاثة. إن الحقير يخفيها تحت مفرشه وقد رزمها بشريط أحمر. لست لصاً، ولكنني سأقتل اللص الذي سلبني مالي. كاتيا، لا تنظري إلي نظرة الاحتقار. إن ديمتري ليس لصاً بل هو قاتل! لقد قتل أباه وحطم نفسه ليبقى شريفاً بدلاً من أن يتخاذل أمام كبريائك. وهو لا يحبك.

ملاحظة ثانية: إنني أقبل قدميك. وداعاً! ملاحظة ثالثة: كاتيا، ادعي الله لعله يقيض لي من يعطيني النقود وعندئذ لن ألوث يدي بالدم. أما إذا تعذر ذلك، فإنني أقتل نفسي!.

عبدك وعدوك،

د. كرامازوف

وعندما تلا إيفان هذه «الوثيقة» اقتنع بما جاء فيها وعاد يؤمن بأن ديمتري لا سميردياكوف كان القاتل، وإذا صح أن سميردياكوف ليس هو القاتل، فبالتالي ليس هو أيضاً، أي إيفان، قاتلاً. وبدا هذا الكتاب في عين إيفان دليلاً يقبله العقل. ولم يعد يخامره أقل شك في جريمة ميتيا. وبوسعنا أن نقول هنا أن إيفان لم يكن يفكر لحظة قط أن ميتيا ربما اقترف جريمة القتل بالتواطؤ مع سميردياكوف، فإن هذا الافتراض لم يكن منسجماً مع الحقائق. وقد عادت الثقة إلى نفس إيفان فطاب نفساً. وفي صباح اليوم التالي لم يعد يفكر إلا في سميردياكوف وغمزاته المهينة. ولم تنقض بضعة أيام حتى استبد به العجب من عظم الأسى الذي سببته له شكوكه، فقرر أن يطرده من ذهنه بازدراء وينسى أمره. وانقضى شهر كامل ولم يستفسر عن سميردياكوف، ولكنه سمع مرتين عنه بأن المرض قد ألح عليه وأنه فقد عقله. وكان قد تذكر أن الدكتور فارفينسكي قد قال عن سميردياكوف «بأنه سينتهي إلى الجنون». وفي أواخر أيام ذلك الشهر، أخذ إيفان يشعر بمرض شديد، وقد ذهب لمراجعة الطبيب القادم من موسكو الذي استدعته كاترينا إيفانوفنا قبيل المحاكمة. وفي ذلك الوقت كانت قد تأزمت كثيراً علاقته بكاترينا إيفانوفنا، حتى صارا أشبه بالعدوين المتحابين. وقد كانت «عودات» كاترينا إيفانوفنا إلى ميتيا أي عوداتها العاطفية العنيفة القصيرة إليه، تضايق إيفان أشد المضايقة وتقلقه أشد القلق. ومن الغريب أن نقول أن إيفان لم يسمع كاترينا إيفانوفنا مرة واحدة، خلال ذلك الشهر، تعرب عن شكها في جريمة ميتيا رغم تلك «العودات» البغيضة إليه، إلى أن حدث ذلك الخصام الأخير بينهما على نحو ما وصفنا. إن كراهية إيفان لميتيا كانت تزداد على مرّ الأيام، ومن الغريب أيضاً أنه أدرك أن سبب هذه الكراهية لم يكن «عودات» كاتيا إليه بل لأنه

كان قاتل أبيه. لقد كان مدركاً لذلك وقد أقر به في قرارة نفسه.

ومع ذلك، فقد ذهب لزيارة ميتيا قبل موعد محاكمته بعشرة أيام وعرض عليه خطة لهروبه، خطة كان قد أشبعها تفكيراً ودرساً. إن ما كان يدفعه إلى ذلك ألم كان يشعر به في قلبه لعبارة وردت في أقوال سميردياكوف، أنه نفسه يستفيد من الحكم على أخيه، وأن هذا من شأنه أن يزيد حصته وحصة أليوشا من تركة والدهما من أربعين ألفاً إلى ستين ألفاً. وقد عزم على أن يضحي بثلاثين ألفاً لكي يهيء لأخيه أسباب الفرار. وعاد من زيارته في سجنه حزيناً مهموماً، وفجأة بدأ يشعر بأن توقه إلى فرار أخيه من سجنه يحركه سبب أخر غير رغبته بمداواة تلك الغصة في قلبه عن طريق التضحية بثلاثة آلاف روبل. وأخذ يسائل نفسه: «هل ذلك يعود إلى أنني لا أقل عنه إجراماً في قرارة نفسي»؟ وأخذ يشعر بألم روحي هائل جعله قلقاً لا يهدأ. وفوق ذلك، فإن كبريائه قد امتهنت طيلة هذا الشهر. ولكن، لندع الكلام عن هذا الأمر إلى حين آخر.

قرر إيفان فجأة، بعد محادثته مع أليوشا، لحظة كانت يده على جرس بيته، الذهاب إلى سميردياكوف. إن هاجساً غريباً وشعوراً بالاشمئزاز كانا يدفعانه. وسرعان ما تذكر كيف أن كاترينا إيفانوفنا صاحت قبل قليل في وجهه بحضور أليوشا قائلة: «لقد كنت أنت الذي أقنعني بأنه (أي ميتيا) كان مجرماً»! وإذ تذكر إيفان ذلك بدا مصعوقاً. فهو لم يشر أمامها، إلى ذلك قط، بل على نقيض ذلك فقد أعرب لها عن شكه في نفسه، وكان ذلك بعد مقابلته لسميردياكوف. ثم أنها هي، هي التي أبرزت تلك «الوثيقة» وأثبتت له جرم أخيه. ثم ها هي ذي تصيح بغتة: «لقد كنت في زيارة سميردياكوف بنفسي»! ولكن متى قامت بهذه الزيارة؟ إن إيفان لم يكن يعلم ذلك أبداً. إذن فهي لم تكن قط واثقة من جريمة ميتيا! وماذا عساه قال لها سميردياكوف؟ ماذا، ماذا قال لها؟ لقد أحس بنار تأكل قلبه. ولم يتوصل إلى أن يفهم كيف استطاع قبل ذلك بنصف ساعة أن يترك تلك الكلمات تمر بدون أن يجهر بسؤاله إياها عن الأمر. وقد أرخى قبضته عن الجرس وانطلق نحو منزل سميردياكوف، وهو يفكر في نفسه قائلاً: «ربما قتلته هذه المرة».

المقابلة الثالثة والأخيرة مع سميردياكوف

حين أصبح إيفان في منتصف الطريق، عادت تهب الريح الجافة القارسة التي كانت تهب في الصباح، وأخذ الثلج يهطل غزيراً، فلا يثبت على الأرض بل تحمله الريح وتطوح به. واشتد هطول الثلج وعصف الريح. وكان سميردياكوف يسكن حياً من المدينة يندر فيه وجود المصابيح. وأخذ إيفان يضرب وحيداً في الظلمات غير عابىء بالعاصفة، وهو يهتدي بغريزته إلى مواطىء قدميه. وكان يحسّ بصداع في رأسه ونبض مؤلم في عروق صدغيه. وأحس كأن يديه تتشنجان. وعندما كاد إيفان يقترب من كوخ ماريا كوندرا تيبفنا، لقي فلاحاً شاباً ثملاً يسير وحيداً. وكان يرتدي معطفاً غليظ النسيج كثير الرقع، وهو يتأرجح في مشيته ذات اليمين وذات الشمال ويدمدم ويشتم. وفجأة انطلق يغني بصوت أجش تظهر آيات السكر في مخارجه:

«آه، لقد مضى فانكا إلى بطرسبورغ.

ولن أنتظر عودته».

ولكنه كان يتلعثم في أغنيته ويتلكأ عند الشطرة الثانية منها ويعود إلى كيل الشتائم. وشعر إيفان بالكره الشديد له قبل ان يفكر فيه. وفجأة شعر بوجوده وأحس بدافع قوي يدفعه إلى أن يصرعه أرضاً. وفي تلك اللحظة كانا يتقابلان وجهاً لوجه، وقد انحرف الفلاح نحو إيفان بسرعة وألقى نفسه عليه، فدفعه هذا عن نفسه بعنف، ورده إلى الخلف فوقع على الأرض المكسوة بالجليد كقطعة من الخشب. ولم يسمع منه سوى أنة مكبوتة ثم صمت. وتقدم إيفان نحوه، وكان فاقد الحس، ملقى على ظهره بدون حراك. وقال إيفان في نفسه: انه سيتجمد. ثم واصل سيره نحو مسكن سميردياكوف.

وأسرعت ماريا كوندراتييفنا لكي تفتح له الباب، وهي تحمل شمعة

بيدها، فلما صارا في الممشى همست في أذنه قائلة: إن المرض قد استبد بسميردياكوف. ثم تابعت تخبره: انه لا يلزم فراشه، ولكنه يبدو مختلفاً عما عهدناه. بل أنه أصبح لا يرغب بتناول الشاي، ويرفض ما نقدمه له منه.

فسألها إيفان بصوت أجش: ولماذا يحدث هذا الشغب؟

فأجابته ماريا كوندراتييفنا متوسلة: آه يا عزيزي، آه العكس هو الصحيح، فهو عظيم الهدوء. وكل ما أرجوه هو ألا تطيل الحديث معه.

وفتح إيفان باب الغرفة ودخل.

وقد كانت عظيمة الدفء كالمرة السابقة، ولكنها اليوم تعرضت لبعض التغييرات. لقد أخرج منها أحد المقعدين الطويلين، ووضعت في مكانه أريكة جلدية كبيرة مصنوعة من خشب المهوغني، وفوقها وضع فراش، وفوق الفراش وسائد بيضاء نظيفة. وكان سميردياكوف يجلس على الأريكة مرتدياً نفس المبذل الذي شاهده إيفان عليه في المرة السابقة. وكانت المنضدة قد ازيحت إلى حيث وضعت الأريكة، فضيقت المكان بحيث منعت على الإنسان التحرك فيه. وكان على المنضدة كتاب سميك ذو غلاف أصفر اللون، ولكن سميردياكوف لم يكن يطالع فيه. وكان يبدو عليه أنه لم يكن يفعل شيئاً خلال جلوسه. وقد استقبل إيفان بنظرة صامتة وهو يوجه عينيه إليه متمهلاً، وبدا ان قدومه لم يدهشه. وقد لاحظ إيفان تبدلا عظيماً في وجهه، فقد كان الآن أنحف وأرق مما كان في المرة السابقة. وكانت عيناه غائرتين وتحتهما بقعتان زرقاوان.

ـ ما هذا، أراك عليلاً حقاً؟ ثم أمسك عن الكلام هنيهة وعاد يقول: لن أطيل البقاء عندك، ولن أخلع معطفي. أين أستطيع الجلوس؟

ثم مضى نحو الطرف الآخر من المنضدة، وسحب كرسياً وجلس عليه، وهو يسأله:

ـ لماذا تحدق بي صامتاً؟ لقد جئت إليك كي أسألك سؤالاً واحداً فقط، وأقسم أنني لن أخرج من هذا المكان قبل أن أسمع جوابك عليه. هل جاءت السيدة الشابة كاترينا إيفانوفنا لزيارتك؟

وظل سميردياكوف صامتاً، وهو ينظر إلى إيفان بهدوء. ثم لوح بيده

فجأة وأشاح بوجهه عنه.

فصاح إيفان به: ماذا دهاك؟

ـ لا شيء.

ـ ماذا تعني لا شيء هذه؟

ـ نعم، لقد جاءت. وهذا أمر لا يعنيك. فدعني وشأني.

ـ كلا، لن أدعك وشأنك. قل لي، متى جاءت إليك؟.

فأجابه سميردياكوف وعلى شفتيه ابتسامة الإزدراء: لقد نسيت أمرها. ثم حول وجهه مقابل إيفان ورمقه بنظرة بدت فيها الكراهية الشديدة، وكانت كتلك التي رمقه بها في لقائهما الأخير قبل شهر واحد. ثم قال يخاطب إيفان: وأنت أيضاً تبدو مريضاً، فوجهك قد غاض ماؤه، وحالتك قد تغيرت.

ـ لا يهمنك أمر صحتي، بل أجب عن سؤالي.

وابتسم سميردياكوف ابتسامة الازدراء وقال: ولكن ما علة الصفرة التي تغشى عينيك؟ ان بياض عينيك مصفر، هل هو الاضطراب المفرط؟ ثم ضحك فجأة.

إنفعل إيفان وصاح به: اصغ إلي، لقد قلت لك إنني لن أبرح هذا المكان قبل أن أظفر بالجواب.

فقال سميردياكوف بألم واضح في عينيه: لماذا تصر على مضايقتي؟ ولماذا أنت دائب على تعذيبي؟

ـ تبا لهذا! انه لا شأن لي معك. وكل ما اطلبه هو ان تجيبني عن سؤالي فأنصرف.

فقال سميردياكوف وقد خفض عينيه ثانية: لا جواب عندي على سؤالك.

يجب أن تثق بأنني سأحملك على الإجابة!

فحدق فيه سميردياكوف لا بنظرة ازدراء فحسب، بل بشيء أقرب إلى النفور: ما علة قلقك؟ هل ذلك يعود إلى ان المحاكمة ستبدأ غداً؟ لن يصيبك ذلك بسوء. ألا تستطيع ان تعتقد بذلك؟ إذهب إلى بيتك، وغص في فراشك

ونم بسلام ولا تخش شيئاً.

فأجابه إيفان مندهشاً: إنني لا أفهم معنى ما ترمي إليه... ما الذي يخيفني من أمر الغد؟ وفجأة شعر ببرودة الخوف تسري في عروقة. واخذ سميردياكوف يرقبه باهتمام، ثم قال متثاقلاً بلهجة فيها التأنيب: «ألا تفهم؟ غريب أمر انسان عاقل مثلك أن يلجأ إلى مثل هذا التظاهر»!

فنظر إليه إيفان وقد عقلت الدهشة لسانه، انه يسمع شيئاً خارقاً، أن يتكلم معه هذا الرجل الذي كان خادمه ذات مرة، بهذه اللهجة المفزعة المتعجرفة. وهو لم يسمع منه مثل هذه اللهجة حتى في مقابلتهما الأخيرة.

وعاد سميردياكوف إلى القول:

إنني أقول لك بأنه ليس هناك من سبب يحملك على الخوف: فلن أذكر شيئاً عنك، وليس هنالك من دليل يقوم ضدك. ان يديك ترتجفان، لماذا تتحرك أصابعك هكذا؟ عد إلى بيتك فأنت لم تقتل.

وأجفل إيفان، فقد تذكر أليوشا. ثم قال متلعثما: اعلم انني لست القاتل.

فاندفع سميردياكوف يقول: أتعلم ذلك حقاً؟

وهنا قفز إيفان فاستوى واقفاً وأمسك به من كتفه وصاح به: أطلعني على كل شيء أيها الأفعوان السام! قل لي كل شيء!

ولم يبد على ملامح سميردياكوف أنه خاف البتة، بل ظل ينظر إليه بكل الحقد والكراهية. ثم همس منفعلاً:

حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فأنت قتلته.

وعاد إيفان إلى الجلوس على كرسيه؛ وقد بدا مفكراً في شيء ما، ثم ضحك بطريقة الحاقد، ثم قال:

إنك تقصد سفري؛ أتعني ذلك الحديث الذي حدثتني به في المرة الماضية؟

ـ لقد وقفت تجاهي في المرة الماضية وفهمت كل شيء، وأنت الآن عالم بكل شيء.

ـ كل ما أعلمه هو أنك مجنون.

ـ ألم تشعر بالملل من هذا القول؟ ها نحن نقف وجهاً لوجه، ما الفائدة من التمثيل وتبادل الخداع؟ ألا تزال تحاول أن تقذفني بتلك التهمة كلها، في وجهي؟ لقد كنت انت قاتله؛ وأنت القاتل الحقيقي، ولم أكن أنا إلا أداة بيدك، وخادمك المخلص، ولقد فعلتها ملبياً أوامرك.

ـ فعلتها؟ هل أنت الذي قتله؟ وأحس إيفان بالقشعريرة تسري في أوصاله.

وأحس كأن شيئاً خرج من مدار فكره، وأخذته رجفة برد. فنظر إليه سميردياكوف مأخوذاً، وربما كان الفزع الحقيقي الذي استحوذ على إيفان هو الذي أثر فيه، ثم حدق بعينيه واغتصب ابتسامة وقال متلعثماً وهو يبدي التشكك: انك لا تقصد ان تقول انك لم تكن تعلم ذلك حقاً، أليس كذلك؟ وظل إيفان يحدق به وكأنه عجز عن الكلام. وفجأة رنت في اذنيه هذه الكلمات:

آه، لقد مضى فانكا إلى بطرسبورغ

ولن أنتظر عودته.

ثم تمتم إيفان يقول: «أخشى ان تكون حلماً من الأحلام وشبحاً يواجهني».

ـ لا وجود للأشباح هنا، فليس في هذا المكان أحد سوانا نحن الإثنين. وما من شك في أن ثالثنا بيننا.

ملك الرعب على إيفان، وأخذ يتطلع حوله وينقل عينيه في أرجاء الغرفة ثم صاح: «من هو؟ من هو؟ من هو الثالث»؟

ـ إنه الله ذاته، العناية الإلهية. انه ثالثنا الآن. ولكن لا تبحث عنه فلن تجده.

فصرخ إيفان كالمخبول: إنك تكذب إذ تقول انك قاتله! وأنت إما مجنون، أو مزعج لي من جديد.

غير أن سميردياكوف ظل يرقبه باهتمام ولم يظهر أنه خائف قط، ولكن

ظهر عليه كأنه لا يصدق شكوك إيفان، وكأنه يتخيل بأنه كان مدركاً كل شيء ويحاول أن يرميه بالتهمة كلها.

وأخيراً قال يخاطب إيفان بصوت خائر: مهلا. وفجأة رفع ساقه اليسرى من تحت المنضدة، وأخذ يطوي ساق سرواله. وكان يلبس جوارب بيضاء وخفاً. نزع رباط جوربه بتمهل وأدخل اصابعه فيه وأخذ يدفعها إلى أسفل. وحدق إيفان فيه، وفجأة عرته هزة من الرعب.

ثم صاح قائلاً: إنه مجنون! وقفز بسرعة من مكانه مرتداً الى الوراء، فارتطم ظهره بالجدار وبقي ملتصقاً به منتصباً لا يبدي حراكاً. وأخذ ينظر وقد بدا عليه الرعب الجنوني من سميردياكوف الذي أهمل رعبه تماماً، وتابع يتحسس جوربه بأصابعه وكأنه يحاول أن يمسك بها شيئاً ما ويخرجه. وأخيراً ظفر بذلك الشيء وأخذ يجذبه إلى فوق. ورأى إيفان أنه كان قطعة من الورق، أو حزمة من الأوراق، وقد أخرجها سميردياكوف ووضعها على المنضدة. وقال بهدوء: ها هي ذي.

فأجابه إيفان وهو يرتعد: وما هي؟

فعاد سميردياكوف إلى القول بصوته الخافت: تفضل بالنظر إليها.

فتقدم إيفان نحو المنضدة، وتناول حزمة الأوراق وأخذ يفكها، ولكنه فجأة جذب أصابعه، وكأنه يتخلص من حشرة كريهة.

فقال سميردياكوف: ان أصابعك ما زالت ترتجف. ثم أخذ يفك الحزمة بتؤدة. وكان تحت الغلاف ثلاث حزم من الأوراق النقدية ذات المائة روبل.

وقال يخاطب إيفان وهو يشير برأسه إلى النقود: إنها كلها هنا، كل الثلاثة الآلاف؛ وما من داع لعدّها، خذها. فعاد إيفان إلى الجلوس وقد جعل الرعب وجهه أبيض. ثم قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة: لقد أرعبتني بجوربك.

وعاد سميردياكوف يسأله: هل يعقل ألا تكون قد أدركت هذا الأمر حتى الآن؟

ـ كلا، لم أكن أعرف، ولقد كنت أظنه ديمتري. أواه، أخي، أخي! وقبض على رأسه بكلتا يديه، وأضاف:

ـ اصغ إلي. هل قتلته لوحدك؟ هل ساعدك أخي على قتله أم لم يساعدك؟

ـ بل قتلته بمساعدتك، بمساعدتك أنت. وديمتري فيودوروفيتش بريء.

ـ حسناً، حسناً، دع الحديث عني إلى حين آخر. لماذا أرتعد هكذا؟ إنني لا أستطيع أن أتكلم كما ينبغي.

فتمتم سميردياكوف مندهشاً: لقد كنت جريئاً آنذاك، لقد قلت «إن كل شيء حلال» والآن يبلغ بك الرعب هذا الحد؟. هل لك في تناول شيء من شراب الليمون؟ سأطلب لك منه شيئاً الآن، سينعشك. ولكن يجب أولاً أن أخبىء هذه.

وكان في هذه المرة أيضاً يشير إلى الأوراق النقدية، وأصبح على وشك أن ينهض ويذهب إلى الباب لكي يدعو ماريا كوندراتييفنا ويطلب إليها صنع بعض شراب الليمون واحضاره إليهما، ولكنه في أثناء بحثه عن شيء يخفي فيه النقود كيلا تراها، تناول منديله في أول الأمر، ولكنه كان قذراً جداً، فتناول الكتاب الأصفر الكبير الذي رآه إيفان موضوعاً فوق المنضدة، ووضعه فوق النقود. وكان اسم الكتاب «أقوال الأب المقدس إسحاق السوري». وقد قرأ إيفان عنوانه بلا قصد.

ثم قال يخاطب سميردياكوف: لن أتناول شراب الليمون. دع الحديث عني إلى حين آخر. إجلس وقص علي كيف قتلته. أسرد علي كل التفاصيل.

ـ خير لك ان تخلع معطفك، لئلاً تدفأ أكثر مما ينبغي. وعمل إيفان بهذا الرأي، وكأنه قد تذكر معطفه لتوه، ثم قذف به إلى المقعد دون ان يبرح مكانه.

ـ تكلم، أرجوك أن تتكلم.

وبدا عليه كأن روعه قد هدأ. وانتظر، وهو مطمئن إلى أن سميردياكوف سيقص عليه كل التفاصيل بالتأكيد.

وتنهد سميردياكوف وقال: كيف قتلته؟ لقد قتلته بالطريقة الطبيعية. ملتزماً أوامرك.

فهتف إيفان قائلاً وهو رابط الجأش، هادىء في إخراج كلماته الثابتة،

غير صارخ كسابق عهده: تكلم عن أوامري فيما بعد، وكل ما أريده هو ان تقول لي بالتفصيل كيف قتلته. أريد كل شيء، كما حدث لا تنس شيئاً. وفوق كل شيء أريد التفاصيل، التفاصيل، أرجوك.

ـ لقد مضيت أنت، فوقعت أنا في السرداب.

ـ هل أصابتك النوبة أم تصنعت الوقوع فيها؟

ـ لقد تصنّعت طبعاً. لقد تظاهرت في كل شيء. هبطت درجات السلم بهدوء، حتى بلغت اسفلها وهناك تمددت وصرخت، وأخذت أضرب بيدي ورجلي حتى أدركوني وأخرجوني منه.

ـ مهلاً! هل ظللت تتصنع الإصابة بنوبة الصرع بعد ذلك وأنت في المستشفى؟

ـ كلا، كلا البتة. فلقد أصبت بنوبة حقيقية في صبيحة اليوم التالي، مباشرة قبل نقلي إلى المستشفى، وكانت النوبة الأشد منذ سنوات وظللت غائباً عن وعيي يومين كاملين.

ـ حسناً، حسناً تابع.

ـ لقد وضعوني على فراشي، وكنت أعلم بأنهم سيضعون فراشي بي الجانب الثاني من الحاجز، لأن مارفا ايغناتييفنا اعتادت ان تضعني هناك في الحالات المماثلة، على مقربة منهما. إنها ما زالت منذ ولادتي تحنو علي. وعندما حل المساء أخذت أئن أنيناً هادئاً. وظللت أرقب مجيء ديمتري فيودوروفيتش.

ـ تنتظر مجيئه؟ إليك؟

ـ كلا ليس إلي. لقد كنت أتوقع مجيئه إلى البيت، فما كنت أشك بمجيئه في تلك الليلة. فهو بدوني، وبدون الحصول على أنباء غروشينكا، كان لا بد أن يأتي ويتسلق الجدار كما اعتاد ان يفعل، وينفذ أمراً ما.

ـ وماذا لو لم يأت، ماذا كنت فعلت؟

ـ في مثل هذه الحالة، ما كان ليحدث أي شيء، فأنا لم أكن أنوي أن أنفرد بالعمل لوحدي من دونه.

- حسناً، حسناً... أوضح مقالتك، ولا تعجل. والأهم لا تترك شيئاً!

- لقد كنت أتوقع منه أن يقتل فيودور بافلوفيتش، كنت أظن بأن ذلك واقع حتماً، لأنني كنت قد هيأت ذهنه لهذا العمل... خلال الأيام القليلة السالفة. وقد كان يعلم سر الطرقات، وهذا هو الشيء الرئيسي. فكان مجبراً لا بد على دخول المنزل بواسطة هذه الطرقات بسبب شكه والغضب الذي كان ينمو في نفسه في تلك الأيام. لقد كان ذلك أمراً لا بد منه، ولذلك فقد انتظرته.

فقاطعه إيفان قائلاً: مهلاً، لو انه قتله، لأخذ المال وذهب به، لا بد ان هذا الأمر لم يفت تفكيرك. فلست أدري، ماذا كنت ستكسب من وراء ذلك؟

- ولكنه ما كان ليعثر على المال أبداً. فأنا لم أقل له سوى ان النقود كانت تحت المفرش، ولم يكن هذا صحيحاً، فانها كانت موضوعة في صندوق، وقد اقترحت على فيودور بافلوفيتش فيما بعد، وأنا الوحيد الذي كان يثق به، ان يخبىء الظرف الذي يحتوي على المال في الزاوية خلف الايقونات، فهو مكان لا يخطر ببال أحد، وخاصة إذا جاء مسرعاً.

وهكذا فإن الظرف كان موضوعاً في الزاوية خلف الايقونات. ولقد كان من السخف إخفاء النقود تحت المفرش، أما الصندوق فيمكن اقفاله على كل حال. وهم جميعاً يعتقدون بأنها كانت تحت المفرش، وهو اعتقاد سخيف. وهكذا فإن ديمتري فيودوروفيتش بعد ان يقترف الجريمة، ولا يعثر على شيء، لا بد وان يختار أمراً من اثنين: فإما أن يفر مسرعاً، خائفاً من إحداث أي صوت، كما هو حال القتلة دائماً، وإما أن يقبض عليه. وهكذا فقد كان بوسعي طبعاً ان اتسلق إلى مكان الأيقونات وآخذ النقود في صباح اليوم التالي بل وفي تلك الليلة، وعندها سيتهم ديمتري فيودوروفيتش بكل شيء وقد كانت ثقتي بهذه النتيجة مبررة.

- وماذا عساك كنت فاعلاً لو أنه لم يقتله واكتفى بطرحه أرضاً؟

- لو أنه لم يقتله لما خاطرت طبعاً بسرقة المال، وعندها كان الوضع سيبقى كما هو. ولكنني حسبت بأنه سيفقده رشده، مما يتيح لي الفرصة والوقت لأخذ النقود، ثم أدخل في روع فيودور بافلوفيتش بأن ديمتري

فيودوروفيتش لا سواه هو الذي سرقها بعد أن ضربه.

ـ مهلاً... لقد التاث علي الأمر. إذن فقد كان ديمتري على كل حال هو الذي قتله، واكتفيت أنت بسرقة النقود؟

ـ كلا، إنه لم يقتله. حسناً، انها مناسبة لأقول لك الآن أنه هو الذي قتله. ولكنني لا أريد أن أكذب عليك الآن، لأنك... لأنك حتى الآن كما يبدو لي لم تكن حقاً مدركاً للأمر، ولم تكن تدعي الجهل، لكي تقذف بجريمتك في وجهي، فأنت ما زلت مسؤولاً عن كل شيء، لأنك كنت عالماً بأمر الجريمة وأوكلتني بتنفيذها، وذهبت وأنت تعلم كل شيء عنها. ولذلك فأنا أريد أن أجابهك وأثبت لك الليلة بأنك أنت القاتل الحقيقي الوحيد، لا أنا، وبرغم أنني أنا الذي أزهقت روحه، فأنت القاتل الحقيقي.

فصاح إيفان وقد عجز عن كبح جماح نفسه ونسي أنه قرر إرجاء الكلام عن نفسه حتى نهاية الحديث: لماذا، لماذا، هل أنا قاتل؟ آه يا ربي. أما زلت تعني سفري إلى تشيرماشنيا؟ مهلا، قل لي لماذا كنت في حاجة إلى موافقتي إذا كنت حقاً تعتقد أن سفري إلى تشيرماشنيا كان من قبيل الموافقة معك؟ ما هو تفسيرك لهذا؟

ـ لأنني إذا ضمنت موافقتك، أدركت أنك لن تحدث جلبة بشأن الثلاثة الآلاف روبل حتى ولو حامت حولي الشبهات بدلاً من ديمتري فيودوروفيتش، أو ظن بأنني شريك له، بل إن الأمر على نقيض ذلك، فأنت عندها ستحميني من الآخرين... وبعد أن تضمن نصيبك من التركة، سأظل موضع عطائك طيلة حياتك. ذلك ان حصولك على نصيبك من التركة إنما يكون بفضلي، وستأخذ بعين الإعتبار أنه لو تزوج من أغرافينا الكسندروفنا، لما بقي لك فلس واحد.

فصاح إيفان به غاضباً: آه إذاً فقد كنت تبغي ان تواظب على ابتزازي طيلة حياتي. ولكن ماذا كنت تصنع لو أنني لم أسكت على هذا الأمر وأبلغت رجال الأمن؟

ـ وماذا تستطيع ان تبلغهم؟ أأنني أقنعتك بالسفر إلى تشيرماشنيا؟ انه لغو وحسب. وفضلاً عن ذلك، فقد كان أمامك بعد حديثنا أحد أمرين، فإما أن

تذهب وإما أن تبقى. ولو بقيت لما حدث شيء، فسوف أدرك عندها بأنك لم تكن تريد حدوث ذلك الأمر، فلا أحاول شيئاً. ولكن طالما أنك ذهبت، فذاك يعني أنك قد أكدت لي ضمنا بأنك لن تجرؤ على أن تشهد ضدي في المحكمة، وانك سترضى ضمناً عن أخذي الثلاثة الآلاف. وفي الحقيقة انك لن تستطيع ان تقاضيني فيما بعد، مخافة ان أذكر كل شيء في المحكمة، لا أنني سرقت النقود وقتلته ـ إذ ينبغي لي أن أذكر هذا ـ بل أنك أنت الذي هيأتني للسرقة والقتل، مع عدم موافقتي على ذلك. ان هذا هو السبب في حاجتي لموافقتك، لكي لا تستطيع فيما بعد ان تحرجني، إذ أي دليل يمكن أن يكون لديك؟ وعندها سيكون باستطاعتي أنا أن أحرجك بتبيان مدى رغبتك في موت أبيك، ولأقل لك ان الرأي العام سيصدق جميع أقوالي وستسربل بالعار طيلة حياتك.

فعاد إيفان يصيح قائلاً: وهل كنت راغباً في موته حقاً، هل كنت راغباً؟.

ـ يقينا لقد كنت، وصمتك موافقة ضمنية على قيامي بقتله. ورمق سميردياكوف إيفان بنظرة حازمة. ولقد كان خائراً يتكلم بصوت خافت متئد، غير أن قوة باطنية خفية كانت تحثه على المتابعة. وكان واضحاً تماماً أنه يرمي إلى غاية، وقد لمس إيفان ذلك.

وقال إيفان: تابع كلامك، أنبئني ماذا تم في تلك الليلة.

ـ وماذا هناك أكثر من هذا؟ لقد اضطجعت في الغرفة وخيل إلي أنني أسمع صياح سيدي. وقبل ذلك كان غريغوري فاسيليفيتش قد نهض من فراشه وغادر الغرفة. وفجأة أطلق صرخة ثم خيم الصمت والظلام. ولازمت موقعي وقلبي يجبّ، ولم أستطع احتمال ذلك. وأخيراً نهضت وخرجت. وألفيت النافذة اليسرى المطلة على الحديقة مفتوحة. وخطوت إلى اليسار متنصتاً لمعرفة ما إذا كان لا يزال في الغرفة حياً. وسمعت صوت السيد وهو يدور في الغرفة ويتنهد فأدركت أنه ما زال في قيد الحياة. فذهبت إلى النافذة وناديته قائلا: انني أنا الذي يناديك. فصاح بي يقول: لقد كان، لقد كان هنا، لقد هرب. وكان يعني ديمتري فيودوروفيتش وقال: لقد قتل غريغوري!

فهمست: أين؟ فأشار بيده وقال بهمس مماثل: هناك في الزاوية. فقلت له: مهلا وذهبت استطلع الأمر في زاوية الحديقة، حيث عثرت على غريغوري فاسيلييفيتش متمدداً على الأرض قرب الجدار. كان فاقد الرشد مسربلاً بالدم. فأيقنت أن ديمتري فيودوروفيتش قد جاء حقاً، وعولت على ان أضع حداً لذلك الأمر، نظراً لأن غريغوري فاسيلييفيتش، حتى ولو كان حياً، فهو لن يرى شيئاً طالما أنه فاقد الوعي ممدد في الحديقة. أما الشيء الوحيد الذي كان يخيفني فهو ان تكون مارفا إيغناتييفنا مستيقظة. في تلك اللحظة كان شوقي إلى انجاز الأمر حملني على تجاهل الخوف الذي كنت شعرت به، حتى ان انفاسي أخذت تتردد بصعوبة وعسر. فعدت إلى نافذة السيد وقلت له: إنها هنا، لقد جاءت اغرافينا الكسندروفنا، وتريد الدخول عليك. فأجفل كالطفل، وقال لاهثاً: أين هي؟ ولكنه لم يصدق كلامي. فقلت: إنها واقفة هناك، فافتح لها الباب. فنظر إلي من النافذة وهو نصف مصدق ولكنه كان خائفاً ان يفتح الباب، فقلت في سري: «ان خوفه الآن مني أنا». واعتبرت ذلك أمراً غريباً. وخطر لي أن أنقر إطار النافذة وأطرق الطرقات التي جعلناها علامة مجيء غروشينكا، بحضوره وعلى مرأى منه. وقد بدا عليه أنه لم يصدق أقوالي، ولكنه ما ان سمع الطرقات حتى عدا نحو الباب ليفتحه. وقد فتحه، وكدت أدخل لولا أنه وقف في طريقي حائلاً دون ذلك. وسألني وكيانه كله يرتعد: أين هي؟ أين هي؟ فقلت في نفسي: حسنا، إذا كان يخافني كل هذا الخوف، فذلك أمر سيء! وتخاذلت ساقاي إذ خفت ان يمنعني من الدخول، أو ان يصيح طالباً النجدة أو ان تأتي مارفا إيغناتييفنا، أو يحدث ما ليس بالحسبان. ولست أذكر ما دهاني آنذاك، ولكن لا شك بأنني وقفت ممتقع الوجه، تجاهه. وهمست قائلاً: إنها هناك، هناك، تحت النافذة فكيف لا تراها؟ فقال: أحضرها إذن، أحضرها. فقلت: إنها خائفة، لقد أفزعتها الجلبة، وهي الآن متوارية خلف الشجيرات، فنادها من غرفتك. فعدا نحو النافذة، ومد يده بالشمعة منادياً: غروشينكا غروشينكا، أأنت هنا؟ كان يهتف بهذه الكلمات ولم يشأ ان ينحني ويمد رأسه من النافذة، ولم يشأ ان يبتعد عني، فالخوف كان مستحوذاً عليه إلى حد جعله لا يجرؤ على ان يوليني

ظهره. فذهبت إلى النافذة ومددت جسمي إلى خارجها وقلت له: ها هي ذي، إنها بين الشجيرات، تضحك منك ألا تراها؟ وقد صدق الآن كلامي، وأخذ يرتجف لشدة انفعاله ـ لقد كان مدلهاً بغرامها ـ ومد جسمه من النافذة. وعندها أسرعت فتناولت عن المنضدة القطعة الحديدية التي توضع فوق الأوراق، هل تذكرها، إنها تزن ثلاثة باوندات. ورفعت يدي وأهويت بزاويتها على أم رأسه. سقط على الأرض ولم يصرخ، فعدت وضربته مرتين أخريين. وأيقنت عند الضربة الثالثة أنني هشمت جمجمته، فانقلب فوراً على ظهره ووجهه إلى أعلى وقد غطته الدماء. فتلفّتّ حولي، فلم أجد علي نقطة دم واحدة، فمسحت القطعة الحديدية جيداً وأعدتها إلى مكانها. ثم أتيت مكان الأيقونات، فأخرجت النقود من ظرفها، وألقيت الظرف على الأرض ورميت الشريط الأحمر إلى جانبه وخرجت إلى الحديقة وأنا أرتعد، ومضيت رأساً إلى شجرة التفاح ذات الجذع الأجوف، وأنت تعلم ذلك الثقب فيها. وكانت محط تفكيري قبل ذلك بزمن طويل حيث هيأت في داخلها خرقة وقطعة من الورق. فأخذت الخرقة ولففت فيها الأوراق النقدية ودسستها حتى بلغت أسفل الثقب. وظلت في ذلك المكان أكثر من أسبوعين، ثم أخرجتها منه إثر مغادرتي المستشفى. ثم عدت إلى فراشي واضطجعت عليه وقلت في نفسي: «إذا كان غريغوري فاسيليفيتش قد مات على الفور، فسيكون الأمر شاقاً عسيراً علي، أما إذا لم يمت، بل استعاد قدرته، فإن الأمر سيكون رائعاً، لأنه عندئذ سيشهد على أن ديمتري فيودوروفيتش جاء إلى منزل أبيه، وهذا يرجح أنه قتله وأخذ المال. وعندها أخذت أئن وأنا مضطرب قلق كي أوقظ مارفا إيغناتييفنا بأسرع ما يمكن. وأخيراً استيقظت وجاءتني مسرعة. ولكنها عندما رأت أن غريغوري فاسيليفيتش لم يكن في جوارها، خرجت تعدو، وسمعتها تصرخ في الحديقة. واعتباراً من هنا بدأت الأمور تسير حسب هواي واطمأن بالي.

صمت سميردياكوف، وكان إيفان يصغي إليه صامتاً وهو مثبت نظره عليه. وكان سميردياكوف أثناء حديثه ينظر إليه بين آونة وأخرى، ولكنه كان في معظم الوقت مشيحاً بوجهه عنه. وعندما فرغ من قصته كان عظيم

الاضطراب محطم الفؤاد. وقد تجمعت قطرات العرق على وجهه. ولكن من المستحيل القول أن السبب كان وخز الضمير، أم شيئاً آخر.

وهتف إيفان به قائلاً: مهلاً، وماذا كان من أمر الباب؟ إن كنت صادقاً أنه هو الذي فتح الباب، فكيف رآه غريغوري مفتوحاً قبل مجيئك؟ وقد سبقك غريغوري في الوصول إليه.

والمدهش هنا أن إيفان كان يتكلم بلهجة ودية، لقد تغيرت لهجته ولم يعد الغضب متجلياً فيها كما كان الحال من قبل. ولو اتفق أن أحد الناس فتح عليهما الباب آنذاك واسترق عليهما النظر، لأدرك ولا شك بأنهما كانا يتبادلان حديثاً ودياً حول شأن عادي ولكنه مهم.

وقد أجاب سميردياكوف على سؤال إيفان وهو يزم شفتيه ويغتصب الابتسام: أما قول غريغوري فاسيلييفتش عن رؤيته الباب مفتوحاً فذاك مجرد خيال ووهم، أؤكد لك أنه ليس إنساناً بل بغلاً عنيداً. إنه لم يره مفتوحاً بل خيل إليه بأنه كذلك، وما من سبيل لصرفه عن رأيه. وكان هذا ليصب في حسن الحظ، لأنهم هكذا لا يستطيعون إلا أن يدينوا ديمتري فيودوروفيتش.

وعاد إيفان إلى القول، وقد عاودته الحيرة وبدا كأنه يبذل جهداً في سبيل فهم أمر ما: إصغ إلي، إن هناك عدداً من الأسئلة أريد أن أوجهها إليك، ولكنني أنساها... إنني كثير النسيان، يختلط في رأسي الحابل بالنابل. آه، أجبني عن هذا السؤال الآن: لماذا مزقت الظرف وتركته على الأرض، ولماذا لم تكتف بحمل الظرف؟... كنت تحدثني عنه وأنا أتخيل أنك تصرفت تصرفاً صائباً... ولكن لماذا، لست أدري...

ـ لقد فعلت ذلك لسبب وجيه. فإذا كان هناك إنسان يعرف كل شيء عن ذلك الأمر معرفتي أنا، وإذا كان قد رأى تلك الأوراق النقدية من قبل، وربما وضعها في ذلك الظرف بيده، ورأى الظرف يختم ويكتب عليه العنوان بعينه، إذا كان مثل هذا الإنسان هو القاتل، فما الذي يحمله على تمزيق الظرف بعد ذلك، وخاصة إذا كان في مثل تلك العجلة من أمره، طالما أنه متيقن من وجود الأوراق النقدية في ذلك الظرف؟ كلا، لو كان السارق رجلاً مثلي لاكتفى بوضع الظرف في جيبه وفر به بالسرعة القصوى. غير أن الأمر

كان مختلفاً بالنسبة لديمتري فيودوروفيتش، فما يعلمه من أمر الظرف هو ما سمعه وحسب، وهو لم يره قط، ولو وجده مثلاً تحت المفرش، لسارع إلى فضه لكي يتبين وجود الأوراق النقدية فيه، ولرمى الظرف على الأرض بدون أن يخطر بباله أنه سيتخذ دليلاً ضده، نظراً لأنه لم يكن لصاً محترفاً، ولم يسبق له أن سرق شيئاً بصورة مباشرة، فهو سليل أسرة مرموقة ولم يعتد السرقة، أما أخذه النقود فلن يكون سرقة عادية بل استرداد شيء هو له، لأنه كان أعلن في المدينة كلها أنه عازم على القيام بهذا العمل، وجهر به أمام الملأ بأنه سيذهب إلى منزل فيودور بافلوفيتش ويسترد منه ماله. إنني لم أقل ذلك بصراحة أمام المدعي العام عندما كان يستجوبني، بل ألمحت إليه وحسب، وكأنني لم أر الظرف بنفسي، وجعلته يظن بأنه اهتدى إلى هذه الحقيقة من نفسه ولم أوجهه إليها توجيهاً وخير دليل على هذا، أنه عندما أدرك ذلك، كان لعابه قد فاض في فمه.

وصاح إيفان وقد استحوذت عليه الدهشة: «ولكن هل يمكن أن تكون كل هذه الأفكار قد أتتك عفو الخاطر»؟ وبدأت نظرته إلى سميردياكوف لا تخلو من رعب.

- ليرحمنا الله! من بوسعه أن يفكر بكل هذه الأمور في مثل تلك اللحظة الحرجة وهو في هذه العجلة؟ كلا، لقد كان كل شيء مدبراً سلفاً.

فعاد إيفان يصيح به قائلاً: «حسناً... حسناً إن الشيطان كان يقف إلى جانبك! كلا، إنك لست أحمق، بل أنت أذكى مما كنت أظن...».

ونهض من مكانه يبغي المشي في الغرفة، وكانت نفسه تطفح أسىً. ولكنه عندما رأى أن المنضدة تعترض سبيله، وأن الفسحة بينها وبين الجدار ضيقة لا يكاد تسمح للإنسان بالمرور منها، دار في مكانه وعاد إلى الجلوس. وربما كانت حركته المقيدة سبب شعوره بضيق، وفجأة صاح وقد عاد شديد الغضب:

«إصغ إلي أيها المخلوق الشقي الحقير! ألا فاعلم أن السبب في عدم إزهاقي روحك هو أنني أريدك حياً حتى الغد لكي تمثل أمام المحكمة». ورفع إيفان يده ومضى يقول: يشهد الله على قولي، ربما كنت أنا أيضاً مجرماً،

وربما كانت بي رغبة خفية في أن أرى أبي... مقتولاً، ولكنني أقسم بأني لست مجرماً إلى الحد الذي تظنه، وربما لم أحضك على قتله أبداً. كلا، كلا، لم أهيئك إلى قتله! ولكن لا بأس فسأشهد على نفسي غداً، أثناء المحاكمة. إنه قراري الجازم! سأذكر كل شيء، كل شيء. ولكننا سنظهر معاً أمام المحكمة. وكل ما ستقوله ضدي هناك، وأية شهادة ستشهد بها، سأجابهها، فأنا لست أرهب جانبك. سأعترف بذلك! ولكن يجب عليك أن تعترف أنت أيضاً! يجب عليك، يجب عليك. سنذهب معاً، ذلك ما سيكون.

وقد كان إيفان يتحدث بلهجة جازمة يتجلى فيها الإخلاص، كان وميض عينيه يدل على أن الأمر سيكون حسب قوله.

وقال سميردياكوف بدون أن يمزج كلماته بالسخرية، بل كان العطف جلياً في قوله: إنك مريض، وأنا أرى أنك مريض، فبياض عينيك مائل إلى الصفرة.

فعاد إيفان يقول: سنكون معاً، وإذا لم تذهب أنت فلا بأس، سأكون وحدي.

وأخلد سميردياكوف إلى الصمت وكأنه يفكر عميقاً وعاد يقول بلهجة قاطعة: «لن يحدث شيء من هذا القبيل، وأنت لن تذهب».

فصاح به إيفان، مؤنباً: «إنك لا تفهم مغزى أقوالي».

- إذا اعترفت بكل شيء فسيسربلك العار. وأكثر من هذا فلا فائدة في اعترافك، لأنني سأنكر أمام المحكمة أنني قلت لك شيئاً مما تقول، وأنك إما أن تكون معتلاً (ووجهك يؤيد ذلك)، أو أنك عظيم الأسى لما حل بأخيك، ولذلك فأنت تريد إنقاذه، ولو على حساب نفسك. لقد لفقت كل شيء ضدي، لأنك لم تكن تنظر إلي طيلة حياتك أكثر من نظرتك إلى ذبابة. ثم من ذا الذي سيصدق أقوالك، وليس ثمة دليل واحد على صحتها؟

- إصغ إلي، لقد أريتني هذه الأوراق النقدية، لتوك كي تقنعني.

فأزاح سميردياكوف الكتاب عن الأوراق النقدية، ووضعه جانباً، ثم قال متنهداً: خذ النقود معك.

فنظر إليه إيفان مأخوذاً وقال له: «سآخذها طبعاً، ولكن كيف تسلمني

إياها وأنت اقترفت جريمة القتل من أجل الحصول عليه؟».

فقال سميردياكوف بصوت متهدج، وهو يشير بيده إشارة الرفض: «إنني لا أريدها. لقد كنت أود أن أبدأ حياة جديدة بهذه النقود في موسكو، أو خير من هذا في بلد أجنبي. لقد كنت أحلم بهذا لأنني في المقام الأول كنت أدرك «أن كل شيء حلال». إن ما علمتنيه هو الصواب، وكنت مسرفاً في الحديث معي في هذا الأمر. فإذا لم يكن هنالك وجود لله السرمدي، فلن توجد أو تعرف الفضيلة، ولن تكون هنالك من حاجة لها، لقد صدقت في هذا القول، كذلك أيضاً كانت نظرتي إلى الموضوع.

فسأله إيفان وهو يغتصب الابتسامة: هل استنتجت هذا بنفسك؟.

- بل بوحي منك.

- والآن، هل لي أن أظن بأنك تؤمن بالله كونك تعيد المال؟

فهمس سميردياكوف قائلاً: كلا، لا أؤمن.

- إذاً فلماذا ترده؟

فلوح سميردياكوف بيده وقال: «كف عن هذا... إن هذا يكفيني! لقد كان دأبك أن تقول كل شيء حلال، فعلام اضطرابك الآن؟ بل إنك ذاهب لكي تشهد ضد نفسك... ولكن كلا، إن هذا لن يحدث». واختتم سميردياكوف كلامه بلهجة قاطعة: «إنك لن تتقدم بهذه الشهادة».

فقال إيفان: سترى.

- إن هذا مستحيل. فأنت رجل عظيم الذكاء، ومحب للمال. إنني أعلم ذلك. وأنك تحب أن يحترمك الناس، لأنك متعجرف. كما أنك مغرم موله بمفاتن النساء. إن همّك الأكبر هو أن تعيش مرفهاً لا يعكر صفاءك كدر، بدون أن تكون عالة على غيرك. إن هذا هو ما يهمك أكثر مما عداه. وأنت لن تدنس حياتك إلى الأبد بقبول هذا العار. إنك تشبه فيودور بافلوفيتش، وأقرب أبنائه إليه في صفاتك؛ وفي جسمك روح كروحه.

فقال إيفان مأخوذاً بما سمع: «إنك لست أحمق». واحتقن وجهه بالدم

وقال وهو ينظر إلى سميردياكوف نظرة جديدة: «إنك جاد الآن»!.

- كنت تتصورني أحمق بفعل من كبريائك. هاك النقود.

فتناول إيفان النقود ودسها في جيبه دون أن يلفها بأي شيء.

ثم قال: سأعرضها على المحكمة غداً.

- إنك لن تجد أحداً يصدقك، نظراً لأن لديك مالاً كثيراً ولا مانع من الاعتقاد الآن بأنك أخذت المال من صندوقك وقدمته إلى المحكمة.

ونهض إيفان عن مقعده، ثم قال: إنني أكرر قولي، أنني لم أقتلك لأنني سأكون في حاجة إليك غداً. اذكر هذا ولا تنسه.

وحدجه سميردياكوف بغتة بنظرة غريبة وهتف قائلاً: «حسناً، اقتلني الآن». وأضاف وهو يبتسم ابتسامة مرة: «إنك لا تجرؤ حتى على تنفيذ هذا، إنك لا تجرؤ على فعل أي شيء يا من كنت جريئاً مقداماً»!

فصاح إيفان وهو يبغي الخروج: إلى الغد.

- قف هنيهة... أرني هذه النقود مرة أخرى.

فأخرج إيفان النقود من جيبه وأراه إياها. فنظر إليها سميردياكوف لمدة عشر ثوان. ثم قال وهو يشير بيده: «حسناً، بوسعك الآن أن تذهب». وما لبث أن ناداه: «إيفان فيودوروفيتش».

فالتفت إليه إيفان وهو يكمل طريقه دون أن يقف، وقال له: ماذا تريد؟

- وداعاً.

فهتف إيفان به وهو يخرج من الغرفة: إلى الغد!

كانت العاصفة الثلجية لا تزال تهب. فسار إيفان الخطوات الأولى ثابتاً، وفجأة أخذ يترنح في مشيته، وقال مبتسماً: «إن ما أشعر به هو شيء جسماني». وكان يشعر بمثل البهجة تفيض من قلبه، فقد كان يتهيب أمراً كان عقد عليه العزم بصورة غير محدودة. إنه سيضع حداً لذلك التردد الذي أقض مضجعه في الآونة الأخيرة. لقد عقد عزمه على ذلك، وقال يخاطب نفسه مسروراً: «والآن لن يثنيني شيء عن عزمي». وفي تلك اللحظة تعثرت قدمه

حتى كاد يقع على الأرض. فتوقف وأخذ يتحسس الأرض بقدمه فعثر على الفلاح الذي ألقاه أرضاً، وهو لا يزال مطروحاً فاقد الحس لا حراك به. وكان الثلج يوشك أن يغطي وجهه. فحمله إيفان بين يديه، وإذ أبصر نوراً منبعثاً من منزل صغير قائم إلى يمينه، اتجه نحوه وقرع نافذته، وسأل صاحب المنزل أن يساعده على نقل الفلاح إلى مركز الشرطة، واعداً إياه بإعطائه ثلاثة روبلات، فهيأ الرجل نفسه وخرج معه.

ولن أسرد بالتفصيل كيف نجح إيفان في مهمته، وكيف أنه حمل الفلاح إلى مركز الشرطة، واستدعى طبيباً لمعالجته فوراً وكان يدفع المال بسخاء. وسأكتفي بالقول أنه أمضى ساعة كاملة في هذه المهمة. إلا أنه كان راضياً بما قام به. وكان ذهنه شروداً يتنقل بين أشياء كثيرة.

وخاطب نفسه قائلاً: «لو أنني لم أقطع برأيي فيما سأفعله في الغد، لما لبثت ساعة أعنى بأمر الفلاح، بل لمررت به دون أن آبه لتجمده برداً. إنني ما زلت قادراً على مراقبة نفسي». ثم قال والرضى يزداد في نفسه: «ولو أنهم سيقررون بأنني قد فقدت عقلي».

ولما بلغ منزله توقف عن السير، وتساءل عما إذا كان لا يجدر به أن يذهب إلى المدعي العام تواً ويطلعه على كل شيء. ولكنه صرف ذهنه عن هذا واستدار نحو منزله وقال هامساً: «غداً يتم كل شيء في آن واحد»! ومن الغريب أنه فقد في هذه اللحظة الواحدة كل ما كان يشعر به من سعادة ورضى.

وعندما دخل إلى غرفته أحس بمثل اليد الباردة تلمس قلبه، كأنها يد الذكرى، أو كأنها شيئاً أعاد إلى ذهنه أمراً مؤلماً، لما رآه الآن ماثلاً في الغرفة. فجلس على الأريكة متهالكاً. وجاءته الخادم العجوز بإبريق الشاي فصب منه كوباً ولم يذقه. وظل جالساً على الأريكة وأخذ يشعر بدوار. وأدرك أنه مريض عاجز. وأخذ يهوم، ولكنه ما لبث أن هب واقفاً وأخذ يمشي في الغرفة لكي يبعد الكرى عن جفنيه، وخيل إليه أحياناً أنه يهذي، ولكن المرض لم يكن هو محور انتباهه. وعاد إلى الجلوس وأخذ يلتفت فيما حوله كأنه

يبحث عن شيء. كرر ذلك مرات عدة وأخيراً ثبت إيفان بصره في ناحية واحدة، وابتسم ابتسامة شاركت علامات الغضب في وجهه. وأطال الجلوس في مكانه وقد أسند رأسه بين يديه، ولو أنه كان ينظر نظرة جانبية من الغرفة، حيث الأريكة الموضوعة عند الجدار المقابل. ثمة شيء ما كان هناك سبَّب له الإزعاج والضيق والعذاب.



الشيطان ـــ كابوس إيفان

لست طبيباً، ولكنني أشعر بأن الوقت قد حان كي أوضح للقارىء شيئاً عن طبيعة مرض إيفان. ويمكنني استباقاً للحوادث أن أقول شيئاً واحداً على الأقل: وهو أنه كان في تلك اللحظة يوشك أن يصاب بحمى الدماغ. فهو يعاني منذ زمن بعيد من تدهور في صحته. وعندما وقع مؤخراً فريسة للحمى، كان يبدي لها مقاومة عنيدة. ومع أنني لا أفقه شيئاً من شؤون التطبيب، إلا أن ذلك لا يمنعني من المجازفة بالقول أنه قد يكون باستنهاض إرادته، قد أفلح فعلاً في تأخير عنفوان المرض زمناً ما، وهو يطمح طبعاً إلى وقفه تماماً. وكان إيفان يدرك أنه ليس على ما يرام، ولكن نفسه كرهت فكرة سيطرة المرض عليه في تلك اللحظة الحاسمة. وعند بروز أزمة عمره، حيث أصبح في حاجة إلى مواهبه كلها، كي يقول ما ينبغي له أن يقول بشجاعة وعزم «ويبرر لنفسه دخيلة نفسه».

وعلى كل حال، فقد استشار الطبيب الجديد، الذي وصل من موسكو بناء لطلب مستغرب من كاترينا إيفانوفنا، وهو ما سبق لي أن أشرت إليه. وبعد أن أصغى الطبيب إلى أقواله، وقام بفحصه خلص إلى الحكم بأنه كان في الحقيقة يشكو اضطراباً محدداً في دماغه. ولم يدهش أبداً من إقرار فاه به إيفان متردداً بحضوره. وقال الطبيب مبدياً رأيه في الموضوع: «إن التصورات ممكنة في مثل حالتك، والأفضل أن تتثبت من ذلك... يجب أن تباشر بعلاج نفسك تواً، بدون أن تضيع لحظة واحدة وإلا ساءت حالتك». لكن إيفان لم يأبه لهذه النصيحة القيمة تجنباً منه أن يلزم فراشه ويعنى أحد به. وقد اتخذ قراره النهائي قائلاً في نفسه: «إنني قادر على السير والانتقال من مكان إلى آخر، ولذلك فإن قوتي لم تبرحني، ولكن إذا وقعت فريسة المرض فإن الأمر

يصبح مختلفاً، وعندها يستطيع أي إنسان أن يمرضني إذا شاء ذلك».

وهكذا فقد كان جالساً وهو يكاد يدرك أنه أوشك على الوصول إلى مرحلة التهيؤات والهذيان، وكما قلت آنفاً فقد كان يثبت بصره في شيء على الأريكة عند الجدار المقابل. وخيل إليه أن شخصاً ما كان يجلس هناك، وإن كان أحد لا يدري كيف دخل إلى الغرفة، لأن إيفان كان وحده في الغرفة لدى عودته من مسكن سميردياكوف. وقد كان ذلك الشخص إنساناً، أو إذ توخينا الدقة سيداً روسياً من نوع خاص، أدبر شبابه فصار يناهز الخمسين من العمر كما يقول الفرنسيون، ذا شعر طويل أدكن ما زال غزيراً وخطه الشيب، وله لحية صغيرة مدببة. وكان يرتدي سربالاً ضيقاً كاد يبلى، ظاهرة فيه مهارة خياطه. ويعود زيّه إلى ثلاثة أعوام خلت، وكان المتأنقون الأثرياء قد انصرفوا عن هذا الطراز منذ عامين، أما قميصه وربطة عنقه العريضة الطويلة وملابسه الداخلية فقد كانت جميعاً مما يلبسه أولو الذوق. ولم تكن هذه الملابس لتبدو نظيفة تماماً للمتأمل فيها عن كثب وقرب، خاصة ربطة عنقه التي كانت قد تآكلت في أجزاء عدة. وكانت سراويل الزائر بديعة التفصيل، ولكنها كانت حائلة اللون عظيمة الضيق حتى أنها لم تكن من ذات الطراز الشائع. وأما قبعته الناعمة اللينة البيضاء فما كانت تناسب هذا الفصل من العام.

وجملة القول، كانت تظهر على الزائر مظاهر الرفعة الغابرة، كأنه من أولئك الكسالى من أصحاب الأطيان الذين كانت لهم دولة وصولجان أيام رقيق الأرض. ولم يكن هناك من شك في أنه كان في وقت من الأوقات ينتمي إلى مجتمع رقيق باذخ، وأنه كانت له اتصالات ذات شأن، وربما كانت قائمة حتى اليوم، ولكنه بعد إدبار شبابه الزاهر، وتناقص ثرائه بعد إلغاء نظام رقيق الأرض، أصبح مركزه في الحياة في مستوى مركز رجل من أدنى المتصلين بالطبقة العليا، كثير التنقل بين صديق طيب قديم وآخر، يقابل بالترحاب بسبب طيب عشرته، ولطفه وإيناسه، لا يجد الإنسان غضاضة في مجالسته، ولو أن مكانه بطبيعة الحال لا يكون صدور المجالس. إن هؤلاء الرجال ذوي الطبع الهادىء الذين يؤمن لهم غيرهم شؤون معاشهم، والذين يحسنون جلسات السمر ولعب الورق ويكرهون بالفطرة أداء الواجبات حتى

التي تفرض عليهم فرضاً، يكونون عادة أناس وحيدين في الحياة، وهم إما أن يكونوا من العزاب أو الأرامل. وقد ينجبون الأبناء أحياناً، غير أن أبناءهم ينشأون عادة بعيدين عنهم، على يد خالة، لا يذكرها أمثال هذا الرجل بالخير أبداً في المجتمعات الشريفة، وكأنهم يخجلون من قرابتها. ثم ينقطعون تدريجياً عن رؤية أبنائهم، ولو أنهم في فترات معينة يتلقون منهم بالبريد رسائل تهنئة في عيد أو مناسبة، وهم أحياناً لا يكلفون أنفسهم حتى عناء الرد عليها.

ولم تكن ملامح الرجل الطارىء توحي بالطيبة، بقدر ما كانت توحي بقدرته على تصنع البشاشة والود عند الحاجة، ولم يكن يحمل ساعة، بل نظارات إطارها من عظم السلاحف متدلياً من شريط أسود. كان يضع في الإصبع الوسطى من يده اليمنى خاتماً ذهبياً كبير الحجم فيه فص من حجر غير كريم.

ظل إيفان جالساً في مكانه وهو حانق، ولم يشأ أن يكون البادىء بالكلام. وكان الزائر يجلس جلسة رجل يشعر بصغر شأنه، هبط من غرفته يشارك مضيفه في تناول الشاي. وأخلد إلى الصمت بعد أن رأى مضيفه عابساً غير مكترث له. لكنه كان متأهباً للانخراط في أية محادثة ودية حالما يفتتحها المضيف. وفجأة ظهرت على وجهه أمارات الاهتمام وقال يخاطب إيفان:

«عفواً، إنني أود أن أنبهك إلى أمر واحد، هو أنك ذهبت إلى منزل سميردياكوف لكي تقف على أنباء كاترينا إيفانوفنا، ولكنك عدت بدون أن تظفر بشيء عنها، وربما نسيت...».

فصاح إيفان قائلاً: «آه، نعم». وبدا عليه الوجوم والاضطراب. وقال في نفسه: «لا بأس، فإلى الغد». ومضى يقول مخاطباً زائره: وأنت ما شأنك، لقد كنت قميناً بأن أذكر ذلك من نفسي في مدى دقيقة، لأن هذا هو الخاطر الذي كان يعذبني! فلماذا تتدخل، كي تجعلني أعتقد بأنني ما كنت لأذكره أنا بنفسي لولا أن ذكرتني أنت به؟.

فأجابه الرجل وهو يبتسم متودداً: إذن فلا تؤمن بما أقوله لك، فما الفائدة

التي تفرض عليهم فرضاً، يكونون عادة أناس وحيدين في الحياة، وهم إما أن يكونوا من العزاب أو الأرامل. وقد ينجبون الأبناء أحياناً، غير أن أبناءهم ينشأون عادة بعيدين عنهم، على يد خالة، لا يذكرها أمثال هذا الرجل بالخير أبداً في المجتمعات الشريفة، وكأنهم يخجلون من قرابتها. ثم ينقطعون تدريجياً عن رؤية أبنائهم، ولو أنهم في فترات معينة يتلقون منهم بالبريد رسائل تهنئة في عيد أو مناسبة، وهم أحياناً لا يكلفون أنفسهم حتى عناء الرد عليها.

ولم تكن ملامح الرجل الطارىء توحي بالطيبة، بقدر ما كانت توحي بقدرته على تصنع البشاشة والود عند الحاجة، ولم يكن يحمل ساعة، بل نظارات إطارها من عظم السلاحف متدلياً من شريط أسود. كان يضع في الإصبع الوسطى من يده اليمنى خاتماً ذهبياً كبير الحجم فيه فص من حجر غير كريم.

ظل إيفان جالساً في مكانه وهو حانق، ولم يشأ أن يكون البادىء بالكلام. وكان الزائر يجلس جلسة رجل يشعر بصغر شأنه، هبط من غرفته يشارك مضيفه في تناول الشاي. وأخلد إلى الصمت بعد أن رأى مضيفه عابساً غير مكترث له. لكنه كان متأهباً للانخراط في أية محادثة ودية حالما يفتتحها المضيف. وفجأة ظهرت على وجهه أمارات الاهتمام وقال يخاطب إيفان:

«عفواً، إنني أود أن أنبهك إلى أمر واحد، هو أنك ذهبت إلى منزل سميردياكوف لكي تقف على أنباء كاترينا إيفانوفنا، ولكنك عدت بدون أن تظفر بشيء عنها، وربما نسيت....».

فصاح إيفان قائلاً: «آه، نعم». وبدا عليه الوجوم والاضطراب. وقال في نفسه: «لا بأس، فإلى الغد». ومضى يقول مخاطباً زائره: وأنت ما شأنك، لقد كنت قميناً بأن أذكر ذلك من نفسي في مدى دقيقة، لأن هذا هو الخاطر الذي كان يعذبني! فلماذا تتدخل، كي تجعلني أعتقد بأنني ما كنت لأذكره أنا بنفسي لولا أن ذكرتني أنت به؟.

فأجابه الرجل وهو يتبسم متودداً: إذن فلا تؤمن بما أقوله لك، فما الفائدة

من جعلك تؤمن قسراً؟ وفضلاً عن ذلك فالبراهين، وخاصة المادية منها، ليست مدعاة للاعتقاد. إن توما آمن حباً بالإيمان، قبل أن يرى المسيح ينهض، لا حين رآه ينهض فعلاً. أنظر إلى الروحيين مثلاً... وأنا مغرم بهم... يكفي أن تتخيل هذا، فهم يظنون أنهم يخدمون قضية الدين، لأن الشياطين تظهر لهم قرونها من العالم الآخر. وماذا بعد العالم الآخر والبراهين المادية! وإذا رغبت في معالجة هذا الموضوع، هل يكون إثبات وجود الشيطان دليلاً على وجود الله؟ إنني أريد أن أنضم إلى مجتمع مثالي، وسأكون مع المعارضين في هذا المجتمع، وسأقول بأنني واقعي، ولكنني لست مادياً. وضحك الرجل جذلاً.

وفجأة نهض إيفان من مجلسه عند المنضدة وهو يقول: «إصغ إلي، يبدو أنني أهذي... إنني أهذي حقاً، فقل ما يتراءى لك من سخافات، فلست أبالي! وأنت لن تنجح كالمرة السابقة في حملي على أن أثور. ولكنني أشعر بشيء من الخجل... أريد أن أتمشى في الغرفة... إنني في بعض الأحيان لا أراك بل ولا أسمع صوتك كما فعلت في المرة السابقة، لكنني في جميع الأحيان أتكهن بما تريد أن تثرثر به من أقوال، لأنني أنا المتكلم لا أنت. ولست أدري ما إذا كنت حالماً في المرة السابقة أم أنني رأيتك حقاً. سأبلل منشفة وأضعها على رأسي، فقد تتلاشى عندها وتغيب عن ناظري».

ومضى إيفان نحو ركن الغرفة وأخذ منشفة مبللة بالماء ووضعها فعلاً على رأسه كما قال ثم أخذ يسير في الغرفة من أقصاها إلى أقصاها.

وعاد الزائر يقول: «إنني جد سعيد لأنك تعاملني بهذه الدالة».

فأجابه إيفان ضاحكاً: «أو تظن أيها الأحمق بأنني سأتكلف الحديث معك تكلفاً؟ إنني منشرح الصدر، رغم الألم في جبهتي وقمة رأسي... ولكن أرجوك ألا تنطق بالفلسفة كما نطقت بها في المرة السابقة، فإذا لم تستطع أن تغيب عن ناظري، فليكن حديثك مسلياً. جئني بالأقاويل. أي كابوس هذا الذي يجثم على صدري! ولكنك لا تخيفني وسأستغلك إلى أقصى حد. ولن أحمل إلى مستشفى المجانين»!.

ـ أما أنني دونك منزلة فشيء رائع. نعم، إنني الآن على سجيتي، وطبيعتي، إذ لست بين الناس سوى جليس حقير! وما دمنا في معرض

الحديث عن هذا الأمر، فلا أجد مندوحة عن أن أقول لك أنني أصغي إليك وأنا مندهش، إذ أراك قد بدأت حقاً تعتبرني شيئاً حقيقياً لا مجرد خيال، كما أصررت في المرة السابقة.

فصاح إيفان مهتاجاً: «إنني لم أعتبرك لحظة قط شيئاً حقيقياً، فأنت أكذوبة، أنت خيال. إن عجزي عن الاهتداء إلى وسيلة لتحطيمك هو وحده يحتم علي أن أشقى مدة من الزمن. إنك تصوراتي وأوهامي وأنت ذاتي مجسمة ولكن في صورة واحدة فقط من صور نفسي... وأنت أفكاري ومشاعري، ولكنك أحقرها وأغباها. وقد تكون مصدر اهتمامي من هذه الناحية، هذا إذا وجدت متسعاً من الوقت أهدره في التفكير بأمرك...».

فضحك الزائر متأدباً وقال: «معذرة، معذرة، سأوقع بك. إنك عندما حملت على أليوشا تحت المصباح في هذه الأمسية وصحت به قائلاً: «لقد علمت هذا الأمر منه، كيف علمت أنه يزورني؟» كان فكرك منصرفاً إلي، وهذا يثبت أنك في لحظة من اللحظات كنت تؤمن بوجودي.

- نعم، لقد كنت آنذاك في لحظة من لحظات ضعفي... ولكنني لم أكن مؤهلاً أن أؤمن بك. ولست واثقاً ما إذا كنت نائماً أم يقظان في المرة السابقة. وربما كنت مستغرقاً في الحلم فلم أرك أبداً...

- ولماذا كنت واثق الحديث لتوك مع أليوشا؟ إنه إنسان أثير على النفس، ولقد قسوت عليه في التجربة بعيد وفاة الأب زوسيما.

فعاد إيفان إلى الضحك، وقال: «إياك والحديث عن أليوشا! كيف تجرؤ على ذلك أيها الخادم»!.

- إنك تعنفني وأنت تضحك، وهذه علامة طيبة. غير أن تأدبك الآن هو أكثر منه في المرة السابقة وأنا أعلم السبب: إنه ذلك القرار العظيم الذي اتخذته...

فصاح إيفان هائجاً: لا تتحدث عن قراري.

- إنني أفهم، إنني أفهم، وهذا شيء نبيل، رائع. إنك تود أن تدافع عن أخيك وتضحي بنفسك... إن هذه مروءة.

- إمسك لسانك وإلا ركلتك!

ـ لن آسف على ذلك أسفاً عظيماً، لأنني بذلك أحقق هدفي المنشود. فأنت إذا ركلتني كان معنى ذلك أنك تقر بحقيقتي لأن الناس لا يركلون أشباحاً. وبعيداً عن المزاح، فإن هذا لا يهمني، أنبئني إذا شئت ولو كان الأفضل لك أن تكون معي أكثر أدباً ولو بمقدار زهيد، خادم، أحمق! أية كلمات هذه!؟.

فعاد إيفان إلى الضحك وقال: «إنني أؤنبك فإنما أؤنب نفسي، فأنت ذاتي، ذاتي، ولكن صورة ثانية إنك فقط تردد أفكاري، ولست كفئاً لأن تأتي في قولك بالجديد من الأمور»!.

فأجاب الرجل برقة ووقار: «إذا كنت أشبهك من حيث الانسجام الفكري بيننا، فهذا مما يعزز حجتي».

فصرف إيفان أسنانه وقال: «إنك لا تختار إلا أسوأ أفكاري، وإمعاناً في الإساءة إنك تختار أفكاري الحمقاء. إنك أحمق فظ وغبي إلى حد مخيف. كلا، ليس بوسعي أن أصبر عليك! ماذا أصنع بك، ماذا أصنع»؟.

فعاد الزائر إلى القول محاولاً أن يظهر كبرياء تنطوي على التوسل والسذاجة، شأن الجليس الحقير: يا صديقي العزيز، في النهاية، أريد أن أتصرف تصرف السادة المحترمين فأكون موضع الاحترام. إنني فقير غير أني... لن أقول إنني مغال في الأمانة، ولكن... هناك مقولة مسلم بها في المجتمع وهي أنني ملك ساقط، ويقيناً لست أستطيع أن أتصور كيف أنني كنت ملكاً من الملائكة. ولو صح أني كنت في الماضي ملكاً، فلا بد أن يكون في الماضي البعيد، حتى أنه لا ضرر في نسيان ذلك. أما الآن فلا يهمني إلا اكتساب صيت الإنسان المهذب، والسعي لكي أجعل نفسي مقبولاً لدى الناس. إنني أحب الناس حباً صادقاً. ولقد اغتابني الناس وتناقلوا عني الأقاويل. أما هنا عندما أتردد عليك بين حين وآخر، أقترب أن أكون حقيقة من الحقائق، وهذا ما أحبه أكثر مما سواه. وأنا مثلك أشقى بسبب الوهم، ولذلك فأنا أحب واقعية الأرض. وهنا معك، أحد الحدود لكل شيء، وأرى كل شيء منسقاً قائماً على أساس هندسي، في حين أننا لا نملك سوى المعادلات

المعقدة! إني أطوف في هذا المكان وأستغرق في الأحلام. وأنا أحب الأحلام.

وفضلاً عن ذلك، فأنا على الأرض يحلو لي أن أسرف في الأوهام. وأنا أنغمس في جميع عاداتكم هنا، حتى أنني أغرقت في الذهاب إلى الحمامات العامة، هل تصدق ذلك؟ فتراني أقصدها لأستحم مع التجار والكهنة. وما أود أن أكونه هو صورة إنسان مجسم إلى الأبد لزوجة بدينة لأحد التجار وزنها مائة وأربعة عشر كيلو غراماً، وأن أؤمن بكل ما تؤمن به. وما أطمح إليه هو أن أتردد على الكنيسة وأن أضيء شمعة بقلب مفعم بالإيمان البسيط. أقسم أن هذا هو حالي، فعندها تنتهي آلامي. وأحب كذلك أن أخضع لمعالجة طبية. ولقد انتشر في الربيع وباء الجدري فسارعت وتلقحت للوقاية منه، وكنت في ذلك اليوم على قدر عظيم من البهجة. لقد تبرعت بعشرة روبلات لنصرة قضية السلاف!... ولكن أرى أنك لا تصغي إلي. هل تعلم أنك الليلة لست على ما يرام؟ وأعلم أنك ذهبت بالأمس إلى الطبيب... حسناً، كيف صحتك؟ وماذا قال الطبيب؟.

فصاح إيفان حانقاً: إنك أحمق!.

- إنك ذكي على كل حال. وها أنت ذا تعود إلى تأنيبي! إنني لم أسألك بدافع من العطف، فلست مجبراً أن تجيب عن سؤالي. لقد عاد إليك مرض الروماتيزم.

فأعاد إيفان قوله: إنك أحمق!.

- أراك تردد كلمة واحدة لا تحيد عنها، إنني ما زلت أذكر كم كانت شديدة نوبة الروماتيزم التي أصبت بها في العام الماضي.

كأن الشيطان يصاب بالروماتيزم!.

- وما يمنع ذلك إذا كنت أتجسد بشراً أحياناً؟ إنني أتحمل تبعة هذا التجسد. أظن أن بوسع الشيطان أن يهلك أبناء البشر أو أن يصيبهم في عقولهم.

- ماذا، ماذا؟ بوسع الشيطان أن يهلك أبناء البشر... إن هذا ليس أمراً سيئاً بالنسبة للشيطان!.

ـ إنني سعيد لأنني جعلتك تشعر ببعض السرور.

وأمسك إيفان عن الكلام هنيهة كالمأخوذ، ثم قال: مما يدعو إلى الغرابة، أن قولك هذا لم تستوحه مني، فهو لم يجل في خاطري أبداً.

ـ وهل هذا شيء جديد؟ سأكون مخلصاً هذه المرة وأوضح لك الأمر. إصغ إلي، إن الإنسان في أحلامه، وخاصة المخيفة منها الناجمة عن عسر الهضم، أو أي شيء آخر، يرى رؤى عجيبة. إنه يرى مزيجاً مضطرباً من الأشياء، وحقائق ثابتة، ووقائع، بل ودنيا حافلة بالوقائع، متداخلة بشكل غريب، ذات تفاصيل لا تخطر ببال، تتناول أسمى الأمور وأتفهها، تفاصيل، أقسم أن ليو تولستوي لم يبتدع مثلها قط. ومع ذلك فإن أرباب القلم لا يرون مثل هذه الأحلام، كذلك أبسط الناس كالموظفين والصحفيين والكهنة... إن هذا الموضوع لغز مغلق. لقد اعترف لي أحد الساسة فعلاً بأن أفضل أفكاره إنما أتته في المنام. حسناً، إن هذا هو واقع الحال معك. مع أنني مصدر تصوراتك، إلا أنني، كالأحلام المخيفة أقول أشياء أصيلة من عندي، لم تخطر ببالك من قبل. ولذلك فأنا لا أردد أفكارك، ومع ذلك فأنا حلمك المخيف، وحسب.

ـ إنك تكذب، وتريد أن تقنعني بأنك شيء قائم بذاته وأنك لست كابوساً، وها أنت تؤكد لي بأنك حلم.

ـ يا صديقي العزيز، لقد اخترت اليوم أسلوباً خاصاً، سأوضحه لك فيما بعد. مهلاً، أين بلغت في كلامي؟ آه، نعم لقد أصبت عندها بالزكام، لكن ليس في هذا العالم بل هناك.

فهتف إيفان وقد استبد به اليأس: «أين هو ما تشير إليه؟ قل لي هل ستلبث طويلاً هنا؟ ألا تستطيع المغادرة»؟ وتوقف عن السير في أرجاء الغرفة، وجلس على الأريكة، وأسند مرفقيه إلى المنضدة ثانية، وشد على رأسه بيديه، وأمسك بالمنشفة المبتلة وقذفها بعيداً وهو غاضب، ذلك أنها لم تفده شيئاً.

فقال الزائر متكاسلاً وهو يلتزم التأدب التام: إن أعصابك مختلة فقد أثارت إصابتي بالزكام غضبك، مع أن الإصابة وقعت بشكل طبيعي. لقد كنت آنذاك أنطلق مسرعاً إلى سهرة دبلوماسية في منزل سيدة رفيعة الحسب

بمدينة بطرسبورغ، كانت تهدف إلى الإمساك بخيوط النفوذ والسلطة في الوزارة. حسناً، لقد كنت أرتدي بزة السهرة وأضع ربطة بيضاء وألبس القفاز، وكنت في مكان قصي لا يعرفه إلا الله، ورغم ذلك اضطررت إلى الطيران عبر الفضاء كي أصل إلى أرضكم... ولم يستغرق ذلك هنيهة بطبيعة الحال. ولكنك تعلم أن شعاع النور المنبعث من الشمس يحتاج إلى ثماني دقائق حتى يصل إلى الأرض. وتصور كيف أنني كنت أطير مرتدياً بزة السهرة وصداراً مفتوحاً. إن الأرواح لا تتجمد، إلا إذا تجسمت بصورة الآدميين وصارت ذات لحم ودم، حسناً... مجمل القول أنني انطلقت دون تفكير بالأمر. وأنت تعلم شدة الصقيع في ذلك الفضاء الأثيري، في الماء الذي فوق الجلد... إن الإنسان على أقل تقدير لا يستطيع أن يسميه صقيعاً، وتصور مقدار البرودة التي تبلغ مائة وخمسين درجة تحت الصفر! إنك تعرف اللعبة التي تلهو بها الفتيات في القرى، إذ يدعون الغافلين من الناس إلى لعق فأس برد نصلها إلى ثلاثين درجة تحت الصفر، فإذا فعلوا ذلك تجمدت ألسنتهم والتصقت بالنصل، وشقت أغشيتها وسال منها الدم. وإذا كان كذلك مع برودة كهذه، فإنني أتصور إذا وصلت إلى المائة والخمسين درجة، فإن حد الفأس سيبتر أصبع الإنسان إذ مسه. هذا في حال توفرت الفأس.

فقاطعه إيفان متمهلاً مزدرياً: «هل يمكن أن تكون هناك فأس»؟ وكان يتجلد ويبذل كل جهده كيلا يؤمن بالوهم فينساق إلى الجنون التام.

فقال الضيف متسائلاً وهو يبدي الدهشة: فأس؟.

فأجابه إيفان غاضاً مكابراً ملحاً في مكابرته: نعم، وماذا يحدث للفأس هناك؟

- ماذا يحدث للفأس في الفضاء؟ ما هذه الفكرة! إنها إذا سقطت إلى مستوى معين، فأظن أنها ستبقى تدور حول الأرض كالكواكب الدائرة في فلكها، ولا أعرف علة ذلك: وسيأخذ الفلكيون في حساب بزوغ وغروب الفأس، وسيدونها غاتجوك في تقويمه. وهذا كل شيء.

فانتهره إيفان منزعجاً: إنك أحمق، ممعن في الحماقة إلى حد مخيف. إنني لن أصغي إليك ما لم تلزم المنطق وأنت تسرد ترهاتك. إنك تريد أن

تستغل واقعيتي إلى أقصى حد كي تقنعني بوجودك، ولكنني لا أريد أن أؤمن بوجودك! لن أؤمن!.

ـ ولكنني لا أسرد الترهات، فما أقوله هو حقيقة وقلما أدخلت الحقيقة التسلية إلى نفوس الناس، وهذا من أسباب الشقاء: وها أنا ذا ألمح إصرارك على أن ترى مني شيئاً عظيماً، وربما شيئاً جميلاً. فهذا أمر مؤسف لأنني لا أعطي إلا مما أستطيعه.

ـ لا تتحدث بالفلسفة أيها العير!

ـ إنها فلسفة حقاً، وأنا مصاب بخدر في خاصرتي اليمنى وأئن وأشكو. لقد جربت أبواب الطب، إن ما يستطيعه الأطباء هو تشخيص الأمراض تشخيصاً جميلاً، وكشف أسرار علة الإنسان بسهولة، أما طريقة معالجتها فإنهم يجهلونها تماماً. وقد كان في هذه المدينة طالب حدث السن مندفع في حماسته وقد قال ذات مرة: «إنك قد تموت، ولكنك تعرف معرفة تامة اسم العلة التي سببت موتك»! ثم ما أغرب طريقتهم في إحالة المرضى إلى الأخصائيين، إذ يقولون: إن وظيفتنا تقتصر على تشخيص المرض ولكن الأخصائي الفلاني يملك شفاءك. ليس موجوداً الطبيب الشافي من أنواع العلل جميعاً. أؤكد لك أن أطباء اليوم كلهم أخصائيون، يعلنون عن أنفسهم في الصحف. فإذا أصاب أنفك مكروه أرسلوك إلى باريس قائلين: إن فيها أخصائياً أوروبياً في أمراض الأنف. فإذا ذهبت إلى باريس نظر إلى أنفك وقال: أنا يمكنني أن أشفي طاقة خيشومك اليمنى أما اليسرى فلا، إذ ليست في اختصاصي، ولكن عليك بالذهاب إلى فيينا ففيها أخصائي لهذه الطاقة اليسرى. فماذا كان أمامي من عمل؟ لقد لجأت إلى الوصفات الطبية التي تعرفها العامة، ونصحني طبيب ألماني بأن أفرك جسمي بمزيج العسل والملح في الحمام. وهناك طليت جسمي حسب الوصفة ولكن الشفاء لم يتحقق. وفي لحظة من لحظات يأسي، كتبت إلى الكونت ماتيي في ميلانو، فأرسل إلي كتاباً وقطرات من دواء، بارك الله مسعاه، تصور هذا، إن خلاصة جعة هوف كانت شفائي! إذ اشتريت شيئاً منها عرضاً فشربت زجاجة ونصف زجاجة! فما لبثت أن عوفيت وصرت قادراً على الرقص، وقد أزالت الجعة

كل أثر من آثار العلة. ورغبت في أن تنشر الجرائد مقالات كتبتها في مديحه، بدافع العرفان بالجميل. ولكن ذلك لم يضع حداً لحرجي، فما من صحيفة قبلت كتابي إليها. وقال أصحابها: إن نشر ذلك أمر رجعي وما من أحد سيصدق ما ينشر، فالشيطان لا وجود له. وقد نصحوني قائلين: الأفضل أن تكتب مقالاً غير موقع. ولكن ما الفائدة من إزجاء الشكر في رسائل لا تحمل تواقيع؟ ولقد مازحت المحررين في مكاتب الصحف قائلاً لهم: إن من الأمور الرجعية في أيامنا هذه الإيمان بالله ولكنني أنا الشيطان، ولذلك فمن الجائز الإيمان بي. فقالوا: إننا نفهم قولك، فمن ذا الذي لا يؤمن بوجود الشيطان؟ ومع هذا فلا فائدة من ذلك، فنشر رسالتك قد يسيء إلى سمعتنا، فإذا وافقت جعلناها مزحة. لكنني قلبت الأمور فوجدت أن المزاح في هذا المجال غير لائق، ولذلك ضربت صفحاً عن نشر رسالة الشكر فلم تنشر. واعلم أن هذا الأمر ما زال يشعرني بالألم حتى هذا اليوم. لقد أنكر الناس خير مشاعري، كعرفان الجميل مثلاً، إنكاراً تاماً لا لسبب إلا لسبب مركزي الاجتماعي.

فقال إيفان غاضباً حاقداً: هل عدت إلى تأملاتك الفلسفية.

- وقاني الله شرها، غير أن المرء لا يسعه أحياناً إلا أن يجهر بشكواه. لقد أهنت. وها أنت ذا تقرعني في كل لحظة وتصمني بالغباء. يمكن بسهولة ملاحظة أنك ما زلت صغير السن. يا صديقي العزيز، إن الذكاء ليس الشيء الوحيد! فإن قلبي مرح بطبعه كما أنني أكتب «الأراجيز المتعددة الألوان». يبدو أنك تشبهني بهليستاكوف بعد أن تقدمت به السن، إلا أن الخطر يتهدد مصيري بصورة أعظم. وقبل أن تخلق الخليقة بزمن لم أستطع تحديد مداه، قد تقرر لي أن «أنكر» ومع ذلك فأنا في قرارة نفسي أمرؤ طيب لا أميل إلى الإنكار. وقيل: كلا يجب عليك أن تنكر، إذ لا نقد بلا إنكار، وما نفع الصحيفة بلا عمود يخصص للنقد؟ إنها بدون النقد تصبح ترنيمة دينية، والترنيمة وحدها غير كافية للحياة، بل يجب أن تصهر الترنيمة في بوتقة الشك، وما إلى ذلك وبنفس الأسلوب. لكن هذا ليس من خلقي ولا من مسؤوليتي ولذلك فإنني لا أعترض عليه. حسناً، لقد اختاروني كبش الفداء وجعلوني أدون نهر النقد في صحيفة الحياة، وبذلك صارت الحياة

شيئاً ممكناً. إننا مدركون لهذه المهزلة، وأنا مثلاً لا أطلب أكثر من الفناء. ولكن قيل لي: كلا، يجب أن تبقى فإن ذهبت ذهب كل شيء معك؛ ولو كان كل ما في الكون معقولاً، لما حدث شيء، ولن تقع حوادث، ويجب أن تكون هناك حوادث. وهكذا فقد جعلت بدون إرادتي خلافاً للحوادث، فعالاً لكل أمر سخيف، لأنني مأمور بذلك. إن البشر يتعاملون بجدية مع هذه الخدعة رغم ذكائهم الذي لا ينكر وهنا تكمن المأساة. وإن في ذلك شقاءهم بطبيعة الحال... ولكنهم يحيون بهذا الشقاء، إنهم يحيون حياتهم حقيقة لا خيال، لأن الشقاء هو الحياة. وما هي لذة العيش إذا لم يكن الشقاء؟ إن الحياة بدونه تصبح صلاة موصولة، وتصير مقدسة ولكنها مملة. ولكن ماذا عني أنا؟ إنني أشقى ولا أحيا. إنني العامل المجهول في المعادلة العويصة. وأنا في الحياة شبح لا بداية له ولا نهاية بل إنه نسي حتى اسمه. إنك تضحك، كلا، إنك تضحك، بل عدت إلى الغضب. إنك دائم الغضب، وكل ما تعول عليه هو الذكاء، ولكن ها أنا ذا أكرر القول إنني على استعداد لأن أفقد وجودي فوق مواقع النجوم، وأتخلى عن جميع مراتب الشرف، في سبيل أن أتحول إلى روح زوجة تاجر تزن مائة وأربعة عشر كيلو غراماً، وينحصر همي بوضع الشموع في هيكل الرب.

فقال إيفان وهو يتسم ابتسامة الكراهية: إذن فأنت أيضاً لا تؤمن بالله؟

ـ ماذا أستطيع أن أقول، أعني إذا توخيت الصدق...

فصاح إيفان وهو لا يزال في سورة غضبه: هل هناك وجود لله أم لا؟

ـ آه، إذاً فأنت جاد في قولك! يا صديقي العزيز، أقسم لك بشرفي أنني لا أعلم. ها قد بحت بهذا الآن!.

ـ لا تعلم، ولكنك ترى الله! كلا إنك لست مخلوقاً مستقلاً بشخص، إنك ذاتي، وأنت وأنا ولا شيء أكثر من هذا! إنك شيء تافه، إنك وهمي!.

ـ حسناً، إذا كان هذا يرضيك، فأنا أؤمن بالفلسفة عينها التي تؤمن بها أنت. وهذا صحيح. وأنا أفكر، فأنا إذن موجود، إنني أعلم ذلك علم اليقين. وكل ما تبقى بعد ذلك، كل هذه العوالم، الله بل والشيطان، كل هذه لم يقدم عقلي دليلاً عليها. فهل وجدت كل هذه الأشياء بذاتها، أم أنها مجرد

اقتباس من ذاتي، وتطور منطقي لنفسي التي كانت وحدها الموجودة منذ الأزل؟ ولكن سأسكت فوراً، لأنني أعتقد بأنك ستحمل علي تواً تود ضربي.

فقال إيفان مبتسماً: حبذا لو قصصت علي طرفة!.

- ثمة طرفة تنسجم مع موضوعنا، أو بالأحرى أسطورة أكثر منها طرفة. إنك تلومني، وتتهمني بعدم الإيمان، ومع ذلك فها أنت ترى نفسك أيضاً غير مؤمن. ولكن يا صديقي العزيز، لست أنا الشخص الوحيد فاقد الإيمان، إننا جميعاً هناك عظيمو الاضطراب، وعلومكم هي السبب. فقد كان الناس فيما مضى يعلمون بوجود الجوهر الفرد، والحواس الخمس والعناصر الأربعة، وكان كل شيء مرتبطاً بعضه بعضاً بشكل من الأشكال. بل أن الجوهر الفرد كان معروفاً في الدنيا القديمة أيضاً، ولكن بعد أن بلغنا أنكم اكتشفتم الذرات وعنصر الحياة، ولا أدري ماذا أيضاً، كان لزاماً علينا أن نبتئس. لقد وقعنا في حيرة واضطراب وتسلطت علينا الأوهام وكثرت الفضائح. والفضائح لا تقل في دنيانا عنها في دنياكم، بل وأكثر من ذلك فإن التجسس تفاقم بيننا، فنحن في الحقيقة لدينا دائرة للشرطة السرية تتلقى المعلومات الخاصة. حسناً، إن هذه الأسطورة المفرطة في الجموح، هي من نتاج أجيالنا الوسطى، لا أجيالكم. إنه لا يؤمن بها، حتى بين ظهرانينا، سوى السيدات البدينات، وأعني سيداتنا لا سيداتكم العجائز. فنحن لدينا كل ما لديكم، وهذا سر آخر من أسرارنا أبوح به بدافع من صداقتي لك؛ مع كونه محرم علينا. إن هذه الأسطورة تدور حول الفردوس. لقد قالوا أنه كان على الأرض مفكر وفيلسوف، كافر بكل شيء- بالقوانين، والضمير، والإيمان - وفوق هذا كله، بالحياة الموعودة. وقد توفي، وكان يتوقع أن يمضي فور وفاته إلى الظلام والهلاك، ولكنه وجد نفسه يواجه حياة أخرى. وقد ذهل وقال غاضباً: إن هذا مخالف لمبادئي! وكان عقابه على ذلك... أعني، عفواً منك، فأنا فقط أنقل ما سمعت وما أقصه عليك هو أسطورة لا أكثر لقد حكم عليه بأن يسير مسافة ألف ألف مليون كيلو متر في الظلام (ولا يخفى عليك أننا نعتمد النظام العشري) وبعد أن ينهي سفرته الطويلة تفتح له أبواب السماء ويصفح عنه...

فقال إيفان متسائلاً بفضول غريب: «وما هي أنواع العذاب الأخرى المعدّة في العالم الآخر، بالإضافة إلى هذه الألف ألف مليون كيلو متر»؟

ـ أي من أنواع العذاب؟ آه، لا تسألني عن هذا، لقد كانت هناك، فيما مضى، جميع أنواع العذاب. أما الآن فقد أصبح الأمر مقتصراً على وسائل العذاب المعنوي ـ عذاب الضمير ـ وما إلى ذلك من لغو فارغ. لقد اقتبسنا هذا عنكم أيضاً، بسبب رقة شمائلكم. ولمصلحة من كان ذلك؟ إن المستفيدين هم الذين لا ضمائر لهم، إذ كيف يمكن أن يؤلمهم عذاب الضمير وهم لا ضمير لهم؟ لكن الأخيار من الناس وذوي الضمائر وأصحاب الشعور بالكرامة هم الذين يعانون من هذا العذاب. أما الإصلاحات، إذا لم تكن مناسبة تماماً، ولا سيما إذا كانت نظماً مقتبسة عن الخارج، فلا تؤدي إلى الشر! لقد كانت النار الغابرة خيراً من عذاب الحاضر. وهذا المفكر الذي حكم عليه بأن يسير ألف ألف مليون كيلو متر وقف في مكانه لا يبدي حراكاً، ونظر إلى ما حوله ثم تمدد في عرض الطريق قائلاً: لن أسير، إنني أرفض السير، انسجاماً مع مبدأي! ألا خذ روح رجل روسي متنور كافر، وامزجها بروح النبي يونس الذي قضى ثلاثة أيام بلياليها في بطن الحوت، تحصل على المفكر الذي تمدد عرض الطريق.

ـ وعلى أي شيء تمدد؟

ـ حسناً، أظن أن في السماء شيئاً يصلح للتمدد عليه. أتضحك؟

فصاح إيفان متشوقاً وصار الآن يصغي إلى الزائر بفضول غريب: مرحى! أما زال ذلك الرجل متمدداً في عرض الطريق؟

ـ تلك هي النقطة، فهو لم يبق متمدداً بل ظل مضطجعاً قرابة ألف عام ثم نهض وسار.

كان إيفان ما يزال يضحك بعصبية، فقال وقد بدا عليه كأنه يفكر في أمر ما: «يا له من عير! أي فرق بين أن يظل متمدداً هناك إلى الأبد أو أن يسير الألف ألف مليون كيلو متر؟ إنه سيقضي ألف مليون سنة في المسير»؟

ـ بل أكثر من هذا بكثير. ليس لدي قلم وقرطاس، وإلا لكنت حسبتها

لك، إلا إنه بلغ نهاية الطريق منذ زمن بعيد، وهنا تبدأ القصة.

- ماذا تقول؟ هل بلغ نهايتها؟ ولكن كيف تهيأت له فسحة الملايين من السنين حتى تمكن من قطع الطريق؟

- إنك تحسب بمقاييس أرضنا الحالية! غير أن هذه الأرض ربما خلقت خلقاً جديداً ألف مليون مرة. لقد تلاشت وتجمدت، وانشقت وتطايرت شظايا، وتحللت إلى عناصرها. ثم عاد «الماء فوق الجلد» وعادت نجماً مذنباً وتكرر إلى ما لا نهاية له بنفس الدقائق والتفاصيل، وبطريقة منهكة مضنية....

- حسناً، حسناً، وإلام انتهى أمره عندما وصل؟

- فتحت له أبواب الفردوس، فدخلها فوراً، وقبل أن يقضي في الفردوس ثانيتين، حسب ساعته (وأظن أنها قد تحللت عناصرها منذ زمن بعيد خلال مسيره فوق الطريق) صاح بأن هاتين الثانيتين تستحقان من الإنسان ليس أن يسير ألف ألف مليون كيلو متر، بل أضعاف أضعاف ذلك مضروبة بالآف آلاف آلاف الملايين! وهو في الحقيقة أخذ يسبح ويترنم وأسرف في ذلك، حتى أن بعض الناس ذوي الآراء السامية أبوا مصافحته باديء ذي بدء وقالوا عنه: لقد أسف في الرجعية بسرعة. إن هذا من نتاج المزاج الروسي. وأكرر القول إن هذه كانت أسطورة، ولا أريد أن أقدرها بأكثر مما تستحق. هذا ما نملكه من أفكار عن مثل هذه المواضيع حتى في هذه الأيام.

فصاح إيفان بفرح الأطفال، وكأنه أفلح أخيراً في تذكر شيء كان قد فاته: لقد أوقعت بك! إن هذه الطرفة عن الألف ألف ألف مليون من السنين قد ابتكرتها أنا بنفسي! وكنت أناهز السابعة عشرة من عمري آنذاك، وكنت تلميذاً في مدرسة ثانوية. لقد ابتكرتها وقصصتها على زميل لي في المدرسة يدعى كوروفلين، وكان ذلك في موسكو... إن هذه الطرفة تحمل طابعي الخاص، ولذلك فلا يمكن أن أكون قد نقلتها من أي مكان. ولقد ظننت بأنني نسيتها... لكنني تذكرتها الآن لا شعورياً. تذكرتها بنفسي، ولست أنت الذي قصصتها علي! إن آلاف الأشياء المماثلة يمكن للإنسان تذكرها لا شعورياً حتى في لحظة سوقه إلى ساحة الإعدام... لقد عاودتني في الحلم. إنك أنت ذلك الحلم! إنك حلم، ولست مخلوقاً حياً!.

فقال الرجل ضاحكاً: إنني مقتنع بأن إيمانك بي هو وراء حماستك هذه في إنكار وجودي.

ـ ليس هذا أبداً، فليس في قلبي جزء واحد من مائة، جزء من ذرة إيمان بك!.

ـ ولكنك تؤمن بي إيماناً يبلغ جزءاً من ألف جزء من الذرة، ولكن ربما أثقل هذا عليك فتعجز عن احتماله. اعترف لي بأن إيمانك بي يبلغ جزءاً من عشرة آلاف جزء من الذرة.

فصاح إيفان مهتاجاً: «لن أؤمن بك لحظة واحدة». ثم أضاف قائلاً بلهجة غريبة: «ولكن بودي لو آمنت بك».

ـ مرحى! إن هذا اعتراف منك! وأنا صافي السريرة وسأعود نصيراً لك. اسمعني جيداً لقد كنت أنا الذي أوقع بك، لا أنت الذي أوقع بي. لقد قصصت عليك الطرفة التي تعمدت نسيانها، لكي أقضي على إيمانك بي نهائياً.

ـ إنك تكذب، فالغرض من زيارتك هو إقناعي بوجودك.

ـ إن الأمر كذلك. غير أن التردد، والشك، والصراع بين الإيمان والكفر، تكون أحياناً عذاباً لأصحاب الضمائر من بني البشر، أمثالك، خير منه أن يشنق الإنسان نفسه. ولما أنست فيك ميلاً إلى الإيمان بي، ثبتت فيك شيئاً من الجحود بسردي عليك تلك الطرفة. لقد جعلتك مؤمناً وكافراً بالتعاقب، ولدي بواعثي لذلك. إنه الأسلوب الجديد، وأنت عندما تجحدني تماماً، ستأخذ في التأكيد لي مجابهة بأنني لست حلماً بل حقيقة. إنني أعرفك وبذا تكون غايتي قد تحققت، وهي غاية شريفة. سأزرع في قلبك ذرة دقيقة من الإيمان وستنمو وتغلظ حتى تصير شجرة من السنديان، شجرة إذا جلست عليها تطالبك نفسك بالانضمام إلى طائفة «النساك الضاربين في الفيافي والقفار، والنساء القديسات» لأن ذلك هو ما تتوق إليه في سرك. ستأكل الجراد، وستوغل في البراري من أجل تخليص روحك.

ـ إذاً فأنت أيها النذل دائب في السعي من أجل خلاص روحي؟

ـ إن على المرء أن يفعل الخير أحياناً. ما أضيق صدرك؟

- أيها الأحمق! هل اتفق لك أن أغويت أولئك الرجال المقدسين الذين تنسكوا فأكلوا الجراد وصلّوا في الصحراء سبعة عشر عاماً حتى نمت الطحالب على أجسامهم؟

- يا صديقي العزيز، إنني لم أفعل شيئاً سوى هذا. إن الواحد منا يهمل العالم بأسره، بل وكل العوالم، ويلتصق بواحد من أمثال هؤلاء القديسين. ذلك أنه درة يتيمة. إن روحاً واحدة كهذه تقدر أحياناً بمجموعة كاملة من الكواكب. ونحن نحسب على طريقتنا. إن النصر شيء لا يقدر بثمن! وبعض هؤلاء النساك لا يقلون عنك ثقافة، ولو أنك لا تؤمن بذلك. وهم يستطيعون أن يتعدوا بأفكارهم وتأملاتهم إلى حدود اللانهائية من الإيمان والكفر في آن واحد، حتى أنهم يبدون أحياناً أنهم قد صاروا قيد شعرة من «الانقلاب رأساً على عقب» كما يقول الممثل غوربونوف.

- حسناً، وهل شد أنفك ودس في الرغام[1]؟

فقال الزائر بلهجة حاسمة: يا صديقي العزيز، خير للإنسان أن يشد أنفه، من أن يفقد أنفه، كما قال مركيز منكود منذ زمن ليس بالبعيد (ولا بد أنه خضع للعلاج من قبل أحد الأخصائيين) أثناء اعترافه لأحد الآباء الروحيين، وكان كاهناً يسوعياً. لقد شهدت اعترافه، وكان كلامه رائعاً عندما صاح قائلاً: «ردوا لي أنفي». وأخذ يضرب صدره بيده. فأجابه الكاهن متجاهلاً قوله: «إن جميع الأشياء تتم وفق القوانين التي تضعها العناية الإلهية، ولا نملك دفعاً لها. وربَّ موقف تعيس في ظاهره، يؤدي أحياناً إلى فوائد خارقة، وقد لا تكون بادية. فإذا كان القضاء القاسي قد أذهب أنفك، فإن هذا لفائدتك، إذ لا أحد يستطيع إذ ذاك أن يشدك منه». فصاح الماركيز البائس: «أيها الأب المقدس، إنه لا عزاء في هذا القول. وأنا أفضل، مغتبطاً أن يشد أنفي في كل يوم من أيام حياتي، على أن أفقده إلى الأبد». فأجابه الكاهن متنهداً: يا بني، إنك لا تستطيع أن تنال جميع النعم في آن واحد، وقولك هذا إنما هو اعتراض على العناية الإلهية التي لم تنسك حتى في هذا الأمر، لأنك إذا كنت تشكو، كما شكوت الآن، معلناً بأنك ستكون سعيداً لو ظل أنفك يجذب بقية أيام حياتك،

---

(١) هو تعبير في الروسية يعني الإخفاق.

فإن طلبك يكون قد تمت تلبيته بصورة غير مباشرة، لانك عندما فقدت انفك، كنت تعاني جذبك منه.

فصاح إيفان: أيها الأحمق، ما أدل هذا القول على الغباء.

ـ يا صديقي العزيز، إنني إنما قصدت الترفيه عنك، وأقسم لك أن هذه كانت فلسفة الكاهن اليسوعي الأصيل. وأقسم أن ما قلته لك قد نقلته حرفياً. لقد حدث ذلك منذ عهد قريب وسبب لي قدراً كبيراً من الانزعاج. لقد انتهى الأمر بهذا الشاب الشقي إلى إطلاق النار على نفسه في تلك الليلة بذاتها لدى عودته إلى بيته وظللت عند فراشه حتى اللحظة الأخيرة. إن أولئك الكهنة اليسوعيين الذين يتلقون الاعترافات هم أهم وسائل تسليتي في لحظات الحزن.

إليك حادثة أخرى وقعت منذ أيام، وبطلتها فتاة شقراء شابة نورماندية تبلغ العشرين من العمر، ذات جمال فتان غير مجلوب، يسيل لها لعاب الناظر إليها. وقد جاءت إلى كاهن شيخ، وانحنت أمامه واعترفت له بخطيئتها. فهتف بها الكاهن قائلاً: «لماذا يا بنيتي وقعت في الخطيئة ثانية؟ أيتها العذراء المقدسة، ماذا أسمع! وقعت مرة أخرى؟ ومع رجل آخر؟، كم من الوقت انقضى على علاقتك به؟ ألا تخجلين»؟ فأجابته الشابة المذنبة ودموع الندامة تسيل من عينيها: «آه، يا أبت. إن هذا شيء يسره كثيراً ويسوءني قليلاً». يا له من جواب. فتراجعت. لقد كان ذلك نداء الطبيعة، وهو خير من البراءة ذاتها، إذا أحببت هذا القول. ولقد برأتها من ذنبها تواً، وكنت أهم بالإنصراف، ولكنني اضطررت إلى العودة، فلقد سمعت الكاهن يضرب معها موعداً للقائها في المساء. إنه شيخ عركته الأيام وجعلته صلداً كالصوان، لكنه سقط في مدى لحظة واحدة! لقد كانت الطبيعة، حقيقة الطبيعة هي التي أكدت حقها! ماذا أرى، هل شمخت بأنفك ثانية؟ هل عدت إلى الغضب؟ إنني لا أعرف كيف أرضيك.

فتأوه إيفان بائساً، وقد ظهر عجزه أمام شبحه: «أتركني وشأني إنك تثقل على دماغي كالكابوس، لقد مللتك، وصرت سبب ألمي ونفاد صبري. أرضى التضحية بكل شيء في سبيل الخلاص منك»!.

فأجابه الرجل بلهجة مؤثرة: «إنني أكرر عليك القول، لا تبالغ، ملا تطلب مني كل ما هو عظيم ونبيل، وعندها سترى كيف نستطيع أن نسير جنباً إلى جنب. إن السبب الحقيقي لغضبك مني هو أنني لم أظهر في وهج أحمر مصحوباً بالبرق والرعد، يحملني إليك جناحان لوحتهما النار، بل ظهرت لك بهذه الصورة المتواضعة. إنك في المقام الأول طعين في شعورك بالجمال، وفي المقام الثاني طعين في كبريائك. فأنت عندما تراني تسارع إلى الاعتراض فتتساءل، كيف يجرؤ شيطان عادي مثلي أن يزور إنساناً عظيماً مثلك! نعم إنك لا تتصف بهذه الخلة التي سخر منها بايلينسكي. وأنا لا خيار لي أيها الشاب، فعندما تأهبت لموافاتك، خطر لي أن أمازحك، فأجيئك بصورة جنرال متقاعد خدم في القوقاز يعلق على ردائه وسام الأسد والشمس[١] لكنني خشيت أن أفعل ذلك، ولو فعلته لضربتني لأنني تجرأت على تعليق وسام الأسد والشمس بدلاً من وسام النجمة القطبية أو بنات نعش على الأقل. وها أنت ما فتئت تعيرني تكراراً بأنني أحمق ولكن، تغمدتنا الرحمة! إنني لا أدعي أنني في مستوى ذكائك. لقد أعلن ميفيستوفيليس أمام فاوست بأنه يبغي الشر ولكنه لم يفعل إلا الخير. حسناً، له أن يقول ما يشاء، أما أنا فأمري هو النقيض تماماً. وربما كنت الفرد الوحيد بين الخلائق كلها الذي يحب الصدق ويرغب في الخير رغبة صادقة. لقد كنت حاضراً، عندما نهض المسيح الذي مات على الصليب، وانطلق إلى السماء يحمل على صدره روح اللص التائب[٢]. وسمعت ترانيم ملائكة الشيروبيم وغناءهم، وسمعت جلبة طغمة السيرافيم ترنم فتهز بترنيمها السماء والخليقة كلها. وأقسم لك بكل ما هو مقدس أنني كنت تواقاً إلى المشاركة مع المرتلين والمرنمين جميعاً. غير أن الكلمة خانتني بعد أن كدت أنطق بها... ها أنت ترى مقدار رقة إحساسي وتأثري بالجمال. ولكن الفهم ـ آه، إنه أكثر ما يسبب تعاستي من صفاتي ـ أبقاني في حدودي المرسومة، وتركت اللحظة تمرا لقد فكرت وتأملت وقلت، وماذا سيحدث بعد أن انتهي من تسبيحي؟ إن

(١) كانا شعار دولة إيران. المقصود أن الوسام من شاه إيران.

(٢) هو أحد اللّصين المصلوبين مع المسيح، والذي آمن قبل موته كما جاء في الأناجيل.

كل شيء سيتلاشى في الأرض حالاً، ولا تعود تقع أية حوادث. ولذلك وجدتني مرغماً، بدافع الشعور بالواجب، وبمركزي الاجتماعي، على أن أهدر تلك اللحظة الطيبة، وأظل متمسكاً بواجبي القبيح. إن بعض الناس ينسبون كل خير إلى أنفسهم، ولا يتركون لي إلا كل ما هو شر. لكنني لا أحسد المخادع الكسول على ما يحيط بحياته من آيات الشرف، فالطموح لا يعنيني. ولماذا كتب علي، من دون سائر المخلوقات في الدنيا، أن أصيب لعنات جميع الأخيار من الناس، وركلاتهم أيضاً مع كوني قادراً أحياناً أن أكون ذا منزلة مرموقة إذا تقمصت الأجساد الفانية. وأنا بطبيعة الحال أدرك أن في الأمر سراً. وهذا السر لن يطلعوني عليه في السماء مهما بذلت من جهد في هذا السبيل، لأنني لو اطلعت عليه، وأدركت معناه، فقد تنطق شفتاي بالترانيم، فلا يعود للتسلية التي لا غنى عنها من وجود، وتعم الطيبة الدنيا بأسرها وتحكمها بقوانينها، وذلك بطبيعة الحال يعني نهاية كل شيء حتى المجلات والجرائد، إذ من يتداولها بعد ذلك؟ وأنا أعلم بأن الرضى سيملأ قلبي مع دنو نهاية كل شيء، فعندها أقوم أنا أيضاً بالسير ألف ألف كيلو متر واطلع على السر. وبانتظار ذلك سأقضي حياتي بائساً وأنفذ مهمتي رغم تعارضها مع مزاجي، أي أنني سأعمل على إهلاك الآلاف في سبيل إنقاذ إنسان واحد. وما أكثر الأرواح التي أهلكت والسير التي دنست في سبيل إنقاذ رجل واحد صالح وهو النبي أيوب، وما أكثر ما رووه بخصوصه عن حماقتي في الأيام الخوالي. بلى، إلى أن ينجلي السر، سأظل أرى أمامي ضربين من ضروب الحقيقة: أولهما الحقيقة التي يدينون بها هناك، والتي لا أعرف عنها شيئاً حتى الآن، والضرب الثاني هو حقيقتي أنا. وليس ممكناً معرفة أيهما خير من الآخر... هل أنت نائم»؟.

فتأوه إيفان غاضباً وقال: «ربما كنت نائماً حقاً. إن جميع أفكاري السخيفة التي نبذتها وطرحتها جانباً، وقذفت بها كالجثث الميتة منذ أمد بعيد تراني أسمعها منك الآن كأنها أفكار جديدة»!.

- إنه لا سبيل إلى إرضائك! ولقد كنت أظن أن أسلوبي الأدبي سوف يمكّنني من اجتذابك إلي. إن تلك الترنيمة في السماء ليست أمراً سيئاً، أليس

كذلك؟ وكذلك تلك اللهجة الساخرة التي قلدت بها طابع هاين فما قولك؟.

ـ كلا، لم تبلغ حقارتي هذا المقدار قط في حياتي كلها، فكيف استطاعت روحي أن تصور لي شيئاً حقيراً مثلك؟.

ـ يا صديقي العزيز، إنني أعرف فتى روسياً له من السحر والجاذبية أكثر مما يكفي، وهو مفكر شاب ومن كبار عشاق الأدب والفن، وقد كتب قصيدة رائعة بعنوان «رئيس محاكم التفتيش» لقد كان محور تفكيري واهتمامي.

فصاح إيفان به وقد احمر وجهه خجلاً: إنني أمنعك من الحديث عن قصيدة «رئيس محاكم التفتيش».

ـ ثم تلك التبدلات الجيولوجية هل تذكرها؟ لقد كانت الآن شعراً!.

ـ أمسك عن الكلام، وإلا قتلتك!.

ـ أتريد أن تقتلني؟ كلا، أعذرني فسأمضي في الكلام. لقد سعيت إلى هذا الحديث بقصد اللذة. آه، إنني أحب الأحلام التي تراود أصدقائي من الشباب المندفعين الذين يرتجفون لشدة اشتياقهم للحياة! عندما هممت أن تأتي إلى هنا في الربيع الفائت، كنت انتهيت إلى رأي بأن هنالك رجالاً جداً يودون لو يفنى كل شيء ويأكل الناس بعضهم بعضاً وتبدأ الحياة من جديد، يا لهم من أغبياء! إنهم لم يطلبوا نصيحتي! إنني أعتقد بأنه لا ضرورة أن يفنى كل شيء، بل ما نحتاج إليه هو أن نحمل الإنسان على نزع فكرة وجود الله من قلبه، وهذا هو الأسلوب الذي يجب أن نسير عليه. وهذا هو ما يجب أن نبدأ به دون سواه. لهفي على ذلك الجنس البشري الأعمى الذي لا يرى شيئاً! إنه حالما يصل الناس جميعاً إلى إنكار وجود الله ـ وفي اعتقادي أن تلك الفترة المرادفة للفترات الجيولوجية، لا بد آتية ـ فإن فكرة الكون تتلاشى من نفسها بدون أن يضطر الناس إلى أكل بعضهم بعضاً، بل أكثر إلى إبقاء سيف الهلاك مصلتاً فوق رؤوسهم، وعندها يبدأ كل شيء بداية جديدة. وسيتحد جميع أبناء البشر لكي يأخذوا من الحياة كل ما تعطيهم إياه، ويجعلونه في خدمة فرحهم وسعادتهم في دنياهم هذه. وستملأ الإنسان مشاعر الأنفة الإلهية، إنه الآن الإنسان المثالي. إن فتوحاته اللامتناهية التي سيحققها

الإنسان في ميدان الطبيعة، بين ساعة وأخرى، بواسطة إرادته وعلمه، وستشعره ببهجة سامية تتنامى مع اطراد هذه الفتوحات، تعوضه خيراً عن كل أحلامه الغابرة بالمسرات في السماء. وسيعرف كل إنسان بأنه فانٍ وسيتقبل الموت بأنفة وثبات كأنه إله. وستلقنه أنفته بأنه لا جدوى من تحسره على أن الحياة لمحة، وسيحب أخاه دون أن يبغي على ذلك ثواباً ولا أجراً. وسيكون الحب كافياً للحظة واحدة فقط من لحظات الحياة، غير أن ذلك الشعور ذاته بقصر تلك اللحظة، سيضرم مجدداً نار ذلك الحب، الذي تنغصه الآن الأحلام بالمحبة الأبدية تحت أطباق الثرى... وهلم جرا، هلم جرا، مما يسير على هذا النمط من التفكير. إن ذلك شيء رائع»!.

جلس إيفان مطرقاً، وقد شد يديه على أذنيه، وأخذت جسمه رعدة من أقصاه إلى أقصاه. أما الزائر فتابع قائلاً: «إن السؤال الذي يراود خاطر فيلسوفنا الشاب الآن، هو، هل من الممكن مجيء هذه الفترة؟ فإذا كانت ستجيء، فإن ذلك يعني أن كل شيء قد تقرر وأن الإنسانية قد قر قرارها إلى الأبد. ولكن طالما أنها ستتأخر ألف عام على الأقل، نظراً لغباوة الإنسان المزمنة، فإن كل إنسان يعترف بوجود الحقيقة حتى في يومنا هذا، قد يسعى لتكييف حياته كما يحلو له، وفق المبادىء الجديدة، وهو محق تماماً في ذلك. وعليه فإنه سيعتبر أن كل شيء يصبح حلالاً. وفوق هذا، فإن الإنسان الجديد، حتى ولو لم تأت تلك الفترة أبداً، نظراً لانعدام وجود الله، وتلاشي الخلود، سيصبح رباً، ولو لم يكن في الكون غيره. فإذا سما بنفسه إلى هذا المركز، تخطى بكل انشراح جميع القيود التي كانت تفرضها على الإنسان المستعبد، المبادىء الأدبية القديمة، إذا اقتضت الضرورة. وليس ثمة قانون لله، فالقداسة تكون حيثما وقف. أما أنا، فإن المكان الذي أقف فيه سيصبح فوراً المكان الذي ترنو إليه الأبصار... إن جميع الأمور حلال. وهذه هي نهاية كل شيء! إن هذا كله شيء رائع؛ ولكن إذا كنت تبغي الخداع، فما حاجتك إلى القناعة المعنوية؟ ذلك هو واقع الإنسان الروسي العصري. إنه بحاجة إلى القناعة المعنوية حتى في ممارسته الخداع. إنه مفرط في محبته للحقيقة...».

كان الزائر يتحدث وكأن هذه الفصاحة قد أنسته نفسه. فهو يرفع صوته

شيئاً فشيئاً وينظر نظرة ساخرة إلى مضيفه، ولكنه لم يتمكن من استكمال كلامه؛ فإن إيفان تناول كوباً عن المنضدة وقذفه به.

فصاح هذا وهو يقفز من مجلسه على الأريكة، وينفض عن نفسه قطرات الشاي: «آه شيء سخيف بعد كل هذا. إنه تذكر محبرة لوثر[1]! وهو يراني حلماً، ويقذف هذا الحلم بالأكواب! إن ذلك من طباع النساء! لقد أدركت أنك كنت تسمعني ولكنك تتظاهر بسد أذنيك».

وفجأة سمع صوت طرقات قوية متلاحقة عند النافذة، فهب إيفان واقفاً عن الأريكة.

وهتف الزائر قائلاً: هل تسمع؟ هيا إفتح الباب؛ إنه أخوك أليوشا وقد جاءك بأهم الأنباء وأعجبها. سأنصرف.

فصاح إيفان غاضباً: أصمت أيها الدجال، فأنا أعلم أنه أليوشا. كنت أشعر بأنه آت، وبطبيعة الحال ليس قدومه عبثاً؛ وبديهي أن يأتي ليبلغني نبأ ما.

ـ إذاً، إفتح، إفتح له الباب، إن هناك عاصفة ثلجية وهو أخوك. أيها السيد، هل تعلم أية ليلة عاصفة هذه الليلة؟ لقد لاذت الكلاب بالمنازل فلم يبق كلب واحد في الخارج.

واستمر الطرق، وود إيفان لو يندفع إلى النافذة، ولكن خيل إليه كأن شيئاً يقيد ذراعيه وساقيه. وقد جاهد قيوده بكل قواه، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. وتعالى الطرق على النافذة. وأخيراً تحطمت الأغلال وقفز إيفان عن الأريكة، وأخذ يجيل بصره فيما حوله مشتت الحواس ذاهلاً. وكانت الشمعتان تكادان أن تفنيا، وكان الكوب الذي قذف زائره به ما زال في مكانه فوق المنضدة، ولم ير شيئاً على الأريكة المقابلة له. واستمر الطرق على إطار النافذة ملحاً، ولكنه لم يكن عالياً بالقدر الذي توهمه في حلمه، وعلى العكس من ذلك كان هادئاً خفيفاً.

---

(١) كان المصلح الديني مارتن لوثر قد تراءى له الشيطان وأقام معه حواراً من قبيل ما حصل لإيفان، فانتهى إلى رميه بمحبرته فتحطمت على جدار غرفته، وما زالت بقعة الحبر عليه حتى اليوم.

وصاح إيفان قائلاً: «إنه لم يكن حلماً! كلا، أقسم إنه لم يكن حلماً، إن ما رأيته كان شيئاً حدث الآن»! واندفع نحو النافذة ففتحها.

ثم صاح بأخيه مهتاجاً: «أليوشا، لقد قلت لك ألا تأتي. قل باختصار. ماذا تريد؟ هل تسمعني»؟.

فأجابه أليوشا من الساحة: «لقد شنق سميردياكوف نفسه قبل ساعة من الزمن».

فقال إيفان: در حول المنزل وعندما تصل إلى المدخل ستجده مفتوحاً. ومضى كي يفتح الباب لأخيه.



إنه هو الذي قال ذلك

قال أليوشا لإيفان فور دخوله عليه: إن ماريا كوندارتييفنا أتت إليه راكضة قبل أكثر من ساعة، وأبلغته أن سميردياكوف قد انتحر. قالت له: «لقد دخلت غرفته كي آخذ إبريق الشاي فرأيته مشنوقاً وقد تدلى من مسمار في الجدار». ولما سألها أليوشا عما إذا كانت قد أبلغت الشرطة بالأمر، أجابته بأنها لم تبلغ أحداً بذلك. لقد طرت حالاً إليك، وقطعت الطريق عدواً.

وقال أليوشا إنها كانت ذاهلة ترتجف كريشة في مهب الريح. وعندما عاد أليوشا معها إلى الكوخ مسرعاً ألفى سميردياكوف ما يزال معلقاً. وكانت على المنضدة مذكرة كتبت عليها العبارة التالية: «إنني أقتل نفسي بيدي راضياً مختاراً فلا تتهموا أحداً». وقد ترك أليوشا المذكرة في مكانها، ومضى مسرعاً إلى ضابط الشرطة وقصّ عليه ما جرى. واختتم حديثه لإيفان قائلاً: «وقد جئت إليك من عنده مباشرة». وأخذ يحدق في وجه إيفان باهتمام، فلا يحول، طيلة إخباره بالحدث، وجهه عنه. إن ما رآه في ملامحه جعله ذاهلاً مأخوذاً.

ثم صاح فجأة: «أخي إنك مريض بلا شك، وإن المرض قد ألح عليك، فأنت تنظر إلي ولا تفقه مما أقوله شيئاً.

فقال إيفان ساهماً، وكأنه لم يسمع قول أخيه: «حسن إنك جئت، أنا أعلم أنه شنق نفسه».

ـ وممن علمت؟

ـ لست أدري ممن، ولكني علمت. هل علمت؟ نعم لقد أنبأني بذلك قبل لحظات.

وكان إيفان واقفاً في منتصف الغرفة وهو لا يزال يتحدث ساهماً، وقد ثبت بصره في الأرض.

فسأله أليوشا، وهو ينظر فيما حوله بحركة عفوية: «عمن تتحدث»؟.

ـ لقد تسلل وابتعد.

وتابع إيفان رافعاً رأسه ومبتسماً ابتسامة هادئة: لقد كان خائفاً منك، من حمامة وادعة مثلك. إنك ملك طاهر، إن ديمتري يدعوك ملكاً. ملكاً... بل تسبيحة من تسابيح ملائكة الشيرابيم. من ملائكة الشيرابيم؟ إنهم قد يكونون مجموعة كاملة من الكواكب. ولكن مجموعة الكواكب ربما كانت عبارة عن ذرة كيميائية وكفى. ثمة مجموعة من الكواكب تسمى مجموعة الأسد والشمس. ألا تعلم ذلك؟.

فقال أليوشا مذعوراً: أخي إجلس بحق الله، إجلس على الأريكة! هذا هذي، ضع رأسك على الوسادة. حسناً. أتضع منشفة مبللة على رأسك؟ فقد تجلب لك الراحة!.

ـ أعطني المنشفة، إنها هنا على الكرسي، فلقد وضعتها عليه لتوي.

فقال أليوشا: إنها ليست هنا، لا تزعج نفسك. أنا أعلم أين هي؟ إنها هنا. وأخرج منشفة نظيفة مطوية غير مستعملة من منضدة الزينة القائمة عند الزاوية الأخرى من الغرفة. ونظر إيفان إلى المنشفة مستغرباً، فقد بدا عليه كأنه استعاد فجأة وعيه.

ونهض إيفان عن الأريكة وهو يهتف: لقد أخذت هذه المنشفة الجديدة من هناك قبل ساعة من الزمن وبللتها بالماء ثم لففت رأسي بها وطرحتها هنا... فكيف أراها الآن جافة فلا منشفة غيرها عندي.

فسأله أليوشا: «هل وضعت هذه المنشفة على رأسك»؟.

ـ نعم، وأخذت أسير في الغرفة جيئة وذهاباً قبل ساعة.. كيف ذابت الشمعتان إلى هذا الحد؟ كم الساعة الآن؟.

ـ إنها الثانية عشرة تقريباً.

فصاح إيفان: كلا، كلا، كلا! لم يكن ما رأيته حلماً من الأحلام.

فلقد كان هنا، جالساً على تلك الأريكة. وعندما طرقت النافذة قذفته بذلك الكوب. مهلاً في المرة الماضية، كنت نائماً فعلاً، أما الآن فلم يكن حلماً. لقد حدث ذلك من قبل وعادت إليّ الأحلام الآن يا أليوشا. ومع ذلك فهي ليست أحلاماً بل حقائق ملموسة. إنني أسير وأتحدث وأرى... مع أنني نائم... ولكنه كان يجلس على تلك الأريكة هناك.. إنه عظيم يا أليوشا لكنه أحمق إلى حد مخيف. وضحك إيفان بغتة وأخذ يجول في الغرفة.

فسأله أليوشا مستغرباً: من الأحمق؟ عمن تتحدث يا أخي؟.

ـ عن الشيطان، لقد أخذ يزورني. لقد زارني مرتين بل ثلاث مرات، وكان يلومني على غضبي إذ هو شيطان هادئ وليس شيطاناً مريداً ذا جناحين بلون نيران الجحيم يأتي مع البروق والرعود. ولكن هذا كذب، لم يكن شيطاناً. إنه دجال. فهو شيطان تافه حقير. وهو يؤم الحمامات فإذا جردته من ثيابه لألفيت ذيله ولا ريب، ذيل طويل ناعم كذيل الكلب الدانمركي يبلغ الباع طولاً، خفيف اللون... أليوشا إنك مقرور. فلقد سرت تحت الثلج، هل لك في شيء من الشاي؟ ماذا؟ هل الطقس بارد؟ هل آمر الخادمة بأن تحضر لنا شيئاً من الشاي؟ لقد لاذت الكلاب بالمنازل فلم يبق كلب واحد في الخارج.

وهرع أليوشا إلى المغسلة، فبلل المنشفة بالماء وأقنع إيفان بالجلوس، ولف له رأسه بالمنشفة وجلس بجواره.

وعاد إيفان إلى القول، (وقد صار ثرثاراً): ماذا كنت تقول لي عن ليزا؟ إنني أحب ليزا؛ ولقد ذكرتها بالسوء. لقد كذبت، فأنا أحبها... إنني خائف على كاتيا من حوادث الغد. إنني أخافها أكثر من أي شيء آخر بسبب ما يحمله المستقبل. إنها ستنبذني غداً وتدوسني تحت قدميها. وهي تظن بأنني أريد القضاء على ميتيا بسببها. نعم ذلك ما تظنه، ولكن الأمر ليس كذلك. إن الغد سيأتي بالصليب، ولكن ليس بالمشنقة، كلا لن أشنق نفسي. هل تعلم يا أليوشا، إنني لا أقوى على شنق نفسي أبداً. قد تعيد السبب إلى الجبن، إنني لست جباناً. إنما هو حبي للحياة. كيف علمت أن سميردياكوف قد شنق نفسه؟ إنه هو الذي قال لي ذلك.

فسأله أليوشا: أما زلت مقتنعاً بأن أحداً كان هنا؟

ـ نعم، لقد كان جالساً على تلك الأريكة في الزاوية. ولو دخلت لطردته بل لقد طردته فعلاً. لقد توارى إذ وصلت. إنني أحب محياك يا أليوشا. هل تعلم بأنني أحب محياك؟ إنه ذاتي أنا، هو أنا بكل دناءتي وحقارتي وخساستي. نعم، فأنا روائي، لقد فطن إلى ذلك... ولو أن هذه نميمة حاقدة. إنه أحمق إلى حد مخيف، ولكن ذلك هو في مصلحته. إنه خادع، ماكر كالحيوان، لقد عرف كيف يستثيرني. ولقد ظل يؤنبني ويزعم أني مؤمن به، حتى جعلني أصغي إلى أقواله. لقد خدعني كما يخدع الصبي. وأنبأني بصفات لي كثيرة. وأضاف إيفان بلهجة الواثق الصادق في قوله: هل تعلم يا أليوشا، إنه مما يسرني أن أظن أنه هو الشيطان لا أنا.

فرمق أليوشا أخاه بعين الرثاء وقال له: لقد أتعبك حتى الإنهاك.

ـ لقد كان يضايقني، وكان ماهراً في ذلك، ماهراً إلى حد بعيد. الضمير! ما هو الضمير؟ إنني أصنعه بنفسي، فلماذا أتعذب معه؟ إن ذلك بسبب العادة، عادة التفكير التي تنظم أبناء البشر جميعاً منذ سبعة آلاف سنة. إذاً فلنترك هذه العادة، وعندها نصبح آلهة. إنه قوله هو، إنه قوله هو.

ولم يتمالك أليوشا نفسه من الصياح، وهو ينظر إلى أخيه نظرة تتجلى فيها الصراحة: أو لست أنت، لست أنت. لا تعبأ به على كل حال؟ أطرده من خيالك وانسه. وليأخذ معه كل تلك الأشياء التي تدينها اليوم، وليمض إلى غير رجعة.

فقال إيفان وقد عرته هزة كهزة المهان: نعم، ولكنه حقود. لقد سخر مني، وكان وقحاً يا أليوشا. لقد أساء معاملتي، وكان مفترياً كبيراً في أمور كثيرة. لقد قال الكذب على لساني تحت سمعي وبصري. آه إنك ستقوم بعمل فيه الفضيلة التي يتحلى بها الأبطال، وستعترف بأنك قاتل أبيك، وبأن الخادم اغتاله بوحي منك.

فقاطعه أليوشا قائلاً: أخي، هدىء من روعك. لم تكن أنت الذي قتله. إن هذا غير صحيح!.

ـ إنه هو الذي قال ذلك، وهو يعلم «إنك ستقوم بعمل فيه الفضيلة التي

يتحلى بها الأبطال، وأنت لا تؤمن بالفضيلة، وهذا هو سر عذابك، إن هذا هو سبب حقدك». لقد قال لي ذلك عن نفسي وهو يعرف ماذا يقول.

فصاح أليوشا بمرارة: إنك أنت الذي تقول هذا القول، لا هو، لأنك مريض تهذي، إنك تعذب نفسك.

ـ كلا، إنه يعلم ماذا يقول. وقد قال لي إنك ذاهب بدافع من كبريائك. ستنهض وتقول إنني أنا الذي قتله، فلماذا يرعبك ذلك؟ أنت تكذب! إنني أحتقر فزعك! لقد قال ذلك عني، وأضاف:

«إنك تواق إلى إطرائهم، فيقولون عنك إنه مجرم، إنه مجرم وقاتل؛ ولكن ما أنبل عواطفه وما أسماها، إنه يعترف لينقذ أخاه». وفجأة صاح إيفان وعيناه تسطعان: إن هذا كذب يا أليوشا، إنني لا أريد أن يطربني الرعاع. أقسم أنني لا أريد إطراءهم! إن هذه كذبة! لقد كان هذا هو سبب قذفي إياه بالكوب فتحطم على وجهه القبيح.

فقال له أليوشا متوسلاً: «أخي، هدىء من روعك. كف عن هذا الكلام»! فمضى إيفان قائلاً، وهو غير عابىء بتوسلات أخيه: بلى، إنه يعرف كيف يعذب الناس. إنه قاس لا يرحم. لقد كنت أشعر منذ البداية أنه جاءني ليقول لي: «إذا سلمنا بأنك ذاهب بدافع من الكبرياء، فأنت مع ذلك تأمل أن يحكم على سميردياكوف وينفى إلى سيبريا، ويطلق سراح ميتيا، في حين تعاقب أنت بالاستنكار المعنوي، (هل تسمعني؟ هكذا ضحك مني آنذاك)، وسيطريك بعض الناس. غير أن سميردياكوف أمسى في عالم الأموات، لقد شنق نفسه، فمن تراه يصدقك وحدك؟ ومع ذلك فإنك ستمضي، ستمضي، إنك ستمضي إلى العار، لقد قررت الذهاب. ما سبب ذهابك الآن»؟ إن هذا رهيب يا أليوشا. إنها أسئلة لا أقوى على احتمالها، من يجرؤ على أن يوجه إليّ مثل هذه الأسئلة؟

يتحلى بها الأبطال، وأنت لا تؤمن بالفضيلة، وهذا هو سر عذابك، إن هذا هو سبب حقدك». لقد قال لي ذلك عن نفسي وهو يعرف ماذا يقول.

فصاح أليوشا بمرارة: إنك أنت الذي تقول هذا القول، لا هو، لأنك مريض تهذي، إنك تعذب نفسك.

- كلا، إنه يعلم ماذا يقول. وقد قال لي إنك ذاهب بدافع من كبريائك. ستنهض وتقول إنني أنا الذي قتله، فلماذا يرعبك ذلك؟ أنت تكذب! إنني أحتقر فزعك! لقد قال ذلك عني، وأضاف:

«إنك تواق إلى إطرائهم، فيقولون عنك إنه مجرم، إنه مجرم وقاتل؛ ولكن ما أنبل عواطفه وما أسماها، إنه يعترف لينقذ أخاه». وفجأة صاح إيفان وعيناه تسطعان: إن هذا كذب يا أليوشا، إنني لا أريد أن يطريني الرعاع. أقسم أنني لا أريد إطراءهم! إن هذه كذبة! لقد كان هذا هو سبب قذفي إياه بالكوب فتحطم على وجهه القبيح.

فقال له أليوشا متوسلاً: «أخي، هدىء من روعك. كف عن هذا الكلام»! فمضى إيفان قائلاً، وهو غير عابىء بتوسلات أخيه: بلى، إنه يعرف كيف يعذب الناس. إنه قاسٍ لا يرحم. لقد كنت أشعر منذ البداية أنه جاءني ليقول لي: «إذا سلمنا بأنك ذاهب بدافع من الكبرياء، فأنت مع ذلك تأمل أن يحكم على سميردياكوف وينفى إلى سيبريا، ويطلق سراح ميتيا، في حين تعاقب أنت بالاستنكار المعنوي، (هل تسمعني؟ هكذا ضحك مني آنذاك)، وسيطريك بعض الناس. غير أن سميردياكوف أمسى في عالم الأموات، لقد شنق نفسه، فمن تراه يصدقك وحدك؟ ومع ذلك فإنك ستمضي، ستمضي، إنك ستمضي إلى العار، لقد قررت الذهاب. ما سبب ذهابك الآن»؟ إن هذا رهيب يا أليوشا. إنها أسئلة لا أقوى على احتمالها، من يجرؤ على أن يوجه إليَّ مثل هذه الأسئلة؟.

فقاطعه أليوشا، وقد استحوذ الفزع عليه وملأ قلبه، ولكن الأمل كان ما يزال يحدوه أن يرد إيفان إلى حظيرة المنطق والعقل: أخي، كيف تسنى له أن ينبئك بوفاة سميردياكوف قبل مجيئي، في حين أن أحداً لم يكن يعلم ماذا حل به، ولم يكن هناك متسع من الوقت لكي يعلم أي إنسان بذلك؟.

فأجابه إيفان جازماً، وهو يربأ بنفسه أن يقر بالشكوك: لقد أنبأني به، إن ما قاله لي هو كل ما ذكرته لك، إذا أردت أن تناقشني في ذلك. لقد قال لي: من الخير أن تؤمن بالفضيلة، ولا يضرّنك أنهم لن يصدقوك، إنما أنت تتجه إلى المبدأ. غير أنك خنزير حقير كفيودور بافلوفيتش فما حاجتك إلى الفضيلة. لماذا تريد الذهاب لكي تحشر نفسك حشراً، إذا كانت تضحيتك لا تنفع أحداً؟ ذلك لأنك أنت نفسك لا تعلم علة ذهابك، مهما كلفك الأمر. فهل بوسعك أن تقطع رأيك؟ إنك لم تبت في هذا الأمر. ستقضي طيلة ليلتك ساهراً مفكراً تحاول أن تبت فيما إذا كنت ستذهب أم لا تذهب. ولكنك ستذهب، وأنت تعلم أنك ذاهب. إنك لتعلم أن قرارك مهما كان نوعه، عليك أن تدرك ذلك من نفسك. إن ذلك لغز بالنسبة إليك! ثم إنه نهض ومضى. لقد أتيت أنت فمضى هو. لقد دعاني جباناً يا أليوشا! إن سر اللغز هو أني جبان. ولقد أضاف إلى ذلك قوله: إنه ليس لمثل هذه النسور أن تحلق فوق الأرض. إنه هو الذي قال ذلك! وقد قال سميردياكوف نفس القول: يجب أن يقتل! إن كاتيا تحتقرني. كنت واعياً ذلك منذ شهر مضى. بل أن ليزا بدورها ستأخذ في احتقاري أيضاً! إن قوله «أنك ذاهب لكي يطريك الناس»، هو كذبة صارخة! وأنت تحتقرني أيضاً يا أليوشا. إنني سأعود إلى احتقارك الآن. وأكره الوحش أيضاً! إنني أكره الوحش، ولا أريد أن أنقذه. فليهلك في سيبريا! لقد بدأ ينشد أنشودة! آه غداً سأذهب، وسأقف أمامهم وأبصق في وجوههم!

وقفز من مكانه مهتاجاً، وألقى بالمنشفة بعيداً، ثم راح يغدو ويروح في الغرفة. هنا تذكر أليوشا فوراً أقواله إليه: «يبدو أنني مستيقظ نائم... إنني أسير، وأتكلم وأرى، ولكنني نائم». إن هذا القول أصبح منطبقاً عليه. لم يتركه أليوشا، وقد فكر أن يستدعي له طبيباً، ولكنه لم يشأ أن يظل أخوه وحيداً، ولم يكن في المنزل إنسان يمكنه أن يعهد إليه بأمره. وأضحى إيفان يغيب عن وعيه تدريجياً. وظل يهذي ويثرثر بكلمات متقطعة تخرج من فمه بصعوبة وعسر، وفجأة ترنح بشدة. ولكن أليوشا كان متأهباً فأسنده إليه، وسار به إلى فراشه. ونزع أليوشا عن أخيه ملابسه قبل أن يضعه في الفراش. وظل يرعاه ساعتين. ونام المريض نوماً عميقاً لا يتحرك، نفسه يتردد بهدوء وانتظام.

وتناول أليوشا وسادة وتمدد على الأريكة وهو في ملابسه. وقبل أن يغفو صلى من أجل ميتيا وإيفان. وقد بدأ يدرك أن حقيقة علة إيفان هي «عذاب العزيمة المتعالية. إنه الضمير الصادق»! فبعد أن كان كافراً بالله، أخذ الإيمان بالله، وحقيقة الله، يستحوذان شيئاً فشيئاً على فؤاده الذي كان لا يزال يقاوم الاستسلام. وأخذت الأفكار تتواثب في ذهن أليوشا فقال مفكراً: «نعم، نعم، إذا كان سميردياكوف ميتاً، فما من أحد سيصدق أقوال إيفان، ولكنه سيمضي وسيدلي بأقواله». وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة وقال: «إن الله سيظهر الحق. وهو إما أن ينهض تحف به هالة من نور الحقيقة أو... أنه سيهلك بفعل الكراهية، إذ ينتقم من نفسه ومن جميع الناس، لأنه خدم قضية لا يؤمن بها». وأحس أليوشا بالمرارة وهو يقول ذلك، ثم كرر صلاته من أجل إيفان.



الباب الثاني عشر

خطأ قضائي

اليوم الموعود

في صبيحة اليوم التالي للحوادث التي جئت على ذكرها، بدأت عند العاشرة محاكمة ديمتري كرامازوف أمام محكمة مقاطعتنا.

وأبادر الآن لتأكيد هذه الحقيقة، وهي أنني لا أدّعي القدرة على سرد كل ما جرى أثناء المحاكمة بالتفصيل، أو حتى سردها حسب ترتيب وقائعها. ويخيل إليّ أن ذكر كل شيء بالتفصيل، كفيل بملء مجلد ضخم. وأعتقد بأن أحداً لن يؤاخذني إذا ما قصرت حديثي على الوقائع التي تأثرت بها. وربما وقع اختياري لأهم الحوادث في ظني، على أشياء ذات أهمية ثانوية، كما أنني ربما حذفت أهم التفاصيل وأبرزها. ولكن ما لي ولهذا، فقد يكون اعتذاري في غير محله، وسأبذل جهدي وسيرى القارىء أنني قد قمت بكل ما أستطيع.

وأبدأ حديثي بذكر ما كان أدعى لدهشتي في ذلك اليوم قبل دخولي قاعة المحكمة. وهو في الحقيقة كان مدعاة لدهشة جميع الناس أيضاً، كما تبين لي فيما بعد. ولقد كنا جميعاً نعلم أن الحدث قد جذب اهتمام الجميع، وأن كل فرد كان يتحرق شوقاً لبدء المحاكمة، وأنها باتت منذ شهرين مادة للحديث والتكهن، والاستغراب في مجتمعنا. وكان الجميع يعلمون أيضاً أن الحادث قد ذاع صيته في روسيا كلها، ولكن لم يكن يخطر ببالنا حتى يوم المحاكمة، أنه أثار مثل ذلك الشوق المتأجج في نفوس الجميع، ليس في مدينتنا فحسب بل في روسيا كلها. وقد أدركنا ذلك في يوم المحاكمة ذاته.

وقد تقاطر الزوار ليس من أكبر مدن مقاطعتنا فحسب، بل أيضاً من مدن روسية عديدة بما في ذلك موسكو وبطرسبورغ. وبين من جاءوا لمشاهدة

المحاكمة، رجال القانون والسيدات، بل عدد من كبار الشخصيات المرموقة وقد تخاطف الناس بطاقات الدخول إلى قاعة المحكمة. وأعد مكان خاص خلف منصة المحكمة لإبرز الزوار وأهمهم، ووضعت فيه مقاعد وثيرة. وكان ذلك شيئاً غير مألوف، ولم يتفق قط أن شهدناه من قبل. وقد كانت نسبة السيدات بين الحضور عالية، فلم تكن تقل عن النصف. وقدم عدد كبير من رجال القانون، الأمر الذي أربك المسؤولين في المحكمة إذ لم يبق أماكن لجلوسهم، لأن جميع بطاقات الدخول كانت قد نفدت وتلقفتها الأيدي بشوق، فأقيم من أجلهم خلف المنصة، على عجل، حاجز خاص، وقد عدوا حظهم حسناً إذ وجدوا لهم أمكنة يتابعون منها المحاكمة وقوفاً خلف ذلك الحاجز، لأن جميع المقاعد كانت قد رفعت توخياً لزيادة المساحة، وظل أفراد هذا الجمع خلف الحاجز طيلة المحاكمة متراصين كتفاً إلى كتف.

وحضرت بعض السيدات، وخاصة اللواتي جئن من مكان بعيد إلى القاعة، في أجمل حلة وأرقى أناقة، غير أن معظم السيدات قد أهملن حتى العناية بهندامهن. وكان الناظر إليهن يقرأ في وجوههن آيات الفضول الهستيري المفرط. ومن الحقائق الغريبة - التي ثبتت فيما بعد الملاحظات الكثيرة - أن غالبية السيدات على أقل تقدير، كن مناصرات لميتيا ويتمنين إطلاق سراحه. وربما كان السبب الأقوى لذلك هو ما شاع عنه من صفات تفتن النساء وتغويهن. وقد كان معروفاً أن امرأتين متنافستين عليه ستتواجهان أثناء المحاكمة. أما الأولى، كاترينا إيفانوفنا، فكانت مثار اهتمام الجميع وقد شاعت شتى القصص الخارقة والطرف المدهشة عن استمرار تولهها القوي بميتيا رغم جريمته. وقد اهتم الناس اهتماماً خاصاً بكبريائها واتصالاتها الأرستقراطية. (فقلما كانت تزور أي إنسان في المدينة). وقيل عنها أنها تنوي تقديم التماس إلى الحكومة للسماح لها بمرافقة المجرم إلى سيبريا والزواج منه في مكان ما من أمكنة المناجم في باطن الأرض. أما الثانية، غروشينكا فلم تكن لهفة الناس إلى مشاهدتها في المحكمة أقل من لهفتهم لمشاهدة كاترينا، بل كانوا يتوقون بفضول عظيم لرؤية التقاء الغريمتين: الفتاة المترفعة الأرستقراطية والفتاة «الداعرة». وكانت غروشينكا معروفة من سيدات مقاطعتنا

أكثر من كاترينا إيفانوفنا، وهؤلاء السيدات كن قد رأين تلك المرأة التي جلبت الخراب لفيودور بافلوفيتش وابنه التعيس. وقد استبد العجب بهن جميعاً بلا استثناء من وقوع الأب والابن في غرام فتاة هي عادية كسائر الفتيات الروسيات حتى أنها لم تكن تعد جميلة.

بالاختصار أقول أن أحاديث كثيرة دارت حول هذا الموضوع. وإنني أعلم علم اليقين أن مشاجرات عائلية كثيرة قد شهدتها مدينتنا بسبب ميتيا. فقد تخاصم أزواج كثر مخاصمات عنيفة بسبب الخلاف في وجهات نظر كلّ من الطرفين حول هذه القضية الرهيبة. وكان طبيعياً أن الرجال من هؤلاء الأزواج وهم أبعد ما يكونون عن الشعور بالميل نحو السجين، قد دخلوا المحكمة حاقدين عليه. وفي الحقيقة، يجوز لي أن أقول أن الرجال الذين حضروا المحاكمة، بخلاف النساء كانوا يظهرون العداء للسجين. وهم قد تنوعت ملامح وجوههم بين عابسة مكفهرة وكارهة بل حاقدة. وكان ميتيا فعلاً قد أساء إلى الكثيرين أثناء إقامته في المدينة. وكان بعض الزوار بطبيعة الحال يشعرون بالانشراح ولا يهمهم مصير ميتيا بصفة شخصية بقدر ما يهمهم الأحكام التي ستصدرها المحكمة، وكان معظم الرجال يأملون أن يدان المتهم، اللهم إلا رجال القانون الذين كان اهتمامهم بالوجه الفقهي من القضية أكثر منه بالوجه الأخلاقي. ولقد عمّ الجميع شعور بالاهتمام العظيم من جراء وجود المحامي الذائع الصيت فتيو كوفيتش. فقد كانت مواهبه في المرافعة معروفة لدى الجميع. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها بالدفاع عن متهمين في قضايا جنايات بشعة في مختلف المقاطعات. وكان توليه الدفاع في هذه القضايا يكسبها شهرة تبقى في أذهان الناس أمداً طويلاً في أنحاء روسيا كلها. وثمة قصص كانت تروى أيضاً عن النائب العام في مدينتنا وعن رئيس المحكمة. فقد قيل أن إيبوليت كيريلوفيتش كان يتهيب لقاء فتيو كوفيتش، وأنهما كانا عدوين منذ أول عهدهما بحياة القضاء في بطرسبورغ، وأن نائبنا العام الرقيق الشعور، كان يلمس ظلم بعض الناس له في بطرسبورغ بعدم تقدير مواهبه حق قدرها. كما كان عظيم الاهتمام بقضية كرامازوف لأنه حلم بها فرصة تعيد له أمجاده المنسية. وبرغم كل ذلك، فإن فتيوكوفيتش

كان مصدر قلقه الأوحد. لكن هذه الأقاويل لم يكن لها نصيب من الصحة، فإن المدعي العام في مدينتنا لم يكن ممن تخور قواهم أمام الخطر الداهم. بل على العكس، فإن ثقته بنفسه قد ازدادت بازدياد الخطر. ويجدر بي أن أنوه بأن المدعي العام في مدينتنا كان، بصورة عامة، كثير التسرع شديد التأثر إلى حد المرض. وكان إذا ما عالج قضية، انصرف إليها بكليته وأقبل على معالجتها كما لو أن مصيره الشخصي مرتبط بنتيجتها. وقد كان ذلك مدعاة لبعض التهكم في الأوساط القضائية، فإن صفته هذه جعلت الناس يلوكون سمعته على نطاق أوسع من ذاك الذي يتناسب مع حجم مركزه المتواضع. وقد كان غرامه العظيم بعلم النفس مثيراً لضحك الناس. وأحسب أنهم كانوا مخطئين، وأن المدعي العام في مدينتنا، كما أعتقد، كان في صفاته أكثر عمقاً مما كان الناس يعتقدون، ولكنه بسبب اعتلال صحته، لم يستطع أن يفرض وجوده في مطلع حياته العملية، ثم عجز عن أن يعوض هذا النقص فيما بعد.

أما فيما يتعلق برئيس محكمتنا، فلا يسعني إلا أن أقول أنه كان إنساناً رقيق القلب جيد الثقافة، ذا خبرة عملية بوظيفته وصاحب آراء تقدمية. وكان طموحاً من غير أن يهتم بمستقبله الوظيفي بل كان الهدف العظيم الذي يسعى إليه في حياته هو أن يصبح معروفاً بآرائه التقدمية، وكان أيضاً متصلاً بعلية القوم صاحب أملاك واسعة. وقد علمنا فيما بعد، أنه كان عظيم الاهتمام بقضية كرامازوف، من وجهتها الاجتماعية فحسب، ولا من الوجهة الشخصية منها. كان يرى فيها ظاهرة يجب فهمها وتقييمها وتصنيفها بوصفها من نتاج أحوالنا الاجتماعية، ومن مميزات مجتمعنا الروسي وهلم جرا. أما نظرته إلى الناحية الشخصية من القضية، وإلى المصير المفجع للأفراد ذوي العلاقة بالقضية، بما فيهم السجين، فقد كانت أموراً لا تلقى منه كثير مبالاة، ولعله كان مصيباً في ذلك.

كانت قاعة المحكمة تغص بالحضور قبل وصول القضاة بمدة طويلة. وهي أفضل قاعات المحاكم في مدينتنا، فهي فسيحة الأرجاء مرتفعة الجدران صالحة لوضوح الصوت. وعلى يمين القضاة، الذين كانوا يجلسون فوق منصة مرتفعة. وضعت منضدة مع صفين من الكراسي خاصة بالمحلفين. وكان إلى

يسارهم مكان السجين ومحامي الدفاع. وكانت في وسط القاعة بالقرب من منصة القضاة، منضدة وضعت عليها «الأدلة المادية»: مبذل فيودور بافلوفيتش الحريري الملطخ بالدم، والمدقة النحاسية التي كان يفترض أنها استعملت في جريمة القتل، ثم قميص ميتيا الملطخ بالدم عند الكم، ومعطفه الذي تلطخ بالدم جيبه الداخلي حيث دس ميتيا منديله، ثم المنديل ذاته وكان قد جف الدم عليه فتقبض واصفر لونه. وكان إلى جانب هذه الأشياء على المنضدة المسدس الذي حشاه ميتيا بحضور بيرخوتين حين راودته فكرة الانتحار، والذي أخذه تريفون بوريسوفيتش منه خفية في موكرو؛ والظرف الذي ضم الثلاثة الآلاف روبل لغروشينكا، ورباطه القرنفلي، وأشياء أخرى عديدة لا أذكرها. وعلى بعد من منصة القضاة صفت المقاعد المخصصة للجمهور. غير أنه ترك أمامها صف خال من الكراسي للشهود الذين يمكثون في المحكمة بعد الإدلاء بشهاداتهم.

وقد وصل القضاة الثلاثة في الساعة العاشرة، الرئيس وقاضي صلح وقاض ثالث. وتبعهم مباشرة المدعي العام. كان رئيس المحكمة قصير القامة قوي البنية مكتنز اللحم يناهز الخمسين من عمره، صارم الملامح ذا شعر أسود فاحم وخطه الشيب، وكان يضع وشاحاً أحمر لا أذكر من أية رتبة.

ومما أدهشني وأدهش غيري أيضاً في مظهر المدعي العام، امتقاع شديد في وجهه، ونحول مفاجىء، وربما أصابه بين ليلة وضحاها، لأنني رأيته قبل موعد المحاكمة بيومين بمظهره العادي. وقد بدأ الرئيس مستوضحاً من المحكمة عما إذا كان جميع المحلفين قد حضروا.

ولكني أرى أنني لا أستطيع أن أستمر على هذا النحو في سرد الوقائع، فمن جهة هنالك بعض العبارات لم تبلغ سمعي، وبعض الأمور لم تسترع انتباهي، ثم أن هنالك أموراً قد نسيتها من جهة أخرى. وأهم من ذلك كله، أنه كما أسلفت يتعذّر عليّ ذكر تفاصيل كل ما حدث أو قيل، بسبب ضيق الوقت وفسحة الكتاب. ولكنني أعلم أن كلا الطرفين لم يعترض على غالبية المحلفين، وكان عددهم اثني عشر، وهم أربعة من صغار موظفي مدينتنا، وتاجران، وستة من الفلاحين والحرفيين في مدينتنا. وأذكر أن الناس ولا سيما

السيدات منهم، كانوا يتساءلون باستمرار وبكثير من الدهشة: «هل يمكن أن تعهد قضية دقيقة ومعقدة كهذه تتطلب معرفة جيدة بعلم النفس إلى موظفين صغار وحفنة من الفلاحين ليقولوا كلمتهم فيها؟ وأية دراية للموظف أو الفلاح في مثل هذا الأمر»؟ وقد كان جميع الموظفين الأربعة المحلفين، في الواقع من صغار الشأن، وذوي المراتب الصغيرة. وإذا استثنينا أحدهم، وكان أصغر سناً منهم، فقد كانوا متقدمين في السن، وخط الشيب شعرهم غير معروفين في المجتمع، يعيشون على رواتب ضئيلة، وربما كانت لهم زوجات متقدمات في السن لا حظ لهن من جمال أو أناقة. ولا بد أنهم آباء لأولاد كثر يذرعون الشوارع، على الأرجح، حفاة وبدون جوارب. وكان هؤلاء الموظفون يقضون معظم أوقاتهم في لعب الورق. وطبيعي أن أحداً منهم لم يقرأ كتاباً في حياته. أما التاجران فقد بدت عليهما دلائل الاحترام، ولكنهما كانا صامتين وقد بدا الجمود على قسمات وجهيهما إلى حد يبعث على الاستغراب. وكان أحدهما حليق الذقن يرتدي بزة من الطراز الأوروبي، والآخر ذا لحية قصيرة تغلغل فيها الشيب، وكان يضع حول عنقه وشاحاً أحمر اللون علق به وسام. ولا حاجة بي إلى التحدث عن الفلاحين والحرفيين، فالحرفيون في بلدتنا سكوتبريغونييفسك يكادون لا يختلفون عن الفلاحين، بل أنهم يعملون مثلهم في فلاحة الأرض. وكان اثنان منهم يرتديان الملابس الأوروبية، ولعل هذا الأمر كان يجعلهما أكثر قذارة من الآخرين ويجعل مظهرهما أدعى للنفور. ولذلك، ومنذ النظرة الأولى، كان الجميع يتساءلون وأنا منهم، مستغربين: «ما الذي يستطيع رجال هذه حالهم أن يفعلوه في مثل هذه القضية»؟. ومع ذلك فقد كانت وجوههم تترك في نفس الناظر إليهم أثراً مخيفاً.

وأخيراً افتتح رئيس المحكمة قضية مصرع فيودور بافلوفيتش كرامازوف، ولست أذكر على وجه الدقة كيف وصفه. وقد أمر مباشر المحكمة بإحضار المتهم، وسرعان ما ظهر ميتيا في القاعة فخيم الصمت فجأة إلى حد يمكن معه أن تسمع رنة الإبرة. وقد أحدث ميتيا لدى دخوله أثراً غير مستحب في نفسي، وما عدت أعرف كيف كان الأمر بالنسبة لغيري، فقد بدا مسرفاً في التأنق وكان يرتدي معطفاً جديداً. وقد علمت فيما بعد أنه

أوصى به خياطه في موسكو خصيصاً لهذا اليوم، وكان يحفظ مقاييس جسمه. كذلك كان يلبس قفازاً أسود اللون جديداً، وقميصاً فاخراً. دخل القاعة وهو يسير بخطوات واسعة، مثبتاً نظره أمامه لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وجلس في المكان المخصص له: بكثير من الهدوء والثقة.

وفي اللحظة ذاتها دخل محامي الدفاع فتيو كوفيتش الشهير فساد القاعة همهمة خفية. وقد كان المحامي فارع الطول ناحل الجسم طويل الساقين دقيقهما. له أصابع مسرفة في الطول دقيقة شاحبة، حليق الوجه، وكان شعره قصيراً وقد سرحه بقلة عناية قد تثير الضحك، شفتاه دقيقتان تفتران أحياناً عن ابتسامة مبهمة بين المرح والسخرية. وكان يبدو في الأربعين من عمره. أما وجهه فكان مليحاً لولا عينيه اللتين فضلاً عن صغرهما وخلوهما من التعبير، كانتا قريبتين إلى بعضهما قرباً يلفت الأنظار، ولا يفصل بينهما سوى أنفه الدقيق الطويل. والواقع أن وجهه يشبه وجه الطيور. وكان مرتدياً ثياب السهرة وربطة عنق بيضاء.

إنني أذكر السؤال الأول الذي وجهه رئيس المحكمة إلى ميتيا عن اسمه وكنيته وما إلى ذلك. وقد أجاب ميتيا بلهجة خشنة وجافة، وبصوت عال، مما جعل الرئيس يجفل وينظر بدهشة واستغراب. ثم نودي على أسماء أشخاص عديدين كان مطلوباً منهم الاشتراك في المحاكمة كشهود أو خبراء. وتبين غياب أربعة من الشهود، وهم ميوسوف، الذي أدلى بشهادته أثناء التحقيق الأولي، وهو الآن في باريس، والسيدة خولاكوف ومكسيموف اللذان لم يستطيعا الحضور بسبب المرض، وسميردياكوف الذي سبق موته المفاجىء بدء المحاكمة. وقد تلي بوفاته تقرير رسمي من الشرطة. وقد أحدث إعلان نبأ وفاة سميردياكوف جلبة مفاجئة وهمهمات في القاعة ذلك أن كثيرين من الحضور لم يكن قد علموا بانتحاره. وقد أدهشهم أكثر من أي شيء آخر هياج ميتيا المفاجىء، فإنه ما كاد أن يسمع تقرير الشرطة عن وفاة سميردياكوف حتى صاح من مكانه بصوت هادىء في قاعة المحكمة: «لقد كان كلباً ومات ميتة الكلب».

وما زلت أذكر كيف أن محامي الدفاع اندفع نحوه، وكيف أن الرئيس

حذره بحزم، وهدّده باتخاذ أقسى الإجراءات، إذا تكرر ذلك التصرف الشاذ. وقد هز ميتيا رأسه موافقاً قائلاً لمحاميه بصوت خافت وبدون أن يظهر أي دليل على الندم: «سأكف عن هذا، أعدك بذلك. لقد أفلتت الكلمات من شفتي ولن أكررها».

ولم يترك هذا الحادث القصير، بطبيعة الحال، أي أثر حسن في نفوس المحلفين أو أفراد الجمهور. لقد كشف عن خلاله، التي كانت تتحدث عن نفسها. وفي هذا الجو المنقبض تمت تلاوة بيان افتتاح القضية. وكان بياناً مقتضباً ولكنه شامل. وقد اقتصر على ذكر السبب الرئيسي لإلقاء القبض على ميتيا، وسبب محاكمته وما إلى ذلك. وبالرغم من اقتضابه فقد أحدث في نفسي أثراً عظيماً. وقد تلاه كاتب المحكمة بصوت جهوري واضح النبرات فانكشفت أمامنا فجأة ومن جديد، جميع فصول المأساة، ملخصة، وألقي عليها ضوء قتال لا يرحم. وأذكر أيضاً أن رئيس المحكمة، فور الانتهاء من تلاوة البيان، سأل ميتيا بصوت جهوري مؤثر: «أيها السجين، هل أنت مذنب؟».

وقد نهض ميتيا من مقعده بغتة. وقال بصوت مضطرب يدل على الخوف: «إنني مذنب بالسكر والتهتك، والتسكع وارتكاب الموبقات، وكنت أنوي أن أرتد إلى الإستقامة وأن أكون حتى آخر يوم في حياتي إنساناً صالحاً شريفاً، غير أن القدر عاجلني بضربته. ولكنني بريء من دم ذلك الرجل العجوز، عدوي ووالدي. كلا، كلا، إنني لست مسؤولاً عن سرقة ماله! فلا يمكن أن أقدم على مثل ذلك. إن ديمتري كرامازوف وغد، ولكنه ليس لصاً»!.

وعاد إلى الجلوس، وكان واضحاً أنه يرتجف من فمه إلى أخمص قدميه. وخاطبه الرئيس مرة أخرى باقتضاب وصرامة، طالباً منه أن يقتصر في إجابته على الأسئلة التي توجه إليه، وأن لا يتفوه بعبارات بعيدة عن جوهر القضية. أمر ثم بأن يبدأ سير المحاكمة، فطلب أن يحلف جميع الشهود اليمين، وعندئذ رأيتهم جميعاً. لكن شقيقيْ السجين سمح لهما بأداء شهادتهما بدون أن يحلفا اليمين. وبعد أن استمع الشهود إلى بعض عبارات النصح والإرشاد من الرئيس ومن الكاهن، أبعدوا من أمام الشرطة وطلب إليهم أن يجلسوا متباعدين، ثم نودي عليهم واحداً بعد واحد.

شهود عدلة

لست أدري ما إذا كان رئيس المحكمة قد جعل شهود الاتهام وشهود الدفاع في جماعتين منفصلتين، وما إذا كان قد وضع ترتيباً ما يعتمده في استدعائهم. ولكن ما من شك في أن الأمر كان كذلك. ولكنني عرفت أن شهود الإتهام قد دعوا أولاً. وأعود فأكرر القول إنني لا أنوي سرد جميع الأسئلة حسب ورودها. وفضلاً عن ذلك فإن عملاً كهذا سيكون زيادة لا لزوم لها إلى حد ما، لأن نواحي البراهين تجمعت كلها في مرافعتي الاتهام والدفاع، ووضحت وضوحاً عظيماً، وقد دونت بعض نصوص هاتين المرافعتين الهامتين، وسآتي على ذكرهما في المكان المناسب، مع حادثة أخرى خارقة غير منتظرة، وقعت قبل الخطابين النهائيين، وكان لها ولا شك أثر على نتيجة المحاكمة المشؤومة.

أما الآن فسأكتفي بالإشارة إلى بروز ظاهرة واحدة فذة من ظواهر القضية أدركها الجميع. وهي قوة حجة الادعاء الخارقة وضعف الحجة التي كان على الدفاع أن يعتمد عليها. وقد أدرك جميع الحضور هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى، وأخذت الحقائق تتجمع في نقطة واحدة، وانكشفت جميع أسرار الجريمة الهائلة الدموية بالتدريج. وربما جاز القول أن جميع الناس قد شعروا منذ البداية أن القضية واضحة ومفهومة وأنه لا مجال للشك فيها، وأن اثنين لن يختلفا في أمرها، وأن الدفاع كان أمراً شكلياً وأن المتهم مذنب لا ريب في ذنبه. بل وأحسب أن السيدات أنفسهن اللواتي كن يتشوقن إلى تبرئة المتهم السجين، تكونت لديهن جميعاً بلا استثناء قناعة مطلقة بارتكابه الجريمة. وأعتقد فوق هذا أنهن كن، ولا شك سيشعرن بالأسى القتال في حال الشك بتنفيذه جريمته، لأن هذا من شأنه أن يخفف من أثر المشهد الأخير إذا ما تمت

تبرئة المجرم. ومن الغريب أن السيدات جميعاً كن مقتنعات، إلى اللحظة الأخيرة اقتناعاً راسخاً، بأنه سيبرأ. فقد كن يتبادلن القول إنه مذنب، ولكنه سيطلق سراحه لدوافع إنسانية، انسجاماً مع الآراء الحديثة والمفاهيم الجديدة التي أصبحت مألوفة، وما إلى ذلك من أقوال. ذلك ما كان يفسر ازدحامهن بقاعة المحكمة وهن ينتظرن نتيجة المحاكمة بصبر نافذ. أما الرجال فكانوا أكثر اهتماماً بالصراع بين المدعي العام ومحامي الدفاع الشهير فتيو كوفيتش. وكانوا جميعاً يتساءلون عما سيستطيعه محام موهوب كفتيو كوفيتش، في هذه القضية الخاسرة سلفاً، ولذلك فقد كانوا يتابعون أفعاله خطوة فخطوة باهتمام وانتباه شديدين.

غير أن فتيو كوفيتش ظل بالنسبة للجميع لغزاً محيراً حتى النهاية، موعد مرافعته. وكان أهل الخبرة والتجربة يشعرون بأن هناك غاية يسعى إليها، وهدفاً يرمي إليه، ولكن كان من قبيل المستحيل معرفة هذا الهدف. وعلى كل حال فقد كانت ثقته، واعتداده بنفسه، لا مراء فيهما. يضاف إلى هذا أن الجميع لاحظوا بارتياح، كيف أنه في مدة قصيرة قضاها في بلدتنا، لم تزد على الثلاثة أيام، تمكن من الإحاطة بكافة نواحي القضية بعد أن أشبعها درساً وتمحيصاً. وأخذ الناس فيما بعد يتناقلون بلذة نبأ «إيقاعه» بشهود الإثبات جميعاً، وقدرته على إرباكهم في اللحظة المناسبة. وخاصة فضحه لسلوكهم الأخلاقي وتحطيم شهاداتهم. وهم يروون كيف ظنوا بأنه فعل ذلك رغبة منه في العبث، إذا صح هذا القول، وحباً في إحراز المجد، ولكي يظهر للملأ أنه لم يحذف شيئاً من الأساليب المتبعة، فالجميع كانوا على قناعة بأن لا فائدة حقيقية ترجى من تشهيره بالشهود بهذا الشكل، وأنه قد يكون أكثر الناس إدراكاً لهذا الأمر، فلعله كان يضمر شيئاً خفياً، ويخفي سلاحاً للدفاع، سيظهره بغتة عندما يحين الوقت. ولكنه في هذه الأثناء، كان شاعراً بقوته فطاب له أن يلهو ويعبث.

وهكذا فإنه عندما جاء دور استجواب غريغوري خادم فيودور بافلوفيتش العجوز، الذي أدلى بأهم شهادة وأخطرها حول الباب المفتوح، كانت قبضة هذا المحامي بانتظاره. ويجب أن نذكر أن غريغوري دخل القاعة رابط

الجأش غير هيّاب، لاجلال المحكمة ولا كثرة المصغين لأقواله. وقد أدلى بشهادته معتداً بنفسه متمالكاً لأعصابه وكأنه يتحدث إلى مارفا ولكن بلهجة الاحترام. وقد كان من المستحيل حمله على مناقضة نفسه. وقد استجوبه المدعي العام استجواباً دقيقاً عن حياة أسرة كرامازوف. وقد رسم لهذه الحياة العائلية صورة حية متعددة الألوان. وكان جلياً لكل الناس أنه لم يكن كاذباً أو متحيزاً في أقواله. إن ما أبداه من احترام عميق لذكرى سيده الراحل، كان دعماً لشهادته أمام المحكمة بأن سيده لم يكن عادلاً في معاملته لميتيا، ولا هو أحسن تربية أولاده. وعن طفولة ميتيا قال: «إنه لولاه هو، لأكله القمل». وأضاف يقول: «وكذلك فلم يكن من العدل أن يخدع الأب ابنه فيما يتعلق بملك أمه، الذي كان له بحكم الحق».

وعندما سأله المدعي العام أن يسرد الأسس التي بنى عليها قوله أن فيودور بافلوفيتش قد خدع ابنه في مسائل وراثية، أجاب أنه ليس لديه أي برهان على ذلك إطلاقاً، مما أدهش الجميع، ولكنه مع ذلك أكد أن معاملته لابنه لم تكن «عادلة» وكان يجب أن يعطيه بضعة آلاف أخرى من الروبلات. وفي معرض الحديث عن ذلك، يجب أن أذكر أن المدعي العام وجه سؤالاً عما إذا كان فيودور بافلوفيتش قد احتفظ لنفسه بقسم من تركة ميتيا، وهو سؤال ألح عليه إلحاحاً شديداً عند استجوابه جميع الشهود المعنيين بهذا السؤال، ولم يستثن من ذلك أليوشا ولا إيفان، ولكن أحداً منهم لم يقدم له معلومات دقيقة. وقد زعموا جميعاً أن الأمر كان كذلك ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا ذلك. وقد وصف غريغوري الحادث الذي جرى على مائدة الغداء عندما اندفع ديمتري إلى داخل الغرفة وضرب والده، وهدده بالعودة إليه لقتله، فأحدث أثراً سيئاً في نفوس أعضاء المحكمة وقد زاد في تأثيرهم ما بدا من ملامح الخادم العجوز عند سرده الحادث، وحسن تخيره للكلمات، وسبكه للجمل. وقد ذكر أنه غير غاضب على ميتيا لأنه صرعه أرضاً ولطمه على وجهه، بل أنه غفر له وسامحه منذ وقت طويل وعندما أتى على ذكر سميردياكوف الميت رسم شارة الصليب قائلاً أنه كان شاباً كفئاً ولكنه أحمق معتل، وأسوأ من هذا فإنه كان ملحداً. وقال أنه تعلم ذلك من فيودور

باڤلوفيتش وابنه الأكبر. لكنه دافع عن أمانة سميردياكوف بحرارة، وذكر كيف أنه عثر مرة على نقود للسيد في الفناء فأعادها إليه فأجازه بقطعة ذهبية. ومنذ ذلك الحين أخذ يركن إليه من كل قلبه ويأتمنه على كل شيء، وبقي غريغوري مصراً على أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحاً، وقد وجهت إليه أسئلة كثيرة لا أستطيع أن أتذكرها.

وجاء دور محامي الدفاع لاستجوابه. فكان موضوع الظرف الذي افترض أن فيودور باڤلوفيتش قد وضع فيه مبلغ ثلاثة آلاف روبل «الشخص ما» محور أول أسئلته: «هل رأيت ذلك الظرف وأنت الذي كنت تقوم بخدمة سيدك وتتصل به أوثق صلة»؟ فأجاب غريغوري بقوله إنه لم ير الظرف ولم يسمع بأمر النقود من أي إنسان قبل أن ينتشر خبرها بين الجميع، وقد كان فتيو كوفيتش يلح في توجيه هذا السؤال عن الظرف، إلى جميع من توسم فيهم معرفة شيء عنه، وكان في ذلك ملحاً كالمدعي العام في السؤال عن إرث ديمتري وكانت أجوبة الجميع واحداً بعد آخر أنه ما من إنسان شاهد الظرف وإن كان الكثيرون منهم قد سمعوا بأمره. وقد لاحظ الجميع منذ البداية تركيز فتيو كوفيتش أسئلته عن هذا الموضوع.

وبغتة وعلى غير انتظار وجه فتيو كوفيتش إلى غريغوري الكلام قائلاً: والآن أستأذنك في توجيه هذا السؤال إليك، ذكرت في التحقيق الأولي أن سائلاً عالجت به نفسك وفركت موضع الألم من ظهرك عشية ذلك اليوم أملاً في الحصول على الشفاء من مرض الروماتيزم فممّ صنع هذا الدواء؟.

فنظر غريغوري إلى السائل نظرة تنم عن الدهشة، وهو صامت ثم قال: «فيه قليل من الزعفران».

- ألم يكن فيه شيء سوى الزعفران؟ ألا تذكر مادة أخرى؟.

- كان فيه بلسان أيضاً.

فعاد فتيو كوفيتش إلى التساؤل: «وربما شيء من الفلفل أيضاً أليس كذلك»؟.

نعم، كان في الدواء فلفل أيضاً.

- وما إلى ذلك من مواد، وكلها مذابة بالفودكا أليس كذلك؟.

- بل الكحول.

وهنا سمعت أصوات الضحك تنبعث خافتة من قاعة المحكمة.

- إذاً فقد أذيبت بالكحول. في اعتقادي أنك شربت ما تبقى في الزجاجة بعد أن فركت ظهرك. وأنت تتلو صلاة خاصة لا أحد يعرفها سوى زوجتك، أليس كذلك؟.

- نعم، لقد فعلت هذا.

- هل شربت شيئاً كثيراً؟ كأساً أو كأسين مثلاً؟.

- ربما شربت كوباً كبيراً.

- إذاً فقد شربت كوباً كبيراً. أليس جائزاً أن تكون قد شربت كوباً ونصف الكوب.

ولم يجب غريغوري، فقد بدأ يدرك المقصود من هذه الأسئلة. وتابع المحامي يقول: إن كأساً ونصف الكأس من الكحول النقية ليست سيئة أبداً ألا تظن ذلك؟ إن تناول هذه الكمية كفيلة دون شك بأن تجعلك ترى أبواب السماء مفتوحة لا الباب المؤدي إلى الحديقة!.

وظل غريغوري صامتاً وعلت أصوات الضحك في القاعة، وتحرك رئيس المحكمة في مكانه.

وعاد فتيو كوفيتش يلاحق غريغوري بأسئلته: «هل أنت واثق من أنك كنت مستيقظاً عند رؤيتك الباب مفتوحاً»؟.

- لقد كنت واقفاً على رجلي.

- إن هذا ليس دليلاً على أنك كنت مستيقظاً - وعاد الجمهور يضحك - هل كنت في تلك اللحظة قادراً على الإجابة عن سؤال يوجهه أحدهم إليك فيسألك مثلاً عن السنة التي نحن فيها؟.

- لست أدري.

- في أي سنة ميلادية نحن؟ هل تعرف؟.

ووقف غريغوري حائراً، وهو يصوب نظره إلى معذبه. ومن الغريب أن أقول، أن نظرته كانت تدل على كونه جاهلاً السنة.

ـ ولكن هل بوسعك أن تقول لنا كم عدد الأصابع في يديك؟

وبغتة صاح غريغوري بصوت عال واضح النبرات: «إنني خادم والطاعة من طبعي، فإذا حلا لسادتي أن يعبثوا بي، فمن واجبي أن أتحمل ذلك».

وقد ظهر شيء من الغيظ على فتيو كوفيتش، وتدخل رئيس المحكمة طالباً منه أن تكون أسئلته أكثر تعلقاً بالقضية. إنحنى فتيو كوفيتش باحترام وقال أن ليس لديه أية أسئلة أخرى يوجهها إلى الشاهد. وقد شعر الجمهور، والمحلفون بطبيعة الحال، بشيء قليل من الشك في صدق شهادة إنسان يمكنه أن يرى «أبواب السماء» بتأثير دواء وهو لا يعرف حتى السنة التي يعيش فيها. تلك كانت نقطة رابحة كسبها المحامي. وقبل أن يغادر غريغوري مكان الشهود وقعت حادثة أخرى، فقد التفت رئيس المحكمة إلى السجين وسأله عما إذا كان له ملاحظات على أقوال الشاهد.

فصاح ميتيا بصوت جهوري: إذا استثنينا ما قاله عن الباب المفتوح، فإن جميع ما قاله كان صحيحاً. وإنني أشكره على تسريحه شعري وتنظيفه من القمل، كما أشكره على صفحه عن لطماتي له. لقد كان هذا الرجل العجوز مستقيماً طول حياته ومخلصاً لأبي إخلاص سبع مائة كلب.

فصاح به رئيس المحكمة قائلاً: «أيها السجين، يجب أن تنتبه إلى ألفاظك وتعنى بها».

وتمتم غريغوري قائلاً: «إنني لست كلباً».

فصاح ميتيا قائلاً: «حسناً، فأنا الكلب. فإذا كانت هذه الكلمات إهانة فأنا أجيرها لنفسي وأسأله الصفح. لقد كنت معه فظاً غليظ القلب، وكذلك كنت مع إيسوب أيضاً».

فعاد الرئيس إلى سؤاله محتداً: «أي أيسوب هذا؟ من تعني»؟.

ـ أعني بيارو... أبي، فيودور بافلوفيتش.

وعاود الرئيس تنبيه ميتيا محتداً ومؤنباً، إلى ضرورة مراقبة ألفاظه قائلاً: «إنك تؤذي نفسك وتسيء نظرة قضاتك إليك».

وقد أظهر محامي الدفاع مهارة مماثلة في تمحيصه شهادة راكيتين أيضاً، وهو الذي يمكن اعتباره من الشهود الذين يعتد بهم، وقد كان المدعي

العام يعلق أهمية قصوى عليه. وقد بدا عليه أنه كان يعرف كل شيء، وأن معرفته هذه تدعو إلى الدهشة، فلقد ذهب إلى كل مكان، ورأى كل شيء، وتحدث مع الجميع، وكان مطلعاً على جميع تفاصيل حياة فيودور بافلوفيتش وحياة أفراد أسرة كرامازوف جملة. أما فيما يتعلق بالظرف، فإنه لم يسمع بأمره إلا من ميتيا نفسه، ولكنه وصف وصفاً دقيقاً مغامرات ميتيا في حانة «متروبوليس» وجاء على ذكر جميع أفعاله وأقواله، وسرد قصة الكابتن سنيغيريوف الخاصة «بحزمة القش». ولكن راكيتين نفسه لم يستطع أن يقدم حجة واضحة إيجابية عن إرث ميتيا، بل قصر كلامه عبارات غامضة تعكس الإهانة والتحقير. قال: «من يمكنه الجزم أيهما يستحق الملامة، وأيهما مدين للآخر، وسط جو عائلي يسود فيه أسلوب سلالة كرامازوف الدالة على الحماقة، حيث تضطرب الأمور المالية فلا يستطيع المرء أن يعرف لها بداية ولا نهاية». وعزا الجريمة المفجعة، إلى العادات التي رسخها نظام الاسترقاق في نفوس أجيال متعاقبة، وردها إلى الظروف المحزنة التي نجمت عن انعدام النظم الصحيحة في روسيا. والحقيقة أنه سمح لراكيتين بالإسهاب في كلامه. وكانت تلك المناسبة قد أتاحت لراكيتين إظهار قدراته، وذيوع صيته لأول مرة. وقد كان المدعي العام يعلم أن الشاهد كان يعد مقالاً عن القضية يبغي نشره في إحدى المجلات، وسنرى فيما بعد كيف أنه في مرافعته سيقتبس بعض الآراء من هذا المقال، مؤكداً بذلك اطلاعه المسبق عليه. وكانت الصورة التي رسمها الشاهد عن القضية صورة كئيبة محزنة، وقد دعمت موقف الادعاء العام إلى حد بعيد. وجملة القول، فإن خطاب راكيتين خلب ألباب الجمهور بسبب استقلال أفكاره ونبلها، بل إن تصفيقات تلقائية انطلقت مرتين أو ثلاث مرات عندما تحدث عن رقيق الأرض، والحالة المحزنة في روسيا.

غير أن راكيتين، وهو شاب بعد، ارتكب زلة صغيرة تلقفها محامي الدفاع بحذق وبراعة. فهو، أي راكيتين، عندما كان يجيب عن أسئلة معينة تتعلق بغروشينكا اشتط في مقالته، مأخوذاً بنبل مقاصده وسموها الأخلاقي، وبنجاحه الذي كان مدركاً له بطبيعة الحال، ومضى في حديثه إلى حد

ازدراء اغرافينا ألكسندروفنا التي قال عنها أنها كانت «محظية سامسونوف الذي ينفق عليها». ولقد تمنى لو ضحى بالشيء الكثير في سبيل سحب هذه العبارة المشؤومة، لأن فتيو كوفيتش لم يلبث أن أوقع به بسببها. إن راكيتين لم يكن يظن بأن المحامي كان بوسعه أن يتعرف إلى كل دقائق القضية في هذه الفترة القصيرة، وإلا لم يكن لذلك أن يقع. استهل محامي الدفاع استجوابه بالقول وهو يبتسم له ابتسامة التودد بل والاحترام: «إسمح لي أن أسألك، ألست أنت بطبيعة الحال السيد راكيتين ذاته كاتب النشرة التي وزعتها سلطات الأبرشية تحت عنوان «حياة الناسك المتوفى الأب زوسيما»، المملوءة بالتأملات العميقة الدينية، والمقدم لها بكلمة إهداء صادق إلى الأسقف؟ لقد قرأت هذه النشرة مؤخراً بلذة عميقة.

فتمتم راكيتين وكأن شيئاً ما جعله يضطرب ويشعر بالخزي: «إنني لم أكتبها للنشر.. وقد نشرت فيما بعد».

ـ آه، إن هذا شيء رائع! إن مفكراً مثلك يستطيع بل ويجب عليه فعلاً أن يؤمن شمولية كافية لجوابه عن كل سؤال يتعلق بالقضية الاجتماعية. إن نشرتك التوجيهية قد وزعت وانتشرت في كل مكان بفضل رعاية الأسقف، وقد كانت ذات فائدة جلى... وهذا بالضبط ما يدفعني إلى سؤالك عن أمر أود أن أعرفه منك: لقد قلت لتوك أنك تعرف معرفة وثيقة السيدة سفيتيلوف. (ويجب أن أذكر هنا أن لقب غروشينكا هو سفيتيلوف. ولقد سمعته للمرة الأولى في ذلك اليوم، أثناء النظر في القضية).

فصاح راكيتين وقد ظهرت على وجهه حمرة شديدة: «إنني لا أستطيع أن أكون مسؤولاً عن جميع معارفي... فأنا شاب... وأي إنسان يمكن أن يتحمل مسؤولية جميع من يقابلهم من الناس»؟.

فبادر فتيو كوفيتش إلى القول، متظاهراً بالحرج وبالحرص على التماس المعاذير لنفسه: إنني أفهم تمام الفهم، إنك كغيرك قد تجذبك متعة التعرف إلى شابة صغيرة حسناء تفتح بيتها لنخبة الشباب في هذه الأرجاء، ولكن.. كل ما أريد معرفته... هو مدى صحة ما بلغني أن السيدة سفيتيلوف كانت منذ شهرين تتمنى التعرف بكرامازوف الأصغر، ألكسي فيودوروفيتش، وقد

وعدتك بخمسة وعشرين روبلاً إذا حققت رجاءها الملح لك في إحضاره إليها وهو بثياب الرهبان. وقد حدث ذلك فعلاً عشية اليوم الذي اقترفت فيه الجريمة الرهيبة موضوع التحقيق الدائر الآن. لقد جئت بألكسي كرامازوف إلى السيدة سفيتيلوف، فهل أخذت منها مبلغ الخمسة والعشرين روبلاً التي وعدت بإعطائك إياها على سبيل الجائزة؟ ذلك ما أود أن أسمع توضيحه منك الآن.

- لقد كان ذلك الأمر مزحة... ولست أرى ما يعنيك فيه... لقد أخذت المبلغ على سبيل المزاح... وكنت أنوي أن أرده فيما بعد...

- إذاً فقد أخذت المبلغ... ولم ترده بعد... أم أنك رددته؟.

فتمتم راكيتين قائلاً: «إن هذا أمر غير ذي بال. إنني أرفض الإجابة عن أسئلة كهذه... إنني سأرد المبلغ طبعاً».

وهنا همّ رئيس المحكمة أن يتدخل ولكن فتيو كوفيتش أعلن أنه ليست لديه أسئلة أخرى يوجهها إلى الشاهد. وقد غادر راكيتين مكان الشهود يجر أذيال الخيبة والانهزام. لقد بطل مفعول المثالية السامية الذي أحدثته خطبته، وكان فتيو كوفيتش يلاحقه بنظرة ساخرة كأنه يوحي للجمهور بهذا القول: هاكم أنموذجاً للأشخاص ذوي العقول السامية الذين يوجهون إليه التهم جزافاً. وأذكر أن هذه الحادثة أيضاً لم تمر بدون أن يثور ميتيا. فقد أغضبته اللهجة التي تحدث بها عن غروشينكا فصاح مخاطباً راكيتين: «برنارد». وبعد الفراغ من التحقيق مع راكيتين سأل الرئيس السجين عما إذا كان لديه ملاحظة ما، فصاح ميتيا قائلاً: إنه اقترض المال مني مرات عديدة! إنه طفيلي حقير وانتهازي وهو لا يؤمن بالله، وقد أوقع بالأسقف مغرراً به.

وقد نبه ميتيا بطبيعة الحال مرة ثانية إلى شططه في الكلام، ولكن راكيتين كان قد أسقط في يده نهائياً.

ولقد أخفق الكابتن سنيغيريوف في شهادته أيضاً، ولكن إخفاقه كان لسبب آخر. إذ أنه مثل أمام المحكمة مرتدياً ثياباً مهلهلة قذرة، ومنتعلاً حذاء ملطخاً بالأوحال. وبالرغم من الرقابة والاحتياطات التي اتخذها ضباط الشرطة، فإنه بدا بوضوح، ثملاً تماماً. وعندما سئل عن اعتداء ميتيا عليه، رفض الإجابة

على ذلك قائلاً: «ليباركه الله إن إيلوشا منعني أن أقول شيئاً عن هذا الأمر. إن الله سيعوضني خيراً في الآخرة».

ـ من منعك؟ عمن تتحدث؟.

ـ عن إيلوشا، ولدي الصغير. لقد قال لي ونحن عند الصخرة: أبي، أبي، ما أكبر ما أهانك! وهو الآن يموت.

وبغتة أخذ الضابط ينتحب، وتهالك على ركبتيه أمام رئيس المحكمة، فتم إخراجه بسرعة وسط ضحكات الجمهور. وهكذا فإن الأثر الذي كان المدعي العام يعوّل عليه قد ضاع نهائياً.

واستمر فتيو كوفيتش ينتهز الفرصة كلما وجدها سانحة، كما استمر الحضور يدهشون لإطلاعه الدقيق على نواحي القضية. من ذلك مثلاً أن شهادة تريفون بورسيفوفيتش كانت قد أحدثت أثراً عظيماً بطبيعة الحال في غير مصلحة ميتيا. وقد كاد يعد على أصابعه ليثبت أن ميتيا أنفق في زيارته الأولى لموكرو مبلغ ثلاثة آلاف روبل، أو أقل من ذلك بقليل. وقال: يكفي أن تتصوروا مقدار الأموال التي بددها على الغجريات وحدهن! أما فيما يتعلق بفلاحينا القذرين، فلم يكتف بمنح الواحد منهم نقوداً صغيرة أو نصف روبل، بل إنه كان يوزع عليهم الأوراق من فئة خمسة وعشرين روبلاً على الأقل، وليس أقل من ذلك، فضلاً عن المبالغ التي سرقت منه! والذين سرقوه لم يتركوا إيصالاً بما سرقوه. وكيف يمكن إلقاء القبض على السارق، طالما أن المتهم كان يبدد المال باستمرار ذات اليمين وذات الشمال؟ إن فلاحينا قوم لصوص، ولا يردعهم ضمير ولا وجدان. ثم ما كان أغرب معاملته للفتيات، فتيات قريتنا! لقد أصبحن غنيات منذ ذلك الوقت وكن قبل ذلك فقيرات. وفي الحقيقة فقد أحصى تريفون بوريسوفيتش جميع النفقات وجمع قيمها كلها. وهكذا فإن النظرية القائلة إن ميتيا لم ينفق أكثر من ألف وخمسمائة روبل وأنه خبأ الباقي في كيس صغير، غدت مردودة لا تصدّق.

وقد صاح تريفون بوريسوفيتش وهو يبذل جهده كي يرضي رجال السلطة قائلاً: لقد رأيت في يده مبلغ ثلاثة آلاف روبل واضحة تمام الوضوح، رأيتها بأم عيني؛ وليس سهلاً أن أخدع أنا. وعندما بدأ فتيو كوفيتش في

استجوابه، لم يحاول أن يطعن بشهادته واكتفى باستيضاحه عن حادثة وقعت في رحلة ميتيا الأولى إلى موكرو، قبل اعتقاله بشهر واحد، وذلك عندما حثّ تيموفي وفلاح آخر يدعى آكيم، على ورقة نقدية من فئة المائة روبل، كانت قد سقطت من ميتيا في الممشى وهو ثمل، وأعطياها إلى تريفون بوريسوفيتش الذي كافأ كلاً منهما بروبل واحد. فسأله المحامي: «حسناً، هل رددت المائة روبل إلى السيد كرامازوف»؟. ولقد حاول تريفون بوريسوفيتش عبثاً أن يتملص من الإجابة عن هذا السؤال... لكنه اضطر بعد استجواب الفلاحين إلى الاعتراف بالعثور على المائة روبل، ثم أكد أنه ردها إلى ديمتري فيودوروفيتش بكل أمانة وصدق، وأن السبب في عدم تذكره ذلك يعود إلى سكره آنذاك. ولكن نظراً لبقائه منكراً إلى حين استجواب الفلاحين عثوره على الورقة النقدية أصلاً، فإن ادعاءه بإعادته المبلغ إلى ميتيا قد أصبح مشكوكاً فيه بطبيعة الحال. وهكذا فإن واحداً من أخطر شهود الادعاء قد طعن في صدق أقواله.

وقد كان ذلك نفس ما حدث للرجلين البولنديين، فإنهما تظاهرا بالكبرياء والاستقلال بذاتيهما، وجهرا بأعلى صوتهما، بأنهما «خدما التاج»[1] وأن «السيد» ميتيا عرض عليهما مبلغ ثلاثة آلاف روبل ثمناً لشرفهما وأنهما شاهدا مبلغاً بهذا القدر بين يديه. إن «السيد» موسيا لوفيتش استعمل عدداً كبيراً من الكلمات البولندية وحشرها في جمله. وإذ رأى أن ذلك قد رفع قدره في عيون الرئيس والمدعي العام، ازداد تعاظماً، وأخذ يتكلم باللغة البولندية وحدها. غير أن فتيو كوفيتش استطاع أن يوقعهما أيضاً في الفخ. فقد ألحف على تريفون بوريسوفيتش، فاضطر بالرغم من محاولته التملص، إلى الاعتراف بأن السيد فروبليفسكي استبدل ورق اللعب بالورق الذي قدمه هو، وأن السيد موسيا لوفيتش قد غش أثناء اللعب. وقد أيد كالغانوف هذا القول في شهادته بعد ذلك. وهكذا فقد غادر البولنديان مكان الشهود مسلوبي الكرامة تلاحقهما ضحكات الجمهور.

كان ذلك ما حصل أيضاً لمعظم الشهود الخطرين. إذ أن فتيو كوفيتش

---

(١) كلمة التاج هنا تعني المملكة أو الدولة، وفقاً لما كان شائعاً آنذاك. وقد تستعمل اليوم أيضاً في هذا المعنى.

نجح في إثارة الشكوك حولهم جميعاً، فغادروا القاعة تشيعهم مظاهر الهزء والسخرية. وقد أعجب المحامون والخبراء بهذا المحامي، ولكنهم بقوا حيارى في معرفة الفائدة المتوخاة من تصرفاته. فهم جميعاً كانوا يشعرون بأن حجة الادعاء العام دامغة لا يمكن ردها، بل أنها كانت تزداد إطباقاً على المتهم وتقربه كثيراً من الإدانة. ومع ذلك فإنهم شعروا بسبب الثقة التي كان يتحلى بها «الساحر الكبير» أنه كان جاداً في تصرفاته مطمئناً لها، لذلك أخذوا ينتظرون، وكلهم إدراك بأن «مثل هذا الرجل» لم يأت من بطرسبورغ عبثاً، وأنه ليس بالرجل الذي يرجع بخفيّ حنين.



الخبراء الطبيون

ورطل من البندق

وبدا أن شهادات الخبراء الطبيين كانت أيضاً غير ذات فائدة كبيرة للسجين. وقد تبين فيما بعد أن فتيو كوفيتش لم يكن يعول عليها كثيراً. ولم تكن قضية الدفاع لتتطلب استخدام الطب لولا إصرار كاترينا إيفانوفنا، التي أرسلت في طلب طبيب مشهور من موسكو لهذا الغرض. إن الشهادة الطبية لن تكون عامل خسارة في أي حال، بل كان من الجائز، إذا ابتسم الحظ، أن تنفع ولو قليلاً. وعلى كل حال، فإن الاختلاف بين آراء الأطباء أسفر عن مواقف مضحكة. كانوا ثلاثة هم: الطبيب الأخصائي الآتي من موسكو، وطبيبنا هرتسنشتوبي والطبيب الشاب فارفينسكي. وكان الطبيبان الأخيران قد استدعيا كشاهدين أيضاً من قبل المدعي العام.

وكان الطبيب هرتسنشتوبي أول من استدعي من بين الثلاثة للإدلاء بإفادته بوصفه خبيراً. كان في السبعين من عمره، أصلع أشيب، ربع القامة قوي البنية. وكان يحظى بتقدير واحترام جميع أبناء المدينة. لقد كان رجلاً خالص الضمير ممتاز الصفات ورعاً. ينتمي إلى فئة الأخوان الهرنهوتريين أو المورافيين، فلست أجزم بواحدة منهما. إنه يقيم في مدينتنا منذ سنوات كثيرة، كان تصرفه خلالها وقوراً إلى حد يبعث على الإعجاب. وكان رجلاً رقيق القلب رحيماً، يعالج المرضى من الفقراء والفلاحين مجاناً، ويعودهم في أكواخهم وبيوتهم الحقيرة ويترك لهم مالاً بقيمة ثمن الأدوية، لكنه في المقابل، رجل عنيد لا شيء يزحزحه عن رأي يراه مهما كلف الأمر. ولا بد من القول هنا أن جميع الناس في مدينتنا، كانوا يعلمون أن الطبيب الأخصائي

الاتي من موسكو اخذ يشير إشارات جد مهينة إلى كفاءة الطبيب هرتسنشتوبي، ولما ينقض على وصوله أكثر من يومين أو ثلاثة أيام. ومع أن طبيب موسكو حدد مبلغ خمسة وعشرين روبلاً أجراً لعيادته، فإن الكثيرين من سكان المدينة سروا بقدومه، وانتهزوا الفرصة، فهرعوا لاستشارته في أمراضهم غير ضانين بالمال. وقد كان جميع هؤلاء المرضى من عوّاد الدكتور هرتسنشتوبي. وقد أقذع طبيب موسكو الشهير في السخرية من طريقة معالجته، وقسا في انتقاده حتى أنه كان يسأل مرضاه ساخراً: «حسناً، من كان يجهز لكم الدواء ويدسه في أفواهكم دساً؟ أهو هرتسنشتوبي»؟ ثم يطلق ضحكة ساخرة. وتمّ طبعاً إعلام الدكتور هرتسنشتوبي بذلك كله. والآن ها هم الأطباء الثلاثة معاً يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد الآخر.

أعلن الدكتور هرتسنشتوبي أن السجين يعاني من شذوذ في قدراته العقلية بشكل واضح لا يحتاج إلى شرح، وبعد أن سرد الأسباب التي بنى عليها رأيه ـ ولن أعرضها الآن ـ أضاف قائلاً: إن الشذوذ لم يكن جلياً في العديد من تصرفات السجين في الماضي فحسب، بل كان واضحاً الآن وفي هذه اللحظة بالذات. وعندما طلب إلى الطبيب العجوز أن يوضح كيف أن شذوذه كان واضحاً في هذه اللحظة، أشار ببساطته المعهودة إلى أن السجين حين دخل قاعة المحكمة، كان في حالة مميزة دونها كثيراً الظروف التي هو فيها، فقد دخل بخطوات واسعة كالجندي، وهو ينظر دائماً إلى الأمام، مع أن الأمر الطبيعي بالنسبة له أن ينظر إلى يساره، حيث كانت السيدات يجلسن، كونه من عشاق الجنس اللطيف. ولذلك فقد كان لا بد له أن يعبأ كثيراً بنظرة السيدات إليه في هذا الوقت.

قال الطبيب العجوز عبارته الأخيرة بلهجة غريبة وأجد لزاماً علي أن أضيف أنه كان يتكلم الروسية بطلاقة، لكن جمله لم تكن تخلو من تأثير ألماني، وهو أمر لم يحرجه على كل حال، لأن اعتقاداً قديماً لازمه بأنه كان يجيد التكلم بالروسية، ويتحدث بها خيراً من الروس أنفسهم. وقد كان مغرماً دائماً بضرب الأمثال الروسية قائلاً عنها أنها أكثر الأمثال تعبيراً وأوقع أثراً، في العالم كله. ويجب عليّ أن أضيف أنه كان، بسبب ذهوله، غالباً ما ينسى

الكلمات الأكثر استعمالاً في الأحاديث، فقد كانت تغيب عن ذهنه، حتى أن ذلك كان يحدث له أيضاً عند تحدثه باللغة الألمانية، فإذا غابت عنه كلمة أخذ يلوح بيده أمام وجهه وكأنه يحاول التقاط الكلمة المتمردة، ولا يستطيع أحد أن يقنعه بمواصلة الكلام قبل أن يهتدي إلى الكلمة المنشودة. وقد أحدثت ملاحظته التي قال فيها أنه كان على السجين أن يلتفت إلى السيدات عند دخوله الغرفة، همسات ضاحكة بين أفراد الجمهور. وقد كانت سيداتنا جميعاً جد مغرمات بطبيبنا العجوز، لأنه كان يؤثرهن على الرجال، وكن يعلمن أيضاً أنه مع كونه عازباً أبداً ومتديناً طاهراً عفيفاً، فإنه كان يرى في النساء مخلوقات ساميات. ولذلك فقد كانت ملاحظته غير المتوقعة مدعاة لاستغراب الجميع.

ثم جاء دور طبيب موسكو في الاستجواب، فأكد أيضاً بإلحاح وحزم أن حالة السجين العقلية غير سوية إلى أقصى درجات الشذوذ. وقد أسهب في الكلام وتحدث ببلاغة عن «الشذوذ» و «الهوس» وقال أن جميع المعلومات التي توفرت لديه تثبت أن السجين كان ولا ريب منذ أيام قبل اعتقاله، في حالة من الشذوذ، وأنه إذا كان مدركاً لارتكابه الجريمة واعياً لها، فإنه بلا ريب قد أقدم عليها بصورة شبه عفوية، وأنه لم يكن يتمتع بالقوة الكافية للسيطرة على الدافع المرضي الذي كان مستحوذاً عليه.

وقال الطبيب، بعد شرحه المستفيض للشذوذ المؤقت، أن المريض يعاني كذلك من الهوس الذي لا بد أن يؤدي إلى الجنون التام في المستقبل (ألفت هنا إلى أنني أسرد الوقائع بلغتي أنا، فقد كانت لغة الطبيب محشوة بأدق المصطلحات العلمية والطبية). وتابع حديثه قائلاً: لقد كانت جميع تصرفاته مناقضة للمألوف والمنطق، وإذا تجاوزت ما لم أره، أي الجريمة ذاتها والمأساة كلها؛ فإنني أقول، أنه أثناء حديثه إليّ أمس الأول كان يحدجني بنظرة ثابتة لا تفسير لها. وكان يضحك فجأة من غير سبب يدعو إلى الضحك. وكان دائم الضيق والتبرم يلفظ كلمات غريبة مثل «برنارد» و «الأخلاق». وغيرها من الكلمات التي تضاهيها غرابة. غير أن أبرز ما أثبت للطبيب وجود الهوس في السجين، أنه لم يستطع حتى أن يتحدث عن الثلاثة

الآف روبل، التي يظن بأنه خدع فيها، بدون أن يصيبه ضيق واندفاع، بينما كان مسيطراً على نفسه حين يتحدث عما لحقه من مصائب ومظالم غيرها. وقال إن السجين وفق ما حصل عليه من معلومات، كان، حتى في الماضي، يثور ثورة هوجاء كلما ذكر أمامه أي شيء عن مبلغ الثلاثة آلاف روبل، مع أن الشهادات عنه تؤكد قلة اهتمامه بشؤون الحياة، وقلة طمعه بها.

واختتم طبيب موسكو شهادته وهو يقول ساخراً: أما فيما يتعلق برأي زميلي العالم بأنه كان على السجين حين دخل القاعة أن ينظر بحكم طبيعته إلى جهة السيدات لا إلى الأمام، فيكفيني أن أقول، أنه بالإضافة إلى ما يتضمنه هذا الرأي من عبث، فهو رأي خاطىء كلياً. فأنا مع موافقتي التامة على أن السجين لو كان في حالته الطبيعية، لدى دخوله قاعة المحكمة حيث سيتقرر مصيره، لما حدق ببصره إلى الأمام على هذا النحو، مما قد يكون دليلاً على شذوذ في عقله، فإنني في نفس الوقت أعتقد بأنه لم يكن حرياً به بطبيعة الحال أن يلتفت يسرة إلى مكان السيدات، بل على العكس، كان عليه أن يلتفت يمنة إلى مكان محاميه وهو الآن محط آماله كلها وعلى دفاعه عنه إنما يتوقف مستقبله كله. وقد كان الطبيب يعرب عن رأيه بحماسة وتأكيد.

إن المهزلة التي أحدثها الخلاف في آراء هؤلاء الخبراء قد بلغت ذروتها ونهايتها مع رأي الدكتور فارفينسكي الذي اعتبر أن السجين هو الآن كما كان في ماضيه كله في حالة طبيعية تماماً، ولئن كان قبل اعتقاله في حالة من الاضطراب والانفعال العظيم، فإن ذلك يعود إلى عدة أسباب طبيعية واضحة، وهي الغيرة، والغضب، والإفراط في السكر، وما إلى ذلك. غير أن تلك الحالة العصبية لا تشير إلى حدوث الشذوذ العقلي الذي وردت الإشارة إليه. أما فيما يتعلق بالخلاف حول التفات السجين إلى هذه الجهة أو تلك عند دخوله قاعة المحكمة، «فبرأيه المتواضع» أن السجين كان لا بد له بحكم الطبيعة أن ينظر إلى الأمام عند دخوله القاعة، وهو ما قام به فعلاً، ذلك أن القضاة الذين يقبضون على مصيره بأيديهم، كانوا أمامه. وأنهى الطبيب الشاب شهادته «المتواضعة» قائلاً باندفاع، أن السجين قد أثبت إذ نظر إلى الأمام أنه كان في حالة عقلية طبيعية. عندئذ صاح ميتيا من مجلسه قائلاً مرحى أيها

الطبيب! لقد كان الأمر كما قلت تماماً!.

وقد منع ميتيا بطبيعة الحال من متابعة الكلام، ولكن رأي الطبيب الشاب كان له الأثر الحاسم في نفوس القضاة وفي نفوس أفراد الجمهور. وقد تبين فيما بعد أن الجميع أخذوا برأيه. وعندما نودي على الدكتور هرتسنشتوبي ليمثل أمام المحكمة بصفته شاهداً، جاءت أقواله، على غير توقع من أحد لتخدم قضية ميتيا. إذ أنه بحكم تقادم العهد على إقامته في مدينتنا ومعرفته بأحوال أسرة كرامازوف مدة أعوام طويلة، أورد بعض الحقائق المفيدة للادعاء العام. وقد بدا عليه فجأةً كأنه تذكر أمراً فاندفع يقول: ورغم ذلك كان بالإمكان أن يحيا هذا الفتى المسكين حياة أفضل، فهو ذو قلب طيب في طفولته وبعدها أيضاً. إني أعرف هذا. غير أن المثل الروسي يقول: إذا كان للإنسان عقل فهذا حسن، ولكن إذا زاره إنسان عاقل كان ذلك أفضل، لأن اجتماع عقلين خير من عقل واحد.

فقال المدعي العام متضايقاً: العقل الواحد شيء حسن، أما العقلان فخير من ذلك. ولقد كان مطلعاً على عادة الرجل العجوز وحبه للتمهل في الكلام ودقته في انتقاء ألفاظه من غير أن يبالي بأثر ذلك في المستمع إليه ولا بالتأخير الذي يتسبب فيه. كما كان عالماً بغرام الرجل الشديد بالطرف الألمانية البسيطة المبهجة. وكان الرجل العجوز ولوعاً بالمزاح.

وقد مضى في شهادته قائلاً بعناد: آه، نعم، إن هذا هو ما أقوله، العقل الواحد شيء حسن، أما العقلان فخير من ذلك، غير أن السجين لم يتوفر له عقل حكيم آخر فمضت حكمته. أين ذهبت حكمته؟ لقد نسيت الكلمة. ثم أخذ يلوح بيده أمام عينيه وقال: آه، نعم، مضت حكمته تتنزه.

ـ هل تقصد أن حكمته قد ضلت عنه؟.

ـ آه، نعم، لقد ضلت، إن هذا هو ما أقوله. حسناً، لقد ضلت عنه حكمته فتردى في هاوية سحيقة وفقد نفسه. ومع ذلك فقد كان فتى نبيلاً حساساً. آه، إنني أذكره جيداً، وهو فتى صغير جداً، وقد أهمله والده في ساحة الدار الخلفية، عندما كان يعدو حافي القدمين وقد ربط سراويله بزر واحد.

فتيوكوفيتش، وكأنه قد أحس بسنوح الفرصة، فتأهب لها.

ومضى الطبيب في شهادته قائلاً: بلى، كنت ما أزال شاباً آنذاك... كنت في الخامسة والثلاثين من عمري، وكنت قد وصلت إلى هذه المدينة لتوي، وقد أخذتني آنذاك رأفة عظيمة بالغلام، وقد قلت في نفسي لماذا لا أشتري له رطلاً من... رطلاً من ماذا؟ لقد نسيت اسمه. رطلاً من ذلك الشيء الذي يحبه الأطفال حباً عظيماً، ما هو، ما هو؟ وعاد الطبيب يلوح بيده أمام عينيه ويقول: «إنه ينمو على الشجر أو يجمع ويوزع على الجميع»...

ـ تفاح؟.

ـ آه، كلا، كلا. إن التفاح يباع بالعدد لا بالأرطال... إنه شيء متوفر جداً، وهو صغير الحجم، يضعه الإنسان في فمه ويكسر قشرته.

ـ بندق؟.

ـ هو كذلك، بندق، إنني أقول ذلك. وقد أتبع الطبيب عبارته هذه بما سبقها وكأن قوله لم ينقطع وهو يبحث عن تلك الكلمة. ثم أضاف: وقد اشتريت له رطلاً من البندق لأن أحداً لم يقدم له شيئاً من البندق من قبل. ورفعت إصبعي وقلت له بالألمانية: أيها الصبي، باسم الآب. فضحك وقال: باسم الآب... قلت: والابن. فضحك ثانية وقال: والابن... والروح القدس. فعاد إلى الضحك وقال: والروح القدس فمضيت في طريقي، ثم كنت أمر بعد يومين، قرب الصبي فصاح بي قائلاً: عماه، باسم الآب، والابن، ونسي والروح القدس. فذكرته بهذه الكلمة وسرت في طريقي وأنا مشفق عليه. ولم أره بعد ذلك. فقد أبعدوه عن المدينة. ومضت ثلاث وعشرون سنة. وفي صبيحة ذات يوم بينما كنت جالساً في عيادتي وكان الشيب قد جلل هامتي، إذ رأيت شاباً ناضجاً يدخل علي، وما كنت لأعرفه، ولكنه رفع أصبعه وهتف قائلاً بالألمانية: باسم الأب، والابن، والروح القدس. لقد وصلت إلى هذه المدينة لتوي وجئت كي أشكرك على رطل البندق، لأن ما من إنسان سواك قدّم لي رطلاً من البندق، فأنت وحدك فعلت هذا. وعندها تذكرت الماضي السعيد والطفل المسكين في ساحة المنزل وهو يعدو حافي القدمين. وقد

تأثرت وقلت له: إنك فتى عارف للجميل، لأنك لم تنس رطل البندق الذي اشتريته لك في طفولتك. ثم عانقته وباركته وبكيت. وقد ضحك ولكنه بكى أيضاً... إن الروسي يضحك عندما يتوجب البكاء. ولكنه بكى، وقد رأيت دموعه، والآن وأسفاه هو ذا!.

وصاح ميتيا قائلاً: والآن إنني أبكي أيها الألماني النبيل، إنني أبكي الآن أيضاً أيها الرجل النبيل.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الطرفة أحدثت أثراً طيباً في نفوس الجمهور، ولكن الأثر الأكبر لمصلحة ميتيا إنما حدث عند إدلاء كاترينا إيفانوفنا بشهادتها، التي سأرويها بعد قليل. وفي الحقيقة، فإنه منذ توافد شهود الدفاع وبدأوا يدلون بشهاداتهم، أخذ الحظ فجأة يميل إلى ناحية ميتيا بشكل واضح. وما لفت الأنظار أكثر من غيره، أن ذلك كان من دواعي الدهشة حتى بالنسبة لمحامي الدفاع. ولكن قبل أن تدعى كاترينا إيفانوفنا، أدلى أليوشا بشهادته، وذكر واقعة اتضح أنها تضمنت الدليل الذي يدحض نقطة هامة من النقاط التي اعتمدها الادعاء العام.



الحظ يبتسم لميتيا

كان هذا التحول مفاجئاً حتى لأليوشا، وهو لم يكن ملزماً بأداء القسم، وإني لأذكر أن الادعاء والدفاع على السواء قد أحسنا معاملته وأبديا له العطف. وكان جلياً أن صيته الحسن قد سبقه. وقد أدلى أليوشا بشهادته خجولاً متواضعاً، مبدياً جانب التحفظ، لكن أقواله كانت مشبعة بالعاطفة الجياشة على أخيه البائس. وقد أوجز صفات أخيه وهو يجيب عن أحد الأسئلة التي وجهت إليه بأنه ربما كان رجلاً حاد المزاج منساقاً لعواطفه، ولكنه في الوقت ذاته، رجل شريف، معتد بنفسه، كريم، لا يتردد في التضحية بنفسه عند اللزوم. إلا أنه اعترف بأن أخاه كان في الآونة الأخيرة في حالة لا تطاق بسبب عاطفته نحو غروشينكا ومنافسته لأبيه. ولكنه دحض باشمئزاز الرأي القائل بأن أخاه ربما اقترف جريمة القتل طمعاً في المال، رغم إقراره بأن الثلاثة آلاف روبل قد صارت شغل أخيه الشاغل؛ وأنه كان يعتبرها جزءاً من إرثه الذي استولى عليه أبوه بالغش والخداع، وأنه رغم عزوفه عن المال عموماً، فإن مجرد ذكر هذه الثلاثة الآلاف كان يجعله في حالة اهتياج وغضب. أما فيما يتعلق بما ذكره المدعي العام عن تنافس «السيدتين» ـ أي غروشينكا وكاتيا ـ فقد أجاب عنه أجوبة ظهر فيها التملص والتهرب، بل أنه رفض الإجابة عن سؤال أو أكثر حول هذا الموضوع.

وقد سأله المدعي العام قائلاً: «هل أنبأك أخوك على كل حال بأنه ينوي قتل أبيك»؟ وأضاف: «بوسعك أن ترفض الإجابة على هذا السؤال إذا ارتأيت ذلك».

فأجاب أليوشا: «إنه لم يقل لي ذلك بصورة مباشرة».

ـ فهل قاله بصورة غير مباشرة؟ كيف قاله؟.

ـ لقد حدثني ذات مرة عن كراهيته لوالدنا وعن خشيته من أن يجد نفسه مندفعاً إلى قتله... في لحظة من لحظات الغضب والاشمئزاز.

ـ وهل صدقته.

ـ أخشى أن أقول أنني صدقته. غير أن قناعتي كانت مطلقة بأن شعوراً سامياً سيعصمه من ذلك في اللحظة الحرجة، كما عصمه فعلاً. ثم صاح أليوشا بصوت ثابت سمعه جميع من في المحكمة: «لأنه لم يكن هو الذي قتل أبي».

وقد أجفل المدعي العام كما يجفل الجواد لدى سماعه صوت البوق في ساحة المعركة وقال: دعني أؤكد لك أنني مؤمن تماماً بصدقك. ولا أرد سبب رأيك هذا فقط إلى حبك لأخيك التعيس. إن وجهة نظرك الفذة فيما يتعلق بهذه القصة المفجعة، اطلعنا عليها من التحقيق المبدئي. ولكنني لا أخفي عنك أن شهادتك شخصية بحتة وهي تناقض جميع الأدلة التي جمعها الادعاء العام. ولذلك فإنني أرى من الضروري أن ألح عليك بأن تنبئنا بالحقائق التي بنيت عليها اعتقادك ببراءة أخيك، وبإجرام رجل آخر سبق لك أن شهدت ضده في التحقيق المبدئي!.

فأجاب أليوشا بتؤدة وهدوء: «لقد كنت ملتزماً الإجابة عن الأسئلة التي وجهت إلي أثناء التحقيق المبدئي، فأنا لم أتهم سميردياكوف من نفسي».

ـ ومع ذلك فقد شهدت ضده، أليس كذلك؟.

ـ لقد استندت بذلك إلى أقوال أخي. وقد أنبئت قبل استجوابي، بما حصل عند إلقاء القبض عليه وكيف أنه ألمح إلى سميردياكوف. إنني أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن أخي بريء، فإذا لم يكن هو الذي اقترف الجريمة فإن مقترفها هو...

ـ هو سميردياكوف؟ ولماذا تتهم سميردياكوف؟ ولماذا أنت على قناعة نهائية ببراءة أخيك؟.

ـ إنني لا أستطيع إلا أن أصدق أخي. وأنا أعلم بأنه لا يكذب علي. لقد رأيت الصدق في ملامح وجهه.

ـ في ملامح وجهه فقط؟ هل هذا دليلك كله؟.

ـ ليس لدي دليل آخر.

ـ وفيما يتعلق باتهام سميردياكوف، أليس لديك أي دليل خلا كلمة أخيك، وملامح وجهه؟.

ـ كلا ليس لدي دليل آخر.

وأنهى المدعي العام الاستجواب عند هذه النقطة. وكانت شهادة أليوشا مخيبة للآمال لدى الجمهور، إذ أن سميردياكوف كان مدار الحديث في المجالس قبل المحاكمة، وتبودلت آراء من يزعمون معرفة خفايا الأمور، وقيل أن أليوشا قد جمع بعض الأدلة التي تقنع ببراءة أخيه وبإدانة سميردياكوف، ثم تبين بعد كل شيء إنه لم يكن لديه من دليل واحد، اللهم إلا قناعته الذاتية التي تعد أمراً طبيعياً في الأخ.

ثم بدأ فتيوكوفيتش في استجوابه، فسأل أليوشا أن يذكر له الوقت الذي أخبره السجين فيه بكرهه لوالده وباحتمال إقدامه على قتله، وهل سمع منه بذلك عند لقائهما الأخير قبل وقوع الكارثة. وفيما كان أليوشا يجيب عن هذه الأسئلة أجفل وكأنه قد تذكر لتوه شيئاً ما وأدركه.

ـ لقد تذكرت الآن حادثة، كنت قد نسيتها. ولم تكن واضحة لي في ذلك الوقت، أما الآن...

واتضح الآن لأول مرة أن فكرة قد استحوذت عليه، فقد تذكر لتوه كيف أن ميتيا، أثناء لقائه الأخير له، تحت الشجرة، وهو متجه مساءً إلى الدير، ضرب بيده على صدره، «الجزء العلوي من صدره»، وكرر القول مرات عديدة أنه يملك الوسيلة لاسترداد شرفه، وأن هذه الوسيلة كانت هنا، هنا على صدره. ومضى أليوشا يقول: لقد ظننت عندما ضرب بيده على صدره، أن قصده هو قلبه، وأنه قد يجد في قلبه القدرة على إنقاذ نفسه من عار رهيب كان ينتظره، وهو عار لم يجرؤ على البوح به حتى لي. وينبغي لي أن أعترف، أنني ظننت في ذلك الوقت أنه كان يتحدث عن والدنا، وأن ذلك العار الذي أرعبه إنما هو تعامله مع أبيه بالعنف والشدة، غير أنه كان يشير آنذاك إلى شيء فوق صدره، حتى لأذكر أن الفكرة التي راودتني في ذلك الوقت، أن القلب ليس هناك موضعه، بل هو في مكان أدنى، وأنه كان يضرب بيده على مكان

عال من صدره، وتحت العنق مباشرة، وأنه ظل يشير إلى ذلك المكان. ولقد بدت فكرتي سخيفة في نظري آنذاك، غير أنه ربما كان يشير إلى الكيس الصغير الذي كان يضع فيه مبلغ الألف والخمسمائة روبل!.

فصاح ميتيا من مكانه قائلاً: «هو ذلك تماماً. لقد صدقت يا أليوشا، كنت آنذاك أضرب بيدي الكيس الصغير».

وعندها بادر إليه فتيوكوفيتش متسرعاً وتوسل إليه أن يهدأ، ثم مال نحو أليوشا وأخذ يمطره بوابل من الأسئلة. وقد أوضح أليوشا حجته، وهو في أوج حماسته لتذكره تلك الواقعة، بأن ذلك العار ربما كان مبلغ الألف والخمسمائة روبل الذي كان يحمله ميتيا، وهو نصف المبلغ الذي يدين به لكاترينا إيفانوفنا فيرده إليها لكنه لم يفعل ذلك وآثر أن ينفقه في وجه آخر، أي أن يستعين بها على الهرب مع غروشينكا إذا وافقت على الرحيل معه.

وزادت حماسة أليوشا فهتف قائلاً: «كذلك هو الأمر، ولا بد أن يكون كذلك. فلقد صاح أخي عدة مرات بأنه يستطيع أن يتخلص فوراً من نصف العار، نعم نصفه (وردد «نصفه» عدة مرات) ولكنه كان تعيساً بسبب ضعف إرادته وعدم قدرته على ذلك... ولأنه كان يعلم مقدماً بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك»!.

فسأله فتيوكوفيتش باهتمام عظيم: «وهل تذكر بوضوح ويقين أنه ضرب بيده هذا المكان من صدره»؟.

- نعم بوضوح ويقين، لأنني تساءلت آنذاك: لماذا يضرب بيده على ذلك الموضع المرتفع من صدره والقلب إنما هو تحته؟ وقد بدت لي هذه الفكرة سخيفة في ذلك الوقت... إنني أذكر الآن جيداً كيف أنها بدت لي سخيفة... وقد ومضت في ذهني. وهذا التساؤل عينه هو ما ذكرني بها الآن. رباه كيف أمكن أن نسيتها حتى الآن! لقد كان ذلك الكيس الصغير هو الذي عناه عندما قال إنه يملك الوسيلة ويرد الألف والخمسمائة روبل. ولكنه لن يفعل. وعندما ألقي القبض عليه في موكرو صاح قائلاً - وهذا أمر أعرفه، ونقل إلي - إنه يرى فيما أقدم عليه، أكبر عار له في حياته، أي أنه بينما كان لديه الوسيلة لكي يرد إلى كاترينا إيفانوفنا نصف دينها عليه (لاحظوا ذلك، نصفه)!

فإنه لم يحسم الأمر بإعادة المال، بل آثر أن يظل لصاً في نظرها، على أن يتخلى عن النقود. وختم أليوشا صائحاً: «وما أعظم عذابه ما أعظم عذابه بسبب هذا الدين»!.

وقد تدخل المدعي العام بطبيعة الحال، وطلب من أليوشا أن يصف الحادث مرة ثانية، وألح عليه في السؤال عما إذا كان يبدو على السجين أن يشير إلى شيء ما، أم أنه ضرب صدره بقبضة يده ليس إلاّ أو غضباً.

وهتف أليوشا قائلاً: «لا، إنه لم يضرب صدره بقبضته، بل كان يشير إلى ذلك الموضع بأصابعه، وعلى هذا الارتفاع... فكيف نسيت هذا الأمر نسياناً تاماً حتى هذه اللحظة»!.

وقد طلب الرئيس من ميتيا إبداء ملاحظاته على إفادة أليوشا، فأيد ميتيا ما جاء فيها، من أنه كان فعلاً يشير إلى الألف والخمسمائة روبل التي كانت معلقة عند نحره، وقال أن ذلك هو العار طبعاً «وهو عار لا يمكنني إنكاره، إنه أحقر عمل أتيته في حياتي كلها، فقد كان بوسعي أن أعيد المال ولكنني لم أفعل. ولقد آثرت أن أظل لصاً في عينها، على أن أعيده. والأكثر عاراً أنني كنت أعرف سلفاً بأنني لن أعيده! لقد صدقت يا أليوشا فشكراً لك»!.

هنا انتهى التحقيق مع أليوشا. وكان أهم وأبرز ما تضمنته شهادته، هو أن حقيقة واحدة على الأقل قد وجدت، مع أنها كانت دليلاً ضعيفاً جداً، بل مجرد إشارة إلى وجود الدليل، فقد أكدت إلى حد ما أن الكيس كان موجوداً حقاً وأنه كان يحتوي على ألف وخمسمائة روبل. وهذا يعني أن ميتيا لم يكن كاذباً أثناء التحقيق الأول إذ صرّح في موكرو أن الألف والخمسمائة روبل كانت «ملكاً له». وقد سر أليوشا وسار نحو المقعد المخصص له متألق الوجه، وكان يردد بصوت لا يكاد يسمع: «كيف نسيت! كيف استطعت أن أنسى هذا الأمر! وما الذي جعلني أذكره الآن»؟.

ثم دعيت كاترينا إيفانوفنا لأداء شهادتها. وعندما دخلت عمّ قاعة المحكمة انفعال قوي من الجمهور فقد رفعت السيدات نظاراتهن واضطرب الرجال في أماكنهم، ووقف بعض النظارة لكي يملأوا عيونهم بالنظر إليها. وقد

رووا جميعاً فيما بعد أن ميتيا ابيض وجهه فجأة في تلك اللحظة حتى صار في مثل لون الثلج. وتقدمت نحو منصة الشهادة على استحياء وهي مرتدية ثياباً سوداء كلها. كان وجهها هادئاً، لا يسع الناظر إليه أن يستدل على علامات الاضطراب، غير أن عينيها الدكناوين الحزينتين كانتا تومضان بنار العزم. وقد يجوز لي أن أقول إن الكثيرين قد ذكروا بأنها كانت تبدو جميلة أنيقة في تلك اللحظة. وكانت تتحدث هادئة، وبصوت خافت إلاّ أنه واضح، حتى أنه كان يسمع في جميع أنحاء القاعة. وقد أفضت بمكنونات صدرها رابطة الجأش، أو على الأقل حاولت أن تبدو رابطة الجأش. وقد بدأ رئيس المحكمة استجوابها مبدياً المداراة والإحترام العظيم، وكأنه يخشى أن يلمس من نفسها «أوتاراً معينة» ومظهراً تفهمه لشقائها العظيم، ولكنها أجابت، بداية، عن سؤال وجّه إليها، فأكدت بثبات أنها كانت فيما مضى مخطوبة للمتهم «إلى أن هجرني من نفسه...» وعندما سألتها هيئة المحكمة عن أمر الثلاثة آلاف روبل التي عهدت إلى ميتيا أن يرسلها بالبريد إلى أقاربها قالت بحزم وقوة: «إنني لم أعطه المال كي يرسلها فوراً بالبريد، فلقد شعرت آنذاك بأنه كان في حاجة ماسة إلى النقود... وقد أعطيته الثلاثة آلاف روبل على أن يرسلها في غضون ذلك الشهر إذا شاء، فلم يكن هناك إذاً ما يدعوه إلى أن يقلق بسبب الدين فيما بعد».

لن أسرد جميع الأسئلة التي وجهت إليها وأجوبتها عنها بالتفصيل، بل سأقتصر على ذكر جوهر شهادتها.

مضت كاترينا إيفانوفنا تقول: «لقد كنت مقتنعة تماماً إلى حد الجزم بأنه سيعيد لي النقود حالما يحصل عليها من والده، ولم أكن قط أشك في نزاهته وأمانته... أمانته التي لا تشوبها شائبة... في الأمور المتعلقة بالمال. لقد كانت ثقته مطلقة بأنه سينال مالاً من أبيه، وحادثني بهذا الأمر عدة مرات. وكنت على علم بخصامه مع أبيه، فكنت مقتنعة وما أزال بما يقوله من أن أباه قد أساء معاملته. ولست أذكر أنه تفوه بكلمات يشتم منها التهديد لأبيه. وهو لم يتفوه أبداً بمثل هذه الكلمات في حضوري على الأقل. ولو جاء إلي في ذلك الوقت لطيبت خاطره وطمأنته بشأن تلك الثلاثة الآلاف روبل، ولكنه انقطع

عن المجيء إلي... ووجدتني في وضع... لم أستطع معه أن أبادر إلى دعوته لزيارتي...».

وفجأة اندفعت تقول وقد ظهرت رنة العزم في صوتها: ثم إنني في الحقيقة، لم يكن لي من حق في أن أحاسبه على المال. فلقد كنت ذات مرة مدينة له بمبلغ يفوق الثلاثة آلاف. وقد أخذتها منه، مع أنني لم أكن آنذاك قادرة على أن أتنبأ بأنني سأكون في وضع يمكنني من سداد ديني.

وكانت تبدو في صوتها لهجة التحدي. وفي تلك اللحظة بدأ فتيو كوفيتش استجوابها.

وقال يسألها محاذراً، وهو يتوجّس فائدة شهادتها، مع شعوره بأن هنالك شيئاً مؤاتياً: إذا صحّت معرفتي، فإن ذلك لم يحدث هنا، في هذه المدينة، بل في بدء تعرفكما بعضكما، أليس كذلك؟. ويجب أن أذكر هنا أنه بالرغم من أن كاترينا إيفانوفنا نفسها هي وراء استدعاء فتيو كوفيتش من بطرسبورغ، فإنه لم يكن يعلم شيئاً عن قصة الخمسة آلاف روبل التي أعطاها إياها ميتيا وعن «انحنائها إلى الأرض». إنها لم تحدث المحامي بذلك، ولم تذكر عنه شيئاً، وكان ذلك أمراً غريباً. ويمكن الظن بأنها هي شخصياً لم تكن تدري، حتى اللحظة الأخيرة، ما إذا كانت ستكشف للمحكمة عن هذه الحادثة، بل كانت تترك ذلك إلى ما يمليه الظرف وتطور الأحداث.

إنني لا أستطيع أن أنسى تلك اللحظات، فقد شرعت تروي قصتها، وباحت بكل شيء، وروت كل ما قصه ميتيا على أليوشا، فيما يتعلق بركوعها على الأرض، والسبب الذي دفعها إلى ذلك، وكذلك الحالة التي كان عليها أبوها، وكيف أنها ذهبت إلى ميتيا، ولكنها لم تقل كلمة واحدة متناسية أن ميتيا اقترح على أختها أن «يرسلوا إليه كاترينا إيفانوفنا» للحصول على المال. وقد كانت كريمة إذ كتمت ذلك، ولم تشعر بالخجل من تأكيدها أنها هرعت إلى بيت ضابط شاب وهي تأمل الحصول على المال. لقد كانت لحظات رهيبة! وأحسست بالبرودة تدب في أوصالي، وأخذ جسمي يرتعد وأنا أصغي إلى أقوالها. وقد خيم الصمت على هيئة المحكمة، والحضور، والجميع لا يفوتون كلمة من كلماتها. وكان الموقف فذاً لم يسبق له مثيل. وقد بدا

مستحيلاً على فتاة، بمثل قوتها وكبريائها واستعلائها، أن تقدم على الاعتراف بمثل هذه الصراحة والتضحية ونكران الذات. ولم كل ذلك؟ وفي سبيل من؟ لكي تنقذ الرجل الذي خانها وأهانها، وتساعد، بدرجة مهما صغرت، على خلاصه وتوجد في النفوس ما يخدم مصلحته. وفي الحقيقة أخذ الناس ينظرون نظرة العطف والإعجاب إلى صورة ذلك الضابط الشاب وهو ينحني انحناءة تنم عن الاحترام أمام الفتاة البريئة ويسلمها خمسة آلاف روبل ـ وهي كل ثروته المتبقية ـ... غير أن قلبي كان مفعماً بالشك المؤلم! فقد شعرت بأن ما ذكرته الفتاة سيفضي إلى انطلاق الأراجيف حولها (وقد حدث هذا بالفعل). فقد عمد الناس فيما بعد في جميع أنحاء المدينة، وهم يضحكون ضحكات الحقد إلى الغمز الخبيث بأن القصة ربما كانت ناقصة، أي فيما يتعلق بقولها أن الضابط سمح للفتاة بالانصراف «دون أن ينال منها شيئاً سوى انحناءة الاحترام». وقد أخذ الناس يلمحون إلى أن شيئاً ما قد أسقط هنا من القصة.

وقد كان من رأي سيداتنا الأكثر احتراماً في مدينتنا، أنه حتى ولو لم يحذف أي شيء من أقوال كاترينا إيفانوفنا وأنها روت القصة كاملة، فمن المشكوك فيه كثيراً أن يكون مشرّفاً تصرف فتاة محتشمة ولو أنها سلكت هذا السلوك في سبيل إنقاذ أبيها.

وهل كان باستطاعة كاترينا إيفانوفنا وهي التي أثر عنها توقد الذكاء، وحدّة العاطفة، أن يفوتها سريان مثل هذه الأقاويل عنها؟ لا بد أنها كانت مدركة لذلك، ومع هذا فقد عقدت عزمها على أن تقول كل شيء. ولم تولد طبعاً جميع تلك الشكوك الحقيرة التافهة حول حقيقة قصتها، إلاّ فيما بعد. غير أن الجميع وجدوا أنفسهم يشعرون بتأثر عميق لها في اللحظة الأولى. أما فيما يتعلق بالقضاة والمحامين، فقد كانوا يصغون إليها بصمت واحترام قريبين من الخجل. ولم يجرؤ المدعي العام على المخاطرة بتوجيه ولو سؤال واحد إليها عن الموضوع. وقد انحنى لها فتيو كوفيتش انحناءة عظيمة، وبدا عليه كأنه قد انتصر! ولا غرو، فإن شهادتها رصيد كبير له فهل يعقل أن إنساناً يهب خمسة آلاف روبل، هي آخر مبلغ من المال بين يديه، بسبب دافع

كريم، ثم يقوم هو نفسه بقتل أبيه لكي يسرق منه ثلاثة آلاف روبل؟ إنه تفكير شاذ غير منطقي، ولا ينطبق على الحقيقة. وقد شعر فتيو كوفيتش الآن أنه على الأقل كاد أن يبطل تهمة السرقة. لقد دخلت «القضية» مرحلة مختلفة. وطغت على الناس موجة من العطف على ميتيا... أما فيما يتعلق به، فقد نقل إليّ أنه بينما كانت كاترينا إيفانوفنا مسترسلة في شهادتها، قفز من مقعده مرة أو مرتين، وعاد إليه وهو يخفي وجهه بين راحتيه، ولكنها عندما فرغت من أقوالها هتف بصوت تخنقه العبرات: «كاتيا، لم جررت الخراب عليّ»؟ وكان صوت نحيبه مسموعاً بوضوح في جميع أرجاء القاعة، ولكنه ما لبث أن استعاد رباطة جأشه وصاح قائلاً: الآن قضي علي!.

ثم جلس في مكانه متصلب الجسم، وقد ضغط أسنانه على بعضها ووضع ذراعيه متقاطعتين على صدره. وبقيت كاترينا إيفانوفنا في قاعة المحكمة واجلست في مكانها. وكانت ممتقعة الوجه محدقة في الأرض. وقد روى الأشخاص الذين كانوا يجلسون على مقربة منها بأنها ظلت ترتعد مدة طويلة كأن بها حمى. ثم استدعيت الشاهدة غروشينكا.

إنني هنا أدنو من الكارثة المفاجئة التي ربما كانت فعلاً السبب النهائي في خراب ميتيا، لأنني مقتنع، ككل إنسان ـ وقد قال جميع رجال القانون هذا القول فيما بعد ـ بأنه لو لم تقع هذه الحادثة، لاستحق المتهم الأسباب المخفّفة على الأقل. ولكن لنؤجل الحديث عن هذا الأمر، ولأقل كلمات قليلة عن غروشينكا.

لقد كانت هي أيضاً ترتدي ثياباً سوداء، وتضع على كتفيها شالها الفاخر الأسود. وقد سارت نحو منصة الشهود بخطواتها الرشيقة اللينة، وهي تهتز قليلاً شأنها شأن بقية النساء ذوات القوام الممتلىء. وقد كانت تثبت نظرها في الرئيس لا تلتفت يمنة ولا يسرة. وأعتقد أنها كانت تبدو جميلة مشرقة في تلك الآونة، ولم تكن ممتقعة الوجه كما زعمت السيدات فيما بعد. ومما زعمنه أيضاً أنه كان في محياها تعبير يدل على العزم والحقد. أما أنا فأعتقد أنها كانت غاضبة منزعجة، وتعلم والألم يحز في نفسها أن الجمهور المحب للفضائح كان يرمقها بنظرات الفضول والإزدراء. إنها لا

تطيق الاحتقار وسرعان ما تثور وتغضب طالبة الثأر بمجرد الشعور بأقل إهانة وكان هذا الشعور نفسه يجعلها تتهيب وتخجل بطبيعة الحال. ولذلك فلم يكن غريباً أن يلاحظ تواتر التبدل في لهجتها. فإذا ما كانت غاضبة حيناً، تبدي الإزدراء والفظاظة، إذ بها تبدي الدليل الصادق على الشعور بالذنب. وكانت تتكلم أحياناً وكأنها تقفز إلى هوة لا قرار لها، ولسان حالها يقول: «لا أبالي بما يجري. سأقولها...». وعندما سئلت عن سر علاقتها بفيودور بافلوفيتش قالت بنفور: «إن الحديث عن هذا كله لغو فارغ، فهل هو ذنبي أنه كان يضايقني بملاحقته»؟ ولكن ما لبثت أن قالت بعد مرور دقيقة واحدة: «لقد كان الذنب كله ذنبي، فلقد عبثت بكليهما ـ بالرجل العجوز وبهذا أيضاً ـ ولقد جررت عليهما هذه المصيبة. أنا سبب كل ما حدث».

وإذ ورد اسم سامسونوف، بادرت إلى القول وفي صوتها نبرة تدل على شيء من التحدي الوقح: «إن هذا لا يعني أي إنسان، لقد كان المحسن إلي؛ وآواني عندما كنت أسير حافية القدمين، بعد أن طردتني عائلتي طرد الكلاب». وقد لفت الرئيس انتباهها بأدب عظيم إلى أن عليها أن تجيب عن الأسئلة مباشرة بدون التفاصيل التي لا علاقة لها بالقضية. وقد احمر وجه غروشينكا وومضت عيناها.

وسئلت عن الظرف الذي كان يحوي الأوراق النقدية، فقالت أنها لم تره بل سمعت بأمره، وقالت: يا له من شقي شرير. وأضافت معلقة على ما قيل لها من أن فيودور بافلوفيتش كان قد أعدّ لها ثلاثة آلاف روبل في الظرف: «إن هذا كله من قبيل الحماقة. لقد كنت أمزح، وما كنت لأذهب إليه بالتأكيد مهما بذل في سبيل ذلك».

وسألها المدعي العام قائلاً: إلى من كنت تشيرين بقولك؟ «يا له من شقي شرير».

فأجابت: إلى الخادم سميردياكوف الذي قتل سيده، وشنق نفسه ليلة أمس.

وبطبيعة الحال سئلت عن الحجة التي بنت عليها هذه التهمة القاطعة؛ فتبين أنها هي أيضاً لم تكن لديها مثل هذه الحجة. قالت: لقد قال لي

ديمتري فيودوروفيتش ذلك بنفسه؛ وباستطاعة الإنسان أن يصدق قوله. وأضافت، وهي ترتجف لفرط الكراهية، وصوتها ينم عن خبث وشر: «لقد جرّت السيدة التي وقفت بيننا، الخراب عليه؛ إنها هي سبب كل شيء، ويجب علي أن أصارحكم بهذا». ولما سئلت أن تذكر إسم السيدة المعنية بقولها، أجابت: «إنها السيدة الشابة، كاترينا إيفانوفنا الجالسة هناك. لقد دعتني إلى منزلها وقدمت لي الحلوى وحاولت أن تخلب لبي وتغريني. إن هذه المرأة لا تشعر بالخجل الحقيقي».

وهنا انتهرها رئيس المحكمة، وطلب إليها أن تهذب أقوالها، غير أن قلب المرأة كان ينضح بالغيرة، ولم تبال بما كانت تقوله.

وعاد المدعي العام إلى سؤالها قائلاً: عندما اعتقل المتهم في موكرو، كنت تصرخين، على مرأى من الجميع وسمعهم وأنت تخرجين من الغرفة المجاورة: إن الذنب كله ذنبي، سنذهب إلى سيبريا معاً!. فهل يقودنا ذلك إلى أنك تؤمنين بأنه هو الذي قتل أباه؟.

فأجابته غروشينكا قائلة: «لم أذكر حقيقة شعوري آنذاك. لقد كان الجميع يجهرون بأنه قاتل أبيه فشعرت بأن الذنب ذنبي، وأنه اغتاله بسببي، ولكن حين قال لي أنه بريء صدقته فوراً وما زلت أصدقه وسأظل أصدقه دائماً. إنه ليس بالرجل الكاذب».

ثم بدأ فتيو كوفيتش استجوابها، وإني لأذكر أنه طرح، بين أمور أخرى مسألة راكيتين والخمسة والعشرين روبلاً، التي أعطته إياها لقاء إحضاره ألكسي فيودوروفيتش كرامازوف إلى منزلها.

وقد أجابت غروشينكا عن هذا السؤال متجهمة، وبغضب وازدراء أنه ليس عجيباً أن يأخذ مني نقوداً، فلطالما كان يتردد علي في طلب النقود: لقد كان يأخذ مني ثلاثين روبلاً على الأقل في كل شهر، ينفقها في أوجه تسلياته. ولديه بدون نقودي مورد كاف من المال.

فسألها فتيو كوفيتش قائلاً، رغم ما بدا على الرئيس من اضطراب: «ما الذي جعلك كريمة إلى هذا الحد مع السيد راكيتين؟».

ـ إنه ابن خالتي. إن أمي شقيقة أمه، ولكنه يرجوني دائماً أن لا أذكر

شيئاً عن هذا خاصة في هذا المكان، إنه يخجل من قرابتي خجلاً عظيماً.

وقد كانت هذه الحقيقة مفاجئة للجميع، فلم يكن من إنسان في المدينة، أو حتى في الدير، ولا ميتيا نفسه يعرف عنها شيئاً. ولقد قيل لي أن راكيتين احمر خجلاً على كرسيه حتى صار وجهه أرجوانياً. وكانت غروشينكا غاضبة محنقة منه لأنها علمت قبل دخولها إلى المحكمة بأنه أدلى بشهادته ضد ميتيا. وهكذا فإن كل الأثر الذي أحدثه في نفوس أفراد الجمهور خطاب راكيتين عن مشاعره النبيلة، ونقمته على نظام القنانة وعلى الفوضى السياسية في روسيا، كل هذا أمحي من نفوس الناس. وقد سر فتيو كوفيتش، فإن هذا القول كان هبة له من السماء. ولم يدم التحقيق مع غروشينكا طويلاً، خاصة أنها لم تستطع أن تأتي بشيء جديد. لكن شهادتها تركت أثراً سيئاً في الجمهور، وأخذت مئات العيون تتابعها بنظرات الازدراء، عندما انتهت من الإدلاء بشهادتها وجلست في قاعة المحكمة بعيدة عن كاترينا إيفانوفنا. وكان ميتيا ملتزماً جانب الصمت طوال فترة استجوابها، متصلباً كالحجر، وقد ثبت بصره في الأرض. ثم نودي على الشاهد إيفان فيودوروفيتش.

كارثة مفاجئة

يجدر بي أن أذكر أن إيفان كان قد دعي للشهادة قبل أليوشا. غير أن حاجب المحكمة أبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع المثول أمام المحكمة الآن، لأنه أصيب بمرض أو بنوبة مفاجئة، ولكنه مستعد للإدلاء بشهادته حالما يسترد عافيته. على أن هذا الأمر لم يلحظه أحد في قاعة المحكمة، وقد أعلن نبأه فيما بعد.

لم يكن اهتمام الناس بدخوله كبيراً في بدء الأمر، ذلك أن فضولهم قد فتر بعد سماعهم إفادات الشهود الرئيسيين، وخاصة السيدتين الغريمتين، فبدأ السأم والملل يتسرب إلى نفوسهم.

وقد كان من المقرر الاستماع إلى إفادات المزيد من الشهود، الذين لا ينتظر أن يقدموا شيئاً هاماً من المعلومات، بعد كل ما سمعته المحكمة. وكان الوقت يمر مسرعاً.

سار إيفان نحو منصة الشهادة متباطئاً، بدون أن ينظر إلى أحد، وقد أحنى هامته وكأنه مستغرق في أفكار محزنة. وكان حسن الهندام، لكن تعابير وجهه كانت تثير الألم في النفوس. وهذا ما حصل بالنسبة لي على الأقل: فقد كان مكفهراً قريباً من لون إنسان يحتضر. وكانت عيناه خابيتين، وقد رفعهما وأجالهما ببطء في جوانب قاعة المحكمة. وانتفض أليوشا من مكانه متأوهاً. وإني لأذكر ذلك، غير أن حركته لم يكد ينتبه أحد إليها. وقد بدأ رئيس المحكمة الحديث فذكره بأنه لن يكون ملزماً بأداء اليمين، وأن بوسعه أن يجيب أو يرفض الإجابة على ما يوجه إليه من أسئلة، إنما ينبغي عليه بطبيعة الحال أن يحكم ضميره عند الإدلاء بشهادته، وما إلى ذلك من أقوال. وكان إيفان مصغياً وهو ينظر إليه ساهماً، غير أن وجهه أخذ تدريجياً يشرق بابتسامة،

وما كاد الرئيس الذي كان ينظر إليه مندهشاً، يفرغ من أقواله، حتى قهقه إيفان ضاحكاً وسأله بصوت عال: «حسناً، وماذا أيضاً»؟.

وساد الصمت القاعة، فقد استحوذ عليهم شعور بأن شيئاً غريباً سيحدث. وبدت على الرئيس أمارات الاضطراب.

ثم قال الرئيس له وهو يبحث بعينيه عن الحاجب في جميع أرجاء المحكمة: «إنك... ربما كنت لا تزال مريضاً»!.

فأجابه إيفان بهدوء واحترام: كن مطمئناً يا صاحب السعادة، فإنني على غاية ما يرام وفي مقدوري أن أطلعك على أشياء هامة.

فعاد الرئيس إلى القول وهو لا يزال يبدي الشك: «ألديك أقوال خاصة تود الإفضاء بها»؟.

خفض إيفان بصره، وانتظر ثوان معدودات ثم رفع رأسه وقال وهو يكاد يتلعثم: «كلا... ليست لدي أقوال خاصة. ليس لدي شيء معين».

ثم ألقيت عليه الأسئلة، فكان يجيب عنها، وكأنه يبدي التردد، بإيجاز واشمئزاز أخذ يزداد شيئاً فشيئاً. لكن إجاباته كانت تدل على سلامة قواه العقلية. وفي حالات عديدة كان يجيب بقوله إنه لا يعلم. ومن ذلك كان جوابه عن علاقات والده المالية مع ديمتري إذ قال: «إن هذا الأمر لم يكن يعنيني. أما فيما يتعلق بتهديد أخيه بقتل أبيه فقد قال إنه سمع به من المتهم، واعترف بشأن الظرف أنه سمع بأمره من سميردياكوف.

وفجأة اندفع يقول وقد بدا عليه الملل: «إن الشيء بذاته يعاد مرات ومرات، ليس عندي شيء معين أفضي به للمحكمة».

وعاد الرئيس إلى الكلام قائلاً: «إنني أراك مريضاً، وأقدر شعورك».

ثم التفت إلى المدعي العام والمحامي يدعوهما إلى استجواب الشاهد إذا رأيا أن هناك حاجة لذلك. فإذا بإيفان يقول بصوت ضعيف خائر: «دعني أذهب يا صاحب السعادة، فإنني مريض وقد ألحت علي العلة».

أنهى كلماته، ودار على عقبيه واتجه نحو باب الخروج قبل أن يؤذن له بالذهاب. ولكنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى وقف جامداً في مكانه،

وكأنه قد توصل إلى قرار ما، ثم ابتسم وعاد أدراجه. ثم خاطب رئيس المحكمة قائلاً:

«إنني يا صاحب السعادة كتلك الفتاة الفلاحة التي تعلمون قصتها! إذ قالت: سأذهب إذا شئت، وإذا شئت لن أذهب. ـ فهم يحاولون أن يضعوا عليها ثوب الزفاف لكي يأخذوها إلى الكنيسة لعقد قرانها فتقول: سأذهب إذا شئت، وإذا شئت لن أذهب.... ـ لقد قرأت ذلك في كتاب هزلي شعبي».

فسأله الرئيس بلهجة صارمة: ماذا تقصد بهذا القول؟.

وبغتة سحب إيفان رزمة الأوراق النقدية من جيبه وصاح قائلاً: «هذا ما أريده. هاكم النقود التي كانت موضوعة في ذلك الظرف. (وأومأ برأسه إلى المنضدة التي وضعت أدلة الجرم عليها). إنها النقود التي قتل أبونا بسببها. أين أضعها؟ خذها يا صاحب السعادة».

أخذ حاجب المحكمة رزمة الأوراق النقدية وناولها إلى الرئيس.

وسأله الرئيس مستغرباً: «كيف وصلت هذه النقود إليك إذا كانت فعلاً هي ذاتها التي كانت في الظرف»؟.

ـ لقد أخذتها أمس من سميردياكوف، من القاتل. كنت معه قبيل أن يشنق نفسه. إنه هو القاتل وليس أخي. لقد قتله وكنت محرضه على قتله... من ذا الذي لا يتمنى أن يموت أبوه؟.

فسأله الرئيس بعفوية: «هل عقلك على ما يرام»؟.

ـ أظن أن عقلي على ما يرام... ثم التفت فجأة إلى الجمهور وأردف يقول: إن عقلي فاسد كعقولكم جميعاً... كجميع هذه... الوجوه القبيحة. ثم اغتصب ضحكة وهو يصرف أسنانه معبراً عن الإزدراء الشديد وقال: «لقد قتل والدي فتظاهروا جميعاً بالفزع. وهم دائبون على مخادعة بعضهم بعضاً. إنهم كاذبون فهم جميعاً يتمنون موت آبائهم. إنهم زواحف تريد التهام بعضها بعضا... ولو لم يتوفر من يقتل أباه لغضبوا وذهبوا إلى بيوتهم محنقين. إنهم في حاجة إلى مشهد يؤمن لهم التسلية. إنهم لا يريدون أكثر من الخبز واللهو، وأنا منهم ولكنني الوحيد الذي يجهر بهذا القول»! وفجأة شد يديه

على رأسه وصاح قائلاً: «هل لديكم ماء؟ أعطوني ماء لأشرب بحق السيد المسيح»!.

وعندها دنا منه الحاجب. وقفز أليوشا من مكانه صائحاً: «إنه مريض. لا تصدقوه: لقد كان يعاني حمى في الدماغ». ونهضت كاترينا إيفانوفنا عن مقعدها لا شعورياً وأخذت تحدق في إيفان مرعوبة. وهب ميتيا واقفاً وأخذ ينظر إلى أخيه باهتمام عظيم وهو يبتسم ابتسامة أليمة. استأنف إيفان قوله: «لا تزعجوا أنفسكم، فأنا لست مجنوناً، أنا قاتل فحسب». ولسبب لم يعلم، اضاف: «ليس بوسعكم أن تسمعوا كلاماً بليغاً من فم قاتل». ثم ضحك ضحكة عجيبة ساخرة.

وهنا مال المدعي العام نحو رئيس المحكمة مضطرباً اضطراباً واضحاً، كذلك اضطرب القاضيان الآخران وأخذا يتهامسان. وكان فتيو كوفيتش يصغي باهتمام. وخيم على القاعة الصمت وجو الترقب. وبغتة بدا على رئيس المحكمة كأنه قد استعاد ثوابه إلى نفسه، فقال: «أيها الشاهد، إن كلماتك غير مفهومة ومرفوضة هنا. هدىء من روعك إذا استطعت، وقص علينا قصتك... إذا كان حقاً لديك شيء تقوله. ما هو دليلك على صحة أقوالك... إذا كنت حقاً لا تهذي»؟

- الواقع أن ليس لدي دليل. إن الحشرة سميردياكوف لن يأتيكم بالبراهين من الدار الآخرة... في ظرف. إنكم تبحثون دائماً عن الظروف، ويكفيكم أن يرسل إليكم ظرفاً واحداً. ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة ساهمة: «ليس لدي من شهود... سوى واحد».

- ومن هو شاهدك هذا؟.

- إن له ذيلاً، يا صاحب السعادة، وشهادته مستحيلة هنا. إن الشيطان لا وجود له، لا تهتموا بذلك: إنه شيطان تعيس يبعث على الأسى. ثم كف عن الضحك وأخذ يتحدث بلهجة الواثق: إنه في هذا المكان، ولا شك، وربما كان تحت منضدة الأدلة الملموسة. إذ أين يستطيع الجلوس إن لم يكن في ذلك المكان؟ أصغوا إلي. لقد قلت له بأنني لن أهدأ وهو ما فتىء يحدثني عن التعاقب الجيولوجي. إن هذا القول حماقة! أطلقوا سراح

الوحش... ماذا تنتظرون؟ لقد كان يغني نشيداً لأنه خلي القلب! إنه كالمخمور الذي يسير في الشارع بأغنيته: «لقد مضى فانكا إلى بطرسبورغ». أما من جهتي، فإني مستعد أن أدفع آلاف آلاف الملايين لقاء ثانيتين من البهجة. إنكم لا تعرفونني! يا لهذا كله ما أغباه! هلموا، خذوني بدلاً عنه! فأنا لم آت عبثاً... لماذا، لماذا، يدل كل شيء على الغباء...؟.

ثم أخذ إيفان يقلب بصره ببطء متأملاً فيما حوله، وحدث في المحكمة هرج ومرج، واندفع أليوشا نحوه، وكان الحاجب قد أمسك بإيفان من ذراعه اليمنى، فحدق إيفان في وجه الحاجب وصاح به وهو يمسكه من كتفيه: «ماذا تريد مني أيضاً»؟ ثم طرحه أرضاً بعنف، غير أن رجال الشرطة كانوا مستعدين وسرعان ما قبضوا عليه. فأخذ يصيح مهتاجاً. وظل يصيح ويصرخ وهم يقودونه إلى خارج القاعة، ويهذي بكلمات متنافرة.

وسادت المحكمة كلها بلبلة كبرى. ولست أذكر تفاصيل ما جرى، فقد أصابني أيضاً الاضطراب والانفعال ولم أعد أستطيع متابعة المراقبة. وكل ما أعرفه هو أنه عندما عاد النظام إلى قاعة المحكمة فيما بعد واستوعب الجميع ما جرى، استدعي الحاجب وأخذ الرئيس يوجه إليه عبارات الزجر والتقريع، رغم إفادته المعقولة أن الشاهد كان سليماً معافى، وأن الطبيب فحصه قبل ساعة واحدة، عندما شعر بدوار، وأنه ظل يتحدث حديثاً متزناً حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة، ولذلك فلم يكن بالإمكان التنبؤ بما حصل له. هذا فضلاً عن أنه أصر على الإدلاء بشهادته مهما كلف الأمر.

لم يكن الجميع قد استردوا بعد ثبات جنانهم وتمالك حواسهم، حتى وقع حادث آخر. فإن كاترينا إيفانوفنا وقعت صريعة نوبة هستيرية، فأخذت تنتحب وتولول، ولكنها رفضت أن تغادر قاعة المحكمة، بل أخذت تتخبط وتستجدي إبقاءها. وفجأة صاحت تخاطب الرئيس:

ثمة شهادة أخرى يجب أن أدلي بها حالاً. حالا! هاكم وثيقة، كتاباً... خذوه، اقرأوه بسرعة، بسرعة! إنه كتاب من هذا الوحش... نعم هذا الرجل الجالس هناك، هناك! وأشارت بيدها إلى ميتيا. ثم أخذت تعول وتصيح وقد فقدت زمام أمرها: لقد كان هو الذي قتل أباه، سترون ذلك تواً. لقد كتب

إلي يبلغني كيف أنه سيقتل أباه! أما ذلك الآخر فمريض، إنه مريض، يهذي لحمى حارة أصابته.

وتناول الحاجب الوثيقة التي كانت تمد يدها بها، وحملها إلى الرئيس، وتهالكت هي على كرسيها وحجبت وجهها بيديها وطفقت تبكي وتنتحب، فكان يهتز جسمها كله، وهي تحاول أن تخنق صوت نحيبها خشية أن يخرجوها من القاعة. وكانت الوثيقة التي سلمتها إلى المحكمة هي عين ذلك الكتاب الذي كتبه ميتيا لها وهو في حانة متروبوليس، والذي وصفه إيفان بأنه «الدليل الملموس». وأسفاه، لقد اكتسب هذا الكتاب فعلاً صفة الدليل ذاك، ولولاه لنجا ميتيا من مصيره المأساوي، أو لكانت مأساته أخف وطأة على الأقل. وأعود فأقول أنه كان من الصعب الإلمام بجميع التفاصيل. فإن ذكرياتي ما تزال مشوشة في فكري. ولست أدري ما إذا كان الرئيس قد ناول الوثيقة إلى القاضيين والمحلفين ومحامي الدفاع والادعاء. لعله فعل، وكل ما أذكره هو أنهم بادروا مجدداً إلى استجواب الشاهدة. وعندما سألها الرئيس مترفقاً عما إذا كانت قد استعادت هدوءها مما يؤهلها للإجابة، هتفت كاترينا إيفانوفنا متسرعة:

إنني على استعداد، إنني على استعداد! وأضافت تقول وقد بدا عليها كأنها كانت تخشى أن تضيع عليها فرحة الإدلاء بإفادتها: إنني قادرة تماماً على الإجابة عن أسئلتكم. وقد طلب إليها أن تشرح بالتفصيل ماهية هذا الكتاب وظروف وقوعه في يدها فقالت:

لقد تلقيته قبل وقوع الجريمة بيوم واحد، وكان كتبه في اليوم السابق في الحانة، أي قبل وقوع الجريمة بيومين. وأضافت تقول لاهثة: «انظروا إن الكتاب مكتوب على ورقة حساب! لقد كان آنذاك يكرهني لأنه أتى عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة... ولأنه كان مديناً لي بتلك الآلاف الثلاثة... أواه! لقد كانت قصة الثلاثة آلاف روبل كما يلي، وإني لأرجوكم وأتوسل إليكم أن تنصتوا إلى أقوالي. قبل أن يقتل أباه بأسابيع ثلاثة، جاءني صبيحة ذات يوم، وكنت أعلم أنه في حاجة إلى المال، وأعلم سبب حاجته إليه. بلى، بلى، لقد كان يريد المال لكي يحظى بتلك المخلوقة ويرحل بها.

وكنت أعلم آنذاك أنه خانني وراغب في هجري. ومن تلقاء نفسي، أعطيته المال بحجة أنني أريد أن يرسله إلى أختي في موسكو. وعندما ناولته إياه، حدقت في وجهه وقلت له أن بوسعه أن يرسله متى حلا له ذلك، وأن الوقت متسع ولو لشهر، فكيف، كيف لم يفطن إلى أنني كنت أعلن له، وكأني أقول له: إنك تريد المال لكي تخونني مع تلك المخلوقة، فهاكه، إني أعطيك إياه بنفسي. خذه إذا بلغت هذا الحد من قلة الشرف! كانت غايتي أن أثبت حقيقة نفسه، وماذا حدث؟ لقد أخذ المال، أخذه، وبدده في سبيل تلك المخلوقة في ليلة واحدة.. ولكنه كان يعرف، كان يعرف بأنني أعلم كل شيء.. وأؤكد لكم أنه كان مدركاً كل شيء. ولقد أردت اختباره فأعطيته المال فأتحقق مما إذا كان قد فقد كل إحساس بالكرامة إلى حد يجعله يأخذ المال مني. لقد نظرت في عينيه، ونظر في عيني، وقد فهم كل شيء ولكنه أخذه. لقد أخذ مالي»!.

وهنا صاح ميتيا بغتة مرعداً: «صدقت يا كاتيا، لقد نظرت إلى عينيك ورأيت فيهما عبثك بكرامتي، ومع ذلك أخذت مالك، احتقريني كما يحتقر الأنذال، احتقروني جميعاً! فأنا أستحق ذلك»!.

فصاح رئيس المحكمة قائلاً: أيها السجين، سأخرجك من القاعة إذا قلت كلمة أخرى.

ومضت كاتيا متسرعة في قولها: لقد كان ذلك المال سبباً من أسباب عذابه. فهو كان يريد تسديده. كان حقاً يريد ذلك، ولكنه كان في حاجة إلى المال للإنفاق على تلك المخلوقة أيضاً. وهكذا فقد اغتال أباه، ثم لم يسدني مالي، بل فر معها إلى تلك القرية التي اعتقل فيها. وهنالك أيضاً بدد المال الذي سرقه بعد اغتيال أبيه. وقد كتب إلي هذه الرسالة قبل يوم واحد من ارتكاب الجريمة. كان ثملاً عندما كتبها. وقد أدركت ذلك تواً عند تسلمي إياها، لقد خطها بدافع الحقد، وكان واثقاً تماماً من أنني لن أريها لأي إنسان حتى ولو قتله حقاً، وإلا لما كان كتب هذه الرسالة. ولقد كان يعلم بأنني لن أقضي عليه من أجل أن أثأر لنفسي. إقرأوها بترو. أرجوكم أن تمعنوا في التروي، وسترون كيف أنه أتى على ذكر كل شيء بالتفصيل في رسالته هذه.

لقد ذكر سلفاً كيف أنه سيقتل أباه، والمكان الذي كان المال مخبوءاً فيه. انظروا، أرجوكم ألا تتجاوزوا عن ذلك، إن فيها عبارة تقول: «سأقتله فور مغادرة إيفان». ثم خاطبت كاترينا إيفانوفنا هيئة المحكمة قائلة بلهجة الاستقواء والتشفي: إذاً فقد فكر وخطط سلفاً كيف يقتل أباه. وكان واضحاً أنها حفظت كل كلمة من كلمات الرسالة بعد أن اشبعتها درساً وتدقيقاً. ومضت تقول صائحة: ولو لم يكن ثملاً، لما كتب لي هذه الرسالة؛ وإلا فانظروا إن كل شيء قد أشير إليه في الرسالة سلفاً، وقد جاء التنفيذ وفقاً لتفاصيلها. لقد وضع خطة كاملة لتنفيذ جريمته.

وقد كانت كاترينا وهي تقول هذا القول متهورة غير آبهة بالعواقب. ولعلها ولا شك كانت تتنبأ بهذه العواقب منذ وقت طويل، لأنها إبان ذلك كانت تتساءل عما إذا كان عليها أن تبرز الرسالة في المحكمة أم لا، وهي ترتجف غضباً واستياء. أما الآن فإنها عزمت أمرها غير مبالية بشيء. وإني لأذكر أن كاتب المحكمة تلا الرسالة بصوت عال، فأحدثت أثراً عظيماً.

وسئل ميتيا عما إذا كان هو حقاً كاتبها، فصاح قائلاً: نعم، إنها رسالتي! وما كنت لأكتبها لو لم أكن ثملاً!... لقد كرهنا بعضنا بعضاً لأسباب عدة يا كاتيا، ولكنني أقسم، أقسم على أنني كنت أحبك حتى حين كرهتك أما أنت فلم تحبيني!.

وعاد إلى الجلوس على مقعده، وهو يفرك يديه قنوطاً. ثم أخذ المدعي العام والمحامي، كل بدوره يسأل كاترينا إيفانوفنا وهدفهما الرئيس معرفة السبب الذي حملها على إخفاء مثل هذه الوثيقة، والإدلاء بشهادتها من قبل بلهجة وروح مختلفتين عما أبدته الآن.

وقد صاحت كاتيا كالمعتوهة: نعم، لقد كنت أكذب، وتعمدت قول ما يتنافى مع شرفي وضميري، ولكنني كنت أود إنقاذه لأنه كان يكرهني ويحتقرني. لقد كان يحتقرني إلى حد مخيف، كان دائماً يحتقرني بل إنه احتقرني منذ تلك اللحظة التي انحنيت فيها أمامه متوسلة منه ذلك المال. لقد لاحظت ذلك... لقد أحسست به تواً منذ تلك اللحظة. ولكنني ترددت طويلاً في تصديقه. كم من مرة قرأت في عينيه هذا القول: «لقد أتيت إلي

طيعة». أواه إنه لم يفهمني وهو لم يفطن إلى سبب ذهابي إليه، لأنه لا يحسّ إلا بالدوافع الحقيرة والوضيعة، لقد حكم علي بمقاييس نفسه. ومضت كاتيا تقول بغضب واندفاع: «لقد كان يظن أن جميع الناس يدانونه حقارة! وما كان ليفكر في الزواج مني إلالأنني ورثت ثروة كبيرة، لقد كان هذا هو السبب، هذا هو السبب الحقيقي! لقد كنت دائماً أرد رغبته في الزواج مني إلى هذا السبب! آه، إنه فظ غليظ القلب! كان اعتقاده أنني سأظل طيلة حياتي أرتعد أمامه عاراً وخجلاً، لأنني ذهبت إليه آنذاك، فلهذا، أصبح حقه مكتسباً باحتقاري إلى الأبد، وبالتّسلط علي. إن هذا هو سبب رغبته في الزواج مني! هذا هو السبب كله! ولقد حاولت أن آخذه بالحب. بحب لا حدود له، بل أنني حاولت أن أغفر له خيانته، ولكنه لم يفهم شيئاً أبداً! وأنى له أن يفهم؟ إنه وحش! تسلمت الرسالة في مساء اليوم التالي؛ أتوني بها من الحانة، وفي صباح ذلك اليوم بالذات كنت أروض نفسي أن اغتفر له كل شيء، حتى خيانته!.

وقد حاول رئيس المحكمة والمدعي العام بطبيعة الحال تهدئتها وتطييب خاطرها. وأجدني معتقداً بأنهما شعرا بالخجل من انتهاز فرصة اضطرابها والاستماع إلى أقوالها. وأني لأذكر أنني سمعتهما يقولان لها: «إننا مدركان كم هو ثقيل هذا الأمر عليك. ثقي بأننا نشعر معك. وما إلى ذلك من أقوال». ومع ذلك فقد انتزعا الشهادة من فم المرأة الهاذية المضطربة. وأخيراً وصفت بوضوح جلي تماماً، وهو ما يحدث أحياناً كثيرة في لحظة عابرة في مثل هذه الأحداث العنيفة، كيف أن إيفان كاد أن يصبح مجنوناً خلال الشهرين الماضيين وهو يحاول إنقاذ أخيه «الوحش والقاتل».

وهتفت تقول: لقد عذب نفسه بعناد واستمرار، وكان يحاول دائماً أن يقلل أثر جريمة أخيه، قائلاً لي بأنه هو أيضاً لم يكن يحب أباه، وأنه ربما كان تواقاً إلى موته، أواه، إنه رقيق الحسّ مرهف الضمير! لقد كان مرضه نتيجة معاناته مع ضميره ووجدانه! لقد قصّ علي كل شيء، كل شيء! لقد كان يأتي إلي في كل يوم فيكشف لي عن مكنونات نفسه باعتباري صديقته الوحيدة. وصاحت بغتة بلهجة ظهر فيها التحدي وعيناها تومضان: لي الشرف

أن أكون كذلك. لقد ذهب لزيارة سميردياكوف مرتين. وفي ذات يوم جاء إلي وقال: «إذا لم يكن أخي هو القاتل بل سميردياكوف (وكان الناس بدأوا يتناقلون الخبر بأن سميردياكوف هو القاتل) فربما كنت أنا أيضاً مذنباً، لأن سميردياكوف كان يعلم أنني لم أكن أحب أبي وربما اعتقد بأنني أتمنى قتله. وعندها أخرجت هذه الرسالة وأريته إياها. وعندئذ اقتنع بأن أخاه هو القاتل، ولحقه من ذلك غم عظيم. فهو لم يستطع أن يتصور أن أخاه كان قاتل أبيه! ومنذ أسبوع واحد فقط أدركت بأنه مرض فعلاً بسبب ذلك. وفي غضون الأيام القليلة الماضية أخذ يتحدث بحضوري حديثاً متنافراً، فأدركت أن عقله قد أصابته لوثة. كان يهذي وهو يسير في الغرفة، وشوهد في الشارع وهو يتمتم بكلام غير مفهوم. ولمّا فحصه طبيب موسكو بناء على طلبي يوم أمس الأول، أنبأني بأنه على وشك السقوط فريسة حمى الدماغ. إنما ذلك كله بسببه، بسبب هذا الوحش! وفي الليلة الماضية بلغه أن سميردياكوف قد مات! فهزه هذا النبأ هزاً إلى حد ذهب بعقله... وكل ذلك كان بسبب هذا الوحش، ومن أجل إنقاذ الوحش!.

إني أعلم أن مثل هذا الاسترسال في الاعتراف، والتدفق في الكلمات لا يحدثان للمرء إلا مرة واحدة في حياته، عندما تحين ساعة الموت مثلاً، أو عندما يساق إلى المشنقة! وفي حالة من هذا النوع كانت كاتيا وهي حالة تتفق وطباعها. لقد كانت الفتاة صاحبة هذه الاقوال، هي كاتيا ذاتها التي تسرعت وذهبت إلى شاب مستهتر إنقاذاً لأبيها، كاتيا بذاتها التي ضحت، قبل قليل وعلانية، بنفسها وبحشمتها العذرية، وهي الشامخة بأنفها، العفيفة، فروت قصة كرم ميتيا أملاً في أن تخفف من قسوة مصيره. وها هي الآن، مرة أخرى، تضحي بنفسها، ولكن في سبيل رجل آخر، رجل لعلها ادركت الآن ـ وقد يكون هذا للحظة واحدة فقط ـ كم تحبه. لقد ضحت في سبيله بنفسها مخافة أن يكون، كما رأت فجأة، قد جر الخراب على نفسه باعترافه أنه كان القاتل لا أخوه، لقد ضحت بنفسها في سبيل إنقاذه، إنقاذ سمعته وشرفه!.

ومع ذلك فإن هنالك سؤالاً واحداً كبيراً يقلق الجميع. فهل كذبت

عندما وصفت عواطفها نحو ميتيا وعلاقاتها السابقة معه؟ كلا، إنها لم تسىء إليه عمداً عندما صرخت أن ميتيا قد احتقرها بسبب تلك الانحناءة السابقة. فلقد كانت هي نفسها تؤمن بذلك. لقد كانت مقتنعة اقتناعاً راسخاً، وربما منذ أن انحنت أمامه، بأن ميتيا صاحب القلب البسيط الذي كان حتى في ذلك، يحبها حتى العبادة، إنما كان يسخر منها ويزدريها. لقد كان حبها له حباً صارخاً ممتزجاً «بالعذاب»، حباً منبثقاً عن الكبرياء وحدها، عن الكبرياء الجريحة، حباً لم يكن الحنان مبعثه بقدر ما كان الانتقام. وربما صحّ أن يتطور مثل هذا الحب المتكلف إلى حب حقيقي، وقد تكون كاتيا تواقة إلى ذلك بتصميم صادق، غير أن خيانة ميتيا قد طعنتها في الصميم، فلم يسمح كبرياؤها بالصفح عنه. وفجأة حانت لحظة الانتقام، كما لم تكن تتوقع، فإذا بالمرأة المهانة تفرغ صدرها من كل ما كان تراكم فيه وآلمه منذ زمن بعيد.

لقد هتكت أسرار ميتيا، ولكنها هتكت أيضاً أسرار نفسها. ولم تكد تفصح عن المشاعر التي تعج في قلبها، حتى زال توترها العصبي بطبيعة الحال، فشعرت بالخزي العظيم. وعندئذ عاودتها النوبة الهستيرية، فانطرحت على الأرض، وهي تنشج وتولول. وقد أخرجوها من القاعة. وفي هذه اللحظة اندفعت غروشينكا نحو ميتيا قبل أن يتسنى لأحد أن يصدّها وهي تصرخ وتولول: «ميتيا، إن هذه الأفعى قد جلبت لك الخراب»! والتفتت إلى أعضاء المحكمة وهي تصيح قائلة وجسمها يرتجف غضباً: «دونكم إياها، لقد كشفت عن حقيقة نفسها». وبإشارة من يد رئيس المحكمة، اندفع رجال الشرطة نحوها وقبضوا عليها وحاولوا جرها من قاعة المحكمة. ولكنها لم تذعن، وأخذت تقاوم وتناضل للاندفاع إلى ميتيا. فأخذ يصيح عالياً ويجاهد لكي يبلغ مكانها، غير أن رجال الشرطة تكاثروا عليه فأمسكوه، وأخفق مسعاه.

إني لأظن بأن السيدات اللواتي جئن للمشاهدة، قد أرضاهن المشهد. فهو مميز يستحق عناء الحضور. وأذكر أن طبيب موسكو ظهر في تلك اللحظة. وأعتقد أن رئيس المحكمة كان قبل ذلك قد أرسل الحاجب يستدعيه لمعالجة إيفان. وقد أعلن الطبيب أمام المحكمة بأن المريض يعاني حالة خطيرة من حالات حمى الدماغ، وأن من الواجب نقله من المحكمة

تواً. وفي معرض إجابته عن أسئلة المدعي العام ومحامي الدفاع أعلن أن المريض جاءه منذ يومين، بمحض اختياره وأنه نبهه إلى أن نوبة المرض توشك أن تصيبه، ولكن إيفان رفض الخضوع للعلاج. وختم الطبيب إفادته بقوله: إنه لم يكن في حالة عقلية طبيعية، فقد أنبأني بنفسه أنه يرى رؤى غريبة في يقظته، فمرة يلتقي أثناء سيره في الشارع بالكثيرين من الموتى، ومرة أخرى يقوم الشيطان بزيارته كل مساء. أنهى الطبيب المشهور الإدلاء بشهادته وخرج من القاعة. وضمت الرسالة التي أبرزتها كاترينا إيفانوفنا إلى الأدلة الملموسة. وبعد مداولات قليلة قرر القضاة متابعة المناقشات، وضم الشهادتين غير المتوقعتين (أي أقوال إيفان وكاترينا إيفانوفنا) إلى وثائق المحاكمة.

أما إفادات الشهود الآخرين، فلا أجد ضرورة لذكر تفاصيلها، فهم لم يزيدوا على ترديد وإثبات ما بات معروفاً مع بعض الفروق التي تمليها طريقة كل واحد منهم وأسلوبه الخاص في الحديث. وأعود الآن إلى القول أن كل الإفادات جمعتها مرافعة المدعي العام التي سآتي على ذكرها حالاً. وتكفي الإشارة إلى أن جميع الحضور كانوا يعانون من انفعال رهيب بسبب الكارثة التي وقعت قبل هنيهة، وكانوا جميعاً في انتظار ما ستتضمنه مرافعتا الادعاء العام والدفاع بصبر نافد. وقد صدم فتيو كوفيتش صدمة واضحة بسبب ما جاء في شهادة كاترينا إيفانوفنا، أما المدعي العام فكان مزهواً بالنصر. وبعد الاستماع إلى جميع الإفادات، رفعت المحكمة جلستها زهاء ساعة، وعندما عاد رئيس المحكمة إلى مقعده، أعطى الكلام للمدعي العام إيبوليت كيريلوفيتش الذي بدأ مرافعته، وكانت الساعة، كما أظن، الثامنة مساء.

مرافعة المدعي العام

تحليل خلقي

كان إيبوليت كيريلوفيتش عندما بدأ مرافعته يرتجف لفرط اضطرابه، وكان جبينه دائم التصبب بالعرق البارد وجسمه يصاب بالحرارة والبرودة مرة بعد أخرى. كذلك وصف هو نفسه فيما بعد حالته تلك. وقد اعتبر مرافعته درتة اليتيمة، التي لم يأت بمثلها في حياته كلها، وشبهها بأنشودة البجعة قبل أن تموت. وقد توفي فعلاً بعد مرور تسعة أشهر على هذه المرافعة إثر أصابته بسل لم يمهله طويلاً، فكان محقاً، كما تبين، في مقارنة نفسه بالبجعة التي تنشد نشيدها الأخير قبل الموت. وقد ضمّن تلك المرافعة كل ما في قلبه من عواطف وما في عقله من ذكاء. وكشف إيبوليت كيريلوفيتش المسكين عن أن نفسه تنطوي على حسّ بمصلحة الشعب، لم يكن متوقعاً منه، فضلاً عن شعوره «بالقضايا الحادة». وكانت روعة خطابه تتجلى حقاً في ما تبدى فيه من إخلاص. لقد كان مؤمناً إيماناً نهائياً بأن المتهم هو القاتل فعلاً، ولم يكن اتهامه له ووجوب معاقبته بدافع من الواجب الذي تقضي به وظيفته وحسب؛ بل إنه كان يعبر عن قناعته التامة، وعن عاطفته الصادقة حيال سلامة المجتمع. وحتى السيدات اللواتي لم يزايلهن شعور العداء لإيبوليت كيريلوفيتش حتى نهاية. المحاكمة، اعترفن بأن مرافعته كان لها وقع عظيم في نفوسهن. وقد بدأ خطابه بصوت متهدج ما لبث أن ثبت وارتفع، وظل يدوي في أرجاء القاعة حتى النهاية. ولكنه ما أن فرغ من الكلام حتى كاد يسقط مغشياً عليه.

استهل المدعي العام مرافعته مخاطباً هيئة المحلفين: يا حضرات المحلفين، إن القضية التي ننظر فيها قد هزت روسيا قاطبة. فما هو وجه

الغرابة فيها، وما هو وجه إثارة الرهبة في نفوسنا؟ لقد ألفنا وقوع أمثال هذه الجريمة! ذلكم هو مصدر الرهبة والخوف، إن هذه الأعمال الوحشية لم تعد تخيفنا. إن هذه الإلفة لأعمال الشر كافة هو ما يجب أن يبعث الخوف في نفوسنا، لا جريمة يرتكبها هذا، أو جريمة يرتكبها ذاك من المجرمين. فما هي أسباب عدم فتورنا وعدم انفعالنا إزاء مثل هذه الجرائم، إزاء العلامات التي تنذر بمستقبل قاتم؟ أهي إزاء حبنا للتهكم والاستخفاف، أم هي نضوب الفكر والخيال نضوباً مبكراً في مجتمعنا الفتيّ، فاقتربت نهايته قبل أوانها؟ أم أن هذه الأسباب هي خلال في مبادئنا الأخلاقية أم أننا فقدنا هذه المبادىء أصلاً؟ إنني لا أقصد الإجابة عن هذه الأسئلة، ولكنها أسئلة مقلقة، وليس لكل مواطن الحق في أن يقلق بسببها فحسب، بل يجب عليه أن يقلق فعلاً. إن صحافتنا الناشئة التي قد تتهيب أحياناً لطراوة عودها، قد أدت خدمة حسنة للجمهور حتى الآن، فلولاها لما عرفنا بأمر فظائع الإجرام الذي أفلت من عقاله، والانحطاط الخلقي، فالصحافة ما فتئت تكشف عن هذه الأمور، لا لأولئك الذين يحضرون المحاكمات التي يعتبر نشر أحكامها حسنة من حسنات العهد الحاضر فحسب، بل للناس طراً. وما الذي نكاد نطالعه في هذه الصحف يومياً؟ إننا نقرأ أنباء عن جرائم تبدو قضيتنا هذه بالقياس إليها باهتة وتكاد تكون عادية. ولكن أهم ما في الأمر هو أن أغلبية الجرائم الروسية الجنائية تحمل الدليل على انتشار الشر بيننا انتشاراً واسعاً، وقد بلغ من رسوخه في نفوسنا حتى صار عسيراً علينا أن نكافحه.

فنحن تارة نرى ضابطاً مرموقاً في ربيع العمر من طبقة المجتمع الرفيع، وفي مستهل حياته العملية، يقدم بأسلوب دنيء جبان وبعيداً عن الحياء، وعذاب الضمير، على قتل موظف كان قد أحسن إليه ورباه، ويقتل خادمته، لكي يسرق صكاً كتبه على نفسه لوفاء مبلغ من المال استدانه من الموظف، ثم يستزيد فيسطو على ما يجده من مال، قائلاً لنفسه: إن هذا المال قد جاء في الوقت المناسب لأنفقه على ملذاتي في الأوساط الأنيقة، وأستعين به على تحسين وضعي الوظيفي. وبعد أن يزهق روحيهما يضع وسادة تحت رأسيهما ويمضي في سبيله. وتارة أخرى نرى بطلاً شاباً ـ وقف حياته على أعمال

الشجاعة ـ يقدم على قتل والدة رئيسه المحسن إليه، كما يفعل اللصوص. وتحريضاً منه لرفاقه على مشاطرته الجريمة يؤكد لهم أنها تحبه محبة الأم لابنها، ولذلك فإنها ستتبع جميع توجيهاته، ولن تتخذ أي احتياط. فلو سلمنا بأنه وحش، فإنني لا أجرؤ أن أقول أنه فريد عصرنا هذا، فهناك غيره قد لا يقتل، ولكنه يجاريه تماماً في الشعور والتفكير، ولا يقل عنه دناءة في نفسه، وبعداً عن الشرف. وهو إذا خلا إلى نفسه فقد يتساءل: ما هو الشرف؟ أو ليس في استنكار إراقة الدماء شيئاً من التحامل؟.

قد يأخذ عليّ بعض الناس أنني متشائم إلى حد المرض، وأنني أختلق هذه الأمثلة اختلاقاً وأبالغ فيها مبالغة. دعوهم وشأنهم. رباه أمنيتي أن يكون مأخذهم صحيحاً فلا تصدقوني إن أردتم، وقولوا إنني سقيم الفكر، ولكن تذكروا ما أقوله لكم الآن، فلو صح عشر ما أقول، أو جزء من عشرين جزءاً منه، لكان ذلك وحده رهيباً! انظروا إلى شبابنا كيف ينتحرون بدون أن يتساءلوا كما تساءل هملت عن مصيره بعد الموت، كأن كل مسائل الروح ومصيرنا بعد الموت، قد أمحي من عقولهم منذ زمن بعيد، ودفن في الرمال. انظروا إلى رذائلنا، إلى آثامنا وتهتكنا. إن فيودور بافلوفيتش الضحية التعيسة في هذه القضية، يكاد يكون طفلاً بريئاً قياساً على كثيرين من أولئك الفاسقين. ومع ذلك فنحن لا نجهله، لقد كان يعيش بين ظهرانينا! ـ...

أجل، فقد يأتي يوم يعكف فيه كبار مفكري روسيا وأوروبا على دراسة سيكولوجية الإجرام في روسيا، لأن الموضوع جدير بالدراسة. ولكن هذه الدراسة ستتم لاحقاً، وعلى هينتها، بعد أن تكون المآسي المنتشرة في بلادنا اليوم، قد تقادم العهد عليها، فيمكن دراستها إذ ذاك بتعمق وإنصاف لا يتوفران لي الآن. ونحن اليوم إما أن نكون مروّعين أو أننا نتظاهر بذلك، مع أننا في الحقيقة نتلذذ بمنظر الجريمة، ونتعشق الأمور العاطفية الشاذة التي تثير فينا الخمول والاستخفاف والإغراق في الآثام. أو لنقل إننا كصغار الأطفال، نبعد عنا الرؤى المخيفة ونخفي رؤوسنا في الوسائد حتى إذا ما اختفت عدنا إلى لهونا ومرحنا. لقد آن لنا أن نبدأ حياتنا ذات يوم بإخلاص وجد، وأن ننظر إلى أنفسنا كأفراد يؤلفون مجتمعاً. يجب أن نفهم شيئاً عن وضعنا الاجتماعي،

أو نحاول على الأقل أن نفهم.

إن كاتباً عظيماً[1] من كتاب العصر السالف يشبّه روسيا بمركبة سريعة[2] مندفعة إلى هدف مجهول، ويهتف بها قائلاً: «أيتها المركبة، أيتها المركبة الشبيهة بالطائر، من صنعك»! ثم يقول بزهو وافتخار: «إن كافة شعوب العالم تتنحى باحترام عظيم عن طريق المركبة المندفعة على غير هدى»، وقد يكون ذلك صحيحاً، فقد تتنحى الشعوب عن طريق المركبة، باحترام أو بغير احترام، لكن الكاتب العبقري، في رأيي المتواضع، وضع هذه الخاتمة لكتابه إما بدافع من تفاؤل ساذج أفعم به قلبه، أو لمجرد خوفه من سيف الرقابة على المطبوعات في ذلك العهد. فلو كان أبطاله سوبا كيفتش، ونوزدريوف وتشيتشيكوف هم الذين يجرون المركبة فإنها لن تبلغ هدفاً أساسياً، أيا كان سائقها. وأولئكم كانوا أبطال الجيل السالف، أما أبطالنا فهم نماذج سيئة لهم...

وهنا قوطعت مرافعة إيبوليت كيريلوفيتش بالتصفيق وهتافات الاستحسان، فقد أدرك الجمهور ما في هذا التشبيه من أفكار متحررة وقدر له ذلك. ولكن التصفيق كان متفرقاً وسرعان ما انقطع فلم يجد رئيس المحكمة من حاجة إلى تحذير الجمهور، واكتفى بأن حدج المخالفين للنظام بنظرة صارمة. ولكن إيبوليت كيريلوفيتش شعر بالزهو، فهو لم يصفّق له استحساناً مرة واحدة! لقد قضى حياته دون أن يتمكن من جعل آذان الجمهور تصغي إليه، وها هو الآن أمامه فجأة الفرصة المناسبة لكي يسمع صوته روسيا بأسرها.

ومضى في مرافعته قائلاً: وبعد، فما تمثل أسرة كرامازوف هذه التي اكتسبت، بين ليلة وضحاها مثل هذه الشهرة التي لا تحسد عليها في جميع أنحاء روسيا؟ قد أكون مبالغاً في قولي، ولكن يبدو لي أن ثمة صفات ذات دلالة معينة من صفات مجتمعنا المثقف المعاصر تتمثل في الصورة التي سأرسمها لهذه الأسرة ـ ولكن بشكل مصغر، بطبيعة الحال ـ كما تنعكس

---

(١) هو الكاتب الروسي غوغول (ـ ١٨٥٢) في روايته «النفوس الميتة».

(٢) هي عربة الترويكا التي تجرها ثلاثة أحصنة.

الشمس على قطرة الماء. أنظروا بادىء ذي بدء إلى ذلك العجوز التعيس الفاسق الذي فجر وأكثر، والذي لقي هذه النهاية المفجعة، وأعني به رأس هذه الأسرة! لقد بدأ حياته كرجل كريم المحتد، ولكنه كان طفيلياً يائساً، ثم حصل على مبلغ بسيط من زواج لم يكن يتوقعه. وقد كان حقيراً فاسد الخلق، وضيع النفس ماجناً مهذاراً، له ذكاء لا ينكر، وكان فضلاً عن كل ذلك مرابياً. وإذ ربا رأس ماله، ازداد هو عهراً وسلاطة لسان. لقد اختفت ذلته وحقارته ولم يبق من صفاته سوى فجوره وسخريته الشريرة. أما من الناحية النفسية، فقد كان إنساناً غير ناضج، بينما كان جسده ظامئاً إلى اللذة بلا حدود. إنه لم ير في الحياة سوى اللذة الشهوانية، وقد أنشأ أبناءه ليكونوا نسخاً عنه. ولم يكن يشعر بواجباته كوالد، بل إنه لم يكن ليعترف بتلك الواجبات، فترك أمر تربية أبنائه للخدم، وسره أن يتخلص منهم، حتى وجد نفسه وقد نسيهم تماماً. ولقد اعتمد ذلك العجوز في حياته المبدأ القائل: «بعدي الطوفان». إنه النقيض الكامل للمواطن، ففيه تتمثل الفردية بكل أشكالها وسيئاتها، وكان شعاره: «لتحترق الدنيا، فما شأني بها ما دمت سالماً»، وقد كان سالماً فعلاً فهو راض عن حاله، طامع في أن يظل في قيد الحياة، متابعاً طريقة عيشه عشرين عاماً أو ثلاثين عاماً أخرى. لقد خدع ابنه، وسلبه المال الذي ورثه عن أمه، في محاولة لكي يسلبه عشيقته. كلا، لست أريد أن أترك أمر الدفاع عن السجين كلية لزميلي المحامي اللامع القادم من بطرسبورغ. سأقول الحقيقة بنفسي، لأنني أدرك ما خلفه هذا الأب في قلب ابنه من حقد متراكم عليه.

ولكن كفاني، كفاني حديثاً عن العجوز التعيس، فلقد نال عقابه الكافي. ولكن دعونا نذكر أنه كان واحداً من آباء هذا العصر، فهل أجافي الحقيقة إذا قلت أنه أنموذج لكثير من الآباء المعاصرين؟ واأسفاه! إن كثيرين من آباء هذا العصر لا يختلفون عنه في شيء سوى أنهم يكشفون عن استهتارهم، بفعل ثقافتهم وتربيتهم، ولكن آراءهم في جوهرها هي ذات آرائه بلا فرق. ليكن مفهوماً منذ الآن، فلا حاجة بكم لتصديق أقوالي ولكن دعوني أتكلم. دعوني أقول ما أعتقد به، وخذوا عني بعضه. والآن أنتقل إلى الحديث

عن أبناء الأب. أبناء رب هذه الأسرة. فأحدهم هو السجين الماثل أمامنا، وسأخصه بالباقي الكثير من مرافعتي. أما الأخوان الآخران فسأتحدث عنهما بإيجاز.

إن الأخ الأكبر هو أحد شبابنا العصريين واسع العلم عظيم الذكاء، فقد إيمانه بكل شيء، وهو كأبيه، أنكر وجحد أشياء كثيرة حتى الآن. إننا نعرفه، وقد سمعنا جميعاً أقواله، وهو الذي كان يقابل بالترحاب في أوساط مجتمع مدينتنا. ولم يحاول إخفاء آرائه، بل كان يجهر بها، مما يبرر تبسطي في الحديث عنه الآن، لا بوصفه شخصاً فرداً، بل بصفته واحداً من أسرة كرامازوف. وثمة إنسان آخر على صلة وثيقة بالقضية توفي البارحة في هذه المدينة منتحراً. وأعني به ذلك الغبي العليل، سميردياكوف، خادم فيودور بافلوفيتش سابقاً، وربما كان ابنه غير الشرعي، فقد روى لي أثناء التحقيق الأولي وهو يبكي لفرط اضطرابه، كيف كان إيفان كرامازوف الشاب يخيفه باستهتاره الروحي. كان يقول له: إن كل شيء حلال في الدنيا، وليس شيء محرماً من الآن فصاعداً. هذا ما كان يردده على مسمعه دائماً. وإني أعتقد بأن هذه الأفكار قد أفقدت ذلك الإنسان الأبله عقله؛ وإن يكن من الجائز أن نوبات الصرع التي كان يشكو منها، وهذه الكارثة الرهيبة، ساعدت بطبيعة الحال، على فقدان عقله. ولكنه أبدى ملاحظة تثير الاهتمام العظيم، لو بدرت من رجل يفوقه ذكاء، لكان له أن يفاخر بها، ولهذا السبب أذكرها الآن، فقد قال: إذا كان هناك بين أبناء فيودور بافلوفيتش من يشبه والده خلقاً، فهو إيفان فيودوروفيتش.

بهذه الملاحظة أختتم هذا التحليل المقتضب لصفاته، فأنا أشعر أنه من الحكمة أن لا أسترسل في الحديث عنه، كلا، فلست أريد أن أواصل استنتاجاتي وأن أتنبأ بمستقبل أسود لهذا الشاب. فقد رأينا اليوم في هذه المحكمة أنه ما زالت في قلبه الفتي دوافع طيبة وأن شعوره نحو الأسرة لم يقتله كفره واستخفافه وهما صفتان سببهما الوراثة، لا استقلاله في التفكير.

ونأتي الآن إلى الابن الثالث. إنه شاب ورع خجول، لا يشاطر أخاه الأكبر فكرته القاتمة المدمرة عن الحياة. وكان دأبه التشبث «بأفكار الشعب» أو

بما تعنيه هذه التسمية التي لا تخلو من ادعاء، في أوساط طبقات مفكرينا. وقد لاذ بالدير، وأوشك أن يصير راهباً. ويبدو لي أنه قد أحسّ بصورة عفوية، وفي سن مبكرة، بذلك اليأس الخائف الذي يحمل الكثيرين في مجتمعنا الشقيّ، الذين يمجّون الاستخفاف وفساد الأخلاق، ويعزون خطأً كل شر إلى الثقافة الأوروبية، على العودة إلى «تربة وطنهم» على حدّ تعبيرهم، إلى أحضان امهم الأرض، كالأطفال المروعين من رؤى الأشباح، وهم يتوقون إلى الإغفاء إلى الأبد في حضن أمهم الهرمة، لا لشيء سوى النجاة من المخاوف التي تملأ نفوسهم رعباً.

وأنا أتمنى لهذا الشاب الممتاز الموهوب كل نجاح، وأثق بأن مثاليته الفتية وتعلّقه بأفكار الشعب لن تنقلب، كما يحدث في الغالب، إلى تصوف كئيب في المجال الأخلاقي وإلى تعصب أعمى في المجال السياسي وهما عنصران أشد خطراً على روسيا من الفساد المبكر، الذي تسببه الأفكار الأوروبية إذا اعتنقت بدون فهم ودراسة، وهو ما يشكو منه شقيقه الأكبر.

وقد صفق اثنان أو ثلاثة من الحضور عند ذكر التعصب والتصوف. وقد كان إيبوليت كيريلوفيتش في الحقيقة مزهواً ببلاغته. وواضح أن ما ذكره بعيد كل البعد عن القضية التي تنظر بها المحكمة، فضلاً عن غموضه، ولكن الرجل العليل الحانق غلبت عليه رغبته بالإفصاح عن أفكاره مرة واحدة في حياته. وقد قيل فيما بعد إنه كان مدفوعاً بدوافع لا تخلو من حقد في تحليله لنفسية إيفان، لأن هذا أفحمه في الجدال في مناسبة أو مناسبتين، وحفظها إيبوليت كيريلوفيتش له، فحاول الآن أن يثأر لنفسه. ولكنني لست واثقاً من صحة هذا الرأي. ومهما يكن من أمر فقد كان هذا كله تمهيدياً وكفى، وقد انتقل في مرافعته إلى معالجة لب القضية.

تابع إلقاء خطابه قائلاً: أعود الآن إلى أكبر الأبناء سناً في هذه الأسرة العصرية. إنه المتهم الماثل أمامنا، وها هي حياته وأعماله كلها قد كشفت أمامنا. لقد حل اليوم الرهيب الذي يتضح فيه كل شيء. فبينما يؤيد شقيقاه الأفكار الأوروبية ومبادىء الشعب يمثل هو، كما يبدو، روسيا على علاتها. كلا إنه لا يمثل روسيا بأسرها، لا يمثلها بأسرها! والحمد لله. ومع هذا فمن

خلاله هو تبدو لنا أمنا روسيا بكل صفاتها. أواه، إنه إنسان يعيش على سجيته ولا يخضع لمؤثرات خارجية، إنه مزيج عجيب من الخير والشر، يحب الثقافة ويعشق شعر شيللر، ومع ذلك فهو يثير الخصومات في الحانات ويشد رفاقه في العبث والسكر من لحاهم. وهو يستطيع أن يكون أيضاً نبيلاً طيب القلب، ولكن في حالة واحدة عندما تسير الأمور وفق ما يشتهي. وأهم من هذا أنه يطرب طرباً عظيماً بالأفكار النبيلة شرط أن تأتيه بلا جهد يبذله أو تسقط عليه من السماء وكانت بدون ثمن. فهو يكره أن يعطي أي شيء، ولكنه مغرم بأن يأخذ، وهذه حاله في جميع الأمور. أعطوه جميع طيبات الحياة (فهو لا يقنع بما هو دون ذلك)، ولا تعيقوا تحقيق رغباته فسيريكم أنه هو أيضاً يستطيع أن يكون نبيلاً. وهو ليس جشعاً، ولكنه يحب أن يملك مالاً، مبلغاً كبيراً من المال، وسترون عندئذ كيف سيبدده كله في تهتك ليلة واحدة، مبدياً السخاء والاحتقار للكسب غير الشريف. أما إذا منع عنه المال، فإنه سيريكم ماذا يمكنه أن يفعل للحصول عليه عندما تشتد الحاجة إليه. ولكنني لن أستبق الأمور، وسأعالج الحوادث الآن حسب ترتيب وقوعها.

ففي بدء الأمر، أمامنا طفل مهمل مسكين؛ يعدو في ساحة المنزل الخلفية «حافي القدمين»، كما قال الآن مواطننا المحترم الأجنبي الأصل ويا للأسف. أعود فأقول أنني لن أدع أحداً يحتكر الدفاع عن المتهم، فأنا هنا أتهمه وأدافع عنه في آن. أجل فأنا إنسان أيضاً، وأنا أيضاً أستطيع تبيّن الأثر الذي تتركه حياة البيت والطفولة في تكييف أخلاق المرء. وها هو الصبي يكبر ويشب ويصبح ضابطاً؛ ثم تم نفيه إلى إحدى مدن الحدود الروسية النائية بسبب مبارزة أو عمل عنف قام به. وهناك انغمس في حياة صاخبة. وقد أعوزه المال بطبيعة الحال، فالمال مطلوب قبل كل شيء، وهكذا فإنه بعد خصومات مع والده استمرت طويلاً، توصل وإياه إلى تسوية يأخذ بموجبها من والده ستة آلاف روبل، وقد تسلمها فعلاً. وهنالك رسالة يعلن فيها تنازله عن بقية الميراث وينهي خصومته مع والده بخصوصه مقابل حصوله على تلك الآلاف الستة.

ويلي ذلك اجتماعه بشابة سامية الأخلاق واسعة العلم. إنني لن أكرر

التفاصيل؛ فلقد سمعتموها للتو، وقد تبدى فيها الشرف، ونكران الذات، فلا يسعني إلاّ أن ألوذ بالصمت. لقد رسمت أمامنا صورة الضابط الشاب العابث المتهتك الذي عرف كيف ينافح عن الشهامة والأخلاق السامية، بأسلوب يستدر العطف. ولكن سرعان ماكشف لنا الوجه الآخر من الرجل في هذه القاعة ذاتها على غير توقع. ومرة أخرى لن أقدم على تحليل الأسباب التي دفعت السيدة إلى تغيير موقفها، وإن كانت هذه الأسباب قائمة فعلاً. إن السيدة ذاتها التي ذرفت الدموع الغزيرة بسبب الإهانة التي لحقت بها وكتمت أمرها طويلاً، ادعت أمامنا أنه، هو من دون سائر الرجال، احتقرها لتصرفها الذي وإن كان يدل على الطيش، وربما على التهور، فإنه تصرف أملته دوافع شريفة سامية. وقد كان هو ذاته، خطيب الفتاة ينظر إليها وهي ترى ابتسامته الساخرة. وكان ذلك أشد إيلاماً لها مما لو كان صادراً عن أي إنسان آخر. وهي بعد أن علمت أنه خدعها (وقد خدعها فعلاً، لاعتقاده بأن عليها احتمال كل شيء منه حتى الخيانة) قدمت له طائعة مبلغ الثلاثة آلاف روبل، وجعلته يدرك بوضوح تام أنها تعطيه المال لكي تتيح له المضي في خيانتها حتى النهاية، وكأنها تقول له: ها هو المال، فهل تأخذه أم ترفضه، وهل بلغت بك القحة هذا الحد؟ وقد وقف ينظر إليها، وأدرك بجلاء ما يدور بخلدها (وقد اعترف أمامكم أنه أدركه)، فأخذ الآلاف الثلاثة بدون تردد، وبددها في غضون يومين على الفتاة الجديدة التي خصها بعواطفه.

فماذا نصدق إذاً؟ الصورة الأولى عن الضابط الشاب الذي يضحي بآخر فلس يملكه، أسطورة اندفاعته النبيلة الكريمة وتقديره الفضيلة، أم الصورة الثانية التي تضج ببواعث الاشمئزاز؟ إن القاعدة تقول بأن على المرء أن يجد نقطة وسطاً بين طرفي النقيض. أما في هذه القضية التي ننظر، فالأمر ليس كذلك أبداً. والأرجح أنه كان في الحالة الأولى صادقاً في نبله، بقدر ما كان في الحالة الثانية صادقاً في دناءته. فما هو السبب؟ لأنه يتصف بصفة كرامازوف الشاملة ـ وهذا ما أريد توضيحه ـ ولأنه قادر على الجمع بين أكثر المتناقضات تنافراً، وقادر على الصعود إلى أسمى المراتب، والانحدار إلى أحط الأعماق. تذكروا الملاحظة الرائعة التي أبداها السيد راكيتين، وهو

الشاب الموهوب الذي كان يعرف أسرة كرامازوف معرفة وثيقة: إن حاجة هؤلاء الناس ذوي الطبائع المسعورة إلى السقوط جوهرية لا تقل أهمية عن حاجتهم إلى أسمى درجات النبل. وهذه هي الحقيقة بعينها، فإنهم في حاجة مستمرة إلى هذا المزيج الشاذ. يجب الجمع بين النقيضين في آن واحد، وإلا حلت بهم التعاسة، ولم يرضوا بحالهم، وشعروا بأن كيانهم ناقص. إنهم واسعون سعة أمنا روسيا؛ إنهم يحتوون كل شيء، ويحتملون كل شيء.

وبهذه المناسبة أذكر، يا حضرات المحلفين، أننا مررنا مروراً عابراً بموضوع تلك الآلاف الثلاثة، وسأجرؤ على استباق الأمور. فهل يمكنكم تصور رجل كهذا يتسلم مثل ذلك المبلغ في إطار المذلة والخزي والانحطاط الخلقي، ثم يكون قادراً في اليوم ذاته على اقتطاع نصف المبلغ ووضعه في كيس مخيط صغير، ويجد في نفسه متانة الخلق التي تمكنه من حمله معه مدة شهر كامل بعد ذلك، ولا يفضه على الرغم من كثرة أسباب الإغراء وشدة حاجته للمال! تصوروا أنه لم يسمح لنفسه بمس هذه الذخيرة لا في ساعات سكره وتهتكه في الحانات، ولا عند إسراعه إلى الريف ساعياً إلى الحصول على المال من أناس لا يعلم إلا الله من هم، بغية أن يحول دون وقوع معبودته فريسة إغراء والده! إن هنالك سبباً واحداً على الأقل كان يجبره على فتح الكيس، وهو تجنب الابتعاد عن عشيقته، ولو فعل ذلك لاستطاع أن يتابع مراقبته إياها، ولانتظر اللحظة التي تقول له فيها: «أنا لك»، فيأخذها عندئذ ويبتعد بها عن بيئتهما الموبوءة.

ولكنه لم يفعل ذلك، إنه لم يمس طلسمه، وما حجته بذلك؟ إن السبب الرئيسي هو، كما قلت الآن، أن يجد المال اللازم عندما تقول له «أنا لك، خذني إلى حيث شئت»، فيستعمله للفرار بها. ولكن السبب الأول، لا قيمة له بالقياس إلى السبب الثاني، باعتراف المتهم ذاته. فهو يحدث نفسه: «ما دمت أحمل المال فأنا نذل، ولكنني لست لصاً، لأنني أستطيع في أي وقت من الأوقات أن أذهب إلى خطيبتي التي أهنتها، فأضع أمامها نصف المبلغ وأقول لها: أنظري لقد بددت نصف مالك، فأثبت أنني رجل ضعيف، عديم الأخلاق، أو، إذا شئت، رجل وغد. (وأنا اردت تعابير المتهم ذاتها)، إنني

نذل، ولكنني لست لصاً، إذ لو كنت لصاً، لما اعدت إليك نصف المال، بل كنت ألحقته بالنصف الآخر! أي تعليل رائع هذا! إن هذا الرجل الضعيف السريع الغضب، الذي لم يستطع مقاومة إغراء الثلاثة الآلاف روبل، فأخذها على حساب ما لحق به من عار، هذا الرجل ذاته يتحول فجأة إلى رجل يتحلى بالصلابة الفاضلة، ويحمل معه ألفاً وخمسمائة روبل، ولا يقدم لحظة على مسها. فهل يتفق هذا والأخلاق التي شرحناها وحللناها؟ كلا، وسأجيز لنفسي أن أوضح لكم كيف كان يمكن أن يتصرف ديمتري كرامازوف الحقيقي لو أنه حزم أمره فعلاً على أن يبقي ذلك المبلغ جانباً.

إنه كان سيفض الكيس الصغير لدى أول إغراء ـ كأن يريد إدخال السرور على قلب المرأة التي بدد عليها نصف المال، مثلاً ـ ولأخرج منه ولو مئة روبل، إذ ما الذي يدعوه إلى إعادة نصف المال بالضبط، أي ألف وخمسمائة روبل؛ وأي مانع من إعادة ألف وأربعمائة فقط؟ إنه سيظل على القول لها أنه ليس لصاً لأنه أعاد ألفاً وأربعمائة. وفي مناسبة ثانية يفتح الكيس مرة أخرى ويخرج منه مائة ثانية، ثم مائة ثالثة ورابعة، وقبل نهاية الشهر يخرج المائة قبل الأخيرة وهو يشعر بأن الأمر لن يختلف إن هو أعاد مائة واحدة، لأنه لو كان لصاً لأخذ المال كله. وعندئذ يلقي نظرة على المائة الأخيرة ويخاطب نفسه قائلاً: إن مائة واحدة لا تستحق أن أكلف نفسي مؤونة إعادتها، فلأنفقها هي أيضاً! ذلكم هو التصرف الذي كان سيسلكه ديمتري كرامازوف الحقيقي كما عرفناه. إن المرء لا يستطيع أن يتصور شيئاً أكثر تناقضاً مع الحقيقة من هذه الأسطورة، أسطورة الكيس الصغير. إن العقل يمكن أن يتقبل كل شيء إلا هذا. ولكني سأعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

وبعد أن مر إيبوليت كيريلوفيتش مروراً عابراً بما أظهره التحقيق الأولي فيما يتعلق بالخلافات المالية بين الأب وابنه، وأتى بالحجج مرة بعد أخرى لكي يثبت استحالة تحديد من غبن الآخر منهما أو غشه، انتقل إلى مسألة إصرار ميتيا على أن الثلاثة الآلاف هي ملكه، مع شهادات الخبراء الطبيين بخصوصها.

عرض تاريخي

أراد الخبراء الطبيون أن يحملونا على الاقتناع بأن المتهم لا يملك قواه العقلية، وأنه في الحقيقة مهووس. أما أنا فأقول أنه متمالك عقله، وأنه لو لم يكن كذلك لكان أكثر حكمة في تصرفاته. أما أنه مهووس، فهذا ما أسلّم به، ولكن لجهة انصراف ذهنه إلى الثلاثة آلاف روبل وحسب. ومع ذلك فأظن أن بوسع الإنسان أن يجد سبباً لاقترافه الجريمة، أسهل من قابليته للجنون. وأنا من جهتي أشاطر تماماً الطبيب الشاب رأيه القائل بأن قوى السجين العقلية ما برحت عادية، وأنه كان منزعجاً مضطرباً لا أكثر. ولم يكن غضب المتهم الجامح المتصل بسبب المبلغ وحده، بل إن هناك سبباً آخر خاصاً في أعماق نفسه، هو الغيرة!.

وهنا وصف إيبوليت كيريلوفيتش وصفاً مسهباً توله المتهم بغروشينكا. وقد بدأ وصفه من تلك اللحظة التي ذهب فيها إلى منزل «الشابة، لكي يضربها» ـ على حدّ تعبير المتهم نفسه ـ ولكنه بدلاً من أن يضربها، بقي عندها، متهالكاً على قدميها. تلك كانت بداية غرامه، في ذات الوقت وقع والد المتهم أسير هوى الشابة ذاتها، وهي مصادفة غريبة قاتلة، لأنهما وهباها قلبيهما في آن واحد، مع أن كلاً منهما كثيراً ما رآها من قبل. وقد أثارت في نفسيهما اعنف عاطفة يمتاز بها أبناء أسرة كرامازوف. إنه يمكن تصديقها إذهي أقرت أمامنا أنها كانت تسخر منهما. نعم، لقد استحوذت عليها رغبة مفاجئة بأن تسخر منهما، وتمكنت من تضليلهما معاً. وقد أعدّ لها الرجل العجوز الذي يعبد المال ثلاثة آلاف روبل، يقدمها هدية لها إذا هي زارته في منزله مرة واحدة. وإذا به، بعد ذلك بأمد قصير، يعلن استعداده لوضع أملاكه واسمه عند قدميها، إذا أصبحت زوجته الشرعية. إن لدينا دليلاً مقبولاً على ذلك. أما فيما

يتعلق بالمتهم، فإن مأساة مصيره واضحة نواجهها أمام أعيننا، غير أن «عبث» تلك الشابة بلغ أقصى الحدود، فإن تلك الساحرة لم تمنّ على هذا الشاب بأي أمل إلا في اللحظة الأخيرة، عندما جثا أمام معذبته، باسطاً ذراعيه اللتين كانتا ملطختين بدم أبيه، وخصمه وغريمه. وقد اعتقل وهو بهذه الهيئة. ولكنها لما رأت أنه يعتقل، انتابها ندم صادق فصاحت: أرسلوني معه إلى سيبريا، فلقد سببت له الهلاك، فأنا الملومة أكثر من غيري. إن السيد راكيتين، الشاب الموهوب الذي أشرت إليه، قد وصف بإيجاز بطلة القصة هذه، بكلمات مؤثرة إذ قال: لقد استدرجت في مطلع صباها وخدعت، وحطمت، على يد خطيب أغواها وهجرها. لقد نبذت فقيرة، تلاحقها لعنة أسرتها المحترمة، واحتمت برجل غني عجوز لا تزال تعتبره محسناً لها. وهكذا تراكمت في قلبها، باكراً، عوامل عديدة نغصت عليها حياتها، ولعلَّ قلبها كان يزخر باندفاعات الخير والطيبة. وقد صارت راجحة العقل فجمعت المال، وأصبحت ساحرة كارهة للمجتمع. ومن هذا التحليل الموجز نستطيع أن ندرك أن بإمكانها أن تسخر من كلا الخصمين بدافع من العبث الخبيث ولو قادهما ذلك إلى الدمار.

وخلال شهر ملأه المتهم بالحب الذي لا رجاء معه، وبالانحلال الخلقي، حتى خان خطيبته واستحوذ على مال اؤتمن عليه، وجد نفسه يقترب من الهوس الجنوني، بسبب الغيرة المتصلة، وممن؟ من أبيه! وأسوأ ما في الأمر أن ذلك الرجل العجوز المعتوه كان يحاول إغواء واجتذاب المرأة التي وقع في غرامها، بواسطة تلك الآلاف الثلاثة ذاتها، التي كان الابن يعدها حقاً له كجزء من ميراث أمه، الذي استولى عليه أبوه بالغش والخداع. نعم، إنني أقر بأن من العسير على المرء أن يتحمل هذا! وهو أمر قد يسوق الإنسان إلى الجنون. إن المال ليس هو المشكلة، بل هي في الواقع أن ذلك المال نفسه يستخدم لتقويض دعائم سعادته باستهتار يثير الغيظ.

ثم طفق المدعي العام يصف كيف أن فكرة قتل الأب قد استولت على نفس المتهم، وشرح هذه الفكرة ذاكراً الوقائع والحقائق. قال: «لقد أخذ في أول الأمر يتحدث عن هذه الفكرة في الحانات، وظل شهراً كاملاً لا يعرف

حديثاً غيرها. وهو رجل يحب دائماً صحبة الأصدقاء وبه رغبة في إطلاعهم على كل شيء، حتى على أخطر أفكاره وأفظعها، إنه يحب أن يشاطر غيره كل فكرة متوقعاً ممن يستسرهم، لسبب من الأسباب، أن يلقوه بالعطف ويشاركوه مشاكله وأسباب انزعاجه، ويقفوا إلى جانبه فلا يعارضوه في أي شيء وإلا ثارت ثائرته وحطم كل أواني الحانة. (هنا ذكرت قصته مع الضابط ستيغيريوف). وانتهى الأمر بأولئك الذين سمعوا أقوال المتهم خلال هذا الشهر بأن أقواله هذه أكثر من مجرّد تهديد، وأن شدة اضطرابه قد تفضي به إلى تنفيذ تهديداته».

وهنا وصف المدعي العام اجتماع الأسرة في الدير، ومحادثات المتهم مع أليوشا، والمشهد العنيف المخيف الذي جرى عندما اندفع إلى منزل أبيه بعيد الغداء.

ومضى المدعي العام يقول: «إنني أملك أن أؤكد، بأن المتهم كان صادق العزم على قتل أبيه قبل تلك الحادثة. ولكنني أستطيع القول أن هذه الفكرة قد داعبت خياله مرات عدة، وقلب بشأنها أوجه الفكر. وهذا ما تثبته الحقائق من خلال إفادات الشهود، واعترافاته هو نفسه». وأضاف يقول: «إنني أعترف يا حضرات المحلفين، بأنني لم أستطع حتى هذا اليوم أن أعزو إلى المتهم التعمد والإصرار. فأنا مقتنع تماماً بأنه فكر مراراً بتلك الخاتمة الفاجعة، ولكنه لم يقم بأكثر من تصورها، أما تعمد ذلك فهو من قبيل الظن. وهو لم يحدد لجريمته لا يوماً معيناً ولا طريقة معينة. إن الشك الذي ظل يراودني حتى اليوم، قد زال الآن بعد ابراز هذه الوثيقة الخطيرة أمام المحكمة. لقد سمعتم بآذانكم السيدة الشابة تهتف قائلة: «هذه خطة الجريمة ومنهاجها»! ذلك وصفها لتلك الرسالة التي خطها المتهم التعيس وهو مخمور. والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك تصميماً على الجريمة. لقد كتبت الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين، وهذا يدل على أن المتهم أقسم، قبل أن يقدم على تنفيذ خطته الرهيبة بثمان وأربعين ساعة، على أنه إذا لم يستطع الحصول على المال في اليوم التالي، فإنه سيقتل أباه لكي يأخذ الظرف الذي فيه المبلغ والموضوع تحت وسادته، حالما يذهب إيفان. لقد سمعتم هذه العبارة، حالما

يذهب إيفان. إذاً فقد عني بتفاصيل كل شيء، وحسب لكل شيء حسابه. وقد جاءت الجريمة فعلاً وفق ذات الخطة هذه التي وضعها لها. إن الدليل على وجود سبق التصور دليل لا يطرق إليه الشك، فالجريمة قد اقترفت حتماً في سبيل المال. إن هذا واضح، إنه مكتوب بخطه وموقع منه. وهو لم ينكر توقيعه. قد يقال لي إنه كان ثملاً عندما خط الرسالة، لكن ذلك لا يقلل من خطورتها شيئاً. بل على نقيض ذلك، فهو قد كتب أثناء سكره ما فكر فيه أثناء صحوه، ولو لم يضع خطة القتل أثناء صحوه لما خط الرسالة في سكره. وقد يقال أيضاً: إذاً فلماذا كان يتحدث عن الجريمة في الحانات! إن إنساناً ينوي اقتراف جريمة ما لا بد وأن يلزم الصمت ويبقى متكتماً على نواياه. نعم إن هذا صحيح، ولكن المتهم تحدث عن الجريمة قبل أن يضع الخطة لتنفيذها. كان القتل ما زال رغبة وميلاً في نفسه فحسب، ولقد أخذ يقل من الحديث عنه فيما بعد. وفي مساء ذلك اليوم الذي خط فيه الرسالة في حانة متروبوليس بعد أن ثمل، كان صامتاً على غير عادته. ولم يلعب البليارد، بل جلس في إحدى الزوايا لا يخاطب أحداً. إلا أنه صفع مستخدماً لدى بقال وأقامه من مقعده لكي يجلس في مكانه. ولقد فعل ذلك بدون وعي كونه لم يكن يستطيع قط أن يدخل حانة دون أن يثير شغباً. ولا مراء في أن المتهم بعد أن اتخذ القرار النهائي ساوره قلق من أنه قد أسرف في الحديث عن مقصده سلفاً، وذلك قد يكون إثباتاً عليه، ولكن السيف كان قد سبق العذل، فهو لم يستطع أن يسترد قولاً قاله، معتمداً على الظن بأن الحظ الذي خدمه فيما مضى سيخدمه الآن أيضاً. لقد كان مؤمناً بحسن الطالع، ويجب علي أن أعترف أيضاً بأنه بذل جهداً عظيماً في سبيل تجنب وقوع الكارثة، فهو كتب بلغته الخاصة به: غداً سأحاول اقتراض المال من أي إنسان، فإذا لم أحصل عليه فسألطخ يدي بالدم».

وهنا انتقل إيبوليت كيريلوفيتش إلى الحديث بالتفصيل عن كافة مساعي ميتيا في سبيل اقتراض المال تجنباً للجريمة. ووصف زياراته لسامسونوف ورحلته التي قادته إلى لياغافي، وقال: ثم عاد أخيراً إلى المدينة منزعجاً، ممتهناً، جائعاً، بعد أن باع ساعته ليغطي نفقة الرحلة (مع أنه يقول لنا بأنه

كان يحمل معه ألفاً وخمسمائة روبل فيا له من زعم). وكان فريسة للغيرة المضنية، لأنه ترك حبيبته في المدينة وخشي أن تمضي إلى فيودور بافلوفيتش أثناء غيبته. وعاد إلى المدينة فاطمأن إلى أنها لم تقرب أباه. وقد رافقها بنفسه إلى منزل حاميها سامسونوف (والغريب أنه كما يبدو لم يكن يغار عليها من سامسونوف وهي ناحية نفسانية جديرة بالاهتمام). ثم عاد مسرعاً إلى مكمنه في الحدائق الخلفية حيث علم أن سميردياكوف أصابته نوبة الصرع، وأن الخادم الثاني كان مريضاً، أي أن الجو كان مؤاتياً ثم أنه كان عالماً «بسر الطرقات» أليس في ذلك ما يغريه كثيراً؟ ومع ذلك فقد قاوم نداء الجريمة ومضى إلى السيدة خولاكوف التي تقيم في المدينة منذ زمن مضى، وهي سيدة نكن لها جميعاً أعظم التقدير.

إن تلك السيدة كانت تراقب مراحل حياته بتأثر واهتمام بالغين، وهي الآن قد زودته بأصدق نصيحة، لقد نصحته بأن يتخلى عن حياة الاستهتار وعن غرامه المخزي، وأن يكف عن إهدار قوة شبابه في شهوات باطلة، فينطلق إلى سيبريا حيث مناجم الذهب، وكان قولها له: هناك ستجد متنفساً لقواك الجامحة، وطبعك الرومانسي وولعك بالمغامرة. وبعد أن روى المدعي العام كيف انتهى حديث ميتيا مع السيدة خولاكوف، وأتى على ذكر اللحظة التي علم فيها المتهم فجأة أن غروشينكا لم تمكث في منزل سامسونوف، وصف الحال التي أصبح عليها والاضطراب المفاجيء الذي شعر به الرجل التعيس والغيرة التي شدّت أعصابه حين تصور أنها ربما كانت قد خانته وأنها الآن مع أبيه. فقد مال كيريلوفيتش هنا إلى التشديد على أثر الحظ قائلاً: لو تسنى للخادمة أن تقول له أن سيدتها كانت في موكرو مع عشيقها الأول، لما حدث شيء، ولكن الخوف أفقدها أعصابها، فلم تستطع أن تفعل شيئاً سوى القسم على أنها تجهل مكان وجود سيدتها. أما السبب في أن المتهم لم يقتلها تواً، فهو أنه مضى على جناح السرعة لكي يتعقب فتاته الخائنة.

ولكن لاحظوا هذه النقطة، فإن المتهم رغم اضطرابه العظيم، أخذ معه مدقة نحاسية، فلماذا أخذها هي بالذات، ولم يأخذ معه سلاحاً آخر؟ والجواب عن ذلك هو أنه طالما أمعن التفكير في خطته طيلة شهر كامل، فلم

يتردد في تناول أول شيء يصلح أن يكون سلاحاً. لقد اختمرت في رأسه خلال شهر صورة أي شيء يمكن اتخاذه سلاحاً، وهكذا فقد أدرك عفواً أن المدقة تفي بالغرض. ولذلك فلم يختطفها بغير رشد وإرادة. ثم يصل إلى حديقة والده: الفرصة مؤاتية، فلا شهود، وليس ثمة سوى الظلام، والغيرة. وقد استولى عليه تصور أنها هناك، معه، مع غريمه بين ذراعيه، وربما كانت تسخر منه في تلك اللحظة. ولم تكن المسألة مسألة شك وحسب هذه المرة، فقد باتت الخديعة مكشوفة واضحة أمام ناظريه. إنها هناك حتماً في الغرفة المضاءة، ولا بد أن تكون خلف الستارة. هنا يريد الرجل التعيس أن يقنعنا بأنه استرق الخطو إلى النافذة، ومد بصره خلسة إلى داخلها وتراجع بحكمة وتعقل تجنباً لعمل خطير لا تقره الأخلاق. إنه يحاول أن يقنعنا بذلك ونحن الذين نفهم طباعه، وندرك ما كان يجول في خاطره في تلك اللحظة ونعلم أنه كان مطلعاً على سرّ الطرقات التي يستجيب والده لها ويفتح الباب فيدخل هو إلى الغرفة. وعندما وصل إيبوليت كيريلوفيتش في مرافعته إلى الحديث عن الطرقات تلك، انتقل إلى تفصيل علاقة سميردياكوف بالجريمة فألم بذلك إلماماً سطحياً. كان يريد أن ينزع نهائياً من عقول المحلفين الشك بأن سميردياكوف قد يكون هو القاتل. وقد أدرك الجميع أنه، مع استبعاده ذلك الشك، فإنه يعتقد بضرورة التوقف عنده نظراً لأهميته العظيمة.



تحليل لخصال سميردياكوف

واصل إيبوليت كيريلوفيتش مرافعته مستهلاً حديثه عن سميردياكوف بطرح هذا السؤال: ما سبب قيام هذا الشك؟ وقال: «إن أول من اتهم سميردياكوف هو المتهم نفسه عند إلقاء القبض عليه، ولكنه منذ ذلك الوقت إلى الآن، لم يأت بحقيقة واحدة تثبت تهمته، ولا حتى بظل حقيقة، ولم يؤيد هذه التهمة سوى ثلاثة أشخاص، وهم أخوا المتهم والسيدة سفيتلوف. أما أكبر الأخوين، فقد أعرب عن شكوكه اليوم فقط، وهو بلا شك يعاني حمى في الدماغ. غير أننا نعلم أنه كان طيلة الشهرين الماضيين ظل يشاطرنا القناعة بجناية أخيه، ولم يحاول أن يدحض هذه الفكرة. ولي عودة إلى هذا فيما بعد. وأما الأخ الأصغر، فقد أقر بأنه ليس لديه أي دليل، ولو كان واهياً، يثبت إجرام سميردياكوف، وهو لم يسند استنتاجه إلا إلى ما جاء في أقوال المتهم وما رآه من تعابير على وجهه، بلى، لقد أتى مرتين اليوم على ذكر هذا الدليل الذي يدعو إلى العجب. أما أقوال السيدة سفيتلوف فأدعى إلى الدهشة، إذ تقول: عليكم أن تصدقوا المتهم، فهو، لا يكذب. ذلكم هو كل الدليل الذي جاء به الأشخاص الثلاثة ضد سميردياكوف، وهم الذين يعنيهم مصير المتهم إلى أبعد الحدود. ومع ذلك، أيها السادة، فإن النظرية القائلة بإجرام سميردياكوف تناقلها الناس وما زال البعض يعتقد بصحتها، رغم غرابتها واستحالة تصديقها».

وهنا رأى إيبوليت كيريلوفيتش ضرورة أن يقدم وصفاً لشخصية سميردياكوف الذي «صرم حبل حياته في نوبة من نوبات الجنون». وقد وصفه بأنه رجل قليل الذكاء، سطحي الثقافة، ولكن أفكاراً فلسفية فوق مستوى مداركه ونظريات حديثة معينة تتعلق بالواجب، قد هزت عقله، ولقد اكتسبها

كلها، بصورة عملية، من الحياة المتهورة المستهترة التي عاشها سيده فيودور بافلوفيتش الذي ربما كان والده أيضاً، وبصورة نظرية من أحاديث فلسفية غريبة كانت تدور بينه وبين ابن سيده الأكبر إيفان فيودوروفيتش الذي كان سريع التجاوب مع هذا النوع من أنواع التسلية، ربما بدافع من شعوره بالسأم أو رغبته في التسلية على حساب الخادم. وهنا قال إيبوليت كيريلوفيتش: «لقد تحدث إلي بنفسه عن حالته النفسية خلال الأيام القليلة الأخيرة التي قضاها في منزل أبيه، غير أن هناك آخرين شهدوا على ذلك، وهم المتهم خاصة وأخوه والخادم غريغوري، أي جميع الذين كانوا يعرفونه معرفة وثيقة. وفضلاً عن ذلك، فإن سميردياكوف الذي أضنت صحته نوبات الصرع التي كان يصاب بها، كان جباناً رعديداً. وقد قال لنا المتهم نفسه في وقت لم يكن يدرك فيه مدى الأذى الذي يلحقه قوله به: لقد كان ينطرح على قدمي ويقبلهما. وقال يصفه بأسلوبه الغريب: «إنه فرخ مصروع»، ومع ذلك، فإن المتهم اختاره ليكون كاتماً لأسراره (ثمة اعتراف منه بذلك) وأرهبه حتى جعله في نهاية الأمر يقوم بدور الجاسوس له. وبهذه الصفة خان سيده، وباح للمتهم بسرّ الظرف المودع فيه المال، وكذلك بسرّ الطرقات التي تؤمن دخوله إلى المنزل. فهل كان بوسعه ألا يطلعه على كل ذلك؟ لقد قال الخادم عند استجوابه، أنه كان قميناً بأن يقتلني، وقد كان بوسعي إدراك ذلك من النظر إليه. قال ذلك خائفاً مرتعشاً في حضورنا، مع أن معذبه كان قد قبض عليه وأصبح مستحيلاً عليه الاقتصاص منه. وقال: «لقد كان يشك في كل قول أو عمل لي، ولذلك فقد كنت حين يخيفني ويرهبني أسارع إلى إعلامه بجميع الأسرار طمعاً في تهدئة حاله، وإثبات صدقي وبراءتي، فيتركني في قيد الحياة». لقد كانت تلك هي كلماته بذاتها، وقد دونتها وما زلت أذكرها: «عندما كان يأخذ في الصراخ علي، كنت أخر على ركبتيّ أمامه».

لقد كان الخادم بطبيعته أميناً مسرفاً في الأمانة، وقد حظي بثقة سيده، منذ أن رد إليه نقوداً أضاعها. ولذلك فمن الممكن الظن بأن الرجل المسكين أخذ يعاني من تبكيت الضمير لأنه خان سيده، الذي أحبه وجعله في مقام المحسن إليه. وبشهادة أمهر أطباء الأمراض العقلية، فإن الأشخاص المصابين

بداء الصرع ميالون دائماً إلى محاسبة أنفسهم. وهم دوماً كالقوة لكونهم «مذنبين» يعذبهم الندم أيما عذاب، بلا مبرر في أغلب الأحيان. وهم يهولون، وفي معظم الأحيان يختلقون أخطاء وجرائم لا وجود لها سوى في أوهامهم. وها نحن نرى إنساناً من هذه الفئة تم إكراهه بالتخويف والإرهاب على الخطأ أو الجناية.

إضافة إلى ذلك، فإن سميردياكوف كان يتكهن بحدوث شيء مخيف كنتيجة للمواقف التي يعايش تطوراتها في منزل سيده. وعندما كان إيفان فيودوروفيتش على وشك السفر إلى موسكو قبيل وقوع الكارثة توسل إليه سميردياكوف أن يبقى، ولم يكن ليجرؤ بحكم طبيعته، أن يطلعه بصراحة على مخاوفه، مكتفياً بالتلميح دون التصريح، ولكن إيفان لم يفهم قصده.

ويجب أن نلاحظ أنه كان يرى في إيفان فيودوروفيتش حامياً، ويجد في بقائه في البيت ضمانة بعدم حدوث الشر. تذكروا تلك العبارة التي ضمّنها ديمتري كرامازوف رسالته التي كتبها وهو ثمل: «سأقتل الرجل العجوز، إذا غادر إيفان»، وهكذا فإن الجميع كانوا يعتقدون بأن وجود إيفان فيودوروفيتش ضمانة للسلام والأمن في المنزل. لكنه غادر، وبعد ساعة على مغادرته أصيب سميردياكوف بنوبة الصرع. وهذا شيء معقول. ويجب عليّ أن أشير هنا إلى أن سميردياكوف الذي شله الفزع وأضناه نوع من القنوط، كان يشعر خلال الأيام القليلة السالفة بأنه أصبح على وشك أن تصيبه إحدى نوبات الصرع التي تنتابه عادة في لحظات الكبت والانفعال النفسي. وليس ممكناً طبعاً التكهن باليوم أو الساعة التي يمكن أن تحدث فيها النوبة، غير أن المصابين بالصرع يمكنهم الشعور مقدماً باقترابها وذلك ما يقوله الأطباء.

وعلى هذا، فما كاد إيفان فيودوروفيتش ينطلق بعربته من ساحة الدار، حتى ذهب سميردياكوف إلى السرداب وهو يكابد الشعور بالعزلة والوحدة وعدم وجود من يذب عنه. وهبط الدرجات، وهو يفكر فيما إذا كان سيصاب بنوبة أم لا، وفيما سيصير عليه إذا أصيب الآن. وقد سبّب له هذا التفكير وذلك الشعور رجفة في حلقه وهي التي تسبق عادة تلك النوبات، فخر مغشياً عليه في السرداب. إنه حادث طبيعي ولكن الناس أرادوا أن يجدوا أثراً من آثار

الشك، وإشارة عابرة تدل على أنه كان يتصنع المرض لغاية في نفسه. ولكن إذا صحت هذه الشكوك والشبهات فإن سؤالاً يفرض نفسه: ما هو دافعه للتظاهر بذلك؟ وما هو هدفه منه؟ وما هو الحساب الذي كان يحسبه؟ لن أقول شيئاً عن علم الطب، فقد قيل لي أن العلم قد يخطىء، والأطباء لم يستطيعوا أن يميزوا بين الصادق والمصطنع من الحالات المرضية. وهذا قد يكون صحيحاً، ولكنني أطلب الإجابة عن سؤال واحد: ماذا كان الباعث له على الخداع؟ هل يمكن، إذا كان حقاً هو مدبر الجريمة، أن يكون قد رغب في لفت انتباه أهل المنزل إليه، بإصابته بنوبة المرض قبيل وقوع الجريمة؟.

أيها السادة المحلفون، لقد كان في منزل فيودوربافلوفيتش ليلة وقوع الجريمة خمسة أشخاص هم: فيودور بافلوفيتش (وواضح أنه ليس قاتل نفسه)، ثم خادمه غريغوري، لكن هذا كاد يقتل هو الآخر؛ والشخص الثالث هو مارفا إيغناتييفنا زوجة غريغوري، ومن السخف أن نتصور أنها قاتلة سيدها. ويبقى بعد ذلك إثنان هما المتهم وسميردياكوف. فإذا صدق المتهم بادعائه البراءة، فلا بد أن يكون القاتل هو سميردياكوف، إذ ليس ثمة احتمال آخر، ولا يمكن أن يكون القاتل شخصاً سواه. إن هذا الاستنتاج هو نتيجة حتمية للتهمة المدهشة الموجهة إلى ذلك الأبله التعيس الذي انتحر يوم أمس. لقد ألصقوا به التهمة لأنه ليس من إنسان آخر يمكن الشك به، ولو وجدوا إنساناً سادساً يمكن أن يشتبه به، فإنني مقتنع بأن المتهم نفسه سيخجل من اتهام سميردياكوف، بل سيوجه التهمة إلى ذلك الإنسان السادس، لأن توجيه التهمة إلى سميردياكوف باقتراف جريمة القتل هو شيء سخيف للغاية.

أيها السادة، لنصرف النظر عن علم النفس، ولنترك جانباً علم الطب، ودعونا حتى من المنطق، ولننصرف إلى الحقائق وحدها، ولنترك للوقائع أن تتكلم. إذا كان سميردياكوف هو القاتل، فكيف اقترف جريمته؟ وهل قتل بمفرده، أم بمساعدة إنسان آخر؟ لننظر إلى الافتراض الأول، أي أنه اقترف جريمة القتل وحيداً. إذا كان قد قتله فعلاً، فإنه حتماً يتوخى هدفاً ما، ونفعاً يجنيه. فسميردياكوف لا يمكن أن يقتل طمعاً في النفع، نظراً لأنه لا دوافع لديه لارتكاب جريمة القتل، كالكراهية والغيرة وغيرها اللهم إلا الحصول على الثلاثة

آلاف روبل التي رأى سيده يضعها في الغلاف. ومع ذلك فهل يبلغ شخصاً آخر ـ شخصاً يهتم أشد الاهتمام بالأمر، ألا وهو المتهم ـ كل التفاصيل المتعلقة بالمال، وبسرّ الطرقات، والمكان الذي خبيء فيه الظرف، والكتابة عليه وكيفية ربطه، وأهم من كل هذه جميعاً، سرّ الطرقات التي تخوله الدخول إلى المنزل. فهل فعل هذا لكي يفضح نفسه، أو لكي يغري بالأمر إنساناً يريد الاستيلاء على الظرف؟ قد يقال لي: «بلى، لقد فضح نفسه بدافع من الخوف». ولكن كيف نفسر هذا؟ هل يمكن لرجل يفكر بالإقدام على مثل هذا العمل الجريء الوحشي، وينفذه، أن يسرد حقائق لا يعلمها أي إنسان آخر في الدنيا، حقائق لو حبس لسانه عنها، لما خطرت ببال إنسان!.

كلا، إنه مهما بلغ به الجبن، فإنه لن يبوح أبداً، بعد تخطيطه لارتكاب هذه الجريمة لأي إنسان بأمر الغلاف، وبأمر الطرقات لأن هذا معناه كشف نواياه سلفاً. لقد كان بوسعه أن يختلق شيئاً، وأن يكذب عليه إذا هو أرغم على البوح له بشيء ما، أما أن يكشف له عن تلك التفاصيل، فلا! وإنه من جهة ثانية لو لم يذكر شيئاً عن المال، ثم قتل وأخذ الظرف لما استطاع أحد اتهامه بالقتل من أجل الحصول على المال، ذلك أن أحداً لم يكن قد رأى المال أو هو يعلم بوجوده في المنزل. وهو لو اتهم باقتراف جريمة القتل، فلا بد من البحث عن دافع آخر حمله على ارتكابها. ولكن هذا الدافع لم يكن وارداً أو مفترضاً عند أحد، بل على نقيض ذلك، كان الجميع يعلمون مقدار غرام سيده به وتشريفه إياه بثقته، فلا بد أن يكون بطبيعة الحال آخر من يمكن أن يشتبه بأمره. فالناس سيشتبهون أولاً بالرجل المدفوع للجريمة بدافع ما؛ بالرجل الذي جاهر به أينما كان وأمام الجميع، وهم في الحقيقة لا بد أن يشتبهوا بابن القتيل ديمتري فيودوروفيتش. ولو أن سميردياكوف قد قتله وسرقه، ثم وجهت التهمة إلى الابن لكان هذا بطبيعة الحال في مصلحة سميردياكوف، ومع ذلك فهل لنا أن نصدق بأنه قد باح لهذا الابن ديمتري بأمر المال والظرف وسرّ الطرقات في وقت كان عقد العزم على ارتكاب الجريمة؟ أمن المنطق السليم هذا؟.

وعندما جاء يوم ارتكاب الجريمة التي خطط لها سميردياكوف، وقع

على درجات السلم متصنعاً نوبة الصرع فلأية غاية؟ لكي يوحي لغريغوري الذي كان يعتزم تناول دوائه، بأن يؤجل القيام بذلك، ويظل ساهراً على حراسة سيده بعد أن يتبيّن له أنه ما من إنسان يحرس المنزل. هذا أولاً، أما ثانياً فإنه حسب ظني، تظاهر بالنوبة لكي يوحي لسيده بمضاعفة تيقظه وحيطته، إذ يدرك بأنه لم يبق من يحميه، وهو الذي كان يشعر بالرعب من زيارة إبنه له. وفوق هذا أرى أن السبب في ذلك هو أنه بعد تصنعه النوبة سينقل من المطبخ حيث كان ينام منفرداً عن الجميع، حيث كان قادراً على الخروج منه دون أن يراه أحد، إلى غرفة غريغوري القائمة عند الطرف الآخر من مسكن الخدم، حيث كان يوضع دائماً وراء ستار رقيق على مسافة من غريغوري وزوجته. لا تتعدى الثلاث خطوات. ذلك ما كان يتم عادة بأمر من سيده ومارفا إيغناتييفنا السيدة الرحيمة القلب، كلما انتابته نوبة من نوبات الصرع. وفي استطاعته وهو خلف الستارة أن يمضي في التمثيل فيظل يتأوه وذلك يقيهما مستيقظين طوال الليل (وهذا ما أفاد به غريغوري وزوجته). فهل يكون كل ذلك وسيلة له للنهوض واغتيال سيده!

ولكن ثمة من يقول أنه تظاهر بالمرض دفعاً للشبهات عنه، وأنه أنبأ المتهم بأمر المال وهداه إلى سرّ الطرقات لكي يغريه باقتراف جريمة القتل. حتى إذا ما فرغ من قتل أبيه ومضى بالمال مثيراً خلفه الجلبة، على الأرجح، وموقظاً أهل المنزل، نهض سميردياكوف، ودخل الغرفة، فلماذا؟ هل لكي يقتل سيده مرة ثانية ويأخذ المال الذي ذهب به المتهم؟ أيها السادة هل تضحكون؟ إنني أشعر بالخجل إذ أصارحكم بهذا النوع من الافتراض. ولكن مع ما في هذا الظن من مجافاة للعقل والمنطق، فإنه ما يزعمه المتهم. فهو يقول لنا إنه بعد مغادرته المنزل، وطرحه غريغوري أرضاً، وإثارته الضجة، نهض سميردياكوف وقتل سيده وسرق ماله. ولا حاجة بي إلى القول إن سميردياكوف ما كان ليعتد بهذا سلفاً، وما كان يتوقع أن يأتي الابن المضطرب العنيف لا لشيء سوى إلقاء نظرة احترام من النافذة. وهو العالم بسرّ الطرقات، ثم يتراجع تاركاً الغنيمة سهلة لسميردياكوف. أيها السادة المحلفون إنني أسألكم هذا السؤال مخلصاً: في أية لحظة اقترف

سميردياكوف الجريمة؟ حددوا تلك اللحظة وإلا فإنه لن يكون اتهامكم له ممكناً.

ولعل من يقول أن النوبة كانت صادقة، ثم صحا المريض فجأة وسمع صراخاً فخرج يستطلع الخبر. ثم ماذا؟ ثم تلفت حوله وقال: لماذا لا أذهب وأقتل سيدي؟ ولكن كيف يتسنى له أن يحزر ماذا جرى وهو الذي كان حتى تلك اللحظة فاقد الوعي؟ إن هنالك حدوداً لكل هذه الأوهام.

وقد يحاجني بعض النبهاء فيقولون: ربما كان الأمر كما قلت، ولكن ماذا لوكانا متفقين على القتل واقتسام المال؟ وهو سؤال له وزنه حقاً، كما أن الحقائق التي تؤيد مضمونه، هي حقائق مدهشة. إن أحدهما يقتل ويضطلع بالعبء وحده بينما يكون شريكه مضطجعاً على أحد جنبيه وهو يتظاهر بنوبة الصرع بهدف إثارة الشكوك في نفوس الجميع ويزيد الخوف في نفس سيده وفي نفس غريغوري. إن معرفة الدوافع التي حملت الشريكين على وضع هذه الخطة الحمقاء لأمر شيق.

ولكن ربما لم يكن دور سميردياكوف في هذه الخطة فعالاً، بل كان دوراً سلبياً فيغض الطرف وحسب. وربما وافق سميردياكوف على عدم الحيلولة دون اقتراف الجريمة بسبب التخويف والإرهاب، ثم فطن إلى أنه سيتهم بتسهيل قتل سيده لعدم تنبيهه ومقاومته، فاستأذن ديمتري كرامازوف أن لا يتدخل ويتصنع النوبة قائلاً له: «بوسعك أن تقتله كما يحلو لك؛ فهذا لا يعنيني في شيء». ولكن ما كان ديمتري كرامازوف ليقبل مثل هذه الخطة، لأن النوبة من شأنها إشاعة الاضطراب في المنزل. سأتجاوز هذه النقطة على كل حال، وسأفترض أن ديمتري رضي بذلك، وهذا يعني أن ديمتري كرامازوف سيبقى هو القاتل والمحرض. أما سميردياكوف فلن يكون إلا شريكاً سلبياً، بل أقل من هذا لأن سكوته إنما كان بدافع من الخوف.

ولكن ماذا رأينا؟ لقد ألقى المتهم فور اعتقاله الجريمة كلها على سميردياكوف ولم يتهمه بالتواطؤ معه، بل اتهمه بأنه هو القاتل. لقد قال: هو القاتل وحده، لقد قتله وسرقه. هو مرتكب الجريمة. فيا لغرابة هذين الشريكين فهما أخذا حالاً في اتهام بعضهما بعضاً! أنظروا إلى الخطر الذي يسببه هذا

التصرف إلى كرامازوف. إنه بعد اقترافه الجريمة، وشريكه مطروح على فراشه، يلقي اللوم على عاتق ذلك الرجل المريض، الذي ربما شارك مكرهاً وبمساهمة تافهة، وربما باح فوراً بالحقيقة. فهو لا بد مدرك أن المحكمة ستقرر ضآلة مسؤوليته، وأنه إذا عوقب، فسيكون عقابه أخف بكثير من عقاب القاتل الحقيقي. وفي هذه الحالة كان عليه أن يعترف، ولكنه لم يفعل ولم يشر سميردياكوف قط إلى تواطئهما، رغم أن القاتل الحقيقي قطع صراحة بأنه مرتكب الجريمة، وأعلن أنه وحده هو الجاني.

وأكثر من هذا، فإن سميردياكوف قال طائعاً عند استجوابه إنه هو الذي أطلع المتهم على المعلومات المتعلقة بالظرف المحتوي على المال وسرّ الطرقات، وأنه لولاه لما كان علم بأي شيء منها. فلو كان حقاً شريكاً للمجرم في جريمته، فهل كان يدلي لقاضي التحقيق بكل هذه المعلومات؟ كلا، إن الأمر على نقيض ذلك، فلو كان شريكاً لحاول أن يخفي هذه الحقائق وأن يشوهها لكي يخففها. ولكنه كان أبعد الناس عن تشويه الحقائق وتخفيفها. وليس غير البريء الذي لا يخشى أن يتهم بالتواطؤ على الجريمة، يستطيع أن يفعل كما فعل هو. وبالأمس، شنق نفسه إذ انتابته حالة من السويداء بسبب علته ومصيبته. لقد ترك مذكرة خطها بلغته الغريبة وقال فيها: لقد قتلت نفسي بإرادتي وهواي فلا تتهموا أحداً. فماذا كان يمنعه أن يضيف إلى ذلك قوله: إنني أنا القاتل لا كرامازوف؟ غير أنه لم يضف هذه العبارة فهل أوحى له ضميره بأن ينتحر ولم يوح له بالاعتراف بذنبه؟.

ثمة أمر آخر، لقد أحضر إلى المحكمة قبل قليل مبلغ الثلاثة آلاف روبل، على زعم بأنها النقود ذاتها التي كانت في داخل الظرف الموجود الآن على المنضدة، وأن الشاهد يدعي أنه أخذها أمس من سميردياكوف، وأنا لن أذكر تفاصيل ذلك المشهد المؤلم، فيكفيني أن ألاحظ بعض الأمور التافهة التي قد لا تبدو جلية في عيون الجميع، فيهملونها. من ذلك أولاً أن سميردياكوف قد رد المال وشنق نفسه بالأمس بسبب تبكيت الضمير، وأنه لم يعترف بجريمته، لإيفان كرامازوف إلا بالأمس، كما ورد في إفادة إيفان. ولو صحّ اعتراف سميردياكوف بجريمته، فلماذا ظلّ إيفان فيودوروفيتش صامتاً حتى

الآن؟ ثم إنني أتساءل ثانية، لماذا لم يبح بالحقيقة كلها في الرسالة الأخيرة التي كتبها. وهو عالم بأن آخر بريئاً سيواجه حكماً رهيباً في اليوم التالي؟.

إن المال وحده ليس دليلاً. فمنذ أسبوع وبطريق الصدفة وحدها، علمت واثنين آخرين في المحكمة، أن إيفان كرامازوف أرسل إلى كبرى مدن المقاطعة سندين بقيمة عشرة آلاف روبل لصرفهما. وأنا أذكر هذا الأمر إنما لأثبت أن أي إنسان قد يكون في حيازته مال، وأنه لا يمكن إثبات أن هذه الأوراق النقدية هي نفس الأوراق التي كانت موضوعة في ظرف فيودور بافلوفيتش.

إن إيفان فيودوروفيتش، بعد حصوله على معلومات خطيرة كهذه من القاتل الحقيقي، لم يحرك ساكناً. فلماذا لم يبلغ عنها فوراً؟ ولماذا أرجأ ذلك إلى الصباح؟ أظن أن من حقي أن أسأل هذا السؤال. لقد كانت صحته آخذة في التداعي منذ أسبوع: ولقد اعترف لطبيبه ولأصدقائه المقربين بأنه كان يتصور تصورات ويرى أشباحاً للموتى. كان ذلك في عشية إصابته بحمى الدماغ التي اصابته قبل قليل. وفي حالته هذه سمع فجأة بوفاة سميردياكوف فإذا به يهتدي إلى هذه الفكرة. إن الرجل قد مات، وبوسعي أن أتهمه وأنقذ أخي. ولدي مال، وسآخذ رزمة الأوراق النقدية وأقول أن سميردياكوف قد أعطاني إياها قبل وفاته. ستقولون إن هذا العمل مناف للشرف. إن من الأمور المنافية للشرف قذف الموتى بالتهم، حتى ولو كان ذلك في سبيل إنقاذ أخ. إن هذا صحيح، ولكن ماذا يحدث لو أنه ذمه بدون وعي فهو عندما سمع فجأة بنبأ وفاة الخادم، خيل إليه أنه كان القاتل حقاً؟ لقد اطلعتم على المشهد الأخير، ورأيتم حالة الشاهد. لقد كان واقفاً أمامنا يتكلم ولكن أين كان عقله؟.

ثم جاءت الوثيقة، الرسالة التي كتبها المتهم قبل وقوع الجريمة بيومين وقد ضمّنها برنامج الجريمة كاملاً، فلماذا إذاً، نقوم بالبحث عن برنامج آخر؟ لقد نفذت الجريمة كما وصفت في الرسالة تماماً، ولم يكن منفذها إنسان سوى كاتبها. نعم، أيها السادة المحلفون، لقد نفذت بحذافيرها، والمتهم لم يبتعد عن نافذة أبيه بحياء واحترام، وهو المقتنع تماماً بأن حبيبته كانت معه.

كلا، إن هذا قول سخيف غير محتمل. والواقع أنه دخل إلى الغرفة واغتاله. وأغلب الظن أنه قتل غريمه البغيض في لحظة من لحظات الغضب، وقلبه يتأجج بنيران الكراهية بمجرد أن رأى وجهه. وربما قتله بضربة واحدة بالمدقة النحاسية، ثم أدرك أنها ليست هناك، بعد أن بحث عنها في الغرفة. ولم ينس أن يمد يده تحت الوسادة ويخرج الظرف، الذي نراه أمامنا على المنضدة.

إنني أذكر هذه الواقعة، لألفت انتباهكم إلى أمر أعتقد بأنه أمر ذو طابع خاص. فلو كان قاتلاً متمرساً، ولو أنه اقترف جريمة القتل بدافع السرقة وحدها، هل يمكن أن يكون قد ترك الظرف على أرض الغرفة كما عثر عليه قرب الجثة؟ ولو فرضنا أن سميردياكوف مثلاً هو القاتل سيده طمعاً بنقوده، أفلا يكتفي بحمل الظرف معه دون أن يجشم نفسه عناء فتحه فوق جثة ضحيته، وهو الموقن بأن النقود موجودة في الظرف فلقد وضعها سيده فيه وختمه بحضوره، ولو أنه أخذ الظرف لما عرف أي إنسان بحدوث السرقة. إنني أسألكم أيها السادة المحلفون هل كان من الممكن أن يتصرف سميردياكوف مثل هذا التصرف؟ هل كان يعقل أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة؟.

كلا، إن هذا التصرف هو تصرف قاتل خائف مشوش الفكر، قاتل لم يكن يقصد السرقة ولا هو سرق في حياته شيئاً من قبل ذلك اليوم، قاتل اختطف النقود من تحت الوسادة لا كاللص السارق، بل كمن يسترد حقاً كان سلب منه. وقد كانت تلك هي الفكرة التي استحوذت على لب ديمتري كرامازوف وصارت هوساً ملازماً له. لذلك، فإنه بعد أن اختطف الظرف الذي لم يسبق أن رآه أبداً، مزقه لكي يستوثق من وجود النقود فيه فوضعها في جيبه ولاذ بالفرار وقد فاته أنه خلف وراءه حجة دامغة ضده وهي الظرف الممزق الملقى على الأرض. إن ذلك كله كان من صنع كرامازوف لا سميردياكوف، وهو لم يفكر ولم يتأمل، وكيف يتسنى له التفكير والتأمل؟ لقد فر وسمع الخادم العجوز يصرخ، وقد لحق به حتى أمسك به، وأوقفه فإذا به ينطرح أرضاً بضربة من المدقة النحاسية.

وقد قفز المتهم عن الجدار ليعنى به من قبيل الرأفة كما يدعي. فهل

تصدقون هذا القول؟ لقد قال لنا أنه قفز عن الجدار بدافع الرأفة والعطف لكي يرى ما إذا كان بوسعه أن يسعفه. فهل كانت حقاً لحظة مواتية لإظهار العواطف؟ كلا، لقد قفز عن الجدار لكي يتأكد مما إذا كان الشاهد الوحيد على جريمته قد مات أم لا يزال حياً. وكل شعور آخر خلا هذا الشعور، وكل دافع غير هذا الدافع في مثل هذه الحالة، أمر لا يقبله العقل. لاحظوا أنه كان قلقاً لحال غريغوري ومسح رأسه بمنديله، وبعد أن اقنع نفسه بأنه ميت عدا راكضاً ملطخاً بالدم إلى منزل حبيبته. فكيف غاب عن باله أنه كان ملطخاً بالدم وأن بالإمكان ملاحظة أمره واكتشافه؟ لكن المتهم يؤكد لنا بذاته أنه لم يلاحظ تلطخه بالدم. إن هذا أمر جائز تماماً، وهو ما يحدث دائماً للمجرمين في مثل تلك اللحظات. فهم في بعض الأمور يبدون مكراً شيطانياً، بينما تغيب عنهم أمور أخرى فلا يفطنون إليها أبداً. إلا أن الشيء الوحيد الذي كان يشغل تفكيره في تلك الآونة هو: أين هي؟ لقد كان يريد أن يعرف تواً أين هي؟ لقد كان يريد أن يعرف تواً أين كانت. ولذلك فقد هرع إلى منزلها وهناك دهش دهشة قوية إذ علم بنبأ لم يكن يتوقعه. لقد سافرت إلى موكرو لمقابلة أول حبها.





المركبة الجامحة

خاتمة مرافعة المدعي العام

كان إيبوليت كيريلوفيتش قد اختار أسلوب العرض التاريخي، المفضل لدى جميع الخطباء السريعي الاحتداد والهياج، على أمل أن يجدوا في حدوده حاجزاً يحد من اندفاعهم في الكلام بدافع من بلاغتهم، وفي هذا الموضع من مرافعته أفاض في تحليل «عاشق غروشينكا الأول» فأورد في هذا الموضوع عدة أفكار هامة وشائعة.

قال: إن كرامازوف، الذي كان يغار غيرة جنونية من جميع الناس، قد ألغى نفسه، إذا صحّ القول أمام هذا العاشق الأول. ومما يزيد الأمر غرابة أنه كما يبدو، لم يفكر في أمر هذا المنافس الذي يرهب جانبه. ولكنه كان ينظر إليه كخطر بعيد لا حقيقة له. ولكن فؤاده المحطم أدرك لتوه، أن المرأة إنما كتمت عنه أمر هذا المنافس الجديد وخدعته، نظراً لمكانته الحقيقية في حياتها فهو أملها الوحيد ومحط كل عواطفها. فلما أدرك هذه الحقيقة قرر الاستسلام.

أيها السادة المحلفون، ليس في وسعي أن أغفل شرح هذه الخلة المفاجئة من خلال المتهم. إنه يبدي على حين غرة رغبة لا تقاوم في العدالة والحق، واحتراماً للمرأة واعترافاً بحقها في أن تحب. وكل هذا باللحظة ذاتها التي لطخ فيها يديه بدم والده من أجلها وفي سبيلها! ولا ريب في أن ذلك الدم كان يصرخ طالباً الانتقام، لأنه بعد أن قضى على روحه ودمر حياته في هذه الدنيا، وجد نفسه يتساءل في اللحظة ذاتها: ماذا أكون أنا الآن وماذا يمكن أن أكون بالنسبة لها، هذه المخلوقة، التي أحببتها أكثر من أي شيء آخر

حتى نفسي، مقارنة بذلك العاشق السابق الذي عاد نادماً، يحمل حباً جديداً إلى المرأة التي خانها ذات مرة، ويحمل لها وعوداً وآمالاً عريضة بحياة شريفة سعيدة. نعم، ماذا يمكنه؛ وهو الرجل البائس المنكود الحظ أن يعطيها الآن؟ ما الذي يمكنه أن يقدمه لها؟.

لقد شعر كرامازوف بكل هذا، وعرف أن جريمته قد منعت عليه جميع مسالك الحياة، وأنه صار مجرماً ينتظر صدور الحكم عليه. فلم يعد واحداً من أحياء هذا العالم. لقد هدته هذه الفكرة هداً. ولذلك فهو يلجأ لتوه إلى خطة جنونية لا بد وأنها بدت لرجل في مثل صفات كرامازوف، أنها السبيل الأوحد لتجاوز الطريق المسدود. ولم يكن ذلك المخرج سوى الانتحار. فعدا يلتمس المسدسين اللذين رهنهما عند صديقه بيرخوتين، وبينما كان يعدو في الشارع سحب من جيبه المال الذي لطخ من أجله يديه بدم والده. إن حاجته الآن للمال ماسة أكثر مما هي في أي وقت مضى. إن كرامازوف سيموت، إنه سيطلق الرصاص على نفسه ويجب أن تظل ذكرى انتحاره حية! ولا ريب في أنه كان شاعراً وعاش عيشة الاستهتار طوال حياته، فحدث نفسه: إليها، إليها! وهناك، هناك سأولم وليمة للعالم بأسره، وليمة لم يسبق لها مثيل، وسيظل موضع ذكرى وحديث الناس أمداً طويلاً من الزمن! وفي وسط صراخ المرح الصاخب، وأغاني الغجر ورقصاتهم المبتذلة، سأرفع الكأس وأشرب نخب المرأة التي أعبدها، ونخب سعادتها التي ستظفر بها. وبعد ذلك، وتحت قدميها، سألهب دماغي بالنار أمامها عقاباً مني لنفسي! هكذا ستذكر ميتيا كرامازوف في بعض الأحيان، وسترى مدى حب ميتيا لها، وستعطف على ميتيا وترثي لحاله.

هنا يتبدى أمامنا حب متزايد للظهور، ويأس وعاطفة خياليان، والتهور العظيم الذي هو صفات أبناء كرامازوف. أجل وثمة شيء آخر، أيها السادة المحلفون، شيء يهتف من أعماق النفس، ويضغط على العقل، ويسمم القلب إلى درجة الموت. إنه الضمير أيها السادة المحلفون. إنه حكم الضمير، وآلامه الرهيبة! إن المسدس يضع حداً لكل شيء، المسدس هو المخرج الوحيد! أما الذي سيلي ذلك، فلست أدري هل تساءل عنه كرامازوف في تلك الآونة،

ولست أدري هل كان كرامازوف قادراً، مثل هملت، على هذا التساؤل! كلا أيها السادة المحلفون، إن هملت ليس عندنا مثله فلدينا كرامازوف وأمثاله.

وهنا رسم إيبوليت كيريلوفيتش صورة دقيقة لاستعدادات ميتيا فوصف ما أحدثه في منزل بيرخوتين، وفي الحانوت، ثم مناقشاته مع الحوذيين، واقتبس عدداً من كلماته، وتصرفاته، التي أثبتها الشهود، فكان للصورة التي رسمها أثر رهيب في نفوس الحاضرين. وبدا واضحاً للجميع أن هذا الرجل الذي استبد به اليأس واستحوذ عليه القلق، هو القاتل، بعد أن تكاملت الحقائق وربطت يعضها بعضاً.

وتابع المدعي العام فقال: فما حاجة المتهم بعد ذلك إلى الحيطة والحذر؟ إنه كاد أن يعترف بالأمر مرتين أو ثلاث مرات، وقد ألمح إليه، ولكنه لم يتوصل إلى حد الإقرار الصريح. (وهنا سرد أقوال الشهود). بل إنه صاح بالحوذي الفلاح الذي نقله إلى موكرو: هل تدري، إنك تحمل قاتلاً! إنه لم يكن في وسعه أن يعترف اعترافاً صريحاً، فالمهم أولاً أن يصل إلى موكرو، ليكمل قصيدته الخيالية. ولكن ماذا كان ينتظر الرجل السيء الطالع هناك؟ إنه ما كاد يصل إلى موكرو حتى تبين له أن منافسه الذي لا يقهر أو الذي اعتقده كذلك، ليس في حال من الأحوال رجلاً لا يقهر، وأن السعادة التي يتوقع أن يبارك بها لحبيبته، باتت بعيدة المنال. إنكم يا حضرات المحلفين، تعرفون الحقائق التي أثبتها التحقيق الأولي. لقد ظفر كرامازوف على منافسه ظفراً تاماً، فانتقلت روحه إلى طور جديد، إلى مرحلة هي أقسى المراحل التي شهدها أو التي سيشهدها.

وتابع المدعي العام مرافعته قائلاً: يمكننا القول بثقة وتأكيد أن الطبيعة الثائرة والقلب المجرم ينزلان بنفسيهما عقاباً أشد من ذلك الذي تقرره العدالة الأرضية. وأكثر من هذا، إن العدالة والعقاب على الأرض يخففان ولا ريب عقاب الطبيعة، وهما في الحقيقة ضروريان لروح المجرم في مثل هذه الأحوال، لأنهما سبيل خلاصها من وهدة اليأس. فأنا لا أستطيع أن أتخيل مدى معاناة كرامازوف من الرعب والعذاب الروحي عندما علم أنها أحبته وأنها من أجله إنما تخلت عن محبها الأول داعية إياه لكي يبدأ حياة جديدة،

وواعدة لسعادتهما. إن كل ذلك يحدث في اللحظة التي انتهى فيها كل شيء بالنسبة له ولم يعد بإمكانه أن يفعل شيئاً!.

وفي هذا السياق، أود أن أذكر ملاحظة جانبية ولكنها على جانب كبير من الأهمية، هامة جداً في توضيح موقف المتهم في تلك اللحظة. فهذه المرأة، عشيقته، كانت حتى اللحظة الأخيرة، حين اعتقل، مخلوقة ممتنعة عليه، يشتهيها بكل جارحة من جوارحه ولكنها ممتنعة عليه. فلماذا لم ينتحر عندئذ؟ ولماذا عدل عن خطته بل ونسي المكان الذي وضع مسدسه فيه؟ والجواب أن الذي صده عن ذلك لم يكن سوى شهوته الجامحة للحب، وأمله في إشباع هذه الشهوة. فقد ظل طوال مرحهم وصخبهم في تلك الليلة ملازماً عشيقته ومعبودته، التي كانت تشاركه الوليمة، وكانت تبدو له أعظم فتنة وسحراً منها في أي وقت سابق. إنه ظلّ إلى جانبها لا يفارقها، وأذل نفسه بما أبداه من ضروب الخضوع لها.

وهكذا فإن عاطفته تستطيع أن تبدد لا الخوف من الاعتقال فحسب، بل وعذاب الضمير أيضاً. ولكنها لا تستطيع ذلك طبعاً إلا لفترة قصيرة لا تعدو لحظة من الزمن. وبوسعي أن أتصور حالة المجرم العقلية وقد استبدت به مؤثرات استعبدته استعباداً يدعو إلى الرثاء، وهي: أولاً: أثر الخمر، وضجيج الوليمة وصخب الرقص والغناء، وأثر المرأة ذاتها التي لعبت الخمر برأسها فتوردت وجنتاها، وقامت ترقص أمامه وتغني وتضحك له!.

ثانياً: الأمل الذي راوده في أن النهاية المفجعة قد تكون بعيدة، أو غير وشيكة على الأقل، وأنهم لن يحضروا لإلقاء القبض عليه قبل الصباح على أقل تقدير. وهكذا فقد كانت أمامه بضع ساعات، وهي في نظره مدة طويلة.

ثالثاً: إن بضع ساعات تكفي المرء لأن يفكر في أمور كثيرة. ويخيل إلي أنه شعر بمثل ما يشعر به المجرم وهو يقاد إلى المشنقة. فهو يبقى يعلل نفسه ببعد المسافة إلى ساحة الإعدام، فما يزال شارع آخر طويل جداً، يجتازه على مهل، أمام ألوف الناس. فما أن ينتهي هذا الشارع حتى تلج العربة شارعاً آخر، وساحة الإعدام في نهايته. ويخيل إلي أن الرجل المحكوم عليه بالإعدام، يشعر في بداية هذه الرحلة الرهيبة، وهو جالس على العربة المخزية، بأنه ما

زالت أمامه حياة غير محدودة فالعربة تسير، والبيوت من حوله تتراجع، ويبقى الأمر غير مهم، فما زالت أمامه مسافة طويلة قبل أن يبلغ المنعطف إلى الشارع الثاني، وهو لذلك ينظر إلى يمينه ويساره بتفرس وجرأة في ألوف الناس الفضوليين المتحجري القلوب الذي يثبتون أنظارهم فيه، ويخيل إليه أنه لا يزال حياً ينتمي إلى عالمهم. وها هي العربة تبلغ منعطف الشارع التالي. وهذا لا يهمه أيضاً، فلا يزال أمامه شارع بأكمله، ومهما كان عدد المنازل التي مر بها كبيراً، فهو يعتقد بأنه ما زال أمامه كثير غيرها. وهكذا تستمر حالته حتى النهاية، إلى أن يصل المشنقة.

يبدو لي أن أفكاراً كهذه قد راودت نفس كرامازوف في تلك الآونة. وليس بعيداً أنه خاطب نفسه قائلاً: لم يتسع الوقت أمامهم بعد، وما زال في وسعي العثور على مخرج، أجل، ما زال الوقت متسعاً لوضع خطة للدفاع عن نفسي، أما الآن، الآن، كم هي ساحرة عظيمة الفتنة!

ومع أن روحه كانت مضطربة مفعمة بالرعب فإنه تمكن من إخفاء نصف المال في مكان ما، وإلا فلا أستطيع أن أجد تفسيراً آخر لاختفاء نصف الآلاف الثلاثة التي أخذها من تحت وسادة والده، قبل ذلك بساعات قلائل. فقد سبق له أن ذهب إلى موكرو مرات عدة، وفي إحداها قضى يومين متتاليين في معاقرة الخمر واللهو، وعرف معرفة تامة ذلك المنزل الكبير القديم، بجميع مسالكه وغرفه وزواياه، ويخيل إلي أنه أخفى ذلك النصف من المال في ذلك المنزل، قبيل اعتقاله، في شق تحت أرضه، أو في زاوية من زواياه. وإذا سألتم عن غايته من ذلك، فإن الأمر واضح، فالكارثة قد تقع فوراً، بطبيعة الحال؛ وليس الوقت كافياً للتفكير بمواجهتها، لأن عقله كان مضطرباً، وقلبه متعلق بها متطلع إليها. ولكن المال، لا غنى عنه على أية حال! فالرجل يبقى رجلاً ما دام يملك مالاً. وقد يبدو لكم أن التفكير البعيد أمر غير طبيعي في مثل تلك اللحظة. ولكن ألم يؤكد لنا بذاته أنه قبل وقوع الكارثة بشهر، عمد إلى ماله وخبأه في كيس صغير. ومع أنه ادعاء كاذب كما سأثبت ذلك حالاً، إلا أنه يدلنا على أن الفكرة كانت مألوفة لدى كرامازوف وأنها راودت نفسه. وفضلاً عن ذلك، فهو عندما قال أثناء التحقيق أنه وضع ألفاً وخمسمائة روبل

في كيس (وهو لا وجود له مطلقاً) فلا أستبعد أن تكون فكرة الكيس الصغير قد أملته ظروفه الآنية، لأنه قبل ساعتين فقط كان قد قسم المال وخبأ نصفه في موكرو حتى الصباح، احتياطاً للطوارىء، وتجنباً لإبقائه في جيبه وحسب. طرفا النقيض، أيها السادة المحلفون، أذكروا أن كرامازوف يستطيع التفكير في أمرين على طرفي نقيض، وفي آن واحد.

ولقد بحثنا في المنزل فلم نعثر على شيء. ولعل المال لا يزال هناك، أو لعله اختفى في صباح اليوم التالي، وأصبح الآن مع المتهم. المهم إنه حين وصل رجال السلطة ليقبضوا عليه كان ملازماً لها، جاثياً على ركبتيه أمامها، بينما كانت هي مضطجعة على السرير، وقد مد يديه نحوها وغاب كل شيء عن ذهنه حتى أنه لم يشعر بوصول هؤلاء الرجال الذين جاؤا للقبض عليه. ولم يكن قد أعد بعد شيئاً يمكنه من الدفاع عن نفسه. لقد كانت المفاجأة كاملة، وها هو أمام قضاته الذين سيبتون في مصيره.

أيها السادة المحلفون، إننا أثناء القيام بواجباتنا نعرف لحظات رهبة من مواجهة أحد الرجال، إننا نشعر بالرهبة من أجله، أيضاً! إنها اللحظات التي يملأ فيها الخوف الغريزي جوانب المجرم، عندما يدرك أن جميع الطرق سدت في وجهه، ولكنه يواصل النضال، ويعقد العزم على متابعة المقاومة. عندئذ تثور في نفسه جميع غرائز حب البقاء، فينظر إليك بعينين يطل منهما التساؤل والألم، محاولاً أن يتفحص وجهك، وأن يقرأ أفكارك باحثاً عن الجهة التي ستأتيه منها، وترتسم في عقله المضطرب آلاف الخطط في مدى هنيهة قصيرة، ولكنه يظل خائفاً الكلام، خائفاً أن يتهور بكلمة تكون ويلاً عليه. إن هذا المظهر الذي تمر به الروح، وهذا الظمأ الحيواني للبقاء، وهذه اللحظات المذلة للروح البشرية، رهيبة مخيفة، تثير أحياناً الخوف والعطف على المجرم حتى في نفس رجل القانون، وهذا ما حصل لنا جميعاً حين تمّ القبض على كرامازوف.

لقد صعق بادىء ذي بدء، وانهار مستسلماً، وفي غمرة رعبه تفوه ببعض العبارات المثيرة للريبة، فقد قال: دم! إنني أستحق هذا. ولكنه ما لبث أن سيطر على نفسه، ولم يعد يعرف أن يقول شيئاً، فهو لم يحضّر ولو جواباً

يتقدم به، ولم يبق لديه شيء سوى إنكار مجرد: «لست أنا قاتل أبي» كان هذا الإنكار هو الجدار الذي احتمى به في تلك اللحظة؛ وكان ينوي أن يقيم خلفه متراساً ما. وقد سارع إلى إصلاح ما ورطته فيه عبارته الأولى، معلناً أنه كان مسؤولاً فقط عن موت الخادم غريغوري وقال: «إنني مسؤول عن دمه، ولكن من الذي قتل والدي، أيها السادة، من قتله؟ من الذي يمكن أن يكون قد قتله، إذا لم أكن أنا»؟ هل سمعتم، لقد وجه هذا السؤال، إلينا، نحن الذين جئنا لنلقي عليه هذا السؤال ذاته! هل سمعتم تلك العبارة التي تفوه فيها استباقاً للأمور وإمساكاً بزمام الأمر: «إذا لم أكن أنا القاتل» وهل أدركتم ما فيها من مكر حيواني، وسذاجة، ومن نفاد صبر كرامازوف! وقد قال: «إنني لم أقتله ويجب ألا تظنوا بأنني قتلته»، ثم يسارع إلى الاعتراف بقوله: «كنت أنوي قتله، أيها السادة، كنت أنوي قتله، ولكنني غير مذنب، فلست أنا قاتله». (لقد كان يتعجل، يتعجل عجلة مخيفة). إنه يعترف لنا بأنه كان ينوي قتله، وكأنه يقول: بوسعكم أن تروا كم أنا صادق، وهكذا فإنكم تصدقون أنني لم أقتله. إن المجرم في مثل هذه الحالات كثيراً ما يكون على درجة من السطحية والخفة لا يتصورها عقل. وفور اعترافه هذا، سأله أحد رجال القانون عرضاً، هذا السؤال البسيط: أليس ممكناً أن يكون سميردياكوف هو الذي قتله؟ عندئذ، عمد إلى ما كنا نتوقعه منه فاحتد وغضب غضباً عظيماً لأننا قطعنا عليه الطريق، وفاجأناه غير مستعد، قبل أن يتسع وقته لتحضير أفضل لحظة مناسبة لحشر إسم سميردياكوف بشكل يبدو طبيعياً، واقتناص تلك اللحظة ولذلك فقد اندفع فوراً إلى أحد طرفي النقيض، كما يفعل دائماً، وطفق يؤكد لنا أن سميردياكوف لا يمكن أن يكون هو القاتل، وأنه عاجز عن القتل. ولكن حذار أن تصدقوه، فقد كان هذا ضرباً من ضروب مكره، وهو لم يستبعد نهائياً فكرة إلباس سميردياكوف جريمته، بل بالعكس أرجأ ذلك إلى اللحظة المناسبة، لأنه، في الحقيقة، لم يكن هنالك إنسان آخر يلقي عليه وزر جريمته، ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد، أما في تلك اللحظة فقد ضاع الأمل وفسد الأمر. وقد يحشر إسمه في اليوم التالي، أو ربما بعد بضعة أيام، فيتحين الفرصة المواتية لكي يصيح بنا قائلاً: «تعلمون أنني كنت أكثر منكم

استبعاداً أن يكون سميردياكوف هو القاتل، إنكم تذكرون ذلك، أما الآن فلم يعد عندي أدنى ريب. إنه هو الذي قتله، لا ريب في أن الجريمة من صنع يديه»! أما أمامنا الآن، فإنه يلجأ إلى إنكار يبعث على الضيق والكآبة. وقد حمله نفاد صبره وغضبه على أن يتقدم بتفسير لا يقبله العقل ولا يمكن تصديقه قائلاً أنه أطل من خلال نافذة غرفة والده ثم انصرف باحترام. وأسوأ من ذلك أنه كان يجهل سير الأمور، ولا يعرف شيئاً عن إفادة غريغوري.

ثم شرعنا في تفتيشه، مما أثار غضبه، ولكنه بث فيه الشجاعة، ولم نعثر على كامل مبلغ الثلاثة آلاف روبل معه، ووجدنا نصفه فقط. ولا ريب في أن قصة الكيس الصغير خطرت على باله لأول مرة في تلك اللحظة، ونسجها خياله أثناء صمته المشوب بالغضب. ولا ريب أيضاً في أنه كان هو نفسه مدركاً لاستحالة تصديق القصة، فأجهد عقله لكي يجعلها معقولة وقابلة للتصديق، من غير أن يهتدي إلى ما يجب أن يتخيله لينتزع الاستحسان من المستمعين. لكن أول واجبات رجال القانون المحققين، وأولى مهماتهم في مثل هذه الحالات هي أن يمنعوا المجرم من الاستعداد، فيباغتوه بالأسئلة لحمله على الكشف عن كل الحسابات التي تنشأ في ذهنه بما هي عليه من بساطة وتفكك وبعد عن الواقع. ولا يمكن حمل المجرم على الكلام إلا إذا فوجىء بحقيقة جديدة، وكأنها صدفة عابرة؛ أو إطلاعه على ناحية عظيمة الأهمية من نواحي القضية، لم تكن عنده فكرة سابقة عنها، أو لم يكن في وسعه أن يعدّ لها العدّة. وقد أعددنا له حقيقة مفاجئة، وهي شهادة غريغوري عن أن الباب الذي هرب منه المتهم كان مفتوحاً. وكان أمر هذا الباب قد غاب عن ذهنه تماماً، ولم يخطر بباله أن غريغوري يمكن أن يكون رآه.

وقد كانت النتيجة مدعاة للدهشة. فقد هب واقفاً على قدميه وصاح بنا قائلاً: «إذاً فقد قتله سميردياكوف. إن سميردياكوف هو القاتل». وهكذا فقد فضح أساس خطته الدفاعية الذي كان يعده للحظة المناسبة، بشكل أبعد ما يكون عن الواقع والعقل، إذ لا يمكن في هذه الحالة أن يكون سميردياكوف قد ارتكب جريمة القتل إلا بعد أن أفقد المتهم غريغوري وعيه وولّى هارباً. وعندما قلنا له أن غريغوري شاهد الباب مفتوحاً قبل أن أغمي عليه، وأنه سمع

أنين سميرد ياكوف من وراء الحاجز حين خرج من غرفته، أسقط في يد كرامازوف ولم يحر جواباً. ولقد أنبأني فيما بعد زميلي الموقر النبيه، نيكولاي بارفينوفيتش، أنه تأثر تأثراً عظيماً لمنظر المتهم حتى كادت عيناه تفيض بالدموع. ومما سهل الأمور، أن المتهم بادر إلى سرد قصة الكيس الصغير الذي كثر الحديث عنه، فليكن ذلك، وستسمعون هذه القصة الخيالية في الحال!.

أيها السادة المحلفون، سبق أن أوضحت لكم لماذا أعتبر قصة الكيس هذه لا مجرد سخافة فحسب، بل وأوهى اختلاق يمكن ابتكاره في موقف كهذا. ولو شاء أحدنا المراهنة على ابتكار أبعد القصص احتمالاً، لما وجد أبعد منها عن العقل وأصعب على التصديق. إن أسوأ ما في مثل هذه القصص هو أن أصحابها الواثقين من أنفسهم يمكن دوماً إحراج موقفهم والإيقاع بهم وتدمير حجتهم بواسطة التفاصيل ذاتها التي تزخر بها الحياة الحقيقية، والتي يهملها هؤلاء القصاصون التعساء الضعفاء، ويرون فيها أموراً تافهة لا قيمة لها. إنهم لا يستطيعون أن يخصوا مثل هذه التفاصيل بجانب من تفكيرهم، لأن اهتمامهم يكون مقتصراً على مجمل كذبتهم الكبرى، ولا يتقبلون إمكانية الإيقاع بهم بواسطة أحد الأمور التافهة! وذلك عينه هو سبب وقوعهم في الشرك. فقد سألنا المتهم: من أين حصلت على المادة التي صنعت منها كيسك الصغير ومن صنعه لك؟، فأجاب قائلاً: لقد صنعته بنفسي، فلما سئل: ومن أين حصلت على القماش اللازم؟ شعر المتهم بأن إهانة وجهت إليه، وظن بأن هذا السؤال لا يعدو كونه أمراً تافهاً لا يليق به، ولقد كان عندئذ صادقاً في شعوره بالإهانة! إنهم جميعاً سواء في هذا، وقد قال: اقتطعته من قميصي. فقلنا له: إذاً فسنعثر على هذا القميص غداً بين ثيابك. تصوروا أيها السادة المحلفون وإننا لو عثرنا فعلاً على هذا القميص الذي قطعت قطعة منه (ولو كان موجوداً حقاً، هل يمكن ألا نعثر عليه في خزانة ثيابه)؟ لكان ذلك واقعة حقيقية مادية تدعم أقواله! ولكنه كان عاجزاً عن التفكير في هذا الأمر، فسارع يقول: لا أذكر، فقد أكون قطعتها من قميصي، بل من قبعة لصاحبة المنزل الذي أقطنه. سألناه: وهل تذكر نوع تلك القبعة؟ فأجاب: إنها قبعة

قطنية قديمة كانت ملقاة في غرفتها فقلنا: وهل تذكر هذا بوضوح؟ قال: كلا، لا أذكره بوضوح. وقد استبد به الغضب، ولكن تصوروا كيف يمكن أن ينسى هذه التفاصيل؟ إن الإنسان في أرهب لحظات حياته، عندما يكون مثلاً في طريقه إلى ساحة الإعدام، لا يذكر سوى مثل هذه الأمور التافهة. إنه قد ينسى أي شيء سوى سطح أحمر لفت نظره وهو في طريقه إلى المشنقة، أو غراباً يقف على صليب الكنيسة. إن مثل هذه الأشياء تبقى في ذاكرته حتماً. لقد خاط ذلك الكيس الصغير بعيداً عن أعين أهل المنزل الذي يقطنه، فلا ريب أنه تذكر في غمرة خوفه المذل، أن إنساناً ما قد يفاجئه والإبرة في يده، ولا ريب أنه كان ينتفض لدى سماعه أقل حركة فينسل خلف الستارة (لأن في غرفته ستارة).

وهتف إيبوليت كيريلوفيتش فجأة:

ولكن أيها السادة المحلفون، ما لي أسرد عليكم كل هذه التفاصيل وكل هذه التوافه؟ إنني ما فعلت ذلك إلاّ لأن المتهم ما زال حتى الآن يصر على هذه الأقوال السخيفة. إنه لم يقدم تعليلاً لأي شيء منذ ليلة الجريمة قبل شهرين. إنه لم يضف حقيقة واحدة واقعية إلى أقواله الخيالية السابقة، وهو يعتبر كل ذلك تفاصيل تافهة لا قيمة لها. ويطالبنا بتصديقه معتمدين على شرفه وحسب. لقد كان من دواعي سروره أن نصدق قوله، ونحن نتوق إلى تصديقه ولو بالاعتماد فقط على شرفه. وهل نحن سفاحون متعطشون للدماء البشرية؟ قدموا لنا حقيقة واحدة في مصلحة المتهم، وسنغتبط لذلك كثيراً. ولكن لا بد أن تكون حقيقة واقعية، ذات شأن، لا استنتاجاً استخلصه شقيق المتهم من تعابير وجهه، أو إصراراً على أن المتهم عندما ضرب صدره في الظلام، كان يدل على موضع الكيس الصغير. إننا سنغتبط إذا قدمتم لنا حقيقة جديدة وسنكون أول من ينقض اتهامنا له، بل سنسارع إلى نقضه. أما الآن فإننا نلبي نداء العدالة فنتمسك بإصرارنا ولا نستطيع أن ننقض شيئاً.

وانتقل إيبوليت كيريلوفيتش إلى ختام مرافعته، وكان يبدو كأنه محموم، فتحدث بصوت كسير متهدج عن الدم الذي يصرخ طالباً الانتقام، عن دم الوالد الذي قتله ابنه بدافع حقير هو السرقة! ونوه بتماسك الحقائق تماسكاً

مفجعاً، وجهرها بإدانة السجين.

ولم يملك إيبوليت كيريلوفيتش إلا أن يضيف قوله: ومهما سمعتم من محامي الدفاع الموهوب الشهير، ومهما وجه إلى مشاعركم من عبارات بليغة مؤثرة، فلا تنسوا أنكم الآن في هيكل العدالة. اذكروا أنكم المنافحون عن عدالتنا، المنافحون عن أمنا روسيا المقدسة وعن مبادئها وأسرتها، وكل ما هو مقدس فيها! أجل، إنكم تمثلون الآن روسيا كلها، والحكم الذي تصدرونه لن يسمع في هذه القاعة فحسبُ، بل سيتردد صداه في كافة أنحاء روسيا التي تتوجه أنظارها اليوم إليكم، كمنافحين عنها وقضاة، فإما أن يبث حكمكم الشجاعة فيها، أو يوهن عزائمها. فلا تخيبوا أمل روسيا وما تعقده عليكم من رجاء. إن مركبتنا التي تحمل مصيرنا القومي، مندفعة اندفاعاً أعمى في سيرها السريع وقد تهوي بهذا المصير إلى الهلاك، إن عقلاء روسيا كلها يمدون أيديهم، منذ زمن بعيد، متوسلين داعين لوقف سيرها المتهور الجامح. وإذا كانت الأمم الأخرى تتنحى الآن عن طريق هذه المركبة، فربما تفعل ذلك، لا بدافع من الاحترام، كما يحلو للشاعر أن يعتقد، بل بدافع من الرعب. أجل، من الرعب، وربما الاشمئزاز أيضاً. وأنه من حسن حظنا أنها تتنحى حتى الآن فإنها يوماً ما ستكف عن الرعب وتؤلف جداراً متيناً يقف حاجزاً في طريق المارد المنطلق، فيتوقف ركبنا الجنوني بما فيه من فساد وخروج عن القانون. من أجل سلامتها وإنقاذ المدنية والثقافة. لقد بلغت أسماعنا أصوات الفزع المنبعثة من أوروبا. وبدأت هذه الأصوات ترتفع مجلجلة. فإياكم وإغراءهم. لا تضاعفوا كرههم المتزايد لنا بحكم يبرر للابن قتل أبيه.

إن إيبوليت كيريلوفيتش نفسه كان متأثراً صادقاً في تأثره، وقد خلف نداءه البليغ هذا أثراً عظيماً في النفوس. وعندما أنهى مرافعته خرج مسرعاً، وكاد يغمى عليه في الغرفة المجاورة، كما أشرت من قبل. ولم تتردد هتافات الاستحسان والتصفيق في القاعة، ولكن الذين عرفوا بوقارهم، فقد ظهر عليهم الرضى والسرور. أما السيدات فكن غير راضيات بالخطاب، غير أنهن سررن بفصاحة صاحبه، لا سيما وأنهن لم تكن لديهن فكرة عن مجمل المحاكمة، وكن يثقن ثقة تامة بفتيو كوفيتش فهو «سيتكلم أخيراً

وسيتغلب عليه بطبيعة الحال».

كانت أنظار الجميع متجهة إلى ميتيا، الذي كان طوال مرافعة المدعي العام صامتاً، يصرف بأسنانه، وقد ضم يديه خافضاً بصره. وكان يرفع رأسه بين حين وآخر، ويصغي، ولا سيما عندما كان يأتي ذكر غروشينكا. وعندما أشار المدعي العام إلى رأي راكيتين بها، ارتسمت على شفتيه ابتسامة تعكس الاحتقار والغضب وتمتم بصوت كاد يكون مسموعاً: «إنهم على شاكلة برنارد»!.

وحين شرع إيبوليت كيريلوفيتش يشرح كيف استجوبه وعذبه في موكرو، رفع ميتيا رأسه وأخذ يصغي بانتباه لافت. وقد بدا في لحظة ما، كأنه يوشك أن يقفز من مكانه ويصرخ بأعلى صوته، ولكنه ملك أعصابه ورفع كتفيه ازدراء. وقد تحدث الناس فيما بعد عن خاتمة المرافعة، لا سيما عن دهاء المدعي العام عند استجوابه المتهم في موكرو، وأخذوا يعيرون إيبوليت كيريلوفيتش، قائلين: «لم يستطع هذا الرجل مقاومة رغبته في المباهاة بذكائه ومقدرته».

وقد رفعت جلسة المحكمة، ولكن لمدة قصيرة، لعلها ربع ساعة أو عشرين دقيقة، على أبعد تقدير. وتبادل الحضور أحاديث عدة تخللتها أصوات تعجب، وما زلت أذكر بعض أقوالهم.

قال رجل كان يقف في إحدى الحلقات، مبدياً الوقار: خطاب جاد وخطير.

وقال آخر: لقد أسرف في التحليل النفسي.

ـ ولكنها الحقيقة، إن ما قاله هو الحقيقة.

ـ أجل، فهو بارع في ذلك.

ـ لقد أحاط بمجمل القضية.

ـ وأحاط بنا أيضاً. ألا تذكرون كيف شبهنا جميعنا في مطلع خطابه، بفيودور بافلوفيتش؟.

ـ وفي نهاية الخطاب أيضاً. ولكن هذا كله هراء.

- وكلام مبهم أيضاً.

- لقد تجاوز الحد في حماسته.

- إن هذا ظلم، هذا ظلم فادح.

- ولكنه عمل يدل على الذكاء على أي حال. لقد انتظر طويلاً، ولكنه آن له أن يسمع صوته، ها ها!.

- ترى ماذا سيقول محامي الدفاع؟.

وسمعت العبارات التالية من جماعة أخرى:

- لم يكن محقاً في التهجم بهذا الشكل على المحامي القادم من بطرسبورغ: «مهما أثر في مشاعركم»، هل تذكرون عبارته هذه؟.

- أجل، لقد جانبه التوفيق هنا.

- إنه أظهر إسرافاً في التسرع.

- إنه رجل عصبي.

- إننا نضحك، ولكن ما هو شعور المتهم فهو لا يضحكه كلام المدعي العام.

- نعم، ما هو شعور ميتيا؟.

وسمعت من جماعة ثالثة العبارات التالية:

- من هي تلك السيدة البدينة الجالسة هناك التي تحمل نظارة؟.

- إنها زوجة أحد الجنرالات، وهي مطلقة، أنا أعرفها.

- إذاً فهذه هي علة حملها النظارة؟.

- إنها امرأة جاهلة عاجزة.

- كلا، إنها امرأة مثيرة.

- على بعد مقعدين منها تجلس امرأة مليحة. إنها أجمل منها.

- لقد أوقعوا به في موكرو، أليس كذلك؟.

- نعم، إنه عمل يدل على الذكاء. لقد سمعنا القصة من قبل. وطالما

كررها في بيوت الناس!.

- ولم يتمالك نفسه من ترديدها هنا أيضاً. إن دافعه الغرور وحب الظهور.

- إنه رجل يشكو ظلامة، هي هي!.

- نعم، وسريع الغضب. لم يكن خطابه فصيحاً، فقد كانت الجمل مسرفة في الطول.

- نعم، إنه يحاول أن يخيفنا، بل ما فتىء يحاول إخافتنا. هل تذكر كلامه عن المركبة؟ ثم قوله «إن هملت ليس عندنا مثله، فلدينا كرامازوف وأمثاله» إنه قول يدل على الذكاء!.

- إنه أراد إرضاء الأحرار، فهو يرهبهم.

- نعم، وهو يرهب المحامي أيضاً.

- ترى ماذا سيقول فتيو كوفيتش؟.

- مهما قال فإنه لن يفلح في خداع فلاحينا.

- أتظن ذلك؟.

وفي حلقة رابعة:

- لقد أعجبت بكلامه عن المركبة، أعني حديثه عن الأمم الأخرى.

- وكان مصيباً في كلامه عن تذمر الأمم الأخرى.

- ماذا تعني بذلك؟.

- ألا تعلم، لقد قام أحد أعضاء البرلمان الإنكليزي في الأسبوع الماضي، فقدم سؤالاً إلى الوزارة عن العدميين، عما إذا كان الوقت لم يحن للتدخل وتأديب هذا الشعب البربري. لقد كان إيبوليت يلمح إليه. إني واثق من ذلك فهو مستمر في الحديث عن هذا الأمر طيلة الأسبوع الماضي.

- ولكنه ليس سهلاً عليهم النيل منا.

- ليس سهلاً؟ ولماذا؟.

ـ باستطاعتنا أن نقفل ميناء كرونستادت فنقطع عليهم إمدادهم بالحنطة، فأنى لهم الحصول عليها؟.

ـ من أميركا. إنهم يحصلون عليها من أميركا منذ الآن.

ـ هذا لغو!.

ودوّى صوت الجرس، فسارع الجميع إلى أماكنهم. واعتلى فتيو كوفيتش المنبر لمباشرة دفاعه.



مرافعة الدفاع

حجة ذات حدّين

كان الصمت يخيم على الجميع، مع أولى كلمات الخطيب الشهير. وشخصت كل الأبصار إليه. وقد بدأ مرافعته بأسلوب سهل، وطرق صلب الموضوع مباشرة، بلهجة تدل على الثقة من غير ادعاء وغرور. ولم يحاول أن يبدو بليغاً ولا مؤثراً، ولم يكن ينتقي العبارات المثيرة للعواطف، كرجل يتحدث في حلقة تضم الخلص من أصدقائه المقربين. وكان صوته صافياً، جهورياً، يدل على الطيبة، وتتجلى في نبراته آيات الصدق والبساطة. غير أن جميع الحضور أدركوا أن الخطيب قد يصعد فجأة إلى ذروة الشعور المؤثر فينفذ إلى القلوب بقوة لا تدانى. وربما جاز القول أن لغته كانت أقل سلامة من لغة إيبوليت كيريلوفيتش ولكنه لم يستعمل العبارات الطويلة، وقد فاقه في دقة التعبير. وقد كان هنالك شيء واحد فيه لم يعجب السيدات: فقد ظل حاني الظهر إلى الأمام، ولا سيما في مطلع مرافعته. والواقع أنه لم يكن منحنياً بل كان يتخذ هيئة من يود الانقضاض على الحضور، فإنه كان يميل بالنصف العلوي من عموده الفقري وكأن في وسطه مفصلة تجعله قادراً على أن ينثني حتى يشكل زاوية قائمة.

وكان كلامه في مطلع مرافعته مشتت العبارات لا صلة بينها. ويجوز القول، أنه كان يتكلم بلا انسجام، فقد كان يعالج الحقائق كلاً على حدة، غير أن هذه الحقائق المتنافرة انسجمت في نهاية مرافعته وصارت ملتحمة الأطراف متكاملة. وفي مقدورنا أن نقسم مرافعته إلى قسمين، يشمل أولهما انتقادات لدحض التهمة، وكانت هذه الانتقادات لا تخلو أحياناً من التعبير عن

الحقد والسخرية. إلا أنه في القسم الثاني من مرافعته بدل لهجته بغتة واندفع في غمرة التأثر الشديد. ولعل الحضور كانوا يترقبون هذا الانتقال فارتعشوا من فرط حماستهم.

وقد بادر إلى معالجة لب الموضوع، مستهلاً بالقول أنه على الرغم من كونه يزاول مهنته في بطرسبورغ، فقد اتفق له أكثر من مرة أن قدم إلى مدن كبرى في المقاطعات للدفاع عن متهمين كان يعتقد ببراءتهم أو على الأقل يشعر بها مسبقاً. وقد هتف قائلاً: إن هذا هو عين ما حدث لي في هذه القضية، فقد تنبهت من الشروح الأولى التي نشرتها الجرائد إلى شيء من مصلحة المتهم، استحوذ علي بقوة. إن ثمة حقيقة قانونية دفعتني إلى هذه القضية أكثر مما سواها وهي كثيراً ما تحدث في دنيا القضاء، ولكن قلما تأتي بمثل هذا الوضوح والغرابة، كما أتت في هذه القضية. وقد كان ينبغي لي أن أحتفظ بهذا الأمر الغريب إلى نهاية مرافعتي، لكنني سأذكره الآن، لأن من أيات ضعفي أنني أمضي إلى هدفي مباشرة فلا أبقي على النقاط المثيرة متصنعاً إطلاقها بالتدريج. وقد يكون هذا تهوراً من جانبي ولكنه في أي حال يبقى دلالة على صدقي وإخلاصي. إن ما أشير إليه هو أن هناك سلسلة محكمة من الأدلة تقيد المتهم، وفي نفس الوقت فإن حقيقة واحدة من حقائقها ليست تقوى منفردة على التفنيد والصمود للنقد. وقد ازداد اعتقادي هذا تعززاً في نفسي، مع تتبعي المستمر للقضية في الجرائد. وفجأة تلقيت من أقارب المتهم دعوة بأن أتولى الدفاع عنه. فأسرعت بالمجيء إلى هذه البلدة، وهنا أصبحت على يقين من اعتقادي. فمن أجل أن أحطم هذه السلسلة من الحقائق، وأن أثبت أن كل حلقة من حلقات الأدلة التي تتألف منها، إذا عولجت لوحدها، بدت خيالية باطلة مستحيلة الإثبات.

لقد كان هذا هو مطلع مرافعة فتيو كوفيتش.

وبغتة هتف قائلاً: «أيها السادة المحلفون. إنني قريب العهد بهذه المقاطعة، فليس لي أفكار أو مواقف سابقة. والمتهم، وهو رجل حاد المزاج متهور العاطفة، لم يوجه إلي أية إهانة. ولعله أهان مئات من أهل المدينة، الأمر الذي يفسر تألب الكثيرين عليه سلفاً. إني أعترف طبعاً بأن شعور العداء في

نفوس أهل هذه المدينة له ما يبرره حقاً. فالمتهم سيء الطباع حاد المزاج، ومع ذلك فقد كان يقبل في أوساط المجتمع هنا؛ بل إنه كان يستقبل على الرحب والسعة من قبل أسرة صديقي المدعي العام الذي أقدر موهبته.

(ملاحظة: عندما قال المحامي هذه العبارة سمعت ضحكات قليلة وخافتة مكبوتة، ولكن الجميع فطنوا إليها، لأنهم كانوا يعلمون أن المدعي العام كان يستقبل ميتيا في منزله على مضض، لسبب وحيد هو أن زوجته كانت توليه التقدير والاهتمام. إنها سيدة جدّ محترمة، وفاضلة إلى أبعد الحدود، ولكنها كانت سيدة خيالية تتبع أهواءها، مولعة بمشاكسة زوجها وخاصة في الأمور التافهة. على أن زيارات ميتيا للمنزل لم تكن إلا لماماً).

ومضى فتيو كوفيتش في مرافعته قائلاً: «ومع ذلك فإنني أبيح لنفسي أن أجاهر بالقول إن موكلي التعيس الحظ جعل خصمي رغم نزاهة عقله وتميزه بالاستقامة والعدل، مدفوعاً سلفاً إلى تكوين حكم ضد مصلحته. وهذا شيء طبيعي؛ فإن الرجل التعيس يستحق عن جدارة مثل ذلك التحامل. فإن حدة الطبع فضلاً عن المزاج الهائج، من الأمور التي قلما يتسامح الناس فيها. لقد سمعنا في المطالعة القيمة التي ألقاها المدعي العام الموهوب، تحليلاً شديد اللهجة لأخلاق المتهم وسلوكه، وقد كان واضحاً تماماً لنا موقفه المتميز بشدة الانتقاد. وأكثر من هذا، فهو قد دخل في مراوغات نفسانية ما كان دخوله فيها ممكناً لولا أنه كان يضمر فعلاً تحاملاً متعمداً ضد المتهم. إلا أن في مثل هذه القضايا، ما هو أشد سوءاً وإيلاماً من اتخاذ موقف الحقد والظلم، ذلك أن ننساق وراء غريزتنا الفنية، رغبة منا في خلق قصة عاطفية، وخاصة إذا كان الله قد وهبنا حساً نفسانياً. عندما كنت أستعد للسفر إلى هذه المدينة، حذرني الناس ـ وكنت شخصياً عالماً بذلك ـ من أنني سألقى خصماً موهوباً، اكتسب شهرة فذة في أوساط قضاتنا الشباب، خلال السنوات الأخيرة، نظراً لما يتمتع به من حسّ نفساني وقدرة على المراوغة. لكن علم النفس، مهما كان عميقاً، فهو أشبه ما يكون بالمدية ذات الحدين. (ضحك من قبل الجمهور). إنكم بطبيعة الحال ستغتفرون لي هذا التشبيه المعروف، فأنا لا أدعي الفصاحة. لكنني سآخذ على سبيل المثال أية نقطة من النقاط

الواردة في مرافعة المدعي العام.

يقول أن المتهم حين عبر الحديقة هارباً في الظلام وتسلق الجدار، ولما أمسك به الخادم، عاجله بضربة من مدقة نحاسية صرعته. ثم عاد يقفز إلى الحديقة وقضى خمس دقائق منحنياً فوق الرجل وهو يحاول أن يعرف ما إذا كان قد قتله أم لا. ويرفض المدعي العام تصديق قول المتهم بأنه عاد مسرعاً إلى غريغوري العجوز بدافع من الرأفة به. هو يقول: كلا، إن شعوراً كهذا في لحظة كهذه أمر مستحيل، بل وغير طبيعي لقد عاد إليه لكي يتأكد مما إذا كان الشاهد الوحيد على جريمته قد مات. فهو بذلك أثبت ارتكابه للجريمة، لأنه يستحيل أن يكون قد عاد إلى الحديقة بدافع آخر.

إنكم بهذا القول تواجهون علم النفس؛ ولكن دعونا نعتمد هذا الأسلوب عينه ونطبقه على القضية سالكين طريقاً أخرى. وسنرى أن النتيجة التي سنصل إليها لا تقل إقناعاً عما توصلت إليه النيابة العامة.

لقد قيل لنا أن المتهم قفز عائداً إلى الحديقة لكي يرى، على سبيل الاحتياط، ما إذا كان الشاهد حياً أم ميتاً، حسب أقوال المدعي العام، ومع ذلك، فقد ترك في غرفة أبيه بعد أن قتله دليلاً يصفه المدعي العام نفسه بأنه دليل مدهش ألا وهو ظرف ممزق، مكتوب عليه أنه كان يحتوي على ثلاثة آلاف روبل. ولو أن المتهم أخذ الظرف معه، لما علم إنسان في الدنيا لا بأمر ذلك الظرف، ولا بالمال الذي كان فيه، ولما خطر له أن ينسب السرقة إلى المتهم. ذلك هو قول المدعي العام. وهكذا فأنتم ترون من جهة، رجلاً التاث عليه الأمر وضاع صوابه، واستبد به الخوف فهرب تاركاً ذلك الأثر ملقى على الأرض، وبعد دقيقتين يقتل رجلاً ثانياً، ثم يثبت لنا أنه كان متدبراً ممتازاً. وحتى لو أقررنا بذلك، فإن الأمر لا يعدو كونه مراوغة نفسانية، فضلاً عن التناقض الحاصل. فأنا أكون في ظروف معينة ظامئاً للدم بعيد النظر كالنسر القوقازي، وفي ظروف أخرى خائفاً أعشى كالخلد. ولكن لو بلغت هذا الحد من القسوة، وعدت إلى الرجل الذي قتلته لأتأكد من أنه مات ولن يشهد ضدي، فما الذي يدعوني إلى قضاء خمس دقائق أعنى بأمر هذه الضحية الثانية معرضاً نفسي لخطر الالتقاء بشهود آخرين؟ ولماذا أبلل منديلي بالدم من

رأسه، لكي يتخذ لاحقاً دليلاً ضدي؟ فلو كان غليظ القلب دقيق الحساب فلماذا لا يقضي على الخادم بضربة على رأسه المرة تلو المرة بالمدقة ذاتها ويكفي نفسه عناء القلق من ذلك الشاهد؟.

ثم، هل يعود ليتأكد من أن الشاهد قد مات فعلاً، ثم يترك دليلاً آخر على الممشى، هو تلك المدقة النحاسية التي أخذها من عند الامرأتين، وهما في وسعهما أن تتعرفا عليها وتشهدا بأنه أخذها من عندهما. وهو لا يدعي تركها وكأنه قد نسيها في الممشى، أو سقوطها منه بسبب الإهمال أو السرعة، كلا، لقد ألقى بها بعيداً، لأنها وجدت على بعد خمس عشرة خطوة من المكان الذي كان غريغوري ملقى فيه. فلماذا فعل ذلك؟ الجواب أنه أسف لقتله رجلاً، خادماً عجوزاً؛ لقد قذف بالمدقة لاعناً إياها كما تلعن الأسلحة القتالة. ذلك ما حدث بلا شك، وإلا فما هو السبب الآخر لقذفه بالمدقة بعيداً؟ وإذا استطاع أن يشعر بالحزن والأسى لقتله رجلاً، فذاك يعني أنه لم يقتل أباه. ولو أنه قتل أباه، لما عاد مسرعاً للعناية بضحية أخرى بدافع من الرأفة، لأن شعوره عندها يكون مخالفاً لشعوره ذاك، ولما عاد لينصرف تفكيره إلا إلى إنقاذ نفسه، ولما كان ممكناً أن يشفق على غير نفسه. إن هذا الأمر لا يتطرق إليه الشك، بل هو على نقيض ذلك، فهو في مثل هذه الحالة كان ليسارع إلى تحطيم جمجمته بدلاً من قضاء خمس دقائق في العناية بأمره. وما كان قلبه ليتسع للشفقة والمشاعر الطيبة، لو لم يكن ضميره حتى تلك اللحظة نقياً. وهنا نرانا أمام رأي آخر في علم النفس. لقد لجأت عامداً إلى هذا الأسلوب أيها السادة المحلفون لكي أظهر لكم أن باستطاعتكم إثبات أي شيء عن طريق علم النفس، والأمر كله متوقف على كيفية استخدام هذا العلم. إن علم النفس يخدع حتى أكثر الناس جداً ويغريهم على غير إرادة منهم بخلق القصص العاطفية. إنني أتحدث عن خداع علم النفس أيها السادة.

وهنا سمعت أصوات الاستحسان والضحك في قاعة المحكمة نصرة سمحامي ضد المدعي العام. ولن أعيد ما جاء في المرافعة تفصيلاً، بل سأقتصر على أهم ما تضمنته من نقاط.

لـيس ثمة مال، ولا سرقة

أثار المحامي مسألة أثارت دهشة الجميع. فقد نفى نفياً قاطعاً وجود الثلاثة الآلاف التي كانت محور القضية، وبالتالي نفى احتمال سرقتها. لقد استأنف كلامه قائلاً: إن في هذه القضية، ناحية خاصة تشد انتباه كل مراقب محايد غير متحيز، وأعني بها تهمة السرقة، واستحالة إثبات وجود أي شيء كان من الممكن سرقته، استحالة تامة. لقد قيل لنا أن مبلغ الثلاثة الآلاف قد سرق. ولكن ما من أحد يعلم ما إذا كان لتلك الروبلات وجود. أنعموا الفكر في الأمر، فمن أعلمنا بوجودها، ومن رآها؟ إن الإنسان الوحيد الذي رآها، وقال أنها وضعت في الغلاف، هو الخادم، سميردياكوف. فهو الذي أعلم المتهم وشقيقه إيفان فيودوروفيتش بأمرها، قبل وقوع الكارثة. كذلك فقد سمعت السيدة سفييتلوف بأمرها أيضاً. ولكن ما من أحد من هؤلاء الثلاثة رأى الأوراق النقدية بعينيه، سوى سميردياكوف كما زعم.

وهنا لا بد لنا من التساؤل: إذا صحّ أنها كانت موجودة حقاً، وأن سميردياكوف قد رآها فعلاً، فمتى رآها لآخر مرة؟ وما قولكم إذا كان سيده قد أخذها من تحت فراشه وأعادها إلى صندوق أمواله بدون أن يبلغ خادمه؟ لاحظوا أن رواية سميردياكوف تذهب إلى أن المال كان مخبأ تحت المفرش، وفي هذه الحالة فإن المتهم لا بد أنه نبش المفرش، ومع ذلك فأنتم وجدتم المفرش سليماً غير منبوش، وهذا مدون بوضوح في محضر التحقيق. فكيف كان في وسع المتهم أن يعثر على المال بدون أن يحدث أي تشويش في السرير؟ وكيف استطاع أن يستخدم يديه الملطختين بالدم دون أن يلوث الغطاء الأبيض النقي الذي وضع على الفراش خصيصاً تلك الليلة.

قد يقول قائل: فما رأيك في الغلاف الملقى على أرض الغرفة؟ أجل، يجدر بنا أن نقول عن ذلك الغلاف كلمة أو كلمتين. لقد دهشت الآن عندما

سمعت المدعي العام الموهوب، يعلن بمحض اختياره - بمحض اختياره، أرجو ملاحظة هذا - أنه لولا ذلك الغلاف، ولولا أنه وجد ملقى على الأرض، لما علم أحد في الدنيا بوجود ذلك الغلاف والمال الموجود في داخله، ولما علم أحد بأن المتهم قد سرقه. وهكذا فإن تلك القطعة الممزقة من الورق هي، كما أعرب المدعي العام، الدليل الوحيد الذي بنيت عليه تهمة السرقة، «فلولاها لما علم أحد بالسرقة، أو ربما بالنقود أيضاً». ولكن هل في وسعنا جعل وجود قطعة من الورق ملقاة على الأرض، في حد ذاته دليلاً على وجود المال فيها وعلى سرقته أيضاً؟ قد يعترض معترض فيقول: ولكن سميردياكوف رأى المال في الغلاف. ولكنني أسأل متى، متى رآه لآخر مرة؟ أجيبوني عن هذا. لقد تحدثت الى سميردياكوف فقال لي أنه رآه قبل وقوع الكارثة بيومين. إذاً لماذا لا نفترض أن فيودور بافلوفيتش العجوز، بعد أن وجد نفسه وحيداً في الغرفة ينتظر معبودته وهو مضطرب نافد الصبر، خطر له أن يمزق الغلاف، ويأخذ النقود من داخله، متسائلاً: ولم الغلاف، فهي قد تشك بوجود المال في داخله أما إذا أريتها ثلاثين ورقة زاهية الألوان في رزمة واحدة، فقد يكون ذلك أوقع في نفسها، بل إن ذلك سيسيل لعابها. وهكذا يمزق الغلاف ويخرج النقود منه ويلقي به على أرض الغرفة، وهو مدرك أنه هو صاحب الأمر والمال، ولا يخاف أن يترك دليلاً ضده. أعيروني سمعكم، أيها السادة، هل يمكن أن يكون هنالك افتراض لما حدث أكثر واقعية واحتمالاً من هذا؟ فلماذا نصرف النظر عنه؟ وإذا صحّ افتراضنا هذا، فإن تهمة السرقة تكون باطلة من أساسها، إذ أن المال إذا لم يكن موجوداً، فلا يمكن أن يكون قد سرق. وأما أن تعتبر النيابة العامة وجود الغلاف ملقى على الأرض دليلاً على أنه كان يحتوي مالاً، فلماذا لا أعتبر أنا عكس هذا، أي أن الغلاف ألقي على الأرض لأن المال الذي كان في داخله أخذه صاحبه؟.

وقد يسألني سائل: ولكن أين أصبح المال، إذا صحّ أن فيودور بافلوفيتش أخذه من الغلاف، ما دام رجال الشرطة لم يعثروا عليه أثناء تفتيش المنزل؟ أجيب بأن جزءاً من المال قد عثر عليه في صندوق القتيل، ثم إنه من المحتمل أن يكون فيودور بافلوفيتش قد أخذ المال في صباح يوم الجريمة أو مساء اليوم السابق، لاستعماله في وجه آخر ما، كأن يدفعه إلى إنسان ما، أو

يرسله إلى مكان ما، ولعله قد غيّر رأيه، بدّل خطة عمله برمتها، ولم ير ضرورة لإعلام سميردياكوف بذلك سلفاً. وإذا جاز هذا التفسير بأضعف الاحتمالات، فكيف يمكن تأكيد اتهام المتهم بارتكاب جريمة القتل في سبيل السرقة فعلاً؟ إن هذا يداني الموضوعات الخيالية فإذا زعم أحدنا أن شيئاً ما قد سرق، وجب عليه أن يظهر هذا الشيء، أو يبرهن أنه كان موجوداً فعلاً على أقل تقدير. ونحن نعلم أنه ما من إنسان رأى المسروق في هذه القضية. حدث منذ وقت قريب في بطرسبورغ أن شاباً في الثامنة عشرة من عمره، يكاد يكون مراهقاً، يعمل بائع فواكه متجولاً دخل في وضح النهار على صراف وبيده فأس فقتل الصراف بجرأة عجيبة، وسرق ألفاً وخمسمائة روبل. وبعد خمس ساعات، تم إلقاء القبض عليه ومعه المبلغ غير ناقص سوى خمسة عشر روبلا تمكن من إنفاقها. وفضلاً عن ذلك، فإن أجيراً عند الصراف، حين عاد إلى الحانوت بعد وقوع جريمة القتل، أبلغ الأمر إلى الشرطة وذكر قيمة المال المسروق، بل وعدد الأوراق النقدية والنقود الذهبية التي كان المبلغ يتألف منها، وكانت هي الأوراق والنقود ذاتها التي ضبطت مع المجرم. وتبع ذلك اعتراف كامل صادق من الفاعل بالقتل والسرقة.

ذلك أيها السادة المحلفون ما نستطيع أن نسميه دليلاً قاطعاً! ففي تلك الحالة أعلم بأمر المال، أراه أمامي وألمسه بيدي، ولا أستطيع أن أنكر وجوده. فهل ينطبق هذا على القضية الراهنة؟ تذكروا دائماً أن المسألة هي مسألة حياة أو موت.

أجل، فقد يقال لي أن المتهم قد عاقر الخمر وبدد المال تلك الليلة، ثم عثر معه على ألف وخمسمائة روبل، فمن أين جاء بالمال؟ ولكن العثور على ألف وخمسمائة فقط، واستحالة العثور على النصف الباقي من المال، يثبت أن هذا المال ليس هو المال المسروق، ولم يودع قط في أي غلاف. إن الحساب الدقيق للوقت الذي تمّ اثناء التحقيق الأولي، أثبت أن المتهم انطلق مسرعاً من عند الخادمتين إلى منزل بيرخوتين رأساً، ولم يذهب إلى منزله، كما لم يذهب إلى أي مكان آخر. إذاً فقد كان طوال الوقت يرافقه أشخاص آخرون. ولذلك لم يكن في وسعه أن يقتطع نصف الآلاف الثلاثة

ويخبئه في المدينة. وهذا الاعتبار ذاته هو الذي حمل المدعي العام على أن يفترض أن المال لا بد أنه مخبأ في حفرة ما، بموكرو. ولم لا يقول أنه مخبأ في أقبية قصر أودلف[1]. أليس هذا الافتراض مغرق في البعد عن الواقع؟ وأرجو أن تلاحظوا، أيها السادة، أنه إذا ثبت بطلان هذا الافتراض، فإن تهمة السرقة تسقط من أساسها، وإلاّ أين هي إذاً الألف والخمسمائة الأخرى؟ بأية أعجوبة اختفى هذا المبلغ، طالما أثبتنا أن المتهم لم يذهب إلى أي مكان آخر؟ وهل يجوز لنا أن ندمّر حياة رجل بمثل هذه الروايات؟.

وقد يقال أن المتهم لم يستطع إيضاح مصدر الألف والخمسمائة روبل التي وجدت معه، وأن الجميع كانوا يعلمون أنه لم يكن يملك فلساً واحداً في الليلة السابقة. بربكم، من كان يعلم ذلك؟ لقد أتى المتهم بتفسير شديد الوضوح لمصدر ذلك المال، وإذا شئتم تصديقي أيها السادة المحلفون، فليس هناك من تفسير أكثر قابلية للتصديق من تفسيره هذا، ولا أكثر تجانساً مع طباع المتهم وخصاله النفسية. إن المدعي العام قد زيّن له خياله أن رجلاً ضعيف الإرادة، سمحت له نفسه أن يأخذ الآلاف الثلاثة من خطيبته بطريقة مهينة إلى ذلك الحدّ، لا يمكنه، كما قيل لنا، أن يضع جانباً نصف المال ويخبئه في كيس صغير، بل أنه لو فعل ذلك، لفتح الكيس يوماً بعد آخر، ليخرج كل مرة مائة روبل، حتى يأتي على المبلغ كله خلال شهر واحد. وتذكرون أن هذا الحال قد صاغه المدعي العام بلهجة لا تقبل الرّد. ولكن ما رأيكم إذا كان ما حدث يختلف كل الاختلاف عن القصة التي رويت لكم؟ حيث سيتبين أنها خيالية صورت لكم شخصية هي من صنع الوهم؟ وهذا هو ما حدث فعلاً، لقد ابتكر خيالكم رجلاً آخر لا وجود له في الواقع. وقد يعترض أحدكم بأن هناك شهوداً أفادوا بأنه أنفق في يوم واحد، قبل وقوع الكارثة بشهر من الزمن، كامل مبلغ الثلاثة الآلاف روبل التي أخذها من خطيبته، فلا يمكن أن يكون قد احتفظ بنصف المبلغ. ولكن، بربكم، من هم هؤلاء الشهود؟ لقد ظهرت قيمة إفاداتهم في هذه المحكمة. وفضلاً عن ذلك، فإن الأشياء القيّمة تبدو لنا مضخمة في أيدي الآخرين، ولم يقم أحد

---

(١) اشتهر هذا القصر بأسرار أقبيته من خلال رواية معروفة.

من الشهود بإحصاء المال، بل حكموا عليه بالنظر. ألم يقل الشاهد مكسيموف أن المتهم كان يحمل في يده عشرين ألف روبل؟ ها أنتم ترون، أيها السادة المحلفون، إن علم النفس سلاح ذو حدين. لذلك، إسمحوا لي أن أستعمل الحدّ الثاني، وسترون نتيجته.

قبل وقوع الكارثة بشهر واحد، عهدت كاترينا إيفانوفنا إلى المتهم بمبلغ ثلاثة آلاف روبل وكلفته أن يرسلها بالبريد. وهنا لا بد أن نتساءل: هل اؤتمن حقاً على المبلغ بتلك الطريقة المهينة المخزية، كما قيل لنا الآن؟ إن الشهادة الأولى التي تقدمت بها السيدة الشابة في هذا الشأن كانت مختلفة عن ذلك كل الاختلاف. أما الشهادة الثانية فقد اقتصرت على صيحات منبعثة عن الحقد وحبّ الانتقام، صيحات منبعثة من كراهية مكبوتة منذ أمد بعيد. إن كون الشاهدة قد قدمت في المرة الأولى شهادة غير صحيحة، يجيز لنا الشك بصحة شهادتها الثانية أيضاً. إن المدعي العام لا يريد، ولا يجرؤ (وأنا أستعمل كلماته ذاتها) أن يتعرض لهذه الناحية. فليكن له ذلك، وأنا أيضاً لن أتعرض لها، ولكنني سأبيح لنفسي تقديم ملاحظة، وهي أنه إذا كان إنسان رفيع الشأن سامي المبادىء، كالسيدة الشابة التي تتمتع باحترام عظيم، أقول إذاكان مثل هذا الإنسان يسمح لنفسه أن ينقض فجأة في قاعة المحكمة، شهادته الأولى بدافع الرغبة الواضحة في القضاء على المتهم، فمن الجلي أن هذه الشهادة لم تكن موضوعية ومنصفة. أليس من حقنا أن نفترض أن امرأة يحركها حب الانتقام، قد بالغت وضخمت الأمور؟ أجل، فهي ولا ريب قد بالغت، ولا سيما في وصف الإهانة والمذلة حين تقديمها المال له. كلا أيها السادة المحلفون، فإن المال قدم بطريقة تسهّل قبوله، ولا سيما إذا قدم إلى رجل سهل الانقياد كالمتهم، وفي وقت كان يتوقع أن يتسلم قريباً من والده، الثلاثة الآلاف التي كان يعتبرها ملكاً له من الميراث. لقد كان هذا يدلّ فعلاً على عدم تبصره، غير أن عدم تبصره هذا الذي لا يؤاخذ عليه، هو الذي أوحى إليه بالثقة في أن والده سيعطيه المال، وأنه سيحصل عليه، فهو بالتالي يستطيع أن يرسل المال الذي اؤتمن عليه وأن يسد الدين.

ولكن المدعي العام يأبى التصديق أنه استطاع في اليوم ذاته، أن يخبىء

نصف المال في كيس صغير. وهو يعتبر أن ذلك لا يتفق وخلق المتهم، ولا يمكن أن تكون تلك هي مشاعره في ذلك الحين. غير أن المدعي العام نفسه يتحدث عن طبيعة كرامازوف الشاملة، ويوضح مطولاً طرفي النقيض اللذين يستطيع كرامازوف الجمع بينهما في آن واحد. إن كرامازوف لا يمثل إلا طبيعة ذات وجهين، يتجاذبها طرفا النقيض حتى إنه إذا استبدت به أعنف رغبة في المرح الصاخب وتبديد المال استطاع في ذات اللحظة أن يجد مخرجاً إذا ألمّ به شيء ما في الجانب الآخر. وقد ألمّ به شيء في الجانب الآخر: إنه الحب، الحب الجديد الذي اضطرم في قلبه، وفي سبيل هذا الحب شعر بحاجة إلى المال تفوق حاجته له لمجرد إنفاقه على السكر مع عشيقته. فلو حدث أن قالت له: «أنا لك، ولن أرضى بفيودور بافلوفيتش»، لكان في حاجة إلى المال لكي يرحل بها. إن ذلك أهم من الإنفاق على السكر. وهل يمكن لرجل مثل كرامازوف أن يعجز عن إدراك ذلك؟ إن ذلك الشعور بالقلق هو الذي كان يقضّ مضجعه. فما هو وجه الغرابة في احتفاظه بذلك المال على سبيل الاحتياط؟.

ومرت الأيام، ولم يرد له فيودور بافلوفيتش الآلاف الثلاثة التي كان يتوقعها؛ بل على نقيض ذلك، فقد علم المتهم أن والده ينوي استعمال هذا المبلغ لإغراء المرأة التي كان يحبها هو، أي المتهم. وقد قال في نفسه: إذا لم يعطني فيودور بافلوفيتش المال، فسأكون لصاً أمام كاترينا إيفانوفنا. وعندئذ لمعت في ذهنه فكرة الذهاب إلى كاترينا إيفانوفنا، فيضع أمامها الألف والخمسمائة روبل التي ما يزال يحتفظ بها، ويقول لها: «إنني وغد، ولكني لست لصاً» فإذاً أمامنا سببان لحرصه على ذلك المبلغ من المال، حرصه على حبة عينه، وعدم فتحه الكيس الصغير مرة بعد مرة، وإنفاق ما في داخله من مال. لماذا تنكرون على المتهم الشعور بالشرف؟ بلى، إنه يملك الشعور بالشرف، وقد أسلم بأن هذا الشعور ليس في مكانه الصحيح، إلا أنه موجود ويعيشه باندفاع عاطفي قوي، وقد جاء المتهم بالبرهان على وجوده.

وهنا تزداد الأمور تعقيداً، فإن غيرة المحبين بلغت أوجها في نفسه، وألح الألم على عقله المحموم، إذ عاد يواجه السؤالين ذاتهما: إذا أعدت

المال إلى كاترينا إيفانوفنا، فأنى لي المال للهرب بغروشينكا؟ فلعل السبب في تصرفاته الفاسدة الشاذة، وإسرافه في الشراب، وإثارته الشغب في الحانات طوال ذلك الشهر عائد إلى تعاسته وإلى عجزه عن احتمال ألمه. وقد أطبقت عليه خواطره تلك حتى دفعت به في النهاية إلى اليأس. فأرسل أخاه الأصغر إلى أبيه لكي يلتمس الثلاثة الآف للمرة الأخيرة، ولكنه اقتحم منزل أبيه دون أن ينتظر جواباً، وانتهى به الأمر إلى ضرب الرجل العجوز على مرأى من شهود. وفقد بعد ذلك كل أمل في الحصول على المال من أي إنسان؛ فإن أباه لن يعطيه المال حتماً بعد أن ضربه.

وفي مساء ذلك اليوم ذاته ضرب على صدره حين التقى أخاه، ضرب مكان الكيس في أعلى صدره، وأقسم أنه كان بإمكانه دفع صفة النذالة عن نفسه، غير أنه مع ذلك سيظل نذلاً، لأنه رأى سلفاً أنه لن يستعمل إمكانيته تلك، وأنه لن يجد قوة العزيمة لذلك. لماذا، لماذا يأبى المدعي العام أن يصدق إفادة ألكسي كرامازوف، التي يتبدى فيها الصدق والعفوية والنزاهة؟ ولماذا يأبى عليّ أن أصدق أن المال مخبأ في شق، في أحد أقبية قلعة أودلف؟.

وفي مساء ذلك اليوم ذاته أيضاً، وبعد حديثه مع أخيه كتب المتهم تلك الرسالة التي يتعلق مصيره عليها، وهذه الرسالة هي القرينة الكبرى ضده، وهي أساس اتهامه بالسرقة! «سوف أطلب المال من الجميع، فإذا لم أحصل عليه فسأقتل والدي وأستولي على الغلاف المربوط بشريط قرنفلي من تحت مفرشه حالما يذهب إيفان»، لقد وصفت هذه العبارة لنا بأنها خطة قتل كاملة فلا بد إذاً أن يكون المتهم هو القاتل، ألم يهتف بنا المدعي العام قائلاً: لقد وقع الأمر كما جاء في الرسالة تماماً.

أما أنا فأقول أولاً أن هذه الرسالة كتبها رجل مخمور، في ساعة من ساعات الضيق العظيم؛ وثانياً إن المتهم إنما يتحدث فيها عن الغلاف بما سمع عنه من سميردياكوف، لأنه هو نفسه لم ير الغلاف قط. وأقول ثالثاً أنه كتب الرسالة فعلاً، ولكن كيف تستطيعون أن تثبتوا أنه نفذ ما جاء فيها؟ هل أخذ السجين الغلاف من تحت الوسادة، وهل وجد فيه المال وهل كان لذلك

المال وجود أصلاً؟ وهل مضى المتهم مسرعاً للحصول على المال، أدعوكم إلى التذكر؟ لقد هرع لا ليسرق، بل ليعرف مكانها، مكان المرأة التي حطمته. إنه لم يهرع لكي ينفذ الخطة المدونة في الرسالة، أي أنه لم يكن يعدو لكي يرتكب السرقة عن سابق عمد وإضرار، بل عدا فجأة لا يدفعه سوى الغيرة التي ألهبت نفسه. أجل، قد يقال لي أنه بعد أن وصل هناك وقتله استولى على المال أيضاً. ولكن، هل قتله فعلاً؟ إنني أعلن باستهجان بطلان تهمة السرقة. فلا يمكن توجيه تهمة بالسرقة إذا استحال تحديد الشيء المسروق على وجه الدقة؛ هذا مبدأ معروف. بقي أن نسأل: هل قتله بدون أن يسرق، أو هل كان هو قاتله فعلاً؟ هل ثبت ذلك؟ ألسنا أمام رواية من نسج الخيال؟.



ولا جريمة قتل أيضاً

أيها السادة المحلفون، إن الأمر متعلق بمصير إنسان، فعليكم بالحذر والحكمة. لقد سمعتم المدعي العام نفسه يعترف بأنه ظلّ حتى انعقاد هذه الجلسة متردداً في اتهام السجين بارتكاب الجريمة عن سابق تصور وتصميم؛ وأنه بقي على تردده حتى رأى تلك الرسالة المشؤومة التي كتبها إنسان مخمور، وهي تقدم إلى المحكمة. «لقد وقع الأمر كما جاء في الرسالة»، ولكنني أقول مرة أخرى أنه هرع إلى الحديقة، باحثاً عنها، لا يبغي سوى معرفة مكانها. إن هذه حقيقة لا تقبل الجدل. فلو كانت في منزلها، لما غادره مسرعاً، بل لبقي فيه إلى جانبها، وبالتالي لما نفذ ما ذكره في الرسالة. لقد غادر البيت مسرعاً على حين غرة، وبدون تفكير سابق، وأرجح أنه نسي في تلك اللحظة الرسالة التي كتبها وهو سكران. لقد قيل: ولكنه اختطف المدقة، إنكم ولا شك تتذكرون أن تحليلات عميقة من علم النفس استهدفت تلك المدقة، كيف أنه نظر إليها كسلاح، وكيف اختطفها وهلم جرا. وهنا تخطر على بالي فكرة عادية: ما الذي كان يمكن حدوثه لو أن تلك المدقة لم تسترع انتباهه، لو أنها لم تكن موضوعة على الرف حيث رآها المتهم فاختطفها، بل كانت مخبأة في خزانة؟ لا ريب في أن المتهم لم يكن ليراها في هذه الحالة، ولمضى بدون سلاح، خاوي اليدين، ولما أتيح له أن يقتل أحداً. فكيف يمكنني إذاً أن أعتبر المدقة دليلاً على إصرار سابق؟.

أجل، قد يقال أن المتهم صرّح في الحانات أنه سيقتل أباه، وأنه قبل وقوع الكارثة بيومين، في ذلك المساء الذي خطّ فيه رسالته وهو مخمور، كان هادئاً ولم يثر شغباً سوى مشاجرته مع مستخدم بقال، لأن كرامازوف لا يستطيع إلاّ أن يتشاجر مع أحد، حقاً! أقول رداً على ذلك أنه لو كان أعدّ

خطة جريمة القتل كما ورد في رسالته، لما تشاجر مع أي إنسان حتى مع المستخدم، لأن إنساناً يدبر مثل هذه الجريمة، ينطوي على نفسه ويلجأ إلى الهدوء والعزلة، ويتحاشى أن يراه الناس أو يسمعوه وهو يعمد إلى ذلك غريزياً لا تدبراً. أيها السادة المحلفون، إن أسلوب التحليل النفسي سلاح ذو حدّين، ونحن أيضاً نحسن استعماله. أما ما صدر عنه من الصراخ والتهديدات في الحانات طوال الشهر، أفليس الأطفال، والسكارى الخارجون من الحانات يصيحون غالباً: «سأقتلك»؟ ولكنهم لا يقتلون أحداً. وتلك الرسالة الخطيرة، أليست هي أيضاً من هياج السكر؟ أليست مجرد تبجح من سكران وهو يخرج من الحانة: سأقتلكم! سأقتلكم جميعاً! ولم لا، لم لا يكون الأمر هكذا؟ لماذا نصف تلك الرسالة بأنها «خطيرة» بدلاً من أن نقول أنها مضحكة؟ لأن والده وجد مقتولاً، ولأن شاهداً تلقى ضربة طرحته أرضاً مضرجاً بدمائه؟ ولذلك، يقال لنا أن كل شيء تم وفقاً لما جاء في الرسالة، وأن الرسالة لم تكن مضحكة بل خطيرة. ويقولون الآن: حمداً لله! لقد وصلنا النقطة الجوهرية: بما أنه كان في الحديقة، فلا بد وأن يكون قد قتله. على هذه الكلمات القليلة: «بما أنه، فلا بد أن يكون»، إنما يرتكز اتهام المدعي العام بأسره: «لقد كان هناك، فلا بد أن يكون...». ولكن ما قولكم إذا أسقطنا «لا بد»، حتى ولو كان هناك؟ أجل، إنني أعترف بأن توافق الوقائع يثير الريب في الحقيقة. ولكن هلاّ تفحصتم جميع هذه الوقائع كلاً على حدة، بغض النظر عن تسلسها. فلماذا، مثلاً، يأبى المدعي العام أن يصدق شهادة المتهم التي يقول فيها أنه ابتعد عن نافذة غرفة أبيه؟ تذكروا عبارات التهكم التي أسرف بها المدعي العام وهو يشير إلى مشاعر الورع الجديرة بالاحترام، التي فاجأت نفس القاتل؟ ولكن ما قولكم إذا ثبت أنه كان هناك شيء من هذا القبيل، شيء يعبر عن الرهبة الدينية، إذا لم نقل احترام الأبوة؟ لقد قال المتهم في التحقيق: «لا بد أن أمي قد صلّت لأجلي في تلك اللحظة». ولذلك فقد هرب مسرعاً فور إدراكه أن السيدة سفيتلوف لم تكن عند والده. فإن اعترض المدعي العام قائلاً: إن المتهم لم يكن في وسعه أن يدرك ذلك بنظرة من النافذة، أقول: لماذا لم يكن في وسعه؟ لقد فتحت النافذة عندما نقر السجين الإشارات المتفق عليها، ولعلّ فيودور بافلوفيتش قد أفلتت منه

بعد ذلك كلمات أو نداءات علم منها المتهم أنها ليست هناك. لماذا نفترض حدوث كل شيء كما نتخيله، أو كما هيأنا أنفسنا لتخيله؟ إن آلاف الأشياء قد تحدث في الحقيقة ويقصر عنها أدق التصورات.

قد يقال: نعم، ولكن غريغوري رأى الباب مفتوحاً، وهذا يثبت أن المتهم قد دخل المنزل، ما في ذلك ريب، ولذلك فقد قتله. والآن لي كلمة في ذلك الباب، أيها السادة المحلفون... أرجو أن تلاحظوا أن لدينا شهادة واحدة لا غير بشأن هذا الباب هي لرجل، كانت حالته آنئذ تسمح له... ولكن لنسلّم جدلاً بأن الباب كان مفتوحاً، وأن المتهم كذب في إنكاره، بدافع من غريزة الدفاع عن النفس، وهو أمر طبيعي في حالته، ولنسلّم بأنه دخل المنزل فعلاً، فماذا يعني ذلك؟ لماذا نستنتج من وجوده هناك أنه ارتكب جريمة القتل؟ من الجائز أن يكون قد اقتحم المنزل، وجال في غرفه؛ كما يمكن أن يكون قد دفع والده بيده، وربما ضربه، ولكنه ما كاد يطمئن إلى عدم وجود السيدة سفيتلوف هناك، حتى ولّى خارجاً مغتبطاً بعدم وجودها هناك، وعدم إقدامه على قتل والده. ومن الجائز أن تكون نجاته من تجربة قتل والده، وتمتعه بصفاء الضمير وبراءته، واغتباطه بانتصاره على الإغراء بقتله، هي التي بنت في نفسه المرح ونقاء الشعور، شعور العطف والرأفة، فقفز إلى الحديقة ثانية بعد ذلك بدقيقة واحدة، لكي يمد يد المساعدة إلى غريغوري، بعد أن كان قد صرعه في غمرة اضطرابه وغضبه.

لقد وصف لنا المدعي العام بعبارات قاتمة حالة المتهم العقلية الرهيبة وهو في موكرو، إذ تبدى أمامه الحب من جديد يناديه إلى حياة جديدة، بينما كان الحب مستحيلاً عليه لأن وراءه جثة والده المضرجة بالدماء، ووراء الجثة القصاص. لكن المدعي العام أجاز له الحب، وعلله، على طريقته الخاصة بتشبيه حالته بالسكر، وبمجرم يساق إلى الإعدام، فيرى أن الطريق أمامه ما زالت طويلة، وما إلى ذلك من أقوال؛ ولكنني أعود فأسأل المدعي العام: ألم يبتكر خيالك هنا شخصية جديدة؟ أحقاً أن المتهم، وقد لطخ يديه بدم أبيه، بلغت منه الفظاظة وقسوة القلب حداً استطاع معه أن يفكر في تلك اللحظة بالحب والتخطيط للخلاص؟ كلا، كلا! فهو حالما اتضح له أنها تهواه وتدعوه إلى جانبها، وتعده بحياة جديدة سعيدة، آه! إنه عندئذ لا بد وأنه شعر

برغبة في الاحترام لا تردّ ولا تقهر، ولا بد وأنه قد انتحر حتماً، لو أن ضميره كان يعذبه بسبب قتله والده، آه، كلا! إنه لو صحّ ذلك لما نسي أين وضع مسدسيه! إنني أعرف المتهم: إن قسوة القلب والوحشية التي يرميه بها المدعي العام لا تتفقان وخلقه. لا بد وأنه كان سيقتل نفسه حتماً لو صحّ ذلك. وهو لم يقدم على الانتحار لسبب واحد وهو «أن صلوات أمه قد خلصته» ولأنه كان بريئاً من دم والده. لقد كان معذباً، حزين النفس تلك الليلة في موكرو، ولم يكن حزنه وقلقه إلّا بسبب غريغوري العجوز، وقد ابتهل المتهم إلى الله سائلاً الشفاء للرجل العجوز، راجياً ألّا تكون ضربته قاضية، وأن ينجو هو من الألم بسببها. ولم لا نقبل هذا التفسير للحقائق؟ وهل نملك برهاناً على أن المتهم كاذب في أقواله؟.

ولكن قد يقال في الحال: وماذا عن جثة والده الصريع! فإذا كان قد غادر المنزل بدون أن يقتله، فمن هو قاتله إذن؟ وهنا أعود وأقول لكم، إنكم تأخذون بمنطق المدعي العام: إذا لم يكن المتهم قاتله فمن الذي قتله؟ فليس أمامنا شخص آخر نحمله وزر الجريمة.

أحقاً أن الأمر كذلك أيها السادة المحلفون؟ هل يستحيل حقاً علينا أن نتهم شخصاً آخر بهذه الجريمة؟ لقد سمعنا المدعي العام يحصي على أصابعه عدد الذين كانوا في المنزل ليلة حدوثها. إنهم خمسة، منهم ثلاثة لا يمكن بحال من الأحوال اعتبارهم قتلة: القتيل نفسه، وغريغوري العجوز، وزوجه. يبقى إذاً أمامنا المتهم وسميردياكوف. وقد استمعنا إلى المدعي العام يهتف بلهجة مؤثرة قائلاً: إن السجين اتهم سميردياكوف لأنه لم يكن أمامه إنسان سواه يلبسه الجريمة، وأنه لو كان هنالك إنسان سادس، أو شبح إنسان سادس، لتخلى وهو خجل عن اتهام سميردياكوف وسارع إلى إتهام هذا الإنسان السادس. ولكن أيها السادة المحلفون، لم لا أستطيع أن أستنتج عكس هذا الاستنتاج تماماً؟ هنالك اثنان لا ثالث لهما: المتهم وسميردياكوف. فلماذا لا أستطيع أن أقول أنكم تتهمون موكلي لأنه ليس أمامكم إنسان غيره تلصقون به التهمة؟ وأنتم لا ترون أمامكم شخصاً غيره لأنكم قررتم استبعاد كل الشبهات عن سميردياكوف منذ اللحظة الأولى.

نعم إن الذين يتهمون سميردياكوف المتهم وأخواه والسيدة سفيتلوف. ولكن هنالك آخرون أيضاً يتهمونه: هنالك شائعات يكتنفها الغموض عن موجة من الأسئلة والشكوك تساور نفوس الجمهور فضلاً عن تقرير مبهم، وشعور بالترقب. وأخيراً لدينا دليل مستمد من مجموعة حقائق تشير إليه رغم كونها لا تدينه. فهنالك في المقام الأول تلك النوبة من الصرع التي أصابته في يوم الكارثة بالذات، والتي لا أدري السبب الذي جعل المدعي العام نفسه يلح على إثبات صحتها، باهتمام وعناية. وهنالك أيضاً انتحار سميردياكوف المفاجيء عشية يوم المحاكمة. ثم هنالك الإفادة المفاجئة التي قدمها اليوم إلى المحكمة أخو المتهم الأكبر، الذي كان يعتقد بمسؤولية أخيه عن الجريمة، ولكنه تقدم اليوم برزمة من الأوراق النقدية وأعلن أن سميردياكوف هو القاتل. نعم، إنني أشاطر هيئة المحكمة والمدعي العام قناعتهم بأن إيفان كرامازوف مصاب بحمى الدماغ، وأن إفادته اليوم قد تكون محاولة يائسة، أعدها وهو في نوبة هذيان من أجل إنقاذ أخيه، عن طريق إلقاء وزر الجريمة على رجل مات، ولكن هذا لا ينفي أن اسم سميردياكوف تردد من جديد، وأن هنالك أمراً جديداً يلمح إلى لغز ما. هنالك شيء يحتاج إلى تعليل، شيء غير مكتمل. ولعله فيما بعد يصبح معللاً ومكتملاً. ولكننا لن نستبق الأمور فإننا سنعود إلى هذا الأمر. ومنذ قليل، قررت المحكمة متابعة المحاكمة، فأنا أستطيع الآن أن أتقدم ببعض الملاحظات على الصورة التي رسمها المدعي العام لسميردياكوف بكثير من الذكاء والبراعة. وأنا مع إعجابي بذكاء المدعي العام لا أستطيع أن أقره على تلك الصورة. لقد زرت سميردياكوف وقابلته وتحدثت إليه، فأحدث في نفسي صورة تختلف اختلافاً عظيماً عن الصورة التي رسمها المدعي العام. صحيح أنه كان عليل الجسم، ولكنه لم يكن بحال من الأحوال ذلك الرجل الضعيف الذي صوّره لنا المدعي العام. ولم أجد فيه شيئاً من الخجل الذي أصرّ المدعي العام على أنه من صفاته. وهو أيضاً بعيد كل البعد عن السذاجة. بل إن الأمر على نقيض هذا، فقد لمست فيه حذراً عظيماً يخفيه وراء قناع من البلادة، كما لمست فيه ذكاء يؤهله إلى مستويات عدة. لقد أسرف المدعي العام في البساطة إذ ظنّ فيه ضعف

الذهن. إن الأثر الذي تركه في نفسي واضح كل الوضوح، فقد غادرته وأنا مقتنع بأنه إنسان مملوء بالحقد والغرور، محب للانتقام وحسود متطرف في الحسد. وقد قمت ببعض التحريات، فتبين لي أنه يمقت أصله ويخجل منه، ويصرف بأسنانه كلما تذكر أنه ابن «ليزافيتا النتنة». وكان يجافي الخادم غريغوري وزوجه ولا يظهر لهما الاحترام؛ مع أنهما حدبا عليه وربياه في طفولته. وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها، ويحلم بالسفر إلى فرنسا وأن يصبح فرنسياً. وكان كثيراً ما يردد أنه لا يملك المال اللازم لسفره. ويخيل إلي أنه لم يحب أحداً إلا نفسه، وكان يقدر نفسه تقديراً عظيماً يدعو إلى الاستغراب. أما ثقافته فهي تعكس تعلّقه فقط بالثياب الجميلة والقمصان النظيفة والأحذية اللامعة. وبما أنه كان يعتقد بأنه ابن غير شرعي لفيودور بافلوفيتش (وهنالك دليل على ذلك)، فلعله كان يقارن وضعه بوضع أبناء سيده الشرعيين فيشعر بالمقت والحقد. كان لهم كل شيء، ولم يكن له أي شيء. كانت لهم جميع الحقوق، وهم سيرثون تركة سيده، أما هو فليس سوى طباخ في منزلهم. وقد أنبأني هو نفسه بأنه ساعد فيودور بافلوفيتش على وضع الأوراق النقدية في الظرف. ولعل الهدف الذي أعدّ المبلغ من أجله ـ وهو مبلغ كان قميناً بأن يحقق له أحلامه ـ قد أثار في نفسه الغيظ والكراهية. وأكثر من هذا أنه رأى بأم عينه الأوراق النقدية بألوانها الزاهية. (وقد تعمدت أن أسأله عن هذا الأمر). ولا يجدر برجل طموح حسود أن يرى مبلغاً كبيراً من المال دفعة واحدة! وقد كانت تلك أول مرة يرى فيها مثل ذلك المبلغ الكبير من المال بين يدي شخص واحد. ولعل منظر الأوراق النقدية الزاهية الألوان قد خلقت في نفسه توجهاً شريراً، لم تظهر نتائجه في الحال.

إن المدعي العام الذكي، وضع أمامنا بدهاء عظيم؛ جميع الحجج التي يمكن اعتمادها لتأييد أو نقض افتراض مسؤولية سميردياكوف عن الجريمة، ووجه إلينا سؤالاً خاصاً عن إمكانية تظاهر سميردياكوف بأنه أصيب بنوبة الصرع. ولكنه قد لا يكون في الأمر شيء من التظاهر، ولعل النوبة وقعت بصورة طبيعية، ولعلها زاولته أيضاً كذلك، وشفي منها الرجل العليل، وربما لم يكن شفاؤه تاماً، لكنه استعاد وعيه كما يحدث للمصابين بداء الصرع.

ويسأل المدعي العام عن اللحظة التي يمكن أن يكون سميردياكوف قد اقترف فيها جريمة القتل. والجواب عن سؤاله يسير، وتحديد هذه اللحظة سهل، فمن الجائز أنه استيقظ من سباته العميق (لأنه كان نائماً فحسب، فإن نوبة الصرع يعقبها دائماً سبات عميق) عندما صرخ غريغوري بأعلى صوته «يا قاتل أبيه»! ولعل هذا الصراخ الذي مزق حجب الظلام وسكون الليل أيقظ سميردياكوف من نومه الذي لم يكن في تلك اللحظة عميقاً تماماً، ولعله استيقظ بصورة طبيعية، قبل ذلك بساعة من الزمن.

فلما نهض من فراشه، مضى بصورة غير شعورية، وبدون غاية معينة إلى مصدر الصوت لكي يعرف ماذا جرى، وربما كان رأسه ما زال مثقلاً، وأفكاره غير واضحة تماماً من أثر النوبة. ولكنه ما أن وصل إلى الحديقة، حتى يمضي إلى النافذة المضاءة ويسمع النبأ الرهيب من سيده الذي سرّ برؤيته طبعاً. وفي الحال ينصرف ذهنه إلى التفكير وهو يستمع إلى سيده الذي تملكه الذعر. وها هي الفكرة تتحدد معالمها في عقله المضطرب. إنها فكرة رهيبة ولكنها مغرية ومنطقية: أن يقتل الرجل العجوز، ويستولي على الثلاثة الآلاف، ويلقي المسؤولية كلها على سيده الشاب، ولعل شهوة مخيفة للحصول على المال، على الغنيمة، خلبت لبه واستحوذت عليه عندما اطمأن إلى أن أمره لن يكتشف. إن هذه الميول المفاجئة التي لا سبيل إلى مقاومتها كثيراً تهب في النفس، عندما تحين فرصة مناسبة، ولا سيما القتلة الذين لم يسبق لهم أن خطرت ببالهم فكرة ارتكاب جريمة القتل. ومن الجائز أن سميردياكوف دخل المنزل ونفذ خطته. وإذا ما تساءلتم عن السلاح الذي استعمله، فربما كان حجراً حمله من الحديقة! ولماذا، لأية غاية؟ للحصول على الثلاثة الآلاف التي تؤمن له مستقبله. لا تحسبوني أناقض نفسي، فلعل المال كان له وجود ولعل سميردياكوف وحده كان يعرف المكان الذي وضعه فيه سيده. وربما تساءلتم أيضاً عن الظرف الممزق الذي عثر عليه ملقى على الأرض؟ كنت أستمع إلى المدعي العام يشرح نظريته القائلة بأن إلقاء الظرف على الأرض هو من عمل لص غير ضليع في السرقة، مثل كرامازوف. أما سميردياكوف، فلو قام بالسرقة لما غفل عن أن لا يترك أي دليل ضده. لقد بدا لي وأنا أستمع

إليه أنني كنت أستمع إلى حجة ليست غريبة عني، وهل تصدقون إذا قلت لكم أنني سمعت الحجة ذاتها والرأي ذاته، في السلوك الذي سلكه كرامازوف، قبل يومين اثنين، من سميردياكوف نفسه؟ وأكثر من ذلك إن الرأي لفت انتباهي في ذلك الحين. لقد شعرت بوضوح بأنه كان يصطنع السذاجة، وأنه كان يريد أن يسبقني باقتراح الفكرة علي، لكي أتخيل بعد حين أنها فكرتي، ومعنى ذلك أنه أوحى لي بالفكرة، أفلا يمكن أن يكون أوحى بالفكرة ذاتها للمدعي العام الموهوب، وجعلها تنمو في عقله بدون أن يشعر بها؟.

وقد يسألني سائل: ولكن ما قولك في المرأة العجوز، زوجة غريغوري؟ إنها ظلت تسمع أنين الرجل العليل قربها، طوال الليل. أجل، لقد سمعته، ولكن إفادتها حجة واهية لا يعتمد عليها. تعرفت ذات مرة على سيدة كانت تشكو مر الشكوى من كلب في ساحة منزلها ظلّ ينبح طوال الليل فبقيت مسهدة. ثم تبين أن الكلب المسكين لم ينبح أكثر من مرة أو مرتين. وهذا أمر طبيعي. فإذا كان المرء نائماً وسمع أنيناً استيقظ متضايقاً لأنه أوقظ من نومه، ولكنه لن يلبث أن يعود إلى نومه وبعد ساعتين يسمع الأنين مرة أخرى، فيستيقظ ثم ينام مرة أخرى؛ ويتكرر هذا مرة أخرى بعد ساعتين، أي أنه يحدث ثلاث مرات فقط خلال الليل كله. وفي صباح اليوم التالي يستيقظ صاحبنا متذمراً لأن أنيناً استمر طوال الليل حرمه النوم. وطبيعي أن يحسّ بالأمر هكذا: فهو ينسى فترات النوم ولا يذكر إلا لحظات السهاد. وهكذا يشعر كأنه أوقظ بشكل متصل غير منقطع.

ويسألنا المدعي العام: لماذا لم يعترف سميردياكوف بالجريمة في رسالته الأخيرة؟ أيصحو ضميره للاعتراف بالانتحار، ويخونه في الاعتراف بالقتل؟ معذرة، أيها السادة المحلفون، فالضمير يعني التوبة، والمنتحر قد لا يشعر بالتوبة، بل يشعر باليأس فحسب. شتان ما بين التوبة واليأس. واليأس قد يحمل معه حب الانتقام والكره الشديد، ولذلك فإن المنتحر، قد يشعر وهو يقدم على قتل نفسه، بكراهية مضاعفة لأولئك الذين كان يحسدهم طوال حياته.

أيها السادة المحلفون، حذار من أي خطأ قضائي! أين يتعارض العقل

مع كل ما عرضته لكم الآن؟ دلوني على الخطأ في تعليلي؛ دلوني على وجه الاستحالة أو البطلان فيه. وإذا عثرتم في افتراضي الذي عرضته لكم، على ظلّ من الإمكانية، على ظلّ من الاحتمال، فلا تصدروا حكماً يدين المتهم. ولكن هل ستعثرون على ظلّ فحسب؟ إنني أقسم بكل ما هو مقدس، على أنني أعتقد اعتقاداً تاماً بصدق التعليل الذي بينته لكم الآن. إن ما يقلقني إلى حدّ الاشمئزاز هو أن هذا الخليط من الحقائق التي كدسها المدعي العام ضد المتهم، ليس بينها حقيقة واحدة أكيدة لا يمكن دحضها. ومع ذلك فإن تراكم هذه الحقائق سيودي بهذا الإنسان السيء الحظ. أجل إن نتيجة هذا التراكم رهيبة: فهنالك الدم الذي يقطر من أصابعه، والقميص الملوث بالدم، وصيحة «يا قاتل أبيه» التي دوّت في ظلمة الليل، والعجوز الذي خرّ على الأرض محطم الجمجمة، ثم ذلك الخليط من العبارات والحركات والصيحات التي صدرت عن المتهم. رباه! إن لهذا كله أثراً عظيماً، وهو يستطيع أن يؤثر على العقل ويوجهه وجهة معينة؛ ولكن هل أثر على عقولكم أيها السادة المحلفون؟ أذكروا أن السلطات المعطاة لكم مطلقة، وأن لكم حق الحلّ والربط، ولكن المسؤولية تطّرد مع السلطة.

إنني لا أتراجع قيد أنملة عما قلته الآن، ولكن لنسلّم جدلاً للحظة بقول المدعي العام إن موكلي التعيس لطخ يديه بدم أبيه. أعود فأقول أن هذا مجرد افتراض؛ فأنا لا أشك لحظة واحدة في براءته. ولكني مع ذلك سأفترض أن موكلي قتل والده. فحتى في هذه الحالة أرجو أن تصغوا إلى ما سأقوله، فأنا أودّ أن أقول لكم شيئاً آخر، لأني أشعر بأن صراعاً مريراً لا بد أن تشهده قلوبكم وعقولكم... أرجو الصفح عن تدخلي غير المحق بقلوبكم وعقولكم أيها السادة المحلفون، ولكني أريد أن أكون صادقاً مخلصاً حتى النهاية، فليكن الإخلاص رائدنا جميعاً!

وهنا قوطع الخطاب بتصفيق متواصل وأصوات الثناء عالية. والحقيقة أن كلماته الأخيرة كانت مفعمة بالإخلاص إلى حدّ جعل الجميع يشعرون بأنه يوشك فعلاً أن يأتي بقول هام، وأن قوله هذا سيكون له أهمية خطيرة في تحديد مسار القضية. ولكن رئيس المحكمة ما أن سمع التصفيق والهتافات

المؤيدة حتى أخذ يهدد بصوت جهوري بأنه سيخلي قاعة المحكمة إذا تكرر الحادث. فعاد الصمت التام مخيماً، وتابع فتيو كوفيتش مرافعته بصوت مفعم بالشعور، وبنبرة هي طرف نقيض اللهجة التي كان يتكلم بها حتى تلك اللحظة.



مفسد الأفكار

قال محامي الدفاع مواصلاً كلامه: ليس تراكم الحقائق وحده هو الذي يهدد بإدانة موكلي، أيها السادة المحلفون. إنما تهدده حقيقة واحدة، وهي جثة والده الميت. فلو كانت هذه الجريمة جريمة قتل عادية لنبذتم التهمة نظراً لتفاهة الأدلة إذا أمعنتم النظر في كل جزء من أجزائها على حدة، ونظراً لعدم اكتمالها وطابعها الخيالي. أو لكنتم على أقل تقدير قد ترددتم في تدمير حياة رجل بسبب تصرفات السوء التي انطبعت عنه في الأذهان، وهو ما يستحقه ويا للأسف. ولكنها ليست جريمة قتل عادية. إنها قضية قتل والد على يد ابنه. وهذا الوجه يؤثر على عقول الناس إلى حدّ يجعل الأدلة التافهة والناقصة أكثر خطورة وتأثيراً في العقول، حتى المنصفة منها، فكيف يمكن أن تبرأ ساحة متهم كهذا؟ وماذا يقال إذا كان قد ارتكب جريمة القتل وأفلت من العقاب؟ هذا هو الشعور الذي يخالج الجميع بصورة عفوية، غريزية.

أجل، إن سفك دم الوالد لشيء مخيف. إنه الوالد الذي أنجبنا وأحبنا، ولم يبخل علينا بشيء حتى بنفسه طالما تألم لمرضنا، وقاسى كثيراً طوال حياته لكي يوفر لنا السعادة، وابتهج لأفراحنا ونجاحنا في الحياة. إن قتل أب كهذا، لأمر لا يقبله العقل. أيها السادة المحلفون، ما هو الأب، الأب الحقيقي؟ ما هو معنى هذه الكلمة الجليلة؟ وما هي الفكرة العظيمة التي تطوي عليها هذا الإسم؟ أوضحت جزئياً ما هو الأب الحقيقي، وما يجب أن يكون. وفي هذه القضية التي شغلتنا وأدمت قلوبنا، إنما الأب هو فيودور بافلوفيتش، ولا تنطبق عليه صفات الأب التي أشرنا إليها الآن. وهذا هو مصدر البلاء. إن بعض الآباء في الحقيقة بلاء. ألا فلننظر في هذا البلاء عن كثب: يجب ألا نحجم عن أي شيء أيها السادة المحلفون، نظراً لأهمية

القرار الذي ستصدرونه. إن أحد واجباتنا الفذة هو ألا نرهب مواجهة الواقع، كالأطفال والنساء المرعوبات، على حدّ التعبير البديع الذي استعمله المدعي العام في خطابه القيم قبل قليل.

ولكن خصمي الموقر (وقد كان خصماً لي حتى قبل أن أقول كلمة واحدة) هتف مرات عديدة «إنني لن أترك الدفاع عن السجين للمحامي القادم من بطرسبورغ، إنني أتهم، ولكنني أدافع أيضاً»! لقد ردد ذلك مرات عديدة، ولكن غاب عنه أن يذكر أنه إذا كان هذا المتهم قد ظلّ وفياً للجميل ثلاثة وعشرين عاماً، مقابل رطل من البندق قدمه له الرجل الوحيد الذي أحسن إليه في حياته، وهو طفل في منزل والده، أفلا يمكن أن يذكر مثل هذا الرجل أيضاً كيف كان يعدو في ساحة منزل أبيه الخلفية «حافي القدمين، وسرواله الصغير معلق بزر واحد»، وأنا أردد تعبير الطبيب هرتزنشتوبي الرقيق القلب ذاته.

أيها السادة المحلفون، هل يجب التدقيق في هذا البلاء والإصرار على أمور نعرفها جميعاً؟ ماذا لقي موكلي عندما وصل إلى هذه المدينة، إلى منزل أبيه؟ ولماذا لا نرضى أن نصف موكلي إلا بأنه أناني فظ ووحش؟ إنه ضال عنيف، خارج على النظام، ونحن نحاكمه الآن على ذلك. ولكن من هو المسؤول عن حياته؟ من هو المسؤول عن تربيته الفاسدة، على الرغم من ميوله الممتازة ورقة إحساسه وعرفانه للجميل؟ هل عوده أحد على الاستقامة؟ هل أنار أحد عقله بالعلم؟ هل منحه أحد الحب والحنان في طفولته؟ لقد ترك أمر موكلي للعناية الإلهية، كأنه حيوان متوحش. ولعله كان ظامئاً لرؤية أبيه بعد طول البين. ولعله ذكر طفولته ألف مرة وأبعد عن خياله تلك الأشباح الكريهة التي كانت تلاحقه طيلة طفولته، ولا بد أنه فعل ذلك رغبة في الصفح عن والده ومعانقته. وماذا لقي؟ قوبل بعبارات التقريع الجارحة، والشكوك والخصام على المال. ولم يسمع إلا أحاديث بذيئة وآراء في الحياة تثير التقزز كل يوم أثناء احتساء البراندي، وانتهى به الأمر إلى رؤية والده ينشط لسلبه حبيبته مستعملاً مالاً يعتبره الشاب له. إن في هذا منتهى القسوة والخروج على الأخلاق، أيها السادة المحلفون! وأكثر من هذا فإن الرجل العجوز كان هو يشكو دائماً من قلة عاطفة ابنه وعدم احترامه إياه. وكان حريصاً على

التشهير به في المجتمع والإساءة إلى سمعته وشراء ديونه غير المدفوعة لكي يلقي به في غياهب السجون.

أيها السادة المحلفون، إن الناس أمثال موكلي، الذين يبدون في الظاهر قساة، غير مهذبين، ضالين، هم أحياناً، بل غالباً أرقاء القلوب، ولكنهم لا يعبرون عن رقة قلوبهم. لا تضحكوا، ولا تسخروا من تحليلي هذا. لقد تهكم الآن المدعي العام الموهوب بلا رأفة ولا هوادة على تعشق موكلي شعر شيللر، وعلى تعشقه الأشياء السامية والجميلة! ولو كنت مكانه لما تهكمت على ذلك. أجل، إن مثل هذه الطبائع ـ آه، دعوني أدافع عن هذه الطبائع، التي كثيراً، كثيراً ما يساء فهمها ويقسو الناس عليها ـ إن هذه الطبائع كثيراً ما تتعطش للحنان والخير والجمال، وهذا كما يبدو، مناقض لجوهر تلك الطبائع، مناقض لقسوتها وعنفها. إن تعطشها هذا يكون لا شعورياً، لكنه قوي جارف. إن هذه الطبائع التي تبدو في الظاهر ضارية متدفقة الشعور، تتسع لحب النساء مثلاً، حباً سامياً روحياً. أناشدكم مرة أخرى عدم الاستهزاء، فهذه هي حال طبائع هؤلاء الناس في معظم الأحيان، ولكنهم عاجزون عن كبح اندفاعهم العاطفي الذي يكون أحياناً فظاً، تسهل ملاحظته من خارج، أما الإنسان الداخلي فغير منظور، وسرعان ما تهدأ عواطفهم. ولكن المخلوق النبيل السامي الذي يبدو فظاً عديم التهذيب، يحاول تقويم نفسه، وتجديد حياته، ينشد السمو بنفسه، ويسعى لكي يكون نبيلاً وشريفاً، سامياً وجميلاً، مهما لقي هذا التعبير من سخرية.

قلت قبل هنيهة أنني لن أبيح لنفسي التعرض بشيء لما ورد عن قصة المتهم مع الآنسة إيفانوفنا، ولكنني أستطيع أن أقول كلمة واحدة في الموضوع. إن ما سمعناه في هذه القاعة لم يكن شهادة، بل كان صراخ امرأة مهتاجة حقودة، وما كان من حقها ـ كلا، لم يكن من حقها هي! ـ أن ترميه بالخيانة، لأنها هي التي خانته، ولو اتسع وقتها للتفكير والتأمل، لما أقدمت على الإدلاء بمثل هذه الشهادة. لا تصدقوها! كلا، إن موكلي ليس وحشاً، كما وصفته!.

إن فادي الجنس البشري قال وهو في طريقه إلى الصليب: «أنا الراعي

الصالح. إن الراعي الصالح ينذر حياته لخرافه، لئلا يضل واحد منها». حذار أن تكون نحن سبب هلاك أي نفس إنسانية.

لقد سألت قبل هنيهة ماذا تعني كلمة أب، ثم هتفت أقول إنها كلمة عظيمة واسم كريم. ولكن حري بالإنسان أن يكون أميناً في استعمال الكلمات، أيها السادة، ولهذا سأجرؤ على تسمية الأشياء بأسمائها فأقول: إن شخصاً مثل العجوز كرامازوف لا يمكن تسميته أباً، فهو غير جدير بهذا الإسم. إن حب الابن لأب غير جدير باسمه هو شيء سخيف، بل شيء مستحيل. والمحبة لا يمكن أن توجد من عدم، فالله تعالى وحده يقدر أن يخلق شيئاً من عدم. لقد قال بولس الرسول:

«أيها الآباء، لا تغيظوا أبناءكم»، وهو قول صادر عن قلب مفعم بالمحبة. إنني لا أستشهد بهذه الكلمات المقدسة لأجل موكلي، بل أتوجه بها إلى جميع الآباء. ومن خولني حق موعظة الآباء؟ لا أحد. ولكنني أوجه ندائي كإنسان ومواطن، إني أخاطب جميع الأحياء! إن حياتنا على الأرض قصيرة، ونحن نأتي أفعالاً شريرة كثيرة. ولذلك دعونا ننتهز لحظة مواتية كهذه تجمعنا هنا لكي نوجه كلمة طيبة إلى بعضنا بعضاً. وهذا ما أفعله الآن: فأنا أنتهز فرصة وجودي في هذا المكان لمخاطبتكم. ليس عبثاً أن السلطة العليا في البلاد قدمت لنا هذا المنبر، فإن روسيا بأسرها تسمعنا، وأنا لا أخاطب الآباء الحاضرين في هذه القاعة فحسب، بل أوجه كلامي، وبأعلى صوتي إلى جميع الآباء: «أيها الآباء، لا تغيظوا أبناءكم». أجل دعونا ننفذ تعاليم المسيح أولاً، ثم نطلب من أبنائنا تنفيذها، وإلا فلسنا آباء لهم، بل أعداء وهم أيضاً سيصبحون أعداءنا، ونكون نحن المسؤولين عن عدائهم لنا. «بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم»، ولست أنا صاحب هذا القول، إنما هو من تعاليم الإنجيل، فعاملوا الناس كما يعاملونكم. كيف نستطيع أن نلوم أبناءنا إذا كالوا لنا بالكيل الذي نكيل به لهم؟.

لقد حدث مؤخراً في فنلندة أن اشتبه الناس بفتاة خادم أنها ولدت طفلاً وأخفت أمرها عن الأعين. ونتيجة لمراقبتها عثروا في زاوية من زوايا مستودع منزلها، على صندوق كانوا لا يعلمون بوجوده، خلف عدد من قطع الآجر.

فلما فتح عثر في داخله على جثة طفل وليد مقتول. وعثر في الصندوق ذاته على هيكلين عظميين لطفلين آخرين، كانت قد قتلتهما فور ولادتهما كما اعترفت هي نفسها.

أيها السادة المحلفون، هل كانت هذه أماً لأطفالها؟ صحيح أنها ولدتهم، ولكن هل كانت أماً لهم؟ هل من أحد يجرؤ على أن يمنحها الإسم المقدس، إسم الأم؟ أيها السادة، فلنتحل بالجرأة، بل لنكن مسرفين في الجرأة، فالواجب يقضي أن نكون هكذا في هذه اللحظة، وألا نخشى بعض الكلمات والأفكار كبائعات موسكو في مسرحية أوستروفسكي، اللواتي يؤمنّ بالخرافات فيرتعدن عند سماع كلمات معينة. كلا، يجب أن نثبت أن التقدم الذي تحقق خلال السنوات الأخيرة قد شملنا أيضاً، وأن نقول بدون أي مواربة، أن الأب لا يكفيه مجرد إنجاب الطفل، بل لا بد من واجبات نحوه يؤديها ليستحق شرف الأبوة.

أجل، هنالك المعنى الآخر بطبيعة الحال، هنالك التفسير الآخر لكلمة «أب» وقوامه أن أي أب من الآباء، وحتى ولو كان وحشاً، أو عدواً لأبنائه، يظلّ أباً لأنه أنجب أبناءه، ولكن هذا التفسير تفسير لا يخلو من مثالية متعصبة، ولا يمكن للعقل إدراكه فلا يتم قبوله إلا بدافع من الإيمان أو التسليم، كغيره من الأشياء الكثيرة التي لا أستطيع فهمها، والتي يأمرني الدين أن أؤمن بها. ولكن فليكن ذلك خارج نطاق الحياة الواقعية. ففي نطاق الحياة الواقعية، التي تتميز بحقوق وواجبات متبادلة بيننا وبينها، في ذلك النطاق، إذا أردنا أن نتحلى بالإنسانية - بل إذا أردنا أن نكون مسيحيين - فيجب علينا، بل إنه لزام علينا، أن نتصرف وفق آراء يقرها العقل، وتدعمها التجربة، وخاضعة للتحليل المنطقي. وبإيجاز، يجب أن نتصرف بعقلانية، لا كما لو كنا في حلم وفي حالة هذيان، كيلا نسبب أي أذى، أو نسيء معاملة أي إنسان أو نقضي على حياته. ذلك هو العمل المسيحي الحق، فليس هو مجرد عمل صادر عن معتقدات غامضة، بل عمل منطقي أساسه المحبة الصادقة لبني البشر.

وعندما بلغ فتيو كوفيتش هذا المقطع من خطابه صدرت عن غالبية الحضور في قاعة المحكمة هتافات استحسان صاخبة، ولكن فتيو كوفيتش

أشار بيديه كأنه يتوسل إليهم ألا يقاطعوه وأن يسمحوا له بإنهاء حديثه وسرعان ما عاد السكون إلى القاعة. وتابع الخطيب كلامه، فقال:

هل تظنون أيها السادة أن أبناءنا عندما يبلغون سن الإدراك يستطيعون أن يتجنبوا هذه الأسئلة؟ كلا، إنهم لا يستطيعون، ومن المحال أن نفرض عليهم ذلك. إن مرأى الأب المنحط الخسيس يوحي لابنه المراهق بطريقة عفوية، أسئلة معذبة، ولا سيما إذا قارنه بآباء ممتازين لرفاقه. إن الجواب الذي أصبح متداولاً مألوفاً عن هذا السؤال، هو: أنه أنجبك، وأنت من لحمه ودمه، ولذلك فأنت ملزم بأن تحبه. ولكن الشاب سينصرف إلى التأمل حائراً، ويستعيد السؤال بصورة عفوية: ولكنه لم ينجبني حباً بي؟ إنه لم يكن يعرفني، بل لم يكن يعرف ما إذا كنت ذكراً أم أنثى، في تلك اللحظة، التي اضطرم فيها حبه الجنسي، ولعل الخمر زادته اضطراماً، فلم يورثني سوى الميل إلى الخمر. هذا هو كل ما أنعم به عليّ. فلماذا أنا ملزم بأن أحبه، لسبب واحد وهو أنه أنجبني، مع أنه لم يعبأ قط بعد أن أنجبني؟.

لعل هذه الأسئلة تبدو لكم فظة قاسية، ولكن لا تتوقعوا من العقل الفتي أن يتجاوز طاقته: «أطرد الطبيعة من الباب، تعد إليك مسرعة من النافذة». وفضلاً عن ذلك، لا ينبغي لنا أن نرهب كلمات معينة، بل يجب علينا أن نبت في المسألة وفق قوانين العقل والشعور الإنساني، لا وفق أفكار تصوفية. وكيف نبتّ بها؟ إليكم الطريقة: فليقف الابن أمام والده ويسأله بكل هدوء وروية: أبت، أنبئني لماذا يجب عليّ أن أحبك؟ أبت، أثبت لي أن من واجبي أن أحبك. فإذا استطاع الأب أن يجيبه جواباً مقنعاً، كانت هنالك علاقة أبوية سليمة حقيقية، ليست قائمة على التحامل الصادر عن معتقدات غامضة، بل على أساس محدد المسؤولية خالص الإنسانية. أما إذا لم يستطع، ففي ذلك نهاية رابطة الأسرة. فهو ليس أباً له، والابن محق في أن ينظر إليه نظرته إلى إنسان غريب عنه، بل نظرته إلى عدو. إن منبرنا، أيها السادة المحلفون، يجب أن يكون مدرسة للأفكار الصحيحة السليمة.

وهنا قوطع الخطيب بعاصفة من التصفيق والأصوات المؤيدة. ولم تكن تلك الأصوات لتعم جميع الحضور، بطبيعة الحال، لكن الثابت أن نصفهم

كان مشاركاً فيه. وقد صفق له جميع الآباء والأمهات الذين كانوا في القاعة. وسمعت صيحات إعجاب تصدر من المكان الذي توجد فيه السيدات، وكان آخرون يلوحون بمناديلهم. وبدأ رئيس المحكمة يقرع جرسه قرعاً شديداً. كان واضحاً أنه تضايق من سلوك الجمهور، ولكنه لم يجرؤ على تنفيذ تهديده السابق بإخلاء المحكمة. ذلك أن أفراداً من ذوي المناصب العالية، ورجالاً مسنين يحلون صدورهم بالأوسمة، ويجلسون على مقاعد أعدت لهم خصيصاً خلف منصة القضاة، اشتركوا في التصفيق والتلويح بالمناديل. ولذلك فعندما هدأت عاصفة التصفيق، اكتفى رئيس المحكمة بترديد تهديده الصارم بإخلاء المحكمة، وتابع فتيو كوفيتش خطابه بزهو وانفعال: أيها السادة المحلفون، تذكرون تلك الليلة الرهيبة التي كثر الكلام عنها في هذه الجلسة، عندما قفز الابن عن الجدار ووقف وجهاً لوجه أمام الرجل العدو الذي أنجبه وعذبه. إنني أصرّ وأؤكد أنه لم يمض إلى منزل والده للحصول على المال: إن تهمة السرقة تهمة سخيفة كما سبق لي أن أثبتّ. ولا هو اقتحم المنزل لكي يقتله، كلا، كلا! فهو لو كان ينوي قتله، لاحتاط للأمر فتسلح بسلاح مناسب لا بالمدقة النحاسية التي التقطها بحركة غريزية وبدون أن يعلم لماذا التقطها. وإذا سلمنا بأنه خدع والده بقرع الإشارات السرية على النافذة، واستطاع أن يشق طريقه إلى داخل المنزل. لنسلم بذلك، وأنا لا أصدق للحظة واحدة هذه الأسطورة كما قلت سابقاً، ولكن لنفترض للحظة واحدة أن الأمر جرى فعلاً هكذا. أيها السادة، أقسم لكم بكل ما هو مقدس، أنه لو كان منافسه عدواً حقيقياً، لا والده، لبحث في أرجاء المنزل بسرعة، واقتنع أنها لم تكن هناك، فغادر المنزل مسرعاً، بدون أن يلحق به أي أذى. ولعله كان في أقوى الاحتمالات سيضربه أو يدفعه بيديه، لضيق وقته وانشغال باله. إن ما كان يريد معرفته هو أين كانت. أما أبوه، أبوه! إن رؤية الأب هذا سبب كل شيء. لقد كرهه منذ طفولته، وناصبه العداوة، واضطهده، وأصبح الآن منافسه القوي على حبيبته فطغا عليه بصورة عفوية شعور بالكراهية لم يستطع له دفعاً، وعطل تفكيره. وقد اضطرم هذا الشعور في مدى هنيهة قصيرة! فقد كان هذا الشعور وليد الجنون وفقدان الرشد، ولكنه كان أيضاً وليد الطبيعة وحكمها بالانتقام

لقوانينها الأبدية بصورة عفوية لا يمكن مقاومتها، ككل أمر آخر في الطبيعة.

ولكن المتهم حتى في تلك اللحظة لم يقتله، فأنا متمسك بهذا القول، وأهتف به عالياً! كلا، إنه اكتفى بالتلويح وحسب بالمدقة مهدداً، إذ تملكه الشعور بالإشمئزاز والكراهية، بدون أن تراوده نية قتله، وبدون أن يقتله، وبدون أن يعلم أنه سيقتله. ولو لم تكن هذه المدقة في يده حينذاك، لطرح والده أرضاً، بدون أن يقتله. وعندما غادر المنزل مسرعاً لم يكن يدري هل قتل العجوز الذي ضربه أم لا. إن مثل هذا القتل ليس جريمة قتل. إن مثل هذا القتل لا يمكن وصفه بجريمة قتل والد بيد ابنه كلا، إن قتل مثل هذا الأب لا يمكن اعتباره أنه جريمة قتل أب بيد ابنه، ومثل هذا القتل لا يمكن لأحد أن يعتبره جريمة قتل أب إلا إذا كان متحاملاً وواهماً.

ولكنني أعود فأسألكم المرة تلو المرة، مناشداً إياكم من أعماق نفسي: هل وقعت جريمة القتل هذه فعلاً؟ إننا لو أدنّا هذا الرجل وعاقبناه، فإنه سيقول في نفسه: إن هؤلاء الناس لم يفعلوا شيئاً في سبيل تربيتي وإصلاحي، لم يفعلوا شيئاً ليكون لي مستقبل أفضل مما هوالآن، لم يفعلوا شيئاً لجعلي رجلاً. إن هؤلاء الناس لم يؤمنوا لي مأكلاً ولا مشرباً، ولم يزوروني في سجني ولم يتفقدوني عندما كنت عرياناً؛ وها هم الآن يحكمون علي بالأشغال الشاقة. لقد تعادلنا بالحساب، ولست مديناً لهم بشيء الآن، ولا لأي إنسان إلى الأبد، إنهم أشرار وسأكون شريراً مثلهم، إنهم قساة وسأكون قاسياً مثلهم. هذا ما سيقوله، أيها السادة المحلفون. وأقسم أنكم إذا أدنتموه إنما ستسهلون الأمر عليه: إنكم ستوفرون الراحة لضميره، وهو إن كان سيلعن الدم الذي سفكه فإنه لن يندم على ذلك. وبذلك فإنكم ستدمرون فيه إمكانية التحول إلى رجل جديد، لأنه سيظل في شره وعماه حتى نهاية حياته. ولكن لو آثرتم أن تعاقبوه عقاباً رهيباً مخيفاً، هو أفظع عقاب يمكن أن يتصوره العقل، مع تخليصه وتجديد روحه، لو شئتم ذلك كله، لغمرتموه برأفتكم! وسترون، وستسمعون كيف أنه سيرتعد خوفاً ورعباً. وسيهتف قائلاً: كيف أستطيع احتمال هذه الرأفة؟ كيف أستطيع احتمال هذا المقدار العظيم من المحبة؟ وهل أنا أستحقه فعلاً؟.

أجل، إنني أعرف قلب هذا الرجل القاسي، ولكنه قلب لا ينسى المعروف، أيها السادة المحلفون! إنه سينحني أمام رأفتكم، لأنه ظامىء إلى الحب الكبير، وسيضطرم قلبه كلياً، وسيولد من جديد. هنالك نفوس تلقي، في محنتها اللوم على العالم بأسره، فأخضعوا هذه النفس بالرحمة، قدموا لها محبتكم، وستشفى من ماضيها، لأن فيها دوافع طيبة كثيرة. إن مثل هذا القلب سيتضخم عندما يرى رحمة الله، وطيبة الناس وعدالتهم. وسيتملكه الرعب والخوف، إنه سيتحطم بالتوبة والواجب العظيم الذي يلقى عليه منذ الآن فصاعداً. وعندها لن يقول: «لقد تعادلنا بالحساب»، بل سيقول: «إنني مذنب في أعين جميع الناس، وأنا أحط الناس قدراً». سيمتزج صوته بدموع التوبة والألم الممض: «إن الناس خير مني، فقد أرادوا خلاصي، لا دماري»! إن إظهار هذه الرأفة أمر سهل عليكم، لأنه في حالة انعدام أي دليل حقيقي سيكون شيئاً رهيباً لكم أن تقولوا: «نعم. مذنب».

خير لكم أن تبرئوا عشرة رجال مذنبين من أن تدينوا رجلاً واحداً بريئاً! هل تسمعون، هل تسمعون ذلك الصوت الجليل المدوي في القرن الأخير من تاريخنا المجيد؟ ليس لإنسان مغمور مثلي أن يذكركم بأن القضاء الروسي إنما وجد لا لفرض العقاب فحسب، بل لتخليص المذنب أيضاً! دعوا الأمم الأخرى تتمسك بحرفية النص القانوني، وتبحث في العقاب. أما نحن فإننا سنتمسك بروح النص ومعناه لهداية الضال وتجديده. فإذا صح أن روسيا وعدالتها كما ذكرت، فإنها تستطيع أن تمضي إلى الأمام بثقة تامة. لا، ليست روسيا مركبة جامحة. ألا كفوا عن تخويفنا بمركباتكم الجامحة، التي تتنحى جميع الأمم عن طريقها اشمئزازاً. إن روسيا مركبة ضخمة ستمضي بهدوء وجلال إلى هدفها. بين أيديكم ليس مصير موكلي فحسب، بل مصير العدالة الروسية. إنكم ستدافعون عن حقيقة أنتم مؤتمنون عليها وستخلصونها، فتثبتون بذلك أنها في رعاية وفية، وأنها في أيد أمينة!

تصلب فلاحونا

هكذا أنهى فتيوكوفيتش مرافعته فإذا بقلوب الحضور تفلت عقال حماستها الطاغية كالعاصفة التي لا سبيل إلى مقاومتها. ولم يكن هناك من امكانية لإيقافها: وانتحبت النساء، وانتحب الكثيرون من الرجال أيضاً، بل إن اثنين من الاشخاص المرموقين ذرفا الدموع تأثراً واذعن رئيس المحكمة للأمر الواقع، بل إنه كف عن قرع ناقوسه. وقد قالت النساء فيما بعد، إن من يقمع مثل هذه الحماسة هو كمن يقمع شيئاً مقدساً. أما الخطيب نفسه فقد بدت عليه امارات التأثر الصادق.

وكانت تلك هي اللحظة التي وقف فيها ايبوليت كيريلوفيتش لكي يتقدم ببعض الاعتراضات. وقد اخذ الناس يرمقونه بنظرات الاحتقار. وتمتمت السيدات مستنكرات: ماذا؟ ما معنى هذا؟ أيجرؤ على الرد؟ ولكن لو أن كل نساء الدنيا بما فيهن زوجته تألبن عليه منكرات معترضات، لما استطعن منعه عن الكلام في تلك الآونة، فلقد كان ممتقع الوجه يرتعد انفعالاً، حتى إن عباراته الأولى التي نطق بها لم تكن مفهومة، وضاق نفسه فأخذ يشهق، واختلطت تعابيره، فلم يعد يعرف طريقه. ولكن سرعان ما هدأ روعه. وسأكتفي بذكر بضع عبارات من ردّه:

لقد عِيب علي أنني لفقت قصة روائية. ولكن ما الذي فعله الدفاع غير نسج قصص روائية آخذاً بعضها برقاب بعض؟ لم يكن ينقصهما غير الوزن والقافية فتكون شعراً. لقد قيل إن فيودوربافلوفيتش مزق الظرف اثناء انتظاره حبيبته، والقى به على ارض الغرفة، بل لقد ذكر أمامنا الكلمات التي لا بد قالها وهو في غمرة هذا العمل الغريب. أليس هذا شططاً في الخيال؟ ثم أي دليل لدينا على أنه اخرج النقود منه؟ ومن سمع الكلمات التي تفوه بها؟ لقد

استحال سميريادكوف الأبله الضعيف العقل بطلاً رومانسياً ينتقم من المجتمع لمولده غير الشرعي! أليست هذه قصيدة من قصائد بايرون؟ أما الكلام الذي قاله عن ذلك الابن الذي يقتحم منزل أبيه ويقتله، دون أن يقتله، فليس قصة روائية وكفى، بل هو أبو الهول يضع لنا لغزاً لا يستطيع أن يحله هو نفسه، فإذا كان قد قتله، فكيف نفسر قتله إياه بدون أن يقتله؟ ومن يستطيع أن يستخلص أي مغزى من هذا الأمر؟

ثم إنه قد طلب إلينا أن نذكر أن هيئة محكمتنا هي منبر الحق والأراء السديدة، وها هو صوت من على هذا المنبر ذي «الآراء السديدة» يعلن جاداً أن وصف الرجل الذي يقتل أباه «بقاتل أبيه» ليس إلا تحاملاً. ولكن إذا كان تحاملاً اطلاق اسم الجريمة على هذا الفعل واذ صار بوسع كل طفل أن يسأل أباه عن السبب الذي يحمله على محبته، فما عسى أن يكون مصيرنا؟ وماذا يحدث لأسس مجتمعنا؟ وإلام تصير الأسرة؟ لقد شبه موقفنا من جريمة قتل الأب بما يدور في اذهان بائعات موسكو. إن أغلى الضمانات واقدسها بالنسبة لمصير ومستقبل العدالة الروسية قد عرضت على أسماعنا بطريقة مقلوبة تافهة، وما ذلك إلا في سبيل الوصول إلى غاية ما، لتبرير ما لا يمكن تبريره. إن محامي الدفاع يهتف بالمحكمة قائلاً: «اسحقوه برحمتكم» إلا أن المتهم لا يحتاج إلى غير ذلك، وغدا سيرى إلى أي حد سيسحق، أو ليس محامي الدفاع متواضعاً في طلبه منا أن نطلق سراح المتهم؟ ولماذا لا نؤسس مبرّة تقام على شرف قاتل أبيه تخليداً لمآثره لدى الأجيال القادمة؟ لقد أراد تصحيح الدين والكتاب المقدس، فقال إن هذا كله وهم وتصوف وإن ديننا هو وحده الدين الصحيح الذي قام على تحليل المنطق والأمر المعقول. وإنهم قد تخطوا ذلك فنصبوا لنا مثالاً كاذباً للسيد المسيح! إن محامي الدفاع قد صاح قائلاً: «بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم». ثم لا يلبث أن يستنتج من هذا القول أن السيد المسيح قد علمنا أن نكيل لغيرنا بالكيل الذي كيل لنا به. ذلك ما يجرؤون على إعلانه من على منبر الحق والآراء السديدة. إن هؤلاء لا يلقون نظرة على الإنجيل إلا عشية القائهم المرافعات للتأثير في نفوس الناس من خلال الاستشهاد بشيء يعرفونه وهو كل حال شيء اصيل. وكل هذا

بقصد الوصول إلى الغاية المرجوة، غير أن ما يأمرنا به السيد المسيح هو أمر مختلف تماماً: فهو يأمرنا بأن نحذر سلوك هذا الطريق، لأنه سلوك في دنيا الشر، ويحتم علينا أن تصفح ونحول خدنا الآخر، لا أن نكيل لمضطهدينا بالكيل الذي كالوا لنا به. ذلك ما علمنا إياه الله، لا أن نعتبر منع الابناء من قتل آبائهم وهماً أو تحاملاً. ونحن من على منبر الحق والاراء السديدة لن نحرف كتاب ربنا الذي اكتفى محامي الدفاع بوصفه «بفادي الإنسانية المصلوب» خلافاً لمسلك روسيا الأرثوذكسية كلها التي تقول عنه: «لانك أنت ربنا».

وهنا تدخل رئيس المحكمة فأوقف الخطيب المندفع راجياً منه الإعتدال والقصد، وعدم المبالغة في أقواله والالتزام بالموضوع، وما إلى ذلك من أقوال نعهدها في الرؤساء. وبدا الضيق على ملامح الحضور أيضاً. كما أن الجمهور أخذ يشعر بالتبرم وعدم الاستقرار: بل لقد سمعت صيحات الاستهجان من أكثر من جهة. أما فتيوكوفيتش فقد تصدى للمدعي العام ولم يكن ما قاله جواباً، فإنه اكتفى باعتلاء المنصة واضعاً يده على مكان قلبه وقال بضع كلمات تنم عن الوقار بلهجة هادئة. وتحدث حديثاً عابراً ساخراً عن «خلق القصص الروائية» و «علم النفس» واغتنم فرصة مناسبة ليردد العبارة المأثورة: «لقد غضبت يا جوبتر، إذن فأنت مخطىء»، مما أثار ضحك الجمهور واستحسانه لأن إيبوليت كيريلوفيتش لم يكن قط شبيهاً بجوبتر. أما فيما يتعلق بالتهمة التي وجهها إليه بأنه يتيح لابناء الجيل الحديث أن يقتلوا آباءهم، فقد قال فتيوكوفيتش بوقار عظيم إنه لن يكلف نفسه مؤونة الجواب عليها. وفيما يتعلق بتهمة المدعي العام التي وجهها إليه بأنه يخالف الأرثوذكسية، فقد اشار فتيوكوفيتش إلى أنها كانت غمزة شخصية، وقال إنه كان ينتظر عندما جاء إلى هذه المدينة أن يكون في حرم هذه المحكمة اميناً على نفسه من تهم «تسيء إلى سمعتي كمواطن وكتابع مخلص». غير إن الرئيس قاطعه هنا مذكراً إياه بحدوده. وقد أنهى فتيوكوفيتش خطبته بأن انحنى للمحكمة وسط مظاهر الاستحسان وقد كان رأي السيدات هو أن ايبوليت كيريلوفيتش قد «تحطم إلى الأبد». ثم طلب إلى المتهم أن يتكلم، فوقف

ميتيا، ولكنه لم يتكلم إلا قليلاً، فقد كان منهوك القوى الجسمانية والذهنية إلى حد مخيف. وكادت تغيب عن محياه امارات القوة والكبرياء التي كانت تبدو عليه عند دخوله قاعة المحكمة في الصباح، وبدا عليه الآن كأنه قد مر بتجربة، لقنته حتى آخر حياته شيئاً مهما للغاية كان يجهله قبل الآن. وكان صوته خائراً، فلم يصرخ كما فعل من قبل. وكان في صوته رنة الهوان والهزيمة والخضوع. قال: ماذا عساي أقول أيها السادة المحلفون؟ لقد حانت ساعة حسابي، ووضع الله يده عليّ. إنها نهاية حياتي الفاسدة. ولكنني اعيد عليكم القول معترفاً أمام الله أنني بريء من دم أبي، وأعود إلى القول للمرة الأخيرة، إنني لم أكن قاتله! لقد كنت مسرفاً في فسقي، ولكنني احببت الخير. لقد كنت طوال حياتي اناضل في سبيل إصلاح نفسي، ولكنني ظللت أحيا كالحيوان الشريد، شكراً للمدعي العام، فقد قال أشياء كثيرة عن نفسي لم أكن اعرفها، ولكن ليس صحيحاً أنني قتلت أبي، لقد اخطأ السيد المدعي العام. كما وإنني أشكر محامي الدفاع. ولقد بكيت وأنا أصغي إلى أقواله، ولكن ليس صحيحاً أنني قتلت أبي، وما كان ينبغي له أن يفترض ذلك، لا تؤمنوا بما يقوله الأطباء، فأنا متمالك لعقلي، وكل ما أشكو منه هو أن قلبي مرهق. وإذا سمحتم وأطلقتم سراحي، فإنني سأصلي لأجلكم، وسأكون رجلاً أفضل مما عهدتموني. أعدكم أمام الله بأنني سأصلح حالي! أما إذا حكمتم علي، فسأحطم حسامي بنفسي وأقبل حطامه. اطلقوني، لا تحرموني من ربي. إنني أعرف نفسي وسأثور! إن قلبي مثقل بالهم أيها السادة. اطلقوني!

وكاد ميتيا يسقط في مكانه، وتهدج صوته، حتى لقد قال كلمته الأخيرة بعناء كبير. ثم اخذ القضاة يوجهون الأسئلة إلى المحلفين، ويطلبون من الجانبين أن يتوصلا إلى النتائج، غير أنني لن آتي على ذكر ذلك بالتفصيل. وأخيراً نهضت هيئة المحلفين للمداولة. وقد كان رئيس المحكمة متعباً للغاية، فلم يزد عن قوله وبصوت أميل إلى الخفوت: «كونوا نزيهين، ولا تأخذكم فصاحة الدفاع، ومع ذلك قدروا الحجج حق قدرها اذكروا أن هناك مسؤولية عظمى تقع على عواتقكم». إلى ما هنالك من أقوال.

ورفعت الجلسة بعد خروج المحلفين من القاعة. واصبح يحق للناس أن

ينهضوا من مجالسهم ويتجولوا في ارجاء القاعة، ويتبادلوا افكارهم ومشاعرهم. ويتناولوا المرطبات من «البوفيه». وكان الوقت متأخراً فالساعة هي الواحدة بعد منتصف الليل، ولكن أحداً لم يغادر القاعة. وقد أصاب الناس ارهاق عظيم غير أن احداً منهم لم يفكر في الراحة. وقد ظلوا جميعاً ينتظرون مسلوبي اللب، وربما كان هذا اسرافاً في الوصف، وكان الوضع أكثر وطأة على النساء فكن يشعرن بقلق هستيري، ومع ذلك، كن يعتقدن بأن البراءة شيء لا مناص منه. وقد أعددن أنفسهن جميعاً للحظة روائية تطغى فيها الحماسة على الجميع. وينبغي لي أن أقول إن هذا اليقين ببراءة المتهم ساور كثيرين من الرجال أيضاً. وقد كان بعضهم يشعر بالسرور والبعض الآخر كان عابساً، إلاً إن قلّة منهم كانوا يشعرون بالأسى فهم لا يريدون له البراءة. أما فتيوكوفيتش فقد كان واثقاً من نجاحه، وقد تحلق حوله الناس يهنئونه ويتوددون إليه.

وقد قيل لي فيما بعد أنه قال يخاطب جماعة منهم: إن هناك خيوط تعاطف غير منظورة تربط الدفاع بهيئة المحلفين. وهي إنما تنعقد اثناء المرافعة، وكنت مدركاً لها. إنها موجودة، وإن قضيتنا رابحة فاطمئنوا.

وقال رجل قوي الشكيمة متجهم الوجه مجدراً، وكان أحد الملاك في جيرتنا، وهو يخاطب جماعة من الرجال شغلهم الجدال: ترى ماذا يكون رأي محلفينا الفلاحين الآن؟

- ولكنهم ليسوا كلهم من الفلاحين فإن بينهم أربعة من الكتبة الحكوميين.

فقال عضو في مجلس المقاطعة، وهو ينضم إلى المتحدثين: نعم يوجد بينهم كتبة.

- هل تعرف ذلك الرجل المدعو نازاريف، التاجر حامل الوسام، إنه من المحلفين.

- ما باله؟

- إنه رجل راجح العقل.

- ولكنه صامت دائماً.

- إنه لا يحب الافراط في الكلام، ولكن هذا أفضل بكثير. إنه بغير

حاجة إلى دروس من الرجل القادم من بطرسبورغ. فهو يستطيع أن يعلم بطرسبورغ كلها. وهو أب لاثني عشر ابناً. ففكروا في هذا!

وهتف موظف شاب، وكان يقف في حلقة ثانية: أيقيناً أنك لا تظن بانهم سيطلقون سراحه؟

فأجابه آخر بصوت حازم: إنهم سيطلقون سراحه ولا ريب.

وصاح الموظف يقول: عار ألا يطلقوا سراحه! ولنفرض أنه اغتاله، فهناك أصناف عدة من الآباء! ثم إنه كان في حالة من الاضطراب العظيم.. وقد لا يكون حقاً ينوي قتله إذ لوّح بالمدقة في الهواء فصرع الرجل العجوز. ولكنه أمر مؤسف أنهم أقحموا اسم الخادم قسراً في القضية. لقد كانت تلك نظرية سخيفة مضحكة. ولو كنت في مكان فيتوكوفيتش لقلت لهم بصريح العبارة: لقد قتله؛ ولكنه ليس مجرماً فسحقاً لهذا كله!

ـ ذلك ما قاله فعلاً خلا عبارة «فسحقاً لهذا كله!»

فقال صوت ثالث: كلا يا ميخائيل سيميونوفيتش، بل إنه كاد ينطق بها أيضاً.

ـ أيها السادة لقد حدث في أيام الصوم أن برأوا في مدينتنا ممثلة ذبحت زوجة معشوقها الشرعية.

ـ آه، ولكنها لم تقطع رقبتها تماماً.

ـ وما الفرق، طالما أوشكت أن تقطعها.

ـ ما رأيك فيما قاله عن الاطفال؟ لقد كان رائعاً، أليس كذلك؟

ـ بلى لقد كان رائعاً!

ـ وعن التصوف أيضاً؟

فصاح رجل آخر: ألا كف عن الحديث عن التصوف، وفكر في إيبوليت ومصيره الذي ينتظره، إن زوجته ستفقأ عينيه غداً انتقاماً لميتيا.

ـ هل هي هنا؟

ـ يا لها من فكرة! إنها لوكانت هنا لفعلت ذلك في المحكمة تواً. إنها ملازمة دارها لألم في اسنانها. وأطلق المتحدث ضحكة مرحة. وضحك الحضور أيضاً.

وفي حلقة ثالثة دار الحديث الآتي:

ـ في اعتقادي أنهم سيطلقون سراح ميتيا رغم كل شيء.

ـ لن أدهش إذا رأيته غداً يقلب حانة متروبوليس رأساً على عقب وهو لا بد سيلازم الشراب عشرة أيام متوالية!

ـ آه، يا للشيطان!

ـ إن الشيطان لا بد وأن تكون له يد في الموضوع. فأين عساه يوجد إن لم يكن في هذه القاعة؟

ـ حسناً أيها السادة، لا مراء ببلاغة مرافعة الدفاع ولكن لا يجوز أن يحطم المرء رأس أبيه بمدقة! أواه فإلى أين المصير؟

ـ المركبة، هل تذكر ما قاله عن المركبة؟

ـ نعم، لقد جعل من العربة الحقيرة مركبة للفخار!

ـ وغداً سيردها عربة، حسبما يلائم غرضه.

ـ يا لهؤلاء الرجال الدهاة الذين أصبحنا نجدهم في هذه الأيام! فهل للحقيقة مكان في روسيا؟

غير أن الناقوس قرع في هذه اللحظة. وكانت هيئة المحلفين قد تداولت ساعة كاملة لم تزد ولم تنقص. وخيم على قاعة المحكمة صمت مطبق منذ اتخذ النظارة أماكنهم. وإني لأذكر كيف دخل المحلفون إلى القاعة. وأخيراً! لن أعيد الأسئلة التي اجابت عنها بالترتيب، فقد نسيتها فعلاً ولست أذكر سوى الجواب عن السؤال الأول الرئيسي الذي وجهه الرئيس: «هل اقترف المتهم جريمة القتل بدافع الرغبة في السرقة ومع سبق التصور والتصميم؟ (نسيت النص الحرفي). وخيم السكون على القاعة. ثم إن رئيس هيئة المحلفين وهو أصغر الكتبة سناً بينهم، أعلن بصوت واضح عال رن وسط السكون المطبق الذي يشبه سكون الموتى:

نعم، مذنب!

وقد تكرر ذات الجواب عن كل الأسئلة الأخرى التي وجهت إلى المحلفين: «نعم، مذنب!» وبدون أن تقال أقل عبارة للتخفيف من وقع مدلوله. ولم يكن أحد يتوقع ذلك؛ فالجميع تقريباً كانوا يتوقعون صدور اسباب

تخفيفية على الأقل. واستمر الصمت مخيماً على قاعة المحكمة، فقد تجمد الحضور مندهشين كصخور متحجرة، سواء في ذلك الذين كانوا يرجون الحكم عليه، والذي كانوا يتمنون براءته. لكن الصمت لم يدم إلا هنيهة، فأعقبه همس ولغط وبدت امارات السرور على وجوه الكثيرين من الرجال، حتى أن بعضهم أخذوا يفركون أيديهم دون أن يأبهوا باخفاء سرورهم. أما أولئك الذين كانوا يخالفون المحلفين رأيهم فقد بدا عليهم أنهم صعقوا، واخذوا يرفعون اكتافهم ويتهامسون؛ ولكن كان يبدو عليهم أنهم غير قادرين على تصديق الواقع. أما السيدات فيا رحمة السماء؟ لقد خامرني الظن بأنهن سيقمن بثورة. فهن لم يستطعن في اللحظة الأولى أن يصدقن آذانهن. ثم اطلقن في جميع ارجاء المحكمة عبارات الاستهجان: «ما معنى هذا؟ ثم ماذا؟» وقفزن من اماكنهن. وبدا عليهن كأنهن قد تخيلن بأن القرار يمكن يعاد النظر فيه ويستبدل بحكم آخر. وفي هذه اللحظة هب ميتيا واقفاً على قدميه وصاح بصوت جهوري وقد مد يديه أمامه:

اقسم بالله وبيوم الدينونة الرهيب أنني بريء من دم أبي! كاتيا. إنني أصفح عنك! أيها الأخوان والأصدقاء اشفقوا على المرأة الأخرى!.

ولم يقو على متابعة الكلام، فقد اختنق بدموعه ونحيبه، وسمع صوت نشيجه في قاعة المحكمة كلها، وكان صوتاً غريباً لا يشبه صوته. وانطلقت صرخة حادة من أقصى أركان القاعة، إنها صرخة غروشينكا، وكانت قد توسلت كثيراً فسمح لها بدخول قاعة المحكمة قبل أن تبدأ مرافعتا الاتهام والدفاع. وأخرج ميتيا وارجىء اصدار الحكم إلى اليوم التالي. واشتدت الجلبة، ولكنني لم اتلبث كي أسمع كل ما قيل. وكل ما اذكره هو بعض العبارات القليلة التي سمعتها على درجات المحكمة أثناء مغادرتي.

ـ إنه سيذهب في رحلة إلى المناجم لا تقل عن عشرين عاماً!

ـ أجل، لا أقل من هذا.

ـ حسناً، لقد تصلب فلاحونا.

ـ وقضوا على فتانا ميتيا.

الخاتمة

التـخطيط لفرار ميتـيا

في اليوم الخامس بعد المحاكمة، أبكر اليوشا فذهب بعد الثامنة بقليل إلى منزل كاترينا ايفانوفنا لكي يحدثها في أمر هام جداً لكليهما، وليسلمها رسالة. وقد استقبلته وتحادثا في نفس الغرفة التي استقبلت فيها غروشينكا منذ اسابيع. وفي الغرفة المجاورة لها كان إيفان فيودوروفيتش طريح الفراش فاقد الوعي لشدة وطأة الحمى عليه. وكانت كاترينا ايفانوفنا قد نقلت، عقب الحادث الذي وقع في المحكمة، الرجل المريض إلى منزلها، غير مبالية بما لا بد أن يثيره هذا الحدث من أقاويل، أو من ملامة الناس جميعاً لها. وكانت إحدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها قد سافرت إلى موسكو قبل انتهاء المحاكمة، وبقيت الثانية عندها. ولو أنهما سافرتا معاً فإن كاترينا ايفانوفنا كانت بقيت متمسكة بما عقدت العزم عليه، وسهرت على رعاية الرجل المريض بنفسها ليل نهار. وكان يشرف على معالجته الطبيبان فارفنسكي وهرتزنشتوبي. أما الطبيب الشهير فكان قد عاد إلى موسكو، ورفض الافصاح عن رأيه في موعد شفاء المريض، ومع أن الطبيبين كانا يشجعان كاترينا ايفانوفنا واليوشا، فقد كان جلياً أنهما لا يجازفان بتحديد موعد محدد.

وكان اليوشا يعود شقيقه مرتين يومياً. أما في هذه المرة فقد جاء لأمر خاص يقتضي سرعة التحرك، وكان يتوقع أن يجد صعوبة في طرق الموضوع، فضلاً عن أنه كان في عجلة متناهية من أمره فإن عملاً آخر كان بإنتظاره ولا يستطيع تأجيله، فكان عليه أن يسرع.

مضى زهاء ربع ساعة وهما يتحدثان، وكانت كاترينا ايفانوفنا شاحبة الوجه يبدو عليها الاعياء والارهاق، غير أنها كانت في الوقت ذاته في حالة من الهياج الهستيري، فهي كانت تدرك في داخلها سبب مجيء اليوشا إليها.

وقد قالت بلهجة كلها ثقة: لا يقلقنك القرار الذي سيتخذه. فإنه لا بد وأن يرضخ أخيراً لذلك. لا مفر له من الهروب. واضافت وقد سطعت عيناها: إن ذلك الرجل المسكين، المنافح عن الشرف والضمير، لا لست اعني ديمتري فيودوروفيتش، بل اخاه المريض في الغرفة المجاورة، الذي ضحى بنفسه لأجل أخيه؛ اطلعني على خطة الهروب برمتها منذ مدة طويلة. إنك تعلم أنه باشر اتصالاته... وقد اطلعتك على شيء من هذا... وسيتم الفرار في المحطة الثالثة من هنا، عندما تنقل دفعة السجناء إلى سيبريا. آه، إنه ما زال هنالك متسع من الزمن. لقد زار إيفان فيودورفيتش ناظر المحطة الثالثة. لم نعرف اسم المسؤول الذي سيتولى مهمة نقل السجناء، فهذا أمر يستحيل معرفته قبل موعد السفر. قد اطلعك غداً على تفاصيل الخطة الكاملة التي عهد بها إلي إيفان فيودوروفيتش عشية يوم المحاكمة من قبيل الحيطة... لقد حدث ذلك عندما وجدتنا نتخاصم، أتذكر هذا؟ كان خارجاً من عندي للتو، عندما جئت آنئذ، فلما رأيتك طلبت إليه أن يعود، هل تذكر؟ هل تعرف فيم كان خصامنا؟

فقال اليوشا: كلا، لا أعرف.

-إنه لم يطلعك على السبب بطبيعة الحال. لقد تخاصمنا بسبب خطة الهروب ذاتها. وكان قد انهى إلي الفكرة الرئيسية قبل ثلاثة أيام، وحالاً نشب الخصام بيننا واستمر ثلاثة أيام. أما سبب الخصومة فهو أنه ما كاد ينبئني أن ديمتري فيودوروفيتش سيهرب إلى خارج البلاد مع تلك المخلوقة إذا صدر الحكم بادانته، حتى ثارت ثائرتي. لا استطيع أن أوضح لك سبب ثورتي، فأنا نفسي أجهل السبب.. آه، إنه طبعاً تلك المخلوقة، وأنها هي أيضاً ستهرب إلى الخارج برفقة ديمتري! واخذت شفتا كاترينا إيفانوفنا فجأة ترتجفان لفرط الغضب عندما لفظت هذه العبارة الأخيرة. ومضت تقول: وما أن لاحظ إيفان فيودورفيتش هياجي بسبب تلك المرأة حتى تخيل فوراً أنني أغار على ديمتري، وأنني ما زلت أحبه. وهكذا بدأت خصومتنا الأولى. ولم أطلب منه تعليلاً، ولا صفحاً. فما كنت احتمل الظن بأن رجلاً مثله يرتاب في أنني ما زلت أحب ذلك... على الرغم من تأكيدي له منذ مدة طويلة أنني لا أحب

ديمتري، ولا أحب أحداً غيره، هو إيفان! إن كراهيتي لتلك المخلوقة هي التي أغضبته. وبعد مرور ثلاثة أيام، في المساء الذي جئت فيه، جاءني بظرفه مختوم، وطلب مني ألا افتحه إلا في حال حدث له شيء ما، أواه، لقد كان يتوقع مرضه! وقد أنبأني أن الظرف يحتوي على خطة مفصلة للفرار، وأنه إذا مات أو أصيب بمرض خطير، فيجب علي أن أتولى وحدي انقاذ ميتيا ثم سلمني المال، قرابة عشرة آلاف روبل، وهو المبلغ ذاته الذي اشار إليه المدعي العام في مرافعته، بعد أن علم صدفة أن إيفان ارسل من يصرف له سندات بالقيمة ذاتها. وقد تأثرت أيما تأثر إذ تبين لي أن إيفان فيودوروفيتش لم يتخل عن فكرة إنقاذ أخيه، وأنه يعهد إلي بتنفيذها، رغم غيرته علي واعتقاده بأنني ما زلت أحب ميتيا. لقد كانت تلك تضحية منه. كلا، إنك لا تستطيع أن تفهم عظمة هذه التضحية، يا ألكسي فيودوروفيتش. لقد رغبت أن اجثو أمام قدميه اجلالاً، ولكن تبادر إلى ذهني في الحال أنه سيظن بأنني ما جثوت إلا فرحاً بانقاذ ميتيا (هذا ما كان سيصوره له خياله حتماً) وإذ فكرت بامكانية ظنه مثل هذا الظن الظالم بي، فقدت السيطرة على اعصابي من جديد، وبدلا من أن أقبل قدميه، ثارت ثائرتي مرة أخرى! أواه، يا لتعاستي! إنما السبب هو خلقي، خلقي الرهيب المحزن! أواه، سترى أنني سأقوم أخيراً بكل ما يحمله هو أيضاً على هجري في سبيل امرأة أخرى يستطيع أن يحيا معها حياة أفضل من حياته معي، كما فعل ديمتري. ولكن لا، ما كان بوسعي أن احتمل هذا مرة أخرى، ولو حدث لقتلت نفسي. ولما وصلت آنذاك، ودعوتك وطلبت إليه أن يعود، ثارت ثائرتي غضباً بسبب نظرة الازدراء والكراهية التي رمقني بها عندئذ، هل تتذكر، صحت قائلة لك أنه هو، هو وحده الذي اقنعني بأن أخاه ديمتري قاتل! وقد تعمدت الكذب لكي اسيء إليه مرة ثانية. ليس هو الذي اقنعني بذلك، بل العكس هو الصحيح، فأنا التي اقنعته بأن ميتيا قاتل. أواه، إن طبعي الدنيء هو سبب كل شيء! وأنا سبب ذلك المشهد الرهيب الذي وقع اثناء المحاكمة. لقد اراد أن يثبت لي أنه رجل شريف، وأنه، حتى ولو كنت احب أخاه، فإنه لن يدمر حياته بدافع من التشفي أو الغيرة. وهكذا جاء إلى المحكمة... أنا سبب كل ما حدث، وعلي وحدي

يقع الاثم كله.

لم يسبق لكاتيا يوماً من الأيام أن أفضت إلى اليوشا بمثل هذه الاعترافات. وقد أحس اليوشا أنها كانت آنئذ تعاني من الألم ما لا يطاق، وهو كافٍ لتحطيم كبرياء اعظم القلوب غطرسة، وقد قهرها الألم. وكان اليوشا يعرف سبباً رهيباً آخر لتعاستها آنذاك، مع أنها جهدت في اخفائه عنه طيلة تلك الأيام التي تلت المحاكمة؛ وهي إذا ذلت نفسها أمامه وكشفت له عن هذا السبب، فإنما يعود ذلك إلى سبب يؤلمه كثيراً. لقد كانت تتألم بسبب «خيانتها في المحكمة»، وشعر اليوشا بأن ضميرها يلح عليها بأن تعترف له، لأليوشا، اعترافاً مقروناً بالدموع، والارتطام بالأرض وكأنها في نوبة هستيرية، ولكنه كان يخشى هذا المشهد، ويتمنى عدم حصوله نظراً لما كان يزيده في صعوبة المهمة التي جاء من أجلها، وعاد يتحدث عن ميتيا.

فقاطعته بلهجة جادة تبدى فيها العناد: كل شيء على ما يرام، لا تكن قلقاً لأمره! إن معارضته موقتة، فأنا أعرفه، وأعرف طبعه حق المعرفة. بوسعك أن تطمئن إلى أنه سيوافق على الفرار. إن الموعد ليس بقريب. وسيكون أمامه متسع من الوقت لاتخاذ قراره. وحتى يحين هذا الموعد فإن إيفان يكون قد شفي من مرضه فيتولى بنفسه القضية، ولن تكون لي أية علاقة بالأمر. لا تقلق، فإنه سيوافق على الهرب بل إنه موافق منذ الآن: وهل تظن بأنه سيتخلى عن تلك المخلوقة؟ فطالما أنهم لن يسمحوا لها بمرافقته، لن يجد امامه إلا الهروب. إنه يخافك أنت أكثر من أي إنسان آخر، إنه يخشى ألا توافق على فراره، لأسباب اخلاقية. واضافت كاتيا بلهجة خبيثة: ولكن عليك أن تظهر كرمك وتوافق ما دامت هذه الموافقة ضرورية إلى هذا الحد. وصمتت هنيهة وابتسمت.

ثم تابعت كلامها قائلة: إنه يتحدث في السجن عن ترنيمة، عن صليب يجب عليه أن يحمله، عن واجب يجب عليه أن يقوم به ثم هتفت فجأة، بحماسة لم تستطع كبتها: إن إيفان فيودوروفيتش ذكر لي تفاصيل كثيرة عن ذلك. ليتك تعلم بأية طريقة كان يتحدث! ليتك تعلم مقدار ما اظهر من حب لذلك الرجل الشقي عندما كان يحدثني، ومقدار كرهه له في الوقت

ذاته. كنت استمع إليه وهو يروي قصته باكياً، وأنا انظر إليه بسخرية واحتقار يا لي من مخلوقة متوحشة! مخلوقة منحطة، لقد اصيب بالحمى بسببي وختمت كاتيا كلامها محتدة، بقولها: أما ذلك الرجل المحكوم فإنه غير مستعد لاحتمال الألم. هل في وسع رجل مثله أن يتألم؟ إن امثاله من الناس لا يعرفون الألم قط!

كانت في كلماتها رنة الكراهية والاحتقار والغضب. ومع ذلك فهي التي خانته. وقد قال اليوشا في نفسه: «ربما كانت كراهيتها له في بعض اللحظات لانها تشعر بأنها اساءت إليه». وهو كان يتمنى ألا تكرهه إلا في «بعض اللحظات» فقط. وقد استشف من كلمات كاتيا الأخيرة لهجة التحدي، ولكنه تغافل عن ذلك.

وبمزيد من التحدي تابعت قائلة: لقد استدعيتك هذا الصباح لكي اطلب منك وعداً باقناعه. أو لعلك أنت أيضاً تعتبر الهرب شيئاً منافياً للشرف، والكرامة، أو مخالفاً للديانة المسيحية؟

فتمتم اليوشا قائلاً: كلا، سأقول له كل شيء. ثم قال فجأة وهو يثبت نظره في وجهها: إنه يرجوك أن تذهبي اليوم لمقابلته. فأجفلت، وابتعدت قليلاً عنه. ثم قالت متلعثمة، وقد امتقع وجهها: أنا؟ هل يمكنني ذلك؟

فأجاب اليوشا بلهجة قاطعة، وقد ازدادت حيويته: إنه ممكن، بل هو واجب. إنه في حاجة إليك الآن بصورة خاصة. ولو لم يكن واجباً محتماً لما طلبت منك مخافة أن أسبب لك شيئاً من الألم من غير جدوى. إنه مريض، خارج عن طوره، ويلح في طلبك. وهو لا يدعوك لكي يصالحك، إن ما يطلبه هو أن تذهبي وتقفي عند باب غرفته. إنه منذ ذلك اليوم يشهد في نفسه تغيرات كثيرة، وهو متأكد الآن من أنه اساء إليك. اساءة لا تغتفر. إنه لا يطلب غفرانك، فهو يقول: يستحيل أن تصفح عني. هو يريد فقط أن يراك واقفة عند باب غرفته.

وقالت كاتيا متلعثمة: إنك تحرجني. كنت طيلة الأيام الأخيرة، يداخلني شعور بأنك ستأتيني بهذا الطلب. كنت أعلم أنه سيدعوني إليه. ولكن، هذا مستحيل!

ـ وليكن مستحيلاً، فافعلي المستحيل. فكري في أمر واحد، وهو أنه للمرة الأولى يشعر بأنه اساء إليك إنه للمرة الأولى في حياته يدرك هذا، وهو لم يدرك من قبل معنى عمله كما يدركه الآن. لقد قال لي: إذا رفضت المجيء فسأبقى تعيساً طيلة حياتي. هل تسمعين؟ فهو على الرغم من صدور الحكم عليه بالأشغال الشاقة مدة عشرين عاماً، ما زال يرجو أن يكون سعيداً. أليس هذا أمر يستحق الشفقة؟ فكري، يجب أن تزوريه. ثم قال اليوشا بلهجة يتضح منها التحدي: تذكري أن حياته قد دمرت وهو بريء، إن يديه طاهرتان غير ملوثتين بالدم. يجب أن تزوريه الآن لأجل آلامه غير المحدودة التي تنتظره. اذهبي وزوديه بتحيتك، وهو يوشك أن يبدأ سفره إلى الظلام، قفي عند مدخل غرفته، وكفى. واختتم اليوشا كلامه قائلاً: إن من واجبك أن تفعلي هكذا، من واجبك أن تفعلي هكذا! وكان يشدد كلمة «واجبك». وقالت كاتيا متألمة: من واجبي، ولكني لا استطيع. إنه سينظر إلي... لا، لا أستطيع.

ـ بل يجب أن تلتقي نظراتكما. كيف إذاً ستستطيعين أن تعيشي مستقبلاً، إذا عجزت الآن عن القيام بهذا الواجب؟

ـ أفضل أن أبقى أتألم بقية حياتي.

فعاد أليوشا يقول مؤكداً كلامه تأكيداً قاطعاً: عليك أن تذهبي، عليك أن تذهبي.

ـ ولكن لماذا اذهب اليوم، لماذا عليّ أن اذهب في الحال؟ لا أستطيع أن أترك المريض.

ـ بل تستطيعين أن تتركيه لحظات من الزمن. فالأمر لن يطول أكثر من لحظات. وإذا لم تذهبي فإنه سيصاب الليلة بالهذيان. إنها الحقيقة وأنا لا أكذب، فاشفقي عليه.

ـ أجابته كاتيا بعتاب قاس: اشفق أنت علي! وطفقت تبكي. فقال أليوشا بلهجة حازمة، وهو ينظر إلى دموعها: إذاً فقد عزمت على الذهاب. سأمضي وأخبره أنك قادمة في الحال. فأجابت كاتيا فزعة: كلا، لا تخبره شيئاً أبداً. سأذهب، ولكن لا تخبره بذهابي سلفاً، إذ انني قد اذهب، وقد لا

أذهب، لا أدري الآن، وقد اختنق صوتها. ونهض أليوشا ليذهب فقالت له فجأة، بصوت خافت، وقد عاد وجهها ممتقعاً: وماذا لو التقيت بأحد ما هناك؟

ـ لذلك يجب أن تذهبي الآن، لأنك لن تلتقي بأحد. إني واثق من أنك لن تجدي احداً هناك.

ثم ختم كلامه بلهجة التأكيد قائلاً: سننتظرك.

وغادر الغرفة.



الكذبة تصير صدقا لحظة

غادر أليوشا مسرعاً إلى المستشفى حيث كان يرقد اخوه، فإن ميتيا أصابته حمى عصبية بعد يومين من صدور الحكم عليه، ونقل إلى القسم المخصص للسجناء في مستشفى المدينة. لكن الدكتور فارفينسكي وافق، بناء لتوسط عدد من الاشخاص (أليوشا، والسيدة خولاكوف، وليزا وآخرين) أن ينقل ميتيا، بعيداً عن السجناء الآخرين، إلى غرفة صغيرة، وهي الغرفة التي كان سميردياكوف ينام فيها اثناء مرضه. إن حارساً كان يقف في طرف الممشى، والقضبان الحديدية المتشابكة كانت مثبتة على النافذة، مما جعل فارفينسكي يشعر بالطمأنينة بسبب التساهل الذي ابداه، وهو أمر مخالف للقانون. لقد كان رقيق القلب رؤوفاً، فأدرك أي ألم سيلم برحل مثل ميتيا إذا وجد نفسه فجأة وسط اللصوص والقتلة، فهو بحاجة إلى فترة يتعود فيها هذا الوضع الجديد بصورة تدريجية. ولقد كانت زيارات الاقارب والاصدقاء مسموحاً بها رسمياً بإذن من الطبيب والقيم على المستشفى بل ومن قبل ضابط الشرطة أيضاً. ولكن لم يزر ميتيا أحد سوى أليوشا وغروشينكا. وقد حاول راكيتين مرتين أن يدخل عليه، لكن ميتيا رجا فارفينسكي ملحاً أن لا يسمح له بالدخول.

وجد أليوشا أخاه جالساً في سريره وقد تدثر بدثار المستشفى. وكان محموماً يضع على رأسه منشفة مبللة بالخل والماء. فما أن دخل أليوشا عليه، حتى حدق إليه بنظرة غامضة لا تخلو من احدى علامات الخوف. ولقد صار منذ اصدار الحكم عليه كثير الوجوم. وكان أحياناً يبقى صامتاً نصف ساعة وكأنه مستغرق في التفكير المؤلم وقد نسي تماماً كل ما حوله. فإذا صحا من وجومه وأراد الكلام، جاء حديثه متدافعاً سريعاً، ومختلفاً كلياً عما كان يريد أن يقوله. وكان أحياناً ينظر إلى أخيه نظرة تحمل العذاب

والألم. أما غروشينكا فقد كان يشعر معها بارتياح يفوق ارتياحه مع أليوشا، وصحيح أنه نادراً ما كان يتحدث إليها، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً وبهجة حال دخولها عليه.

جلس أليوشا صامتاً ازاءه على سريره. وكان ميتيا في هذه المرة ينتظر أليوشا نافد الصبر، ولكنه يخشى توجيه السؤال إليه، وكان يستبعد احتمال موافقة كاتيا على المجيء، وفي الوقت ذاته، كان يشعر بأنها إذا لم تأت فسيحدث ما ليس متوقعاً.

وقد فهم أليوشا حقيقة مشاعره.

وبدأ ميتيا الحديث بلهجة عصبية: لقد قيل لي إن تريفون بوريسوفيتش، كاد يخرب فندقه، فنبش أرضه وأزاح الواحه الخشبية وهدم الردهة. إنه يبحث عن الكنز، عن الألف والخمسمائة روبل التي قال المدعي العام إنني أخفيتها هناك. ولقد قلب فندقه رأساً على عقب، فور عودته إلى منزله. ذلك الغشاش يستحق كل ذلك. علمته أمس، إذ روى الحارس لي قصته وهو من أبناء تلك الناحية.

فقال أليوشا: اسمعني، إنها ستأتي ولكنني لا أعلم متى. ربما أتت اليوم أو في غضون أيام قليلة ولكنها ستأتي، إنها ستأتي حتماً.

أجفل ميتيا وبدا يريد الكلام ولكنه صمت. فإن هذا النبأ هزه من أعماقه. وكان جلياً أنه كان يتحرق شوقاً إلى معرفة ما دار من حديث بين أخيه وبينها ولكنه كان يجد حرجاً في السؤال عن ذلك. فإن كلمة احتقار أو قسوة تقولها كاتيا في تلك اللحظة من شأنها أن تجرحه كسكين.

-إن من بين الأمور التي قالتها لي، أن أريح ضميرك بشأن الفرار فإذا لم يتماثل إيفان للشفاء عندما تحين الساعة، فستتولى هي بنفسها الأمر كله.

فقال ميتيا شارد اللب: لقد تحدثت عن ذلك الأمر.

وقال أليوشا: «وقد نقلته أنت إلى غروشا».

فأجابه ميتيا قائلاً: «نعم، وهي لن تأتي هذا الصباح». ثم رمق اخاه بنظرة خجل ووجل ثم اضاف: إنها لن تأتي قبل حلول المساء. عندما أنبأتها بالأمس أن كاتيا تدبر لهروبي، صمتت مطبقة فمها، ثم همست قائلة: لتفعل

ذلك! لقد ادركت أن الأمر هام، ولم أحاول أن اجربها أكثر من ذلك. إنها تدرك الآن، كما اظن، بأن كاتيا لم تعد تأبه لي، وهي تحب إيفان.

فقال أليوشا متسائلاً: أتدرك ذلك حقاً؟

فاستدرك ميتيا يقول: ربما كان ظني مخطئاً، لكنها لن تأتي هذا الصباح، لقد كلفتها قضاء حاجة من حاجاتي. إن إيفان متفوق علينا جميعاً، إنه سيشفى من مرضه.

فقال أليوشا: صدقني إذا قلت لك، إنه رغم خوف كاتيا عليه، فإنها تكاد تكون واثقة من شفائه.

- إن ذلك يعني أنها مقتنعة بأنه سيموت، إن يقينها من شفائه مرده إلى خوفها الشديد.

فقال أليوشا قلقاً: إن إيفان يتمتع ببنية قوية، وأنا أيضاً أرى أملاً كبيراً بشفائه.

- نعم، إنه سيشفى، ولكنها مقتنعة بأنه سيموت، إن صدرها يرزح بهم ثقيل. وصمت الاخوان وكان واضحاً أن قلقاً عظيماً ينال من ميتيا.

وفجأة قال بصوت متهدج والعبرات تندفع من عينيه: اليوشا إنني أحب غروشا حباً عظيماً.

فبادر اليوشا إلى القول: إنهم لن يسمحوا لها بالذهاب معك.

وعاد ميتيا إلى القول وفي صوته نبرة غريبة: وهنالك شيء آخر أريد أن أقوله لك. إنهم إذا ضربوني في الطريق، أو هناك في سيبريا، فلن استسلم، سأقتل شخصاً فيرمونني بالرصاص. ستلازمني هذه الفكرة عشرين عاماً! إنهم يقسون في مخاطبتي الآن، إنهم ينادونني بصيغة المفرد. لبثت الليلة مضطجعاً في فراشي وأنا أقلب أوجه الفكر. ووجدت نفسي أخيراً لست مستعداً للاستسلام. ولست قادراً على أن أتناسى كبريائي. لقد اردت أن أرتل «نشيداً»، وأجدني الآن عاجزاً عن احتمال قساوة أحد الحراس في مخاطبتي بصيغة المفرد. إنهم لو سمحوا لغروشا بمرافقتي، فإنني سأتحمل كل شيء... إلا الضرب طبعاً... ولكنهم لن يسمحوا لها بذلك.

وابتسم أليوشا مترفقاً وقال: اصغ إلي يا أخي، اسمعني مرة أخيرة. إليك

رأيي فيما يتعلق بهذا الموضوع. وأنت تعلم جيداً بأنني لن أكذب عليك اصغ إلي: إنك لست مستعداً، ومثل ذلك الصليب ليس لك. وفضلاً عن ذلك، فليس ضرورياً أن تقبل على عذاب إذا كنت غير مستعد له. ولو كنت قد قتلت أباك، لما وافقت على أن ترفض العقاب، ولكنك بريء ومثل هذا الصليب - الكفارة - أكبر من أن تحمله. لقد أردت أن تجعل من نفسك إنساناً آخر بواسطة العذاب والألم، وأنا أقول لك يكفيك أن تظل تذكر ذلك الرجل الآخر دائماً، اذكره طول حياتك وأنى توجهت، وسيكون ذلك كافياً لك. إن رفضك حمل ذلك الصليب العظيم، لن يكون من شأنه إلا أن يعزز شعورك بواجب اعظم منه طيلة حياتك. وهذا الشعور المتصل ربما كان ادعى إلى جعلك رجلاً جديداً، من ذهابك إلى هناك. فأنت لن تقوى على احتمال نظام الحياة في سيبريا، وستتهاوى، وقد تجد نفسك أخيراً تقول: لقد تعادلنا بالحساب. لقد كان المحامي مصيباً في القول. إن مثل هذه المحن الثقيلة لا تليق بجميع الناس، بل إنها مستحيلة بالنسبة لبعضهم. تلك هي آرائي فيما يتعلق بهذا الأمر إذا اردتها بمثل هذا التفصيل. وأضاف أليوشا مبتسماً: لو كان أشخاص آخرون، من الضباط أم من الجنود سيعاقبون بسبب فرارك، لما «سمحت» لك. ولكنهم قد أعلنوا (وهذا ما أكده ضابط المحطة ذاته لإيفان) أنه إذا أحسن تدبير المسألة فلن يجري تحقيق دقيق، وإنهم سينفذون الخطة بسهولة. إن الرشوة شيء مخل بالشرف، حتى في مثل حالتنا، ولكنني لا أملك أن أحكم على ذلك، فلو كلفني إيفان وكاتيا أن أفعل شيئاً في سبيلك، لما ترددت في أن ارشو. أنا أعلم ذلك. يجب علي أن أقول لك الصدق، وهكذا فإنني لست أهلاً لأحكم على أعمالك، ولكن دعني اؤكد لك بأنني لن اشجب عملك. وأنّى لي أن انصّب نفسي حكماً عليك في هذا الأمر، والآن أظن بأنني قلت كل شيء.

فصاح ميتيا قائلاً: ولكنني أشجب ذاتي! سأفر، وقد قررت هذا الأمر قبل أن تصارحني به؛ وهل يملك ميتيا كرامازوف أن يفعل شيئاً سوى أن يهرب؟ ولكنني سأشجب نفسي، وسأظل أصلي لكي يمحى ذنبي. إلى الأبد. إنه نفس تفكير اليسوعيين، أليس كذلك؟ ألا يتكلمون كما تتكلم الآن؟

فابتسم أليوشا ابتسامة لطيفة وقال: نعم.

وعاد ميتيا إلى الكلام وهو يضحك ضحكة مرحة: لقد احببت فيك أنك دائماً تقول الصدق ولا تخفي أي شيء عني. وهكذا فقد أوقعت بك يا أخي أليوشا، وجعلتك تقر بأنك يسوعي. يجب أن اقبلك لهذا. والآن اسمع ما أود أن أضيفه، سأفتح لك الجانب الآخر من قلبي. إن هذا هو قراري بعد طول تفكير وتمعن. فأنا إذا هربت، وكنت أحمل مالاً وجواز سفر، واقمت في أميركا، فإنني سأظل متعزياً متقوياً بهذه الفكرة، وهي أنني لن اهرب لكي أنشد المسرة أو السعادة، بل سأمضي إلى سجن آخر ربما كان لا يقل سوءاً عن سجن سيبريا. إن ذلك أمر سيء يا أليوشا، إنه سيء! إنني أكره اميركا تلك، فسحقاً لها. ستقول لي إن غروشا معك ولكن يكفي أن تنظر إليها؛ فهل هي أميركية؟ كلا، إنها روسية، روسية حتى ودك عظامها، إنها ستشعر بالحنين إلى وطنها ومسقط رأسها، وسأظل ألمح عليها آيات الشقاء التي تحمله من أجلي، وأراها تحمل ذلك الصليب في سبيلي. وأي ذنب ارتكبت؟ ثم أنا، هل تظن أنني سأطيق رعاع أميركا، ولو كانوا جميعاً خيراً مني. إنني أكره اميركا، وسحقاً لأهلها ولو كانوا تقنيين ماهرين. إنهم مختلفون عني ولا أحبهم، إنني أحب روسيا يا أليوشا، وأحب رب روسيا رغم أنني نذل. ثم ومضت عيناه فجأة وتهدج صوته فقال وهو يحاول السيطرة على دموعه: إنني سأختنق هناك. وهنا عاد فتمالك اعصابه وقال: إليك القرار الذي اتخذته يا أليوشا فأعرني سمعك: حالما أصل مع غروشا إلى اميركا، سنشرع تواً في العمل في الأرض وحيدين في مكان ناءٍ نختاره لنشاطر الدببة البرية الحياة. ولا بد أن تكون في اميركا بقاعٍ نائية، وقد قيل لي أنه لا يزال هناك هنود حمر يعيشون في أقاصي البلاد. إذاً فسنمضي إلى بلد «الهندي الأحمر الأخير». وهناك سنكب على دراسة اللغة، غروشا وأنا. وسنقضي ثلاث سنوات في العمل ودراسة اللغة. وبعدها نكون اصبحنا نتقن اللغة الانكليزية ونجيد التكلم بها كأي فرد انكليزي! وحالما نتقنها فسنودع اميركا ونعود إلى روسيا كمواطنين اميركيين. لا تخف فإننا لن نعود إلى هذه المدينة الصغيرة، بل سنختبىء في مكان ناء في الشمال أو الجنوب. ويوم نعود، يكون حلّ بي التغيير وبها أيضاً في

اميركا. وسيقوم احد اطبائهم، وهم بارعون في التقنية، بزرع شامة في وجهي، أو سأقتلع إحدى عيني. وستكون لحيتي قد طالت كثيراً وابيضت بسبب حنيني المضني إلى روسيا وهكذا آمل أنهم لن يعرفونا حين عودتنا، وهبهم عرفونا فليرسلونا إلى سيبريا، فلست أبالي. سيكون ذلك هو المصير المقسوم لنا. وسنفلح الأرض هنا أيضاً في القفار النائية وسأظل اتظاهر بأنني اميركي حتى نموت. ولكننا سنموت على ثرى بلادنا. إن هذه هي خطتي ولن اتراجع عنها. فهل توافقني عليها؟

فأمن أليوشا على كلامه وهو لا يبغي مقاطعته، وأطرق ميتيا هنيهة ثم قال فجأة:

ما أعظم تلفيقهم للأمور أثناء المحاكمة! ألا ترى أنهم لفقوها؟

فقال أليوشا متنهداً: إنهم حتى ولو لم يلفقوها، كانوا سيحكمون عليك، على كل حال.

فتأوه ميتيا ألماً وقال: صدقت، لقد ضاق الناس بي ذرعاً! ليباركهم الله، ولكنه أمر قاس. وساد الصمت قليلاً.

وفجأة هتف ميتيا قائلاً: أليوشا، أنقذني وقل لي حالاً! أهي آتية أم لا؟ قل لي؟ ماذا قالت؟ بم وعدتك؟

فنظر اليوشا إلى أخيه بخجل وقال: وعدتني أنها ستحضر، ولكن لست أدري ما إذا كانت ستحضر اليوم. إنه ليس سهلاً عليها، أنت تعلم.

-أعلم أنه ليس سهلاً عليها! أليوشا إن ذلك يذهب بعقلي، إن غروشا تطيل النظر إلي، إنها تدرك حقيقة الأمر. اللهم زودني بالصبر. تأمل ماذا أريد؟ إنني أريد كاتيا! فهل أنا مدرك لما أريد؟ إنه العناد وحقيقة كرامازوف اللعينة! كلا إنني لا أصلح للعناء. فأنا نذل، وهذا كل ما استطيع أن اقوله.

وعندها صاح أليوشا قائلاً: ها قد أتت!

وفي هذه اللحظة ظهرت كاتيا عند الباب. وظلت للحظات واقفة تتأمل ميتيا بنظرة زائغة ذاهلة. وهب ميتيا على قدميه فجأة بلا وعي، وبدا خائفاً ممتقع الوجه، لكن ابتسامة فيها توسل ومذلة سرعان ما ارتسمت على شفتيه، ثم اندفع نحو كاتيا ماداً ذراعيه بحركة لا تقاوم. واندفعت هي نحوه أيضاً

متجاوبة مع موقفه، وقبضت على يديه بعنف وأجسلته على فراشه. ثم جلست على مقربة منه وهي لا تزال قابضة على يديه تضغطهما ضغطاً عنيفاً. وقد جاهدا مرات عديدة ليتكلما ولكن الكلمات كانت تخونهما فظلا ينظران بصمت إلى بعضهما بعضاً ويبتسمان ابتسامة غريبة، وقد ثبتا عيونهما ببعضهما بعضاً، وبقيا دقيقتين هكذا.

وأخيراً قال ميتيا متلعثماً: هل صفحت عني؟ قال ذلك وهو يلتفت إلى أليوشا ووجهه يفيض بهجة وهتف به قائلاً: هل تسمع ماذا سألتها؟ هل تسمع؟

فقالت كاتيا: إنما احببتك لأنك كريم القلب! ولست لأجديك نفعاً لو صفحت عنك، وأنا أكثر حاجة لصفحك. وسواء أصفحت عني أم لم تصفح، فإنك ستظل دوماً جرحاً دامياً في فؤادي، وسأظل أنا جرحا في فؤادك. إن واحدنا عذاب الآخر. ذلك قدرنا. وصمتت هنيهة تستعيد أنفاسها ثم أردفت تقول بعجلة وحماسة: أتدري لمَ جئت؟ لأعانق قدميك، لكي اشد يديك هكذا إلى درجة ايلامك. كما كنت اشدهما في موسكو أتذكر ذلك؟ جئت لأقول لك ثانية أنك الهي وبهجتي، ولكي ابوح لك بحبي الجنوني. واخذت تتأوه لفرط ألمها، ثم رفعت فجأة يده إلى شفتيها وطبعت عليها قبلة نهمة، وكانت الدموع تنحدر من عينيها، ووقف أليوشا صامتاً ذاهلاً عن نفسه؛ إنه مشهد لم يكن قط يتوقعه.

وعادت كاتيا تقول: إن الحب قد انتهى يا ميتيا، لكن الماضي عزيز على نفسي وهو يؤلمها. وأعلم أن هذا سيظل شعوري دائماً. ثم قالت متلعثمة وعلى شفتيها ابتسامة تعكس فرحها: أما الآن لندع دقيقة واحدة ما كان مقدراً له أن يحدث، فأنت تحب امرأة أخرى وأنا أحب رجلاً آخر، ومع ذلك فسأظل أحبك إلى الأبد، وستظل أنت تحبني؛ هل تعلم ذلك؟ هل تسمع ما أقوله لك؟ ثم صاحت وفي صوتها اختلاجة تكاد تكون تهديداً: «احببني، أحببني طيلة حياتك!»

فقال ميتيا وهو يلهث: سأحبك، ثم.. هل تعلمين يا كاتيا، هل تعلمين أنني في ذلك المساء نفسه، منذ خمسة أيام، كنت أحبك.. عندما وقعت

على الأرض وحملوك... طيلة حياتي! إن هذا سيكون، وسيكون هذا إلى الأبد.

وهكذا اخذا يتمتمان لبعضهما بكلمات جنونية لا معنى لها، ولعلها كذب كلها، ولكنها كانت كلها في تلك اللحظة صحيحة، فكلاهما كان صادقاً مخلصاً في قوله.

وفجأة صاح ميتيا قائلاً: كاتيا، هل تعتقدين بأنني قتلته؟ إنني أعلم بأنك الآن لا تؤمنين بذلك، ولكن آنذاك... عندما أدليت بشهادتك... هل يمكن أن تكوني تعتقدين حقاً بذلك؟

فقالت بلهجة جديدة، لم تعد مشبعة بالمحبة كما كانت قبل هنيهة: إنني لم أكن اعتقد بذلك حتى في تلك الآونة. وأنا لم اعتقد به من قبل ابداً. لقد كنت اكرهك، فأقنعت نفسي لحظة بأنك فعلتها. اقنعتها بذلك حين كنت أدلي بشهادتي ولكنني منذ انهيت شهادتي لم أعد مقتنعة. لا تشك في قولي هذا! لقد نسيت أنني جئت إلى هذا المكان، إنما لأعاقب نفسي.

وهنا قال ميتيا بعفوية كاملة: أيتها المرأة ما أشد عذاب روحك.

فهمست تقول: دعني اذهب، سأعود إليك، إن ألمي الآن يجعلني لا اطيق البقاء.

وهمت بالنهوض، ولكنها فجأة اطلقت صرخة حادة ترنحت عائدة إلى الوراء. لقد ظهرت غروشينكا وهي تدخل الغرفة بخطى سريعة هادئة ومضت كاتيا مسرعة إلى الباب، ولكنها عندما اصبحت تحاذي غروشينكا، توقفت فجأة وقالت بصوت خافت كأنه الأنين، وقد امتقع وجهها بصورة كاملة:

إصفحي عني.

فحدقت غروشينكا فيها، وصمتت بضع ثوان، ثم أجابتها بصوت يقطر سماً:

إن الحقد يملأ قلبينا فنحن متساويتان شراً وحقداً. وأنتِ تطلبين مني الصفح، وكأننا قادرتان على أن نصفح عن بعضنا بعضاً! انقذيه، وسأظل اعبدك حتى آخر أيامي.

وصاح ميتيا بلهجة فيها عتاب ولوم: إذن فلا تريدين أن تصفحي عنها!

وهمست كاتيا متسرعة: لا تقلقي، سأنقذه من أجلك. وخرجت تعدو من الغرفة.

وعاد ميتيا يسائل غروشينكا بلهجة مريرة حادة: كيف استطعت أن ترفضي الصفح عنها وقد طلبته منك؟

فقال أليوشا مندفعاً: ميتيا لا تلمها! فليس لك الحق في ذلك!.

وقالت غروشينكا بلهجة تنم عن الاحتقار: إن كلامها لم يكن صادراً عن قلبها، بل عن صلف وكبرياء. سأغفر لها كل شيء إذا انقذتك...

ثم امسكت عن الكلام، وكأنها تريد أن تكتم امرأ. فهي لم تكن قد ثابت إلى نفسها. وقد تبين فيما بعد أنها جاءت صدفة دون أن تتوقع هذا اللقاء.

وصاح ميتيا بأخيه قائلاً: أليوشا إلحق بها! قل لها... إنني لم أكن اعرف... لا تدعها تذهب على هذه الحال!

فقال أليوشا وهو يعدو خلف كاتيا: سأعود إليك ثانية مع المساء.

وأدركها خارج المستشفى. كانت تسير مسرعة، وما أن لحقها أليوشا حتى سارعت إلى القول:

كلا إنني لا أستطيع أن أذل نفسي أمام تلك المرأة. وأضافت تقول بصوت متشنج، وعيناها تتقدان بنار الكراهية الشديدة: لقد سألتها الصفح لأنني أردت أن استمر في التضحية حتى النهاية المؤلمة، ولكنها لم تشأ أن تصفح عني... أهلاً بها، لقد احببت منها ذلك.

فتمتم اليوشا قائلاً: إن أخي لم يكن يتوقع حضورها ابداً، وقد كان واثقاً من أنها لن تأتي.

فأجابته مقفلة الموضوع: لا شك في ذلك، فلنترك هذا الأمر. أصغ إلي: إنني لا استطيع الذهاب معك إلى الجنازة الآن. ولقد ارسلت لهم زهوراً. وأظن أنه ما زال لديهم بعض المال. وإذا لزم الأمر أبلغهم أنني لن اتخلى عنهم أبداً... والآن دعني، دعني أرجوك. لقد تأخرت ولعلك لن تدرك الصلاة الآن. دعني أرجوك.

جنازة إيلوشا

التأبـين عند الصخرة

وصل أليوشا متأخراً فعلاً. وقد طال انتظارهم له وقرروا أخيراً أن يحملوا النعش الصغير الجميل المغطى بالأزهار، وينقلوه إلى الكنيسة بدونه. كان ذلك نعش إيلوشا، الصبي المسكين، وقد مات بعد صدور الحكم على ميتيا بيومين. وما أن بلغ اليوشا الباب الخارجي للمنزل، حتى استقبله الصبية، التلامذة رفاق إيلوشا، بصيحاتهم العالية. كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر، وسروا بقدومه بعد طول الانتظار. وكانوا زهاء إثني عشر صبياً، يحملون جميعاً حقائبهم المدرسية على اكتافهم. وقد تذكر هؤلاء الصبية قول إيلوشا لهم وهو يحتضر: إن أبي سييكي، فلا تفارقوه.

كان يتقدمهم كوليا كراسوتكين وقد صاح وهو يمد يده نحو اليوشا: ما اعظم سروري بقدومك يا كرامازوف! إن ما يجري هنا شيء رهيب. إن ما يجري هنا يدب الرعب حقاً في قلب من يراه. إن سنيغيريوف ليس ثملاً، ونحن نعلم علم اليقين أنه لم يكن عنده اليوم خمر ابداً، ولكنه يبدو كالثمل... إنني دائماً اتصرف تصرف الرجال، ولكن هذا منظر رهيب. لا أريد تأخيرك يا كرامازوف، فهل لي في سؤال واحد قبل أن ندخل المنزل؟

توقف اليوشا وقال: قل ما بدا لك يا كوليا.

ـ هل اخوك بريء أم مذنب؟ أهو الذي قتل والدك أم الخادم الذي قتله؟ جوابك سيفصل في الأمر نهائياً. لقد أبقاني هذا السؤال اربع ليال لا أنام.

فأجابه اليوشا: لقد قتله الخادم، أما أخي فبريء.

فصاح سميروف: إنه عين رأيي.

وقال كوليا متعجباً: إذاً فهو ضحية بريئة! إنه سعيد بالرغم من نكبته المدمرة! وأنا أغبطه!

فهتف اليوشا مندهشاً: ماذا تعني؟ كيف تغبطه؟ لماذا؟

فقال كوليا متحمساً: آه، حبذا لو استطيع أنا أيضاً أن أضحي بنفسي يوماً في سبيل الحقيقة!

فقال اليوشا: ولكن ليس في مثل قضية كهذه وبمثل هذا الخزي والرعب!

- طبعاً... أنا أود أن أموت لأجل البشرية كلها، أما الخزي هذا، فلا قيمة عندي له. إن اسماءنا ستزول إنني أحترم أخاك!

- وأنا كذلك. إنه صوت كارتاشوف الذي اعلن ذات مرة أنه يعرف أسماء مؤسسي طروادة، وقد صرح برأيه فجأة، واحمر وجهه تماماً كما حدث في تلك المرة.

دخل اليوشا الغرفة. وكان إيلوشا مسجى في تابوت أزرق مؤطر بتخريم أبيض. وكانت يداه مضمومتين وعيناه مغمضتين. أما وجهه الناحل فلم يكد يعرف تغييراً. ومن الغريب أن جثته لم تنبعث منها رائحة التعفن، وكان التعبير المرتسم على وجهه يدل على الجد والتفكير. وكانت يداه المضمومتان إلى صدره في تلك الآونة جميلتين جمالاً خاصاً، فهما تبدوان قطعتين من المرمر. وقد وضعت أزهار في راحتيه، وغطي التابوت من داخله وخارجه بالزهور التي كانت ليزا خولاكوف قد ارسلتها منذ الصباح الباكر. وثمة زهور أخرى وصلت الآن من كاترينا إيفانوفنا. وعندما فتح اليوشا الباب كان الكابتن يمسك بيديه المرتجفتين ضميمة من هذه الزهور وقد بدأ بنثرها على جسد ابنه الحبيب، ولم يكد يلتفت إلى اليوشا ولم تكن به رغبة للالتفات إلى أي إنسان، حتى إلى زوجته المعتوهة الباكية، التي ما فتئت تحاول النهوض على قدميها الكسيحتين لتشاهد طفلها الغالي عن قرب. أما نينا فكان الصبية قد جروا كرسيها حتى أدنوها من التابوت، فأحنت برأسها عليه، ولا شك أنها هي أيضاً كانت تنتحب وتبكي بصمت وقد بدا على سنيغيريوف الشوق والذهول والاعياء. وكانت حركاته وأقواله تدل على شيء من العته فكان يردد في كل

آن: أيها الصديق القديم، أيها الصديق القديم العزيز!، وهو يحدق في إيلوشا. لقد تعوّد أن يتحبب إلى إيلوشا في حياته فيدعوه صديقه القديم.

وقالت الأم المعتوهة تخاطب زوجها متنحبة متأوهة: اعطني زهرة، خذ تلك الزهرة البيضاء من يده واعطني إياها. وطفقت تتململ في مكانها وهي تمد يديها في طلب الزهرة، ومن يدري، هل فتنتها تلك الزهرة البيضاء الصغيرة التي كانت في يد إيلوشا، أم أنها ارادت زهرة من يده فتحتفظ بها للذكرى.

وصاح سنيغيريوف بلهجة قاسية: لن يأخذها أحد لن أعطي شيئاً. إنها زهوره؛ وليست زهورك! كل شيء له، وليس لك أي شيء!

ورفعت نينا وجهها وقد بللته الدموع وقالت: ابتاه، اعط والدتي زهرة!

-لن أعطي شيئاً خاصة لها! إنها لم تكن تحب إيلوشا. لقد اخذت منه مدفعه الصغير. وطفق الكابتن يبكي وينشج بصوت عال إذ تذكر كيف تنازل إيلوشا طوعاً عن مدفعه لأمه. وكانت المخلوقة المسكينة المعتوهة تذرف الدموع الغزيرة صامتة وقد حجبت وجهها بيديها.

ولما رأى الصبية أن الوالد المفجوع يرفض ترك ابنه، مع أن الوقت قد حان لنقله، احاطوا بالتابوت من كل جهة، وبدأوا يرفعونه.

فصاح سنيغيريوف بغتة وهو ينتحب: لن اسمح بدفنه في مقبرة الكنيسة، بل سأدفنه قرب الصخرة، قرب صخرتنا! ذلك ما اراده إيلوشا، لن أسمح بنقله من هنا!

كان سنيغيريوف لا ينفك يؤكد طيلة الأيام الثلاثة الأخيرة أنه سيدفنه قرب الصخرة. لكن الحاضرين احتجوا وتدخل اليوشا وكراسوتكين وصاحبة المنزل وشقيقتها وبقية الصبية في محاولة لإقناعه.

وقالت صاحبة المنزل العجوز:أية فكرة هذه أن يدفن عند صخرة عادية كأنه انتحر شنقاً! أما أرض مقبرة الكنيسة فهي مقدسة يرتادها الناس فيصلون لأجله. والمقبرة تصلها التراتيم من الكنيسة، ثم إن الشماس واضح النبرات جلي الصوت، مما يمكّن الصبي أن يسمع صلواته دائماً وكأنها تتلى على قبره.

وكأن الكابتن استسلم يائساً، فأشار بيده كأنه يقول: خذوه أنى شئتم.

وقد رفع الصبية التابوت، ولدى مرورهم أمام الأم، توقفوا وخفضوه لكي تستطيع أن تودع إيلوشا. غير أنها ما كادت ترى الوجه الصغير الغالي، حتى أخذت ترتجف، وتهز رأسها المكلل بالشيب بعصبية فوق التابوت.

وقد صاحت بها نينا قائلة: «أماه، ارسمي شارة الصليب فوقه وباركيه، قبليه. ولكن رأسها ظل يهتز كاهتزاز الآلة، وتشنج وجهها الذي بدا ينطق بحزنها العظيم، واخذت تضرب صدرها بقبضة يدها، وهي صامتة تماماً. وعندئذ أبعدوا التابوت عنها. أما نينا، فلما مروا بالتابوت أمامها، مالت على شقيقها تقبله وتضغط شفتيها على شفتيه. وبينما كان أليوشا يغادر المنزل توسل إلى العجوز صاحبة المنزل أن تعنى بأمر الذين ظلوا في الغرفة، ولكنها لم تحجه أن يكمل كلامه باكية: ثق بأنني لن اتركهم، فنحن مسيحيون أيضاً».

وكانت المسافة إلى الكنيسة غير بعيدة لا تزيد على ثلاثمائة خطوة. وكان الطقس صافياً لكنه بارد. وكانت نواقيس الكنيسة لا تزال تقرع، وقد أخذ سنيغيريوف يعدو خلف التابوت تائهاً مضطرباً، وكان ملتفاً بمعطفه الصيفي الرث القصير، مكشوف الرأس، يمسك بيده قبعته اللينة البالية الواسعة الاطراف. وقد بدت عليه الحيرة والقلق فكان تارة يمد يده ليساعد في حمل التابوت فلا يزيد على أن يعرقل الذين يحملونه، وكان تارة أخرى يعدو إلى جانبهم محاولاً أن يأخذ مكاناً له بينهم. وقد سقطت زهرة من التابوت على الثلج فاسرع يلتقطها كأن مصير العالم كله كان مرهوناً بتلك الزهرة.

ثم صاح فجأة بلهجة الحزين اليائس: قطعة الخبز! نسيناها. لكن الصبية ذكروه بأنه أخذ قطعة الخبز وأنها في جيبه. وإذ أخرجها، عاد إليه اطمئنانه.

وقال موضحاً الأمر لاليوشا: هذا ما اوصاني به إيلوشا، فقد كنت أجلس إلى جانبه ذات ليلة وإذا به يطلب مني قائلاً: أبت، بعد أن يهيلوا على قبري التراب، فانثر فوقه فتات خبز لكي تأتي طيور الدوري، وسأسمع صوتها وافرح إذ اشعر أنني لست وحيداً.

فقال اليوشا: إنها فكرة حسنة فيجب أن نكرر فت الخبز على القبر.

فبادر الكابتن إلى القول، وكأن الفكرة قد ابهجته: «بل كل يوم، كل يوم!»

وأخيراً وصلوا الكنيسة ووضعوا التابوت في وسطها. وقد أحاط به الصبية وظلوا واقفين يحرسونه باجلال حتى انتهاء صلاة الجنازة. وكانت الكنيسة قديمة غير فخمة، وكان عدد كبير من ايقوناتها معلقاً بدون أطر. وأمثال هذه الكنيسة هي خير مكان للصلاة والعبادة. وقد عرف سنيغيريوف بعض الهدوء اثناء الصلاة، إلا أنه كان يبدو احياناً يعاني من ذلك القلق الباطني الذي لا تفسير ظاهرياً له. ففي لحظة من اللحظات اتجه إلى التابوت لكي يصحح وضع غطائه، واكليل الزهر فوقه، واسرع في لحظة أخرى إلى شمعة سقطت من شمعدانها يبغي اعادتها إلى مكانها، فشغله هذا العمل دقائق عديدة ثم هدأ ووقف مذعناً قرب التابوت وفي تعابير وجهه آيات الذهول والقلق والحيرة. وبعد تلاوة الانجيل، همس فجأة في أذن اليوشا أن ما قرىء من الإنجيل لم يتم حسب الأصول، ولكنه لم يوضح معنى قوله هذا. وهو قد انضم خلال الصلاة إلى جوقة المرنمين «كأنه ملك من الشيروبيم» ولكنه ما لبث أن انقطع عن متابعتهم، وخرّ على ركبتيه ساجداً حتى لامس جبينه أرض الكنيسة العارية وظل ساجداً مدة طويلة من الزمن.

وأخيراً حان موعد صلاة الجنازة نفسها، ووزعت الشموع على المصلين، فعاد الاب إلى اضطرابه. غير أن الأصوات الجنائزية المؤثرة نفذت إلى روحه فبدا فجأة كأنه ينطوي على نفسه وأخذ ينشج نشيجاً متقطعاً حاول كبته في أول الأمر، ولكنه ما لبث أن أفلت لصوت بكائه العنان. وعندما حان وقت الوداع الأخير واقفال التابوت، بسط ذراعيه فوقه وكأنه يرفض أن يفقد رؤية إيلوشا وطفق يقبل ابنه الميت على شفتيه قبلات نهمة متصلة، وأخيراً أفلحوا في تهدئته واستطاعوا أن يبعدوه عن التابوت، لكنه مد ذراعه فجأة بحركة غير شعورية باتجاه التابوت واختطف منه بضع زهرات وراح يتأملها وكأن فكرة جديدة أنارت عقله، حتى بدا جلياً أنه نسي حزنه دقيقة من الزمن. وانغمس تدريجياً في تأمل عميق، فلم يبد أية مقاومة عندما رفع التابوت ونقل إلى القبر. وكان القبر قريباً من الكنيسة وكانت كلفته باهظة، وقد

تبرعت كاترينا ايفانوفنا بها. وبعد انتهاء الطقوس المألوفة بدأ حفارو القبور ينزلون التابوت في القبر. وكان سنيغريوف لا يزال يحمل الزهور بيديه، وقد بلغ انحناؤه باتجاه القبر أن خاف الصبية سقوطه فيه فأمسكوا بمعطفه وجذبوه إلى الوراء، وبدا عليه أنه لم يفقه كل ما كان يجري حوله. وعندما بدأوا يهيلون التراب فوق القبر، اشار بغتة بحركة تنم عن القلق، إلى التراب المتساقط فوق التابوت، ودمدم بكلمات غامضة لم يستطع أحد أن يفهمها ثم ما لبث أن صمت فجأة. وعندئذ ذكره بعضهم بقطعة الخبز، فاضطرب اضطراباً رهيباً، واخرج قطعة الخبز من جيبه وبدأ يفتها وينثر فتاتها فوق القبر، وهو يتمتم: «هلمي، أيها الطيور، اهبطي، يا طيور الدوري اهبطي!»

وقد لاحظ أحد الصبية أن وجود الزهور في يديه كان يعيقه عن فت الخبز، فاقترح عليه أن يحملها عنه ريثما يفرغ من هذا العمل، ولكنه أبى أن يسلمها إلى أحد بل إن الفزع بدا عليه بغتة، كأنهم كانوا يريدون أن يسلبوه الزهور. وبعد أن القى نظرة على القبر وكأنه اطمأن إلى أن كل شيء قد تمّ استدار فجأة، وانطلق عائداً إلى المنزل بخطوات متئدة. غير أنه ما لبث أن اسرع في السير حتى كاد يعدو. وقد تبعه اليوشا والصبية، حتى ادركوه.

واخذ بغتة يهتف قائلاً: «هذه الزهور لزوجتي، إنها لها! لقد اسأت إليها».

وقد ناداه أحدهم لافتاً إياه أن يضع قبعته على رأسه اتقاء للبرد. ولكنه ردّ غاضباً بأن ألقى قبعته على الصقيع وهو يردد: «لست اريد القبعة، إنني لا اريدها». وقد التقطها سموروف وسار خلفه وهو يحملها بيده وكان جميع الصبية خلفه يبكون، ولا سيما كوليا وكارتا شوف. وكان سموروف يبكي بكاء مراً، وهو ما زال يحمل قبعة الكابتن، ومع ذلك فإنه تمكن من التقاط قطعة من الآجر الأحمر كانت ملقاة في الثلج، وقذف بها سربا من طيور الدوري كان يطير على مقربة منهم، فأخطأه بطبيعة الحال، وركض ليلحق بالركب باكياً. وفي منتصف الطريق توقف سنيغريوف عن السير بغتة، وظل ساكناً في وقفته زهاء نصف دقيقة، ثم استدار كأنه تذكر أمراً ما ومضى نحو الكنيسة واخذ يعدو نحو القبر، ولكن الصبية لحقوه بسرعة فأدركوه واحاطوا

به وقطعوا عليه الطريق. وعندئذ هوى على الثلج مهدود القوى ثم اخذ يصيح منتحباً بأعلى صوته: «إيلوشا، يا صديقي القديم، يا صديقي القديم العزيز!». وحاول اليوشا وكوليا أن يقنعاه بالنهوض ويهدئا روعه.

وتمتم كوليا قائلاً: كف عن هذا، أيها الكابتن، فالرجل الشجاع يجب أن يصمد للمحن.

وقال اليوشا: حذار أن تتلف الزهور، فزوجتك تنتظرها. إنها الآن في البيت تبكي لانك لم تعطها زهرة واحدة. وهناك أيضاً ما زال سرير إيلوشا الصغير.

فصاح سنيغيريوف وكأنه تذكر زوجته فجأة: «نعم، نعم، زوجتي!» ثم أضاف: سيأخذون السرير؛ سيأخذون السرير. قالها مذعوراً متوهماً أن أحداً ينوي أخذ السرير. وقد نهض وتابع سيره عدواً إلى المنزل. ولم تكن المسافة بعيدة، فوصلوا جميعهم معاً. وفتح سنيغيريوف باب الغرفة بسرعة ونادى زوجته التي لقيت منه في الصباح كل تلك القسوة:

«زوجتي؛ أيتها الحبيبة المقعدة المسكينة، لقد ارسل إليك إيلوشا هذه الأزهار». وناولها ضميمة الزهر الصغيرة التي تهشمت اثناء تمرغه فوق الثلج، لكنه رأى في تلك اللحظة، حذاء إيلوشا الصغير قرب سريره في زاوية الغرفة، وكانت صاحبة المنزل قد رتبت وضعه قرب السرير؛ وهو حذاء عتيق جداً ومرقع في أكثر من موضع، فما أن رآه، حتى مد يديه واندفع نحوه، فخر على ركبتيه، واختطفه وأخذ يلثمه بنهم وهو يصيح: «إيلوشا، أيها الصديق القديم؛ أيها الصديق القديم العزيز، أين قدماك الصغيرتان؟»

ثم صاح الرجل المعتوه بصوت يفتت الاكباد: «إلى أين أخذتموه، إلى أين أخذتموه؟» وأخذت نينا تبكي أيضاً.. فخرج كوليا مسرعاً من الغرفة؛ وتبعه بقية الصبية. وأخيراً خرج اليوشا أيضاً، وقال مخاطباً كوليا: لا بأس عليهم الآن من البكاء، وليس في وسعنا الآن ادخال العزاء على قلوبهم، لننتظر هنا بضع لحظات ثم نعود إليهم.

فقال كوليا مؤمناً على كلامه: كلا، ليس في وسعنا ذلك، إنه شيء رهيب، ثم خفض صوته لئلا يسمعه أحد غير اليوشا: هل تدري، يا

كرامازوف، إنني أشعر بأسى عظيم. آه لو كان بوسعي أن أعيده إليهم مقابل كل ما لديّ في هذه الدنيا.

فقال اليوشا: وأنا كذلك.

- ما رأيك يا كرامازوف، أيحسن بنا أن نعود إليهم الليلة؟ أنت تعلم أنه سينكب على الشراب حتى يسكر.

- قد يسكر فعلاً. ويكفي أن نعود أنت وأنا فقط فنقضي معهم ساعة من الزمن؛ مع الأم ونينا، لأننا إذا عدنا جميعاً سنذكرهم بكل شيء.

- إن صاحبة المنزل تهيء لهم المائدة الآن. إنها وليمة لاحياء ذكرى الميت. ها قد أتى الكاهن. هل نعود إلى الوليمة يا كرامازوف؟

فقال اليوشا: بطبيعة الحال.

- كم هو غريب، يا كرامازوف، أن يتلو مثل هذا الأسى العظيم تقديم الكعك والفطائر؟ إنه أمر غريب عن ديننا.

فقال كارتاشوف، بصوت عال: وسيقدمون سمك السومون أيضاً.

فصاح به كوليا متضايقاً: ارجوك رجاء حاراً يا كارتاشوف، ألا تعود إلى مقاطعتي بملاحظاتك الحمقاء، ولا سيما إذا كنت لا أخاطبك ولا اكترث لوجودك أو عدمه. وقد اصطبغ وجه الصبي بلون قرمزي ولم يجرؤ أن يجيب.

وكانوا في تلك الأثناء يسيرون سيراً وئيداً على الطريق، فصاح سموروف بغتة:

ها هي صخرة إيلوشا، التي كان يريد أن يدفنوه تحتها.

وقفوا جميعاً ساكنين قرب الصخرة. وكان اليوشا ينظر إليها وقد استعاد في خياله صورة سنيغيريوف في ذلك اليوم، وهو يصف له، كيف كان إيلوشا يعانق أباه وهو يبكي ويقول: أبت، ابت، ما اعظم اهانته لك. وأحس بشعور يثور في نفسه فجأة. فأخذ ينقل نظره بين تلك الوجوه الفتية النضرة، وجوه رفاق إيلوشا، وقد ارتسمت على محياه امارات الجد والإخلاص، وقال لهم:

أيها الرفاق، أود أن اوجه لكم كلمة في هذا المكان بالذات.

تحلق الصبية حوله واخذوا ينظرون إليه بانتباه وترقب، فقال: أيها

الرفاق، عما قريب سنفترق. وسأقضي الفترة المقبلة مع أخوي، واحد منهما سيرحَل إلى سيبريا، والثاني يعاني سكرات الموت. ولكنني سأغادر هذه المدينة قريباً، وربما غبت عنها طويلاً، وهكذا فإننا سنفترق. فلنتعاهد هنا، عند صخرة إيلوشا المحببة له، على ألاّ ننسى قط إيلوشا بعضنا بعضاً. ومهما واجهنا من أحداث في الحياة، وحتى لو دام فراقنا عشرين عاماً، علينا أن نذكر دوماً كيف دفنا الصبي المسكين الذي قذفناه ذات يوم بالحجارة، قرب الجسر الصغير، هل تذكرون ذلك؟ وكيف أننا فيما بعد انقلبنا نحبه. لقد كان صبياً طيب القلب شجاعاً، ثار لشرف والده، وشعر بالاهانة القاسية التي ألحقت به، وانتفض مدافعاً عنه. ولذلك يجب أن نذكره أيها الرفاق طيلة حياتنا. وحتى لو شغلتنا أكثر الأمور خطورة، ولو بلغنا مناصب عليا، أو فاجأتنا نوائب عظيمة، فلنذكر أننا سعدنا خلال الأيام التي قضيناها معاً في هذه البلدة، بشعور موحد طيب جعلنا في الفترة التي أحببنا فيها ببراءة الصبي المسكين، خيراً مما نحن في الحقيقة. أيتها الحمامات الصغيرة، اسمحوا لي أن ادعوكم هكذا، فأنتم تشبهون تماماً تلك الحمامات الزرقاء الجميلة، في هذه اللحظة، وأنا انظر إلى وجوهكم الطيبة الحبيبة. أيها الاطفال الاعزاء، قد تعجزون عن فهم ما أقوله لكم، لأنني كثيراً ما يكون تعبيري مضطرباً غامضاً، لكنكم ستذكرون أقوالي على أي حال وستقرونني عليها في وقت ما. يجب أن تعلموا أنه ليس في الحياة ما هو أقدس وأقوى وأطهر من ذكرى طيبة، ولا سيما إذا كانت من ذكريات الطفولة، وذكريات الوطن. إن الناس كثيراً ما يتحدثون إليكم عن تربيتكم وعلمكم، ولكن ذكرى محبة مقدسة احتفظ بها الإنسان من أيام الطفولة لهي خير من ارفع درجات التعليم. إن مثل هذه الذكرى لهي كافية أن تكون وسيلة لخلاص الإنسان حتى ولو لم يبق منطبعاً في فؤاده، سواها. وقد نتحول فيما بعد إلى أناس اشرار، وقد نعجز عن مقاومة افعال السوء وقد نسخر من الناس ومن أولئك الذين يقولون كما قال كوليا قبل لحظات: «إنني أريد أن أشقى في سبيل الناس». وقد يبلغ بنا الأمر أن نسخر بخبث من أمثال هؤلاء الناس، ولكن مهما تبلغ شرورنا ـ لا قدّر الله ـ فعندما نذكر يوم دفنا ايلوشا، وحبنا له في أيامه الأخيرة، وحديثنا كالاصدقاء عند هذه

الصخرة، فإن أقسانا قلباً وأكثرنا تهكماً ـ إذا قدر لنا أن نكون قساة هازئين ـ لن يجرؤ في قرارة نفسه أن يسخر من العاطفة السامية والشعور النبيل الذي تملكه في هذه اللحظة! وأكثر من هذا، فمن يدري أن هذه الذكرى ربما عصمت الواحد منا من بلاء عظيم، حتى إذا ما تذكرها عاد إلى نفسه، وقال: نعم لقد كنت طيباً شجاعاً شريفاً! قد يضحك في قرارة نفسه، فلا بأس عليه، لأن الإنسان غالباً ما يضحك من الأمر الطيب الرحيم، من باب التندر في لحظة سهو. ولكنني اؤكد لكم أيها الصبية بانه في لحظة الضحك تلك، سيقول في نفسه: كلا، إنني مخطىء في الضحك لأن هذا ليس أمراً يدعو إلى الضحك.

فقال كوليا وقد تألقت عيناه: إن الأمر كما تقول، إنني أفهم قصدك يا كرامازوف.

وتحمس الصبية أيضاً، وارادوا أن يقولوا أشياء ولكنهم أمسكوا عن الكلام، وظلوا يصغون إلى أقوال الخطيب باهتمام وانتباه.

ومضى أليوشا قائلاً: إنني أقول هذا القول على فرض أننا أصبحنا أشراراً، ولكن ليس هناك ما يحتم علينا أن نكون اشراراً، أليس هذا صحيحاً أيها الأصدقاء؟ لنكن قبل كل شيء اخياراً ثم شرفاء، وبعد ذلك لا ننس بعضنا بعضاً! إنني أكرر هذا، وأنا من جانبي أعاهدكم بأنني لن أنسى أي واحد منكم قط، سأذكر كل وجه من وجوهكم الناظرة إلي الآن ولو بعد ثلاثين عاماً. قبل قليل، قال كوليا لكارتاشوف أنه لا يكترث لوجوده أو عدمه، لكنني لن استطيع أن أنسى أن كارتاشوف موجود وأنه لا يشعر بالخجل الآن، كما حدث له حين اعلن عن معرفته لأسماء مؤسسي طروادة، بل أنه ينظر إلي بعينيه الفرحتين الصغيرتين.

أيها الصبية، يا اصدقائي الأعزاء. لنكن جميعاً كرماء شجعاناً كايلوشا، ولنكن حاذقين شجعاناً كرماء مثل كوليا (الذي سيزداد حذقاً ومهارة كلما كبر) ولنكن جميعاً متواضعين حاذقين ولطفاء مثل كارتاشوف ولكن ما بالي اقصر حديثي عليهما! إنني احبكم جميعاً منذ هذا اليوم. وفي قلبي متسع لكم جميعاً، وارجوكم أن تفسحوا لي مكانا في قلوبكم! ومن ذا الذي وحدنا في هذه العاطفة التي لن ننساها طيلة حياتنا؟ من هو إن لم يكن إيلوشا، ذلك

الفتى الطيب العزيز الغالي علينا جميعاً إلى الأبد! لنحرص على أن لا ننساه ولتظل ذكراه حية في قلوبنا دائماً وابداً.

فصاح الصبية باصوات مجلجلة، ووجوههم تفيض عاطفة وبشراً: نعم، نعم، دائماً وابداً.

- لنذكر وجهه، وثيابه، وحذاءه، وتابوته، وأباه التعيس الخاطىء، ولنذكر جرأة إيلوشا إذ هب ينافح عنه وحيداً في وجه تلامذة المدرسة جميعاً.

وصاح الصبية قائلين: سنذكره، سنذكره، لقد كان شجاعاً وكان طيباً!

وهتف كوليا قائلاً: ما كان أعظم حبي له!

- اواه أيها الأطفال، أواه يا اصدقائي الاعزاء، إياكم والخوف من الحياة! ما أجمل الحياة عندما يحقق الإنسان فيها عدلاً وخيراً.

فقال الصبية مندفعين: نعم، نعم، صدقت.

وتعالى صوت أحد الصبية وربما كان صوت كارتاشوف: كرامازوف، إننا نحبك!

وردد الصبية قوله: إننا نحبك، إننا نحبك! وكانت الدموع تتألق من عيون الكثيرين منهم.

وصاح كوليا قائلاً: مرحى لك يا كرامازوف.

وأضاف اليوشا يقول منفعلاً: ولتعش ذكرى الصبي العزيز إلى الأبد!

فقال الصبية من ورائه: إلى الأبد!

ثم قال كوليا: كرامازوف، هل صحيح ما يعلمنا إياه الدين بأننا سنبعث احياء، وسنرى بعضنا بعضاً وإيلوشا أيضاً يوم القيامة؟

فأجاب اليوشا مبتسماً متحمساً: يقيناً سنبعث احياء، ولا شك في أننا سنرى بعضنا بعضاً، وسنقص على بعضنا بعضاً ونحن سعداء، كل ما حدث لنا في حياتنا.

فقاطعه كوليا قائلاً: آه، ما اروع هذا!

وهنا قال اليوشا ضاحكاً: والآن كفانا كلاماً، سنمضي إلى مأدبة إحياء ذكرى الميت، ولا تستهجنوا إذا أكلنا الكعك، فهي عادة قديمة، لا تخلو من

الجمال. والآن فلنمض، وايدينا متشابكة!

وعاد كوليا إلى القول بحماسة: وسنظل هكذا دائماً، ستظل ايدينا متشابكة إلى الأبد، مرحى يا كرامازوف!

وردّد الصبية بصوت واحد: مرحى يا كرامازوف!

